

837 75

201

100

100

الإدب في العصر الفاطمي الكتابة والكتاب



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)

دكتور
محمد خليل سليم
Bibliotheca Alexandrina

بالتاريخ
892/1000
1000
1000

الناشر // **منشأة** في الإسكندرية
جلال حزي وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حذى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

البحث في تاريخ آداب مصر والمنطقة العربية المحيطة والتي اتصلت بها اتصالاً مباشراً عبر التاريخ منذ أقدم العصور وطوال العصور العربية والإسلامية منذ الفتح وحتى الآن مفيد لا للمعرفة وحدها ، وكشف النقاب عن آداب مصر العربية والإسلامية وحسب ، بل للتعرف على عناصر الأصالة في مجتمعا ، ومكوناته البشرية والفكرية والحضارية ، إذ أن كثيراً من عناصر هذه الأصالة في الشخصية المصرية إنما تمتد بجذورها إلى تلك الآفاق البعيدة .

ومعروف أن تاريخ كل أمة من الأمم تاريخ موصول ماضيه بحاضره ، وأن بنور القيم الاجتماعية ، والعقدية ، والثقافية بذرت في الماضي على أرض هذه الأمة لتنتج على مدى الأيام والأزمنة نباتها وتثمر ثمارها ، يمدّها روافد من هنا وهناك فتتخذ صفة ، أو لوناً ، أو طابعا بعينه لا يغير من أصالتها ، ولا يمحو طبيعتها التي استنبتها أرضها ، وغذاها ترابها .

ولما كانت الهوية العربية هذه الأيام ، والهوية المصرية بصفة خاصة قد تعرضت لكثير من العواصف العاتية نتيجة لحركات ، وانفعالات زلزلت من كيان المجتمع وهزت جوانبه هزاً عنيفاً حتى كاد المراقبون يتوهمون أنها قد عصفت بأصوله واقتلعت جذوره ، فأصبح مجتمعا بلا هوية ، وصارت التيارات تتجاذبه إلى اليسار حيناً وإلى اليمين حيناً ، إلى الشرق ساعة وإلى الغرب ساعة ، ظانين أنه قد فقد جذوره التي تمسكه إلى الأرض .

والجيل الجديد من مثقفينا وقد باعدت بينه وثقافته العربية الإسلامية الجادة عوامل عدة ، منها مرحلة التشكيك في الهوية الإسلامية حيناً والهوية العربية حيناً ، والهوية المصرية أحياناً . لم يعد يتعرف طريقاً يهديه إلى ذاته من هو ، وعلى أى أرض تقف به قدمه ١٩ .

بل إن بعضاً من مثقفينا — واعين أو غير واعين — سلكوا طريقاً يكرسون فيه هذا الضياع وأعملوا أعلامهم لبث الشتات ، وهدم الذات جرياً وراء ما يسمى بالوحدة

في العربية ، أو الأهمية الدولية ، أو الأهمية الإسلامية .

ولا أنكر أقالماً وطنية مغلصة ظلت تمسك بهويتها المصرية ذات الأبعاد الثلاثة المصرية والعربية والإسلامية ، أى أن تتمسك بأن تظل اخوية مصرية ذات صفات مكتسبة عبر التاريخ .

وفي مجال الفكر والأدب حاول رجال مؤمنون بوطنهم أن يبرزوا ملامح هذه الشخصية المصرية في الفكر والأدب العربى ، وبحوثاً جادين مخلصين متفانين منكرين لذواتهم أن يوصلوا هذا الاتجاه مما منحوه من فكرهم وجهدهم ولا أنسى أن أشير من رواد هذا الاتجاه إلى الأستاذ أمين الخولى ، والدكتور محمد كامل حسين والزميل الدكتور حسين نصار ، والدكتور عبد اللطيف حمزة .

فقد دأب هؤلاء الرواد الأجلاء على بعث الروح المصرية في الأدب العربى ، والكشف عن أصولها في تاريخ الأدب ، وإلقاء الضوء على جهود مصر والمصريين في العطاء العربى والإسلامى بعد أن تناساها الناس عامدين أو غافلين .

ولاشك أن عودة الروح المصرية إلى أبناء مصر عبر العصور ومن خلال أحياء هذا التراث المصرى الأصيل في الأدب العربى دَعَمٌ للذاتية المصرية ، ومحاولة لبناء الشخصية المصرية المعاصرة ، وجمع لشتاتها الممزقة بين الهويات لتلصم في وحدة واحدة متماسكة هى « مصر » .

ونحس بالجهد الذى تبذله القيادة السياسية في مصر لإعادة هذه الشخصية فيما ترفعه من شعارات « مصر أولاً » ، « مصر حبنا » ، « صنع في مصر » ، « الصحوة » . وما إلى ذلك مما يدل على أن فلسفة أو « أيديولوجية » جديدة تتركز فيها إعادة الروح إلى مصر والمصرية قد أخذت طريقها إلى الوجود مرة أخرى على الساحة .

وليس معنى عودة هذه الأيديولوجية فصل مصر عن وطنها العربى بالضرورة بل إن عودة هذه الأيديولوجية تقوية للدور المصرى في الوطن العربى فهو شحذ للشخصية المصرية لتحسن العطاء ، وليعود للجسد قوته التى تمكنه من أن يجمى ، ويسيد ، بعد أن أزهقته الأيديولوجيات وأضلته الشعارات الزائفة ، حتى حلت جسده ولم يعد قادراً على العطاء لا لنفسه ولا لغيره .

ولا حاجة إلى أن نعبء التذكير بأن مصر القوية كانت دائماً درعاً لنفسها ولمن حولها ، وكانت نبعاً ثراً ، يكفل الحياة لهذه الأرض بما يمدها به من غذاء الحياة .

عاشت مصر إذاً مرحلة طويلة من تاريخها المعاصر منكراً لذاتها ، وامتد هذا الإنكار للذات إلى جوانب الفكر والأدب . وكان الدرس الأدبي في معاهدنا وجامعاتنا قاصراً على العصور العربية إبان اكتمال الدولة العربية ووحدة أيام حكم دولة الراشدين بالمدينة والأمويين بدمشق والعباسيين ببغداد .

ولم يتطرق الدرس إلا نادراً لعصر الدويلات بعد القرن الثالث الهجري ، أى بعد تقسيم الدولة العباسية إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة أو إمارات لا تخضع للدولة في بغداد ، إلا خضوعاً شكلياً يتمثل في اختطبة ، ودفع جزء من الخراج .

وهكذا نشأت الدولة الأموية في الأندلس والدويلات في المشرق والمغرب ، والإمارات في مصر والشام والحجاز وفارس .

وتأثر الأدب والفكر العربي والإسلامي في أنحاء الدولة العربية الإسلامية بالثرات العربية الإسلامية مكونة تلونه من البيئة ، وتوجهه وجهات معينة ، أو ترك به آثاراً تميز كل بلد عن غيره . ومن هنا بدأت ملامح إقليمية تبرز للدارسين لآداب العصور المتأخرة في الدولة العربية الإسلامية . أو في عصر عرف بعصر الدول والإمارات ، أو عصر الدول المتتابعة .

ففى أقصى الشرق ظهرت القومية الفارسية بوضوح وأطلت الثقافة الفارسية والحضارة الفارسية ، بل واللغة الفارسية لتصبغ الفكر الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية بصبغها الخاص والمميز ، وإن كان هذا الصبغ لم يغيب عن حضارة الإسلام منذ فتح العرب لفارس وإن وقف في وجهه الأمويون ، ولكنه عاد من جديد ليفرض وجوده في عهد العباسيين حتى يبرز صبغاً فارسياً صارخاً يسعد فيه جماعة من المفكرين والأدباء الفرس مجد حضارتهم القديمة بإعادة لغتهم إلى الوجود لغة للفكر والأدب . ونبغ شعراء أمثال رودكى والفردوسى ونظامى السمرقندى ، وسنائى ، وحافظ الشيرازى وغيرهم .

كما ظهرت فى أقصى الغرب فى دولة الأمويين بالأندلس ملامح أدب عربى جديد اصطلاح فى تاريخ الأدب العربى على أنه أدب الأندلس ، وكان له صبغ خاص ،

ظهرت علاماته ، في ألوان من الأدب لم تكن معروفة في المشرق العربي كالموشح وإن كانت ملاح هذا الأثر غير واضحة وضوح الأثر الفارسي لاحتفاظ العرب في الأندلس بأصالتهم العربية ، وإن تأثروا بالبيئة الأندلسية والمحيط الحضارى لشبه جزيرة الأندلس وأهلها من الفرنجة اللاتين الذين ينتمون إلى شعوب الشمال في أوروبا والشواطئ الشمالية للبحر المتوسط . كذلك كان الحال في بلاد المغرب وشمال أفريقيا .

وأظهرت الدراسات الأدبية ما عرف بأدب المغرب والأندلس ، ودرّس بالجامعات ودور العلم العربية وغير العربية تحت هذا الاسم ، وحاول الباحثون في مجال ذلك الأدب البحث عن خصائص وملاح تميزه عن أدب المشرق ، وربما كانت محاولات المحدثين امتداداً لمحاولات أدباء المغرب والأندلس أنفسهم لإثبات ذاتهم خلال عصور التاريخ العربي والإسلامي في مواجهة غلبة المشرق ، وعلى اعتبار أن العلم العربي الإسلامي علم وافد من المشرق إلى المغرب ، فيصبح العلم عند المغاربة والأندلسيين علماً تابعاً ، وكذلك أدبهم أدب مقلد ، ومن هنا كانت قلة المشاركة عند ورود كتاب « العقد الفريد إليهم » : بضاعتنا ردت إلينا .

ولكن الأندلسيين والمغاربة مع ذلك لم يرتضوا لأنفسهم ولا لأدبهم أن يكون بضاعة مزجاة ، أو تقليداً للمشرق ، ولا أن يكتفوا بمقامهم في الظل ، ويكون الأمر كله للمشرق . وكانت هذه عقدة المغاربة والأندلسيين في تاريخ العرب والمسلمين: الشعور بالنقص حيال الشرق ومحاولة مغالبة هذا الشعور بشتى الطرق فألفوا من الكتب ما ينتصرون به لعلمهم وأدبهم ، وكان كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، وكان كتاب « المطرب » لابن دحية ، وكتاب نفح الطيب للمقرئ وغيرها من الكتب التي حاولت أن تبرز للأندلسيين والمغاربة دوراً مميزاً ، وملاح خاصة في ركب الحضارة العربية الإسلامية .

ومصر وسط هذين التيارين المشرق والمغربى الأندلسي وقفت بين بين ، فقد اعتبرها المغاربة من المشرق ، بينما اعتبرها المشاركة باب المغرب ، وعلى هذا الاعتبار كانت نظرة صاحب اليتيمة الثعالبى في دراسته لأدب أقاليم الوطن العربي والإسلامي في عصره في القرن الرابع وأوائل الخامس ، وسار على دربه من اتبع منهجه في دراسة أدب الأقاليم كالبأخرزى صاحب دمية القصر ، وعماد الدين الأصبهاني صاحب الخريدة .

وابن سعيد صاحب المغرب .

على أن المصريين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا ذليلاً للمشرق الإسلامى حيناً وطليعة للمغرب حيناً، ففعلوا ما فعل المغاربة والأندلسيون بإثبات ذاتهم المصرية وسط التيارين الكبيرين .

وبدأت هذه الذات المصرية تطل من خلال التاريخ الأدنى منذ بدأت تستقل كإمارة لها كيانتها الذاتى كغيرها من الإمارات العربية والإسلامية التى استقلت عن الدولة العربية ، وكان ذلك منذ عصر الطولونيين فى النصف الثانى من القرن الثالث .

فقد حاول أحمد بن طولون وخلفاؤه أن يجعلوا من مصر إمارة لها كيانتها المادى والفكرى ولها طابعها الخاص بين بلدان الخلافة الإسلامية ، وساعد على هذا بالضرورة ماضى مصر الحضارى وإمكاناتها المادية والبشرية ، وطبيعة أرضها المتميزة بالنيل والشعب الذى يسكن على ضفتيه .

ومنذ عصر الطولونيين شعر المصريون بكيانهم الذاتى ، وإن لم يكن هذا الشعور خافياً أو ضائعاً فى العصور السابقة ، بل إن دورهم كان فى الأحداث معروفاً طوال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامى . إلا أن هذا الدور بدأ يتأكد ويأخذ طريقة إلى الوجود منذ عصر الطولونيين ، واستمر يتشكل وينمو شيئاً فشيئاً فى عهد الإخشيديين حتى جاء عصر الفاطميين ، فكانت مصر مهياًة لأن تأخذ مكانتها وتقف بارزة بمكانها بين أخواتها فى المشرق والمغرب وازدادت هذه المكانة رسوخاً ، فى عصر الفاطميين ، بعد أن جعلوا من القاهرة عاصمة لمصر وقاعدة للخلافة الفاطمية التى ضمت كثيراً من البلاد العربية والإسلامية فى المغرب والمشرق ، بل وتناجرت الخلافة العباسية فى بغداد وكادت أن تأخذ منها راية القيادة ، بل إن الخطبة للخليفة الفاطمى أقيمت بعض الوقت فى بغداد على يد أحد الدعاة على ماسنينه فى موضعه .

أخذت مصر إذا فى عصر الفاطميين وضعاً قيادياً فى العالم العربى والإسلامى ناهضت به العراق وفارس ، وظلت المناجزة بين العباسيين فى بغداد ومن يدعمهم من دول الفرس والديلم الترك وعرب الشام والجزيرة وبين الفاطميين فى مصر ومن يدعمهم من المغاربة وعرب الحجاز واليمن .

وفي ظل هذا الكيان السياسى للدولة الفاطمية أو الإمبراطورية الفاطمية كانت مصر موضع الثقل السياسى والثقافى والحضارى لهذه الإمبراطورية وبنيت لنفسها على مدى سنوات هذه الدولة التى قاربت قرنين ونصف من الزمان شخصية سياسية وحضارية وثقافية مميزة . حتى إن خلفاء الفاطميين قد عرفوا مع رجالهم فى كتب التاريخ والتراث لهذه المرحلة باسم المصريين .

حاولت فى الفكر وميادين الثقافتين الدينية الإسلامية والعربية أن أبين سماتها ومهما قيل عن المذهب الفاطمى الإسماعيلى وعن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية من أن أصولها مستمدة من المشرق أو المغرب ، فإن هذه الدعوة تمكنت ، وآتت ثمارها واستحصدت فى مصر بما أقامه خلفاء الدولة من دعائم لهذه الدعوة تمثلت فى دور الكتب ، ودور العلم ، والدعاة والعلماء . ولاشك أنهم عثروا فى مصر على ضالتهن من الرجال الذين ثبتوا أركان الدولة على اختلاف مللهم وعقائدهم ، إلا أنهم كانوا مصريين ، كاليهودى يعقوب بن كلس ، ومنشأ والنصارى من أمثال عيسى بن نسطورس .

ولاشك أن المصريين على اختلاف نحلهم من مسلمين ونصارى ويهود قد شاركوا فى بناء الطابع المصرى للفكر والثقافة الإسلامية فى هذه المرحلة ، فضلاً عما أضافه المغاربة كعنصر بارز بتلاحمهم مع الدولة وتلاحم المصريين معهم أرضاً وثقافة .

وطبيعى أن الشخصية المصرية فى هذه المرحلة من الحضارة العربية الإسلامية قد أفادت من جهود كثيرة سابقة فى الفكر العربى والإسلامى ، دخلت البوتقة المصرية ، فأنتجت لوناً جديداً أثرى تيار ذلك الفكر وأضاف إليه إضافات كثيرة ، كما أضاف الأدب بعطائه الكثير للأدب العربى وأمدته بتيار لاينكر كانت له أثاره البعيدة فى الأدب المصرى بعد ذلك ، والأدب العربى عامة فى مشرق العالم العربى والإسلامى ومغربه .

وظلت آثار هذا كله طوال عصور الأيوبيين والمماليك .

وحاول بعض الباحثين ممن كلفوا بإظهار دور وعطاء مصر فى الفكر والأدب أن يضعوا أيديهم على مفاتيح كنوز هذا الدور وكانت اجتهادات من سبق إلى دراسة الأدب العربى المصرى فى العصر الفاطمى باعتباره جزءاً من عصور الأدب المصرى أو أفراد هذا الدور بدراسة خاصة .

وكان للدكتور عبد اللطيف حمزة ، والدكتور محمد كامل حسين والدكتور حسين نصار وغيرهم دور كبير في كشف ملامح كثيرة للأدب المصرى عن طريق دراساتهم القيمة . وما أنجزوه من نشر لجوانب من كتب التراث في هذه المرحلة .

مثل كتب الدعوة والمجالس الفاطمية التي اختص بها الدكتور محمد كامل حسين ، وأخبار مصر للمسيحي الجزء الأدنى ، وأخبار مصر والقاهرة من المغرب لابن سعيد والجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب ، وكتاب خريدة القصر للعماد الأصبهاني . كما نشرت بعض دواوين شعراء العصر كديوان تميم بن المعز ، وديوان الشريف العقيلي، وديوان ظافر الحداد ، وديوان ابن وكيع التنيسى .

وخص بالحديث عن أدب الفاطميين بعض هؤلاء العلماء الأفاضل ، وكان في مقدمتهم الدكتور محمد كامل حسين في كتابه القيم « أدب مصر الفاطمية » ، وكتاب الدكتور حسين نصار عن ابن وكيع التنيسى ، وظافر الحداد ، وكتاب « مصر الشاعرة الفاطمية » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

وقد أفدت في هذه الدراسة من كل هذه الجهود وغيرها ، وأضفت إليها رؤية جديدة مما أتيح لى الاطلاع عليه من كتب جديدة كانت مخفية في زوايا النسيان وكشف عنها المحققون مثل كتاب الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت القيروانى ، والمجالس المؤيدية ، وعيون الأخبار في أخبار الدولة الفاطمية ، والأفضليات لعل بن منجب الصيرفى ، والجزء الخاص بالأدب في كتاب المسيحي عن تاريخ مصر ، وكتاب محاسن مصر والقاهرة .. إلى غير ذلك من المصادر والمنشورات النادرة التي لم تكن متاحة للباحثين السابقين .

ولم تكن الزيادة في مصادر المعرفة بالعصر الفاطمى والتراث الأدنى فيه وحدها التي حفزتني على الكتابة في أدب العصر ، بل هناك أسباب أخرى ، منها أن رؤيتي للأدب من خلال النصوص وحدها لاتعطى هذا الأدب قيمته الحقيقية ، بل إن وضع الأدب في بيئته وعصره ، واكتشاف خفايا العلاقة بين تلك البيئة والأدب شيء هام لتذوقه والتعرف على أسراره . بل واتخاذ صورة تعكس لنا طبائع الناس وحيواتهم في ظروفها بين النعيم والبؤس ، في حالات جدهم أو لهوهم ، مأسيتهم ونكباتهم ، وفترات سعادتهم وبلهنتهم .

كذلك يكشف لنا أدب العصر بدراسته متصلاً بظروف الحياة والبيئة مدى علاقة إنسان العصر بأرضه ، ووطنه ، وتمثله لعناصر ذلك الوطن ومظاهر شخصيته ومكوناته التى تفرقه عن غيره من الأوطان .

وللشعب المصرى الذى أبدع هذا الأدب ملامحه ، كما أنه بتلك الملامح عكس ذاتيته على ذلك الأدب أو ذلك اللون من الأدب العربى الذى ظهر فى مصر فى ذلك الوقت ، كذلك تفاعل المصرى مع غيره من أدباء الوطن العربى والإسلامى الذين وفدوا إليه أو ارتحل هو إليهم .

وتهم هذه الدراسة بإظهار هذا كله فى أدب العصر ، ولاتكتفى بتناول جانب دون آخر ، بل تتناول جميع تلك الجوانب فتضعها معاً فى تلاحم وتفاعل .

وقد تفجأنا فى عرضنا لعصور الحياة والأدب بعض المظاهر التى لانعتادها اليوم أو لانسيغها ، وكانت شائعة مستساغة فى وقتها ، كذلك قد تصدمنا بعض صور السلوك أو العادات والتقاليد التى كانت لها انعكاساتها الواضحة على الأدب ، ولانستحى من إيرادها إعمالاً لمبدأ عفة الكلمة ، أو حرجاً من مخالفة لبعض القيم التى تحكمنا والأخلاقيات التى درجنا على رعايتها .

ولو أنا حكمنا بمقاييس عصرنا فى هذه الأمور ، وحجبنا مالا نرضى عنه أو نحينه عن دائرة اهتمامنا ، ولم نعرضه كما كان ، نكون قد قصرنا فى واجب الأمانة فى الدرس ، ولم نوف الموضوع حقه ، ولم نستكمل كل جوانبه ، فيعود قاصراً غير مكتمل الصورة ، مشوهاً ، أو مسخاً ليس مطابقاً للواقع الذى نلمسه من خلال المصادر المتاحة . فنزيد بذلك قصوراً على قصور ، نزيد قصوراً من عندنا على قصور التاريخ وعبث الأهم بمصادر ذلك التراث التى لانكاد نتمكن من الإطالة الواضحة خلاله على العصر وأدبه .

وقد نال العبث مصادر هذا العصر حتى عادت الرؤية فيه غير واضحة وعاد الغموض يجلبه لولا ماتتكشف عنه الأيام من حين إلى حين ، وما يبذله الباحثون والدارسون من الجهد فى الإمساك بمصباح ديوجين للاهتمام به فى تلك الدجنة الخالكة التى اشتبهت فيها الأشياء ، واختلطت الظلام بالنور ، وتضاربت الأحكام .

ولعلنا فى نهاية هذا البحث نستطيع أن نبدد بعض هذا الظلام ، وأن نزيل اللبس فيه

فإذا بلغنا مطلبنا هذا نكون قد بلغنا قصداً نضىء به براساً لمن يأتي بعدنا للسير على هداه
حتى يواصل المسيرة ويبلغ بهيمته غاية أبعد من قصدنا .

الباب الأول

الحالة السياسية

الحالة السياسية

قام الفاطميون بدعوتهم في أخريات القرن الثالث الهجري ، وبدأت سرية ثم أعلنت في شمال أفريقيا بعد وثوقهم من قوتهم ، وتمت لهم السيطرة على أفريقيا من برقة إلى المحيط الأطلسي بأقصى المغرب ، واتجهت بعد ذلك أنظارهم إلى المشرق ، فزحفوا إلى مصر واستولوا عليها بعد أن حاولوا ذلك مراراً حتى تم لهم اتخاذها قاعدة للملكهم بعد فتحها على يد قائدهم المظفر جوهر الصقلي ، ونزوح المعز لدين الله إلى القاهرة عاصمة ملكه التي بناها قائده .

وكانت القاهرة قاعدة الدولة الفاطمية ومركز نشاطها السياسي والعسكري والفكري ، ومنها توجهت جهودهم السياسية ، وانطلقت جيوشهم وأساطيلهم للسيطرة على الشام وجزر البحر المتوسط ، ومقاومة الدولة العباسية والملتفين حولها من أمراء المشرق وزعماء القبائل العربية في الجزيرة وبلاد الشام وبادية العرب ، ومنها حاولوا السيطرة فكرياً وعقدياً على العالم الإسلامي عن طريق تأهيل الدعاة في مدارسهم وبخاصة في دار العلم أو دار الحكمة ودفعهم إلى مختلف بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ليثبتوا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويمهدوا بهذه الدعوة الدينية للسيطرة السياسية .

وكان لموقع مصر والقاهرة الأثر البالغ في تدعيم أركان الدعوة الفاطمية ، وشد أزر الدولة ، لما لها من ثقل حضارى ووضع جغرافى ومميز بتوسطها العالم الإسلامى ووقوعها في مفترق الطرق بين المشرق والمغرب ، والشمال والجنوب .

كذلك لما لمصر من أرض خيرة ، بفضل النيل ، وماأنعم به عليها من خيرات بفضل الله ، يفيض ، فيغدى النعمة ، وينبسط العيش ، ويلقى الناس بالفرحة ، فبه يغاثون ، ويزرعون ويحصلون .

واستطاع الفاطميون باقتدار أن يستغلوا موقع مصر وإمكاناتها الحضارية والبشرية والطبيعية في تدعيم دولتهم ، وبناء حضارة إسلامية زاهرة متميزة بهذا الفكر الفاطمى

الشيعة الأصول تمتد على بساط من الأرض يكاد يلتهم ما كانت تسيطر عليه الدولة العباسية من المغرب والمشرق حتى دقت عليها أبواب بغداد نفسها ، فخطب لأئمتهم حيناً على منابرهما ، ولو مد الله من عمر هذه الدولة وهياً لها جماعة من كبار الخلفاء الذين أتيحوا لها في بداية عهدها كالمعز والعزیز والحاكم لكان انشأن غير ما انتهى إليه الحال ، ولتغير وجه العالم الإسلامي .

ولكن لحكمة يعلمها الله ظل الصراع بين عنصري الدعوة الإسلامية أهل السنة والشيعة في حدود التوازن ، فلم يكتب الغلبة لأحدهما على حساب الآخر حتى جاءت موجة الصليبيين من الغرب لتقلع أظفار الفاطميين وتضعف من قوتهم في الشام بعد الصراع المتكرر بينهم والروم والبيزنطيين الذي لعبوا دوراً في تهديد الأرض للغزوة الصليبية بالشام .

ومهما يكن الموقف من الفاطميين ودولتهم بين مؤيد ومعارض ومنتصر لهم ، فقد لعبوا في تاريخ مصر والعرب والإسلام دوراً هاماً ظل ما يقرب من قرنين من الزمان تركوا فيه آثاراً لا تمحى وظلت بركة في الحياة والعقائد ، وفي الفكر والأدب وإن حاول معارضوهم تشويه هذا الدور ، ويحز آثاره ، واجتهدوا في ذلك على ما سنيته فيما يأتي من سطور وصفحات .

بدأت الدعوة الفاطمية إذا في أخريات القرن الثالث ، وقد آذنت وسائل التفكك وعوامل الضعف بتقليص سلطان العباسيين والاعتداع من دولتهم في المشرق والمغرب ، وبدأت الدويلات والإمارات تنفصل انفصلاً تاماً أو جزئياً عن مركز الدولة بالعراق . وتتابعت الثورات في أنحاء كثيرة بالجزيرة العربية بساحل الخليج وجنوب العراق وبادية الشام ، وفي أصقاع الشام ومصر واليمن ، وشمال أفريقيا .

وتعددت الدعوات السياسية والدينية ، واستغل الشيعة ضعف الدولة ونفذوا ما كانوا يخططون له من وراثة الخلافة على اعتبار أحقيتهم من العباسيين الذين أقاموا منكمهم على أساس الانتصار لهم والانتقام لقتل الحسين والعلويين واضطهادهم على أيدي الأمويين ، ثم احتازوا الملك والسلطان لأنفسهم ولم يكتفوا بذلك ، بل تعقبوا العلويين ، وحاربوهم وَتَكَلَّوْا بِهِمْ كما نكل الأمويون بهم بل أشد .

وثارت إذا جماعات وطوائف كثيرة لها يراث ندى العباسيين ، أو تدفعهم أطماع في الملك ، تشكلت في التاريخ الإسلامي بأشكال متعددة فمرة في شكل ثورة الزنج

بالبصرة ، أو دعوة القرامطة بالبحرين وبادية الشام ، أو دعوة الفاطميين بشمال أفريقيا ومصر .

وكانت الدعوة الفاطمية أخطرهما جميعاً على الدولة العباسية وأشدّها تهديداً وقد احتازت معظم بلاد العالم الإسلامي في وسطه ومغربه .

قال المقرئى : « فإنهم كانت اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة وملكوا من بني العباسى بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين ، واليمن وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة . » (١).

وتحدثت كتب التاريخ عن بدء الدعوة الفاطمية سرية في الشام ، ثم ظهر عبيد الله المهدي مؤسس دولتهم ، وجد المعز لدين الله على قول معظم المؤرخين وإن خالفهم بعض منهم قائلين إن جد المعز وأول أئمتهم العلنيين هو القائم ، ويشكك بعضهم في بنوة القائم لعبيد الله المهدي .

ودون الدخول في تفاصيل هذا الخلاف ولا في مناقشة أنسابهم وصحة دعوتهم وادعائهم الانتساب إلى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت النبی ﷺ واتخاذهم من هذا النسب شرعية الدعوة والإمامة ، والخلافة التي سلبت من جدهم على بن أبى طالب ظلماً — على قولهم . دون الدخول في تفاصيل هذا كله نجد أن عبيد الله المهدي هرب من الشام خشية افتضاح أمره إلى مصر حيث اختفى زمناً عن عيون العباسيين واتخذ طريقه إلى المغرب حيث وجد مجالاً لدعوته .

ويبدو أنه تمكن من ضم بعض قبائل البربر من شمال أفريقيا كقبيلة كتامة وصنهاجة ، فأصبحوا مؤمنين بدعوته ، ونصروه بسيوفهم وعددهم ومكنوا له من أفريقيا في غفلة من الدولة العباسية وضعفها عن أن تمد يدها في قوة لتقضى عليهم حتى استشرى أمرهم وكونوا دولة ، وأقام عبيد الله مدينة المهديّة بتونس وجعلها قاعدة له .

وأعقب المهدي (٢) القائم بأمر الله (٣) ، والمنصور (٤) بنصر الله ، ثم المعز لدين الله .

(١) الخطط ٣٤٩/١ .

(٢) تولى بالمهديّة سنة ٣٢٢ هـ ، كانت مدة خلافته اثنتى عشر عاماً وستة أشهر .

(٣) تولى سنة ٣٣٤ هـ .

(٤) تولى سنة ٣٤١ هـ ومدة خلافة ثمانى سنوات

ونلاحظ أن خلفاءهم اتخذوا لأنفسهم ألقاباً كما فعل العباسيون ، كلها تنبىء عن القيام بأمر الدين ونصره ، أو بتأييد من الله وقوته : فالمهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور والمعز لدين الله ، والعزير بالله ، والحاكم بأمر الله ، و ... إلخ . وكلها تنبىء كذلك عن شرعية الإمامة لدى كلٍّ منهم ، وأنها جاءت بالوصية من الإمام القائم ، أو بوحي وتوفيق من الله . وليست خلافة بيعة من المسلمين أو جماعتهم وأولى الرأي والمشورة فيهم .

وهذا السند الديني للإمام الخليفة يجعله حاكماً مطلقاً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فأمره مطاع ، وحكمه لا يراجع لأنه وحى أو شبيه به . وكما أن الخليفة أو الإمام الفاطمي يملك زمام السلطة الزمنية ، وحكمه فيها لا يرد ، كذلك هو يملك زمام السلطة الدينية وحكمه فيها لا يرد ، وله حق التفسير والتوجيه للنصوص الدينية مباشرة أو عن طريق الدعاة الذين يفضى إليهم سرّه فيعلنونه للناس في مجالس الدعوة .

وإذا ما قارنا بين ثلاث الدول الكبرى التي تعاصرت في هذه المنطقة ، وهي دولتان إسلاميتان وأخرى مسيحية : العباسية ، والفاطمية ، والبيزنطية . نجد أنها جميعاً تقوم على أساس ديني ، وإن تفاوتت فيما بينها في الشكل والسند أو الدستور الذي تقوم عليه . فالدولة العباسية إسلامية خلافة ، ليس للخليفة من حق إلهي ، وهو يتحكم بالبيعة من المسلمين ، ولهم حق الاعتراض عليه ، وليس شرطاً أن يتوارث الخلفاء منصب الخلافة وإن خالف التطبيق الحكم فكان العباسيون يتوارثون الخلافة كما فعل الأمويون ، وإن من بين ما اعتمدوا عليه سوى البيعة انتابهم إلى بيت النبوة ، واعتبروا الخلافة إراثاً ، كغيرها ، وجادلوا أبناء علي وفاطمة في أحقية العم العباس على الإبنة فاطمة في الميراث . فالخلافة العباسية وإن كان سندها الشرعي البيعة من المسلمين إلا أنها جعلت من حق الوراثة سنداً ثانياً لانتابهم إلى بيت النبوة . وهم لا يقولون بعصمة الخليفة ولا بحقه الإلهي ، ولا بالوصية .

أما الخلافة الفاطمية فهي إمامة دينية ، الخليفة فيها هو الإمام المعصوم الذي نال الخلافة بالوصاية . ولا حق للناس في خلافة أو معارضته ، كما أنه لا حق لهم في احتباره أو في بيعته ، فهو موصى إليه بالإمامة على الناس والقيام بأمر دينهم ودنياهم ، وهم يجبرون على الطاعة له والالتزام بأمره . وكل خارج عليه خارج على ديه ومأمر به من

طاعة الإمام ، فهو حكم استبدادى يستند إلى قوة الدين . .

وأما قياصرة بيزنطة فكان يتمثل فيهم كذلك السلطان الدينية والدينية منذ قسطنطين وكان القيصر يمثل السلطة الدينية الكبرى أو العليا فهو البطريرك الأكبر وله حق تولية بطاركة الكنيسة وحكام البلاد وأمرائها سواء بسواء ^(١).

ومهما يكن من أمر الخلافة الفاطمية وخلفائها ، فإننا نتوقف عند أول من قام منهم بمصر وهو المعز لدين الله الفاطمي ، ولعله أقوى هؤلاء جميعاً ، والمؤسس للدولة الكبرى في المغرب والمشرق .

والمعز لدين الله هو أبو تميم معذ . تولى الخلافة بعد والده المنصور بنصر الله أو الظاهر إسماعيل سنة ٣٤١ هـ وعمره آنذاك نحو أربع وعشرين سنة .

وشخصية المعز متعددة الجوانب فهو رجل دولة من الطراز الأول ذكي متعدد المواهب ، يعرف كيف يجتذب إليه الرجال ، ويطوى عقول الرعية وينال رضاهم وطاعتهم ، فيتألفهم بالعفو عمن أذنب أحيانا ، وباغداق الصلات وبذل المال أحيانا ، وثالثة قد يغريهم بالمناصب ، أو المنح الغامرة من الدور واللباس ، والمأكّل والشراب .

وهو في الوقت نفسه قوى حازم شجاع لا يتوانى عن اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب ، ولا يتردد في مواجهة الشدة وقطع رعوس الفتنة بقوة وعزم .

ومما يروى عن دهائه ما نقله المقرئى . قال إن المعز لما كان بعض الأيام استدعى في يوم شات عدة من شيوخ كتامة ، فدخلوا عليه في مجلس قد فرش باللبود ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ، فقال : يا إخواننا أصبحت الآن في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء — وإنها الآن بحيث تسمع كلام — أترى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل

(١) قد يرى بعض الباحثين أن الدين المسيحي كان يعترف بانفصال السلطتين الدينية والزمنية على أساس ما لقيصر لقيصر ومالله لله . والتاريخ يثبت أن ذلك لم يكن مطبقا تماما في الدولة الرومانية الشرقية ، وإن اختلفت به أوروبا المسيحية في العهد الوسطى وظلت سلطة البابا وكرادلة الكنيسة بعيدة على سلطان الملوك . وإن خضع هؤلاء الآخرون لسلطة البابوات والكرادلة أحيانا .

ونشرب ، ونقلب في المثلث والدياج والحرير والفنك والسمور^(١) والمسك والخمر والفناء كما يفعل أرباب الدنيا . ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حال إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، وإني لا أفضلكم في أحوالكم إلا بما لا بد لي منه من دنياكم ، وبما خصني الله به من إمامتكم .^(٢)

وقال : وإني مشغول بكتب ترد إلي من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي ، وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ، ويقمع أعداءكم فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم ما أفعله ، ولا تظهروا التنبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا إلى من وراءكم ممن لا بد لي إلى كتحشني عليكم ليتصل في الناس الجميل ، ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبارا بعدها على نسائكم ، والزمو الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشبهوا إلى التكثر .^(٣) والفرقة فيهن فينتقض عيشكم وتعود المضرة عليكم وتهكوا أبدانكم ، وتذهب قبلكم ، وتضعف شائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .

ومع أن هذه الفقرة تصور المعز خليفة زائداً ، إلا أنه في الحقيقة لم يترك عن مظاهر الملك ، وأبهة السلطان ، بل لعله بالغ فيها ، ليكسب الهيبة في النفوس . وربما تشبه ببعض ملوك الفرنجة والعرب في اتخاذ التاج . فقد أورد العلامة حسن حسني عبد الوهاب في بعض أوراقه أنه كان من عادة المعز وضع التاج على رأسه ، كما وصفه الشعراء بذلك ومنهم ابن هانيء شاعره المفضل^(٤) .

كذلك كان عالماً أديباً يعرف بعض لغات من يحكم أو يتصل بهم سلطانه ، فقد تعلم البربرية ليخاطب البربر ، واليونانية ، والسودانية إلى جانب إتقانه العربية وآدابها ، وتعمقه في فقه الدين ، وأسرار القرآن ، والسيرة والتاريخ .

واتخذ لنفسه جماعة من جهابذة الرجال لمعاونته في الحكم ، واتهمهم^(٥) على رأسهم الأستاذ جودر ، والقاضي نعمان ، والنوزير يعقوب بن كلس .

(١) الفنك والسمور أنواع من العود الفاخر يتجده العرب والأمازيغ للاسهم شدة

(٢) الحفظ ٣٥٢/١ .

(٣) راجع الأوراق قسم ٢/ص ٢٠٤ .

وقرب جوذر الأستاذ بعد توليه الخلافة واستقراره بالمنصورية ، واسكنه معه في قصره بدار البحر . وجاء على لسان المعز أن المعز قال له عند دعوته للاقامة معه في قصره : « إنك لن تعمد بقربك منا خيراً تفيده ، ومسرّة تغتبط بها ، وتطيب نفساً بورودها ، ونعمة تستحوزها وتستفيدها ، كما لا يعدم من قرب من عدونا ، وحل من خاصته محلّك منا من غضب الله ولعنته عنده أجل وأعظم مما يظنه أو يسمو إليه أمله . » .

فقبل الأستاذ الأرض بين يديه ومن حضر ممن خصه بقربه ، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضله ، وشكروا ذلك له بماقدروا عليه . ^(١)

واستغل المعز ذكاه ، وعلمه ، ومعرفته باللغة والأدب في خطابه ، وخطابه للناس من رعيته أو انصاره ، وغيرهم ، واستغل عقائد الدعوة الفاطمية للتمكين لنفسه وإمامته . وساعده على تدعيم هذه الإمامة جماعة ممن أشرنا إليهم ممن تعمقوا أصول الدولة وتمكنوا فيها ، وأحاطوا بأسرار الدعوة الاسماعيلية واستغلوا علمهم بشتى العلوم والمعرفة المتاحة لهم من علم الدين والانساب واللغة والحساب والفلك والطبيعة والرياضة والفلسفة والطب والهندسة ، فاستغلوا هذا كله في تثبيت دعائم الدعوة وتأويل النصوص الدينية بما يضع في أيديهم حججاً على أقوالهم .

ومن أشهر أولئك العلماء الدعاة الذين ساندوا المعز وثبوا تعاليمه في الآفاق كالأستاذ جوذر ، والقاضي النعمان داعي الدعوة .

وكان المعز نفسه لسناً جديلاً يحاور معارضيهِ ويدفع عن رأيه بالحجج النقلية والعقلية . واستطاع المعز بسياسته وبعد همته أن يملك شمال أفريقيا من برقة إلى فاس فالحيط الأطلنطي في أقصى المغرب ، وضم إليه بعد ذلك مصر والشام والحجاز واليمن وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت أو إقريطش كما كان العرب يسمونها .

وبنى أسطولا كبيراً كان يجوب البحر وينازل الروم في كثير من المواقع البحرية ويتنصر عليهم ، كما نازل بعض أعدائه من الأمويين في الأندلس .

(١) عيون الأخبار ص ٣٥ .

المعز وفتح مصر :

لم يكن فتح المعز لمصر أول محاولة من الفاطميين ، بل سبقتها محاولات في عهد أسلافه القائم والمنصور ، بلغت فيها جيوشهم الإسكندرية وتجاوزتها إلى مابعدھا ولكن العباسيين استطاعوا أن يصدوا تلك المحاولات بإرسال جيوشهم يقودھا قادة من أمراء الأتراك . مثل مؤنس الرجل القوى آنذاك .

ولكن المعز عمل جاهداً على تحقيق ما لم يتمكن آباؤه من تحقيقه ، فأعد حملته عدتها ، إذ بعث الدعاة لتهديد الأرض في مصر لاستقبال الغزاة ، أو كبر حدة المقاومة ، وساعد على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور .

جمع المعز جيشاً كبيراً ، ودعيت القبائل إلى الانضمام تحت لوائه . وبعد أن اكتملت تعبئة القوات ، خرج المعز لعرض القوات وتوديع الجيش الذي عين أخذ خالصاته جوهر الصقلي قائداً عاماً له بعد أن حقق انتصارات كبيرة في شمال أفريقيا ، ووثق المعز في كفاءته .

وغادر جوهر القيروان في شتاء عام ٩٦٩ م في شهر فبراير على رأس جيش تعداده مائة ألف مقاتل مجهزة بخير العتاد ، وعساده من قبيلة كتامة أشد أنصار الفاطميين . وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يحصى من الخيل والتي حملت جميعها قدراً وافراً من المؤن والذخائر .

وزحف الجيش شرقاً إلى الحدود المصرية ، واستسلمت الحاميات بالإسكندرية وغيرها ، ونزل الجيزة ثم عبر إلى القسطاط فاستولى عليها في شهر أغسطس من العام نفسه .

وبعد أن تم لجوهر الاستيلاء على القسطاط ، أقطع جنده أرضاً حولها ، ليستقروا بها ودخل القائد مسجد عمرو بن العاص على صهوة جواده الكमित وعليه مطرف حرير موثى بالذهب . وفي أول خطبة بالمسجد دعا خطيب المسجد للامام الخليفة المعز بعد الدعوة للخليفة العباسي . ثم قطعت الدعوة للعباسي بعد ذلك .

وضربت السكة الفاطمية ، وأذن بالأذان الشيعي حتى على خير العلم . وهكذا أصبحت مصر دولة علوية فاطمية اسماعيلية منذ ذلك الحين .

وبنى القائد جوهر القاهرة ، وشيد قصرأ لسيدته الخليفة المعز ، وبنى الجامع الأزهر ، ثم دعا خليفته المعز للحضور .

وجاء المعز من المنصورة في جمع حاشد ، حاملاً معه كل ما استطاع من مال ومتاع ، بل قيل انه حمل عظام آبائه في تواييت لدفنها بجواره في القاهرة .

وعبر بهذا المركب المهيب حتى بلغ الاسكندرية وانحدر منها إلى الجزيرة فلما بلغها لقيه بها جوهر ، وكان قد عقد له جسراً على النيل ليعبره إلى بر الفسطاط والقاهرة ، فعبره حتى بلغ الفسطاط وكانت قد زينت له ، فطاف بها ولم يشقها بموكبه بل اتجه مباشرة إلى القاهرة عاصمته الجديدة .

وحط الرجال مع جميع أخوته وأولاده وسائر أولاد عبيد الله المهدي ، ومن معه من نساء وتواييت الآباء وذلك في سبع خلون من رمضان عام ٣٦٢ هـ ومابلغ ساحة القصر حتى صلى ركعتين فاحتذاه من تبعه . وبات ليلته ثم أصبح فعقد مجلساً للتهنئة وأمر بكتابة منشور إلى سائر مدينة مصر باقرار الدعوة الفاطمية والدعاء بعد النبي والصلاة عليه لعلي ابن أبي طالب .

وقيل إن حملة المعز كلفت أربعة وعشرين مليون دينار آنذاك غير ما حمله المعز معه من ذهب وأموال ومتاع لا يقدر ثمنه .

كان عمر المعز عند حضوره ثلاثة وأربعين عاماً . وسار في مصر سياسة تجمع بين الإغراء بالمال والاصلاح بالحسنى ، والحزم الذي لا تهاون معه وقت الضرورة ، تلك السياسة التي عرفت « بسيف المعز وذهبه » . فمن لا يصلحه المال ، أصلحه السيف والعكس صحيح ، فإنه قد يبدأ بالسيف من يرى فيه العناد حتى اذا ملكه اصطفاه بذهبه وما يغدق عليه من المناصب والجاه والمال حتى يصبح ولياً طيعاً .

وسارت تلك سياسة خلفه من ابنائه وأحفاده .

وهكذا أقام المعز دولة الفاطميين في مصر وجعل عاصمته القاهرة ، وجعل أسس هذه الدولة قائمة على قوة الجيش والأسطول ، وقوة الدعوة بالعلم وعقد مجالسه في دار العلم أو الحكمة ، أو بالنصر لاعداد الدعاة والتمكين للدولة عقيدة ، إلى جانب التمكين بالسلطان والقوة ، وكانت دعامته الثالثة المال ، وقد عمل على أن تصبح الدولة غنية بما

يوفره من اصلاحات ، وما يعقده من صفقات تجارية مع ماحولها من بلدان .
وشهدت مصر في عهده بدء ازدهار حضارى ، وعصر رفاهية وترف بلغ غايته في
عصر خليفته العزيز وابنه الحاكم .

وفي شهر ربيع الآخر من عام ٣٦٥ هـ توفى المعز وله من العمر خمس وأربعون سنة
وستة أشهر . وكان مقامه بمصر سنتين وتسعة أشهر .

العزيز بالله نزار

ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ، وثالث أبناء المعز ، وقد ولاه أبوه العهد بعد وفاة ابنه
عبد الله الأوسط متخطياً بذلك ابنه الأكبر تميم وهو الشاعر المعروف ، والذي كنى به
المعز فعرف بأبى تميم وتحديث كتب التاريخ عن الأسباب التى جعلت المعز يعدل بولاية
العهد عن ابنه الأكبر تميم إلى ولديه الثانى والثالث بعد وفاة عبد الله .

فمن قائل إن سبب ذلك عدم ثقة المعز بولده تميم لأمر لاحظها عليه ، وأنباء بها
الأستاذ جوذر تدور حول طمع تميم فى الخلافة فى حياة والده ، وأن أمراً دارت بينه
وبعض أمراء البيت الفاطمى وأبناء بعض الولاة ، وبخاصة ابن والى المعز على صقلية .
ولم يرد المعز أن يأخذ ابنه بالشدة ، بل كان يعمل على مداراته ويدفع بعض رجاله إلى
نصيحته وتقويمه هو ومن معه .

وقيل إنه عدل عن توليته لأنه رأى فيه ميلاً إلى اللهن ، والخلاعة وعدم الالتزام
بواجبات ولاية العهد ، من حبه للسمع وقول الشعر والغناء مما قد ينتقص من مروءة
وهيبة من يرشح للخلافة ، ويريد المعز لمن يخلفه أن يسير على سياسته ليحفظ للدولة
قوتها وللخلافة احترامها بين الناس ، والأعداء يرصلونها فى كل مكان ويترهبون بها ،
ويبحثون عن زلات تهدم ركن بنائهم .

ومن قائل إن المعز عدل عن ولاية العهد لتمامه لم ينجب ، ولم يكن له قدرة على
الإنجاب ، وخشى أن ينقطع نسله ، فتقطع بذلك دولتهم .

- ومهما يكن من أمر فإن نزاراً تولّى الخلافة بعد موت المعز ، وظل أخوه الأكبر بمنأى
عن أعبائها ، وبعث يهين أخاه شعراً ويعلن له الولاء والطاعة فى كثير من قصائده . إلا

أن هذا الولاء لم يكن خالصاً فيما يبدو ، بل كان يشوبه من حين إلى آخر فكرة في الخلافة وأنه كان أحق بها ، وكان هذا الفكر ينغص عليه وقته ، ولا يستطيع كتمانته فتبذر منه بوادر تروج فتصل إلى أسماع أخيه الخليفة .

ولكن العزيز بالله كان يدارى أخاء رغم علمه بهواجسه ، ويحاول تعويضه باغداق المال والعطايا كلما سنحت فرصة حتى يشغل بملاهيه وملاذه بين خاصته من الشعراء والجواري والغلمان وبين الكاس والمطعم والملاشى في القصور والبساتين ، فلا يفكر في الخلافة .

وكان يجامله بين الحين والآخر بالدعوة للقاء أو الذهاب لزيارته بين بساتينه وفي قصوره .

ولكن الأمور مع هذا لم تستقم تماماً فيما يبدو بين الأخوين ، وانتهت بأن أحس الخليفة نزار بشيء ما يدبر له من أخيه ، فأمر بإبعاده خارج مصر حتى يعلم على نفسه وعرشه ، وبخاصة أن أعوان السوء ينتهزون دائماً مثل هذه الظروف لدفع الشك في النفوس لتتقرب من صاحب الكرسي أو الطامع فيه على حد سواء عسى أن ينالوا مايطمحون إليه من مكاسب .

ونسلم في شعر تميم أصداء لهذا كله على ما سنعرضه بعد .

ومكثنا تولى نزار خلافة النباطيين إذا بعد وفاة المعز سنة ٣٦٥ هـ ، وكانت ولادته بالمهدية ، وجاء إلى مصر صحبة أبيه شاباً .

وكان شاباً أسمر طويلاً فارعاً أصهب انشعر عريض المنكين ، حلو العشرة ليس فظلاً ، ولا غليظاً ، بل مجاملاً ، متسامحاً عادلاً . حلماً وقوراً . كثير العفو ، لا يؤثر سفك الدماء .

وكان فارساً ، عارفاً بالخيال ، محباً للأبهة وحياة الرفاهية ، ميالاً لبناء القصور واقتناء الجواهر .. ابتدع نوعاً من العمامم المحلاة بخيوط الذهب وسروجاً معطرة بالعنبر ، واتخذ كثيراً من الطرف يزين بها مواعده .

جعل نقش خاتمه : « بنصر العزيز الجبار يتنصر الإمام نزار » -
وكانت أيامه بمصر أيام دعة ونعمة .

وشغف العزيز بالصيد ، واقتنى جوارح الطير لذلك ، كما جلب الطيور ونادر الحيوان من السودان لقصوره وبساتينه .

وكانت له إلى جانب هذه الهوايات دراية واسعة بالعلوم والآداب وبقول الشعر ، وكانت له كآبائه مجالس علم ووعظ .

واعتاد دخول مجالسه العزيز والذليل ، والقوى والضعيف ، فذاك يسمع علمه ووعظه ويأخذ ، وهذا يسأل نواله فيعطى فوق مايسأل . وقد يشكو إليه المظلوم من ظلم فيعاقب ظالمه بظلمه .

وأمر بالمجالس التي تعقد في القصر بأن تُدَوَّن وتقرأ على المؤمنين بالعقيدة الفاطمية . واستطاع نزار بهذه السياسة الحكيمة ، والعدل ، والانصاف أن يكسب ثقة رعيته من المصريين وغيرهم في سائر البلاد ، وأن يحصل على مودتهم والاستكانة إلى حكمه ، فأمن الداخل ، وفرغ للملاقة أعدائه خارج البلاد .

وقرب نزار النصارى واليهود في مصر ، ولعله رأى في ذلك سياسة تكسر حدة النزاع الديني بين الطوائف ، بل إنه تزوج أخت أحد البطارقة ليزيد الفوارق الدينية ، أو يخفف من حدتها وليكسب ود النصارى ومن يساندهم من القوى الأخرى خارج البلاد ، وكان في حاجة إلى أن يكسب ود بيزنطة ، أو أن يهادنها ، حتى يستطيع أن يبنى الدولة دون الحاجة إلى صدام يضيع ثروتها ويبدد امكاناتها . ولعله استطاع أن يبلغ غايته تلك ، بل وأن يعاهد بيزنطة على حماية المسلمين في بلاد الروم والبلاد الخاضعة لهم ، وإحقاق حقوقهم عملاً بالمثل .

ولم يكن بعيداً عن أذهان الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين أن بيزنطة وقيصرية الروم كانوا يدعمون النصارى في بلاد الاسلام ، ويعتبرون أنفسهم حماة للنصرانية فيها .

ولعل في تقريب نزار للنصارى واليهود من المصريين وغيرهم هدفاً آخر هو الإفادة من خيراتهم الإدارية والمالية لمعرفة المتوارثة من قديم بشعون هذه البلاد منذ ما قبل العصر الإسلامى .

ولّى عيسى بن نسطورس كتابته ، واستناب بالشام منشأ اليهودى فاعتز بهما
النصارى واليهود — كقول المؤرخين ^(١) — وآذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا
قصة (شكوى) وجعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس (ورق) فيها قولهم
« بالذى أعز اليهود بمنشأ ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا
كشفت ظلامتى . » ، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ، فلما
رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم مأريده بذلك ، فقبض
عليهما — على منشأ و نسطورس — وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهود
شيئاً كثيراً . » .

واعتمد نزار سياسة خارجية حازمة مع أعدائه فى المشرق والمغرب ، وكانت فى
عهده أمور المغرب مستتبة إلى حد ما ويتولاها نائبه فى القيروان باديس بن زيرى
نصباحي . أما المشرق فقد وقف فيه بصلابة فى وجه أعدائه من القرامطة والأتراك
والحمدانيين ومن وراء هؤلاء جميعا العباسيون ، كما نكل ببعض زعماء العرب ورؤساء
القبائل من طى وكلاب وغيرها وهاذهم أحياناً ، واحتوهم .

وواجه الروم بالحرب البحرية والبرية ، أو بالمهادنة والمسألة .

وكانت حملاته بالشام وبعض بلاد الجزيرة العربية قد انتهت بتأكيد نفوذ الدولة
الفاطمية على معظم بلاد الشام والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن . وقاد فى ختام حياته
حملة للزحف على أملاك الدولة العباسية ، وكان يطمع بهيمته إلى إسقاطها وإقامة الدعوة
الفاطمية فى بغداد .

ولكن العمر لم يمتد بالعزيز نزار طويلاً ، فقد توفى فى بلبيس وهو على رأس جيشه
الزاحف إلى الشام سنة ٣٨٦ هـ بعد أن تولى الخلافة واحداً وعشرين عاماً وخمسة أشهر
ونصفاً ، وكانت سنه عند وفاته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر .

الحاكم بأمر الله المنصور بن نزار

وشخصية الحاكم أشهر شخصية تولت الخلافة بعد المعز ، بل لعل شهرته فاقت

(١) راجع الكامل لابن الأثير ١٧٧٧

شهرة جده ، لما أحاط بهذه الشخصية وسيرتها من عموض وروماسية -حديب موضوعاً لكثير من الروايات الغريبة التي تبث على الخيال والشطط فيه .

وأما شخصه فقد روى المؤرخون أنه كان ضخم البناء ذا وجه تشوبه سمرة مختلطة بالبياض ، ذا عيني واسعتين انسانهما يختلط فيهما السواد بالخنضرة ، ذا وجه مصرى عرى تتجاذبه ملاح الهيبة والسماحة والزهد والانصراف عن الدنيا بالقسوة والصرامة . ولد الحاكم لأم مصرية ملكانية نصرانية اسمها « تغريد » ، وكان أخوها بطيركين من بطاركة النصارى .

وكانت أمه تجمع بين الجمال الفائق وقوة الشخصية ، مما بهر الخليفة نزار فاتخذها أم ولد أنجبت له بنتا هى ست الملك ، وابنا هو المنصور الذى سمي الحاكم بأمر الله . وحاول بعض المؤرخين نفى ولادة الحاكم لهذه السيدة النصرانية إلا أن الرقائق وثقة المؤرخين يثبتون أمومتها للحاكم وست الملك .

ولا يمنع شئ من صحة هذا النسب ، ولا صحة زواج العزيز نزار من السيدة النصرانية الملكانية « تغريد » لتلد له ست الملك والحاكم .

فإن ظروف الفاطميين فى مصر وسياستهم التسامحة مع النصارى واليهود وما عرف عن تلقى العزيز العلم على يد بعض الاساتذة من نصارى المصريين قبل تولية الخلافة . كل هذا يدعو إلى القول بأن زواج العزيز لهذه المرأة المصرية النصرانية أمر قائم غير مستغرب .

وشخصية الحاكم بغرابتها ، وتصرفاتها بين الزهادة والانصراف عن الدنيا والرغبة فى سلام الرعية والعطف عليهم ، والتردد بين الأحكام بما يصل إلى درجة التناقض أحيانا بين الأمر بالفعل وعكسه كل هذا يغلب الاحتمال بتأثير أمه النصرانية ، وعقائد النصارى ، وبخاصة أنه اعتاد أن يرتاد فى أثناء ولايته ديرا بجبل المقطم عرف بدير القصر ، وأنه كان يلبس الصوف وخشن الثياب كزهاد النصارى ورهبانهم ، ويركب حماراً أبيض ، ويصر على اتخاذ الحمار مركبا له فى غدواته وروحاته ، ومعلوم تلك الصلة بين الحمار والعائلة المقدسة والمسيح عليه السلام ، وقد احتفظت الصور فى بعض الكنائس ودور العبادة المسيحية بهذا الحمار فى صحبة المسيح وأمه .

كانت شخصية الحاكم إذا كما يروى التاريخ ملاحظها وسيرتها متناقضة الطباع والسلوك بين القسوة وشدة البطش والميل إلى القتل وسفك الدماء ، وأخذ المذنبين بالقوة على عكس آبائه العزيز والمعز ، وبين الطيبة والزهادة في حياة الملك وترف الخلافة كأبيه نزار ، والانصراف عن بهرج الحياة ، والخلوة إلى بيعة ينصرف إليها في المقطم وحده ، لا يشاركه سوى خادم وحمارة الأبيض .

كما عرف الحاكم بالعطف على الفقراء ، والتسامح مع عامة الناس وكثيراً ما حاول رفع المعاناة عنهم ، بتعقب اللصوص ، والمقاتلين من التجار ، وإجزال العطاء .

وهذا إلى تدينه وتزمته أحياناً في سلوكه الدينى مع رغبته الملحة في العلم ، وتشجيع العلماء . ولهذا بنى دار العلم المعروفة بدار الحكمة بالقاهرة . وأنشأ كثيراً من المساجد ومنها مسجد الحاكم المعروف بالمسجد الأنور ، ومساجد أخرى في أنحاء القاهرة . وتعمير كثير مما هدم أو هجر من المساجد القديمة كجامع عمرو بالقسطاط .

وصفه بعض المؤرخين بالجنون لما أصدر من أوامر وقرارات وأحكام ، وما عرف عنه من صور السلوك التي بدت في عيون الناس غريبة من خليفة للمسلمين وحاكم له تلك المكانة وله ذلك السلطان الواسع ، ويمكن أن يكون انطباع الناس لأول وهلة تلك الغرابة والشذوذ ، إلا أنهما ربما انطوت بعد تأنى الفكرة ، وأعمالها على عمق في الفهم ، وحكمة . أو لعلها تكون صادرة عن عقيدة لدى الحاكم ونظرة خاصة ذاتية لها مبرراتها ودوافعها .

وحمل عليه المؤرخون ، والمعارضون له ولعقيدة الفاطميين ودولتهم كثيراً من التصرفات والأفعال التي قد تصدم العقل ، ولا تتفق وسيرة الرجل العامة وظروف حياته كما قيل عن إحراقه بيع النصارى وكنائسهم ، أو ما قيل عن حرقه للقاهرة التي بناها جده ، وشيد هو نفسه أو أمر بتشييد كثير من عمائرهما ، وحرص على جعلها لائقة بعاصمة الخلافة حتى تنافس بغداد عاصمة العباسيين منافسيهم التقليديين .

واتهم الحاكم أحياناً بادعاء الألوهية . وهناك وقائع يرويها المؤرخون تبذل هذا الادعاء وتكذبه منها ما ثبت من أقوال بعض المؤرخين كالمقرئى من أنه أخذ من حاول ذلك أخذاً شديداً ، ويذكر هذا الموقف بما وقفه عبد الله بن سبأ من ادعاء ألوهية على بن أبى طالب وقتك الإمام به .

ولانريد أن نخوض في جوانب شخصية الحاكم فتحاول اتهامه أو الدفاع عنه ، فة
تولى بعض الباحثين هذا الأمر حتى تعود الصورة المشوهة التى حاول معارضوه رسمها
إلى الصورة الصحيحة أو القريبة منها على قدر الاجتهاد .

ولاشك أن الحاكم كان خليفة يملك الذكاء والدهاء والفطنة إلى جانب السياس
والحزم ، واتخاذ القرار المناسب ، وإلا تفلتت أجزاء الدولة من بين يديه ، وقد و
الحكم صيباً ، وأمكنه الحفاظ على البلاد فى أقصى ظروف واجهتها من ثورات داخلية قا
بها العربان فى غربى الدلتا وصعيد مصر ، ومهم عرب بى قرة ، أو حروب خارجي
وإنتفاضات بالمغرب كتلك الثورة العارمة التى قادها « أبو ركوة » الأموى وتبعه جماء
من أهل السنة ممن لم يرتضوا مذهب الشيعة الإسماعيلية ، وعززوا أبا ركوة فى المغرب
فهزم جيوش الحاكم مرة أثر مرة حتى هاجم حدود مصر الغربية وتوغل فى البلاد
واكتسح أمامه الفيوم وبعض مدن الصعيد ، وكادت أن تستنصر مصر فى يده لولا حزم
الحاكم ودهاؤه وتماسكه وصبره وشجاعته حتى تمكن من عدوه فهزمه بالصعيد ، وقبض
عليه وقتله بعد أن شهر به فى القاهرة .

كذلك واجه انتفاضات بلاد الشام ، وعداوة بنى الجراح من طى يبادية الشام
وفلسطين ، كما واجه الحمدانيين ، وبنى مرداس الكلابيين بالجزيرة وحلب ودمشق .

كل هذا فعله الحاكم واستطاع أن ينجو بملكه من تلك العواصف العاتية ، وأن يسلم
الخلافة إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ بعد أن اختفى هذا الاختفاء
الغريب والأسطورى الذى فتح المجال أمام كثير من الظنون ، وكثرت حوله الأهاجيس
حتى ظنوه رفع إلى السماء ١١ فى صحراء المقطم .

قضى الحاكم فى الخلافة خمساً وعشرين سنة واختفى وعمره ست وثلاثون سنة
٤١١ هـ . وتولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على بعد فترة من الزمن تحققوا
فيها من عدم عودة أبيه ، وتولت ست الملك شئون الدولة ، وكان عمر الظاهر عند توليه
سنة عشر عاماً .

وظلت ست الملك عمة الظاهر وصية عليه حتى سنة ٤١٥ هـ حين توفيت ، وكانت
أظهرت من الحكمة فى إدارة شئون الخلافة ماحفظ البلاد ، وانفرد الظاهر بعدها
بالسلطة

قال فيه صاحب عيون الأخبار ^(١) ونشر أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله عدله وعرف كل الناس فضله ، وقامت به قواعد الملة ، واستقامت الأمور على ساق ، وأحمد الله ناجم البغي والعدوان ، وانتظمت له الأحوال ، ونال به أهل دعوته الآمال وأكثر عليهم من الأنعام والأفضال ، ودانت جهات المملكة ، ولم يعانده فيها معاند خوف الجزاء والهلكة ، وأيد الله به دينه ، وأظهر حججه وبراهينه . وظهرت دعوته لشيراز وأرض فارس والأهواز .

ولم يتتفع بالخلافة طويلاً فقد مرض بالاستسقاء ، ومات بعد أن انفرد بالحكم اثنا عشرة سنة بعد وفاة عمته . وكانت وفاته سنة ٤٢٦ هـ . .

وكان الظاهر مترخصاً في دينه ، لا كأبيه مترمماً متعبداً ، قيل عن سيرته في رعيته إنه كان جميل السيرة حسن السياسية ، منصفاً للرعية ، وعن سيرته الخاصة أنه كان منصرفاً إلى لذاته من شرب للخمر وسماع للغناء ، كما رغب الناس في الشراب واللهو وأغفل شئون الحكم ومتابعة مهامه ، وأوكلها إلى وزيره الجرجاني . فكان هذا بداية لحكم الوزراء . وتسلطهم على شئون الدولة ، وعزل الخلفاء عنها . وقد استشرى هذا الوضع بعد ذلك في عهود خلفائه : المستنصر ومن تبعه . وصار حكام مصر الحقيقيين أولئك الوزراء الكبار وتلقبوا باللقاب السلطين ، وجرى على خلفاء الفاطميين ماجرى على خلفاء بنى العباس من تحكم الخدم والقادة وكبار الوزراء من الأتراك والفرس والعرب . كذلك كان الحال في عهد الظاهر حيث ضعف سلطان الخليفة وقلت هيئته ، وتحكم جماعة من الخدم وقادة الجند على ما يروى أحد مؤرخي العصر المسمي عن يدعى شمس الملك ، وهو سوداني أسود من موالى الخلافة وخدم القصر تدرج بتقربه من السيدة والدة الخليفة حتى حظى بالسلطان وصار متصرفاً في كثير من الشئون .

وواصل الظاهر سياسة جدّه في التأنق ، والحب للأبهة ، فاستكثر من الخدم والجواري ، وأحب الغناء ، واحتفظ بالجواري المغنيات ، وشغف بفخامة اللباس ، فلبس الثياب الموشاة بالذهب ، والعمائم المطرزة به . واتخذ المراكب الفخمة ، من الخيل ، تكسى بأغشية من الوشى . واستكثر من شراء الجوهر .

(١) عيون الأخبار ص ٣١٨ .

ورغم هذه المظاهر من الثراء والأبهة للخليفة وحاشيته من الوزراء والأمراء والخدم ، ونساء القصر ، وماتنعم فيه القصور من كل ما يعجب العين ويلذ النفس ، فإن أحوال الناس في عهد الظاهر قد تقلبت ، وتغيرت بين مسرة وألم ؛ وبين نعيم وشقاء .

فقد منى الناس في أول سنة لانفراذه بالحكم بالضيق في العيش ، واكتناز بعض ذوى النفوذ للمال على حساب عامة الشعب ، وقيام بعض ذوى النفوس الضعيفة باحتجاز بعض الأموال بالباطل تحت رقابة ذوى النفوذ والسلطة ، مما اقتضى الخليفة إصدار منشور يحذر فيه من ارتكاب تلك المخالفات والجرائم في حقوق الناس والتستر وراء ذوى القرى من أصحاب النفوذ أو الخطوة بالقصر .^(١)

كذلك حدثت بعض الفتن نتيجة اضطراب الأمن في عام ٤١٥ هـ .

يقول المقرئى :

« وفي هذه السنة كثر الخوف من الزغار التى تكبس ، حتى إنه لما عمل السماط في عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصيحون : الجوع !! ونهبوا سائر ما كان عليه .

ونهب الأرياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت أمور من العامة قبيحة ، واجتمع نحو من ألف عبد لنهب البلد من الجوع فتودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله » . وندب جماعة لحفظ البلد ، واستعد الناس ، فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها إلى أن خندقوا عليهم خنادق ، وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع » . قال المقرئى : « وانقضت السنة (٤١٥ هـ) والناس في أنواع البلاء . »^(٢)

وهذا الفساد الذى اشترك فيه بعض خدم القصور والعبيد دعا الظاهر إلى إصدار منشور بالتحذير والأخذ بالشدّة على يد كل من تسوّّل له نفسه الخروج على النظام من رجال القصر أو خدمه وعبيده يقول فيه :

(١) ذكره المسبحى ص ٢٣/٢٤ تحقيق وليم ج ميلورد طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ ونقله المقرئى في الانعاط

١٣٣/٢

(٢) المخطوط ٣٥٥/١

« إلى سائر الحاضرين من أنصار الدولة وجنودها ، وسائر المائلين فيها من خدم المملكة وعبيدها ينهى جماعتهم عن قبول منتسب إليهم أو متطارع عليهم لا اسم له في الجرائد المجلدة ، ولا رزق له في العطايا المقررة ، وإسقاط من هذه سبيله ، ووضع اسمه ، وحذف ذكره ، وإزالة رسمه ، والإضراب عن الخطاب بنسب أحد منهم في حد أو حق أو دم ، إذ كان أمير المؤمنين — محله من الإمامة ، ومكانه من الخلافة — يأخذ في الحق من القوى للضعيف ، ومن الشريف للمشروف ، ولاتأخذه لومة لائم في إقامة حد الله — جل وعز — على واجبه المحتوم حتى تهذب كل طائفة من الدخلاء والأوغاد ، وتتميز كل قبيلة من أهل الربوب والفساد ... ولتحقق الجماعة أنه من تجاوز مأنصى في هذا السجل فقد تعرض لغليظ الإنكار ، ووجب عليه ما يجب على أهل الإصرار بعد الإعدار والإنذار » (١) .

كذلك فإن إباحة الظاهر للناس التمتع بالملاهي والتحرر بعض الشيء بعد سنوات من الكبت عانوها في عهد الحاكم جعلهم يتأدون ، ويسرفون ، فيقع منهم القبيح في الفعل والسلوك ، والاستهتار بالحرمت ، وعدم مراعاة الشعور العام ، والقيم الإسلامية التي تحكم المجتمع مما دفع بالظاهر إلى إعلان منشور أو سجل آخر بالكف عن تلك الأمور المخلة .

يقول المسبحي إنه في يوم الجمعة لست خلون من رجب سنة ٤١٤ هـ قرىء في الأسواق بمصر (الفسطاط) سجلٌ يرفع المناكير وترك التظاهر بشيء منها ، وألا تخرج النساء بعد العصر إلى الطرقات بالقرافة للتنزه ، وأن تنزه هذه الأشهر — الحرم — الشراف من المناكير ، وأن لا يجتمع الناس كما كانوا يجتمعون بالجيزة ولا بالجزيرة ولا بالقرافة على شيء من المخطورات ، وأن يمنع الغناء ظاهراً أو التشهير بشيء منه إلا الغناء بالقصبة (يعني الأرغول — والمزمار — والشبابة) لا غير ، فإنه مباح . » (٢) .

والمخفف النيل في هذه السنة نفسها فعانى الناس من شح الأقوات ، واضطر الظاهر إلى أخذ اصحاب الخنايز وتجار الغلال وسائر الأقوات بالشدة حتى يخرجوا مالهيم ، ولا يرهقوا الناس بما يتقاضونه من سعر غال .

(١) أخبار مصر في سنتين للمحاسبي ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤ .

وانقضت سنوات الظاهر بحلولها ومرها ، وإن غلب عليها بسطة العيش وأعقبه ابنه المستنصر .

المستنصر بالله أبو تميم معاذ بن الظاهر

رآه ناصر خسرو في احتفال الخليج بدء حكمه ووصفه بأنه شاب صغير حسن الوجه حليق اللحية تولى بعد وفاة أبيه ، وقد وافق اسمه وكنيته ، اسم جده الكبير المعز وكنيته ، ولكن شتان بين الرجلين والعصرين . تولى المستنصر سنة ٤٢٧ هـ وعمره سبع سنين وحكم ستين سنة وأشهرأ ، وتعد مدة حكمه أطول ماحكم الفاطميون وكانت سنى حكمه الطويلة هذه كمايقول المقرئى جامعة لغرائب الأحوال والأحداث قال : وكانت خلافته فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر .

كانت أم المستنصر أمة سوداء لتاجر يهودى ، ولما ولى ابنها صبيأ كانت تتدخل في شئون الدولة كما كانت تفعل بعض نساء القصر مثل ست الملك ، وأم الظاهر فكانت كذلك أم المستنصر تدس أنفها في أمور الحكم ، وتتدخل في أعمال الوزراء وكبار رجال الدولة ، بل وتعمل على تقريب واحد وإبعاد آخر ، وتعين فلان ، وإقالة علان .

وشهدت خلافته بداية الضعف في خلافة الفاطميين ، وضياح هيبة الخلفاء . كما شهدت كثيراً من الكوارث والنكبات التى حلت بالناس والدولة ، فقد أصاب الناس الفقر بعد الغنى ، والبؤس والشقاء بعد البلهنية والنعيم ، فحدثت المجاعات وقصر النيل عن مدته عدة سنوات : سنة ٤٤٤ هـ ، وسنة ٤٤٦ هـ فنال الناس بؤس شديد ، وحدثت تلك الشدة المعروفة في التاريخ بالشدة المستنصرية حتى أكل الناس الحيوان من القطط والكلاب ، بل تعدى هذا إلى أكل بعضهم بعضا كما تروى بعض الروايات .

وفي عهده غلب الوزراء على الخلفاء ، وكان من كبار وزراء العصر اليازورى ، وبدر الجمالى ، والأفضل بن بدر الجمالى ، ويقال أنه تعاقب في عصره أكثر من ثلاثين وزيراً .

وغلب — كما يقول المقرئى — الرعاع على القصر فاضطربت سياسة الخليفة ، وتقلببت به الأحوال ، وتناقضت القرارات ، وتزعزعت أركان الدولة بكثرة التغير في الوزراء والقادة .

يقول المقرئى فى أحداث سنة ٤٥٣ هـ :

« وفى سنة ثلاث وخمسين كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم لكثرة مخالطة الرعايا للخليفة ، وتقدم الأراذل بحيث كان يصل إليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات ، فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ، ووقع الخلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال وقل ارتفاقها ، وتقلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشدة العظمى ، وكان من قديم أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٦٦ هـ وقيامه بسلطنة مصر .

فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجأ عن التصرف إلى أن مات سنة ٤٨٧ هـ فأقام العسكر بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه فباشر الأمور يسيراً ومات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ بعد تولى الأفضل . »

وحدثت فى عهده أحداث داخلية جسام غير تلك الشدة العظمى ، هدمت من أركان الدولة وزعزعت استقرارها . منها انتفاضة بنى قرة سنة ٤٤٣ ، وهم من الأعراب ذوى القوة فى غربى البلاد كانوا بالبحيرة وزحفوا إلى الفيوم وصعيد مصر ووصلوا فى ثورتهم على المستنصر إلى بر الجيزة وهددوا القاهرة .

ولقى المستنصر كثيراً من المتاعب الخارجية رغم أن سلطان الدولة فى عهده بلغ بغداد ، ودعى له على المنبر فيها بعد استيلاء البساسيرى على شؤون الخلافة العباسية لكن الأمر لم يدم طويلاً ، فسرعان ماعلود الأتراك الكرة ، وأعادوا العباسى إلى كرسيه .

وبدأت فى عهده موجة الحروب الصليبية ، واستولى الصليبيون فى أخريات عصره على أجزاء من الشام بمعاودة يزنطة .

ونخلع المغرب ولاءة للدولة ، وأعلن المعز بن باديس استقلاله والدعوة لبنى العباس من جديد ، واحلال مذهب أهل السنة محل مذهب الفاطميين الذى فرضوه على تلك البلاد مدة قوتهم . وقد دعا هذا العمل من بنى صنهاجة حكام القيروان إلى أن يطلق الخليفة بايعاز من الوزير البازورى قبائل بنى هلال وبنى سليم من صعيد مصر ليزحفوا على القيروان انتقاماً من المعز بن باديس . وتم لهذه القبائل الاستيلاء على كثير من ملك

الصنهاجيين وتخريب القيروان . وخلدت تلك الهجرة العربية في ملحمة « بنى هلال » الشعبية التي تتردد على ألسنة الشعراء الشعبيين في سعيد مصر .

ويرجع ابن الأثير أسباب ضعف الخلافة في عهد المستنصر إلى عدة أسباب منها : أن والده الخليفة في بدء عهده كانت غالبية على أمره ، وأنها اصطنعت التسترى اليهودى فصار وزيراً لها ، وأصبحت تدسّ لقتل من لا يعجبها من الوزراء وتولّى من تريد حتى ولى الوزير اليازورى ، فلم يخضع لها وقتل ثم وزر بعده البابلى .

ونشوب النزاع بين العبيد السودانيين والأتراك من جند الخلافة ، وكانت أم المستنصر تغرى السودانيين من بنى جنسها بالأتراك ، بينما كان المستنصر ينتصر للأتراك على السودانيين II . وحدثت بين الفريقين معارك طاحنة خربت لها البلاد . وهزم السودان ، وانتصر الأتراك فطالبوا برواتبهم ، وكانت خزائن القصر خاوية ، فاعملوا النهب وسيطروا على القاهرة وماحولها ، وانهمز السودان إلى الصعيد ونهبوه وسيطروا عليه .

كما أن ناصر الدولة الحمداني جاء إلى مصر ، وشارك في كثير من الأحداث العظام التي أفضت مضجع الخلافة الفاطمية قبل وصول بدر الجمالى ، بما أعمل من الفساد وارتكب من الآثام ، ومادار بينه وبين غيره من الفئات من قتال .

وهكذا انقضى عهد المستنصر والخلافة الفاطمية في مصر قد ثلّت عروشها ، وانزوى الخليفة في قصره لا يملك من أمره شيئاً ، بل يملك أمره غيره من الوزراء ، وتسلمن الوزراء ، وامسكوا بأيديهم زمام الحكم كما فعل البويهيون والسلاجقة بخلفاء العباسيين في بغداد . والتاريخ يعيد نفسه ، وتكرر الأسباب والمسببات التي تؤدى إلى النتائج نفسها في ضعف الدول وانكسار شوكتها .

ومات المستنصر ولا حول له ولا قوة سنة ٤٨٧ وكان عمره سبعاً وستين سنة وتولى بعده ابنه المستعلى .

المستعلى

وتولية المستعلى بالله كانت بمؤامرة من الوزير الأفضل ، لأنه كان ابن أخته ، فأقامه بدلاً من نزار الذى كان مستحقاً للخلافة بتوصية أبيه المستنصر .

يروى ابن سعيد خير وصية المستنصر لنزار ولده دون المستعلى بالله أبو القاسم أحمد فيقول : (١)

« وصل إلى المستنصر الحسن بن صباح القائم بدعوة الاسماعيلية النزارية في زى تاجر فكلمه في إقامة الدعوة له في بلاد العجم ، فأذن له في ذلك سراً . فأظهرها ابن صباح واستولى باسمه على القلاع والبلاد . وقال المستنصر : ومن إمامي بعدك ؟ فقال : ابني نزار — وهو أكبر أولاده ، فخطب له وقام بدعوته . فلما مات المستنصر عدل الأفضل الوزير عن إقامة الدعوة لنزار وأقامها لأخيه المستعلى وثار نزار بالاسكندرية ، وبابعه أهلها وسموه : « المصطفى لدين الله » فخطب لنفسه ولعن الأفضل ، وتجهز الأفضل له ، فحصره بالإسكندرية ، وجاء به أسيراً إلى المستعلى ، فبنى عليه حائطا فمات .

واحتال ابن صباح في وصول بعض أولاد نزار إليه ، فوصل وأقام دعوته .

وكان المستعلى قد ولد سنة ٤٧٦ هـ وبويع له بعد موت أبيه على ما ذكرنا وله من العمر عشرون سنة وقضى في الخلافة سبع سنين ، وظل الأفضل خاله وزيراً له ومستولياً على البلاد طوال مدة خلافته . وتوفى سنة ٤٩٥ هـ .

وخلفه ابنه الأمر وكان صبيّاً في الخامسة من عمره ، ووزيره آنذاك الأفضل المتحكم في دولته .

وظل الأمر بيد الأفضل حتى قتل سنة ٥١٥ هـ ، فوزر له من بعد المأمون البطائحي فاستولى عليه كذلك وأساء السيرة فقتله الآخر سنة ٥١٩ هـ . وقتل معه خمسة إخوة .

وكان من سياسة الأفضل وغيره من وزراء الدولة الذين استبدلوا بالأمر منذ عهد المستنصر أن يشغلوا الخلفاء الصغار باللهو والملاذ ، وأن يغرّقوهم في مثل تلك الأمور لتبعدهم عن مهام الملك .

ويصف المقرئى استيلاء الأفضل على المستعلى ابن أخته فيقول : (٢)

« وبويع بالخلافة سنة ٤٩٠ هـ يوم مات أبوه وهو طفل ، فأحضره الأفضل ابن أمير

(١) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة تحقيق د . حسين نصار ص ٨٠ .

(٢) الحفظ ٢٩٠/٢

الجيش ، وباع له ^(١) ونصبه مكان أبيه ، ونعته بالآمر بأحكام الله ، وركب الأفضل فرساً ، وجعل في سرجه شيئاً مرتفعاً وأركبه عليه لينمو شخص الأمر ، وصار ظهره في حجر الأفضل ، فلم يزل في حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ هـ .
 فقال المقرئ : « فاستوزر الأمر بعده القائد أبا عبد الله محمد بن فاتك البطائحي ولقبه المأمون ، فقام بأمر دولته إلى أن قبض عليه ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ . ففرغ للأمر بنفسه ، ولم يبق له ضد ولا مزاحم ، وبقي بغير وزير ، وأقام صاحبي ديوان أحدهما جعفر بن عبد المنعم ، والآخر سامريُّ يقال له يعقوب بن إبراهيم ومعهما مستوف يعرف بابن أبي نجاح كان راهباً ثم تحكم هذا الراهب في الناس وتمكن من الدواوين ، فابتدأ في مطالبة النصارى ، وحقق من جهاتهم الأموال وحصلها أولاً فأولاً ، ثم أخذ في مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمناء والعمال ، وزاد إلى أن عم ضرورة جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة بحيث لم يخل أحدٌ من ضرره ، فلما تفاقم أمره قبض عليه الأمر وضربه بالنعال حتى مات !! ، فجُرَّ إلى كرسي الجسر وسَمِرَ على لوح وطرح في النيل وجذف حتى خرج إلى البحر المالح » .

وكان الأمر شاباً أسمر شديد السمرة ، — لعله لجدته أم أبيه — حفظ القرآن صغيراً كعادة غيره من أبناء الخلفاء .

وكان يعشق اللهو والغناء ، ويقول الشعر . ومن شعره :

دع اللوم عني لست مني بموثق فلا بدلي من صدمة المتحقيق
 فأسقى جيادى من فرات ودجلة واجمع شمل الدين بعد التفرق

ومنه :

أما والذي حُجِثَ إلى ركن بيته جرائم ركبان مقلدة شُهَبَا
 لا تقحمن الحرب حتى يقال لسى ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
 وينزل روح الله عيسى بن مريم فيرضى بنا صعباً ونرضى به صعبا

وأحب الأمر فتاة بدوية ، فشغف بها ، وبنى لها منظرية بجزيرة الروضة سميت

(١) لم يكن من عادة الفاطميين عند إقامة الخليفة أحد البيعة له ، لأن قيام الخليفة الجديد كان يوصف من الخليفة القائم أو السابق ، إذ الخلافة عندهم إمامة بالوصية لا بالبيعة .

« الهودج » وكان يعبر إليها الجسر الممتد على النيل من بر الفسطاط إلى الجزيرة .

وكان يحب النزهة والاستمتاع بالغناء والطرب ، ومركبه للنزهة يوماً السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، ويركب عشاريه ومن حوله اتباعه في الخليج حتى قصر اللؤلؤة .

وقام ببعض التغييرات والإصطلاحات الإدارية مخالفاً ما جرت عليه عادة آباءه من الخلفاء ، فبعد أن عزل المأمون البطائحي امتنع عن تولية وزير حتى لا يستبد بالآمر وأعاد للخلافة قوتها وامتلك أمور المملكة بنفسه .

قال المقرئى : « وهو الذى جدد رسوم الدولة ، وأعاد إليها بهيجتها بعد ما كان الأفضل أبطل ذلك . ونقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر (الفسطاط) . » (١).

« وكان الأمر — كما قال المقرئى — كريماً ، سمحاً إلى الغاية ، محباً للمال والزينة ، وكانت أيامه كلها هواً وعيشة راضية لكثرة عطائه وعطاء حاشيته بحيث لم يوجد بمصر والقاهرة إذ ذاك من يشكو زمانة البتة إلى أن نكد بالراهب على الناس ، فقبحت سيرته ، وكثر ظلمه واغتصابه للأموال . »

وكثرت المرافعات فى أيامه وأحدثت رسوم لم تكن « وعمرت بعض الأماكن بالجزيرة وتيس ودمياط .

وكان من رجال دولته المشهورين القاضى الجليس بن نعمة الله بن بشير النابلسى ، كما كان من كتاب انشائه سناء الملك أبو محمد الزيدى الحسنى ، والشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، وتاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب الصيرفى ، وابن أبى العرم اليهودى .

وكان نقش خاتمه : « الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين »

رغم أن معظم أيامه كانت رخاء ، إلا أن مصادراته للأموال فى عهد ولاية الراهب كما يقول المقرئى أوقعت الناس فى الخوف والحاجة ، كما أن الغلاء اشتد فى آخر دولته فكان ذلك مما أقلق الناس .

(١) المخطوط ٢٩١/٢ .

ويتهمه المقرئى رغم مدحه له بالسماحة والأدب بالجرأة على سفك الدماء وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح .

وساءت أحوال الدولة الخارجية فى عهده ومنيت بعدة هزائم من الأعداء فقد هاجم الصليبيون بمعاونة الروم البيزنطيين كثيرا من بلاد الشام وثلغوره واستولوا على بعض المعاقل والحصون ، فملكك عكا فى شعبان سنة ٤٩٧ هـ وغزة فى رجب سنة ٥٠٢ ، وطرابلس فى ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ ، وبانياس وجبيل وقلعة بنين بعدها وظلوا يتقدمون ويستولون على البلاد بلداً بعد الآخر حتى سقطت صور سنة ٥١٨ هـ .
وتنتها الهزائم النكراء التى حلت بالمسلمين بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ فكانت الطامة الكبرى ، والنقطة السوداء فى تاريخ الفاطميين حتى استعادها الأيوبيون من بعد .

وانتهت حياة الأمر بمقتله على يد النزارية — كما قيل — وهو فى طريقه إلى معشوقته بالجزيرة سنة ٥٢٤ هـ وله من العمر أربع وثلاثون سنة (١).

الحافظ لدين الله : أبو الميمون عبد المجيد : (٥٢٤ — ٥٤٣)

ولم يكن من ولد الخليفة الأمر ، بل كان ابن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر .

« ببيع له بولاية العهد فى اليوم الذى مات فيه الأمر — ولم يكن منهم منذ قام المهدي من أبوه غير خليفة الا الحافظ والعاقد » (٢)

قال ابن الأثير (٣): « ولما قتل الأمر لم يكن له ولد بعده ، فولى بعده ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم ابن المستنصر بالله . ولم يبايع بالخلافة وإنما ببيع له لينظر فى الأمر نيابة عن الإمام حتى يكشف عن حمل إن كان للأمر فتكون الخلافة فيه ، ويكون هو نائبا عنه . » .

(١) الخطط ٢/٢٩٢ ، والنجوم الزاهرة وحل حضرة القاهرة من ٨٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨٦

(٣) الكامل ٩/٢٥٥

وظل الحافظ نائباً لمدة عامين ، تولى بعدهما الخلافة بصورة رسمية أصلية بعد أن كان يتولاها بالنيابة .

ووزر للحافظ الوزير أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ، فاستبد بالأمر دون الخليفة ، وحجر عليه ، وألزمه بخزانة في القصر لا يدخل عليه أحد إلا من يريده أبو على الوزير . « وبقي الحافظ اسماً لامعنى تحته » على حد قول ابن الأثير .

ونقل ابن الأفضل كل مافي قصر الخلافة إلى داره من الأموال وغيرها ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قتل الوزير سنة ٥٢٦ هـ ، فاستقل الحافظ بالأمر وحكم في دولته وتمكن من ولايته وبلاده .

وظل حال الخلافة الفاطمية في ضعف ، وقوتها العسكرية في اضمحلال وأملاكها في ضمور سواء في أفريقيا أو الشام والمشرق الإسلامي .

وسبق القول بأن موجة الصليبيين كانت قد بدأت تجتاح الشام في آخريات القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي .وانتهى الأمر بقيام مملكة بيت المقدس وإمارات طرابلس وأنطاكية والرها .

كذلك فإن قوة الأتراك السلاجقة ، وهي قوة إسلامية نشأت في المشرق وحلت محل البويهيين — قد أخذت تتزايد رغم انقسامها إلى ثلاث دول في العراق وفارس والشام ، وأرمينيا والأناضول .

وبدأت هذه القوة السلجوقية تتحرك في مواجهة الروم والصليبيين والفاطميين وحدثت مواجهات عديدة بين هذه القوى الثلاث ، تراجع بعدها قوة الفاطميين وتقلص نفوذهم في الشام إلى أدنى حد فلم يعد في أيديهم سوى عسقلان وجزء ضئيل من جنوب فلسطين .

وانشغل خلفاء الفاطميين في الداخل بالصراعات بين الطوائف والقادة والوزراء .

وكان الوزير ابن الأفضل كغيره من الوزراء المستبدين الذين ساعدوا على اهتزاز صورة الخليفة وضياع هيئته بين الناس ، كما قوضوا من مكانة الخلافة واحترامها بين الرعية .

بل ساعد ابن الأفضل وغيره من أمثاله الوزراء على تقويض المذهب الإسماعيلي الذي كانت تقوم عليه دعوة الفاطميين ، ويعتبر المرتكز العقدي لحكمهم وخلافتهم .

قال ابن الأثير إن أحمد بن الأفضل وزير الحافظ أسقط من الدعاء على المنابر ذكر إسماعيل الذي هو جد هم (الفاطميين) وإليه تنتسب الإسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق ، وأسقط من الآذان « حى على خير العمل » ، ولم يخطب للحافظ ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له باللقاب كتبها لهم وهى :

« السيد الأفضل الأجل سيد ممالك أرباب الدول ، والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرتة بماضى سيفه وصائب رأيه وتديره ، أمير الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم ، أبو على أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش » .

وغريب أن يدعى رجل لنفسه هذا كله ، مهما كانت مكانته ، أو كانت منزلته فى الدولة ، فما بال رجل يحتل منصب الوزارة غصباً فى دولة تنهاوى أركانها ويتآلب عليها الأعداء ويحيطون بها من كل مكان ، وتسقط عنها أملاكها بلدا إثر الآخر ولا تملك ردهم ، ولا يطيق هذا الدعى الصمود .. ويكتفى من كل هذا بالكلام دون الفعل ، وكأنه يرضى فى نفسه غروراً يقضه ، وحمقاً دفينا ، مع ضعف عن العمل وقصور فى حماية الثغور ويسمى نفسه بعد هذا شاهنشاهاً وأميراً للجيوش .

وقد علق ابن الأثير على ما اتخذ هذا الوزير لنفسه من القاب ودعا الناس إلى الدعاء بها بقوله : « وإنما ذكرت ألقاب أبى على تعجباً منها . ومن حماقة ذلك الرجل ، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغى أن يكون وزير السلاطين السلجوقية كنظام الملك وغيره يدعون الربوبية . على أن تربة مصر هكذا تولد ، ألا ترى إلى فرعون يقول أنا ربكم الأعلى !! » .

ويغمز ابن الأثير مصر ، وكأنه يريد أن يقول إنها تصنع المستبدين والفراعين ترفعهم من عامة الناس ، وتضعهم بموضع التقديس ، وتعبدهم عبادة الأصنام فيظنونوا أنفسهم آلهة ، وهم من الطين !! .

وتضع الظروف هذا الأرمني الذي جاء جده من الشام لحماية عرش أسياده ،
فإذا به يغصبهم السلطة ، ويتسمى بأمر الجيوش وابنه وحفيده بشاهنشاه ويشاء الله أن
يسخر الناس ، والتاريخ من أمراء الجيوش وشاهنشاهات الزمان بأن ساق إليهم جيوشاً
عبر البحار لتحتل البلاد ، وتقيم مملكة بيت المقدس ويتراجع هؤلاء أمامهم ولا يخشون ،
بل يظلمون في تباهم وادعاءاتهم ، كاهن يحكى انتفاخاً صولة الأسد كما قال شاعر
الأندلس :

مما يزهدنى في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كاهن يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وبعد أن قتل الحافظ وزيره المستبد ، شقيقه بابه ، الذي تدخل في شئون الخلافة بعد
أن بلغ الرجل من الكبر مبلغاً ، وظلت أحوال البلاد في عهده بعد أن حسنت حال
الرعية في سكون ، وإن لم يزد عليها شيء ، وظلت حال الدولة من الضعف وتغلب
الأعداء ، لم تستطع استرداد شيء من أملاكها التي فقدتها .

وتولت دولة الحافظ الذي ملك مايقرب من عشرين سنة بلغ منها من العمر سبعاً
وسبعين سنة عند وفاته ٥٤٣ هـ أو سنة ٥٤٤ هـ .

الظافر بأمر الله اسماعيل بن الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩) وابنه الفائز (في سنة ٥٥٥)
ببيع في اليوم الذي توفي فيه أبوه ، ووزر له العادل ابن السلار الكردي ، فقتل وتولى
الوزير عباس الصنهاجي ، وتمكن ابنه نصر من الخليفة وولى أبوه الوزارة ، وتقرب هو
من الخليفة حتى صار نصر من جلسائه وخدمائه .

واشتهر عباس كما يذكر المؤرخون بالحزم والجلد .
واستطاع عباس وابنه أن يقتلا الخليفة . فسادت الفوضى البلاد ، وظهر وهن الدولة .
وتمكن الصليبيون في عهد الظافر من الاستيلاء على عسقلان وبعد مقتل الظافر على
يد عباس وابنه نصر ، أجلس ابن الخليفة الطفل وله من العمر خمس سنين على سرير
الخلافة .

ونهب عباس القصر ، واحتاز كنوزه ، ولم يتم الأمر له ، بل اختلفت عليه الكلمة ،

واستنصر نساء القصر بالملك الصالح طلائع بن رزّيك ، ووجهوا له شعورهن طى الكتب ، وكان واليا على المنيا ، فسار إلى القاهرة ، وفر أمامه عباس بالذخائر التى لا تحصى إلى الشام ، فأسره الأفرنج الصليبيون فى الطريق واستولوا على مامعه وقتلوه .

ودخل طلائع إلى القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر ، وشعور النساء التى أرسلت إليه من القصر معقودة على رعوس الريح .

وفاوض الصليبيون فى إعادة نصر بن عباس إلى القاهرة ويترك لهم مالا حتى أسلموه إليه ، فقتله الصالح وصلبه على باب زويلة .

وسكنت الأحوال بعض الوقت فى عهد الصالح ، بعد أن بطش برعوس الفتنة ، وانزل بكبار رجال الدولة العقاب واستولى على الأموال ، واستبد بالأمر إلى أن قتل .

العاقد للدين الله (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ)

وهو آخر الخلفاء الفاطميين ، تولى طفلاً ، وقام بأمره الوزير طلائع ابن رزّيك حتى قتل فى أحد دهاليز القصر ، فوزر له ابنه رزّيك من بعده ، ولكن العرب تمكّنوا منه وقتلوه ، وتولى شاور الوزارة ، ونافسه فيها ضرغام ، وقام الصراع بينهما وتدخل فيه نور الدين محمود بن زنكى وملك بيت المقدس ، حتى انتهى الأمر بحريق الفسطاط . فى تلك الفتنة . وجىء أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين .

وبعد موت العاقد . استولى صلاح الدين على مصر وأقام دولة الأيوبيين . وذلك سنة ٥٦٧ هـ .

رسوم الخلافة

احتفظ الفاطميون طوال مدة حكمهم في مصر للخلافة ببهاء رسومها ، وفخامة مظهرها بما اتخذوه من القصور الفارحة ، المجهزة بأفخر الرياش والتي حشدوا لها من الأموال . لإضفاء الفخامة ما تحدثت به كتب التاريخ حتى عدت من البهاء والرونق ، كما رسمها خيال المؤلف لقصور ملوك ألف ليلة وليلة .

وذكر المؤرخون بناء الخلفاء كثيرا من القصور ، من أولها ما بنى للمعز من القصرين الشرق والغربي ، ثم قصر اللؤلؤة ، وقصر الذهب وغيرها من القصور والمناظر التي بنيت على الخليج ، أو على شاطئ النيل أو بحيرة الحبش جنوب القسطنطينية ، أو بجزيرة الروضة .

وكان ثراء تلك القصور خرافيا .

ففي قصر الذهب كانت توجد قاعتان ، قاعة الذهب ، وقاعة الفضة ، الأولى كانت قاعة العرش أو كرسي الخلافة ، والثانية كانت قاعة المجالس والمقابلات وكسيت جدران القاعة الأولى بالذهب وطعم سرير الخلافة بالأحجار الكريمة ووضع على منصة عالية تتصدر القاعة مذهبه ومحلاة بالوشى .

وقد أحاطت أجمات من النخيل المذهب المثقل بحمله من الجواهر على هيئة القمر والشجر المثقل بالجواهر كذلك على شكل الزهر والثمار ، كما صنعوا من الحلى والأحجار الكريمة على هيئة الطير الراققة على غصون الأشجار وبعضها صنع من الذهب المزخرف بالميناء متنوعة الألوان ، تصدر منها أصوات أشبه بالصغير والتغريد .

ونجترى من بعض كتب التاريخ ما يرسم لنا صورة لتلك القصور . يقول المقرئى : (١)

« علم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر ، منها القصر الكبير الشرقى الذى وضعه النائد جوهر عند ماأناخ في موضع القاهرة ، ومنها القصر الصغير الغربى ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الاقبال ، وقصر الظفر ،

(١) ٣٨٣/٢ الخطط

وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الرمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ، ويقال لها القصور الراهرة ، ويسمى مجموعها القصر

وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبستان الكافورى . وكان لهم عدة مناظر وآدر سلطانية غير هذه القصور ، منها دار الضيافة ، ودار الوزارة القديمة ، ودار الغرب والمنظرة بالجامع الأزهر ، والمنظرة بجوار الجامع الأحمر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ، ومنظرة الغزالة ، ودار الذهب ، ومنظرة المتس ، ومنظرة الدكة .. وقبة الهواء بالمقطم (مكان القلعة الآن) والبساتين الجيوشية ، والبستان الكبير .. ودار الملك بمدينة مصر (الفسطاط) ومنازل العز بها ، ومنظرة الصناعة بالساحل ، ومنظرة بجوار جامع القرافة الكبرى المعروف اليوم بجامع الأولياء .. والمنظرة ببركة الحبش .

ويصف المقرئ القصر الكبير (الشرقى) فيقول :

« وهذا القصر كان دار الخلافة ، وبه سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم . وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها « قاعة الذهب » . وكان يقال لقاعة الذهب قصر الذهب وبهذه القاعة كانت تجلس الخلفاء في المركب يوم الاثنين ويوم الخميس ، وبها كان يعمل سباط شهر رمضان وسباط العيدين . وبها كان سرير الملك .

ويكون المجلس المذكور معلقاً فيه ستور الدياج شتاء والديقى صيفا ، وفرش الشتاء الصوف مطابقاً للدياج ، وفي الصيف الحرير مطابقاً للديقى مابين مطيرى وليرستانى مذهب معلوم المثل . وفي صور المجلس المرتبة المؤهلة لجلوس الخليفة في هيئة جليلة على سرير الملك ، فيكون في وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه .

فإذا تهيأ للجلوس استدعى الوزير من القطع إلى باب المجلس المذكور وهو معلق وعليه ستر ، فيقف بمخائه ، وعن يمينه زمام القصر (صاحب القصر المشرف على ادارته) ، وعن يساره زمام بيت المال ، فإذا انتصب الخليفة على المرتبة ونزع أمين الملك — أحد الاستاذين الثنكين الخواص — الدواة مكانها من المرتبة ، خرج ... فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوقون أرباب الخدم الجليلة وغيرهم ، وفي خلاصهم قراء الحضرة ، فيشير صاحب الثنل إلى الأستاذين ، فيرفع كل منهم كتاب الستر فيظهر الخليفة جالساً بمنصبه المذكور ، فتستفتح القراء بالقرآن الكريم . ويستلم

الوزير بعد دخوله إليه ، فيقبل يديه ورجليه ا ، ويتأخر ممدار ثلاثة اذرع وهو قائم قنر ساعة زمانية ، ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن ، وتطرح له مخدة تشرىفا ، ويقف الأمراء فى أماكنهم المقررة ، فصاحب الباب وأسفهلار العساكر من جاتى الباب يمينا ويساراً ، ويلهم من خارجه لاصقاً بعقبته زمام الأمرى والحفاظية كذلك ثم يرتبهم على مقاديرهم ، فكل واحد لايتعدى مكانه هكذا إلى آخر الرواق ، وهو الإفريز العالى عن أرض القاعة ، ويعلوه السباط على عقود القناطر ... » .

وهكذا يترتب الناس فى المجلس هذا كل حسب مقامه ، ومنزله فى الدولة ويقف الحاجب بالباب ينادى على من يدخل باسمه ، يقول المقريرى :
« فإذا انتظم ذلك النظام ، واستقر بهم المقام فأول مائل للخدمة بالسلام قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام فيجيز صاحب الباب القاضى — أى يدخله — دون من معه ، فيسلم متأدبا ، ويقف قريبا ، ومعنى الأدب فى السلام أنه يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة . ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته ، فيتخصص بهذا الكلام دون غيره . من أهل السلام .

ثم يسلم الأشراف الأقارب — من الفاطميين ، والأشراف من الطالبين يقدمهم نقيبهم .

ويدخل بالسلام من خلع عليه الولايات (أى أمراء الأقاليم) .
وبعد أن تنتهى مراسم المجلس ، وأعماله ، يخرج الناس ، أو يؤمرون بالخروج حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ، ويخرج فيركب إلى داره على عادته .. ثم يرخى الستار ، ويفلق باب المجلس إلى يوم مثله فيكون الحال كما ذكر .. » (١)

وقد تلبو هذا المراسم غريبة فى دولة إسلامية بأمر دينها بالبساطة والتواضع وبخاصة من أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ومن هنا يظهر لقارئ التاريخ الإسلامى كيف أن حكام المسلمين قد ابتعدوا عن روح الإسلام وبساطته ، ونبلوا سيرة النبى صاحب هذه الدعوة ، وخلفائه الراشدين ، وانحجوا بمراسم السلطنة إلى ماورثوه أو تأثروا به عن

(١) الخطاط ٣٨٦/١

قياصرة الروم ، وأكاسرة انفرس ، وماكان لهم من الطقوس لإظهار الحاكم بمظهر الهيبة والتقديس الذى يقترب من الإجلال والتعظيم للمعبود لا للفرد العادى من البشر ، وإلا ففيم هذه المقصورة والستر وفيم هذا الإجلال والتعظيم ، وفيم هذا الحرس الشديد ، والأعوان وفيم التحقير والتهوين للرعية ، وإلزامهم ، بالركوع والسجود وتقييل الأرض ، وتقييل الأيدى والأرجل للخلفاء . وأين هذا كله من المثل الإسلامية ، والدعوة إلى أن لا يتكبر المؤمن ولا يتجبر ، فإنه لن يخسرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً .

وقد وصف الله سبحانه عباد الرحمن بقوله : « عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » .

فأين هذه المثل الإسلامية فى القرآن وسنة الرسول وسيرته وسيرة صحابته مما فعله حكام المسلمين والذين ادعوا الخلافة والإمامة من عباسيين أو فاطميين ، ومن غير العباسيين والفاطميين ممن كانوا أقل قدراً ، وإن حاولوا التقليد ، بمناذاة الكبار .

ولم تكن رسوم الفاطميين قاصرة على مجالسهم فى القصور ، بل نعدتها إلى مواكبهم فى المناسبات والأعياد ، وحتى الخروج للصلاة ، أو النزهة ، أو الصيد .

وننقل عن المسبحى وصفاً لموكب الخليفة الظاهر فى سنة ٤١٥ هـ بمناسبة استهلال رمضان قال : « واستهل شهر رمضان بيوم الخميس فقيه ركب مولانا — صلوات الله عليه — فى عبيده وعساكره ورجال دولته ، وعليه قميص مزركش ، مذهب ، ديقى وعمامة مذهب مثله ، وعلى رأسه مظلة مذهبة يحملها نسيم الصقلى الملقب ببهاء الدولة ، وخلفه ابن فتوح الكتامى يحمل الرمح على رسم أبيه . وخرج بين يديه الأتراك ، والكتاميون ، والقيصرية والعبيد ، والباطلية ، والديلم ، وسائر الطوائف . وركب سائر رجال دولته — عليه السلام — خلفه مع نسيم الصقلى ولم يستدع من الشيوخ أحداً لمسايرته ، وسار إلى أن قرب من مسجد تبر . وعاد إلى قصره سالماً والحمد لله .. » .

وقال فى موكب خروجه لصلاة الجمعة :

« وفى يوم الجمعة لليلتين حننا من شهر رمضان ركب مولانا — صلوات الله عليه — إلى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر . وركب بين يديه سائر شيوخه وخوادم دولته ،

وعليه طيلسان شرب مَقُوط ، وعلى رأسه عمامة قصب بياض مذهبه ، وعليه ثياب ديبقى بياض ، والمظلة ديبقى مذهبة في ذهابه ، فلما عاد كان على رأسه مظلة ديبقى بياض مختومة ، مذهبة . وطلع معه المنبر قاضي القضاة أحمد بن محمد بن أبي العوام ، وإبراهيم الصائغ المؤدب المعروف بالجليل ، فأرخيا عليه شخص القبة التي في أعلا المنبر وهي منشأة بمصنعت بياض ، والعنبر يُسَجَّرُ بين يديه في المداخلن الذهب والفضة والجوهر ، وخطب أحسن خطبة وأتمها وأكملها ^(١) .

وكان من رسومهم عند تولي الخليفة أن يشق موكبه العاصمة على فرسه والنبلاء وعلية القوم يسرون خلفه على أقدامهم حتى باب زويلة ، وباب الفتوح ويمر الخليفة على فرسه الأبيض محاطاً بالخصيان يحملون في أيديهم المجامر يحرق فيها العنبر والصبر ، وتتطاير أدخنة الند .

وكانت العادة أن يسجد الناس على الأرض لحظة مرور الخليفة ووقوع أعينهم عليه داعين له بالخير .

(١) أخبار في عامي ٤١٤ ، ٤١٥ هـ .

وزراء الفاطميين

اشتهر في العصر الفاطمي جماعة من كبار الوزراء كان لهم الشأن الأكبر والأثر الواضح في تسيير دفة الأمور في الدولة ، وكانوا في عصر قوة الخلفاء عصر المعز والعزیز والحاكم والظاهر رجالاً مرموقين معروفين بالمقدرة الادارية والعلمية والكتابية ، فكانوا مستشارين للخلفاء ومشاركين في توجيه سياسة الدولة ، وإن استبد الخلفاء الأموياء بهم ، فكانت الكلمة كلمتهم على عكس ما حدث بعد ذلك في عصر ضحائف الخلفاء منذ عهد المستنصر والمستعلی والآمر والحافظ حتى آخر الدولة عندما استبد الوزراء بالأمور دون الخلفاء . فكانوا أصحاب الحبل والعقد ، واتخذوا لأنفسهم ألقاب أمراء الجيوش والشاهنشاه ، والسلاطين ، وحجروا على الخلفاء ، فلم يعد لهم ذكر إلى جانبهم .

فمن وزراء الفئة الأولى يعقوب بن كلث (١) . ولم يلقب بهذا اللقب بادئ الأمر ، لأن هذا اللقب لم يكن مقبولاً عند الفاطميين ، « وكان قاضى القضاة أجل أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلا في عهد الخليفة الفاطمي الثاني العزيز بالله ، وهو الوزير ابن كلث الذى كان يهوديا فأسلم (توفي عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) » (٢) .

وكان ابن كلث يعمل في دولة الإخشيد ، وكان « من أهل ملة موسى ودين اليهودية » وهو من أولاد هارون بن عمران ، ثم أسلم أيام كافور الإخشيدى فحسن إسلامه ، وكان ذا فطنة وذكياً ، وكان له تفنن في علم التوراة وغيرها من العلوم ، ولما وصل القائد جوهر إلى الديار المصرية تعلق بخدمته ، وارتفع عنده في درجته لما رأى فيه من الفطنة وعلو الهمة وحسن الأدب والنظر من العلم في كل باب . ثم هاجر إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله إلى أرض المغرب . ولم يزل يعملو صعداً ، ويزدلف علواً مع أولياء أهل الهدى ، وعاد مع المعز لدين الله حين قدومه إلى مصر فارتفع عنده في التفضل

(١) راجع ترجمته في الكامل ٤٤٨/٧ والاشارة ص ١٩

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع قديم متر ١٥١/٢ — ترجمة د محمد عبد الهادي .

والتندر حتى جئنا له المعز لدين الله في الوزارة مع عسلوج ابن الحسن في بقية أيام المعز لدين الله بعد وفاة الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات .

ولما جاء العزيز رفع من قدر ابن كلس واختصه بأمور الدولة وأموالها ، رلقبه بالوزير الأجل . وأمر أن لا يخاطبه أحد ولا يكتبه إلا به . « (١) » .

ويقول صاحب عيون الأخبار : « وكان يعقوب الوزير عند إمامه مقرباً ، مكرماً ، معززاً ، مقدماً وله أخلاق سنية وسيرة صالحة ، وأعمال رضية ، وحسن سياسة وعدل ، ومكارم ظاهرة ، وفضل وعلو همة ، مقتنياً فعله لآثار الأئمة متأدياً بأدابهم ، مجهداً نفسه في سلوك منهجهم ، واقتفاء آثارهم ، محباً للعلم ، مؤثراً لأهله ، مقدماً لهم في قوله وفعله . » .

وتعمق ابن كلس في فقه الفاطمية يقول ابن الصيرفي : « في سنة سبعين وثلاثمائة أحضر جماعة الفقهاء وأهل الفتيا وأخرج لهم كتاب فقه عمله وقال : هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آباءه الكرام . وقرأ عليهم رسالته وبعض كتاب الطهارة . وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية . »

وبلغ من العزيز بالله منزلة رفيعة حتى إنه زاره في مرضه عائداً فقال له : وددت لو أنك تبتاع فأبتاعك بملكى ، أو تفدى ، فأفديك بولدى ، فهل من حاجة توصى بها يا يعقوب ؟ . فبكى وقبل يده ، وقال : أما فيما يخصنى فأنت أرفعى لى من أن أسترعيك إياه .. ولكنى أنصح لك فيما يتعلق بدولتك . سالم الروم ماسالوك ، وأقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولاتبى على مفرج بن دغفل متى اعترضت لك فيه فرصة ومات . فأمر العزيز عليه السلام بأن يدفن في داره في قبة بناها وصلى عليه وألحده بيده في قبره وانصرف حزينا لفقده ، وأمر أن تغلق الدواوين أياماً بعده . « (٢) » .

وتعاقب الوزراء من بعده والقائمون بأعمال الوزارة في أيام العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله والظاهر ، ولم يكن شأن الوزير آتئذ بالشأن الخطير ، بل كان عمله تدبير الأمور ، والإشراف على الدواوين ، ولم تكن له الكلمة مع الخليفة وإن حاول بعضهم

(١) عيون الأخبار ص ٢٢٩

(٢) الإشارة ص ٢٣ .

الاستبداد مثل برجوان في بداية عهد الحاكم ، فكانت نهايته القتل وهكذا كانت خاتمة كل من حاول أن تكون له الكلمة إلى جانب الخليفة ، أو لاحظ عليه الخليفة انحرافاً ، أو محاولة لاكتساب المال وجمع الثروة ، فتكون النتيجة العقاب الشديد بالإقالة ، والمصادرة للمال ، والحبس ، وقطع اليد ، والقتل .

وقد نكل الحاكم وقتل كثيراً من وزرائه وكبار رجال دولته وجاء المستنصر بالله فعظم شأن الوزارة لضعف الخليفة ، وتسلب بعض نساء القصر وخدمة ، وبدأ بعهد المستنصر عهد الوزراء العظام ، وأولهم الوزير اليازورى .

اليازورى : أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن

تولى الوزارة للمستنصر عام ٤٤٢ هـ ولقب بألقاب الوزير الأجل الأوحى المكين سيد الوزراء ، تاج الأصفياء قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجيد ، خالصة أمير المؤمنين .| ولقب كذلك بالناصر للدين غياث المسلمين . ثم عوّض من لقب خالصة أمير المؤمنين بخليل أمير المؤمنين .

قال ابن الصيرفى : ونظر فى الوزارة فهض ، وكان يبدأ باسمه فى عنوانات الكتب ووفاء ملوك الأطراف فى المكاتبه حقه من الرياسة ما خلا المعز بن باديس الصنهاجى صاحب القيروان ، فإنه قصر به فى الكتابة عما كان يكتب به من تقدمه من الوزراء . فاستدعى نائبه وعته عنده عتياً جميلاً .. وهدد اليازورى المعز بن باديس بذبحه وأخذ يسكين من دواته وقال لنائبه :

« اكتب إلى هذا البربرى الأحمق ، وقل له إن عقلت وأحسنيت أدبك ، وإلا جعلنا تأديك بهذه » .^(١)

وكان ماكان من خروج ابن باديس وماتحت حكمه فى أفريقيا عن طاعة المستنصر ، والخطبة للخليفة العباس ، وانتقاض أمر الدعوة الفاطمية ، وعودة الدعوة لأهل السنة ومحاصرة الشيعة الفاطميين ، والتكيل بهم فى القيروان ، مما حفز المستنصر بتحريض من اليازورى على دفع بعض قبائل العربان من صعيد مصر لعرو شمال أفريقيا وتخريب

(١) الإشارة ص ٤٢ .

القيروان ، والاستيلاء على بلاد ابن باديس .

وتصدى اليازورى كذلك لبعض الأحداث الداخلية الخطيرة ، ومنها ثورة قبائل بني قرة والطلحين في شمال غرب مصر وبعض مدن الصعيد .

وكان موقف اليازورى حرجاً بهذه الأحداث ، حتى تم النصر ، فاصدر الخليفة المستنصر أمراً قرىء بمساجد مصر وأسواقها يحتوى على تفخيمه وتكريمه ، « وتهدد المشنعين عليه وتمثل لهم بقول الله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لغربناك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ويتضمن أبيات ابن داني :

إلى ما تهواه رُكُـبَابُ ولدى تخرجُ شرُابُ
لا عائلأ شيعأ ولؤديف لى من كَفَك العلقمُ والصَّابُ
ما حطك الواشون من ربة عندى ولا نرك منصابُ
كانما اتنوا ولم يعلموا عليك عندى بالذى عابوا

وبهذا ارتفعت منزلته عند الخليفة ، وتمكن منه ، وازداد به وثوقاً . بعد أن حاول بعض معارضيه انتهاز فرصة تلك الأحداث التي أشرنا إليها والدس له والوقعة حتى تسقط هيئته ، وتندى منزلته عند المستنصر .
وحدثت في عهد اليازورى الشدة المعروفة

ومن الأحداث الخارجية الهامة في عهده ، انتفاض البساسيري في بغداد على الخليفة العباسي وانحيازه إلى الفاطميين ، وقد كاتب البساسيري اليازورى بذلك ، فعاضده اليازورى وبعث إليه بالمؤيد في الدين أبى نصر هبة الله بن موسى داعى الدعاة ، وأصبحه الأموال .

وأنصر البساسيري بتأييد من مصر على طغرل بك التركي السلجوقي في وقعة سنجار التي قال فيها ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ) :

عجبت للمدعى الآلـ حاق ملكأ وغايته يفسداه الركـود
ومن مستخلف بالهون يرضى يذاذ عن الحماض ولا يدو

وأعجب منهما سيف بمصر تقام به يستنجد الحساد

يغمر الخليفة العباسي لضعفه وتهاونه ويشيد بالفاطميين وقوتهم ، وهمة أعزائهم .
ومن صفات اليازورى — كما روى ابن الصيرفى — أنه كان لا يستبد برأيه ، ولا
يأنف من مشاورة أصحابه من ثقة أصفياه . وكان كثير الحياء .

ومع ماأنجزه اليازورى فى وزارته ، ومع صفاته ، وما قيل من قربيه ، وثقة الخليفة
المستنصر به إلا هذا كله لم يشفع له فى خاتمة وزارته فقد بلغ التآمر ضده ، والدس عليه
واتهم باستحوذ الأموال وتهريبها إلى الشام ، وبوقائع أخرى منها أنه عول على الحرب ،
فقبض عليه فى محرم سنة ٤٥٠ هـ وسير إلى تينس فقتل هناك .^(١)

وتوالى الوزراء من بعده ، واتخذ المستنصر عدداً لم يكن بينهم من بلغ مكانة
اليازورى على الرغم مما اتخذوا لأنفسهم أو أضفى عليهم من الألقاب والصفات حتى
انتهى الأمر إلى مايشبه الفوضى لكثرة عزل الوزراء وتولية غيرهم ، وتدخل خدم القصر
ونسائه فيمن يعزل أو يولى حتى استدعى بدر الجمالى من الشام .

بدر الجمالى : أمير الجيوش المستنصرى

وكان من ممالك الفاطميين ، أرمنى الأصل ، رتبى فى القصر ، وتلرج فى الخدمة
حتى ولّى بعض ولايات بالشام ، وصارت له دمشق وسائر الشام .

واستدعى الجمالى من الشام بعد أن فسدت الأمور فى القاهرة ليعيد النظام ، والهيئة
إلى قصر الخلافة .

قال ابن الصيرفى : « وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت ، والأمور قد
تغيرت وطوائف العساكر قد تبعثرت وتخرّبت ، والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت ،
والوزراء يقنعون بالاسم دون الأمر والنهى .

والرخاء قد أيس منه ، والصلاح لايطمع فيه ، ولو أنه قد ملكت الريف ، والصعيد
بأيدى العميد ، والطرقآ قد انقطعت برأ وبحراً إلا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع
ركوب الغرر وشدة الخطر .

(١) الإشارة ص ٤٥

والمارقون ينوى بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ، ويضمر كل منهم لصاحبه الاغتيال
والبغي . »

وكان سبب استدعاء المستنصر لبدر الجمالى ماأشرنا إليه من الفوضى التى انتهت
باقتتال جند الخلافة بين الأتراك والعبيد والعرب ، وكانت الأحداث بين قائدين من قواد
الجند هما « بلدكوز » التركى ، وحسن بن حمدان ، وتمكن فى نهايتها بلدكوز من قتل
ابن حمدان والاستيلاء على السلطة والحجر على الخليفة .

قال ابن الصيرفى : « وكان بدر الجمالى يتحسر على مايلغىه من أمرها — الخلافة
والقاهرة — ويتلهف على كونه بعيداً عنها ، وينتظر فرصة ينتهزها فى المهاجرة إليها وحين
وصله أمر الخليفة المستنصر بالقبض على بلدكوز التركى وايداعه خزانة البنود ، وانتهى
أمره بها . هم بالإسراع إلى القاهرة ليرد إليها النظام فكان دخوله فى شهر ربيع الآخر
سنة ست وستين وأربعمائة (٤٦٦ هـ) .

قال ابن الصيرفى : فخلع عليه ورد النظر إليه ويطل حينئذ أمر الوزارة .^(١)
وفى هذه العبارة الأخيرة دلالة على تغير هذا المنصب ، فلم يعد الوزير كما كان شأنه من
قبل من رجال القلم ، بل حل محله من يقوم بأمر الخلافة جامعاً بين عمل الوزارة
وقيادة الجيوش ، بمثابة النائب عن الخليفة والسلطان الذى بيده تصريف أمور الدولة
كلها كما فعل البويهيون بالخلفاء العباسيين فى بغداد والسلاجقة من بعدهم .

وعمل بدر الجمالى عقب دخوله القاهرة على استتباب الأمن ، وإعادة أمور الدولة إلى
ماكانت عليه ، والضرب على أيدى العصاة والمخربين ، ودحر الثائرين والمارقين
الطامعين . وأصلح الأحوال بالباب (أى القصر) وأقام الهيبة ، ورفع منار الدولة ورتب
الدواوين والمستخدمين ، وقرر أمر الرجال والأعمال على ما هو مستقر . » .

وبعد أن فرغ من ترتيب أحوال الدولة ، ودواوينها ، وإدارتها توجه إلى إخماد الفتنة
والقضاء على رعويسها داخل البلاد وخارجها . فتوجه إلى حرب لواته ، واسترد ماكان
من الأعمال بأيديهم ، ثم افتتح بعد ذلك بلاد الصعيد ، وجعل الأعداء بين قتيل وجريح
وشريد أو طريد .

(١) الإشارة ص ٥١ .

وكان أحد قادة الأتراك وهو اتعز بن أدق الخوارزمي قد هاجم شمال البلاد واستول على بعض قرى الريف في شمال شرق مصر ، فخرج إليه بدر الجمالى وكسره وقتل جميع رجاله .

وأخذ بدر فى تقوية الجيش ، والأسطول ، وأساليب الدفاع عن العاصمة حتى لاتحدث أحد الخارجين نفسه بالاستيلاء عليها ، فأقام سور القاهرة الكبير الذى لاتزال بعض أجزائه إلى الآن ، وقوى أبوابه وبنى أبواباً جديدة . يقول المقرئى : أن السور الثانى للقاهرة بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وزاد فيه الزيادات التى فيما بين باى زويلة وباب الفتوح وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر .

وبنى بعض المساجد ، وقام بالعمارة والإصلاحات فى القاهرة .

وكان فى شخصيته عزوف النفس ، شديد البطش ، على الهمة ، عظيم الهبة ، مخوف السطوة .
وتوفى الجمالى سنة ٤٨٨ هـ .

الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٨ هـ)

تولى بعد أن اشتد المرض بوالده ، وكان قد خشي أن يشب على المنصب أحد أتباع والده ، واسمه صافى ويلقب بأمين الدولة .

وبعد توليه وصدور المرسوم بذلك من الخليفة الناصر ، لقب كأبيه بالسيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام ، شرف الأنام ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه .

وقصة غلام بدر الجمالى صافى مع ابن سيده الأفضل تصور ماكان يحدث بين رجال القصر والخدم من طموح ، وانتهاز للفرص كى يشبوا إلى مناصب الوزارة بالتآمر ، وجمع الأعوان ، والضحك على الناس والتقرب إليهم بكل قول مفترى .

يقول ابن الصيرفي : « وكان سبب توليه — الأفضل — مع بقاء أبيه وحياته والبدار
 بذلك من غير انتظار لوفاته أن غلاماً له يسمى صافيا ويلقب بأمين الدولة كان استخلصه
 وقدمه وفخمه وعظمه وذخره لعقبه ، وأسلفه حسن الظن به يئس من عافية مولاه فسوّلت
 نفسه ، وزين له هواه أن ينتصب في منصبه ويتولى الأمر من بعده ، وجهل أن سيادة
 البرايا ، وسياسة الرعايا ، ونفاذ الأمر والحكم ، ونيل السلطان والملك شيء لا يدرك
 بالسعي ، والحرص ، ولا يبلغ بأمانتي النفس ، وإنما هو أمر يخص الله سبحانه به من
 يصطفيه ، ويعقده تعالى لمن يراه أهلاً أن يجعله فيه . وأخذ أمين الدولة هذا يعجل تكفير
 النعمة بغياً واغتراراً ، ويصرُّ على المعصية عتواً واستكباراً ، ويستنجد بمن رآه مولاه لخدمة
 ولده من الرجال ، ويستعين بما أعده له وجمعه من الأموال . وجلس في داره فاجتمع إليه من
 خدعه وإستهواه وإستماله وإستغواه . وخيل له أن الإمام المستنصر بالله يخاره على السيد
 الأجل الأفضل ، ويؤثره ، ويعتمد عليه في دولته ، ويستوزره . فراسله السيد الأجل الأفضل
 مستميلاً له مستصلاً ومستهجناً لهذا الفعل مستقبها ، ومذكراً بماله ولوالده عليه من
 الحقوق ، وتحذيراً سوء عاقبة المروق والعقوق . وهو يتأدى في التمرد والطغيان ، ويستمر على
 الظلم والعدوان . وركب إلى باب الذهب في لفته وجماعته طامعاً في انتظام حاله وبلوغ
 إرادته ، فلما لم يصل إلى الإمام المستنصر بالله انكشف بآله ، واستحکم بأسه ، وصعقت
 نفسه ، وانحل أمره . وركب السيد الأجل الأفضل إلى باب العبد فأبى أمير المؤمنين في أمره
 إلا حكم الوفاء ، وكرم الخلفاء ، والسمو به إلى أعلا مراتب الاصطفاء ، فحقق له ماتمناه
 وودّه ، وأجراه مجرى أبيه ، وستر به مستره . فعند ذلك طلب منه أمين الدولة أن يشملمه
 بعفوه ، وأن يؤمنه على نفسه ، فأسعفه بمطلوبه ، وصفح له عن ذنوبه ، وأبقاه واحداً من
 أمراء الدولة من غير تعويل عليه في خدمة . »

وهكذا تولى الأفضل بعد أن حاول ذلك الغلام ربيب والده أن يشب على الوزارة والإمارة
 فضلاً ، وطمعاً .

وَجُمع للأفضل ما كان لأبيه من السيف والطيلسان علامة قيادة الجيوش وقضاء القضاة ،
 أو أعمال الحرب وأعمال الإدارة ، قيادة الجيوش والوزارة .

وظل الأفضل في منصبه يولى مكان أبيه بعد وفاته ، ومالئ الخليفة المستنصر أن توفي
 بعده في العام نفسه ، فاستلم الأفضل على تولية المستنصر ابن المستنصر ، وهو في المرتبة

نفسه أصغر أبنائه ، وابن أئنت الأفضـل ، وكان يكبره ثلاثة إخوة ، أكبرهم نزار الذى كان حين وفاة أبيه بالإسكندرية فلما علم بما فعله الأفضـل رفض الطاعة للمستعـلى وكان طفلاً ، وغضب على الأفضـل واعتصم ومن ناصر بالإسكندرية . ويبدو أن أمين الدولة المذكور كان مع نزار .

وقامت بين الأفضـل ونزار أحداث حاصر الأفضـل الإسكندرية بمجنوده ، ومالـت أن يستسلم نزار للأفضـل فجاء به إلى القاهرة أسيراً ، وسلمه للمستعـلى فبنى عليه حائطاً ومات نزار مقهوراً .

وأشيع أن المستنصر استخلف نزاراً إبنه الأكبر ، وخالف الأفضـل هذا الأمر بتنصيب المستعـلى ، وثار أنصار نزار وخرجوا على الطاعة ، ولما غلبوا على أمرهم تفرقوا فى البلاد ورفضوا إمامة المستعـلى ، ونادوا بإمامة نزار .

ومنذ ذلك الحين انقسم الفاطميون الإسماعيلية إلى فرقتين النزارية وأنصار المستعـلى . وظل النزارية يترهبون بالأفضـل ، والمستعـلى حتى تمكنوا منه فقتلوه .

وأخلف الحسن الصبـاح داعية الإسماعيلية لنزار ، ودعا أتباعه إلى إمامته ، واعتصم بقلعة الموت ببلاد فارس . وكان لهؤلاء النزارية دور كبير فى السياسة والحرب طوال القرنين الخامس والسادس .

وعلى الرغم من أن الأفضـل استطاع أن يضبط الأحوال الداخلية فى الدولة ، وأن يخضع الرعية لحكمه ، ويكون هو الرجل الأقوى فى مصر كلها ومايتبعها من ولايات ، إلا أنه منى بكثير من النكسات فى بلاد الشام ، لضغط الصليبيين الوافدين من البحر والروم ، وأعداء الفاطميين التقليديين من الأتراك السلاجقة ، وعرب طى بزعامة بنى الجراح ، وعرب كلاب والحمدانيين أو بقاياهم فى شمال الشام .

وحدثت فى عهده نكسة احتلال الصليبيين لبيت المقدس بعد حصار إستمر أربعين يوماً فى يوليو سنة ١٠٩٢م شعبان سنة ٤٩٢ هـ . فقتل الصليبيون من المسلمين بالمسجد عدداً هائلاً من الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، البنين والبنات بلغ عددهم داخل المسجد الأقصى مايتيف على سبعين ألفاً^(١)

(١) الإشارة ص ٦٠

قال ابن الصيرفي^(١): « وما زال الأفضل يجتهد في جهاد الفرنج (الصليبيين) نيفاً وعشرين سنة إلى أن اغتيل سلخ رمضان من سنة ٥١٥ هـ فمضى شهيداً إلى رحمة الله ورضوانه وخرج من الدنيا والعدو باق بالشام مستول على معظم ثغوره وعمله ، متصرف في سهله وجبله والله عز وجل يجعل عزمات المقام الأعظم المأمونى ماضية بحواره ومعفية على آثاره » .

وذكر ابن سعيد أن النزارية قتلوه لاغتصابه الإمامة والخلافة من إمامهم نزار إلى المستعل ، وقيل أن الأمر وضع عليه من قتله . وكان عمره عند مقتله سبعا وخمسين سنة ، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة .

وكان الأفضل أدبيا يقول الشعر ويقرب الأدباء والشعراء ، وخدم في قصره كثير من الأدباء والشعراء أمثال ابن الصيرفي ، وأمية ابن أبى الصلت القيروانى ، وظافر الحداد السكندرى ، وقصده ابن مكنسة فلم يحظ عنده ، ووفد إليه عديد من شعراء مصر والشام وسائر بلاد العرب والإسلام فأعطاهم وأجزل لهم العطاء .

وكان الأفضل يعيش في بحبوحة من العيش ، يضيف على مجالسه مظاهر الثراء ويقتنى من الأموال والجواري والغلمان مالا يحصى عدداً . وقد صادره الأمر بعد مقتله .

وتولى بعده أحد رجاله وهو المأمون البطائحي ، ثم ابنه الذى استبد بالخليفة حتى قتل ثم ورر أحد رجال كتامه وهو عباس وابنه نصر ، ثم جاء الصالح بن رزيك وهو آخر الوزراء الكبار في دولة الفاطميين .

طلائع بن رزيك (ت سنة ٥٥٦ هـ)

لقب بأبى الغارات الصالح .

قال عنه المقرئى في ترجمته^(٢): فارس المسلمين نصير الدين ، قيل إنه أرمنى الأصل وانتسب إلى الفساسنة .

كان من الشيعة الإمامية وقدم أول أمره مع جماعة من فقهاء الشيعة لزيارة مشهد على

(١) المصدر نفسه ص ٦١

(٢) المخطوط ٢٩٣/٢ وراجع في ترجمته الوفيات ٢٣٨/١ ، والخريجة ١٧٣/١ شذرات الذهب ١٧٧/٤ ، والنجم

الزاهرة في حل حصرة القاهرة تحقيق حمير نصر ص ٢١٧

رضى الله عنه بالنجف من أرض العراق ، وتنبأ له أحد الشيعة هناك بتولى مصر .
وهكذا وفد إلى مصر واتصل بالفاطميين ، وتولى لهم المناصب ، وترقى في الخدم
حتى ولى أمر منية بنى خصيب بصعيد مصر . فلما قتل نصر بن عباس الصنهاجى
الخليفة الظافر على ماذكرنا استجار نساء القصر بالصالح ابن رزيك ، فدخل القاهرة مع
جنده وأنصاره ، وفر أمامه عباس وابنه نصر .

وبعد دخوله خلع عليه الوزارة ونعت بالملك الصالح ، فارس المسلمين نصير الدين
فباشر البلاد أحسن مباشرة ، واستبد بالأمر لصغر الخليفة الفائز بنصر الله إلى أن مات
فأقام من بعده عبد الله بن محمد ولقبه بالعاقد لدين الله ، وبايع له . وكان صغيراً لم يبلغ
الحلم . فقويت حرمة طلائع وازداد تمكته من الدولة ، فثقل على أهل القصر لكثرة
تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر وضربوه حتى
سقط على الأرض على وجهه ، وحمل جريحاً لا يعى إلى داره فمات يوم الاثنين ١٩
رمضان سنة ٥٥٦ هـ .

وكان شجاعاً كريماً ، فاضلاً ، محباً للأدب وأهله ، جيد الشعر . رحل وقته فضلاً ،
وعقلاً ، وسياسة وتديراً وكان مهاباً في شكله ، عظيماً في سطوته .

جمع أموالاً عظيمة ، وكان محافظاً على الصلوات ، فرائضها ونوافلها ، شديد المغالاة
في التشيع .

صنف كتاباً سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » وجمع له الفقهاء فناظرهم
عليه ، وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب — رضى الله عنه — والكلام على الأحاديث
الواردة فى ذلك .

وله ديوان شعر جيد ضمنه عقيدته يقول من أبيات أوردها المقرئى :

يا أمة سلكت ضلالاً يئساً	حتى استوى إقرارها وجعودها
ملتم إلى أن المعاصى لم تكن	إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم	منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهاً	ينهى عن الفحشاء ثم يريد بها

قصيدة سماها الجوهريّة فى الرد على القدريّة . أى الخويرة .

وذكر المقرئ أن مذهبه في التشيع كان مذهب الإمامية مخالفاً لمذهب الفاطميين الإسماعيلية ولهذا فإنه على حد قوله لما ولي الوزارة مال على المستخدمين في الدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الإمامية ، وهو مخالف لمذهب القوم .

قال : وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر ، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد ، وتعبوا من ذلك .

وكان له مجلس بالليل يحضره أهل العلم يدونون فيه العلم والشعر .

ولم يترك مدة أيامه غزو الإفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر ، إلا أنه لم يحصل منهم على طائل ولم يسترد ماأخذوه أيام الأفضل ، وظل بيت المقدس في أيديهم وظلوا يهددون حدود مصر من الشرق ومن البحر في الشمال .

وكان يخرج البعوث في كل سنة مراراً ، وكان يحمل في كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها ، والأقلام والمواد وآلات النساء .

وكان مجلسه ملتقى لأهل العلم والأدباء والشعراء ، يفدون إليه من سائر البلاد ، فلا يجيب أمل قاصد منهم ، ويغدق العطاء .

وأشتهر فيمن يجلس إليه عدد من شعراء مصر والشام في أيامه كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمني ، والقاضي الجليس بن الجباب ، وأسامة بن منقذ .

وذكره ابن العماد في الخريدة^(١) فأشاد بفضله وأدبه ، واستحسن شعره . قال : « هو سلطان مصر في زمان الفائز ، وأول زمان العاضد ، ملك مصر ، واستولى على صاحب القصر ، ونفق في زمانه النظم والنثر . وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وفاض لإحسانه على جميع الأرجاء . »

مدحه الشعراء ، وجمع مدحه في كتاب سمي « الدر المنظوم » يحتوي على جملة شعراء مابين شريف وجليس ، وحسيب ، وعالم ، وشاعر قاصد ، وكاتب^(٢) .

^(١) - خريدة القصر : طبع مصر ١٧٥٠/١

^(٢) - النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢١٨

وانقضى عهد الصالح بن رزيك بحلوله ومرة ، بإيجابياته وسلبياته ، ولا ضير من ذكر ماله من أياد على الحياة الأدبية والاجتماعية والعمرانية في مصر على الرغم مما روى إفي سيرته الذاتية من إنحراف عن دعوة الإسماعيلية وتشدد في التشيع للشيعة الإمامية ، وميل إلى إكبت الأعداء ، والرغبة في الاستحواز على المال .

وقد عده بعض مؤلفي الشيعة^(١) من كبار فقهاءهم ، ورجالهم وإنسكتهم المجلودين ، فضلاً عن علمه وشعره .

وتبع الصالح ابنه رزيك ، ولم يكن من الخنكة على قدر ما كان عليه أبوه ، فتحرش به شاور وكان من رجال الدولة الأقوياء ، وكان الصالح قد حذره من معاداته ، لكنه لم يتبع مشورته ، فكان أن غلبه شاور على الوزارة ، ثم انتقض عليه ضرغام ، وصدرت الحرب سجلاً بين شاور وضرغام في عصر الخليفة العاضد .

ولم يكن الخليفة يملك من أمره شيئاً ، واستنجد بالأمير نور الدين محمود في دمشق ، فبعث إليه بأسد الدين شيركوه ، واستنجد الآخر بملك بيت المقدس .

وظلت مصر والقاهرة مسرحاً للصراع بين هذه القوى الثلاثة الفاطميين ، والزنكيين والأيوبيين ، ثم الصليبيين حتى حسمت المعركة لصالح الأيوبيين . واستولى صلاح الدين على السلطة .

جند الخلافة :

كان من عوامل ضعف الدولة الفاطمية استكثار الخلفاء من العبيد السودان والأتراك والصقالبة . يقول صاحب عيون الأخبار^(٢) :

« وعمل الوزير يعقوب بن يوسف على شراء العبيد الأتراك والسودان ، وأسكنهم خلف دار الوزارة ، ويسمى الموضع الذي أسكنهم فيه حافة الوزارة . وأضاف إليهم كثيراً من العسكرية . وقال : إن تغيرت كتامة (وهم عصب جند الفاطميين وأعوهم) فمن ذا الذي يكسر شوكتهم ، ويفلّ حذهم ؟ »

(١) عيون الأخبار ص ٢٤١

(٢) محمد هادي الأمي جامع . طبع المكتبة الأهلية بالنسخ ١٩٦٤

فكان ابن كلس نصيح المعز والعزیز بالاستكثار من السودان والترك والصقالية ليعادل بهم قوة جند الكتامين البربر من شمال أفريقيا والذين جاء بهم المعز معه إلى مصر وأسكنهم ظاهر القاهرة بين المقطم والقرافة وسور القاهرة .

وكانت كثرة طوائف الجند واختلاف أجناسهم من أسباب إثارة الشغب والمتاعب أحياناً ، فكثيراً ماقتتل الأتراك والسودان ، أو كثيراً ماثار السودانيون ، وتحرشوا بالتجار في الأسواق ، بل وهجموا على قصور أسيادهم الفاطميين في بعض المناسبات والأعياد ، عندما يمتد السباط للطعام .

يقول المسيحي في تاريخه^(١) في مناسبة عيد الأضحى سنة ٤١٥ هـ أيام الخليفة الظاهر « ثم دخل مولانا — صلوات الله عليه — إلى قصره ، ومشى إلى المنحصر بصحن القصر مقابل ديوان الخراج . فحرق تسعة رؤس من النوق ، ثم انصرف ، وحضر أبو الحسن على بن محمد الطريفي ، كاتب قاضي القضاة لتفرقة اللحم على أبواب الرسوم ، فنهبت العسكرية وجرى على الطريفي منهم كل قبيح . ثم استحضر شيوخ الدولة الأقارب والكتامين وغيره من الضيوف ومن جرى لهم رسم بالحضور إلى السباط ، فلما جلسوا على السباط ولم يحضر مولانا — عليه السلام — كبس العبيد بالقصر وصاح جميعهم : الجوع ! الجوع ! نحن أحق بأكل السباط ، فضر بهم الصقالية بالعصى ، فلم يبالوا بهم ، وهجموا فدخلوا القصر وتهاقتوا على الطعام ، وضرب بعضهم بعضاً ونهبوا جميع ماأصلح من الأخباز والأشوية والخلوى ، ونهبوا القصاع والطنافير والزبديات ، وكان أمراً صعباً ، وأخذوا ثلاثمائة زبدية ، ولم يصدق الحاضرون أنهم تخلصوا منهم ولا يخرجون سالمين »

ويبدو أن كل طائفة من خدم القصر كان لهم مقدم كبير من أصحاب المقام عند الخلافة يدافع عنهم إذا ماشغبوا ، أو أثاروا فتنة ، من ذلك ما ذكره المسيحي عن الخادم الأسود « معضاد » الذي كان ذا مكانة في قصر الخلافة وكان العبيد من السودان يحتمون بمجاهه .

قال المسيحي :

« ورد الخبر أن الجواله من العبيد نهب بلداً بالأشمونين بأسره ، والعرب معهم ،

(١) تاريخ المسيحي تحقيق وليم الورد ص ٢٠٣ طبع هيئة الكتاب سنة ١٩٨٠ .

وأنتهم حصلوا من النهب على مال كثير ، وحضر متولى ديوان العرائف ، فشكا ذلك إلى معضاد هذا الخادم الأسود ، وذكر نهب البلد فكان جوابه : متقبل من عبيد مولانا . فلم يجبه أى هذا المسئول خوفاً من سطوته قال المسبحى : « وكان فى هذا الجواب مافيه من فساد الأحوال وإطماع العبيد فى النهب » .^(١)

وكانت الدولة تجرى على هذا الجند من مختلف الطوائف الأرزاق من الرواتب والأموال ، فإذا قصرت الأحوال ولم تف برواتبهم ولا أقواتهم ثاروا ونهبوا دكاكين التجار ، ومالوا على الضياع فى الريف ، فساقوا أمامهم كل ما استطاعوا من ميرة ودواب .

ولم يكن الجيش الذى يتكون من هذه النبق المرتزقة والمشتراة من العبيد بالجيش الذى يعتمد عليه أو يصمد فى وجه الأعداء ، إذ أن روح الجهاد ، والرغبة فى الدفاع عن الدين والوطن كانت معدومة لديهم ، وإنما كانوا مأجورين يقاتلون بأجر ، ولأنهم عبيد شراء يفعلون ما يأمر به الأسياد .

وهذا ماترى من ضعف جيش الفاطميين بعد أن كثرت فيه عناصر المرتزقة ، وقلت عناصر المغاربة من الكتامين وغيرهم الذى ساندوا الدولة فى بدء ازدهارها وكسبوا كثيراً من المعارك ربما بسبب اعتقادهم وانتصارهم لدعوة الفاطميين .

حال الأسطول :

كان للفاطميين أسطول قوى فى البحر المتوسط استطاع أن يحمى شواطئ دولتهم فى شمال أفريقيا ومصر ، وأن يخوض كثيراً من المعارك المظفرة .

وقد أنشأ المعز كما ذكر المؤرخون هذا الأسطول من ستائة مركب لم ير مثلها فى البحر ، وعندما جاء إلى مصر ، عمل على تقوية دار الصناعة المرسى على شاطئ نيل القاهرة أمام القسطنطينية ، وكان الأسطول يجهز هناك ، فإذا تم تجهيزه وتحرك لحرب العدو الأفرنجى فى البحر المالح خرج إليه من نيل القاهرة مبحراً شمالاً وكان الخليفة الفاطمى يستعرضه جالساً فى منظره على النيل . ويقوم الأسطول أمامه منسوبة لإظهار استعداداته ،

(١) تاريخ المسبحى ص ٢٠٤

وتمام عدته للالقاء العدو . فينعم الخليفة على قائد الأسطول ، وقادة الشواني وبقية الوحدات ثم يأمرهم بالتوجه إلى العدو ، ويدعو لهم بالنصرة ، فينحدر الأسطول إلى دمياط بفرع دمياط ، ثم ينزل إلى البحر .

ويعصف المقرئى هذا الاحتفال فيقول :^(١)

« ... فإذا تكاملت النفقة وتجهزت المراكب ، وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة . وكان هناك منظره على شاطئ النيل يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول ، ولقائه إذا عاد .

فإذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر (الفسطاط) إلى هناك للحركات في البحر بين يديه ، مزينة بأسلحتها وبُعْدِهَا ، وما فيها من المنجنيقات ، فيرمى بها وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدي الخليفة ، فيودّعهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ويخرج من دمياط إلى بحر الملح فيكون له في بلاد العدو صيت عظيم ، ومهابة قوية . »

ولقوة ما كان للأسطول الفاطمي من فعل في جزر البحر ، وعند ملاقة أسطول البيزنطيين الروم والفرنجية الصليبيين صدّ حملاتهم على شواطئ الشام ومصر .

ولما كان للأسطول الفاطمي من خطر في البحر على مواصلات الصليبيين البحرية وامتداداتهم من أوروبا كان أول ما طلبه الملك مرى أو إمري ملك بيت المقدس عند حضوره إلى مصر مع حملته في أخريات عهد الدولة الفاطمية ، وأيام فتنة شاور وضرغام ، كان أول ما طلبه من شاور حرق الأسطول ودار الصناعة في الفسطاط حتى لا تقوم له قائمة .

(١) الخطوط ١٩٣/٢

أحوال الدولة فى شمال أفريقيا

عرفنا أن نشأة الفاطميين كانت فى تونس من شمال أفريقيا ثم بسطوا نفوذهم بعد ذلك بين ربوع المغرب معتمدين على بعض قبائل البربر والعرب هناك ، تدعمهم دعوتهم ، ويساعدتهم على التمكن لأنفسهم ماكان بين القبائل من صراع وتنافس ، واستطاع الفاطميون أن يكسبوا إلى جانبهم قبائل كتامة ، وصنهاجة وغيرها .

وسيطروا على بعض جزر البحر المتوسط كصقلية وكريت ، وكانت لهم حروب مع الفرنجة والروم والأمويين فى الأندلس للسيادة على تلك الجزر . وهاجم أسطولهم ثغر المرية بالأندلس التابع لدولة الأمويين ، كما اشتبكوا معهم ومع الروم فى حروب برية ونخرية سنة ٣٤٥ هـ .

وتوجه القائد جوهر الصقلى بجيش كثيف بأمر المعز لدين الله إلى المغرب الأقصى لإتمام فتحه ، وتم له النصر سنة ٣٤٧ هـ ، ودان له بذلك المغرب كله حتى البحر الأعظم أو المحيط الأطلنطى .

ولما تمت للمعز السيطرة على المغرب وشمال أفريقيا حتى حدود مصر الغربية ، بعث بجيشه لفتح مصر ، وجاء إلى مصر وجعل قاعدته القاهرة ، وولى على القيروان وأفريقيا نائبا له من صنهاجة .

وكان الفاطميون قد اتخذوهم أعوانا ، وعينوا منهم قادة ، وكان أشهرهم يوسف بن بلكين بن زيرى ، وقد تمكن يوسف هذا من القضاء على أحد الخارجين من قبيلة زناتة وقتله وقضى على ثورته سنة ٣٦٠ هـ .

وكان الفاطميون قد تعاونوا كذلك مع كتامة ، واتخذوا من رجالها سندا وقوة لجيوشهم وخاصة التى شرقت لفتح مصر والشام .

وظلت صنهاجة ورجالها يلون للفاطميين نيابة عنهم حكم شمال أفريقيا والمغرب حتى عهد المعز بن باديس الذى أعلن أنتفاضة على سلطة الخلافة الفاطمية بالقاهرة فى عصر المستنصر بالله ، والدعوة للخليفة العباسى فى بغداد .

يقول ابن الأثير: (١) « في سنة ٤٣٥ هـ أظهر المعز (بن باديس) ببلاد أفريقية الدعاء للدولة العباسية ، وخطب للإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد أفريقية ، وقطعت خطبة الفاطمية من ذلك الوقت ، وأحرقت أعلامهم ، فغاض ذلك الوزير اليازوري ، فكان ماكان من تحريض عرب بنى هلال وبنى سليم على غزو أفريقيا وتخريب القيروان . »

ويروى المؤرخون أسباباً كثيرة لخروج المعز على طاعة المستنصر والدولة الفاطمية فابن الصيرفي يرى أن سبب ذلك عدم احترام المعز للوزير اليازوري في خطابه له ، مما أغضبه عليه ، فأغلظ له القول ، ومنها أن أهل تلك البلاد في شمال أفريقيا كانوا لا يدينون بالولاء للعقيدة الفاطمية ، فكثير منهم كانوا من السنة المتحمسين لمذهب الإمام مالك ، وقد اضطر هؤلاء إلى عدم الجهر بعدائهم للشيعة تحت ضغط القهر من الأئمة الفاطميين في أثناء وجودهم بالمهدية والقيروان والمنصورية . فلما خرج المعز إلى مصر ، قلت هيبتهم في النفوس ، وتحرر أهل البلاد من الكبت ، فعادوا إلى الجهر بعدائهم للشيعة وانتصارهم لمذهب مالك ، وكان على رأس هذه الدعوة إلى عودة المالكية ومعاداة الشيعة فقيه مالكي معروف في تلك البلاد هو النفرى .

وقيل إن أهل السنة ثاروا على الشيعة بالقيروان في أول ولاية المعز بن باديس فقتلوا جماعة من الشيعة ، وقتلوا نساءهم وأولادهم ، وظلت الفتنة بالقيروان بين أهل السنة والشيعة ، ولجأت جماعة من الشيعة إلى الجامع بالمهدية فقتلوا فيه . وكان لا يرى أحد منهم بالقيروان في الطريق إلا ضرب ضرباً عنيفاً ، وربما قتل وأحرق . واجتمع منهم قدر ألف وخمسمائة رجل تحت قصر المنصورية واستغاثوا بالمعز فأمر بالكف عنهم .

قال صاحب المؤنس: (٢) « والمعز هذا هو الذى طهر الله تعالى على يده أفريقية من مذهب الشيعة — وإن كان من عمالهم — يعنى الفاطميين — إلا أنه كان يتمذهب بغير مذهبهم . وحمل الناس في أيامه على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وقطع ماعداه ، ولما اشتدت سلطته خرج على طاعة بنى عبيد ، وخطب لبنى العباس سنة ٤٣٥ هـ وقطع خطبة المستنصر سنة ٤٤٠ هـ ، وقطع بنودهم وأحرقها .

(١) الكامل في أحداث سنة ٤٣٥ هـ ٢٩٥/٨ — ٣٠٢

(٢) المؤنس في أخبار تونس ص ٨٢

وكان انتقام المستنصر الفاطمي من المعز ورجال القيروان متمثلاً في إطلاق قبائل بني هلال وبني سليم وغيرهم من صعيد مصر لغزو أرض المعز وتخريب سلطانه . قال صاحب المؤنس : « وفي أيام المعز بن باديس والمستنصر بالله جاءت العرب من المشرق وسكنوا بأفريقية . وسبب دخول العرب إلى أفريقية أن المعز بن باديس لما قطع خطبة صاحب مصر وهو المستنصر بالله كان يسبّ بني عبيد سراً إلى أن صرّح به على المنابر . وكان ي كاتب وزير المستنصر (البازوري) ويستميله ، ويعرض له بالتحريض عليهم^(١) وإنما يكتب له تلميحاً لا تصريحاً ، وكتب إليه قطعة بخط يده ، وتمثل البيت من الشعر وهو :

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم لولاك ما كنت أدري أنهم خلّقوا

فقال الوزير (البازوري) لبعض أصحابه : ألا تعجبون من صبيّ بربريّ مغربيّ يحسب أن يخدع شيخاً عربياً عراقياً ؟ .

ولما أراد المعز أن يوقع بين الوزير وخليفته الشرّ .

ولما خلع المعز بن باديس طاعة بني عبيد ، وجاءته الخلع من بغداد أشار الوزير على المستنصر العبيدي بإرسال العرب ، فأرسل المستنصر إلى عرب الصعيد الذين بمصر وكانوا يسكنون شرق النيل ، وهم بطون من بني عامر بن صعصعة من بني هلال ومعهم بطون من بني سليم من عرب نجد ، وكانوا قد نزحوا إلى مصر في عصر الفاطميين واستقروا في الصعيد شرق النيل . «

وهكذا أطلق المستنصر بني هلال وبني سليم من الصعيد إلى تونس والقيروان وبرقة ، فأباحها لهم ، وأعانهم على ذلك بمال — وهم بطون رياح وزغبة ، وعديّ ، وبطون من بني عامر بن صعصعة ، فلما دخلوا إلى أفريقية عاثوا فيها كيف شاءوا ، وملكت أيديهم من النهب ، فتسامعت بنوهم في مصر بذلك ، فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم فمنعهم من ذلك إلا أن يبطوه شيئاً من أموالهم ، فأخذ منهم أضعاف ما أعطاه لبني عمهم وسرّحهم ، ولما وصلوا إلى المغرب كانت لهم وقعات مع زناتة بإقليم طرابلس ، وكثر ضررهم وأفسدوا البلاد .

(١) يخالف صاحب المؤنس في هذا قول ابن الصيرفي في الإشارة

ولما قربوا من أفريقية — تونس — خرج المعز في جمع من صنهاجة وزناته ، فاجتمع له عسكر عظيم ، فالتقى معهم ، وكانت بينهم مصاف ، فخذلته زناته ، وانهمزت صنهاجة حتى لم يبق معه إلا عبيده ، وكان عدد العبيد عشرين ألفاً ، وثبت المعز في تلك الحروب ثباتاً لم يثبته أمير هزم جيشه ، وآخر الحال انهزم ورجع إلى المنصورية ، وأقبل العرب حتى نزلوا بإزاء القيروان ، واقتتلوا بين رقادة والقيروان ، ومات من الفريقين خلق عظيم وكان ذلك حوالى سنة ٤٤١ هـ .

ولما رأى المعز ماحلً به ركن إلى الصلح ، ورفع الحرب بين العرب وبينه ، وأباحهم دخول القيروان ليشتروا منها ما يحتاجون إليه ، وظن أنهم يرجعون إلى بلادهم ، فلم يغن عنه ذلك ، وملكوا البلاد بأسرها ، واقتسموا براريها ، وأفسدوا حواضرها . وكان الخطبُ جليلاً ، فلما رأى المعز كثرة ضررهم ، وعجز عن دفع أذاهم رحل إلى المهدية ، وبها حشمه ، وكان ولده تميم والياً عليها ، وخرج في رمضان سنة ٤٤٩ هـ . ونهبت العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها وجلاء أهلها عنها .

ولما وصل إلى المهدية تلقاه ولده تميم ، وترجّل له ، وقبّل يده ، وأدخله البلد ، فسلم الأمر إلى ولده تميم في حياته ، فقام بأمور الدولة أحسن قيام وتوفى المعز سنة ٤٥٣ هـ . فكانت أيام ولايته ٤٩ عاماً .

وباضطراب أحوال أفريقيا ضعفت الصلة بينها وبين الخلافة في مصر حتى انقطعت أسبابها تماماً .

أحوال الشام والمشرق العربى

جاء المعز لدين الله إلى القاهرة وفي خطته أن يغزو الشام ويستولى على ملك العباسيين ولم يزل ذلك حلم الخلفاء الفاطميين حتى انقضت دولتهم .

وفي سنة ٣٦٣ هـ تم استيلاء جيش المعز على دمشق ، ونهب المغاربة البلد واستوحش أهلها منهم ، ووقعت فتنة وحروب بين الجانبين ، ولا يستطيع المرء أن يستبعد أحداث التاريخ وماتزرعه في النفوس من أحاسيس ومشاعر تؤثر على تصرف البشر وتوجهاتهم ولاشك أن الفاطميين العلويين كانوا يحملون لدمشق مشاعر العداء ، لما سطره تاريخها وقد كانت عاصمة الأمويين من أحداث دامية ضد العلويين ، بين على ومعاوية ، وبين أبناء معاوية وخلفائه وأتباع على وخلفائه .

وكذلك كانت دمشق وأهلها ومعظمهم من أهل السنة المتحمسين كانوا لا يحبون الفاطميين ولا يقبلون حكمهم ، من هنا لم يستقر أمر الفاطميين مع دمشق وأهلها ، وكثيرا ما قامت الفتن ، وانتقض أهل دمشق ضد الفاطميين وولائهم .

وفي تلك السنة ٣٦٣ هـ كثرت الوقائع بين العامة وجند المعز داخل أسوار دمشق وخارجها . قال ابن الأثير :^(١) « وألقى المغاربة النار من ناحية باب الفراءيس ، وأحرقوا تلك الناحية ، فاحترق من البلد كثير ، وهلك جماعة من الناس ومالا يُحَدُّ من الأنثى والرجال والأموال ، وبات الناس على أقبح صورة . »

ولم تستقر الأحوال في تلك السنة ، بل عادت الفتنة مرة أخرى في جمادى الأولى . قال ابن الأثير : فقد زحف جيش من العسكر إلى البلد ، وقاتله أهله ، فظفر بهم وهزمهم ، وأحرق من البلد ما كان سلم ، ودام القتال بينهم أياماً كثيرة ، فاضطرب الناس وخافوا ، وخربت المنازل ، وانقطعت المواد ، وانسدت المسالك ، وبطل البيع والشراء ، وقطع الماء عن البلد ، فبطلت القنوات والحمامات ، ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد . »

(١) الكامل أحداث تلك السنة ص ٧

وكانت الشام ميداناً للصراع بين كثير من القوى ، بين العباسيين والفاطميين والحمدانيين ، والقرامطة والعرب ، والأتراك ، والروم البيزنطيين ثم الصليبيين من بعدهم .

وكان بعض أطراف هذا النزاع يسيطر على المنطقة كلها أو كثير منها أحياناً وأحياناً أخرى يتقلص نفوذه ، وينحجر ليعود فيمتد وينبسط ، كما أن بعض الأطراف كان حليفاً للآخر زمناً ، أو فترة من الوقت ، ثم يعود لينقض الحلف إذا أتاحت له فرصة الانقضاض ، أو آنس من حليفه ضعفاً أو وجد حليفاً آخر من تلك القوى أشد وأقوى ، وأقدر على تحقيق المصلحة من الحليف السابق .

كان الحمدانيون ، والقرامطة والفاطميون ، والبيهيون في بغداد علويين شيعة ، وإن اختلفت انتماءاتهم بين إمامية ، واثنا عشرية ، وإسماعيلية وروافض ، منهم المغالون ، ومنهم المعتدلون ، مع انتمائهم في النهاية إلى التشيع لعلى وآله .

وكانت بين هذه الأطراف والقوى العلوية مصالحات ، ومهادنات أحياناً وصراعات ، وحروب دامية ، وعداوات أحياناً أخرى ، كما كان بين الفاطميين والقرامطة ، والقرامطة والبيهيين ، والبيهيين والحمدانيين ، ثم بين الحمدانيين والفاطميين .

ولا يغيب عن الذهن أن منشأ الدعوة الفاطمية في مرحلة الستر أو الاختفاء ، كان بالشام ، فقد أقام مؤسسها في إحدى القرى هناك ، وظل يدعو سرا خشية من بنى العباس خلفاء بغداد .

قال المقرئى : (١) « وإنما كان القوم — أعنى بنى على بن أبى طالب تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم في كل وقت وقصدتهم إياهم دائماً بأنواع العقاب ، فصاروا بين طريد وشريد ، وبين خائف يترقب . ومع ذلك فإن لشيعتهم الكثيرة المنتشرة في أقطارهم من المحبة لهم والإقبال عليهم مالا مزيد عليه »

وقال : « وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة ، والطلب عليهم من ورائهم ، فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون حتى تسمى محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم ، أسماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على إخفائه حلزوا من المتفليين عليهم ،

(١) الخطط ٣٤٩/١

وكانت الشيعة فرقة ، فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه — وهؤلاء هم « الفاطمية الإسماعيلية » ومنهم من يرى غير ذلك .

وكان هذا الاختفاء من أئمة الفاطميين قبل إعلان عبيد الله المهدي الدعوة في شمال أفريقيا بعد أن وجد الفرصة وتقوى بقبائل البربر سبياً أعان العباسيين في حربهم الدعائية ضد الفاطميين ، بادعائهم النسب إلى فاطمة وعلى بن أبي طالب ، وأنهم كاذبون في ذلك النسب ، بل إن نسبهم في الحقيقة كما يقولون إلى رجل دعى من اليهود بالشام .

وقد نفى المقرئى هذا الاتهام من قبل العباسيين فقال^(١) :

« فهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة ، فإن بنى على بن أبي طالب رضى الله عنه قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة في الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى . فهذا مالا يفعله أحد ، ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف ، وإنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباسى عندما عَصَوْا بمكان الفاطميين » .

ولم تكن حرب الدعاية بين الفاطميين والعباسيين مقصورة على هذا ، بل كان كل من الفريقين يحاول استقطاب العلماء والشعراء ، والأدباء ، ليكونوا أدوات أعلام لهم وتمكين بين الناس .

ولم تحدث مواجهة عسكرية واضحة بين العباسيين والفاطميين لضعف العباسيين كما قال المقرئى ، بل جل ما استطاعه خلفاء بغداد إيفاد بعض القادة من الأتراك لصد غارات الفاطميين على مصر أيام الإخشيديين ، وعلى الشام في بداية عصر الفاطميين في مصر والشام .

ويعتبر الصراع بين البويهيين والفاطميين امتدادا للصراع بين العباسيين والفاطميين لأن أولئك كانوا يملكون شئون الخلافة ، وإن قامت بينهم وبين الأتراك من جند الخلافة صراعات . ومما يكن فإن في آخر عهد المعز لدين الله قامت فتنة أفتكين التركي بالشام واستمرت حتى أول عام في حكم العزيز بالله .

وكان أفتكين أحد أتباع معز الدولة بن بويه ، واختلف مع بختيار بن معز الدولة ،

(١) الخطط ٣٤٩/١

فخرج من بغداد مع طائفة من أتباعه من جند الأتراك فوصل إلى حمص ، وتوجه إليه وإلى دمشق من قبل المعز فلم يتمكن منه ، وعاد إلى دمشق ، فتبعه أفتكين إلى دمشق ، وقابله أهلها بالترحاب لضيقهم بجند المعز من المغاربة ، وكرهيتهم لحكمهم لمخالفتهم في الاعتقاد وظلمهم . فدخل أفتكين دمشق وقطع خطبة الطائع العباسي في شعبان سنة ٣٦٤ هـ .

قال ابن الأثير عن أفتكين : وأبان عن شجاعة وقوة نفس وحسن تدبير فأذن أهل دمشق له ، وكتب المعز بمصر يداريه ويظهر له الانقياد ، وبعث إليه المعز ليحضر إليه ليخلع عليه ، فامتنع أفتكين خشية .

وجيز المعز جيشاً إلى دمشق ، ولكن الموت عاجله ، فتولى المهمة ابنه العزيز من بعده وظل أفتكين يتوسع بضم أجزاء من الشام ، حتى بعث إليه العزيز بالله جوهر الصقل على رأس جيش كبير ، وظلت الحرب بين الجانبين سجالاً ، وتقوى أفتكين ببعض أهل الشام والقرامطة ، والتقى مع جوهر بالرملة من أرض فلسطين ، فانسحب جوهر إلى عسقلان ، فتابعه أفتكين ومن معه وحاصروه في عسقلان ، ولقى جوهر وعسكر الفاطميين متاعب شديدة في الحصار حتى دعا جوهر أفتكين إلى لقائه . قال ابن الأثير : فالتقيا ، واتفقا على أن يفك الحصار عن جوهر وجيشه ويسمح له بالعودة إلى مصر .

وعاود العزيز الكرة بالخروج مرة أخرى لملاقاة أفتكين والقرامطة بالرملة سنة ٣٦٧ هـ وفي هذه الحملة هزم أفتكين ومن معه من القرامطة ، ووضع فيهم العزيز وجيشه السيف ، فأكثروا القتل ، وبلغ عدد القتلى نحو عشرين ألفاً .

وهرب أفتكين بعد انكساره وبذل العزيز لمن يأتي به مائة ألف دينار ، وكان ابن مفرج الطائي من شيوخ الأعراب في الشام وصاحب الرملة قد تمكن من أسر أفتكين فأرسله أسيراً إلى العزيز ، فأكرمه العزيز وصحبه معه إلى مصر وجعله من خاصته .

وكان القرامطة مصدر قلق للفاطميين ، مع ماكان بينهم من علاقات في الدعوة والعقيدة . فقد انشق عليهم الحسن القرمطي وناجزهم بالحروب بغارات متتالية كان منها تلك الغارة على مصر والتي بلغ فيها أبواب القاهرة ، لولا أن تمكن المعز بدهائه وماله أن يغري بعض أعوان القرمطي ، فانسحبوا عنه وتخاذلوا وتمكن المعز من هزيمته سنة ٣٦٣ هـ إلا أن القرامطة ظلوا يسعون بالحروب بالشام ، ليقضوا مضاجع الفاطميين

ويزعزعو قبضتهم على البلاد هناك . وتحالفوا مع بعض القوى المعارضة كما رأينا من تحالفهم مع أفتكين الذى انتهى أمره بالخذلان .

وكان آل الجراح مفرج وأبناؤه حسّان وعليّ ومحمود شيوخ الأعراب بالرملة ، ومن القوى البارزة في فلسطين وبادية الشام قد ناوأوا الفاطميين وقامت بينهم منازعات ، قد تهدأ أحيانا ويسود الصلح ، وقد تنور فتستعر الحرب ، وكان أول نزاع مسلح بين آل الجراح والفاطميين زحفهم صحبة الحسن القرمطى إلى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ وانخذلهم عن القرامطة بعد إغراء المعز لهم بالذهب .

ثم عادوا فتحالفوا مع أفتكين في أخريات عهد المعز وأول عهد العزيز ، ولكنهم تخلوا عنه وأسروه وقدموه للعزيز بالله بعد انكساره على ماعرفنا ، وساد السلام زمنا بين الجانبين حتى عهد الحاكم بأمر الله .

وعادت العداوة بينهما تطل من جديد بعد أن بعث الحاكم أحد قواده ياروختكين إلى الشام لإعادة الهدوء إليها ، وضبط أمورها ، وفرض سيطرة الدولة التى عبث بها الروم ، والحمدانيون في الشمال .

وكانت جيوش الفاطميين قد عانت كسرة على أبواب حلب على يد باسيلوس أو باسيل إمبراطور الروم .

ولم يطمئن آل الجراح إلى قدوم جيش الحاكم بقيادة ياروختكين فنازلوه ، وتمكنوا من أسره . وكان للفاطميين حامية بالرملة استطاعت الصمود أمام حسّان بن مفرج وجنده من الأعراب ، ولم تلبث تلك الحامية أن استسلمت تحت ضغط حشود الأعراب بتحريض من الوزير الحسين بن على المغربي^(١) . وبالف بنو الجراح في عداء الفاطميين فقتلوا ياروختكين بعد أن أمعنوا في إذلاله .

وأطمح انتصار آل الجراح في فلسطين والرملة آمالهم ، وزكّاها الوزير المغربي الموتور من الحاكم الفاطمى لقتله أباه وإخوته ، وحسّن لهم إغراء شريف مكة بتولى الخلافة ، على أن يكونوا أنصاره بسيوفهم ، وبتأييدهم .

وكانت علاقة بنى الجراح بالحاكم بأمر الله قد بلغت نقطة اللارجوع ، « وكان ابن المغربي يدرك ذلك ، فتفتق ذهنه عن خطة بارعة ، وهى أن يوجد الخليفة البديل الذى

(١) راجع الوزير المغربي لإحسان عباس ص ٤٢ طبع ونشر . ر الشروق بعمان الأردن ١٩٨٨

يستند إليه بنو الجراح في استمداد « غطاء الشرعية » لسلطانهم ، ووجوده ، فاجتمع بالمفرج وأولاده وقال لهم : كشفتم القناع في مباينة الحاكم ، ولم يبق من بعد للصلح موضع . والتفت إلى مكة ، ولفت إليها انتباههم قائلاً : هذا أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوي صاحب مكة لا مطعن ولا مغمز في نسبه ، وهو في بيته وفضله وكرمه بمكان رفيع ، والصواب أن ننصبه إماماً ، ونقوم معه على الحكم . فاقنع بنو الجراح بوجهة نظره ، وأمره حسن بالتوجه إلى أبي الفتوح بمكة ، وعرض الأمر عليه . ولما نزل على أبي الفتوح أطمعه في الرئاسة والخلافة ، وضمن له طاعة حسان وقومه .

وكانت العقبة الكبرى هي قلة مافي يد أبي الفتوح من مال ، يستميل به الأنصار والمؤيدين ، وحين شكوا ذلك إلى ابن المغربي أشار عليه بأخذ مافي خزانة الكعبة من الأموال ، وانتزع ماعليها من أطواق الذهب والفضة وضربها دراهم ودنانير ، ففعل ذلك .

وهكذا تم للوزير المغربي وحسان بن مفرج مازها إلى من تنصيب خليفة بديلاً من الحاكم ، وركب أبو الفتوح في يوم الجمعة ، والمفرج بن الجراح وأولاده بين يديه مشاة حتى دخل المسجد ودعا ابن نباتة عبد الرحيم بن محمد الفارق الخطيب ، وأمره بالخطبة فصعد المنبر وخطب بقوله :

﴿ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، تلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكنهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾

وواضح إشارة ابن نباتة ، وتلميحه بالحاكم وتعريضه به لإرضاء بني الجراح ، والخليفة المزعوم .

وشارك في مؤامرات بني الجراح ضد الخلافة الفاطمية الشاعر المعروف أبو الحسن التهامي ، وقد جاء إلى مصر موفداً منهم لتأليب بعض قبائل الأعراب في مصر على الحاكم بأمر الله ، حتى يمكن إسقاط دولته ، إلا أن أمره انكشف فقبض عليه وأودع خزانة البنود وظل بها حتى مات .

ولم تكلل مؤامرات بني الجراح وآمالهم التي زينها لهم ابن المغربي بالنجاح بل إن

الحاكم سرعان ما فهم الغاية مما يجري من حوله ، فتعامل معهم بأساليب تخرج بين الدهاء ، والمداينة إلى حين يقتنص فرصة للانقضاض والإيقاع بهم . ولوَّح الحاكم لحسان ابن المفرج بالمال والقرى ، كما ألح إلى التغاضي عن جريمة قتل ياروختكين ، وطلب إلى حسان مقابل ذلك نقض الاتفاق الذي عقده مع الخليفة المزعوم أى الفتوح .

وأغرى الطمع حسان ، كما أغرى أباه من قبل في عهد المعز . وسال لعابه له ، وأحسن الخليفة المزعوم بما يدور حوله فبادر بالعودة إلى مكة والاعتذار إلى الحاكم وطلب الصفح منه .^(١)

وانتهت مؤامرة بنى الجراح بسبب يقظة الحاكم ورجاله ودهائه ، وانتهت بذلك متاعب الفاطميين منهم ، وواجهوا غيرهم ممن كانوا يناوئونهم بالشام ومنهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب .

بين الفاطميين والحمدانيين

كتب المعز لدين الله إلى جوهر قائده بعد استيلائه على مصر : « ... وأما ما ذكرت ياجوهر من أن جماعة من بنى حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ، ويعلمون بالمسارعة في المسير إليك ، فاسمع لما أذكره لك . أحذر أن تبتدىء أحداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيباً له ولا ترغيباً . ومن كتب إليك كتاباً منهم فأجبه بالحسنى والجميل ولا تستدعه إليك . ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه ، ولا تمكن أحداً منهم من قيادة جيش ولا ملك أطراف ، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب :

يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب
ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم في الله .
ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة
فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم . »^(٢)

وكان الروم قد اجتاحتوا إمارة سيف الدولة في حلب قبل وفاته ، وخلفه ابنه . كان

(١) راجع الوزير المشرى لإحسان عباس ص ٤٩ - ٥٢

(٢) الخطوط ٣٥٢/١

نقفور البيزنطى قد عمل على تحطيم قوة المسلمين والعرب فى الشام وثغوره ، وبدأ بإمارة الحمدانيين .

قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٥٩ هـ : « وجعل نقفور همه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها . »

وبعد وفاة سيف الدولة ، خلفه ابنه سعد الدولة ، وكانت علاقته بالفاطميين مضطربة حتى توفى فخلفه أحد أبنائه ، وكان قد ترك ولدين صغيرين ، وكفلهما لؤلؤ تابع سعد الدولة فاستبد بالسلطة فى حلب دون الأمير الصغير ، وكانت بين لؤلؤ والفاطميين أحداث ، لم يستقر فيها الوضع على حال ، وأغرى حال إمارة الحمدانيين فى حلب بعض شيوخ العرب الأقوياء ممن كانوا ينافسون الحمدانيين وهم بنو مرداس الكلابيين الذين ورثوا إمارة حلب من بعد ، وأصبحوا ملوكها بعد منازعات ومصادمات بينهم وبين كل من الحمدانيين والفاطميين والروم .

وجدير بالذكر أن بعض أمراء الحمدانيين جاءوا إلى مصر وتولى أحدهم منصباً رفيعاً ، وشارك فى الأحداث التى اضطرت فى مصر فى القرن السادس وانتهى الأمر بمقتله وأعنى الأمير ناصر الدولة الحمدانى .

وكان الوزير الداهية يعقوب بن كلس قد أوصى العزيز أن لا يأمن لبني حمدان وكانت أحوال الشام قد اضطربت فى عهد المستنصر بالله حتى بعث بقائده أنوشتكين الدزبرى — وكان صارماً — أمكنه حفظ البلاد والوقوف أمام الخارجين وهزيمة الروم إلا أن الأمور ساءت بينه وبين الوزير الجرجرائى . فحرض هذا الوزير بعض جند الشام على أنوشتكين ، وتمكنوا منه فهرب ، وانتهى الأمر بموته سنة ٤٥٣ هـ .

وقال ابن الأثير فى حوادث هذه السنة^(١) : « فسد أمر بلاد الشام ، وانتقضت الأمور بها ، وزال النظام ، وطمعت العرب ، وخرجوا من نواحيه ، فخرج حسّان بن مفرج الطائى بفلسطين وخرج معز الدولة بن صالح الكلابى بحلب ، وقصدها وحصرها وملك المدينة . »

والتبّع لدور الحمدانيين فى الشام ومنذ نشأتهم ير أنهم عملوا على بسط نفوذهم على

(١) راجع الكامل فى أحداث هذه السنة الجزء الثامن .

الجزيرة وشمال الشام ، واقتطاع كما ما يمكن اقتطاعه من أرض الخلافة العباسية ، أو أملاك الفاطميين في تلك الجهات ، سواء أكان ذلك بانتهاز فرصة ضعف أى منهما ، أو مخالفة أحدهما ضد الآخر أو حتى مخالفة الروم والارتقاء في أحضانهم ضدهما كليهما أو ضد واحد منهما إذا مارأوا في ذلك كسبا أو مصلحة لهم .

بين الفاطميين والسلاجقة

بدأت قوة السلاجقة الأتراك في الظهور في القرن الخامس — الحادى عشر الميلادى — ، وناجزوا البويهيين للسيطرة على شرق العالم الإسلامى ، والخلافة العباسية في بغداد ، وتدخل الفاطميون في هذا الصراع المثلث الأطراف محاولين النفوذ إلى غايتهم في السيطرة على بغداد عاصمة العباسيين والدعوة لأنفسهم على منابرها .

وكان لدعاتهم فضل تمهيد الأرض أمام بسط نفوذهم في تلك الأرجاء : وقد مر بنا ماكانوا يفعلونه من بث الدعاة ، وماكان من أمر الحسن الصباح صاحب قلعة الموت ، كذلك كان لأحد دهاة دعاتهم وهو المؤيد للدين داعى الدعاة دور كبير في الانقلاب الذى حدث في بغداد على يد البساسيرى أحد أعوان الفاطميين من جند الأتراك سنة ٤٥٠ هـ . إذ ثار على الخليفة العباسى وأعوانه ، وكاتب المستنصر ودعا له بمسجد بغداد وغيرها . ولم يدم ذلك طويلا ، إذ سرعان ماأعاد السلاجقة الأتراك هجومهم على بغداد وتمت هزيمتهم للبساسيرى وأعادوا الخليفة العباسى إلى موقعه ، والخطبة له على المنابر من جديد .

واستطاع السلطان السلجوق طغرل بك بعد الاستيلاء على بغداد والقضاء على البساسيرى أن يتعقب دعاة الفاطميين ورجالهم ، كما هاجم أملاكهم في الشام وطاردهم خلفاؤه في أنحائها ، وظل سلاجقة الشام والروم في حرب مع الفاطميين حتى تقلص نفوذهم بالشام . فاستولوا على حلب ، وهاجموا دمشق ، واتجهوا جنوبا إلى فلسطين وبيت المقدس سنة ٤٦٣ هـ .

وكان السلاجقة ممن اتخذوا من مذهب أهل السنة عقيدة لهم ، وتحمسوا له وعارضوا الشيعة وفرقهم ، وحاربوهم في المشرق والعراق والشام ، وانضم إليهم كل أهل السنة في تلك البلاد وعضدوهم ، وآزروهم في حربهم للفاطميين ومن لف لفهم .وقد نشطت فرق الشيعة الباطنية في تكوين جمعيات سرية فدائية ، كانت تتعقب سلاطين

السلاجقة وكبار رجالهم ، وتغاتهم ، لتعيق حركتهم في محاربة الفاطميين والشيعة .

ويقول أحد الكتاب في تصوير قيام الدولة السلجوقية وعملها على دفع موجات الروم والصليبيين بعد توحيد كلمة المسلمين :

« كان سبق للمسلمين أن شهدوا في القرن الخامس الهجري (الحادى عشر الميلادى) وحدة في صفوفهم يوم قامت أولى امبراطوريات الأتراك على سواعد السلاجقة ، وامتدت أطرافها حتى ضمت مع ممتلكاتها أراضي الخلافة أيضا . وقد رفع قواعدها السلطان طغرل بك سنة ٤٢٥ هـ — ٤٤٥ هـ (١٠٣٣ — ١٠٦٣ م) فاستولى في سنة ٤٢٥ هـ على خراسان ، وخطب له في نيسابور ، ومازال أمره في علو حتى هابه ملك الروم ، وهاداه ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله وسار يريد بغداد حتى دخلها سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، وأزال دولة البويهيين .

وملك بعده السلطان ألب أرسلان الذى وسع رقعة دولته حتى حذود الروم ، وكانت بينه وبين ملك الروم آنذ وقعة ملاذكرد الفاصلة سنة ٤٦٣ هـ / ٤٦٤ هـ والتي تم فيها النصر له فرجحت منذ ذلك الحين كفة السلاجقة في المشرق الإسلامى ، وأصبحوا هم السادة الجدد للمنطقة . وبعد ألب أرسلان ملك السلطان العظيم ملكشاه ، ووزيره الخطير والمصلح الكبير نظام الملك ، وفي عهد ملكشاه ، استولى السلاجقة بقيادة تتش على جزء كبير من الشام ، وجعلوا قاعدتهم بها دمشق واستقر بها تتش .

وبعد ملكشاه انقسمت الدولة السلجوقية إلى ثلاث دول . دولة المشرق ، وسلاجقة الشام ، وسلاجقة الروم .

واستمر النضال بين سلاجقة سوريا أو الشام والفاطميين في مصر طوال النصف الثانى من القرن الخامس ، وكان أبطال هذا النضال من السلاجقة تتش ، وسليمان بن أرتق حاكم القدس ، ومن جانب الفاطميين أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل الذى استطاع أن يطرد الأرتقيين من بيت المقدس ويعيده مرة أخرى إلى سلطة الفاطميين سنة ٤٨٩ هـ ، ثم سقط بعد ذلك بقليل في أيدي الصليبيين وكانت قد بدأت جموع الصليبيين تجتاح الشام في أخريات القرن الخامس الهجري وطوال القرن السادس .

وظهر من أتباع السلاجقة أحد أمرائهم بالموصل وهو عماد الدين زنكى فقاد عدة حملات ضد الصليبيين لتخليص نفوذهم بجزيرة الفرات وثغور الشام واستطاع أن يستعيد الرها من قبضة الصليبيين سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م)

ثم ملك بعد زنكى أبنائه ، وبرز منهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود واستولى نور الدين محمود على دمشق. وحدثت بينه وبين الفاطميين مفاوضات واتفاقات ، ومراسلات اشترك فيها أو فى بعضها أسامة بن منقذ ، والصالح طلائع بن رزىك ، وبعد مقتل طلائع واضطراب الأمر وخروجه من يد ولده وصراع السلطة بين الوزير شاور وضرغام تدخل الصليبيون ، وبعث الخليفة الفاطمى فى طلب النجدة من نور الدين محمود فأرسل شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين .

ثم حدث ماحدث من القتال بين هذه الأطراف حتى استقر الأمر لشيركوه ومن بعده لابن أخيه صلاح الدين .

بين الفاطميين والروم البيزنطيين

كان اللقاء بين الروم البيزنطيين والفاطميين قبل دخول الأخيرين مصر وفى أثناء ملكهم شمال أفريقيا ، وكان النزاع بين القوتين فى البحر للسيطرة عليه ، وتملك بعض جزره الهامة .

وقد حرص الفاطميون منذ البداية على بناء قوة بحرية تمكنهم من مناجزة الروم وغيرهم فى البحر المتوسط. واستطاعوا السيطرة على بعض تلك الجزر كما عرفنا ، ولم يسلم لهم الروم بذلك بل حاولوا انتزاعها منهم ، كما حاولوا انتزاع السيطرة على البحر وبخاصة فى الجزء الشرقى منه .

وكانت حملات الروم البيزنطيين مستمرة على الجزيرة الفرانية وشمال الشام وثغوره لردع بعض غارات المسلمين ، من أمراء الشام والجزيرة ، وأبرزهم فى الوقت السابق على دخول الفاطميين مصر أمراء الحمدانيين فى الموصل وحلب . وكانت إمارة الحمدانيين فى حلب قد ضعفت فى أخريات حكم سيف الدولة ، وتعرضت لحملات من الروم البيزنطيين ، بقيادة نقفور .

قال ابن الأثير : « وجعل نقفور همه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها وتم له ما أراد
باشغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض ، فتوَّخ البلاد ، وكان قد بنى أمره على أن يقصد
سواد البلاد فينبه ويخرجه ، فيضعف البلاد فيملكها . وغلب على الثغور الجزرية
والشامية ، وسى وأسر بما يخرج عن الحصر . وهابه المسلمون هبة عظيمة ، ولم يشكروا
في أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانع ، فلما استعجل
أمره أتاه أمر الله من حيث لم يحتسب وقتل سنة ٣٥٩ هـ . »^(١)

وجاء الفاطميون إلى مصر وبسطوا نفوذهم على الشام ، واستشعر الروم البيزنطيون
بقوة الفاطميين أيام المعز والعزیز بالله ، وحاولوا جس نبض هذا السيد الجديد بالشام ،
فقام الامبراطور باسيل بحملة إلى الشام عبر فيها الحدود إلى حلب وبعض مدن الشام ثم
عاد أدراجه

وظل الروم يعملون حساب الدولة الفاطمية في مغامراتهم بالشام على الرغم من
وجود خلافات ونزاعات بين الأطراف العربية والإسلامية بها والتي كانوا يسعون إلى
زيادتها لضعف الشوكة والانقضاض كلما أتحت فرصة .

وهدأت الأحوال بين الفاطميين الروم بعض الوقت أيام العزيز والحاكم وتبادلوا
السفارات ، وعقد الاتفاقات على أن يحفظ الفاطميون للنصارى حقوقهم فيما يملكون
من البلاد ، ويفعل الروم مثله مع المسلمين من رعاياهم .

وانتقض الحال ، وعاود الروم نشاطهم بأرض الشام في دولة الظاهر بالله والمستنصر ،
ففى سنة ٤٢٢ تحرك الامبراطور أرمانوس إلى شمال الشام والجزيرة فقتلوا المسلمين ،
واحتلوا مدينة الرها ، وملكوا قلعة أقمية من الفاطميين ، وأغاروا على بعض البلاد

ثم جاء المستنصر فهادن الروم فى سنة ٤٢٩ هـ وشرط عليهم إطلاق خمسة آلاف أسير
من المسلمين ، وشرط الروم عليه أن يعمرُوا بيعة « قمامة » أو كنيسة القيامة بالقدس ،
فأرسل المستنصر إليها من عمرها ، وأخرج عليها مالا كثيرا .

ولم يلبث الروم أن نقضوا الهدنة فأغاروا بجيوشهم سنة ٤٣٢ هـ على شمال بلاد الشام

(١) الكامل ٧ / حوادث سنة ٣٥٩

فسير إليهم المستنصر قائده الذيرى على رأس جيش قوى لقيهم قرب حماة ، فكان النصر للفاطمين ، وقتل من الروم عدد كبير ، وأسر ابن عم ملك الروم فبذلوا في فدائه مالا جزيلا وعدة وافرة من أسرى المسلمين .

وفي سنة ٤٣٩ هـ تجددت الهدنة بين الروم والمستنصر وحمل كل من ملك الروم والخليفة لصاحبه هدية عظيمة .

وظلت الأحوال بين الفاطميين والروم هكذا بين الحرب والمهادنة حتى أخذ حكم الفاطميين في الانحسار عن الشام مع دخول السلاجقة واستيلائهم على دمشق وزحفهم إلى بيت المقدس ، في آخر عهد المستنصر ، وأول عهد المستعلى والوزير الأفضل ابن بدر الجمالى . وزامن هذا بدء الموجات الصليبية على أرض الشام ، واحتلال بعض الثغور وإقامة الإمارات ، وفي النهاية احتلال بيت المقدس سنة ٤٦٢ هـ فلم يبق للفاطميين سوى أجزاء قليلة في جنوب الشام وفلسطين .

الفاطميون والصليبيون

جاء الصليبيون إلى الشرق الإسلامى ونزلوا بلاد الشام بعد أن آنسوا من ملوك المسلمين ضعفاً ، وتخاذلوا ، ووجدوا بينهم الشحنة والحروب المتتابعة ، فبدأوا هجومهم على جزر البحر المتوسط ، واستخلصوا صقلية بواسطة النورمان .

وعبر الفرنج من الصليبيين آسيا الصغرى ، وقطعوا سهل الأناضول حتى بلغوا شمال الشام بقيادة بوهند وبلدوين ، وسقطت في أيديهم عدة مدن كالرها وانطاكية ثم زحفوا جنوباً قاصدين بيت المقدس على الساحل خوفاً من غارات المسلمين لدى توغلبهم داخل البلاد . وحتى يكونوا قريبين من المدد الذى يأتيهم عبر البحر من بلادهم فى أوروبا

وزحفت جيوش الصليبيين على ساحل الشام حتى عكا ، وحيفا وقيسارية أرسوس وتوغلوا قليلاً فى الداخل فى أرض فلسطين حتى وصلوا مدينة الرملة ، فعادرتها حاميتها قبل بلوغها خوفاً ، وهكذا سقطت الرملة فى أيديهم دون حرب ، ومنها أطلوا على مدينة بيت المقدس ، وتجهزوا لحصارها . وكانت حاميتها من جيش الفاطميين وتقدر بألف رجل ، وأما الصليبيون فكانوا يقدرون بأربعين ألف . حاصروا المدينة أكثر من شهر حتى سقطت فى أيديهم .

وكانت مدينة بيت المقدس خاضعة لتاج الدولة تنش من السلاجقة بالشام ومستقرة بدمشق فأقطعها لأحد قواده الأمير سلمان بن أرتق ، فلما ظفر الصليبيون بالأترك السلاجقة في أنطاكية وقتلوا فيهم تفرقوا وضعفوا ، ولما رأى الفاطميون هزيمة الأترك السلاجقة وضعفهم هاجموا بيت المقدس واستردوها منهم بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي . وذلك في شعبان سنة ٤٨٩ هـ بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً .

وترك الفاطميون حامية بالقدس ، وظلت كذلك حتى داهمها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار عكا وعدم تمكنهم من اقتاحتها .

وسقطت مدينة القدس ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان ، الموافق ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م ، وقد وافقت حاميتها على التسليم للصليبيين على أن يسمح لهم بالرحيل إلى عسقلان سالمين . غير أن الصليبيين نكثوا بوعدهم ، وأعملوا السيف في رقاب الحامية وأهل المدينة في مذبحه عظيمة جرت فيها الدماء بالشوارع وخاضها جنودهم حتى ركب الفرسان كما توصف في بعض المصادر .

يقول ابن الأثير^(١) : « وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، واحتفى جماعة من المسلمين بمحراب داود ، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل الفرنج لهم الأمان فسلموه إليهم ووفى لهم الفرنج فخرجوا ليلاً إلى عسقلان ، فأقاموا بها . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف . »

وكان من أسباب هزيمة المسلمين هذه واحتلال بيت المقدس الاختلاف وكثرة الحروب بينهم . قال ابن الأثير : « واختلف السلاطين على مآذكره ، فتمكن الفرنج من البلاد وصدق الأيوبردى إذ يقول :

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا	رماحهم والدين واهى الدعاء
ويجتنبون النار خوفاً من السردي	ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعشاريب بالأذى	ويغضى على ذل كماء الأعاجم

(١) الكامل المجلد التاسع ص ٢٠

ولين صناديد الأعراب الذين ذكرهم الشاعر وقد ذهبت ريجهم ، وولت دولتهم ،
وملك أمرهم الخدم ، والعجم والأرمن . ٢ ، وقد حذر المتنبي الشاعر من هذا المصير
المؤلم وكأنه يرى تلك النهاية الفاجعة لأمة العرب والمسلمين في كثير من قصائده .

وحاول الأفضل أن يسترجع القدس فخرج إلى البلد بجيش كان على رأسه ، وانطلق
من عسقلان قاعدة الفاطميين الباقية في الشام لملاقاة جند الصليبيين ، إلا أنهم هزموه ففر
مع جنده إلى عسقلان ، قال ابن الأثير : « وانهمز الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة
من المنهزمين ، فاستروا بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر
حتى هلك من فيه ، وقتلوا من خرج منه ، وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر ونازل
الفرنج عسقلان ، فبذل لهم أهلها المال فتركوها عائدين إلى القدس .

وكانت عودة الصليبيين من عسقلان في شهر أغسطس (آب ١٠٩٩ م) ، وكان
قادتهم ريموند وجودفري . واستطاع الملك الصليبي بلدوين أن يعاود الكرة لينتزع
عسقلان سنة ٥٤٨ هـ وظل الصليبيون يكتنون لأنفسهم في الشام ، ويتوسعون في ضم
الأرض إلى مملكة بيت المقدس حتى امتدت هذه المملكة لتشمل أرض فلسطين وتمتد على
طول ساحل الشام شمالا حتى بيروت ، وجنوبا إلى العريش في مصر . ولكنها لم تتسع
شرقا إلى أبعد من مقاطعة الأردن خوفاً من التوغل في الصحراء . وقد أقاموا على
حدودها الشرقية القلاع الحصينة مثل قلعتي الكرك والشوبك .

وكانت الحالة في مصر قد بلغت من السوء والفوضى والضعف بسبب ضعف الخلفاء
وتسلط الخدم وجند الخلافة والنساء على القصر ، وصراع القوى بين رجال الدولة
والقادة العظام حتى قتل الصالح طلائع بن رزيك ، وابنه ، وقامت الفتنة بين شاور
وضرغام واتهم الصليبيون الفرصة ليزحف ملك بيت المقدس إلى مصر لضمها إلى
ملكه .

الباب الثاني الحياة الاجتماعية

مصر والنيل يجرى وسطها ، يشقها من الجنوب إلى الشمال حيث يتفرع بعد القاهرة إلى فرعيه دمياط ورشيد تمثل بهذا الوضع وادى النيل في قطاعه الشمالى (مصر) وهى كذلك منذ الأبد بصورتها المكانية تحف الوادى الأخضر بأرضه الزراعية على جانبيه الضفتين ، وتحيط بهما من الشرق والغرب الأرض الصحراوية ، يشقها النيل مكونا واديه فتبدو في الجنوب أطراف الضفتين وكأنها تلال وجبال : الحاجر الغربى والحاجر الشرقى ولا تزال هذه الحافة تنخفض في ارتفاعها وتبتعد عن الرادى حتى قرب الجزيرة بالقاهرة حيث تتفرع الدلتا بفرعى النيل ، ولا يبدو لهذه التلال أثر بل أرض صحراوية ممتدة شرقاً ، وأخرى ممتدة غرباً ... على مرمى البصر .

تلك هى مصر ويحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الغرب الصحراء الليبية ، ومن الشرق جبال البحر الأحمر والصحراء الشرقية والبحر الأحمر ، بفرعيه اللذين يختصنان شبه جزيرة سيناء بجبالها ووديانها وسهولها الساحلية في الشمال . ومصر على هذه الصورة قسمت منذ القديم إلى عدة أعمال ، وعلى كل عمل وإلى حرب وعامل خراج وقاض ، ولكل عمل مصر أو عاصمة ، وهذه الأعمال عشرون عملاً منها بالوجه القبلى أو الصعيد عشرة أعمال بالوجه البحرى عشرة ، فأعمال الصعيد الإطفيحية ، والجزيرة ، والفيومية ، والبوصيرية والبهنساوية ، والأشمونية ، والأسبوطية ، والإخممية ، والقوصية والواحات .

وكانت هذه الأعمال منفصلة ، ثم انقسمت إلى قسمين البحرية وتتبع القاهرة ، والقبلى وتتبع الفسطاط .

فمن أعمال القاهرة : القليوبية والشرقية ، والمنوفية ، والدنجاوية وجزيرة بنى نصر ، وجزيرة قويسنا ، والسمنودية ، والغربية ، والدقهلية والمرتاحية ، والأبوانية ، والتتيسية ، والبحيرة وحوف رمسيس .

هذا فضلاً عن الثغور وهى ثغر دمياط ، وثغر رشيد وثغر الفرما ، وثغر الإسكندرية .

ويمثل في هذا التقسيم الإدارى لمصر جوانب العمران الحضرى والبدوى جميعاً أى القرى ومن بها من فلاحين مستقرين يعملون بالزراعة ، وبادية على أطراف الوادى

يسكنها جماعات البدو والأعراب الرحل غير المستقرين والذي يعيش بعضهم على الزراعات المطرية ، أو الرعى وينتقلون من مكان إلى مكان

ومعظم قرى الصعيد ومدنه وأمصاره تنتثر على ضفتي النيل ، وأكثر الأمصار والمدن يقع على الضفتين لسهولة الاتصال عن طريق النيل وهو الطريق الرئيسي للاتصال بين البلاد شمالاً وجنوباً .

وكثيراً ما نجد القرى والمدن المصرية تقوم على تلال أو مرتفع من الأرض لتأمن فيضان النيل ، وتمتد بين بعضها الجسور . وتتخذ بعض المدن والقرى من المرتفعات عرى النيل وشرقيه مكاناً لتأمن غائلة الفيضان وبخاصة في الصعيد .

وكانت تشق أرض الصعيد ، وشمال البلاد بعض الخلجان (الترع) مثل خليج المنى أو بحر يوسف في الصعيد ، وخليج أمير المؤمنين غربى القاهرة ، وخليج الإسكندرية الذى يخرج من فرع رشيد .

وتقوم الزراعات البقلية على مياه الفيضان ، وأهمها الحبوب كالقمح والفلو والعنبر ، كما تقوم بعض الزراعات الموسمية الأخرى على المطر في البوادي وتزرع الحدائق والخضروات على المجارى المائية من النيل بواسطة السواقي والآلات الأخرى كالطنابير والشواذيف وما إليها .

واعتمد المصريون زراعات أرض الشراقي التي لا يصلها ماء النيل على السواقي وقد ابتدعوا من قديم الزمان حفر السواقي العميقة ، التي ترفع مياهها بواسطة القواديس على مستوى واحد أو مستويات متعددة حسب عمق البئر أو الساقية .

وكانت مصر تعتمد على ثروتها الزراعية من القرى اعتماداً كبيراً في حياة الناس ومعاشهم ، وكان من عادة مؤرخى مصر الحديث عن سعر القمح في حالى الشدة والرخاء وتوفر رغيف العيش أو اختفائه ، ولم تكن مصر لتستورد القمح بطبيعة الحال ، بل كانت تنتجه وتصدره إذا فاض عن حاجة أهلها في أوقات الرخاء وسخاء النيل

كان النشاط الزراعى في قرى مصر بالصعيد والوجه البحرى هو النشاط الرئيسى للسكان ، كما أن الفلاحين يمثلون الغالبية العظمى منهم ، وهم جلُّ أهل القرى فيما عدا أعداد قليلة من البشر يقومون بالخدمات المساعدة ، والحرف أو المهس الأخرى

كالتجارين والسقّائين ، والتجار ، والمعلمين أو الشيوخ في كتابات القرى الذين يعلمون
أبناءها القرآن ، ويؤمنون الناس في المساجد ويخطبون أيام الجمع ، ويحيون ليالى
رمضان ، وفي المناسبات .

وكانت حواضر مصر من البنادر على طول انعمور الوسطى ، وبالضرورة فى العصر
الفاطمى تمثل النشاط المدينى للسكان إلى جانب النشاط الزراعى لبعض كبار الملاك .
واهتم المؤرخون ، وكتاب الدواوين بخصر عدد قرى مصر وحواضرها فى سجلات وكتب ،
ومنها كتاب ابن ممان والطواط (ت ٧١٨) (١) . .

ويذكر الطواط حواضر مصر المشهورة ، فيسميها مصرأ بمعنى المدينة (٢) أو المدينة
الكبيرة « والتي تشرف إدارياً على مجموعة من الأقسام الإدارية « الأعمال » ومنها
الفسطاط التي كانت تشرف على أعمال الوجه القبلى . والقاهرة التي تشرف على أعمال
الوجه البحرى .

ويستعملها على معنى العاصمة الإقليمية للعمل أو لعدة أعمال كالجزيرة ، التي تشرف
على عملها ، وقلوب التي تشرف على أعمال القليوبية ، وقد تشرف إحدى هذه
العواصم على عدة أعمال يتولاها وإلى حرب واحد كأعمال الدقهلية والمرتاحية
والأبوانية فهي كلها يتولاها والى واحد وعامل واحد وقاض واحد ، ومصر الجميع
أشهر طناح وكذا الحال فى الصعيد هناك ولايات كبرى لها عاصمة كالأشمونى ،
وأسيوط وقوص تضم عدة أعمال . كذلك كانت الأعمال البوصيرية وعاصمتها بوصير
فى إقليم بنى سويف .

كذلك أعمال الاسكندرية والبا ثغرة ثغر الإسكندرية وتضم منطقة الإسكندرية
وماحولها ، وتضم إليها أحيانا أعمال فوة .

ومن الثغور الهامة ثغر الإسكندرية ، وثر دمياط ، وثر تنيس وثر الفرما فى
الشمال ، وثر أسوان بالجنوب والقصر وعيذاب على البحر الأحمر .

(١) منابع الفكر ومباحث العرب للوطواط صفحات مه تحقيق د. عد النعال عبد المنعم الشامى طبع الكويت سنة

١٩٨١

(٢) المصر بمه المقدمة ص ٢٠

وذكر المسيحي في تاريخه أن قرى مصر أسفل الأرض — أى بالوجه البحرى — ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية . ونقل المقرئى عن أحد كتاب الخراج الأقباط أن عدد كور مصر وقراها سنة ٣٤٥ هـ بالصعيد والوجه البحرى كان ألفين وثلاثمائة وخمساً وتسعين قرية منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبالوجه البحرى ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية .^(١)

ومن مقارنة عدد قرى الصعيد فى كتاب المسيحي الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى وألف كتابه بعد الكاتب القبطى بما يقرب من سبعين عاماً يتضح أن عدد قرى الصعيد ينقص مرتين عما كان أيام الإخشيديين ، ربما كان ذلك بسبب خرابها أو انضمامها إلى قرى أكبر .

وعلى أية حال فإن عدد القرى بالصعيد أقل منه بالوجه البحرى لكثافة سكان الوجه البحرى وسهولة مواصلاته ، واعتدال مناخه ، وحسن رعاية الولاة له لقربه من العاصمة وثغور الدولة ومصالحها الرئيسية .

قال المقرئى : « وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ماخرب منها » . ولعل خراباً كبيراً قد حدث بعد إحصاء المسيحي ، وبخاصة بعد الشدة المستنصرية التى هجر فيها كثير من الفلاحين قراهم ، فخربت ، ودمرت ، وزاد الخراب بثورات الأعراب ، واضطراب الأحوال فى مصر الفاطمية بعد ذلك نتيجة ضعف سلطة الدولة للنزاع على الحكم بين الخلفاء والأمراء والوزراء حتى سقوط الدولة وقيام الدولة الأيوبية .

ويتكون سكان مصر فى عصر الفاطميين من المصريين « الأقباط » مسلمين ومسيحيين ، ويطلق عليهم اسم « القبط » فى التواريخ الإسلامية المتقدمة ، ثم غلب اسم القبط على المسيحيين من أهل مصر بعد ذلك ، وخلط بعض كتاب التاريخ فى التفرقة بين الدلتين .

وكان الأقباط المسيحيون قد ثاروا على بعض ولاة المسلمين لزيادة ضريبة الرعوس على أهل الذمة ، وهى الجزية المقررة ، وكان مقدارها ديناراً فرادوها دراهم ، وانتقض الأقباط مسيحيين ومسلمين لمغالاة الولاة فى جمع المال من الجزية والخراج ، بل شارك الأقباط بعض القبائل العربية التى استوطنت فى أنحاء الوجه البحرى والصعيد ، كما ثار

(١) راجع المخطوط للمقرئى ٧٣/١

أهل الشرقية سنة ١٨٧ هـ^(١) وكانوا من العرب القيسية ، وظلت ثورات أهل الشرقية متتابعة حتى سنة ٢١٤ هـ

قال المقرئى : « ... فلما كان فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ انتقض أسفل الأرض (الوجه البحرى) بأسره : عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم ، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت إلى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ هـ . »

وقال المأمون لوالى مصر آتخذ : « لم يكن هذا الحدث العظيم — أى ثورة المصريين فى الوجه البحرى — إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس مالا يطيقون ، وكنتمنى الخبر ، حتى تفاقم الأمر ، واضطرب البلد . »

ويحكى المقرئى قصة وقعت للمأمون تشير إلى مدى غنى بعض أقباط مصر فى الوجه البحرى قال المقرئى^(٢) : « ويقال أن المأمون لما سار فى قرى مصر كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة والعساكر من حوله . وكان يقيم فى القرية يوماً وليلة فمر بقرية يقال لها وطاء الحمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية ، وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها . وقالت له القبطية : : نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط تعيرنى بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلولة فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ، ولاتشمت الأعداء بى ، وبكت بكاء كثيراً فرق لها المأمون ، وثنى عنان فرسه إليها ونزل . » وأكرمه العجوز القبطية لإكرام الملوك ، وقدمت له من الهدايا ما أدهش المأمون . قال المقرئى : « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً ، حتى أنه استعظم ذلك ، فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر : جاءكم القبطية بهدية الريف الكاخ والصحناء والصير ، فلما وضعت ذلك بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب . ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك . »

(١) الخطط ٨٠/١

(٢) الخطط ٨١/١

فقلت : يأمر المؤمنين : لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا تحب الثقيل عليك ، فردى مالك ، بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يأمر المؤمنين ، هذا وأشارت إلى الذهب ، من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ، ثم من عدلك يأمر المؤمنين . وعندي من هذا شيء كثير . فأخذه منها وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاهما من قريتها « وطاء التمل » مائتي فدان بغير خراج ، وانصرف متعجباً من كبر مروعتها وسعة حالها . »

وهذه القصة تدل على أشياء كثيرة أهمها غنى أرض مصر ، وسماحة حكام المسلمين مع أهلها وأبنائها خاصة وعدم مصادرتهم ، وأخذ أموالهم دون حق ، ومراعاة أحوالهم وجزائهم على حسن معاملتهم بما يستحقون . وبلوغ بعض الملاك في ريف مصر من الثراء والجاه مبلغاً عظيماً .

ولاشك أن الحال استمر على هذا طوال حكم العباسيين وأمرائهم بمصر بقية القرن الثالث وفي القرن الرابع عصر الأخشيديين وحتى بدء العصر الفاطمي .

وثرء مصر في القرن الثالث يحدثنا عنه حكم الطولونيين ، ومدى ما كانوا ينعمون فيه ، ويكفي الإشارة إلى بذخ خماروية .

وهكذا عاش سكان مصر من الأقباط في قرى الوجه البحرى والصعيد ، وشاركتهم العرب الوافدون من الجزيرة العربية في صورة هجرات قبلية متتابعة على مدى الحكم الإسلامى منذ عصر الولاة في عهد الراشدين والأمويين والعباسيين .

قال المقرئى : « وكان من خير أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها ، واستيطانهم وأهلهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات أن متولى خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط في الوقت الذى تنهياً فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدي متولى الخراج يكتبون ماينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . »

وأهم قبائل العرب التى وفدت إلى مصر ، وتفرقت في نواحيها بالوجه البحرى

والصعيد من عرب القحطانية جهينة ويلي وجذام ، ويتبعهم بطرق متعددة وفدت على مراحل وهجرات متعددة وتوارى متعاقبة ، كما ينتسب إليها قبائل مغربية مختلطة بدماء بربرية وفدت إلى غرب مصر مثل بنى قره ، ولواته ، وهواره ، وتنقلت هذه القبائل اليمنية الأصول وانتشرت في أنحاء كثيرة بمصر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، واختلطت بأبناء البلاد من القبط واختلطت بغيرها من القبائل المصرية التي نزحت كذلك إلى مصر على هجرات متعاقبة ومتعددة منذ الفتح الإسلامى وحتى عصر الفاطميين .

ومن أهم قبائل مصر قيس أو قيس عيلان ، ومن بطونها فزارة ، ومنهم من دخلوا مصر وسكنوا بعض نواحي وقرى القليوبية في قلقشندة وزفتا ، ومنهم جماعات من هوازن من بنى عامر بن صعصعة ، وخاصة من بنى هلال ، وفدوا إلى جنوب مصر وسكنوا الصعيد في الضفة الشرقية للنيل مع بنى سليم ، وجماعات أخرى من قيس . ونقل القلقشندى أنه كانت لهم بلاد الصعيد كله إلى عيذاب . وهاجرت جماعات منهم إلى المغرب .

كذلك نزحت قبائل من قيس إلى بلاد الشرقية في الحوف الشرقى . ونزحت قبائل وبتون من ربيعة من شرق الجزيرة إلى كثير من مناطق مصر . كما وفدت جماعات من قريش في عصر الولاة ، وجاء إليها من الهاشميين جماعات في عصر الفاطميين وبخاصة الطالبيين .

ونزح من ربيعة بطون استقر معظمها في الصعيد الأعلى قرب أسوان ومنهم الكنوز . وشجع الفاطميون لانتسابهم إلى أسرة عربية عريقة هي قريش العرب وبخاصة قيس والمغاربة على النزوح إلى مصر ، واستخدموهم في غزواتهم ، وفي بعض نزاعاتهم مع القبائل الأخرى اليمنية والبربر في شمال أفريقيا .

يقول الدكتور عابدين^(١) : « فالفاطيون على الرغم مما قيل في نسبهم يعتزون بالانتساب إلى قريش ويحجرون على سياسة تشبه سياسة الأمويين في الاعتماد على العناصر العربية والاستعانة بهم في حروبهم وفي تدعيم قوتهم ، وفي استغلال العصبية بينهم

(١) البيان والإعراب للمقريزى دراسة د. عبد المجيد عابدين ص ١١٦
طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٦١

أحيانا . » ولعل أخبار بنى هلال مع الفاطميين مثل واضح على ذلك كله ، فقد شجع الفاطميون هجرة بنى هلال وحلفائهم إلى مصر . فاكتظت بهم أنحاء مصر الشرقية ، ثم أدركتهم شريعة الصحراء فجعلوا يشغبون حتى سمح لأكثرهم بالهجرة إلى بلاد المغرب لمحاربة بنى باديس .

وكان بتوقره: الجذاميون يمثلون قلقا للفاطميين في إقليم البحيرة غربى الدلتا ، فقد تحالفوا مع أبى ركة الناصر المشهور في عصر الحاكم بأمر الله . ولما قضى على أبى ركة ، عاود بنو ركة مرة أخرى الشغب بإقليم البحيرة واستولوا على الإسكندرية ، نتصدى لهم الفاطميون مرة أخرى سنة ٤٤٢ هـ وهزموهم فانسحب بنو ركة إلى الصعيد وتفرقوا بقره . ولا زالت في إقليم أسيوط قرية بهذا الاسم .

وعرفت كثير من القرى بأسماء مصر شمالاً وجوباً بأسماء قبائل عربية سكنتها . ككنفور العائد في مركز بليس سكنها جماعات من العائد من جذام ، أبى عدى ، وبنى محمد ، وبنى حسين ، والدناجلة ، والبلازة .

كان إذا لاختلاط العرب النازحين من الشرق أو من المغرب على اختلاف عصور التاريخ الإسلامى منذ الفتح وحتى عصر الفاطميين في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وطوال القرنين التاليين حتى القرن السادس أثر كبير في الاسراع بتعريب مصر ، جنساً ، ولغة ، وثقافة واعتناق معظم المصريين للدين الإسلامى .

وقد تعايش العرب والأقباط في قرى مصر ونجوعها ، وتصاهروا وتناسلوا وامتزجت الحضارات المصرية القديمة بالحضارات العربية الإسلامية الوافدة ، وظهرت على مدى العصور الإسلامية بمصر هذه السمات الخاصة والمميزة للشعب العربى في مصر والتي تميزه عن غيره من الشعوب العربية الإسلامية في البلاد الأخرى .

لقد كان نتيجة هذا الاختلاط نوع جديد من الحضارة تبنى في طرق العيش في قرى الريف في بناء المساكن وأنظمتها ، وآلاتها ، وطرائق الطعام والشراب ، وأنواع السلوك والتعامل مع الأرض والزراعة وأتباع ماعرفه المصريون القدماء من أقام العصور من مواقيت الزراعة والحصاد ، وبذر البنور ، وجنى الثمار وترتيب ذلك حسب الشهور القبطية ، وجرت بها أقوال دارجة على ألسن النلاحين في قرى مصر شمالها وجنوبها مثل قولهم في أمثاضم :

« اللى ماتشبع برسيم فى كياك إدعو عليها بالهلاك »
وكيهك من الشهور القبطية ، وهو سابق لشهر طوبة ، وبه ينضج البرسيم فترعاه الماشية وتدر اللبن .

وكقولهم فى برمهات :

« برمهات روح الفيط وهات »

يعنى أن هذا الشهر القبطى هو شهر نضج البقول كالقول والعفس ، والبر القمح .

وهكذا واعتاد المصريون من المسلمين والمسيحيين من العرب والقبط ماورثوه عن أجدادهم المصريين القدماء فى تدبير الإفادة من مياه النيل بحفر الترع وتنظيم الري ، ويذكر المقرئى اهتمام المصريين بهذا حتى يفيدوا من مياه النيل أكبر فائدة ، ويجنوا من زراعة أرضهم بالصعيد أكبر ما يستطيعون .

ويذكر كيف كان ولاية الأعمال يحرسون على تطهير الترع والخلجان ، ويجمعون لهذا الرجال من عمال الفلاحين ، ويوفرون لهم العدد التى يعملون بها طوال العام .

ومن أشهر خلجان مصر فى العصر الإسلامى والتى ظلت إلى عصر الفاطميين وبعده خليج القاهرة ، أو خليج أمير المؤمنين ، وخليج الإسكندرية ، وخليج سخا وخليج سردوس وخليج الفيوم والمنهى (بحر يوسف) ، وبحر أى المنجا الذى حفره ابن أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ . وكان حفره أبو المنجا ابن شعيا اليهودى فعرف به .

وكانت الأرض تقسم فى مصر حسب جودتها إلى أقسام ، كما أنها تضم بمساحاتها فى قبالات ، وكذلك تسمى بالوجه القبلى جمع « قبالة » أو حوض ، وفى الوجه البحرى تعرف بالأحواض ، وكان لكل قبالة أو حوض ، أو مجموعة قبالات أو أحواض متعهدين ، ويقول المقرئى : « واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تُضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء ، والأجناد ، والوجوه ، وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم ... »

وكان كل من اختار زراعة أرض يقبلها ، وحمل ما عليه لبيت المال ، فإذا صار مال

الخراج بالديوان أنفق في طوائف العسكر من الخزائن . وكان مع ذلك إذا اشط النيل عن الأراضي ، ونقصت نواحي مصر من أصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة وخرج معه عدول يوثق بهم ، وكانت لهم معرفة بعلم الخراج وكثيرا ما كان هذا كاتباً من النصارى الأقباط ويخرج إلى كل ناحية من ذكرنا فيحررون مساحة ما شمله الرى من الأراضي مما لعله بار أو شرق ، ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن (الأفدنة) والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ويحضر إلى دواوين الباب ، فإذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الأحناد من عرف بالحماسة وقوة البطش وعين معه من الكتاب العدول من اشتهر بالأمانة وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة وساروا إلى كل ناحية كذلك فاستخرج مباشرة البلد ثلث ما وجب من مان الخراج . «^(١)

وقد تغير هذا النظام في عصر الأيوبيين والمماليك إلى نظام الاقطاع العسكرى إذ كان كل أمير من أمراء الجند الأتراك يقطع أرضاً ، يقوم على ملكها والسيطرة على أرضها وفلاحها ، وكان يفرض على الفلاحين قدراً بعينه من الخصول أو المال ، ويمنح زراع الأرض كالعبيد لا يملكون أن يعتقوا كالعبيد ، ولا أن ينفادروا الأرض . وقد أدى هذا النظام الاستبدادى إلى ضمور كثير من القرى والكفور وتدهور الزراعة والأرض الزراعية حتى عصر الدولة المملوكية الثانية وفتح الأتراك العثمانيين لمصر فازدادت الأمور سوءاً .

وكان المصريون كما قلنا يهتمون بزراعة القمح بالأراضي الجيدة . يقول المقرئى^(٢) : « وأصلح مازرع القمح في أثر الباقى (وهى أجود الأراضي ، والشرقى ، لأنها كانت تستريح دورة ، فتستعيد خصوبتها .) . وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح ، وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير .

ويزرع القمح من نصف شهر بابه إلى آخر هاتور ، وهذا في الجوائى من الأرض وكانت قطعة فدان القمح أيام الفاطميين ببلاد الصعيد ثلاثة أراذب ، ذاماً بنت البلاد في سنة ٥٧٢ هـ تقرر على كل فدان أرتبان ونصف ثم صار يؤخذ أرتبان . هذا

(١) الخطط ٨٥/١ — ٨٦

(٢) الخطط ١٠١/١

بالصعيد ويبدو أن الأمر كان يختلف في أسفل الأرض أى بالوجه البحرى ، فكان يؤخذ خراجها عيناً أى نقداً ، لا غلة . ويزرع الفول كذلك ويتصل من الفدان على عشرين إردبا إلى مادون ذلك وكذلك يزرع العدس . وغيره من الحبوب .

وكان المصريون يهتمون بزراعة الكتان ، ويستخرج من بذره الزيت الحار ، ويؤخذ على الفدان خراجه عينا مابين خمسة إلى ثلاثة دنانير ، وفى بعض الأراضى التى يوجد فيها كأرض دلاص بالصعيد ثلاثة عشر دينارا .

تلك أهم المحاصيل الشتوية ، وهناك محاصيل صيفية وخضروات وفاكهة كانت تجود بها أرض مصر ولا زالت .

وكان الخراج يحصل على ماتغله الأرض من حب وفاكهة وخضروات ، ومايقوم به الناس من أنواع النشاط كالخرف والصناعات والتجارة . وقد قرر ابن المدثر أحمد بن محمد لما تولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠ هـ عدة موارد للخراج وجبى المال ، قال عنها المقرئى أنها بدع صارت مستمرة من بعده لاتنقض ، فأخذ على القطرون وكان مباحاً للناس ، وقرر على الكلا الذى ترعاه البهاثم مالا سماء المراعى ، وقرر على مايطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد ... إلى غير ذلك . فانقسم مال مصر إلى خراجى وهلالى ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه ومابعده بالمرافق والمعاون . ثم اسقطت بعد ذلك فى عهد الخليفة العباسى المعتمد على الله ، وكان هذا الخراج الهلالى أو المرافق يبلغ فى مصر مائة ألف دينار كل سنة .

ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عندما ضعفت ، وصارت تعرف بالمكوس ، وجاء صلاح الدين بعد ذلك فأسقطها .

كانت أحوال الفلاحين خاصة ، وأهل مصر فى عهد الفاطميين طيبة ، وكانت ثروة البلاد ، وخيراتها تعم أهلها فيما عدا أيام الشدة ونقص النيل .

وعاش الفلاحون فى قراهم ومارسوا أنشطتهم فى الزراعة ، والحياة اليومية بين العمل فى الحقول والبحث عن المعاش ، وتختلف طبائع سكان مصر باختلاف منازلهم ، ومواقعهم من الصعيد أو توجه البحرى ، وكان عدد قرى الوجه البحرى يبلغ مايقرب من ضعف قرى الصعيد ، وقد وصف المقرئى أهل مصر من المصريين عامة دون

تحديد جنسهم أو أصولهم صفات ليست بالكريمة ، فأقل ما وصفهم به ضعف الطبيعة والجن والخضوع للحاكم ، والصبر والذل . ونقل عن بعض الكتب أقوالاً تؤيد هذا القول ، وأرجعهما بعضهم إلى طبيعة أرض مصر ومناخها الذى يقترب من الحرارة ، ولا يميل إلى الاعتدال إلا فى شهور قليلة من السنة وفى الوجه البحرى مما أثر على أمزجة الناس وطباعهم وأجسادهم .

ولاندرى سبباً لحملة بعض علماء العرب وكتاب المسلمين على المصريين ، فانهموهم اتهامات غير كريمة ، ووصفوهم صفات لاتدل على حقيقة ، وربما خلطوا فى هذا بين أقباط مصر وعرب مصر ، ومن سكنوا مصر من أجناس أخرى وافدة كرقيتى وعبيد مجلوب ولم يكونوا من سكان مصر ولا يدينون لها بالولاء ، وقد أتاحت لهم أعراقهم المختلطة أن يذاهنوا الحكام ، وأن يتصفوا بصفات قد تكون غير صفات المصريين الخالص من القبط أو العرب أو ممن نسلوا منهم جميعاً فى صعيد مصر أو وجهها البحرى . وبصفة عامة فإن المصرى الذى امتزجت دماؤه بتراب أرض مصر ، وامتدت اعراقه فى طينها يمتاز بصفات خاصة تميزه عن غيره من أهل البلاد المحيطة فهو طيب المعشر ، صافى القلب ، ودود ، متدين ، محب للأرض والأهل متمسك بما نشأ عليه من الخلق والعقائد ، لا يتخلى عنها بسهولة ، ألوف لا يخون ، ولا يعق ، صبور طويل الصبر ، لكنه إذا فاض به ثار فكانت ثورته عارمة .

ولاشك أن بعض هذه الصفات اكتسبها من عراقة الحضارة التى عاشها آلاف السنين ، وأضافت عليها الهجرات العربية صفات أخرى اكتسبها من الشخصية العربية ، كالحمية ، وإباء الظلم ، والغيرة على العرض والدفاع دونه ، والحرص على نقاء النسب ، وعدم اختلاط الدماء .

وعرف المصرى على مدى الزمن باعتزازه بالحرية الشخصية ، بداخله ، رغم تظاهرة بالطاعة لسلطة الدولة . ولعل ملاحظة كثير من المؤرخين على المصرى خضوعه للسلطان مرجعه لاعتياده على نظام الدولة المركزية القوية منذ عهد الفراعنة من آلاف السنين .

وليس كذلك البدو والأعراب الذين لم يعتادوا نظام الدولة إلا بعد ظهور الإسلام وتكوين أمة لها حاكم واحد ودولة تدبر شئونهم ، وقد قاست الأنظمة الإسلامية انخاضاً من تمرد الأعراب والبدو وانتقامهم كثيراً رغم محاولة تلك النظم إرضائهم .

الشرعة الإسلامية تم تسييس الأعراب ، وتعويدهم أو طبعهم على طاعة الدولة .

والمصرى أدين بطبعه ، عرف الدين وسرى في عروقه منذ آلاف السنين وكانت أرضه مصر مهداً لعدد من الأنبياء ، ومسرحة لكثير من الرسائل السماوية منذ إبراهيم عليه السلام وقبله من أنبياء ورسل سمعنا عنهم ولم تأتأ أخبارهم تفصيلاً ولكن جاء مصر من الرسل الكبار يوسف . وموسى وعيسى كما زارها عدد من الأنبياء كيعقوب ، وهارون .

ويبدو أن العبادة المصرية القديمة فرضت في طقوسها بعض مظاهرها على ديانة المصريين سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين ، وربما كان في التثليث المسيحى بعض آثار التالوث المقدس القديم عند الفراعنة أعنى أوزوريس وإيزيس وحورس (أو أوزير وإيزى وحور) . كذلك بناء الكنيسة وبعض طقوسها تمت إلى المعبد المصرى القديم بأسباب .

ولم يخل التطبيق المصرى للإسلام ، أو الإسلام في صوره السلوكية في حياة المصريين قد شابه بعض شوائب من حضارة مصر القديمة كتقديس الأولياء وزيارة في قبورهم ، وتقديم النذور والذبايح لهم . وتكاد لا تخلو قرية مصرية من مزار ولى أو شيخ . واختلطت بعض عقائد الطرق الصوفية بالعقائد المصرية القديمة ، كالاعتقاد باجتماع الأولياء في أماكن متعددة كاجتماع الأرباب يصرفون أحوال الدنيا ، ويكتبون مقادير الناس ومصائرهم .

ولا يغرب عن الأذهان قصة ذى النون المصرى الذى نشأ في صعيد مصر ، وكان في عقيدته الصوفية غريباً تأثر فيها بموروث التراث الدينى المصرى القديم .

لقد احتفظت كل قرية من قرى مصر بمسجد وكنيسة إذا كان بها أقباط مسيحيون وربما كان هناك أكثر من مسجد وكنيسة . كما كثرت على جانبي الوادى البرانى والبيح والأديرة التى كان يسكنها رهبان المسيحيين إوقسيسيم ، ويؤمنها المسلمون والمسيحيون جميعاً في أعياد النصرارى التى كان كثير منها أعياداً مصرية أو قومية قديمة كعيد النوروز أو النوروز وغيره .

وكان لمدن مصر سماتها الخاصة التى تجمع بين سمات المدن الإسلامية مع ملامح مصرية مميزة لها .

فمن مميزات المدينة المصرية أو القرية الكبيرة السحابة السوداء الذى يعتقد فى أسد أيام الأسبوع ويجمع فيه الناس من القرى القريبة للبيع والشراء والمبادلة .

ولرب من هذا السوق فى صورته ووظيفته المولد السحابة السوداء أو الشيوخ الذى يوجد مراره بالمدينة أو العاصمة « البصرة » ويعقد كل عام ، وكم ذا يصعد من الموالد لأولياء الله الصالحين الكبار والصغار والذين تعقد موالدهم على مدى العام فى مواسم فراغ الأرض من المحاصيل ، وأوقات انقضاء إذ تغلق أبواب الفلاحين بالمال فيجفون لإلغائه فى المدينة لزيارة الولي والفرجة على المولد وقضاء بعض مايرويه من زيارة دينية ترضى الولي عنه وربما يستجيب لدعائه ليرضى نفسه بسأ ويوم مطلقاً له ، وسعيداً بقضاء أوقات من الصفاء والسعادة فى مريح وسرور بين مباحج المولد فيشترى من حاجاته ما يطلبه ، ويمنع نفسه بالفرجة على ما يفتن به المولد من ألعاب وسلا .

ولا يحتاج إلى التذكير بأن هذه الموالد قرية الشبه بما كان يصنع فى مصر القديمة لعبودات المصريين من احتفالات وأيام زينة كما جاء فى القرآن الكريم حيث يرأس الحاكم أو الفرعون الاحتفال المهيب بمولد المعبود ، ويطلق الموكب الذى يضم صورة المعبود أرض المدينة تحف به مظاهر الطيبة والاحتفال والفرحة وأنواع الزينة .

وغريب أن تصبح مواكب المعبود القديم مواكب لأتواب الشيوخ التى توضع حل مقاماتهم يتقدمها « الخليفة »^(١) ومن يمثل السلطة من أمير أو حاكم للإقليم .

ومعظم القرى والمدن والخواضر المصرية قديم منذ عهد الفراعنة والعصور المتعاقبة اليونانى والرومانى ، وبعضها قرى ومدن قامت فى العصر الإسلامى أقامها العرب الراشدون ، حيث استقروا من البلاد ، وسُميت بأسماء عشائهم كبنى قرة ، وبنى مزار ، وبنى محمد ، وبنى حسين ، وبنى مر ، والعامة ، والدناجلة ، وأولاد الياس ، والعواصم والخواضر الكبرى التى احتفظها الرولا والخلفاء مثل المصطفى ، ومنية بنى خصيب ، والقاهرة .

وأما البلاد والقرى النهرية ، أو التى أنشئت فى العصر اليونانى والرومانى فمعرف بأسمائها غير العربية والعمارة مثل مبروك أو منى أو ط ، وفى العصر اليونانى ليكوبوليس ،

(١) خليفة الولي أو الرجل الناصح

والإسكندرية ، نسبة إلى الإسكندر ، ودهشور ودهروط التي عرفت إلى دهروط ،
والبهسا ، والأهوليين ، ولفط ، وبوتيج ، أبوتيج وغيرها من حشرات الأسماء التي
لأزالت لحمل السمات الفرعونية أو اليونانية القديمة .

ومنها بعض المدن ذات الأصول القديمة التي جاء العرب المسلمون فاطلقوا عليها أسماء
عربية كالأقصر على مدينة طيبة .

واحتفظت تلك المدن القديمة بطابعها القديم إلى جانب الملامح الإسلامية الواضحة ،
فاجتمعت في تحيطها معالم الحضارتين المصرية القديمة والعربية الإسلامية .

وأما المدن التي انحططها المسلمون وألقوا بها فقد احتفظت بالطابع العربي الإسلامي
بخالص ، والذي يعمد في وجود المسجد الجامع في سرة المدينة ليعطيه به الأموات ،
والقيساريات ، ثم تتوزع الأسماء بعد ذلك وتظهر حول المسجد والحدائق كالروضة ،
وخالها ما تكون مدناً مدورة .

ولخص بالحدث العواصم وبعض المدن الكبرى في الصعيد والوجه البحري .

الإسكندرية :

وأول ما لبدا به الحديث مدينة الإسكندرية التي بناها الإسكندر بن فيليب المقدوني
على ما يذكر المؤرخون ومميت باسمه ، وظلت عاصمة للبطالسة خلفاء الإسكندر من
اليونانيين الذين قصروا بعد ذلك ، وأقاموا حضارة امتزجت بها الحضارة المصرية
القديمة بالحضارة اليونانية وكانت الإسكندرية في عصرهم عروس البحر المتوسط ،
ومنازل العلم والفكر والحضارة ، بها مكنتها الزاهرة العظيمة ودار الحكمة ، فبدأت عن
لصور البطالسة ، ومنشأهم العظيمة وعرفت الإسكندرية في أعريات العصر البيزنطي
وأوائل العصر الإسلامي بمجالها البحرية البيضاء التي تهر الأهرن بشدة بياضها ، والتي
بالج بعض المؤرخين العرب والمسلمين في وصفها فقالوا إنها لبياض بيوتها كانت تلبس
أهلها عن إيقاد السرج لفضاء لم ليلاً ، وبطالسة في الليالي المقمرة . وهر هؤلاء بما
علمه ملوك الإسكندرية وولايها من قبل الروم من آثار عظيمة كالمنارة المشهورة ،
وملعب الإسكندرية ، وحصون السواقي .

ولما دخل المسلمون المدينة أبقوا على طابعها القديم وألقوا بها ، ولحطتها وأسارها

وأبوابها ، وأضافوا لها حديداً ، أو جددوا مآئنهار أو هُدم منها ، كسورها العتيد الذى أعيد بناؤه ، واضيفت أحياء سكنية للعرب الذين وفدوا إلى الإسكندرية فسكنوا بعض ضواحيها ، كذلك بنيت المساجد ، والزوايا ، واستقر بها كثير من علماء المسلمين وعبادهم ، وفي عصر الفاطميين بنى بها بدر الجمالى مسجده المشهور بالعطارين واستقر بها علماء معروفون كالحافظ السلفى نزيل الإسكندرية ، والمحدث المشهور وخرج منها الطرطوشى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وضمت جماعة من كبار الصوفية ورجال الدين الذين أجلهم أهلها واحتفظوا لهم بمكانة بينهم كأبى العباسى المرسى ، والبوصيرى وكانت لهم مساجدهم التى يجتمعون فيها إلى أهل الإسكندرية يأخذون عليهم العلم ثم ضمت بعد ذلك أضرحتهم بعد الموت .

ونشأ بالإسكندرية فى العصر الفاطمى جماعة من الأدباء والشعراء أشهرهم ظافر الحداد وابن قلاقس . وقد وصف ظافر مدينة الإسكندرية ، وبعض معالمها كالمنارة والبحر وخليجها المعروف . كما وصف بعض قصور أثريائها بحى الرمل .

ويعتبر خليج الإسكندرية من أجمل منازرها . وهو الذى يجلب إليها ماء النيل ليشرب منه أهلها . وحفر منذ قديم الزمان ، وقام على إعادة حفره ولاية مصر فى العصر الإسلامى فقد حفر سنة ٢٤٥ هـ فى عهد الوراق الخليفة العباسى ، وأعيد حفره فى عهد أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ وأعاد الحاكم بأمر الله حفره سنة ٤٠٤ هـ .

وذكر المقرئى أن خليج الإسكندرية كان يسقى الإسكندرية وبلاد مريوط ، وكانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة ، والجنان المتصلة بأرض برقة . وكانت السفن تجرى فى النيل وتمخر فى الخليج حتى تدخل الإسكندرية وتتصل بأسواقها ، وكانت أرضه وأرصفتها بها مبلطة بالأحجار والمرمر^(١) .

وعرف أهل الإسكندرية بالعمل بالبحر والاشتغال بالصيد ، وعمل السفن ، والتجارة وبعض الصناعات ، واشتهر بها نسيج الكتان ، وعمل بعض الملابس والمنسوجات التى اشتهرت فى أنحاء مصر وغيرها من الأقاليم .

ولما كانت ثغراً على البحر فقد سكنها أجناس من أهل الجزر وكثير من المغاربة الذين

(١) الخطط ١٧١/١

كانوا يستقرون بها لأنها أول ما يلقاهم من حواضر مصر في طريق الحج ، ولذلك كانت تعرف بباب المغرب .

وقد وفد إليها واستقر بها كثير من علماء المغرب ورحالها وشعرائها طوال العصور الإسلامية .

كذلك عرفت الإسكندرية بأنها أم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية المصرية وبها أقام مرقس داعية المسيحية في مصر والذي سميت الكنيسة باسمه .

ويصور على بن ظافر بقلمه لوحة من الإسكندرية فيقول في أحد قصورها بكتاب البدائع^(١)

« قال على بن ظافر وحضر يوماً عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية في قصر رسا بناؤه وسما ، وكان يمزق بمزاحمته أثواب السما ، وقد ارتدى جلابيب السحاب ولات عمائم الغمام ، وامتسحت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن حنايا غرفاته وأشرف على سائر نواحي الدنيا وأقطارها ، وحبته السحاب بما أوتمنت عليه من ودائع أمطارها . والرمل بفنائها قد نثر تبره في زبرجد كرومه ، والجو قد بعث إليه بطييه نسيمه ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونثرت غدائرها ، والطلُّ ينثر لؤلؤه في مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يرعد غيظاً من عبث الرياح به . »

ويقول شاعر الإسكندرية في العصر الفاطمي ظافر الحداد في وصفها^(٢) :

بذاك الثغر أضحكى زماناً	بكائى عليه نوح وانحساب
سقى تلك المعاهد كلَّ عهد	تفيض على الهضاب له هضاب
مضت لى لى جزيرتها ليلال	لآلها هنُّ لوقيل الصواب
فلو نظمت فلأيد للفسواى	لما رضى عن الدُّر الرقاب
كأن البدر فيها عين مساء	لها من فائض النور انسكاب
نضىء بها المساجد فوسى تزهو	بياضاً مثلما تزهو الكعاب
تجاورها متارتها وفيه	وفى فانوسها عجب عجاب

(١) بدائع البدائة ص ٢١٦

(٢) ديوانه ص ٢٦/٢٥ ترميز د. حسين نصار طبع مكتبة مصر بالقاهرة سنة ١٩٦٩

فثاق غادة بإزاء شـ
 سقى الله السوارى بالسـوارى
 وسيف خليجها كالسيف حمدا
 يمد مدى تلقت بالجمـارى
 وإيقاع الضفادع فيه عـال
 وتكسوه الرياح دروع حـرب
 وترقص في جوانبه غصـون
 وتشدو بينها الأطيـار شـدا
 وكم لي بالكيسة من كنـاس
 وكم لي بالمجالس من جـاوس
 وبحر الملح مثل الفحل يرغـو
 وتحسب سفنه صفة ولـونا
 وأذكر قصر فارس والمقـلى
 وهى من بعد قوته فأضحـى

وظاهر وإن مزج الحقيقة بالخيال في هذا الشعر إلا أنه استطاع أن يرسم لنا صورة لبعض معالمها المشهورة كالمنارة والمنازل البيضاء وعمود السورى ، والبحر والرمل وخليج الإسكندرية مما يحوطه من منازل وحدائق .

وقد اكتسبت دمياط أهمية في مصر الإسلامية ، وعصر الناطقيين خاصة لأنها كانت مرفأ

للاسطول الفاطمي ، يخرج من الفسطاط مبحراً شمالاً في فرع نيل دمياط حتى يصل البحر المالح .

قال المقرئى^(١) : « اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس إثنا عشر فرسخاً » ، وتقع تنيس شرقها بين بحيرة المنزلة والبحر . ويقال أن اسمها مشتق من كلمة سريانية تعنى إجتماع العذب بالملح حيث يجتمع عندها نهر النيل عند مصبه بالبحر المتوسط . وتعرضت دمياط لقربها من الفسطاط عاصمة الدولة الإسلامية في مصر لغارات الروم من البحر .

وكان أقرب غارات الروم على دمياط في عصر الإخشيد سنة ٣٥٧ هـ إذ هاجمها في بضع وعش بين مركبا .

وفي أيام الفاطميين في عصر الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره طلائع بن رزيك سنة ٥٥٠ م نزل على دمياط نحو ستين مركبا من مراكب الفرنج بعث بها صاحب صقلية ، فماتوا وقتلوا ونزلوا بتنيس ، ورشيد والإسكندرية .

وبنى المسلمون في دمياط برجاً حصيناً في مدخل البحر ، وأقاموا على مدخل النيل عند التقائه بالبحر سلسلة عظيمة تسد الطريق أمام مراكب الفرنجة ومن تحدته نفسه بالاغارة على المدينة ومحاولة إقتحام مجرى النيل بمراكبه مبحرين إلى الفسطاط والقاهرة .

وكان المسلمون قد بنوا بها مسجداً يسمى مسجد فتح ، وكتب على بابه بالقلم الكوفي أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة ، وفيه عدة من عمد الرخام منها ما يعز وجوده على حد قول المقرئى .

تنيس

وتنيس من المدن المشهورة في الساحل الشمالى الشرقى لمصر ، وقد كانت مدينة مزدهرة في العصور القديمة والعصور الإسلامية ، ثم خربت وطمرتها مياه بحيرة المنزلة . وكان لها في بعض الروايات مائة باب ، مما يدل على سعتها وحصانتها .

وقال المقرئى إنها بلدة من بلاد مصر في وسط الماء ... وكانت مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للأوائل . وأما مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكمة ، وبها بحالك ثياب

(١) المخطوط ٢١٣/١

الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا . وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تخوج إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار . و - في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عينا غير طراز نيس ودمياط .

وكان النيل إذا أطلق يشرب منه من مشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس من خليج تنيس . فكانت من أجل مدن مصر .

ويبدو أن ثياب تنيس هذه كانت تصدر إلى دار الخلافة في بغداد ، وكان الحمل منها كما يقول المقرئ يـ يبلغ عشرين ألف دينار ، فلما كانت سنة ٣٦٠ هـ بعد تولى الوزير يعقوب بن كلس الوزارة للمعز لدين الله الفاطمي منع تصدير هذه الثياب إلى بغداد .

وكان يسكن مدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة . وكان أهل تنيس يصيدون السماني وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم . والسماني طائر يخرج من البحر ويقع في الشباك .

وكانت السفن تركب من تنيس إلى الفرما وهي على ساحل البحر وكانت المراكب هي وسائل انتقال أهل تنيس من البلدة وإليها ويبدو أن ثياب تنيس ومنسوجاتها الفاخرة كانت من الهدايا التي تقدم لخلفاء الفاطميين كل عام . قال المسبحي في حوادث سنة ٣٨٤ بتاريخه : « وفي ذى القعدة ورد يحيى بن إيمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته ، وهي أسفاط ونحوت وصناديق مال ، وخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظال وكسوتان للكعبة .

« وفي ذى الحجة سنة إثنين وأربعمائة (٤٠٢ هـ) — في عصر الحاكم بأمر الله — وردت هدية تنيس الواردة في كل سنة ، منها خمس نوق مزينة ، ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها ونجافيف وصناعات عدة ، وثلاث قباب ديقية بمراتبها ، ومتحرقات وبندود ، وما جرى الرسم بعمله من المتاع والمال والحرير . ولما قدم الحاكم استدعت أخته السيدة ست الملك إلى عامل تنيس عن الحاكم بأن يحمل مالا كان قد اجتمع قبله ويعجل توجيئه ، وقيل إنه كان ألف دينار ، وألفى ألف درهم اجتمعت من أرباض البلد لثلاث سنين وأمره الحاكم بتركها عنده ، فحمل ذلك إليها ، وبه استعانت على ما دبرت » .

(١) المقرئ ١٨١/١

« وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة رد خبر على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أن هاشم على بن الحاكم بأمر الله أن السودان وغيرهم ثاروا بتنيس وطلبوا أوراقهم وضيّقوا على العامل حتى هرب ، وأنهم عمّاثوا في البلد وأفسدوا ومثّلوا أيديهم إلى الناس وقطعوا الطرقات ، فأرسل الوزير الجرجرائي تجريدة من خمسين فارساً للقبض على الجناه . (١) »

قال المسعودي يصف أرض تنيس وما تخرجه من أصناف الفاكهة والزرع : (٢) :
« تنيس كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكانت جناتاً ونخلًا ، وكرماً وشجراً ومزارع ، وكانت فيها بحار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جناتها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم . »

وقال ابن وصيف شاه : « وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ومعاصر للخمر ، وعمارة لم يكن أحسن منها ، وكثر بها الطير والسمك ، » ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون في موضع آخر ، وهي مائة ونيف وثلاثون صنفاً ، منها السلوى والقسرى ، والزرزور ، والفاختة والفواح ... ويصل إلى تنيس طير كثير لا يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفاً منها البورى والبلمو ، والبرو واللب »

قال المقرئ (٣) : « وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها « تونة » يعمل لها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحياناً . قال الفاكهي ورأيت أيضاً كسوة إفارون الرشيد من قباطى مصر مكتوباً عليها : بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة تسعين ومائة (١٩٠ هـ) . »

ومن قرى تنيس سمناء قال المقرئ (٤) : « قرية من قرى تنيس غلبت عليها بحيرة تنيس فصارت جزيرة ، فلما كان في شهر ربيع الأول سنة ٨٣٧ هـ سبع وثلاثين وثمانمائة كشف عن حجارة وآجر بها فإذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها

(١) المصدر نفسه ١٨١

(٢) ل مروج الذهب وبقته المقرئ ١٧٧/١

(٣) حذفت المقرئ ١٧٧/١

(٤) المصدر نفسه ١٧٧/١

اسم الإمام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الإمام العزيز بالله نزار ، ومنها ماعليه اسم الإمام الحاكم بأمر الله ومنها ماعليه اسم الإمام الظاهر لا عراز دين الله ، ومنها ماعليه اسم المستنصر وهو أكثرها .

و « بورا » وكانت بين تنيس ودمياط وإليها ينسب السمك الذى يقال له البورى . وكانت بحيرة المنزلة والتي كانت تعرف فى ذاك الزمان ببحيرة تنيس تحيط بالبلدة قال ياقوت : « وبحيرتها التى هى عليها مقدار إقلاع يوم فى عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحاً لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال — أى شتاء — وعند دخول الشتاء وكثرة هبوب الرياح الغربية فإن أهل تنيس تخزن الماء فى جباب ويعدونه لستهم » ويقول ياقوت : « وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل فى الفيضان غلبت حلاوته على ملوحة ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة . وعندها يخزن أهل تنيس الماء على ماذكرت فى صهاريجهم ومصانعهم لستهم » .

وذكر المقرئ أن شرب أهل تنيس من مياه مخزونة فى صهاريج تملأ فى كل سنة عند عذوبة ماء البحر بدخول ماء النيل إليها .^(١)

ويحمل الماء العذب إلى تنيس خليج يخرج من النيل . وأما أهل تنيس وسكانها فقد كان بها عدد كبير من نصارى الأقباط ، معظمهم حرفتهم صناعة النسيج والحياكة ، وبعضهم يحترف الصيد . وكان هؤلاء السكان يتفاوتون فى الغنى والفقر ، وبعض فقرائها من العاملين بالنسيج أو الحياكة كان يبدو عليهم البؤس . قال أحد الرحالة العرب الذين زاروا المدينة : إني لم أر من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها — تنيس — ، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني أن مدينتنا شحاطة بالماء ، فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية ، والماء الذى نشره يجلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنسألنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا تكفى لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير كل عام .

(١) المصدر نفسه ١٧٧/١

« لأنهم من أهل الذمة »

ولم يكن هذا الإرهاق يدفع الجزية قائماً في كل العصور ، بل كان استثناء في عصور بعض الولاة ، وقد مر بنا خبر أحدهم مع المأمون .

قال المقرئى : « وأخلاق أهلها سهلة منقادة ، وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة . وهم يحبون النظافة والدمائة والغناء واللذة ، وأكثرهم يبيتون سكارى . وهم قليلو الرياضة لضيق البلد ، وأبدانهم ممتلئة الأخلاط وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن وألبان البقر »

وهكذا من أقوال المؤرخين يمكن أن نتصور حال تلك المدينة العامرة التي اشتهرت في العصور الوسطى منذ الفتح الإسلامى لمصر وحتى اندثرت وضاعت آثارها بعد أن خربها الملك الكامل محمد بن العادل أنى بكر بن أيوب في سنة أربع وعشرين وستمائة (٦٢٤ هـ) ، فاستمرت خراباً ، ولم يبق منها إلا رسومها في وسط البحيرة . (١)

وخرج من تنيس علماء وأدباء وشعراء أشهرهم في عصر الفاطميين الشاعر ابن إو كيع التنيسى شاعر الخمر والزهر ، ووصف الطبيعة والذي تأثر ببيئته ، فانعكست صور الحياة والطبيعة فيها على قصائده . ومن ذلك قوله في مزدوجة :

واشرب عقاراً طالَ ليْنا كُؤْنُهْـ	يَصْتَفِرُّ من خوف المزاج لولْهْـ
من كَفْ ظي من بنى النصارى	ألباناً فى حسنه حىـ
لا سيما مع مسمع وزامير	قد سلما من وحشة التافسـ
دونك هذى صفة الزمـان	مشروحة فى أحسن اليـان

الصعيد وأهم بلادـه

يقول الأدفوى : (٢)

إن مسافة الصعيد فى الطول مسيرة اثنى عشر يوماً بسير الجمال السير المعتاد ، وأما عرضه فثلاث ساعات وأكثر وأقل بحسب الأماكن . ويتصل عرضه فى الكورة الشرقية

(١) الخطط ١/١٨١

(٢) الخطط ١/١٨٩ - ١٩٠

بالبحر المالح (بحر القلزم أو البحر الأحمر) وبأراضي البُجاة — شرق أسوان . وفي الكورة الغربية بالوواح (الواحات) .

وهو — الصعيد — كورتان شرقية وغربية ، والنيل فاصل بينهما . ومن أهم مدن الصعيد ، الجيزة ، والبهنسا ، والأشمونين ، وأسيوط ، وقوص ، وقنا ، وأسوان .

وقد اشتهرت أرض الصعيد بخصوبتها ، ويكثر النخيل على ضفتي النيل ويحيط ببلادها وقراها . وقيل إن تمر الصعيد في تلك الأيام كان من أجود التمر وبخاصة في أسوان وقوص . وكان مصدر رزق لأهل الصعيد إلى جانب الزراعة والعمل ببعض الصناعات التي كانوا يجيدونها .

وكثر بأرض الصعيد الضأن والماشية ، لاهتمام أهله بتربيتها . قال المقرئ : « وأرض الصعيد كثيرة المواشي من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه حتى أن الرأس الواحد من الضأن يتولد منه في عشر سنين ألف وأربع وعشرون رأساً » ١ . ولاندرى إن كانت هذه الاحصائية صحيحة ، لكنها على أية حال تشير إلى كثرة انتاج الضأن بالصعيد .

وأما عن سكان الصعيد الأعلى فيقول المقرئ : « وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم : بنو هلال ، وبللى ، وجهينة ، وقريش ، ولواته ، وبنو كلاب (من عامر بن صعصعة) . وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الأنصار ، ومن مزينة وبنى دراج وثعلبة وجذام .

مدينة أسيوط :

ومن أشهر مدن الصعيد أسيوط ، وكانت عاصمة لإحدى أعماله الأسيوطية .

قال الرطواط ٢ :

« مدينة أسيوط على غرى النيل ، بلد قرح بهيج ، خطير ، جليل ، به الأسواق والقياسر والحمامات والمساجد والمدارس ، ولأهله شارة حسنة ومروءة ظاهرة ، ولهم بيوت وأقدار ، ورياسة وبستان . »

(١) مباحث الفكر — صفحات من جغرافية مصر — دراسة وتحقيق دكتور عبد المال عبد المعصم الشامى

طبع الكويت ١٩٨١ م ص ٩٤

وتتصل مساكن أسيوط بالجبل الغربى ، ويفصلها عن النيل مسافة ، بها الحقول والبساتين ، وقد أعجب بها كل من زارها فى تلك الآونة من الرحالة العرب والمسلمين وذكروا أن بها عدداً كبيراً من الأقباط النصارى ، وتوجد لهم بها كنائس كثيرة . كما تنتشر حولها بجبل أسيوط الغربى الأديرة الكثيرة والبيع التى أكثروا من وصفها وبخاصة فى بلدة درنكة فى جنوبيها الغربى .

ويصل بينها وبين غربى السودان درب الأربعين الذى كان يسلكه تجار السودان والأفارقة من بلاد تشاد ونيجيريا ومالى ، ويحملون إليها بضائع تلك البلاد من العاج والأبنوس ، وريش النعام وما إليها .

وكان بأسيوط جوامع ومساجد يؤمها الشيوخ والعلماء ويتلقون العلم فى حلقاتها وتخرج فيها جماعة من الأدباء والعلماء والشعراء منهم آل مماتى فى أخريات العصر الفاطمى وأول العصر الأيوبى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

مدينة قوص :

وهى من الأمصار الخطيرة فى مصر الاسلامية ، المقصودة بالتجارة ، ولاسيما عندما يرد عليها تجار الكارم من بلاد السودان . وبها الأسواق العامرة بالتجارات والصناعات والقياسر بأصناف البر ، وسوق عطر قل أن يكون فى بلد مثله لعمارته ، وبها الفنادق والحمامات والمدارس ، والمنازل والدور التى تدل على جلاله سكانها وتعاستهم وسعادتهم .

وتقع شرق النيل ، ويتبعها عدة بلاد من الصعيد تعتبر من المدن العامرة مثل قنا واسنا وادفو واخميم واسوان وقفت .^(١)

ويقول المقرئى^(٢) : « اعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد ، وهى على النيل ، بنيت بعد قفت » وحكى المؤرخون أنها شرعت فى العمارة وشرعت قفت فى الخراب من سنة أربعمائة فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى .

وعرفت بطيب زراعتها وكثرة بساتينها ، وبخاصة بساتين النخيل . وكان البستان فى لغتهم يسمى مغلقاً وهو من عشرين فدانا ، وله ساقية بأربعة أوجه .

(١) المباحج للبريد ص ٩٦

(٢) المقرئى المص ٢٣٦/١

وذكر الإدريسي أنها مدينة كبيرة بها أسواق جامعة ، وتجارات^(١) ، وذكر ناصر خسرو أنها مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر ، وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبر^(٢) . وذكر ابن جبير أنها مدينة حافلة بالأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والمنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها محط لرحال ، وتجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندرانيين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلابهم في صدرهم من الحج . وكانت أيام الفاطميين والأيوبيين قصصه صعيد مصر . وزاد من أهميتها كونها مركزاً للحجاج ، ومقعداً لهم عبر الصحراء الشرقية إلى ثغر عيذاب ، ومنه إلى جدة فمكة .

يقول الأدفوى : وهي باب مكة واليمن والنوبة ، وسواكن والباله^(٣) . وفيها يقول الشيخ العالم نجم الدين أحمد بن ناشي القوصي القاضي :

قوص دهليز يثرب فإلى كم وسط دهليز يثرب أنبختر

قال الادفوى^(٤) : قال ابن حوقل في كتابه المسمى بـ « الممالك والمسالك » : إن ماء مصر أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من أنهار الإسلام ، فإذا كان كما قال فماء إقليم قوص أجمع لهذه الصفات .

وذكر الأدفوى « أن قوص وبلادها كانت كثيرة النخل ، يقول ومن محاسنها كثرة نخيلها وأشجارها على شاطئ النيل من الجانبين الشرق والغرب ، يشق بينهما مسافة سبعة أيام لا يخلو منها إلا القليل ، والذي أظنه أن مساحة الأراضي التي فيها النخيل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان » .

وإلى جانب النخيل ، كانت تزرع العنب واشتهرت به . ويقول الادفوى إن فاكهة هذا الإقليم شديدة الحلاوة حسنة المنظر . وكذلك رياحينه عطرة الرائحة .

روى الادفوى عن أحد شيوخه وهو القشيري قوله له : تروح إلى قوص تدرس الحديث

(١) روضة المشتاق ٤٩

(٢) سفرنامه ٧١

(٣) الاضياع سبع ٢٥

(٤) مصر - تاريخ ٢٢

بها . فذكرت له بعدها وحرارتها فقال : أين أنت من طيب فاكهتها وعطرة رباحيتها . ورطبها من أحسن الرطب ، صادق الخلاوة ، كسير السقر (العسل) . وفيه شيء تُسَلُّ النواة منه وهو على عرجونه قبل أن يقطف .

وذكر ابن زولاق أنه ليس نوعٌ من أنواع التمر بالعراق إلا وفي صعيد قوص مثله ، وفيه ما ليس في العراق .

واشتهرت قوص وإقليمها بالزراعة ، والتجارة ، وقد اتسعت تجارتها في تلك الآونة لكونها محطاً للحجاج الذين يفدون إليها كما ذكرنا ، ويتجهون منها إلى عيذاب والعائدين من مكة إلى بلادهم .

يقول الادفوى إن هذا الاقليم اشتهر بكثرة الأمن ، يسير الانسان ليلاً ومعه ما شاء فلا يجد من يعترضه . والشتاء فيه طيب مخصب ، كثير الألبان والبقولات ، كثير الدفا ، طيب الإقامة جداً .

وكثرت في قوص وإقليمها المدارس والجوامع التي يتلقى فيها الناس العلم ، واشتهرت بكثرة من خرجت من العلماء على مدى العصور منذ عمرانها في العصر الفاطمي وطوال العصرين الأيوبي والمملوكي .

وكان معظم بلدان (١) الاقليم يدينون بالتشيع على مذهب الاسماعيلية الفاطمية أو الإمامية ، وكانت لهم مع صلاح الدين بعد استيلائه على الحكم من الفاطميين وقائع مثل واقعة كنز الدولة الذي زحف بمجموعه سنة ٥٧٠ هـ إلى القاهرة يريد إعادة الحكم للفاطميين إلا أن صلاح الدين هزمه وقتله (١) .

واشتهرت شرق قوص صحراء عيذاب بأنها دربُ الحجاج الرائيين والغادين ، قال المقرئ : « اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لايتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى إلا من صحراء عيذاب ، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص ، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون البحر في الجلّاب إلى جدة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ، ومنها يردون مدينة مصر ، فكانت هذه

(١) راجع في هذه الأحداث : الزمخشري ، الروصتين ٢٣٥/١ والمختصر لأبي الفدا ٥٦/٣ وخطط المقرئ ١٩٨/١

الصحراء لاتزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لايعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها . فلم تزل مسلكاً للحجاج في دهابهم وإيابهم زيادة على مائتي سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة — عصر المستنصر بالله الفاطمي — إلى أعوام بضع وستين وستائة عصر السلطان الظاهر بيبرس — الذي اخرج قافلة الحجاج إلى البر وغير سلوك طريق النيل وعبور صحراء عيذاب^(١) .

أسوان

وتعتبر أسوان ثغر مصر الجنوى ، وشهرتها كمدينة كبيرة لها هذا الموقع الخطير منذ أقدم العصور ، وازدهرت أسوان في العصور الإسلامية ، وتوافد عليها كثير من قبل العرب ، وسكنها وأقام حولها بصحرائها الشرقية جماعات من ربيعة عرفوا بالكنوز نسبة إلى كنز الدولة وكان ولاؤهم للفاطميين .

قال المقرئ^(٢) : وأسوان في آخر بلاد الصعيد ، وهي ثغر من ثغور الإقليم ، يفصل بين النوبة وأرض مصر ، وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضروات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم ، ولحمانها هناك غاية في الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبداً رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة . وفي جنوبها جبل به معدن الزمرد ، وهو في بَرية منقطعة عن العمارة ، وعلى خمسة عشر يوماً من أسوان معدن الذهب .

وحولها بساتين النخيل على شاطئ النيل ، يقول الأدفوي^(٣) : « ونخيلها تشق الركب فيه مسيرة يومين » وقال المقرئ : والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير .

قال : « وأسوان حجارة صوان . ذكر ابن سعيد أن عمود السوارى الذى بالاسكندرية منها » وكذلك كانت تقطع مسلات المعابد من حجارتها أيام الفراعنة . قال الأدفوي : وبها حجارة سود تشبه القار . وتنتشر هذه الحجارة البازلتية في بحرى النيل عند أسوان مكونة الجنادل ، وتكسبه هناك منظرأً جذاباً .

(١) راجع المخطط ٢٠٣

(٢) المخطط ٤٤

(٣) الطالع السعيد ٣٢

قال : وهى كثيرة السمك ، والجنادل بها نزهة من نزه الدنيا ، بهجة المناظر كأنها مقطعات نيل — جزر — . وهى محتدلة الهواء ، قليلة الوباء ، وبها جبل الطفل يعمل منه الفخار وكيزان الفخار ، ولايوازيه شيء من نوعه .

ومقابل البلد جزيرة ، وبها نخيل ورياحين ، تهب رائحتها على البلد . وهى كثيرة المزارات والنزه ، دائرة على البحر .

والغالب على أهلها سمرة الألوان ، قال المسعودى : ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان ونزار بن ربيعة ومضر ، وخلق كثير من قريش ، وأكثرهم من الحجاز وكان بثغر أسوان بنو الكنز من ربيعة ، وكان منهم أمراء ممدحون ، ألف فيهم أبو الحسن بن عزام سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم ، ومن ورد عليهم .

قال الأدفوى (١) : ولما كانت البلاد للعبديين غلب على أهلها التشيع . وكان بها قديماً أيضاً .

ولأن أسوان كانت على حدود مصر الجنوبية ، فقد كان بها رباط وحامية قوية ، كما كان أهلها فى رباط دائماً ، لأن ممالك النوبة المسيحية بالسودان الشمالى كانت مجاورة لهم ، وكان ملك النوبة كثيراً ما ينتهز فرصة ضعف الحكم بمصر أو غفلة الحكام ، وانشغالهم فيغير على ثغر السودان ، حدث ذلك قبيل قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٤٤ هـ فى عهد الإخشيديين إذ أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين ، واستطاع أحد قادة مصر رده ، وقتل عدد من رجاله ، وأسّر عدد آخر ، وقد حفظ الفاطميون ثغر أسوان وأقاموا به حامية قوية . قال المقرئ (٢) : « وكان بأسوان رجال من العسكر استعملون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه . فلما زالت الدولة الفاطمية ، أهمل ذلك » .

وكانت أسوان أيام الفاطميين من الفنى والثراء والازدهار العظيم بسبب ما تنتجه زراعتها ، وبساتينها ، ذكر المقرئ أنه تحصل من ثغر أسوان فى سنة ٥٨٥ هـ خمسة وعشرون ألف دينار . وقال الأدفوى أنه تحصل من أسوان فى سنة واحدة ثلاثون ألف أردب تمرأ .

(١) المصدر نفسه ص ٣٤

(٢) المخطوط ١٩٨/١

وخرج في أسوان جماعة من العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء من أبرزهم في العصر الفاطمي ابن عرام ، والقاضي الرشيد ، والمهذب ممن سيأتي الحديث عنهم .

ونصل بعد عرضنا لصورة الحياة في بعض أقاليم مصر شمالاً وجنوباً إلى التعرف على عاصمتي مصر في هذا العصر ، ونعني الفسطاط أو مصر ، والقاهرة ، وسور الحياة فيهما . وهذه تلقى كثيراً من الضوء على المجتمع المصري خاصة والإسلامي العربي عامة في عصر هذه الدولة .

الفسطاط

يقول أمية بن أبي الصلت^(١) : « وليس تشمل أرض مصر بعد النسطاط الذي هو قصر الملك وكري الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها وفخامتها ، لكن أجل مدائنها وأفخرها أما في الجهة الشمالية من الفسطاط فالاسكندرية وتيس ودمياط ، وأما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت » .

يقول أمية في مدينة الفسطاط : « واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط فانسرب أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكنائها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا »^(٢) .

قال ابن سعيد المغربي^(٣) : « من كتاب الكمائم » : « وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني مدينة عين شمس ، وجاء الاسلام وبها مبني يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع الآن المنسوب إليه .

وقال : وقد أمعنت السؤال عنها فأخبرت أنها مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، وتخط في ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل ومن جنوبه بأنواع الفوائد ، ولها متزهات » .

قال ابن سعيد : ولاينزل فيها مطر إلا في النادر ، وترايبها تثيره الأرجل ، وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ، ويسود بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة ، إلا أنها ضيقة . ومبانيها

(١) الرسالة المصرية ص ١٧ من نواذر المخطوطات الحرة الأول تحقيق عبد السلام هارون

(٢) الرسالة المصرية ص ٢٩

(٣) المغرب بتحقيق د. ركني محمد حسن ود. شوقي صيف ود. سيدة النكاشد.

طبع جامعة قزّاد سنة ١٩٥٣

بالقصب والطوب طبقة على طبقة. ومنذ بنيت القاهرة للخلفاء الاسماعيليين المتوكلين عليها من المغرب ضعفت مدينة الفسطاط — وبينهما نحو الميلين .

وقال : والفسطاط هي قصبة مصر ، والجبل المقطم يشقيها ، وهو متصل بجبل الزمرد — يعني الذى قرب أسوان .

وقال ابن حوقل : والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهي كبيرة — نحو ثلث بغداد — في عصر المؤلف في القرن الرابع — ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيب واللذة . ذات رحاب في محالها . وأسواق عظام فيها ضيق ، ومتاجر فخام . ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ، ومتنزهات على مر الأيام خضرة . وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب وتنسب إليها كالكوفة والبصرة ، إلا أنها أقل من ذلك . وهي سبخة الأرض ، غير نقية التربة وتكون الدار بها سبع طبقات وستاً ، وخمساً ، وربما يسكن الدار المائتان من الناس .

وفي الفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز يصب فيها لمن بها في كل يوم أربعمئة راوية ماء . ومعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة ، بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط والآخر على الموقف — شمالي الفسطاط — بناه أبو العباس أحمد بن طولون .

وأراد ابن سعيد أن يرى الفسطاط رأى العين فرحل إليها من الأسكندرية . قال : ولما استقررت بالقاهرة تشوفت إلى معاينة الفسطاط ، فسار معي إليها أحد أصحاب العزمة ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لأعهد لي بمثلها في بلد ، فركب منها حماراً وأشار إلي أن أركب حماراً آخر ، فأنفت من ذلك جرياً على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فأعلمني أنه غير معيب على أعيان مصر — وكانت البغال من مراكب القضاة والشيوخ من العلماء وأصحاب المناصب — وعانيت الفقهاء وأصحاب البيزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبت ، فعندما استويت راكباً أشار المكارى على الحمار فطار لي وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعانيت ماكرهته . ولقلة معرفتي بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى وقعت لي تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج . وقلت :

لقيت بمصر أشد السوار رُكوبَ الحمار ، وكُحِّلَ البُراز
وعُخِّلَ مكارى يدسوث الرِسا ح ، لا يعرف الرفق مهما استطاز

أنا ديه مهلاً ، فلا يرعوى إلى أن سجدت سُجود العشار
وقد مُد فوق رواق الثرى وألحد فيه ضياء النهار

فدفعْتُ إلى المكارى أجرته ، وقلت له : إحسانك إليّ أن تتركني أمشي على رجلي ،
ومشيْتُ إلى أن بلغتْها . وقدرتُ في الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققته بعد ذلك نحو
الميلين .

قال ابن سعيد : ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة . وتأملت أسواراً مثلمة
سوداء ، وآفاقاً مغبرة . ودخلت من بابها — وهو دون غلق — يفضى إلى خراب مغمور
بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب
والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس
النظيف ، ويغضّ طرف الظريف ، فسرتُ وأنا معاينٌ لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرتُ
في أسواقها الضيقة ، فقايسيت من ازدحام الناس فيها بمجاذيع السوق والروايا التي على الجمال
ما لا يفي به إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق
الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضده في جامع أشبيلية وجامع مراکش . ثم دخلتُ إليه
فعاينت جامعاً كبيراً ، قديم البنية ، غير مزخرف ، ولا محتفل في حُصْرِهِ التي تدور مع
بعض حيطانه وتبسّط فيه وأبصرتُ العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم —
يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات
والكعك ، وما جرى مجرى ذلك ، والناس يأكلون منه في أماكن عدة ، غير محتشمين ،
لجري العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل ، قد جعلوا ما
يحصل لهم منهم رزقاً . وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه .
والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه ،
وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمره بخطوط قبيحة مختلفة مختلفة من كتب فقراء العوام .

إلا أنه مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس
مالاتجده في جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه ، وما يتبع ذلك .
ولقد تأملت ما وجدته فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمتُ أنه سرّ
مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند بنائه . واستحسنيت ما أبصرته
فيه من خلق المصدين لإقراء القرآن والفقه والحدو في عدة أماكن . وسألت عن مواد

أرزاقهم ، فأخبرْتُ أنها من فروض في الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجهد والتعب . فنُقصت عندي تلك القاعدة الفرصة التي وجدتُها من اجتماع العلماء على أرزاق تفرغُ المعلمُ للتعليم . وتنشط المتعلمُ للاستفادة .

ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل ، فرأيتُ ساحلاً كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سورٌ أبيض يبهجُ العيون بلونه وحسن استقامته ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصلُ من جميع أقطار النيل . ولكن قلتُ إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقاً . والنيل هنالك ضيقٌ لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن^(١) قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ، وحسن سورها المبيض الشاخ حسن منظر النرجة في ذلك الساحل » .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذي يمتد من الفسطاط على النيل إلى جزيرة الروضة ومن الجزيرة إلى برُّ الجزيرة .

قال ابن سعيد : وبتنا في ليلة بطيارة مرتفعة على جانب النيل — يعني نوعاً من المراكب كان معروفاً بالعراق ، وصنع مثله بمصر .

وقال ابن سعيد يصف موضع النيل وشاطئ الفسطاط وجزيرة الروضة :

نزلنا من الفسطاط أرفع منزل	بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سُحرة	كسرب قطا أضحى يركب على رزد
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى	ويطفو حناناً وهو يلعب بالترد
غدا مأواه كالريق لمن أحبه	فمدت عليه حلية من حل الخد
وقد كان مثل الزهر من قبل مده	فأصبح لما زاده المد كالسود

قال : قلت هذا لأنى لم أذق في الحياة أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المد الذي يزيد به ، فيفيض على أقطاره أبيض ، فإذا جاء عباب النيل صار أحمر .

وذكر ابن سعيد أهل الفسطاط فقال :

« لم أر في أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ... وجملة الحالة أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ، وتحت ذلك من الملقى وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة ، وكثرة المازحة والألفة ما يطول ذكره » .

(١) هو السلطان الصالح نجم الدين أيوب

وهذه الصورة القلمية التى خطها ابن سعيد لمدينة الفسطاط فى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبغداد ما يقرب من مائة عام على نهاية الدولة الفاطمية تعطى صورة قائمة لمدينة الفسطاط التى كانت عاصمة للدولة المصرية ، أو لإقليم مصر وقاعدة لولايتها من عصر عمرو بن العاص وحتى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، ولا شك أن الفسطاط كانت أكثر إشراقاً وجمالاً مما وصفه لنا ابن سعيد ، إلا أن الخطوط الرئيسية أو الشكل العام للمدينة ومسجدها وأسواقها تظل هى لا تتغير ، ولا ننسى ما حل بها من الخراب والحريق فى آخر العصر الفاطمى . وما حل بها من إهمال بعد ذلك ، وإن حاول صلاح الدين وخلفاؤه إعادة الحياة إليها ، وإن كان اهتمامهم بها أقل من الاهتمام بالقاهرة التى جعلوها عاصمة لهم كالفاطميين .

ولأن الفسطاط كانت العاصمة الشعبية ، والقاهرة كانت مقر خلفاء الفاطميين ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين ، فقد ذكر ابن سعيد ملامح هذا الخلاف بين المدينتين فقال : « وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ما ينسج ويصاغ ، وسائر ما يعمل به من الأشياء الرفيعة السلطانية . والخراب فى الفسطاط كثير . والقاهرة أجْدُّ وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها . وسكنى الاجناد فيها . »

وكان ساحل الفسطاط غاصاً بالسفن التى تحمل التجارة من الاسكندرية من البحر المتوسط ومن دمياط ، ومن البحر الأحمر عبر النيل . وما يرد منها لساحل الفسطاط على قول ابن سعيد فوق ما يوصف ، وبها يجمع ذلك لا بالقاهرة وكان بالفسطاط لكل مهنة سوق خاصة ، إلا أصحاب المطاعم والشوؤون والخبازون وباعة المشروبات ، فقد كانوا ينتشرون فى كل مكان .

ففى سوق الحدادين كان المرء يرى الصناع منكفئين على أعمالهم ، وقد غطاهم سواد الفحم ، والمألوف أن يرى بعضهم يشبثون حدود الخيول .

وكان بالفسطاط سوق يسمى سوق القناديل حيث كانت تباع تحف فنية لا توجد فى مكان آخر ، وقد اشتهر العصر الفاطمى بقناديله الزجاجية المتقنة الصنع ، ومن التحف الزجاجية كذلك فى مصنوعات الفسطاط الأواني الزجاجية. والفحارية الدقيقة التى كانت علامة بارزة على تقدم هذه الصناعة فى هذا العصر .

كذلك كانت تعرض المشغولات الصدفية كالصناديق المكفنة بالصدف والأمشاط ومقايض السكاكين .

كما كان يعرض بهذه السوق أنواع من الصناعات والتحف المستوردة من أقطار أوروبا والعالم الاسلامى المختلفة .

وتعرض بأسواق الفسطاط كذلك كميات من الخضر والفاكهة ، وقد عدد منها ناصر خسرو حين زارها أربعة وعشرين نوعاً ، وكان السعر محدداً بواسطة المحتسب ، فإذا زاد البائع السعر قبض عليه وشهر وطافوا به في المدينة على جمل أو حمار وعلق في عنقه جرس .

وكان المألوف في شوارع الفسطاط والقاهرة أن يركب عامة الناس الحمير ، ويركب ذوو المناصب من أصحاب القلم أو شيوخ الدين والقضاة البغال ، بينما يركب أصحاب السيف من الجند ، وقادة الجيش الخيل . ولذلك كان ابن سعيد وهو من أصحاب القلم متحرجاً من ركوب الحمار لانه مركب العامة .

وقد اهتم الفاطميون بالأمن في المدن والعواصم خاصة ، ويشدد رجال الدولة على ذلك حتى إن الصائغ كان لا يبالى أن يترك دكانه فيغيب عنه زمنا دون أن يخشى عليه من سطو اللصوص ، وكان يكتفى بأن يمد حبلأ أو شبكة على مدخل دكانه إشارة إلى عدم وجود صاحبه .

وكان هذا بالضرورة عند استتباب الأمور في عصور الخلفاء الأقوياء ، والحكام القادرين من الوزراء والأمراء .

وكان بعض الدواوين في العصر الفاطمي بالفسطاط ، كما أن بعض وجوه الدولة ومعظم الشيوخ ورجال القلم والقضاة كانوا يسكنون الفسطاط ، وكان لبعضهم دار بالفسطاط وأخرى بالقاهرة .

وللفسطاط متنزهات كثيرة خارجها في المروج والحقول المحيطة بها ، وبجبل المقطم . ومن أشهرها بركة الحبش . وكانت متنزها معروفاً لأهل الفسطاط والقاهرة .

وبركة الحبش منخفض من الأرض جنوب الفسطاط تغطيها الخضرة في معظمها بعض أيام السنة في أخريات الشتاء وطوال شهور الربيع وحتى الفيضان ، حيث يفيض النيل فيملأ هذا المنخفض الذي يبلغ طول كل جانب من جوانبه ميلاً وتتحول إلى بركة عرفت ببركة الحبش . وأقيم فيها الخدائق التي أحاطت بها ، فاكسبتها بهجة ومنظراً أنيقاً تغنى به الشعراء .

يقول ابن سعيد : « وعانيت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر . ثم زرتها أيام غاض معظم الماء . وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر . وفيها أقول :^(١) »

يا بركة الحبش التي يرمى بها	طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك في البسيطة جنة	وكان دهرى كله بك عيد
يا حسن ما يبدو بك الكتان في	نواره أو زرة معقود
والماء منك سيوفه مسلولة	والقرط فيك رواقه ممدود
وكان أبراجاً عليك عرائس	جلبت وطيرك حولها غريد
يا ليت شعري هل زمانك عائد	فالشوق فيه مبدء ومعيد

ويقول أمية بن الصلت عن فيضان النيل وكيف تبدو في أثنائه نواحي مصر جميلة المنظر « وفي هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شيء منظراً ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة كالجزيرة وبركة الحبش »^(٢)

ويقول إن أهل الخلاعة وذوى الأدب والطرب كانوا ينتابون هذه الأماكن النزهة . قال : « واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان — الفيضان — إلى بركة الحبش فافتشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأفداح شمس في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تُنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء فقال في ذلك بعضنا :

لله يرمى في بركة الحبش	والأقلى بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم في يمين مُرتعش
قد نسجت أيدى الغمام لنا	فحن من نسجها على فرش
ونحن في روضة مُفروقة	دُبج بالنور عطفها ووشى

وقال أيضا :

علل فؤادك باللذات والطرب	وباكر الراخ بالنايات والتخب
أما ترى البركة الغناء لابسة	وشياً من الثور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد النبت في حُلل	قد أبرز القطر فيها كل محتجب
من سوسن شرق بالفل محجره	وأقحوان شهى الظلمة و الثنت
وانظر إلى الورد يحكى خد محشم	من نرجس ظل يُدى لحظ مرتقب

(١) العرب ص ١٠

(٢) الرسالة المصرية ص ٢٠

وكان لبعض خلفاء الفاطميين عليها مناظر (استراحات) وبساتين ، وأغرم بها الأمير الشاعر تميم بن المعز ، وكان له بستان عليها اسمه المختار ، كان يعتاده فيه بالزيارة أخوه الخليفة العزيز بالله .

يقول في بستانه المختار هذا :^(١)

يارب لي ليل بته ناعماً	بين ربا المختار للجمنر
أخرج فيه نصاً من صبا	واستحث الخمر بالخمير
وعذبة الألفاظ ممشوقة	ساحرة الأوتار والشعر
فلم أزل أشرب من كفيها	واجنى الشهد من الثمر
والبدر قد مد على يله	منطقة من خالص التبر

ويقول تميم في بركة الحبش :

انظر إلى البركة الغناء مفعمة	بالماء والشمس من حنين لغايرها
والرياح تلمب في أمواجها جدلاً	فما تسالمها إلا تباركها
والنبث قد حفها من كل ناحية	بكل غصن أيلى فهو حائرهما
كانها بسط يضر إذا برزت	للعين مخضرة منها فراورها

وقد بنى الخليفة الأمر بها منظر من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة وكان إلى جوار بركة الحبش هذه دير مرحنا — قرب فم الخليج الآن — على شاطئ البركة من الجهة الغربية ، وإلى جانبه بساتين للأمير تميم ، وقد جعل بها مجلساً له على عمد . وكان قرب الدير عين ذهبت في الرمال . وكان هذا الدير من مواطن اللهو وأماكن الفرجة واللذة في زمن الفاطميين يقول فيه تميم :

أيا دير مرحناً سقتك رغوؤ	من الغيث تهمى مرة وتعود
لكم واصلنا في زناك أوانس	يظفن علينا بالمدامة غيد
وكم ناب عن نور الضحى إليك مبسم	ولابث عن الورد الجنى محدود

وإلى الشرق من البركة وبجبل المقطم كان دير القصير ، وكان هذا الدير من منازل الفسطاط والقاهرة المقصودة للمتعة واللهو ، وكان رهبانه يرحبون بالزائرين وبخاصة في أعياد النصراني حيث يكون القصف والشراب ، والغناء ، وكان الشعراء يعجبون به ، ويقضون أوقاتاً سعيدة يتناشدون الشعر ، وذكره الشافعي بين ديار مصر المعروفة التي بهج بها

(١) ديوانه ص ٢١٥

الشعراء . وكان لهذا الدير مكانة لدى خلفاء الفاطميين ، يؤمنونه في أوقات نزعتهم ، كما كان يتردد عليه الحاكم بأمر الله في زهده لقضاء أوقات بين رهبانه .

وتغنى به الأمير الشاعر تميم بن المعز^(١) قال :

كم بدير القصير لى من بكور وروح على الصبا بالعقار
حيث أخلو بما أحب من القص في قليل الوقار لسك أداري
كم صبح شدته بغيرق وظلام وصلته بنهار

وقال :^(٢)

إلى دير القصير صبا فؤادي وقد يصبو الخطير إلى الخطير
محل جمل أن نعزى إليه محلات الخورنق والسدير

ويقول :^(٣)

أزى الليل في دير القصير كأنما تطالعنا من ساحته شمس
يلد التصالي في ذراه كأنما تجدد للزوار فيه نفوس
فمن كان محبوساً على حب لذة فإني على دير القصير جليس

ويقول :^(٤)

غمرك المألى واجنبك الثاويسا وساغدت في الدير القصيرى إلبسا
وهل يحجر اللذات إلا مسرف ويتركها إلا أمرؤ بات محبوسا
رباً عظمتهم النصارى ولم أزل أعرس بالذات فين تعريسا
أصول بقرع البم والزهر بعده إذا قرعوا عند الصلاة التواقيسا
وإن عظمت فيه النصارى صليهم وحركت الناقوس أو عبت عيني
فرعت إلى دين النبى محمد وقُدست فيه رب أحمد تقديسا

وظل هذا الدير مرتاداً للشعر حتى القرن السابع ، ويذكر الشاعر على بن ظافر في كتاب « بدائع البدائه » أنه ذهب إليه مع بعض صحابته . قال :^(٥) « ومضيت أنا وجماعة من صحابتي إلى الدير المعروف بالقصير إيثارا لنظر تلك الآثار ، فلما تنزهنا في حسن منظره ، وقضينا الوطر من نظره تعاطينا القول فيه جرياً على عادة الخلعاء والبلغاء ، وظرفاء الأدباء ، ومجان الشعراء الذين نبذوا الوقار بالعراء » .

(٢) ديوانه ص ٢٤١

(١) ديوانه ص ٢٣٥

(٤) ديوانه ص ٢٥١

(٣) ديوانه ص ٢٤٨

(٥) بدائع البدائه ص ٢٢٧ بتحقيق أبو الفضل إبراهيم .

ومن منازل الفسطاط والقاهرة القرافة بجبل حفنم بين الفسطاط والقاهرة وقد يعجب المرء أن تكون مدينة الأموات نزهة ومكاناً يأنس إليه الأحياء ، ولكن هكذا كان الحال وظل ، وللمصريين عادات غريبة تختلف عن غيرهم ، ومن هذه العادات الغريبة أنسهم للأموات ، واحتفالهم معهم في الأعياد يذهبون إليهم ، ويعتقدون مشاركتهم لهم فيها .
ومن هنا كانت القرافة مكاناً يجتمع فيه الناس للفرجة ، بدلاً من كونها قاصرة على العبرة بالموت ، فالمصري يعتقد من قديم أن الموت مرحلة ينتقل بعدها الانسان من طور إلى طور ، ولا يفنى ، فهو باق في الحياة الآخرة يعمل ما كان يعمل في حياته الدنيا . وقد انتقلت هذه العقيدة إلى المصري المسلم ، وجمع بينها وبين ما جاء عن البعث في الإسلام وحياة القبر وما إلى ذلك .

وذهب إليها ابن سعيد قال^(١) : « ويت ليلالى كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهى فى شرقها بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبانٍ معتنى بها ، وفيها القبة العظيمة العالية المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه ولا تكاد تخلو من طرب ولا سيما فى الليالى القمرية ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم . وفيها أقول :

إن القرافة قد حوث ضلّين من	دنيا وأخرى ، فهى نعم المنزل
يفشى الخليج بها السماع مواصلاً	ويطوف حول قبورها المتجمل
كم ليلٍ بتابها ومداًئنا	لحن يكاد يذوب منه الجندل
والبدن قد ملأ البسيطة نورة	فكأنما قد فاض فيها جندل
وبدا يضاحك أوجهاً حاكنة	لما يكمل وجهه المتهلل

قال ابن سعيد : « وفدى القرافة فى شرقها جبل المقطم ، وليس له علو ولا فيه اخضرار ، وإنما يقصد للبركة . وهو نبيه الذكر فى الكتب ، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة . »

وسكن القرافة أمية بن أبى الصلت العالم الشاعر الأديب القيروانى البذى وفد إلى مصر فى عهد الخليفة المستمل ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وظل بمصر زمناً .
ووصف على بن ظافر انترافة بعد انتهاء دولة الفاطميين وأوائل دولة الأيوبيين^(٢) :

(١) المغرب ص ١١/١٠

(٢) بدائع النبائة ٢٠٣

« كنت في بعض العشايا بالقرافة في منزل قد ارتفعت ورود أشجاره ، وابتسمت ثغور أزهاره ، وذاب كافور مائه على عنبر طينه ، ومدت بكاسات الخلقاء بنان غصونه . والنسيم قد خف فاختضل ، وسقط رداؤه في الماء فانتل ، وبهت قواه فصعف في السير ، واشتد مرضه حتى ناحت عليه أنواع الطير » .

وقال : (١) « واجتمعنا بالقرافة في ليلة وقد عم السرور الأرض بسحابه ، وغمرها بفائض تسكابه ، فأنبت نواحيها زاهي جلتار من شعل النار ، في غصون مائسات ، كحبال الفرقيات ، وكشف بها الثور سُجف الظلماء » .

القاهرة :

بنى الفاطميون القاهرة على بعد ميلين شمال مدينة الفسطاط ، لتكون مدينة الخلفاء ومستقر ملكهم ، مع حريمهم وعبيدهم وجندهم المقربين ، فلم تكن أول الأمر تحفل بالأحياء الشعبية والأسواق ، بل لم يكن بها بعض دواوين الدولة التي ظلت بالفسطاط مصر . وبنوا فيها قصورهم الفارمة المزدهرة ، كالقصرين الكبيرين الشرق والغرب اللذين بناهما جوهر للخليفة المعز لدين الله ، وأضاف إليها العزيز بالله والخلفاء من بعدهما أجنحة وقاعات كثيرة .

وكان بالقصر الشرق الكبير تسع بوابات تعلو إحداها منظره يظهر الخليفة في شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة . ومن أسماء هذه البوابات : باب الزمرد ، وباب السلام ، باب الفتوح إلخ .

ويربط القصرين بعضهما ببعض ، كما يربط بعض قاعاته أنفاق وسرايب لانتقال الخليفة محفورة تحت الأرض .

وكان هذا القصر الشرق مشيداً في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، روى ناصر خسرو أنه عندما كان يرى من بعد كان يبدو كالجبل لضخامته وارتفاع مبانيه . وقد شيد مكان بستان كافور ودير العظام .

والقصر الغربى كان ظهره يطل على الخليج ، وعلى جانبيه الواجهة الشرقية امتد جناحان للبناء ، مما جعل القصر شبيهاً بمحدوة الحصان يمتد جناحاهما ناحية القصر الشرق الكبير وقد

(١) المصدر نفسه ٢٠٥

اضيف بعد ذلك إلى هذا القصر على الخليج قصر اللؤلؤة ، وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بهذا الاسم ، « رجة بين القصرين » وكانت قصبة القاهرة تحترقه^(١) ، وصف أحد رسل ملك بيت المقدس الصليبيين قصر الخليفة العاضد فقال : انه استقبل أمام القصر بحرس شاهرى السيوف ، ثم اقتيد عبر ممرات وسرايب وعبر ثلاثة أبواب بحرس كلاً منها جندي سوداني من حرس القصر حتى بلغوا فناء واسعاً ، كسيت أرضه بالرخام الملون والمنقوش الذهبية الموهمة ، وتتخلله نافورات بأنابيب من الذهب والفضة وتتأثر على جوانبها مجموعات من الطيور النادرة تسرح في أنحاء القصر ، كذلك شاهد حيوانات متعددة مجتلبة من أنحاء العالم .

وأفصى الحرس بالرسول ومن معه إلى القصر الكبير الذى قام على حراسته حرس تام العنة والسلاح فى زى يلمع بالفضة والذهب ، ثم انتهى بهم الأمر إلى حجرة العرش التى استقبلهم فيها الخليفة ، وبها ستار فخم يمتد من بين حائطى القاعة ، من الحرير المزخرف متعدد الألوان ، ومطرز بخيوط الذهب ، وقد صوّرت عليه تصاوير أناس وطيور وحيوانات ، ومطعمة بأحجار الزمرد والياقوت وغيرها .

وكان الخليفة يجلس خلف هذه الستارة ، فكشفت عند اكتمال المجلس ، وتجلّى الخليفة فسجد الحضور ، وبدأ الخليفة على كرسيه المذهب والمطعم ، وقد أحاط به مساعدوه يكسوهم الهبة والوقار .

وأفاض المقرئ فى وصف قصور الخلفاء وقاعة الذهب^(٢)

وسوى قصور الخلافة مقرهم الرسمى ومقر حريمهم وجواربهم وخدمهم وحشمهم ، وجندهم وحرسهم ، ومن يختصون بهم كان للخلفاء كذلك مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش ، وظاهر القاهرة ، ولهم بها وخارجها عدة منزهات ويسانين .

ومن أشهر مناظرهم على خليج القاهرة منظره قصر اللؤلؤة ، ومنظره الدكة ، ومنظره المقس على النيل الرئيسى قرب الفسطاط ، بينها وبين الجزيرة ، ومنظره باب الفتوح ومنظره بركة الحبش ، والأندلس بالقرافة ، وقبة الهواء على المقطم .

(١) موقعه الآن فى المنطقة ما بين جامع الحسين وحن الحليلى دمارستان قلايون وقد سميت باسمه رواية نجيب محفوظ « بين القصرين » لأن أحداثها تدور فى تلك المنطقة .

(٢) راجع حطوط المقرئ ١/

وكان الخليفة العزيز بالله نزار ، ولعاً بإشادة القصور والحدائق ، وحسب استخدام الرياش
الفاتحة والثياب المنوثة بالذهب والفضة .

وتمتعت القاهرة في عهده بدرجة بالغة الثراء ، وعمت مظاهر الترف جميع الناس .
ومن قصورهم المشهورة بالقاهرة قصر الشوك والذي حرق من بعد على السنة العوام
فأصبح قصر الشوك .

وبنوا بالقاهرة إلى جانب القصور الجوامع والمساجد ، كجامع الأزهر الكبير الذي تحضه
الحلقات لأداء الصلوات أيام الجمع والأعياد ، ولشهر رمضان ، حيث كان الخليفة يذهب
إليه في موكب مهيب ليلقى خطبة الجمعة ، أو خطبة العيد ويؤم الناس في الصلاة ، كما
جعل الأزهر مكاناً للعلم يتفلق فيه الطلاب حول العلماء والشيخ لتلقى أصول المذهب
الفاطمي ودراسته علوم الدين واللغة والتاريخ والأدب والعلوم العقلية والرياضية .
وبنى الحاكم الجوامع الأنور ، أو جامع الحاكم ، ودار العلم أو دار الحكمة ، ومسجد المقصر
والجامع الأحمر ، وتحويل بعض الكنائس إلى جوامع .

وأحاط الفاطميون القاهرة الملكية بأسوار ضخمة ، كانت لها أبواب تفتح وتغلق وقت
الحاجة ، وأول أسوار القاهرة بناه جوهر الصقلي ، ثم عاد بنى الدين الجمالي فوسع السور
حول القاهرة وأعاد بناء وبناء أبوابه .

واشتهر من أبواب القاهرة باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب زويلة أو بوابة المتولي ،
وكان باب زويلة على الضلع الجنوبي للقاهرة مواجهاً لمدينة الفسطاط ولهذا كان أكثر
الأبواب ازدحاماً بالهائن . لأنه كان يجتمع على أصحابها الجزل والمقنعة وزجال الدولة وعزيجهم
إلى الفسطاط في وقت الغداة والمساءلة .
وقامت حول باب زويلة بعض الأسواق ، كما شاد بعد الناس من الجند وغيرهم مساكن
لهم يظهرون فيها قوتهم وقوتهم .

ووصف بعض الرحالة القاهرة في عهد الفاطميين فذكروا أن الحي الملكي مسكن
الحلفاء بقصوره ورجاته كان جميلاً لعمامة وأشج الأرجاء ، تبدو عليه مظاهر الأبهة والجمال
وفيما عدا ذلك ظاهراً القاهرة قامت بمساكن للناس ضيقة لدروب والحارات ليست في
نظافة الحي الملكي ولا فخامته بطبيعة الحال .

وكان بعض الخلفاء يركب فرسه أو بعلته أو حماره — كما فعل الحاكم — ويشق الأسواق في الأحياء الشعبية من القاهرة لتفقد أحوال الرعية والتعرف على مايجرى ، وكان بعضهم يتقدم لهم بالشكاوى للنظر فيها .

كما أن مواكب الخلفاء تشق تلك الأحياء في الأعياد والمناسبات أو عند الخروج للتنزه على الخليج خارج القاهرة في عين شمس أو الفسطاط وبركة الحبش أو بالمقس وجزيرة الروضة أو للصيد في برارى سرياقوس وحولها من منطقة شرق القاهرة .

وقد بلغت القاهرة أيام الفاطميين مبلغاً من البهاء والجمال والعظمة نافست فيه بغداد عاصمة العباسيين ، وكانوا يقصدون إلى ذلك ، لأنهم منافسوهم السياسيون في العالم الاسلامى آنذاك ، فلا بد وأن تكون عاصمتهم على مايطمحون إليه من مكانة ، ولذلك لم يدعوا فرصة دون اضافة جديدة من العمارة .

وكان ناصر خسرو قد زار القاهرة في عصر الفاطميين فقال عنها :

« إن القاهرة واحدة من اكبر مدن العالم وبها ملايين عن عشرين ألف متجرا مملوكة للخليفة ، وبها أيضا حانات وحمامات ومبان عامة أخرى كثيرة العدد تعجز الحصر .

وقد شيدت القاهرة حول قصرى المعز على خلاف مدينتى الفسطاط والقطائع اللتين شيدتا حول جامعى عمرو بن العاص وابن طولون .

وكانت القاهرة أيامها تبدو تحفة فنية شكلها صائغ ماهر في أيام ، ثم وضعت . كما لو كانت توضع في صينية وسط السهل الممتد الذى ينحصر بين النيل والمقطم .

وقد شيدت المنازل بالقاهرة بعناية فائقة حتى ليخيل للرائى أنها قد شيدت من أحجار كريمة لامن ملاط وقرميد وأحجار عادية .

وكانت منازلها منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى إن الأشجار المزروعة في واحدة منها لاتلامس أغصان المنزل الآخر . وكل منزل منها مزود بحديقة ، وأجملها مايحيط بقصر الخلافة .

ويقول ناصر خسرو : من أهم خصائص مصر أن من يريد أن ينشئ حديقة يمكنه أن يحقق رغبته في أى فصل من: فصول السنة . ولدى المصريين أشجار مزروعة في براميل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم التى تشبه الحدائق ، وهذه الأشجار غالبا ماتكون مشمرة ، محملة بالفاكهة من البرتقال السكرى والبلدى والرمان والتفاح والسفرجل . ولدى

أهل القاهرة كذلك مشاتل للزهور من الورود والرياحين وغيرها من نباتات الزينة .
وكانت منازل القاهرة المخاطة بالحدائق اليناعة تشبه مدد الحدائق المنتشرة في أوروبا
الآن^(١) .

وإلى الجنوب خارج أسوار المدينة كانت توجد بركة الفيل التي سميت على اسم واحد
من اتباع ابن طولون . وكان الخليفة الفاطمي مولعاً بالخروج إليها للتنزه على ضفافها ، أو
فيها على إحدى مراكبه، شوانية أو سمارياتة .

وقد كان المشهد ساحراً بالليل عندما تضاء المناظر والجواسق بالشموع على شواطئ
البحيرة . وقد وصف ابن سعيد المغربي بركة الفيل فقال :

انظر إلى بركة الفيل التي اكتفت بها المناظر كالأهواب بالبحر
كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القصر

وقدر ناصر خسرو مساكن القاهرة في عصره بعشرين ألف مسكن ، كل منها مكون
من خمس أو ست طوابق . وكان إيجار منزل من أربعة طوابق أحد عشر ديناراً كل شهر .
فقد طالب صاحب المنزل الذي نزل فيه الرحالة ناصر خسرو بخمسة دنائير إيجاراً شهرياً
للطابق الأخير الذي نزل به .

وكان الماء ينقل إلى المدينة على ظهور الدواب ، يحمله السقاة من النيل الذي كان
يتعد عن المدينة ما يقرب من الميل .

وعادة السقاة أن يحملوا الماء على ظهورهم في آنية من الفخار أو الجلد (القرية)
ويدفع القادرون ثمن الماء المحمول إلى منازلهم ، ويستقى الفقراء من الأسبلة المقامة في نواحي
البلد ، أقامها القادرون صدقة ، وتقرباً إلى الله لإعانة غير القادرين على الحصول على الماء .
وكانت الأسبلة هذه من العمائر التي اشتهرت بها القاهرة الإسلامية منذ ذلك العهد
وطوال العهود التالية حتى عهد العثمانيين الأتراك .

قال صاحب كتاب القاهرة : كان في ذهن من بنى القاهرة حقيقتان سياسيتان

(١) راجع كتاب القاهرة مدينة ألف ليلة طبع هيئة الكتاب ص ٥ - ٧

إحداها أن ملوكها شيعة يحيط بهم شعب مصر السننى ، وأعداؤهم العباسيون الذين لايفتأون يتربصون بهم ، ويكيدون لهم ، ويحرضون عليهم . فعملوا على اختيار موقع حصين يمكن الدفاع عنه بما يبنى حوله من الأسوار القوية .

وقال : « لقد بنيت تلك المدينة ليسكنها الغزاة المنتصرون لا رعاياهم . ولذا فقد كانت القاهرة فى تلك العصور مدينة ارستقراطية للخاصة تذكرنا بالمدينة الامباطورية فى بكين ، والكرملين فى موسكو ، وشيئاً فشيئاً اتخذت مظهر مدينة محرمة . وبدون تصريح كان من المستحيل أن تدخلها حمولة من خشب أو من قش . وكان على السفراء الأجانب أن يمشوا بين صفوف الحرس إذا دخلوها ، كما كان على الفارس أن يترجل عند دخوله من الباب المواجه للفسطاط باب زويلة . »

وشيئاً فشيئاً أضيف إلى هذه المدينة الملكية مساكن للناس ممن تتصل أعمالهم بهذه الطبقة الحاكمة الارستقراطية ، أو من يقومون على خدمتهم ، وهكذا عاش البسطاء من الصناع والحرفيين حياة خشنة تختلف عن حياة القصور .

وكذلك أقام التجار مساكنهم ووكالاتهم ودكاكينهم فى أحياء حول قصور الأثرياء ومنازلهم ، وتكونت الحارات والشوارع الضيقة . وقد غصت بعض الأسواق بالدكاكين التى تغلق ليلاً ويقام عليها حراس خصوصيون يدفع لهم أصحابها أجورهم لحمايتها من سطو عصابات اللصوص ومناسير الحرامية أيام الاضطراب وفساد الأمور فى المجاعات والمحن . وكان ذلك حافزاً على أن يقيم سكان كل حارة باباً على حارتهم يغلق على أهلها ليلاً ويقوم على حراسته حراس ولايسمح للمرور بها إلا من يعرف كلمة السر .

ومهما يكن من أمر فإن القاهرة الفاطمية قد ازدهت على غيرها من العواصم بما أولاه الخلفاء من الاهتمام بالتشييد والبناء ، واضفاء مظاهر الأبهة والفخامة واهتم العزيز بالله نزار بذلك أشد الاهتمام ، وبلغت البلاد فى عهده مبلغاً من الثراء والرخاء حتى كانت القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة . قال الشاعر تميم بن المعز يصف حال الرخاء فى عهد أخيه :

وعادت بك الأيام فيه أوامساً	وأصبح فيه مبعد الخير مقترباً
وزادت مدود النيل حتى كأنها	أرتك ارتقاباً تقذف الموج أو رهباً
كأن بنان الماء لفاضت على الثرى	بمسلك ، ومجئت فيه غير الترب
فقد عصت الخيل حتى كأنها	مدائن تدعو من جيوشك بالحرب

فدام لأهل مصر عمرك إنهم غدوا بك في ظل من العرش منتصب
سعودة وإقبال وخصب ونعمة ولولاك ما أبوا إلى خير منقلب

مظاهر الترف في الأعياد والاحتفالات :

واهتم الفاطميون اهتماماً بالغاً بالأعياد ، وبالغوا في إضفاء مظاهر البهجة والترف عليها ، وأسرفوا في العطاء ، وتقديم الهدايا ، وإقامة المآدب وتوزيع الخنلوى والمال ، وعمل المواكب ، والزينات .

واكثروا من عدد الأعياد ، فلم يقتصروا على الاحتفال بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى ، بل جعلوا من كل مناسبة إسلامية عيداً ، فعيد للهجرة ، وعيد المولد النبوي ، وعيد المحمل وكسوة الكعبة ، وكانت لهم أعيادهم الخاصة بعقيدة الشيعة كعيد يوم الغدير أو غدير خم ، وعيد العاشر من المحرم ، وليلة الأسراء والمعراج ووقفه رمضان .

وشاركوا في أعياد المصريين القومية كعيد النيروز ، وعيد كسر الخليج ووفاء النيل ، وشاركوا الأقباط النصارى أعيادهم كعيد الشهيد ، والعذراء ، والشعانين والحريق وغير ذلك .

فأما عيد الفطر ، فكان أول أيام شوال يخرج الخليفة ممتلياً صهوة جواده لصلاة العيد في فضاء متسع قرب القصر . ويخرج من قصره في موكب حافل مهيب يتقدمه الجند ، وحاملو الأعلام ، ويركب الخليفة فرسه ممسكاً بالعصا متقلداً بالسيف مرتدياً أبهى لباس من الثياب البيضاء المطرزة بخيوط الذهب ، واضعاً فوق رأسه العمامة البيضاء المزينة بأنواع الذهب والجوهر ، تظله المظلة التي يمسك بها أحد أمراء الجند من خاصة الخليفة .

وعند بلوغه مكان الصلاة يكون في استقباله رجال الدين ، وكبار رجال الدولة ، فينزل عن فرسه ، ليؤم الناس للصلاة ، ثم يخطب خطبة العيد .

وبعد أن يفرغ من الصلاة يتبأ للعودة في موكبه الحافل مثل ما جاء فيتوقف على باب القصر ، ويخلع عنه الوزير لباساً ليلبسه لباساً آخر جديداً هو لباس العيد — ولعل لبس الجديد في العيد عند المسلمين في مصر ترجع إلى هذه العادة ، ويجلس الخليفة إلى مائدة أو سماط أعد لهذه المناسبة ، قد اجتمع به ألوان الطعام والشراب واختموى انتهى تقدم في أوان

وصحاف من الذهب والفضة أو الصينى ، وأباريق من الزجاج وأكواب من البللور الفاطمى الذى اشتهرت بمصر صناعته آنذاك أو استورد من أنحاء العالم . ويتخلل السماط آنية الزهر ويمتد على حوافى المائدة صفوف أرغفة الخبز .

وتتوسط المائدة صحاف كبيرة عليها خراف مشوية محاطة بدجاج وطيور أخرى وتحيط بهذا كله أطباق الحلوى . وقد يؤتى بها بعد انتهاء الطعام محمولة على محفات ومغطاة بأوراق الذهب مزينة بنقوش بارزة .

ويجلس الخليفة على عرشه متوسطا المائدة ، وعلى يمينه وزيره ، ويتنظم المدعوون على الجانبين من حولهما كل على قدر مقامه ومنزله .

وفى أثناء الطعام كان جماعات من المضحكين والمحبطين يقومون بعروض لادخال السرور على الطاعمين .

وابتدع الخليفة العزيز بالله نزار فطرة شوال فى أول أيام العيد ، وتتكون من أنواع الحلوى والتقل ، وتفرق بديوان القصر ، ثم تنقل بعدة أماكن . وكان مصروفها فى كل سنة عشرة آلاف دينار .

وفى عيد الأضحى كان يجرى مايجرى فى عيد الفطر ، إلا نظام « الفطرة » ، فقد كان يستبدل به نظام الأضحى ، إذ كان الخليفة يذبح بيده بعد الصلاة ناقة ، ويأمر بذبح الذبائح من الإبل ، والغنم ، وتفرق اللحم على الناس ، كما كان يأمر بتفريق الاضحيات على رجال الدولة وخاصته من رجال القصر .

وكان عيد الحمل وتجهيز الكسوة للكعبة من الأيام الخافلة التى تزين لها القاهرة ويشقها موكب كسوة الكعبة والحمل النبوى ، وكانت تجهز كسوة الكعبة من أفخر الأقمشة التى تصنعها مصر وتزين بخيوط الذهب ، كما تزينها خمسون لؤلؤة كل لؤلؤة كبيضة الحمامة ، وقد وشيت بالآيات القرآنية المذهبة الموشاة باللؤلؤ والزمرد . ويضاف بها فى أنحاء القاهرة حيث تتجمل لها الشوارع ، ويخرج الناس لمشاهدتها فرحين مهللين .

وفى ليلة النصف من شعبان يجتمع الناس بمجوام القاهرة ومصر ، ويجتمع الفقهاء والقراء والمنشدون ، ويحضر القاضى والداعى ووجوه البلد ، وتوقد التناير والمصابيح على أسطح الجوامع وفى صحنها ، وتوضع الشموع على المقصورة وفى مجالس العلماء . ويحمل إليهم

الخليفة الاطعمة والحلوى والبخور .

ومن الأعياد التي استحدثها الفاطميون ليالى الوقود ، وهى أربع ليال فى أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ، ويشق القاهرة فيها ركب عظيم يتقدمه الشهود ، وتوزع فيه الحلوى من خشكناج وپسندود ، ويركب الوزير أو القاضى فى موكب يطوف بجوامع القاهرة ومصر (الفسطاط) فتفرق العطايا والحلوى أمامه جماعة يحملون الشموع والقناديل . والبخور فى مجامر الذهب والفضة .

ويصف لنا المقرئ موكب الوقود فى أول رجب فيقول :

« تحمل الشموع إلى دار القاضى لركوب ليلة مستهل رجب ، فإذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم اهتم الشهود أيضا ، فمنهم من يركب بثلاث شمعات إلى اثنتين إلى واحدة ويمضى أهل مصر منهم إلى القاهرة فيصلون المغرب فى الجوامع والمساجد ، ثم ينتظرون ركوب القاضى ، فيركب من داره بهيماته ، وأمامه الشمع المحمول إليه موقوداً مع المندوبين لذلك من الفراشين من الطبقة السفلى من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ »

« ويحرس القاضى جماعة من الحجاب فى زى الأمراء — أمراء الجند ، وفى ركابه القراء يطربون بالقراءة ، والشهود وراءه على الترتيب فى جلوسهم بمجلس الحكم الأقدم فالأقدم وحوالى كل واحد ماله من شمع ، فيشقون من أول شارع فيه دار القاضى إلى بين القصرين وقد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم مالا يحصى كثرة ، رجالاً ونساءً ، وصبياناً ، بحيث لا يعرف الرئيس من المرعوس ... ويظل الموكب على حاله حتى يصل إلى قصر الخلافة حيث يجلس الخليفة فى منطرة على الباب . فينزلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ، ويحضر بين يديه الخطباء ، ويذكرون استهلال شهر رجب ، وأن هذا الركوب علامته .

ثم يركب الناس إلى دار الوزارة ، فيدخل القاضى والشهود إلى الوزير فيجلس لهم فى مجلسه ويسلمون عليه ، وخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة ، ويدعون له ، ويخرجون عنه فيشق القاضى والجماعة القاهرة ، وينزل على باب كل جامع ويصلى ركعتين ، ثم يخرج من باب زويلة ضالبا مصر بغير نظام ، وإلى القاهرة فى خدمته حتى جامع ابن طولون فيدخل القاضى للصلاة فيجد إلى مصر عنده لبقاء القيم . وينقل إلى الفسطاط ويذهب إلى جامع عمرو فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقاً فيه ، وكان مباحاً و

شكله وتعليقه .

ومن أعيادهم الشعبية المشهورة التى ورثها المصريون عن أجدادهم الفراعنة فأقرهم عليها المسلمون بعد الفتح عيد وفاء النيل وكسر الخليج .

ففى الخامس والعشرين من شهر بؤونه القبطى وقبل أن يصل مقياس النيل بالروضة إلى ستة عشر ذراعاً بإصبع أو إصبعين ينفذ إلى المقياس المقرئون لقراءة القرآن ويختمون الختمة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس ، فيوفى الماء ستة عشر ذراعاً فى تلك الليلة .

ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ، إذ يتهج الناس له ابتهاجاً عظيماً زائداً ، ذلك لأنه عمارة الدار ، وبه التمام الخلق على فضل الله .

وفى هذا العيد يضرب سرادق كبير عند الخليج لينزل به الخليفة ورجاله .

ويخرج الخليفة من قصره فى كامل زينته وثيابه المذهبة ، فيقدم الهبات لمن حوله من الحاشية ، وأصحابه ورؤساء المواكب . ويصل إلى السرادق ، فيجلس تحت خيمته على كرسيه . وبعد مراسم الاحتفال التى تنتهى عادة بسماع الشعراء يقوم الخليفة لينتقل إلى منظרתه على فم الخليج ، فيطل من إحدى شرفاتها على موضع كسر الخليج ، حيث يكون العمال قد استعدوا مشدودى الأوساط ، واقفين عليه . فيأمرهم الوزير أن يكسروه فيتولاه الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين مع قراءة القرآن والتكبير من الجانب الغربى للخليج حيث مكان الخليفة ، والرهج واللعب من الجانب الشرقى .

وتجمع العشاريات من المراكب السلطانية فيعدى الخليفة فى إحداها مع الوزير إلى المقياس ويصليان هناك ويعودان أدراجهما ، فتدخل العشاريات بعد فتح الخليج ، تتقدمها عشارية الخليفة ، وبقية العشاريات وخلفها السماريات (المراكب الصغيرة) .

وقد يبدأ الصغير يليه الكبير وكلها محيط بعشارية الخليفة وتسير خلفها .

وقد توسط الخليفة مركبه ، المذينة بالذهب والفضة والستور المرقومة ، وحوله عشاريات كبار رجال الدولة والرؤساء - ناصة فى أبهى زينة وأجمل لباس .
ويبلغ موكب الخليفة - شيته ست عشاريات ، وغالبا ماكانت عشارية الخليفة ذهبية ، وبجانبها فضية وحمراء وصفراء ، ولازوردية وصقلى (منسوبة إلى صانعها - رجل من

(صقلية)

ويسير الركب في الخليج متجها إلى قصر اللؤلؤة حيث ينزل الخليفة في منظرته هناك
ليجلس مرة أخرى ويفرق الهدايا من الأكسية الحريرية ، ويقدم الطعام من الخراف المشوية
والحلوى وما إليها من ضروب الطعام .

كل هذا وحرس الخليفة الخاص من الفرسان من فرق المغاربة، والصقالبة والأتراك والسودان
يصطفون في الثياب المزركشة على الشاطئ وأمام القصر .

عيد النيروز :

ومن الأعياد التي شارك فيها المسلمون الأقباط بهجتهم واحتفالاتهم عيد النيروز يقول
أحد الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك : « ما رأيت أجمل من أيام النيروز والغطاس والميلاد
والشعائين والمهرجان وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة في
القصف والعزف . ذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير الا خرج إلى بركة الحبش متنزهاً .
فيضربون عليها المضارب الجليلة ، والسرادات ، والممالك المحررات ، فيأكلون ويشربون ،
ويسمعون ويتفكهون وينعمون . فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتي فارس من عبيده
بالعسس عليهم في كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أديهم وينصرفوا ، فيسكرون
وينامون كما ينام الإنسان في بيته ، ولا يضيع لأحد منهم حبة واحدة ، ويركب الأمير تميم في
عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاماً وشراباً ، فإذا كانت الليالي مقمرة ، وإلا
كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً
أمرهم باعادته ، وسألهم عما عز عليهم ، فيأمر لهم به ، ويأمر بمن يغنى لهم ، وينتقل منهم
إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله » .

وكان المصريون الأقباط يحتفلون بهذا العيد قبل الفاطميين ، وذكر المقرئ عن ابن زولاق
أنه في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة منع المعز من وقود النيران ليلة النيروز في السكك ومن
صب الماء . وقال : وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة وفي يوم النيروز زاد النعب بالماء ووقود
النيران ، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بنعيمهم ، ولعبوا ثلاثة أيام

وأظهروا السماجات في الأسواق ثم أمر المعز بالكف ، وأن لاتوقد نار ، ولا يصب ماء ، وأخذ قويم لهجسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال (١).

وكان هذه الأعمال التي كان يقوم بها العامة يوم التبرور قد زادت عن حدها ، وتأذى بها الناس ، وكثرت شكواهم حتى أن المعز يادر بمنع الأذى وكف العامة عن مثل هذه السماجات .

ويبدو أن الحال قد استقرت في الاعتدال بالاحتفال بهذا العيد ، ولم يخرج العوام بعد عقوبة المعز للخارجين والمبالغين ، إلا أننا نلاحظ بعد ذلك عودة الظاهرة من جديد في بعض السنوات .

ويبدو أن الأفضل بن بدر الجمالي قد استحدث في هذا العيد أشياء ، وأراد الأمر أن تغفل كما هي وكان من العادة أن تقدم الهدايا من الثياب الجديدة والفاكهة الموسمية كالوز والتمر والرمان إلى بعض الطرف الأخرى ، وتقدم الأطعمة من قصير الخلافة وقد أبطل الاحتفال بهذا العيد في عهد صلاح الدين . وذكر المقرئ رسالة القاضي الفاضل بشير فيها إلى ذلك . قال : « وقال القاضي الفاضل في تعليق المتجددات لسنة أربع وثلاثين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت . وتوت أول مستهم . وقد كان بمصر في الأيام الماضية والدولة الخالية — يعني دولة الخلفاء الفاطميين — من مواسم بطالاتهم ، ومواقيت ضلالاتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة في يومه ، ويركب فيه أمير مؤسوم بأمير النوروز معه جمع كثير ، ويتسلط على الناس في طلب رستم رتبة على دور الأكاكر بأجمل الكبار ، ويكتب مناشير ، ويذهب مترسمين كل ذلك يخرج مخرج الطير ، ويقنع بالمسور من الهبات ، ويتجمع المؤثنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدتهم الخليفة وأيديهم الملاحى ، وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمر والزور بها ظاهراً بينهم في الطرقات ، ويتراش الناس بالماء والماء والخمر ، وبالماء مخروجا بالأكذار ، فإن غلط مستعرب ومخرج من دور زلقه من جرش الماء ، يفسد ثيابه ويضعف عرقه ، وإذا فدى نفسه وإما فضيح ، ولم يخرج الحال في هذا النوروز على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات ، وأحيى المنكر في الدور أبواب الجسارات » (٢) .

(١) : إيلان طوط، ١٠٩٣/١، وثقافتها ابتداءً من الميراث

292 — 293/1 Jaldi (Y)

وهكذا فإن تلك العادات التى جرى عليها المصريون من ايقاد النيران واللعب بالماء قد نقلها عامتهم عن عادات الفرس ، وربما أدخلها بعض الولاة من الفرس أو الأتراك من بلاد فارس الذين كانوا يهتمون بهذا العيد ، وكان يحتفل به فى العاصمة العباسية بغداد فى أول السنة الفارسية فأصبح فى مصر يحتفل به فى رأس السنة القبطية .

ولم يستطع المسلمون بطبيعة الحال أن يحتفلوا بالنوروز على رأس السنة الهجرية الإسلامية لما لهذا اليوم من وقار لايسمح ولاة الأمر بابتذاله بتلك الأعمال التى تخرج عن حدود الوقار ، وترتكب فيه أعمال خارجة على أوامر الشرع .

ومع ذلك فلم يرد هؤلاء أن يحرّموا الناس من اللهو فى أعيادهم ومناسباتهم ، حتى يغفلوا عن مطالبة الحاكم بما ينبغى أن يفعله فى رعاية أمور الناس ، والقيام على مصالحهم . على عكس ماكان حادثا من استحواذ الخلفاء لمعظم ثروة البلاد وامتلاكهم للمال الكثير للصرف منه على قصورهم ، ومتعهم الخاصة وملازهم ، وتقديم مايفضل عنهم للشعب من مال وطعام وإغراقهم فى رغبة الطعام وملاذ الشراب ، وخلق المناسبات لإشباع نهمهم فى هذا المجال .

عيد ميلاد المسيح ، والغطاس :

وشارك الفاطميون المسيحيين من أقباط مصر فى أعيادهم الدينية ففى ميلاد المسيح وتعمله أقباط مصر فى التاسع والعشرين من كيهك . قال المقرئى : وما برح لأهل مصر به اعتناء ، وكان من رسوم الدول الفاطمية . فيه تفرق الجامات المملوءة من الحلوات القاهرية ، والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلأب ، وطيافير الزلاية ، والبودى ، فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام بتقرير معلوم .

كذلك احتفلوا بعيد الغطاس من مواسم النصرى فى الحادى عشر من طوبة .

ونقل المقرئى عن المسعودى قوله : « وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لاينام الناس فيها ، وهى ليلة إحدى عشرة من طوبة » .

وكان يحتفل بهذه الليلة فى العصور السابقة ، ولكن الفاطميين انهموا بها وشاركوا النصرى فيها كعهدهم فى كل أعيادهم .

« واعتاد المصريون نصارى ومسلمين أن يشاركوا في هذا العيد بالاحتشاد له والخروج إلى النيل بالآلاف . وفي ليلة الغطاس تسرج المشاعل والشموع ، وتتلاأأ أنوارها منعكسة على صفحة النيل بالقاهرة والفسطاط ، ويركبون الزوارق ، وفي أيديهم الشموع والمشاعل ، ويظهرون ألوانا من الفرح والمرح ، والمآكل والمشارب ، في آلات الذهب والفضة ، ويتزينون بأنواع الزينة ، وتعلو أصوات الغناء والموسيقى .

« ويغطس أكثرهم في النيل ويرعمون أن ذلك أمان من المرض »

قال المسبحي: (١) « في سنة ثمان وثمانية وثلاثمائة كان غطاس النصارى ، فضربت الخيام والمضارب والأشرعة في عدة مواضع على شاطئ النيل ، وأوقدت الشموع والمشاعل وحضر المغنين والملهون .. إلى أن كان وقت الغطاس فغطس الناس وانصرفوا .

وقال: (٢) « وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة وفي ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى ، فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جدّه العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم . ونودي أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم إلى البحر في الليل !! وضرب بدر الدولة الخادم الأسود خيمته عند رأس الجسر ، وفرش فيها مرتبة مثقل ، ومرتبة ديباج ملكي ، وجلس الخليفة في الخيمة ومتولى الشرطة قائم بين يديه ، وأمر بأن يتقّد وقيد النار والمشاعل في الليل ، ففعل ذلك ، وكان وقيداً حسناً طويلاً ... وحضر جماعة من القسيسين والشمامسة بالصلبان والنيران ، فقسسوا هناك طويلاً وانصرفوا إلى حيث يغطسون » .

وكانت الأعياد والمواسم في عصر الفاطميين فرصة لأظهار ثراء الخلفاء ، وترف كبار رجال الدولة والأمراء والحاشية . يقول الدكتور محمد كامل حسين (٣): « عرف الفاطميون بمراء دولتهم ، وبذخهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، وافتتوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم حتى يتخلل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعياداً ومواسم ، وكلها لها ومرحاً »

وقد ذكر الشيخ عمارة الجني مآثر الفاطميين في تلك المواسم والأعياد ، باكمياً راثياً ،

(١) الخطط ١/٤٩٤

(٢) راجع تاريخ المسبحي طبع في الكتاب من ١٩٠٠ والخطط ١/٤٩٤

(٣) في الأدب الفاطمي

وفي قلبه حسرة على انقضائها فقال :

مررت بالقصر والأركان خالية
أبكى على مآثرات من مكارمكم
دار الضيافة كانت أنس والهدكم
ولطمة الصوم إذ أضحت مكارمكم
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
وموسم كان في يوم الخليج لكم
وأول العام والعديد كم لكم
والأرض تهتز في يوم الغدير كما
والخيل تعرض في وشي وفي شية
ولا إعلم قري الأضياف من سعة
وما خصصتم بيرة أهل ملتكم

من الزفود وكانت قبلة القبلي
حال الزمان عليها وهي لم تحلي
واليوم أوحش من دار ومن طلي
تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
ورث منها جديد عندهم وتلي
يأتي تجملكم فيه على الجميل
لهن من ونيل جود ليس بالوشل
يتز ما بين قصرتكم من الأسلي
مثل العرائس في حلي ولي خلل
الأطباقي إلا على الأكتاف والعجل
حتى عمت به الأقصى من الليل

وشارك الخلفاء رجال الدولة في البذخ والتمتع بالذات ، وتعرف أن الأمير تميم بن المعز كان حريصاً على هذا البذخ وحب التمتع بالذات في قصوره وبساتينه ، يستمتع إلى الغناء ويشترك في الاحتفالات والمواسم ، ومر بنا حاله يوم النيروز واحتفاله به مع الناس ومشاركتهم في لهوهم .

وكذلك كان « برجوان » رجل الدولة القوى من حاشية العزيز بالله ، والذي أوصى به ولده الحاكم ، فكان بيده الأمر في أول دولته حتى تخلص منه . يقول المقرئ : « ترفت أحوال برجوان — وهو خصي أبيض إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة ، وتشاغل بملذاته ، وأقبل على سماع الغناء ، وأكثر من الطرب ، وكان شديد الخبة في الغناء ، فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره ، فيكون معهم كأحدهم ، ثم يجلس في داره حتى يمضي صدر النهار » .

ولم يسلم بعض شيوخ الدين ورجال القلم من الانغماس في تلك الملاهي وإن كانوا يتسترون عليها أحياناً ، ولا يجهرن .

ويبدو أن طبيعة الشعب المصري وحب الحياة البهجة ، واستمتاعه بنعيم الدنيا كان مشجعاً له على الاقبال على الاحتفال بالأعياد بكل ما أوتي من طاقة وسائط ، وإن بالغ أحياناً وشذ بعض الشذاذ والعوام ، فأسرفوا على أنفسهم وأرتكبوا بعض المناسد وأظهروا

المجون ، وخرجوا على التقاليد والحرمان ، ولم يتقيدوا بما توجهه أوامر الدين مما اضطر الحكام ورجال الشرطة إلى التدخل لمنع هذه الانحرافات المخلة بالقيم الدينية والاجتماعية .

والظاهرة الواضحة الدلالة في هذا العصر مشاركة المسلمين النصارى في أعيادهم وعدم شعورهم بالحرَج في ذلك ، والاختلاط بهم نساءً ورجالاً ، دون وجود قيود أو حواجز تحجز بينهم ، وكأنهم أبناء ملة واحدة .

وقد يعزو بعض المراقبين ذلك إلى خفة في دين المصريين ، أو إلى ما غير ذلك من صفات تسوءهم . وليس الأمر كذلك في اعتقادنا ، بل إن مرجع الأمر كله إلى شعور المصريين بالانتماء لمصر ، وأنهم متساوون في هذا الوطن الذي أظلتهم سمائه ، وسقاهم نيله بمائه ، فأحدث بينهم من الألفة وتمازج الأرواح ما غلب على شعور الفارق الديني بين المسلم والمسيحي .

كذلك الموروث الثقافي والحضارى لهذا الشعب العريق لعب دوراً كبيراً في التغلب على الحدود الدينية فأذاب تلك الحدود ، وعاد المصري واحداً تتشابه ملامحه النفسية والاجتماعية مسلماً كان أو مسيحياً .

وأشار أمية بن أبى الصلت في الرسالة المصرية من منطلق عداء واضح للمصريين — ككثيرين غيره — إلى هذا التجانس بين المصريين على اختلاف دمائهم وأصولهم ، وعدم وجود العصبية القلبية بينهم فقال :^(١)

« وأما سكان مصر فأخلاط من الناس مختلفه الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وجبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم .. فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم » .

وقال : « وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهماك في اللذات والاشتغال بالنزهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات .. II »

وأمية يصف أهل زمانه من المصريين في آخر القرن الخامس من الهجرة في عصر الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل .

(١) الرسالة المصرية من ٢٣/٢٤

ولم يكن المصريون وحدهم أبناء ذلك الزمان الذين ينتمون إلى مواضعهم أو ينتسبون إلى بلادهم ، بل كانت الكثرة الغالبة على أهل الزمان وغيره من الأزمنة من يفعل هذا ، وليست النسبة إلى البلد أو الاقليم بدعة عند المصريين ولا دلالة على عدم الاهتمام بالنسب كما ادعى من نقل عنه أمية وأمن عليه .

ولم يكن المصريون وحدهم من بالغوا في اللهو واتباع الشهوات ، بل إن من العرب والمسلمين في المشرق والمغرب من فاقهم بكثير في ضروب اللهو والمجون ، وخالطت حياتهم الشهوات الماجنة التي تخرج على كل حدود وقيد . وكتب الأدب العربي والأخبار حافلة بالقصص والنوادر عما يحدث في بيوت بعض الخلفاء والولاة وكبار رجال الدولة وفي هذا العصر نفسه عصر الفاطميين ، لانستثنى من كان منهم متبعاً لمذهب السلف من أهل السنة ، أو من كان متبعاً لمذهب الشيعة الإمامية أو الإسماعيلية .

ونقرأ عن شيخ تونسي كان نهاية في المجون وكان يجلس إليه أحد شعراء القيروان في القرن الخامس وهو عبد الرحمن بن محمد الفراس الشاعر الماجن . ولم يكن يتورع عن فاحش القول ونقرأ عن شيخ آخر من شيوخ القيروان يدعى عتيق بن محمد بن أبي بكر الوراق التميمي ، يبدى الخشوع وترقرق دموعه في حلقة الجامع حتى إذا كان في بيته كان في يده الطنبور ، وعن يمينه غلام مليح ، فإذا قيل له : ما أبعد ما بين حاله في مجلسه ؟ قال : هذا بيت الله وهذا بيتي أصنع في كل واحد منهما مايليق به وبصاحبه .!!^(١)

ونقرأ أن أحد أمراء صنهاجة أصحاب القيروان في عهد الفاطميين كذلك وما كان يحياه في قصره ، ويحيط به نفسه من ملاذ الحياة ومتعها ، فقد قال إن أبا الفتوح بلكين بن زيري بن سناد كان له أربعمائة جارية وحظية ، وأن البشائر قد وفدت عليه في يوم واحد بولادة سبعة عشر ولداً .

كذلك كان يحيى بن نعيم بن المعز الصنهاجي حين يقدم إلى مجلس الطعام يشير إلى جارية من حظاياها ليتكئ عليها . ومحمد بن سحنون يتمتع بتسعة أسرة لكل سرير سرية^(٢) وفي المشرق في بلاد الجزيرة الفراتية من أرض العراق يحدثنا الفارق صاحب التاريخ عن أحد أمراء العشائر ، وكيف اقتنى من النساء عدداً ، ومارس من متع الدنيا واللذات ألوانا ،

(١) حياة القيروان للدكتور ناعى ص ٨٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨

ولم يكبح جماحه عن الشهوات ذلك الأمير هو نصر الدولة صاحب آمد وميا فارقين (ت
سنة ٤٥٣ هـ) .

قال الفارقي^(١) : وكان — نصر الدولة — قد تزوج أربع نساء .. وكان له ثلاثمائة وستون
جارية حظايا ، وفيهن عمّالات ، وكان لاتصل نوبة إحداهن في السنة إلا مرة واحدة وكان في
كل ليلة له عروس جديدة ، وكان له من المغنيات والرقاصات والعمّالات ، وأصحاب سائر
الملاهي ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلطين . وكان كلما سمع بجارية مليحة نفذ
وبالغ في مشتراها ووزن أضعاف قيمتها . وكان رسمه أن يجلس يوماً للجند ويوماً معهم يأكل
ويشرب إلى الليل . ويخلو بنفسه ويجلس يوماً لبنى عمه وأولاده وأقاربه وخاصته فيأكل معهم
ويشرب إلى الليل ، ثم يخرج للمغنيات والرقاصات ، وجماعة أصحاب الملاهي إلى بين
أيديهم ساعة ثم يتفرقون ، ويبقى الأمير في خلوته مع جواريه .

ويجلس يوماً ثالثاً وحده على السرير ، وليس في المجلس ذكرٌ غيره ، وتُحضر حظاياها
وجواريه ونسأؤه وبناته ، ويأكلون الطعام ويرقصون ، ويلعبون بسائر الملاهي طول يومه إلى
الليل ، ثم تمضي نسأؤه وبناته ويجلس ويشرب وجواريه والعمّالات بين يديه إلى وقت نومه
قريب الصباح ، ويخلو بصاحبة النوبة ! ...

قيل : وكان يركب نصر الدولة من غدوة إلى الصيد ، ويعود ضحوة ، ويجلس ساعة ،
ويدخل إليه الوزير ويستأذنه فيما يحتاج إلى إذنه . ثم إنه يجلس على الطعام ويستريح إلى قبل
العصر ، ويجلس على الطعام والشراب بعد أن يكون قد صلى الظهر والبصر في وقتها ، ثم
يشرب إلى الثالث الأول من الليل ، ثم ينفض من عنده ، وتخرج الجوارى والعمّالات فيغنيه ،
ويشرب ويلعب معهم إلى الثالث الأخير من الليل وهن بين يديه ، وهو على مسرته ، ثم يقوم
إلى الموضع لمنامه ويأتيه الخادم بصاحبة النوبة فتبيت عنده إلى السحر ، ثم يجلس فيدخل
الحمام ويخرج ويصلي الصبح في وقتها .

وقيل : إنه مدة ولايته لم تفته صلاة الصبح في وقتها . ولقد غُنّي بين يديه ذات يوم
بأبيات أُنّى نواس التي أولها يقول :

(١) تاريخ الفارقي لأحمد بن يوسف بن عل طبع دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٧٤ بتحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف
عوض

وهبَّ النوم للنَّوَامِ	إشفاقاً على عمرى
وقضيتُ سواد اللَّيِّ	بل باللَّذَاتِ والخمرِ
فما يطمع في النورِ	م إلا ساعة السُّكرِ

قيل : فطرب لها الأمير وقال : لله درّه . فكأنه غثى بنا في شعره !! »

تلك كانت حياة أحد ولاية المسلمين وملوكهم في القرن الخامس الهجرى في عهد المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، وكانت بينهما علاقات ، وقد اشترك معه في هذه الحياة كثيرون غيره في بلاد المسلمين ، قارفوا اللذات ، ولم ينجسوا عن شهواتهم ، بل اطلقوا لها العنان واستمتعوا بالنساء والغلمان ماشاءت لهم شهواتهم ، وما اتاحت لهم ثرواتهم وأموالهم التى اكتسبوها من رعاياهم ومن حكمهم لهم وتسلطهم عليهم بغير ولاية شرعية إلا ولاية انتهاز الفرصة والاستيلاء على الحكم بالاقتدار والحيلة .

حكام مسلمون لايشبعون من لذات المال والولد والنساء والغلمان ، ومعاقرة الشراب والقصف وسماع الغناء والعبث ، ويحرصون مع ذلك على أداء الصلوات وكأن الصلاة ترفع عنهم كل هذه الآثام ، وكأن الغلمان والنساء والخمر والعبث الماجن لاينهى عنه الدين . أو كأن الدين والتمسك بأداب الشرع والامتناع عن المحرمات من شأن الرعية وأما هؤلاء الملوك والأمراء فقد رفعت عنهم المحرمات بل واييحت لهم هذه الأشياء ماداموا يواظبون على أداء الصلاة في أوقاتها !!

وهكذا نرى الإسلام في قيمه التى نزلت في الكتاب الكريم وحديث الرسول وسيرته قد تداولتها الدول ، وقرأت كل جماعة في نصوصها مايرضيها وغفلت عما لايرضيها ، وأسرف قوم ، وتزمت آخرون ، وتساهلت جماعة ، وتمسكت جماعة ، وعادى كل مذهب من يخالفه الرأي ، وكلُّ يعتقد بصحة معتقده ، وضلال معتقد مخالفه .

واعترت صور الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامى في تلك العصور اضطرابات في الحكم ، فمن محبذ لروح التساهل والتسامح ، والرغبة في الحياة بمباهجها ، ومتحامل على كل زميت مغلق الفكر والسلوك ، ومن معترض على أمثال تلك الحياة الالهية منكر لها داع إلى التزام أصول الدين القيم ممثلاً في سلوك السلف الصالح في عهد الرسول والراشدين . وفريق ثالث يقف بين يري لاهو إلى هؤلاء في الجهر بالإباحة ، ولا إلى هؤلاء بالترزم

مظهراً ومخبراً ، بل يبيع لنفسه في السر ما لا يبيحه في العلن ، ويرى الجهر بالمعصية أو مخالفة أوامر الشرع ضرباً من التصرف قد يجلب اللوم فيتعد عنه لتظل الصورة الإسلامية النقية منوطة به في العلن ، وله بعد ذلك أن يفعل بينه وبين نفسه ما يشاء كذلك الشيخ الذي ذكرناه يقول إنه يفعل بالمسجد ما يليق بصاحب المسجد وأنه يفعل بعد ذلك في منزله ما يليق به !! .

حياة عامة الناس في معاشهم :

ونخرج من حياة اللهو والقصور بعد هذه الصحبة الطويلة لنقترب من حياة الناس العادية الجارية في معاشهم اليومية ، ولا تعيننا مصادر التاريخ كثيراً في رسم صورة لتلك الحياة كما هو الشأن في الإفاضة عن حياة القصور ، ونلجأ في تقصى بعض جوانب تلك الحياة إلى كتب الحسبة ، وبعض مصادر التاريخ والرحلات التي ترد فيها أجبار وتنف متفرقة عن تلك الحياة .

وكانت الحسبة تسند إلى وجوه الناس المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية إلى جانب كونها سلطة رقابية من قبل الدولة . وللمحتسب نواب عنه بالقاهرة ومصر ، ويجلس بجامع الأزهر بالقاهرة ، وعمرو بن العاص بمصر يوماً بعد يوم .

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهرايس ونظر لحمم ، وكذلك الطباخون .

ويتتبعون الطرقات ويمنعون الخروج على أوامر الشرع وينظرون المكاييل والموازين . وللمحتسب النظر في دار العيار ، ويطلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر . وكان جاريه في الدولة الفاطمية ثلاثين ديناراً كل شهر . ودار العيار هذه كانت داراً تُعائِر فيها المقاييس والمكاييل ، يحضر إلى المحتسب أو نائبه ليعاير المعمول به منها في الأسواق ، فإن ما صح منها أمضاه ، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح ، وما زالت هذه الدار قائمة طوال عصر الدولة الفاطمية .

ويلزم رجال المحتسب رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسقي السلامة وكذلك يفعلون مع الحمالين على البهائم .

ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ولهم عيارٌ وهو أربعة وعشرون دلواً ، كل دلوٍ أربعون رطلاً ، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم ، وهى زرق .

وينذرون معلمى المكاتب بأن لا يضرّوا الصبيان ضرباً مبرحاً ، ولا فى مقتل .

وكان المحتسب يحرص على سلامة الناس وصحتهم بمراعاة النظافة فى الأسواق وأن لا تتعرض السلع من المأكولات لتراب الشارع المتصاعد من أقدام المارة والحيوانات ، بل أمروا الباعة بتغطية تلك المأكولات .

كذلك حرصوا على أن لا تتصاعد الروائح الكريهة من دكاكين الجزارين وباعة الأسماك فأمرهم بغسيلها ونظافتها باستمرار ، وعدم عرض اللحوم أو الأسماك التى تعرضت للتلف . وكان يجازى من يضبط مخالفاً بالعقوبة الصارمة .

ومنعوا عجين الخبز بالرجل .

وكثيراً ماتظهر صور من التجاوز والخروج على الآداب العامة فى الطرقات وأماكن اللهو والنزهة ، وفى المواسم والأعياد ، وكان متولى الشرطة يقف لهذا بالمرصاد ويمنعه .

ولا شك أن مظاهر الثراء العام فى مصر وما كان يعم المجتمع من الرخاء نتيجة وفرة المحاصيل والانتاج الزراعى ، ورواج التجارة ، وما تحصله الدولة على التجارة وقوافل الحج من المكوس كان له أثر كبير على الحياة والمجتمع وسلوك الأفراد ، بالإضافة إلى ما أشاعه الفاطميون من عادات ، ومظاهر سلوكية وافراط فى الطعام والشراب والافتتان فيهما ، وفى أنواع اللبس والرياش .

ونال الطبقات الكادحة من عامة الناس نصيب من الثراء ، ورفاهية الخلفاء ، والطبقات القادرة الغنية فى أوقات الرخاء ، كما أصابها التقهر والعبس من الحدة والنعس أوقات الكربات ، واخس .

ومرت بمصر والبلاد الدائرة فى فلكها والتى تقع تحت نفوذ الفاطميين نحن وأوقات شدة تفاوتت فى ضراوتها وأثرها على الناس ، وفى طولها أو قصرها .

ورغم أن العصر الفاطمى بدأ بفترة من الرخاء فى عصور المعز والعزیز والحاكم إلا أن فترات من الغلاء بدأت تنتاب البلاد منذ عهد الظاهر فى عام ٤١٤ إذ غلت الأسعار وعمر الخبز ، وتلاعب التجار بأقوات الناس مما دفع بالظواهر ورجاله إلى الضرب بشدة على كل

من يحاول استغلال ظروف الناس للكسب الحرام .

يقول المسيحي :^(١)

وفي سنة ٤١٤ في شهر جمادى الآخرة « انصرف ماء النيل انصرافاً متداركاً فاحشاً ، ولم ترو منه الضياع ، ولازكت الأرضين ، فكثر ضجيج الناس بمصر واستغاثتهم إلى الله عز وجل ، وخرج أكثر أهل البلد من الرجال والأطفال ومعهم المصاحف المنشورة إلى الجبل يستغيثون إلى الله تعالى . وتعذرت الأخباز في الأسواق ، ووقع الازدحام على الغلات »

واضطرب المحتسب أن يتدخل ليأخذ التجار بالشدة حتى يفرجوا عما اختزنوه لاغاثة الناس . قال المسيحي :

« ففى يوم الأحد لخمس خلون من رجب انتهى إلى مجلس الحسبة فجلس فيه ثم أحضر الخبازين والدقاقين وضرب قوماً منهم وشهرهم . وظهرت الأخباز واستقامت أحوال الناس » .

ثم كان عهد المستنصر ومضت السنوات الأولى من حكمه طيبة رخاء حتى كان عام ٤٤٨ هـ . قال ابن الأثير^(٢) : « كان بمصر غلاء شديد ، فكان يموت في اليوم ألف نفس . ثم عم ذلك سائر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والحجاز واليمن وغيرها » .

وفي سنة ٤٦٢ يقول ابن الأثير حدثت الشدة الثانية ، وهى الشدة الكبرى قال^(٣) : « وفيها كان بمصر غلاء شديد ومجاعة عظيمة ، حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وفارقوا الديار المصرية ، فورد بغداد منهم خلق كثير هرباً من الجوع . وورد التجار معهم ثياب صاحب مصر وآلاته نهب من الجوع . وكان فيها أشياء كثيرة نهب من دار الخلافة » .

الحياة الدينية والسلوك الدينى

كان الفاطميون حريصين على التمسك بالمظاهر الدينية فى الصلاة والصوم وبالغوا فى التظاهر بهذا التمسك فى المناسبات الدينية التى استحدثوها ، والأعياد التى أقاموها . ولا

(١) أخبار مصر فى سنتين (٤١٤ - ٤١٥) ص ٣٢

(٢) الكامل ٢٣٥/٨

(٣) الكامل ٣٨٥/٨

ننسى أن شرعية توليهم الحكم قائمة على الدين وعقيدة الإمامة فهم أئمة دينيون . لهذا كان عليهم نصره الإسلام وإظهار أخذهم بعباداته ومعاملاته والحرص عليها ، والدعوة لها ، ومنع كل مخالفة ، أو خروج ، والتزام الشدة في ذلك أحيانا .

فمن المظاهر الاجتماعية التي حرص الفاطسيون على مراعاة أمور الدين فيها عدم خروج المرأة متبرجة في الأسواق . وقد وقف الحاكم بأمر الله من المرأة موقفاً منتسداً . فحلال سبع سنوات كاملة من حكمه لم يكن يسمح لامرأة بالخروج إلى الطريق . وكانت مشترواتهن تتم في بيوتهن عن طريق النوافذ والطاقات .

وقد خفت هذه القيود من بعد الحاكم إلا أن الخلفاء ظلوا يحافظون على الآداب العامة ويراقبون سلوك النساء ، فيردعون من تحدثه نفسه بالإخلال بما يأمر به الشرع .

من ذلك حرصهم على أن لا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج بلبس ثياب تكشف عن جسدها أو تظهر زينة .

قال المسبحي في أحداث سنة ٤١٤ أنه قبض على رجل وامرأته ، وأمر متولى الشرطة بضربهما وشهرهما ، وأمر بأن ينادى عليهما : « هذا جزاء من يقود على عياله مع اليهود والنصارى » .^(١)

كذلك أمر بأن يضرب في الأسواق والطرقات بالجرس وينادى أن لا يدخل الحمام أحد إلا بمئزر — حتى لا تظهر العورات ، ويستباح الحياء — وقبض على جماعة في الحمام بغير مئزر فضربوا وشهروا .

وعلى عكس ما نقرأ في كتب التاريخ والأدب من شيوع شرب الخمر بين طبقات المجتمع من خلفائهم وحتى عامتهم ، وظهر ذلك في الشعر والتغنى به إلا أننا نقرأ كذلك من أخبار بعض الخلفاء حرصهم على منع الخمر وتداولها بين الناس وأخذ من صنعها أو شربها بالشلّة .

ذكر المقرئزي أنه في سنة ٣٩٩ قرىء سجل (منشور) بأمر الحاكم بمنع عمل الفقاع وهو نوع من الشراب الشعبي المسكر يصنع من الخبز ، ومسح يبعه بالأسواق . كذلك أمر

(١) أخبار مصر ص ٣٢

بأن لا يحمل شئ من النيذ والمزر — نوع آخر من الخمر — ولا يتظاهر به ولا بشئ من الفقاع .

« وحرم شراء الزبيب بأكثر من الحاجة ، وكذلك العنب لغاية عصره — أربعة أرتال فما دونها » .

وحرص الفاطميون على نشر مذهبهم الدينى فور دخولهم إلى مصر ، وإن كان قد سبقهم من الدعاة ، من مهتدوا لهم ، فاتبع دعوتهم بعض المصريين إلا أن عامتهم كانوا حريصين على مذهب أهل السنة مع محبتهم لآل البيت .

يقول المقرئى :

« ولما دخل جوهر الصقلئ القائد بعسكر المعز لدين الله إلى مصر وبنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة ، وأذن فى جميع المساجد الجامعة وغيرها « حى على خير العمل » ، وأعلن بتفضيل على بن أبى طالب على غيره ، وجهر بالصلاة عليه ، وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

وأمر جوهر إمام الجامع العتيق — عمرو بن العاص — بالقسطاط أن يجهر بالبسملة فى الصلاة — وكانوا لا يفعلون ذلك — وزيد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية .

وأمر فى الموارث بالرد على ذوى الأرحام ، وألأ يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم .

ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة ، والأبوان والجدة . وكان قاضى مصر قبل دخول الفاطميين أبو طاهر محمد بن أحمد يحكم بأحكام أهل السنة ، فجاء جوهر فأقره فى القضاء ، وظل كذلك فى عهد المعز ، وخاطب جوهر هذا القاضى بأن يعدل فى احكام الموارث بما يتفق ومذهب الشيعة فقال القاضى لأفعل .

وأخذ الفاطميون بالحساب الفلكى فى تحديد أوائل الشهور العربية وبخاصة شهر رمضان ، ولم يعتمدوا على رؤية الهلال . قال المقرئى :^(١) « وصار صوم رمضان والفطر على حساب لهم ، فأشار الشهود على القاضى أبى طاهر — المذكور — أن لا يطلب شهود الرؤية لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال . فانقطع طلب الهلال من مصر ، وصام القاضى

(١) الخطط ٣٤٠/١

وغيره مع القائد جوهر كما يصوم ، وأفطروا كما يفطر » .

وفي سنة ٣٧٢ هـ أمر العزيز بالله بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية وكان الحنابلة وبعض شيوخ المسلمين لا يجهرون في الصلاة بالبسملة ، وخالفهم الشافعية ،^(١) وكذلك الشيعة .

وبعد أن بدأ الفاطميون بالتشدد في تطبيق عقائدهم في الصلاة والصوم وبعض الأحكام الشرعية ، رأوا معارضة من المصريين وبعض الرعية في غير مصر من البلاد وبخاصة في دمشق والقيروان ، فاضطروا إلى التخفيف من ذلك التشدد والعدول عن الأمر بالسلطان إلى الاقتناع بالدعوة .

ففى عهد الحاكم بأمر الله بدأ التخفف من بعض الأحكام التى أصدرها المعز والعزيز بخصوص الأذان والصوم بدون الرؤية ، وأذن للناس بأن يؤذّنوا الأذان الشرعى ، وأن يصوموا لرؤية الهلال ، وأذن للناس في صلاة التراويح بعد العشاء في رمضان :

ونادى الحاكم « بأن لكل مجتهد في دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ومعاده ، عنده كتابه ، وعليه حسابه » .

وأرجع بعض المؤرخين التصرفات الغريبة والشاذة للحاكم إلى عقائد خاصة بالفاطمية كقولهم — كما ذكر المقرئى — بأن منع الحاكم للناس من أكل الملوخية لأنها كانت محبة عند معاوية — كذلك منعه الناس من أكل النقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة رضى الله عنها ، ومنعهم من المتوكلية المنسوبة إلى المتوكل العباسى .

وكان الفاطميون قد أعلنوا سب أبى بكر وعمر على المقابر ، فتضايق الناس فاضطروا إلى التخفف من ذلك والعدول عنه في بعض الأحيان .

وكان للمذهب الفاطمى آثاره على الحياة العامة وعقائد الناس وعاداتهم ، فقد بالغوا في تقديس آل البيت ومزاراتهم ، ونقل الأفضل بن بدر الجمالى رأس الحسين رضى الله عنه — على حد قولهم — من عسقلان إلى القاهرة ودفنت هناك بالمشهد الحسينى إلى الآن ، وأذّنوا للناس بالزيارة والتبرك به وصارت عادة لدى المنصرين حتى الآن وكذلك الحال بالنسبة إلى

(١) وقعت الفتنة في بغداد سب الجهر بالسلمة بين الشافعية والحنابلة لعدم موافقة الحنابلة على الجهر بها . وقال الشافعية للحنابلة : إن أردتم أن لا نجهر بها فامحوها إذا من الصحف

مزارات أهل البيت كالسيدة زيب والسيدة نفيسة وغيرها .

وشاع في كتابات العصر اضفاء ألقاب دينية على الخلفاء ، ففضلاً عن تلقيه بأمر المؤمنين ؛ فقد كان يتبع اسمه بقولهم — عليه السلام — كما يفعل بعد أسماء الأنبياء ، لأن الأئمة عندهم من سلالة النبوة ، فلهم ما لهم من التقديس !!

على أن المذهب الإسماعيلي الفاطمي لم يكن السائد وحده في كل أنحاء الدولة الفاطمية ، بل لم يكن له الغلبة التامة على أهل مصر ، فقد ظلت المذاهب الأربعة على حالها من عقائد الناس يعملون بها في مصر وفي أفريقيا والشام والحجاز ، وإن غلب التشيع في بعض أنحاء صعيد مصر واليمن .

وقد ضعف المذهب الفاطمي نفسه شيئاً فشيئاً في ظل الحكم الفاطمي فلم يكن في آخر دولتهم على مثل قوته في بداية الدولة . وكانت هناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا الضعف . منها ملاقته الدعوة الفاطمية من مقاومة عنيدة من أهل السنة بتأييد من العباسيين في بغداد ، وتآلب الخارجين ممن عارضوا المذهب ودعوا إلى مذهب أهل السنة أمثال أبي ركة في المغرب ، وارتداد المعز بن باديس وأهل دولته عن المذهب الفاطمي في أفريقيا ، وعودتهم إلى أهل السنة ، وانقسام الفاطميين الإسماعيلية على أنفسهم بعد تعيين المستعلي بن المستنصر دون أخيه نزار إلى فرقتين متعارضتين .

أدى هذا كله إلى ضعف المذهب في مصر وما يليها وتحول بعض الوزراء عن الشيعة الفاطمية إلى الإمامية .

فقد ذكر المقرئ أن أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ثار على الحافظ لدين الله وأعلن مذهب الإمامية والدعوة للإمام المنتظر ، ورتب أربعة قضاة اثنين من الشيعة ، واثنين من أهل السنة ، والاثنين من الشيعة أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي ، والاثنين من أهل السنة واحد منهما مالكي والآخر شافعي لغلبة هذين المذاهبين على أهل مصر والمغرب ، فحكم كل منهم بمذهبه وورث على مقتضاه وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأبطل من الأذان حتى على خير العمل وكذلك قولهم : محمد وعلى خير البشر .

فلما قتل أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر على ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية ولكن بعد تولى الصالح بن رزيك الوزارة كان على مذهب الإمامية ، وصرح بهذا بعد توليه .

ويبدو أن هذا الاضطراب الديني بين مذاهب المسلمين ، وظهور بعض صور التحرر والضعف في العقيدة أدى إلى تجاوزات كثيرة في أمور الشرع وحدود الدين . حتى إن بعض الأمراء ، وولاة الأمر في بعض البلاد كانوا يستهينون بمحدود الشرع ، كما يروى عن أحدهم واسمه قرواش العقيلي من أمراء عرب الجزيرة الفراتية بالشام والعراق . ذكر ابن الأثير في حواش سنة ٤٤٤ هـ « أنه كان من رجال العرب من بنى عقيل من ذوى العقل ، وله حسب وله شعر حسن قيل إنه جمع بين اختين في نكاحه ، فقيل له : إن الشريعة تحرم هذا . فقال : وأى شيء عندنا تجيزه الشريعة ١٩ » .

وظهر من آثار التحلل الديني من ادعى بعودة الحاكم ، أو الوهبة .

موقف الفاطميين من أهل الذمة : اليهود والنصارى

كان موقف الفاطميين من أهل الذمة والكتائب من يهود ونصارى عامة مؤقفاً متساعماً وتعل ذلك لأسباب عقدية ، وإدارية ، فأما الأسباب العقدية ، فإن الإسماعيلية لم يتشددوا في مواقفهم من الأديان الأخرى تشدد أهل السنة والحنابلة خاصة . وأما الأسباب الإدارية فذكر اليهود والنصارى عرفوا بمهارتهم في الإدارة وشئون المال ، ولذلك اعتمد عليهم كثير من الدولة والخلفاء حتى من غير الفاطميين . وكان لأقباط مصر دراية تامة بشئون مصر الإدارية والالية ، لذلك كانت الدواوين لا تخلو منهم ، واعتمد عليهم ولاة المسلمين منذ الفتح ، فلما جاء الفاطميون زادوا من اعتمادهم على الأقباط ، والنصارى عامة واتخذوا منهم زوجات على مينا ، كما اتخذوا وزراء وكتاباً ، وخلصاء لهم ، بعضهم عدل عن دينه وأسلم ، وبعض بقي على عقيدته .

وكان إكثار الخلفاء الفاطميين من اتخاذ اليهود والنصارى أعواناً لهم ظاهرة ملفتة في التاريخ الإسلامى ، ومنذ كان الفاطميون بأفريقيا وقبل دخولهم مصر اتخذوا اليهود والنصارى فقد كن من أطباء المعز وخلصائه يعقوب بن كلس الذى وفد عليه من المغرب هارباً من مصر وجاء إلى مصر أطلق يده في إدارة شئون الدولة .

وتعلم العزيز في مدارس النصارى وتزوج واحدة منهم ولدت مست الملك والحاكم وعين العزيز اخوة زوجته النصرانية في مناصب دينية أحدهما بطريركا للقدس والآخر بطريركا في مصر ، وهما ارسانيوس واريسطيس ، وقاما بدور هام في التقريب بين العزيز وملك بيزنطة .

كذلك عين العزيز عيسى بن تسطورس وأطلق يده في شئون الدولة ، وعين منشأ اليهودى مسئولاً عن شئون الشام في عهده .

وقد ضجّ الناس من تصرف الوزيرين لتعصبهما وعسفهما فاضطر إلى عزلهما . وكذلك فعل الحاكم ابنه ، لكن الرأى العام جعله يعدل عن سياسة التسامح تلك ، وفرض بعض القيود على اليهود والنصارى ، بل واتخاذ بعض الإجراءات العنيفة كتحويل بعض الكنائس إلى مساجد ، والزام النصارى باتخاذ زى خاص بهم ، وهو اتخاذ الزنار الذى كان معمولاً به في سائر البلاد الإسلامية يربطون به أوساطهم ، وأن يتقلدوا في أعناقهم بصلبان خشبية تتدلى على صدورهم ، ويضعوا فوق رؤوسهم عمام سوداء .

وأما اليهود فقد ألزموا بلبس العمامة الصفراء في عهد الحاكم

الباب الثالث
الحياة العقلية والفنية

احتل الفاطميون مصر وبسطوا نفوذهم على معظم شمال أفريقيا والشام واليمن والحجاز وبعض أرض الجزيرة بالعراق . ونافسوا العباسيين والبهمنين سياسياً ، وحاولوا منافستهم ثقافياً وأديباً .

ويرى بعض الباحثين أن الاحتلال الفاطمي لمصر أدى إلى عزلتها ومولايها من البلاد عن بقية البلاد الإسلامية ثقافياً .

فهل كان الأمر كذلك حقاً ؟ ...

إن واقع الحياة ، وأخبار التاريخ والعلم والأدب والفن في هذه المرحلة تنكر هذا الزعم ، وتثبت عكسه . فإن العالم العربي والإسلامي ظل متصل الروابط الفكرية والثقافية من مشرقه إلى مغربه ، ولم يحل الخلاف المذهبي والسياسي دون وحدة الفكر والثقافة في العالم العربي والإسلامي .

يقول أحمد أمين :^(١)

« .. ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام . والحق أنها أتت بحركة علمية نشيطة ، وقدمت العلم والأدب والفن في مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئاً بجانبها ما كان في العهد الطولوني والإخشيدى ويصح أن تقارن وتساوى بما كان في العراق ، وخاصة في مجال العلوم العقلية والفلسفية ، فإنها نبغت فيها . ويرجع ذلك إلى أمور :

أولها — أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر والعراق ، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ، وتأتى بشعائر ظاهرة المخالفة لشعائر السننيين كذلك . كالأذان « بحى على خير العمل » والاحتفال بعاشوراء وعيد الغدير . فإتبان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد والتفنيد من جهة ، فهب علماء مصر يفتنون هذه الآراء » .

ويقول محمد كامل حسين^(٢) : « فالحياة العلمية كانت مزدهرة في مصر الفاطمية ، وعن

(١) ظهر الإسلام ١٨٨/١

(٢) في أدب مصر الفاطمية ص ١٤٩

مصر أخذ كثير من العلماء في الغرب والشرق ، فلا غرو أن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية»

وكان من أسباب ازدهار العلم والأدب والفن تشجيع الخلفاء لرجالها ، وإغداقهم العطايا والمال الكثير ، والسعى لاجتلاب الكتب من كل مكان وبذل المال في سبيل ذلك . ونقل عن المعز لدين الله الفاطمي أنه قال : « والله ما تلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة »^(١)

وكان لوفود علماء الشيعة من المشرق إلى مصر أثره كذلك إلى ما أدت إليه رحلات الحج من المغرب ، وحرص الفاطميين على تشجيع الحجاج على الوفود إلى مصر وتأمين طريقهم ، وكان بينهم كثيرون من العلماء واللغويين والأدباء الذين استقر بهم المقام في بعض بلاد مصر في الشمال أو الصعيد في رحلة العودة من الحج .

ومن مظاهر الاهتمام بالعلم ، والعلم العقلي والطبيعي خاصة بناء « دار الحكمة » أو « دار العلم » . وكان الهدف الأول من بنائها نشر المذهب الشيعي ، إلا أنها لم تقتصر على الدعوة ، بل درست فيها العلوم الإسلامية والعربية وبعض علوم الأوائل .

وكانت دار الحكمة بناء فاخرا زود بمكتبة عظيمة نقلت إليها بعض كتب مكتبة القصر ، وسمح بالاطلاع فيها لكل راغب . وكان بها مدرسون تدفع من مال الحاكم بأمر الله الخاص ، ومن مال من بعده من الخلفاء .

قال المقرئ^(٢) : « دار العلم اتخذها الحاكم بأمر الله ، فاستمرت إلى أن أبطلها الأفضل ابن أمير الجيوش . قال المسيحي : « وفي يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمس ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون ، وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وحجراتها الستور ، وأقيم قوائم وتُخلدَام وفراشون وغيرهم وسُمُوا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر الآداب والعلم بالخطوط المنسوبة ... وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم من يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن الماثورة التي لم يسمع بمثلها من اجراء

(١) المجالس والمساربات للقاضي النعمان ٦١/١ -

(٢) الخطط ٤٥٨/١

الرزق السنّي، لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر .

وقد أغلقت دار الحكمة أيام الأفضّل خشية الفتنة الدينية ثم أعاد الأمر فتحها^(١) .

الجامع الأزهر

ومن آثارهم العلمية الخالدة الجامع الأزهر الذى بناه جوهر الصقلى القائد بتوجيه من المعز لدين الله الفاطمى ليكون مقراً للعلم الفاطمى وتربية الدعاة وتلقينهم أصول دعوتهم . وليقوم فى هذا المجال بما يقوم به الجامع أو المسجد فى الحضارة الاسلامية من كونه مدرسة ، ومكاناً لجلوس الفقهاء بين تلاميذهم .

وتطور دور الأزهر فأصبح جامعة اسلامية كبرى خرجت فى هذه العصور والعصور التالية كثيراً من علماء المسلمين فى مختلف فروع العلم والمعرفة الاسلامية .

ومن آثارهم العلمية المكتبة الكبرى بالقصر

وقد طبقت شهرتها الآفاق مما جمعت من نادر الكتب فى كل فن وعلم ، ومن النسخ الثمينة التى يعز الحصول عليها . وكان الفاطميون يحرصون على اقتنائها ويدفعون فيها من المال كل غال ولا يخلون بشيء منه على تحصيل ماعزّ وعلا قدره من الكتب .

وكانت هذه المكتبة تحتل أربعين حجرة من القصر الكبير الشرقى . ويذكر أن عدد مقتنياتها من الكتب بلغ ستائة ألف ومليون مجلد . وقيل إنه بلغ مليونين تمثل مائة ألف عنوان من الكتب النادرة فى مختلف فروع العلم واللغة والأدب والديانات ، وما وصلت إليه المعرفة فى عصرهم .

وكانت الكتب كلها محفوظة فى صوامين مغلقة عليها قوائم بمحتوياتها ، ويقوم على أمانتها أمين يعمل معه مساعدون ، وناسخون ، وخدم وفراشون رتبتم لهم رواتب ، وعين لها ميزانية خاصة لصيانتها ، وإصلاح ما يصيبه التلف من أثاثها وفرشها واقتناء ما يلزم من الأقلام والأحبار للناسخين .

وبما يذكر من مقتنياتها احتواؤها على ألفين وأربعمائة نسخة من القرآن . الكريم مزخرفة وملونة . ومنها ما هو مكتوب بقلم ابن مقلة صاحب الخط الشهير فى تاريخ الخط

(١) راجع فى ذلك المقرئ فى المخطوط ٤٥٩/١

الإسلامي ، وبأقلام غيره من مشاهير الخطاطين .

كذلك وجد بالمكتبة ثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد القراهيدي منها نسخة بخط يده . وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ، منها واحدة بخط يده كذلك .

واشتملت على مائة نسخة من كتاب جمهرة اللغة لابن دريد . واعتاد بعض الخلفاء أن يرتادوا مكتبة القصر للجلوس بها بعض الوقت والقراءة أو الوقوف على بعض نسخ القرآن الكريم ، والاطلاع على كل نادر تحتويه وقد يمر الخليفة على أقسامها متفقدًا ، وقبل مغادرتها يمنح أمينها منحة سخية قد تبلغ عشرين دينارًا وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت .

وعلى قدر حرص الخلفاء على تلك المكتبة والعناية بها إلا أنها مع ذلك لم تسلم من العبث والنهب في أوقات الفوضى ، وضعف الخلفاء .

فقد يهجم عليها بعض الجند فيستولون على ماتطوله أيديهم من نفائسها فيبيعونه بالأسواق بأبخس الأثمان لجهلهم وعدم معرفتهم بما لها من قيمة . وبلغ بهم الاستهتار بالكتب والعبث أن جعلوا من جلودها خفافا لنعالهم .

لقد بدا العصر الفاطمي بين عصور الفكر الإسلامي ظاهرةً بينة بمعالمها البارزة . وساعدت عوامل أشرنا إليها على هذا التغير في ملامح الفكر الإسلامي السائدة من مشرق العالم الإسلامي إلى مغربه .

ولما كان علماء الاجتماع والحضارة يؤكدون على أن هناك ثلاثة عوامل فعالة تؤثر تأثير مباشرًا على السلوك الإنساني والتفكير الإنساني جميعًا هي الخوف والجنس والجوع فإذا الإنسان العربي المسلم في هذه المنطقة قد خضع لهذه العوامل بعنف .

فأما الخوف ، فلأن المنطقة اجتاحتها مجموعة من الأحداث والصراعات أودت بالآلاف وكانت الهجمة الصليبية في القرن الخامس والمذبحة التي وقعت للمسلمين في بيت المقدس أثرها المدمر في نفوس المسلمين من الخوف على الإسلام والمسلمين ، كذلك الكوارث والنكبات المتعاقبة من الطواعين ، وشح الأقوات ، مما جعل خيال الموت يخيم على الناس في كل مكان ألبسهم لباس الخوف والجوع .

وأما الجنس فإن الإسراف فيه واتخاذ السند الديني مبررًا لاقتناء الجوارى والتزبد في ذلك وتعدى هذا إلى اقتناء الغلمان أدى إلى كثرة هذه العناصر التي تتخذ للمتعة الجنسية في

بيوت الناس ، وشاع الجنس في البيت الإسلامى حتى أصبح جزءاً هاماً من حياة الناس . بدت ظواهره واضحة في الأدب ، وأدى هذا كله الى أن بعض العادات والأخلاق المتصلة به وظلت من القيم الثابتة في المجتمع الإسلامى اخذت في التحلل شيئاً فشيئاً على مارأينا في مجتمع الفاطميين وغيرهم ممن عاصروهم .

ولما كانت التغيرات في السلوك الإنسانى مقدمة للسلوك الحضارى والثقافى لم يكن غريباً إزاء مانراه من تلك التغيرات الفكرية والدينية والفنية في حياة هذه الحقبة .

الدعوة الفاطمية والتحول الفكرى

أثرت الدعوة الفاطمية تأثيراً بالغاً في التحول الفكرى الإسلامى طوال القرون الثلاثة التى حكمت فيها الدولة الفاطمية من القرن الرابع وحتى أخريات القرن السادس . ولم يقتصر التأثير على مابنه الدعاة من تعاليم ، وأثاروه من قضايا فكرية في التراث الإسلامى والمعتقدات والتطبيقات الشرعية التى كانت سائدة في العالم الإسلامى في ظل الفكر السنى بمذاهبه الأربعة بل بما أحدثوه كذلك من ردود فعل متعددة تجاوبت أصدائها في العالم الإسلامى ، وظهرت على صور مختلفة من التفكير المتحرر بعض الشيء من العقائد المتوارثة ، والتى تعد من القيم الثابتة التى لا تحتل النقاش ولا الجدل ، فوجد في هذا القرن من الجرأة على اقتحام تلك المقدسات ومناقشتها في جو من حرية الرأى مما دعا بعض العلماء المتزمطين إلى أن رموا بالإلحاد والخروج على الدين كل من تجرأ على مس تلك المقدسات أو نظر فيها بفكر حر .

وسنعرض لبعض هذا في حديثنا عن أبى العلاء المعرى وعصره ، وكيف أن أدبه وفكره كان صدى ، ومرآة انعكست عليها أفكار العصر ، بل إن فلسفته في شعره ونثره كان نتيجة تفاعله مع قضايا عصره المثارة آنذاك في جوانب الدين والحياة .

وكان خلفاء الفاطميين حريصين كل الحرص على التزود بالعلم ، وبث أفكارهم حول الدعوة لدعاتهم من أمثال القاضى النعمان وداعى الدعاة وغيرهما من كبار رجال الدعوة ومفكرها . وكانت المجالس التى يعقدها الخلفاء ودعاتهم في القصور أو في غيره مجالاً لعرض أفكارهم وحث الناس على اتباعها بالإقتناع .

وكانت هناك مجالس للرجال وأخرى للنساء في بعض أيام الأسبوع ، يجلس فيها الداعية ليعلم الناس ماتلقاه عن الخليفة أو الإمام من آراء ، وكانت هناك علاقة غريبة بين الإمام

والداعية ، إذ الداعية هو لسان الامام المترجم عن أفكاره .

وكان الداعية أو داعى الدعاة يجلس إلى من يدعوهم من الناس في هذا المجلس الخاص بالقصر . وكان الذين يجلسون إليه ينقسمون أقساماً ، فمنهم المؤمنون ، والخاصة وعامة الناس والنساء .

وكان الداعى يحضّر مايلقيه على المؤمنين وعلى كل فئة ، كلّ بما يناسبها من القول وينقل المؤمنون عظة الداعى وما كتب في أوراقه وألقاه إليهم بعد أن يكون عرضه على الخليفة أو الإمام .

وبعد انتهاء الموعظة أو الجلسة ينحصر من المؤمنين قدرًا من المال يدفع كلّ عن قدر جاهه وطاقته . ويجمع من هذا قدر وفير من المال يذهب إلى الخليفة للصرف منه على شؤون الدعوة .

وينقل المقرئ صورة لما كان يطرح في تلك المجالس من قضايا العقيدة والدين . فكان داعى الدعاة يبدأ بقوله :

« إن هذا العلم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ماجاء بالتملى ، ولا بأمانى الرجال ، ولا شهوات الناس ، ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهاء العامة ولكنه صعب مستصعب ، وأمر مستقبل ، وعلم خفى غامض ستره الله في حجبه وعظم شأنه عن ابتذال أسرارهِ ، فهو سر الله المكتوم ، وأمره المستور الذى لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملكٌ مقرب ، أو نبي مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للثقوى ، فإذا ارتبط المدعو إلى الداعى ، وأُنسَ له نقله إلى غير ذلك .

فمن مسائلهم : ما معنى رمى الجمار ؟ والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الخائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ وما بال الجُنُب يغتسل من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القدر ؟ وما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها في ساعة ؟ واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب في القرآن مثلاً والكاتبين الحافظين ، ومالنا لانراهما ؟ أخاف أن نكابرهُ ونجاجةً حتى أولى علينا العيون وأقام علينا الشهود ؟ وقيد ذلك في القرطاس بالكتابة ؟ .

وما تبديل الأرض غير الأرض ؟ وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب .

وما معنى « يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ؟ . وما إبليس ؟ وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم وما مقدار قدرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم ؟

وما سبعة أبواب النار ؟ وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم النابتة في الجحيم ؟ وما دابة الأرض ، ورعوس الشياطين والشجرة المعلونة في القرآن ؟ والتين والزيتون ، وما الخنثى الكُنْثى ؟

وما معنى الم ، والمص ، وما معنى كهيعص ، وحاميم ولم جعلت السماوات سبعاً ، والأرضون سبعاً ، والثاني من القرآن سبع آيات ؟ ولم فجرت الأرض اثنتى عشرة عينا ؟ ولم جعلت الشهور اثنى عشرة شهراً ؟

ويسألون المریدین : وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ، ومعاني الفرائض اللازمة ؟ فكروا أولاً في أنفسكم ، أين أرواحكم ، وكيف صورها ؟ وأين مستقرها وما أول أمرها والإنسان ما هو ؟ وما حقيقته ؟ ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل ما بين البهائم وحياة الحشرات ؟ وما الذى بانث به حياة الحشرات من حياة النبات .

وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلقت حواء من ضلع آدم . وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان عالم صغير ، والعالم إنسان كبير ؟ .

ولم كانت قامة الإنسان منتصبه دون غيره من الحيوانات ، ولم كان في يديه من الأصابع عشر ، وفي رجله عشر أصابع ، وفي كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق إلا الإبهام فإن فيه شقين فقط ...

.. وهكذا ...

هذا لون من الأسئلة المطروحة والتي تتضمن بعض قضايا العقيدة كثر حوله الجدل بين العلماء ، وبين المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة ورجال الدين وعلماء القرآن ، والإعجاز وعلماء الملل والنحل . وما طرح على بساط البحث بين علماء المسلمين وبعض الملاحدة من المعترضين والشاكين كاهن الراوندى ، وابن النفيلة اليهودى وغيره .

وهذا التساؤل الذى اختلف حوله الناس والأئمة ، وعدّ بعضه من التشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ، ويرى الشيعة أن تأويله لا يعلمه إلا الله ومن أولاه من لدنه علماً . ويقولون : « إنا الأئمة فمن ذا يدعوا للاعتصام واتمسك بشريعة جدنا محمد نورهنا »

فإننا قلنا : إن الله عز وجل أورثنا شرفه ومجده وفخره ، وأقامنا أئمة للأمة بعده . وأوجب لنا على الناس من الطاعة بعده مثل الذى يجب له . لقد صدقنا بقول الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، فنحن والله أولو الأمر الذين يعبد الله الخلق بطاعتنا .

وما دام العلم من عند الإمام بتأويل تلك الأحاديث والآيات المتشابهات ، والقضايا التى لا يدرك حكمها العلماء ، وإنما يعلمها الأئمة ، ويفضون بعلمها إلى من يختارون من الدعاة ، فإن تأويلها ينتقل إلى الداعى — يقول الداعى مخاطبا سامعيه :^(١)

ألا تتفكرون فى حالكم ، وتعتبرون وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق ، فكيف يسعكم الإعراض عن هذه الأمور وأنتم تسمعون قول الله عز وجل : (وفى الأرض آيات للموقنين) و (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) و (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون) و (سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

وأى حق عرفه من حجد الديانة ؟ ألا يدللكم هذا على أن الله — جل اسمه — أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية وأسرار فيها مكتومة لوتبينها لها وعرفتموها لزالتم عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم ، التى من جهلها كان حرياً ألا يعلم غيرها . أليس الله تعالى يقول : (ومن كان فى هذه الدنيا أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)

ومحو ذلك من تأويل القرآن ، وتفسير السنن والأحكام ، وإيراد أبواب من التجويز والتعليل .

فإذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب قال حيثذ : لا تهجل . فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبدل لغير أهله .. ، يعنى من الأئمة والدعاة أولى العلم .

وهكذا يستدرجه حتى يدخل فى عهده ويؤمن له .

ويقول الدكتور مصطفى غالب فى مقدمة المجالس المستنصرية :^(٢)

(١) حطط القرطبي ١/٣٩٣ -

(٢) محاسن عباده (سانه لأور) جعيت وتقديم الدكتور مصطفى غالب طبع دار الأندلس بيروت

يتبين للباحث في تاريخ الدعوة الفاطمية ، ومبلغ تأثيرها على المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة أن هذه الدعوة العقلانية الفكرية التي اعتمد عليها الأئمة الفاطميون كانت ترتكز على نظام دقيق صعب مستصعب .

ليس أجل في النظام الفاطمي مرتبة وأسمى من مرتبة الداعي الذي أخذ على عاتقه نشر الأفكار الفاطمية وتعميمها في كافة البلدان والأمصار .

ولقد اعتبر الفاطميون من حيث الأصول والأحكام الدعاة من حدود الدين المفروضة طاعتهم على المؤمنين ، كطاعة الإمام الذي يعتبر المحور الأساسي الذي تدور عليه كل العقائد . وعملاً بقوله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ويذكر الدكتور مصطفى غالب أنهم جعلوا شروط الدعوة مبنية على ثلاثة أمور رئيسية هي : العلم ، التقوى ، السياسة .

ويرون أن العلم على قسمين : علم الظاهر ، وعلم الباطن .

فقالوا إن الظاهر ينقسم إلى خمسة أقسام :

- (١) الفقه والأحكام الذي به صلاح الناس ، ومنفعة الدين والدنيا ، وهو عماد الدين والشرعية .
- (٢) علم الحديث والأخبار والروايات والأسانيد عن النبي والأئمة ، وبه بقاء الدين والشرعية .
- (٣) علم القرآن والتأويل والتفسير ، ومعرفة المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهي .
- (٤) علم الوعظ والتذكير والقصص .
- (٥) علم الجدل والكلام الذي به يكون الجهاد في سبيل الله .

وأما علم الباطن فيتفرع إلى أنواع كثيرة :

منها العلم المحسوس ، وهو معرفة الحدود السفلية ، ومعرفة الأعمال الشرعية وتأويلها والحكمة فيها ، ومعرفة جميع ما يتعلق بعمل مرئى أو شخص مدرك .
والثاني هو العلم الموهوم الفكرى . وهو معرفة الحدود العلوية والأعداد ومعرفة الأمثال التي أعيانها ليست بمرئية ولا محسوسة ، وإنما يُدرك ذلك بالوهم والفكر .

والثالث العلم المعقول ، وهو معرفة حقائق الأشياء ومعرفة عللها وابتدائها وانتهائها .
وهذه الشروط الثلاث التي أولها كالرضاع للصبي الذي هو المستجيب كالعلم المحسوس
في تعليمه . والثاني التربية العقلانية والإفادة بالعلم والحكمة . والثالث معرفة الآفاق
والأنفس ، والمبدأ والمعاد ، والتوحيد والتجريد والتنزيه .

ولا نريد أن نطيل الحديث في أسرار العقيدة الفاطمية ، وقولهم بالمثل والتمثل ، ومصادر
هذه العقيدة ، واتجاهاتها ، إنما يكفي أن نلم بأطرافها ، ونتعرف على مظاهرها البارزة التي
تشير إلى مدى التغير الذي طرأ في ميدان الفكر الإسلامي على مدى تلك القرون ، مما
كان له أثره الواضح والفعال في كثير مما تجلّى آنذاك من الظواهر الفكرية والأدبية والفنية .
ونعرض الآن لأهم دعائهم ، وملاحم من فكرهم ونتائجهم العلمي .

ونبدأ الحديث بالدعاية الأكبر الذي لزم كثيرا من أئمتهم في مطلع دولتهم ونعني به
القاضي النعمان بن محمد .

وكان من أهل العلم والفضل . التقى بالمهدي والقائم والمنصور ، واختص بالمعز لدين الله
الفاطمي فكان أثراً عنده ، خاصاً به ، ولازمه حتى جاء المعز إلى مصر فولاه القضاء إلى
جانب قاضيه آنذاك أبي طاهر . وظل قائماً بأصول الدعوة حتى توفي أبو طاهر فاستقل
بالقضاء إلى جانب الدعوة وكان قد بلغ من العمر مبلغاً ، فتاب عنه ابنه .

وعرف النعمان بسعة العلم واطلاعه على العلوم الإسلامية ، وإلمامه بأصول الفقه على
المذاهب الأربعة وعلوم القرآن واللغة ، كما ألم بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة قال صاحب
« عيون الأخبار »^(١) :

« وله تأليفات كثيرة ، وعلوم ماثورة . وقد أقر المخالفون بفضله ، واتساع علمه ، وإنما
ألف ما ألف وجمع ما جمع وصنف ما صنف مما أخذه عن أئمته الذين عاصروهم مما ألقاه
إليهم آباؤهم الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين . ولم يؤلف تأليفاً ولا جمع كتاباً حتى
عرضه عليهم شيئاً فشيئاً ، فأثبتوا الثابت منه والصحيح ، وقوموا الأود بالتصحيح . ومن
بحرهم اغترف وهم عرف ما عرف ، وبفضلهم فيما ألف وصنف اعترف

(١) عيون الأخبار السبع السادس تأليف الداعي المطلق ادريس عماد الدين — طبع دار الأندلس بيروت بتحقيق الدكتور
مصطفى غالب ص ٤١

فمن تأليفه في الفقه كتاب الإيضاح ، أى إيضاح مااجتمعت عليه الرواة في الفقه والثابت منها بالأسايد الصحيحة ، والروايات المتفقة ، وهو مائتان وعشرون جزءاً ، كما ذكر في قصيدته المنتخبة بقوله :

فكَلَمْتُ في مائتي كتاب أَلَفْتُ منها مائتي كتاب تزيد عشرين على الجِسَاب

وكتاب مختصر الإيضاح في الثابت منه فيما رواه عن الأئمة الطاهرين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وكان ابتداءه تأليف كتاب الإيضاح على عهد أمير المؤمنين المهدي بالله (عليه السلام) بأمره وعلى ما أراه ، وأصله ، وبينه وفصله . وكتاب الأخبار في الفقه ثلاثة عشر جزءاً . وله كتاب في البيوع في الفقه أيضاً ، وكتاب الاختصار في الفقه . وكتاب الإتفاق والافتراق فيما اختلف فيه الفقهاء ووافق قول أهل البيت عليهم السلام ، أربعون جزءاً . وكتاب المختصر اختصر فيه كتاب الاتفاق والافتراق .

وألف كتاب دعائم الإسلام^(١) في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن المعز لدين الله أمير المؤمنين عن آل البيت . وذلك أنه حضر النعمان وجماعة من الدعاة عند أمير المؤمنين المعز لدين الله (عليه السلام) فذكروا الأقاويل التي اخترعت والمذاهب والآراء التي افرقت بها فرق الإسلام ، وما اجتمعت ، وما اذعت أكثرها وابتدعت ، فذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبت روايته آباؤه الطاهرون إذ قال صلى الله عليه وسلم : « لتسلكن سُبُل الأُم قبلكم حذو النعل بالنعل ، والقُدَّة بالقُدَّة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

وفي حديث آخر : « لتركبن سنن من كان قبلكم ذراعاً بذراع ، وباعاً ببيع حتى لو سلکوا خَشِيراً دُبر لسلكتموه » ثم ذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه ، وإلا فعليه لعنة الله .

ونظر المعز (عليه السلام) إلى القاضي النعمان بن محمد رضى الله عنه فقال له : أنت المعنى بذلك في هذا الأوان يانعمان . ثم أمر بتأليف كتاب الدعائم ، وأصل له أصوله وفرع له فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ماختلف فيه الرواة وابتدعته ولَفَّقته من الاختراعات وجمعت . وقال له : إنا قد

(١) دعائم الإسلام للقاضي النعمان حقه آصف فيضى في جزئين - نشر دار المعارف بمصر

رُوي لنا عن الصادق عليه السلام أنه قال : بُنى الإسلام على سبع دعائم : الولاية ، وهي أفضلها وبها وبالولّى يوصل إلى معرفتها ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، وصوم شهر رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام ، والجهاد . وأمره فابتدأ بذكر ولاية أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وتبيين ماخصه به النبي صلى الله عليه وسلم من فضله ، وإنه أولى الأمة بخلافته بعد ذكر الإيمان الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ولا يزكوه إلا من كان من أهله .

وذكر ولاية الأئمة من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم وعليهم ، وإنجاب الصلاة عليهم والبيان بالتوقيف على الأئمة من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم . والإمامة لا تكون إلا بالنصّ والتوقيف ومنازل الأئمة عند الله — عز وجل — وبرأؤهم محمد من غلافهم ، وشيئاً من وصاياهم لشيعتهم وأوليائهم وذكر ما أوجبه الله تعالى من مودتهم ، والحض على العلم ، ومن الذين أوجب الله الأخذ عنهم . ثم ذكر فرائض الإسلام من طهارة وصلاة وزكاة وصوم ، وحج وجهاد ، ومايلي ذلك من ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، والأثوبة والبيوعات ، والمأكولات ، والمشروبات ، والطلاق والمناكحات والموارث والشهادات وسائر أبواب الفقه الواجبات .

فأتم القاضي النعمان تأليف هذا الكتاب الموسوم بدعائم الإسلام على ماوصفه له أمير المؤمنين المعز لدين الله ، وأصله . وكان يعرضه عليه فصلاً فصلاً وباباً باباً .

وله كتاب الاتفاق والافتراق فيما اختلف فيه الفقهاء ، ووافق قول أهل البيت ، وهو أربعون جزءاً .

وكتاب أخبار الدولة الفاطمية ، ومناقب بنى هاشم ، ومثالب بنى أمية ومعالم الهدى ، وحدود المعرفة ، وتفسير القرآن الكريم ، والتنبيه على التأويل سبعون جزءاً ، وكتاب « أساس التأويل » ، فيه تأويل الولاية ، وقصص الأنبياء ، وكتاب الصلاة ، وكتب كثيرة أخرى ذكرها صاحب عيون الأخبار^(١) .

والقاضي النعمان من أشهر علماء الفاطميين ، والمؤسس النظري لفقهم فيما ألف من الكتب ، وما قدم في مجالسه من آراء اعتمد عليها الدعاة الذين جاءوا من بعده وعلماء المذهب الذين أرسوا قواعد الفقه الفاطمي الإسماعيلي .

(١) عيون الأخبار ص ٤٣ وما بعدها

يقول الدكتور محمد كامل حسين^(١) : « لا أكاد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لهاتين الأسرتين أسرة عبد الحكم قبل العصر الطولوني ، وأثناءه ، وأسرة النعمان في العصر الفاطمي فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر .

وبعد القاضي النعمان مؤسس هذه الأسرة ، وأكثر رجالها تأليفا للكتب وتعد مؤلفاته من الأسس التي تبعها من جاء بعده من علماء المذهب » .

والقاضي النعمان هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن المنصور ابن حبون التميمي المغربي . وقد اختلف في تاريخ مولده بين عامي ٢٥٩ هـ والعشر الأخير من القرن الثالث .

وعاش مع والده بالقيروان حيث توفي والده بها عام ٣٥١ هـ ودفن هناك واتيح له الاتصال بالمهدي العبيدي مؤسس الدولة . ويبدو أنه كان مالكيًا شأن غيره من مسلمي أفريقيا ومصر ، ثم تحول إلى المذهب الفاطمي بعد اتصاله بالمهدي وأبنائه أي منذ سنة ٣١٣ هـ .

يقول الدكتور محمد كامل حسين : « دخل النعمان في خدمة المهدي واتصل به ، ولاندرى نوع الخدمة التي كان يؤديها ، ولا الصلة التي اتصل بها . ولكن بعد وفاة المهدي اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب ، أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئاً . ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول من ولي قضاءها . بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمي مقرباً إليه وظل قاضي قضاة هذه المدن ومن تحته قضائهما إلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به ، حتى إنه كان يجالسه ويسايره ، وقل يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عقب ولايته » .

وظلت العلاقة بين النعمان والمعز على ما رأينا حتى استقر المعز بمصر سنة ٣٦٢ هـ

(١) في أدب مصر الفاطمية ص ٦٣

فاصطحب معه النعمان وبنيه . وكان النعمان إذ ذاك قاضى الجيش ، ثم ولاه قضاء مصر كما أسلفنا مع القاضى أبى طاهر الذهلى الذى كان قد ولى القضاء فى عهد الإخشيد سنة ٣٤٨ هـ .

وظل كذلك حتى توفى سنة ٣٦٣ هـ .

وكان النعمان يسكن القسطنطينية ويغزو منها إلى القاهرة كل يوم .

ومن علماء الفاطميين يعقوب بن كلثوم الوزير وقد أشرنا إليه مع الوزراء ، ولأبأس من أن نعيد ذكره مع علماء الدعوة . فقد كان إلى جانب دوره فى إدارة شئون الدولة فى منصب الوزارة عالماً من أشهر علماء الدعوة الفاطمية — الذين كان لهم أثر قوى فى الدعوة والفكر فى عصرهم .

وكان يعقوب بن كلثوم يهودياً عراقياً ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم ، ورحل منها مع والده فى التجارة إلى الشام ، ثم جاء إلى مصر فى ولاية كافور الإخشيدى فاستطاع بدكائه وكياسته أن يتقرب من كافور ، وبلغ من نفسه مكانة رفيعة فكان كافور يثق به ويكل إليه مهام الأمور . وعرض عليه كافور الإسلام فترك اليهودية وأسلم ، ولزم التعبد ودراسة القرآن وكتب الدين والفقه . واجتهد فى الدرس والتحصيل حتى بلغ فىهما درجة عالية من العلم .

وحقق عليه الوزير أبو جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه لتعلق كافور به ، وسعى ابن كلثوم لبلوغ مكانة من كافور قد تضر بمكانة ابن حنزابه فنصب له الحياثل لإخراجه من البلاد وانتهاز فرصة وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، فطلب يعقوب بن كلثوم فوجده قد هرب إلى المغرب .

واتصل ابن كلثوم بالمعز لدين الله ، فقربه إليه ، وكان المعز قد اعتزم دخول مصر ، ولاشك أنه وجدها فرصة للتعرف على أحوالها من ابن كلثوم .

ولما تم للفاطميين فتح مصر ودخلها المعز سنة ٣٦٢ هـ صحبه يعقوب ، فولاه المعز خراج مصر وجميع وجوه الأموال والحسبة .

واستطاع بحسن تدبيره أن يكسب ثقة المعز ، وثبت أقدامه فى دولته فولاه المعز النظر فى جميع أموره فى قصره حتى توفى المعز فتولى لابنه العزيز من بعد ما كان تولاه لأبيه وزاد فجعله العزيز بالله وزيرا سنة ٣٦٧ هـ .

وكان بذلك أول وزير في مصر الفاطمية .

واستطاع ابن كلس إلى جانب توفيقه فيما تولى من المناصب حتى الوزارة أن يبرز ويجلّى في العلم الإسلامي ، وأصول الدعوة الفاطمية .

وكان يعقوب محباً للعلم والعلماء يقدّر عليهم المنح والعطايا ، ولا يخل بالمال على الكتب وقرب الشعراء ووجههم الهبات الجزلة .

روى ابن خلكان أنه كان يجمع العلماء في داره ، وكان بها قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطنها .

وكان ينصب كل يوم خزاناً لخاصته من أهل العلم والكتاب وخوادم أتباعه . فكان من خاصته الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنف كتاب الأسجاع والتميمي المقدسي الطبيب الذي صنف للوزير كتاباً ضخماً في عدة مجلدات سماه : « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » .

وبلغ ابن كلس من الفقه الفاطمي درجة مكنته من تأليف الكتب فيه وعقد مجالس التأويل . فقد رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل ، والعدل ، وغيرهم من وجوه الدولة .

قال المقرئى :^(١) « وكان يجلس عنده في كل يوم الأطباء لينظروا في حال الغلمان ومن يحتاج منهم إلى علاج .. ورتب في داره العلماء والأدباء يقفون بين يديه ، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأرباب الصنائع ، لكل طائفة مكان مفرد . وأجرى على كل واحد منهم من الأرزاق . وقد نصب مجلساً في داره يحضره كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل العلم والجدل والمناظرة بين يديه .

وألّف ابن كلّس عدة كتب في مختلف مجالات العلم ، وبخاصة ما اتصل منها بالدين والعقيدة منها : كتاب في القراءات ، وكتاب في الأديان ، وكتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب في علم الأبدان وصلاحها ، ألف في ألف ورقة .

(١) الخطط ٦/٢

ومنه يبدو اهتمامه بالطب ، ويدل على ذلك حرصه على أن يجمع إليه في مجلس جماعة منهم يناظرهم ويحدثهم في مجال هذا العلم .

وكتاب في الفقه مما سمعه من الإمام المعز لدين الله ، والإمام العزيز بالله

وكتاب مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية .

ولم يبق من هذه الكتب إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذي طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه . وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه .

وأسباب فقدان كتب ابن كلّس واضحة ، كذلك الأسباب التي فقدت بها كتب الفاطميين في مصر ، وهي كثيرة من نهب للمكتبات إلى ماجرى عليها من حريق في عهد الأيوبيين أتى على البقية الباقية منها .

لكن تسرب بعض تلك الكتب بين أيدي الناس هو الذي حفظ لنا بعض آثارها . وقد بلغ الوزير ابن كلّس في فقه الفاطمية مبلغاً جعل الظاهر يطلب إلى الناس حفظ مختصره الوزيري نسبة إلى منصب ابن كلّس وزيراً .

بل إن هذا الاهتمام بفقه الوزير كان سابقاً على عصر الظاهر إذ يتحدثنا المقرئ عن تقدير العزيز بالله نفسه لفقه ابن كلّس وما ألفه فيه إذ قال إن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقاً كل شهر تكفيهم .

وما ذلك إلا لتشجيعهم على تلقي أصول هذا العلم على يديه حتى يعلموه للناس ويحدثنا المقرئ أن الناس كانوا كلّفين بكتابه في الفقه . ودرّس فيه الفقهاء بجامع مصر أي بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وشجع على تلقي العلم بالجامع الأزهر وهو أول من جعل منه جامعة علمية^(١) .

وكان اهتمام ابن كلّس بالأدب والشعر مثل اهتمامه بالفقه وعلوم الدين وسنعرض ذلك في مكانه عند الحديث عن الشعر .

كذلك كان للطب والعلوم الطبيعية مكانة من نفسه .

(١) في أدب مصر الفاطمية ص ٧٩

داعى الدعوة شمس الدين الشيرازى :

ويعد داعى الدعوة المؤيد . والوزير المغربى أخطر رجلين فى السياسة وتدير الأحداث والانقلابات فى القرن الخامس عشر . وفى عصر المستنصر ، وكان الأول رجل دين ودولة داعياً خطيراً من دعاة الفاطميين . وأصله من شيراز فى بلاد فارس وكان الثانى من رجال السياسة، الدهاق، وأصله من العراق ووفد إلى مصر ووزر بها وستحدث عنه فى حينه . وقد اشترك الاثنان فى أحداث السباسيرى بالعراق والتي أدت إلى ضم العراق وعاصمة الدولة بغداد لسلطان الفاطميين فترة من الزمن، والدعوة للمستنصر الخليفة الفاطمى على منبر العباسيين .

كان هذا المؤيد إذا من رجال الدعوة الخطرين ، علماً وعملاً .

وهو هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود الشيرازى ، ولد بشيراز فى العشر الأخير من القرن الرابع الهجرى ، فى أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم بأمر الله ، فنشأ ابنه فى الدعوة ، واحتل مكان والده بعد وفاته ، وكاتب الحاكم ، وأقره على أن يكون حجة فارس ، واستطاع إن يجمع قلوب أتباع الدعوة هناك حوله ، وانضم بفضل نشاطه إلى الدعوة الفاطمية عدد كبير من الأتباع حتى خشي السلطان أبوكاليجار البويهى — وهو من الشيعة الإمامية — سطوته ونفوذه ، وهم أن يقصيه مراراً عن شيراز ، لولا خشيته من كثرة أتباعه .

واستطاع المؤيد بهدائه أن يجذب انتباه السلطان ، وأن يحمله على الاستماع إليه فى مجالس كان يعقدها للمناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ، فكان المؤيد يبرز عليهم ، وشجع ذلك السلطان على أن يقتنع بقوة حجته ، وأن يميل إلى رأيه وعقيدته . وصار المؤيد يجالس السلطان ليلقى عليه شيئاً من علوم أهل البيت والفقه الفاطمى من كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان .

وظل أمر المؤيد يقوى فى فارس حتى جهر بالدعوة الفاطمية ، وعلم بذلك الخليفة العباسى ، فأوفد إلى السلطان كاليجار للقبض على المؤيد ، وأحس المؤيد بالخطر من حوله فسارع بالفرار متخفياً إلى مصر ، ودخل القاهرة سنة ٤٣٧ هـ ، وكانت الخلافة قد آلت إلى المستنصر ، ولم يكن بيده الأمر بل كان لأمه وبعض كبار دولته ، يقول معرباً عن ذلك فى سيرته :

« بلغت بشق النفس الباب الطاهر ، مترجحا بين أمل وبأس ، ومتعقباً للمتقى ما يلقاني من طرفي إبحاش وإيناس ، فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدع مثلها غيري ، حداني حاديا ، وناداني بالأهل والمرحب مناديا . وأما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب ، ووجه نهار ترفع بالسحاب ، وأن المسافة لعلها تقذفني من الإضاءة في يم ، وتؤويني من حيث أرادت غما إلى غم ... أدخلوني من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة — عمرها الله تعالى — فاستلمت على جاري العادي في مثله الأبواب ، ولحت الثياب ترابا تحت أقدامي إذ ترشفت ذلك التراب . وأجلسوني هنية لأفيق من غشية الهيبة التي ملأت جوانحي ، لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبي وجوارحي . ثم أدخلوني إلى الوزير المعروف بالفلاحى — رحمه الله — فرأيت شيخاً عليه من الوقار مسحة ، ومن الإنسانية سمة ، فأدنى وقرب ، وأكرم ورَّحَّب وخرجت فأخذوني إلى دويرة كانت فرشت لى ، هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال لا بالإكثار ولا بالإقلال .. » .

ومضت الأيام بالمؤيد فى مصر ، ولم يسلك سبيله فى الحياة بها على ما يروم بل تقلبت الأحوال به ، الإحساس رجالات مصر من المقرين للخليفة بخطر الرجل ودهائه وطموحه لبلوغ مأرب لا يرضى منه بغير التقدم والرئاسة .

وانتهز فرصة اضطراب الأحوال فى بغداد ، وقيام السلاجقة الأتراك وكانوا من أهل السنة بمحاولات للقضاء على البويهيين والسيطرة على الخلافة فى بغداد فأعد العدة للجهاد ضدهم ، والعمل على كسر شوكتهم وأن يحول بينهم وبين ما يبتغون من السيطرة على بغداد ، التى كانت مطمع الفاطميين للسيطرة على العالم الإسلامى فى شرقه ومغربيه .

ونفض إلى بلاد العراق واتصل ببعض الأمراء ، وبعض أعوانه ومتبعي دعوته ، مستعينا بمن استطاع من ولاية الفاطميين على الشام والجزيرة حتى استمال البساسيرى إليه ومعه رجاله فربحوا بالعمل باسم الفاطميين ... وكان ما كان من هزيمة البساسيرى لطغرلبيك السلجوق والدعوة للفاطميين على منابر بغداد حيناً من الزمن .

وقال المؤرخون إن محاولة الفاطميين استمالة الأعوان للقضاء على الدولة العباسية فى بغداد اقتضت الفاطميين كثيرون من الأموال مما كان عبئاً على خزانة مصر ، وأدى بها إلى الإفلاس وإلى تلك الضائقة الاقتصادية التى عرفت فى عصر المستنصر بالشدة الكبرى .

وعاد المؤيد إلى مصر بعد فشل حركة البساسيرى فى بغداد ، وقضاء طغرلبيك عليها فى

حملته الثانية . وتولى بمصر هذه المرة . رتبة داعي الدعاة الا أنه لم يستقر في هذا المنصب طويلا بل عزل عنه وأعيد اليه وتولى الإنشاء إلى غير ذلك حتى انتهى عمره وتولى سنة ٤٧٠ هـ . ودفن بدار العلم بجوار القصر .

ولم تكن مكانة المؤيد العلمية بأقل من مكانته السياسية والدينية ، فقد كان من أكبر علماء مصر في الفقه القاطمي ، إلى جانب سعة علمه وثقافته في شتى العلوم ، مع تضلعه في علوم اللغة والأدب مما أكسبه أسلوباً جميلاً رصيناً خلافاً تدل عليه تلك القطعة التي أوردنا من سيرته .

وقد اتصل المؤيد ببعض كبار علماء عصره وأدبائه وكانت بينه وبينهم محاورات ، وحدثت بينه وبين أبي العلاء المعري محاورة اعترف فيها بفضل له حين وصفه بقوله : « وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين مازالت حجته باهرة ، ودولته عالية .. ، ولو انظر ارسططاليس لجاز أن يفحمه ، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه » .

ونقل ياقوت الحموي أن داعي الدعاة المؤيد لما سمع قول أبي العلاء :

غدوت مريض العقل والرأى فالقنى لتخبر أنباء العقول الصالح

فبعث إليه المؤيد قائلاً : « أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفني » وجرت بينهما مكاتبات كثيرة^(١)

وكان المؤيد آنذاك بحلب قبل عودته إلى مصر بعد فتنه البساسيري .

ومما كتبه داعي الدعاة إلى المعري :^(٢)

« الشيخ — احسن الله توفيقه — الناطق بلسان الفضل والأدب ، الذي ترك من عداه صامتاً مشهوداً له بهذه الفضيلة من كل من هو فوق البسيطة . غير أن الأدب الذي هو جالينوس طبعه ، وعنده مفاتيح غيبه ليس مما يفيد كبير فائدة في معاشه أو معاده ، سوى الذكر السائر به الركبان مما هو إذا تسامع المذكور به علم . أنه له بمكانة الجمال والزينة مدام

(١) راجع ترجمة أبي العلاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي طبع هدية ١٩٠٧/١٩٢٧ — ج ١/١٦٢ — ٢١٦

وكتاب « تعريف القدماء بأبي العلاء » جمع وتحقيق مصطفى السقا وبعض الأساندة

طبع الهيئة المصرية للكتاب ١٩٤٤ ص ١١٨

(٢) المصدر نفسه ص ١١٩

حياً ، فإذا رمت به يد المتون من ظهر الأرض إلى بطنها فلا يحسن ذكره ينتفع ، ولا بقبحه يستضر ، وإذا كانت الصورة هذه كان مستحيلاً منه — أيده الله — مع وفور عقله — أن جعل مواده كلها منصبة إلى إحكام اللغة العربية ، والتفكير فيها ، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها ، ووفور عمره على مالا نتيجة له منها ، وترك نفسه المتوقدة نازراً ذكائها خلواً من النظر في شأن معاده ، وأن يختار من علمه ما هو أنفع ، فيمكث إذا ذهب الزبد جفاءً ، من غيره .

فإذا هو — حرسه الله — بمقتضى هذا الحكم مرتو من عذب مشرب هذا العلم ، وإنما ليس ييوح به ، لضرب السياسة . والدليل على كونه ناظراً لمعاده سلوكه سبيل شطف العيش والتزهّد ، وعدوله عن الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس ، وتعفقه عن أن يجعل من جوفه للحيوان مدفناً ، أن أن يذوق من درّها لبناً ، أن أن يستطعم من طعام استكدت عليه في حره وإنشائه . وهذه طريقة من يعتقد أنه إذا آلمها جُوزى بأليها . وهذا غاية في الزهد .

لما رأيت ذلك ، وسمعت داعية البيت الذي يعزى إليه ، وهو :

خلوئ مريض الدين والعقل فالقنى
لعلّم أنباء الأمور الصحائح

شدت إليه راحلة العليل في دينه وعقله ، إلى الصحيح الذي ينبئ أنباء الأمور الصحائح . وأنا أول ملب لدعوته ، معترف بخبرته ، وهو حقيق ألا يوطنني العشواء ، فيسلك في المجاهيل ولا يعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل .

وأول سؤالي عن أمر خفيف ، فإن استنشقت نسيم الشفاء سقط السؤال إلى المهم أسأله عن العلة في تحريمه على نفسه اللحم واللبن ، وكل ما يصدر إلى الوجود من منافع الحيوان ، فأقول : أليس النبات موضوعاً للحيوان يمتار فيه ، وبوجوده وجوده ، وبقوة في الحيوان حساسة ما استولى على الانتفاع بالنبات ؟ ولو لم يكن الحيوان لكان موضوع النبات باطلاً لا معنى له ، وعلى هذه القضية ، فإن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل ، فهي مسخرة له على أنواع من التسخير . ولولا ذلك لكان موضوع الحيوان باطلاً .

فتجاني الشيخ — وفقه الله — عن الانتفاع بما هو موضوع له ، مخلوق لأجله إبطالاً لتكوين الخلقة . ثم امتناعه عن أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين . إما — أنه

أخذته رافة بها ، فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي له أن يكون أراف بها من خالقها .

فإذا ادعى أن تحليلها وتحريمها إنما كان من بعض البشر — يعنى به أصحاب الشرائع — وأن الله لم يبيح إراقة دم حيوان وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله على صيغة لاتصلح إلا لنهش اللحوم وفسخها ، وتمزيق الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل قائم العين فى الفطرة كان جنس البشر وسيع العذر فى أكل اللحوم ، وكان من أحل لهم ذلك محققاً .

والثانى : أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجاً عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه الذى أوجده .

وإذا أنعم الشيخ وساق إلى حجة أعتمدها رجوت كشف المرض الذى وقع اعتراضى به « .

وكان جواب أبى العلاء إليه :^(١)

قال العبد الضعيف العاجز أحمد بن عبد الله بن سليمان :

« أول ما ابدأ به انى أعددت سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين — أطال الله بقاءه — من ورث حكمة الأنبياء ، وأعدت نفسى الخاطئة من الأغبياء . وهو بكتابه إلى متواضع . ومن أنا حتى يكتب مثله إلى مثلى ١٩ .. مثله فى ذلك مثل الثريا كتبت إلى الثرى .. وقد علم الله أن سمعى ثقيل وبصرى عن الأبصار ثقيل^(٢) . قضى على وأنا ابن أربع أن لا أفرق بين البازل والرَّبع . ثم توالى محنى فأشبهه شخصى العود المنحنى »

ثم قال : وأما قول العبد الضعيف العاجز :

غدوت مريض العقل والدين فالقضى

فإنما خاطب به من هو فى غمرة الجهل ، لا من هو للرياسة علم وأصل ، وقد علم أن الحيوان كإله حساس يقع به الألم . وقد سمع العبد الضعيف شيئاً من اختلاف القدماء . وأول ما يبدأ به : لو أن قاتلاً من البشر قال : إذا بنينا القضية المركبة من المسند والمسند إليه

(١) ارشاد الأديب وتعرف القدماء من ١٢١

(٢) ثقيل : أى غريب عن الإبصار كليل .

ولها واسطتان إحداهما نافية والأخرى استثنائية ، فقلنا الله لا يفعل إلا الخير ، فهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ ، فإن قيل : إنها صادقة ، فقد رأينا الشرور غالبية ، فعلمنا أن ذلك أمر خفى ، ولم يزل من يُنسب إلى الذين يرغب في هجران اللحوم ، لأنها لم يوصل إليها إلا بإيلاء حيوان ، يفر منه في كل أوان ، وإن الضائنة تكون في محل القوم وهى حامل ، فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً أو نحوه اعتبطوه فأكلوه ، ورغبوا في اللبن ، وباتت أمه ثاغية ، لو تقدر سعت له باغية . وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد ، والناقة إذا فقدت الفصيل فقال قائلهم :

فما وَجَدْتُ كَوْجَدِي أُمَّ سَقَبٍ أَضَلُّهُ فَرَجَعْتُ الْحِينَا

وللسائل أن يقول : إن كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون قد علم به أولاً ، فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون مريداً له أو لا ، فإن كان مريداً له فكأنه الفاعل ، كما أن القائل يقول : قطع الأمير يد السارق وإن لم يباشر ذلك بنفسه ، وإن كان غير مريد فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير مثله في الأرض ، إنه إذا فعل في ولايته شيء لا يرضاه أنكره وأمر بزواله . هذه عقدة قد اجتهد المتكلمون في انحلالها فأعوزهم .

وقد ذكرت الأنبياء أن الباريء — جلت عظمته — رءوف رحيم ، ولو رآف بينى آدم وجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأذى شيء ، وقد علم أن الوحش الرائعة يكر إليها الفارس فيطعن القير أو الأتان وهن مأسدين إليه ذنبا ، ولأى حال استوجب من يفعل بها هذا الرأفة ، وهى لم تشرب من المآثم بذنوب ، ولم تجن ما يكتب من الذنوب ، وقد رأيت الجيشين المنتسب كل واحد منهما الى الشرع المنفرد يلتقيان ، وكلاهما فى مدد ، ويقتل بينهما آلاف عدد ، فهذا محسوب من أى الوجهين ، فليس عند النظر بهين .

فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال ، وبلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر ، فلم يُفطر في السنة ولا الشر إلا العيدين ، وصبر على توالى الجديدين وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية ، وقد علم سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ولارب ، أنه قد نظر في الكتب المتقدمة ، وما حكى عن جالينوس وغيره من اعتقاد يدل

على الخبرة . وإذا قيل إن الباري رءوفٌ رحيم ، فلم سلط الأسد على افتراس نسمة إنسيّة ، ليست بالملفّسة ولا القسيّة ، ولم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، وسلط على الطير الراضية بلقط الحبة البازي والصقر . وإن القطاة لتدع فراخها ظمياء ، وتبكر لترد ماء ، تحمله إليها في حوصلتها ، فيصادفها دونهنّ أجدل ، فيأكلها فيهلك فراخها عطشا .

وذكر أشياء من هذا الباب ثم قال : « وأعوذ بالله وأتبرأ من قول الكافر :

ألت بالتحية أم بكر	فحيوا أم بكر بالسلام
وكائن بالطوى طوى بدر	من الأحساب والقوم الكرام
وكائن بالطوى طوى بدر	من الشيزى تكلل بالسلام
ألا يأم بكر لا تكري	على الكأس بعد أخى هشام
وبعد أخى آيه وكان قرماً	من الأقرام شراب المدام
ألا من مبلغ الرحمن عنى	بأنى تارك شهر الصيام
إذا ما الرأس زایل منكبه	فقد شبع الأليس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا	وكيف حياة أصداء وفام
أيترك أن يرد الموت عنى	ويحيني إذا بليت عظامي

ولعن الله القائل ، ويقال إنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

أذنيّا منى خليل	عبدلاً دون الإزار
فلقد أيقنت ألى	غير مبعوث لئار
سأروض الناس حى	يركبوا دين الحمّار
وأرى من يطلب الـ	جنة يسعى لحمار

وويل لابن رغبان إن كان قال :

هى الأولى وقد نعموا بأخرى	وتسويّف الظنون من السواف
فإن يك بعض ما قالوه حقاً	فإن البتليك هو المقافى

ومما حثني على ترك أكل الحيوان أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقى لى مالا يعجب ، فاقتصرْتُ على فول ولسن ، وما لا يعذب على الألسن ، فأما الآن فإذا صار إلى من يخدمنى كبير عندى وعنده هين ، فما حظى إلا اليسير المتعين ، ولست أريد فى رزق زيادة ، ولا أؤثر لسقمتى عيادة ، والسلام .

وكان جواب المؤيد داعى الدعاة عليه :

« حُوشَى الشَّيْخِ أَدَامَ اللهُ سَلَامَتَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَطْنٍ مِنْ مَرَضِ دِينِهِ وَعَقْلِهِ لِعَلَّتِهِ ،
وَأَجَابَ دَعْوَةَ الدَّاعِي مِنْهُ بِالْبَيْتِ الشَّائِعِ عَنْهُ لِيَتَالَ شِفَاءُ عِلَّتِهِ جَوَابًا يَزِيدُهُ إِلَى غَلَّتِهِ غَلَّةً ،
إِذَا يَكُونُ كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :

أَظْمَشِي الدُّنْيَا فَلَمَّا جَشَّهَا مُسْتَقْبِياً مَطَرُثَ عَلَى مَصَائِبِهَا

كَانَ سَوْأَلِي لَهُ — حَرَسَهُ اللهُ — فِي شَيْءٍ يَخْتَصُّ بِنَفْسِهِ فِي هَجَرِهِ مَا يَشُدُّ الْجِسْمَ مِنَ
اللَّحْمِ الَّذِي يُنْبِتُ اللَّحْمَ ، فَأَجَابَ بِمَا أَقُولُ فِي جَوَابِهِ : أَهَذِهِ أَنْبَاءُ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ ؟ وَهَلْ
زَادَ السَّقِيمُ بِدَوَائِهِ هَذَا إِلَّا سَقَمًا ، وَالْأَعْمَى الْأَصْمَ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ بِمَا قَالَ إِلَّا عَمَى وَصَمًا .
عَلَى أَنْ جَمِيعَ مَازَكَرِهِ بِنَجْوَةِ عَنْ سَوْأَلِي الْأَوَّلِ وَمَعَزَلٍ عَنْهُ ، وَلَا مَنَاسِبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنِهِ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ اللَّحْمَ لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِإِيلَامِ الْحَيَوَانِ ، فَقَدْ سَبَقَ الْجَوَابُ : لَا يَكُونَنَّ
الشَّيْخُ أَرَأَفَ بِهَا مِنْ خَالِقِهَا ، فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ كَوْنِهِ عَادِلًا أَوْ جَائِرًا ، فَإِنْ كَانَ عَادِلًا ، فَإِنَّهُ
سَبْحَانَهُ يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْآكِلِ وَالْمَأْكُولِ جَمِيعًا ، وَذَلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُ . وَإِنْ كَانَ جَائِرًا لَمْ يَنْبَغِ أَنْ
نَرْجِعَ عَلَى خَالِقِنَا بَعْدَلَنَا وَجَوْرِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَلِلْسَائِلِ أَنْ يَقُولَ : إِنْ كَانَ الْخَيْرُ هُوَ الَّذِي لَا يَرِيدُ رَبُّنَا سِوَاهُ فَالْشَّرُّ لَا يَخْلُو
مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَ بِهِ ، أَوْ لَا ... إِلَى آخِرِهِ » فَأَقُولُ :

قِيلَ إِنْ إِنْسَانًا ضَاعَ لَهُ مَصْحَفٌ ، فَقِيلَ لَهُ : اقْرَأْ (وَالشَّمْسُ وَضَحَاها) فَإِنَّكَ تَجِدُهُ ،
فَقَالَ : وَهَذِهِ السُّورَةُ أَيْضًا فِيهِ ! فَأَقُولُ أَيْضًا : إِنْ هَذَا أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ ، وَجَمِيعُهُ ظُلُمَاتٌ ،
فَأَيْنَ النُّورُ ؟ وَإِنَّمَا قَصَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ كَمَا قَالَه .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : لَمَّا رَأَى اخْتِلَافَ الْأَقْوَالِ ، وَأَيَقِنَ بِنِفَادِ وَزَوَالِ سَأَلِ رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ صَوْمَ الدُّهْرِ
وَاقْتَنَعَ بِالنَّبَاتِ ، فَمَا صَحَّ لِي أَنْ الرَّبَّ الَّذِي سَأَلَهُ هُوَ الَّذِي يَرِيدُ الْخَيْرَ وَحْدَهُ ، أَوِ الَّذِي
يَرِيدُ الشَّرَّ وَحْدَهُ ، أَوِ الَّذِي يَرِيدُهُمَا جَمِيعًا .

وَالصَّيْرُ شَرْحٌ عَلَى أَصْلٍ مِنْ شَرْعٍ يَأْتِي بِهِ رَسُولٌ ، وَالرَّسُولُ يَتَعَلَّقُ بِمَرْسَلٍ ، وَقَضِيَّتُنَا فِي
الْمَرْسَلِ مُشْتَبِهَةٌ ، يَبْعَثُ رَسُولًا يَرِيدُ أَنْ يَطَاعَ أَمْ لَا يَطَاعَ ؟ فَإِنْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يُطَاعَ فَهُوَ
مَغْلُوبٌ عَلَى إِرَادَتِهِ ، لِأَنَّهُ مِنْ لَا يَطِيعُهُ أَكْثَرُ ، وَإِنْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَطَاعَ فَإِرْسَالُهُ إِيَّاهُ مُحَالٌ ،
وَطَلِبُهُ حُجَّةٌ عَلَى الضَّعْفَاءِ لِيَعَذِّبَهُمْ . فَإِنْ كَانَ مَوْضُوعُ صَوْمِهِ عَلَى هَذَا ، فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا ،
وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ أَجْلَى وَأَوْضَحُ ، فَهُوَ الَّذِي أَطْلَبَهُ .

وأما حكايته قول بعض الملحدين ، واستعاذته بالله من أن يكون من المعترضين في قوله تعالى : (وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى) ... الآيات ، فإن كان الباري سبحانه خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون ، والتوبة والإنابة يُحرمون ، فكان الأولى به ، وهو العارف الرحيم ، ألا يخلقهم ، لئلا يعذبهم . وإن كان لا يعلم فهو كأمثالنا . ولا يدرى ما يكون منه .

وقول الشيخ بعده : معاذ الله أن نقول ذلك ، بل نسلّم وتتلو الآية (من يهّد الله فهو المهتد ، ومن يضللّ ، فلن تجد له ولياً مرشداً) . فليس الملحد إذا قال : إن السكر حلّ والحلّ حامض ، لا يقبل منه لكونه ملحداً ، وقوله يقتضى جواباً ، فإن كان عند الشيخ جواب فهو الذى نبغى ، وإلا فما التسليم في هذا الموضع إلا التسليم للملحد ، لا لشيء غيره .

وأما إنشاده :

أملت بالتحية أم بكر

وما بعده من الأشعار ، وذمه من قال ولعنه ، فمن الذى اتهمه بشيء من ذلك ؟
حاشاه . وما الذى أوجب الإذكار بكفريات شعرهم ؟

وأما ختمه الرسالة بقوله : إن الذى حثه على ترك أكل الحيوان أن الذى له فى السنة نيف وعشرون ديناراً يصير الى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ، فمحمل مؤونة القدر الذى يُطعمه لو كان ثقيلاً لوجب تحمّله ، فكيف وهو الخفيف محمّله ، وقد كاتب مولائى تاج الأمراء حرس الله عزّه أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلغة مثله من ألدّ الطعام ، ومراعاته به من الإدرار والدوام ، ليتكشف غاشية هذه الضرورة ، ويجرى أمره فى معيشته على أحسن ما يكون من الصورة . ثم إن قام من الشيخ نشطة لجواب ، أعفانى فيه عن قصد الأسجاع ، ولزوم ما لا يلزم فإن ملتصقاً فيه المعانى لا الألفاظ .
وكان جواب أبى العلاء^(١)

سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين ، عصمة المؤمنين ، هدى الله الأمم بهدائيه ،
وسلك بهم طريق الخير على يده .

(١) تعريف القدماء ص ١٢٨

قد بدأ المعترف بجهله ، المقر بحيرته ، والداعى إلى الله سبحانه أن يرزقه ماقل من رحمته في أول ماخاطبه به أن ذكر اعتقاده في سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين — ضوأ الله الظلم ببصيرته ، وأذهب شكوك الأفئدة برأيه وحكمته ، وما نفسه عليه من الذلة والحقرية عنده ، وأنه يحسبها ساكنة في بعض السوام .

وعجب أن مثله يطلب الرشد ممن لا رُشد عنده ، فيكون كالمقر الذى هو دائب في خدمة ربه ليلاً ونهاراً ، يطلب الحقيقة من أقمر^(١) بفلاة ، يرد الماء على الصائد ويصيب قلبه بسهم .

وقد ذكر — أيد الله الحق بحياته — بيتاً من أبيات على الحاء ذكر وثيه ليعلم غيره ماهو عليه من الاجتهاد في الدين ، وماحيلته في الآية المنزلة التى هى قوله : (من يهد الله فهو المهتد) . وأولها :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتعلم أنباء الأمور انصائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالمأ ولا تبغ قسوتاً من غريضر الذبائح

ولا يقدر أحد يدفع أن الحيوان البحرى لا يخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا سئل المعقول عن ذلك ، لم يقبح ترك أكله وإن كان حلالاً ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ماهو لهم حلال مطلق .

وأبيض أمانت أراذ صرخة لأطفالها دون الغوانى الصرائح
والمرأ بالأيض اللبن . ومشهور أن الأم إذا ذبح ولدها وجدت عليه وجداً عظيماً ، وسهرت لذلك ليلالى ، وقد أخذ لحمه ، وتوفر على أصحاب أمه ماكان يرضع من لبنها فأى ذنب لمن تخرج عن ذبح السليل ، ولم يرغب في استعمال اللبن ، ولايزعم أنه محرم ، وإنما تركه اجتهداً في التعبد ، ورحمة للمذبوح ، رغبة أن يجازى عن ذلك بغفران خالق السماوات والأرض ، وإذا قيل إن الله سبحانه يساوى بين عباده في الأقسام ، فأى شيء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى تمنع حظها من الرأفة والرفق ١٩

فلا تفجعن الطير وهى غوافل بما وضعت للظلم شر القبايح

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن صيد الليل ، وذلك أحد القولين في قوله عليه

(١) الأقمر : الحمار الوحشى لونه إلى الخضرة ، أو أبيض فيه كدرة

الصلاة والسلام : « أَقْرَ الطَّيْرِ فِي وَكُنَاتِهَا » . وفي الكتاب العزيز : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) . إلى غيرها من الآي في المعنى .

فإذا سمع من له أدنى حسُّ هذا القول فلا لوم عليه إذا طلبَ التقرب إلى ربِّ السماوات والأرضين بأن يجعل صيد الحلال كصيد الحرم ، وإن كان ذلك ليس بمحظور .

ودعَّ ضرب النحل الذي بكسرت به كواسب من أزهار نبت لوائح

لما كانت النحل تعاربُ الشَّائِرَ عن العسل بما تقدَّر عليه ، وتجتهد أن تردَّه عن ذلك ، فلا غرو أن أعرَضَ عن استعماله رغبة في أن تجعل النحل كغيرها مما يكره : من ذبيح الأكيل ، وأخذ ما كان يعيش به لتشربه النساء كي يئذُنَّ غيرها من بنى آدم . وقد وصفت الشعراء ذلك ، فقال أبو ذؤيب يصفُ مشتارَ العسل :

إذا لسعته النحلُ لم يَرْجُ لسعها وخالفها في يَتِ ثوبِ غواصِلٍ

وروى عن علي عليه السلام حكايةً معناها : أنه كان له دقيق شعير في وعاء يختم عليه ، فإذا كان صائما لم يختم على شيء من ذلك الدقيق ، وقد كان عليه السلام يصل إلى غَلَّةٍ كثيرة ، ولكنه كان يتصدق بها ، ويقتنع أشدَّ اقتناع . وروى عن بعض أهل العلم أنه قال في بعض خطبه إن غَلَّتْه تبلغ في السنة خمسين ألف دينار . وهذا يدل على أن الأنبياء والمجتهدين من الأئمة يقصرون نفوسهم ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة .

وقد عدل سيدنا الرئيس إلى الإيماء بأن من ترك أكل اللحم ذَمِيمٌ ، ولو أُخِذَ بهذا المذهب لوجب على الإنسان ألاَّ يصلي صلاة إلا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أذاه إلى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ، ولوجب أن الذي له مال كثير إذا أخرج عن الذهب ربع العشر ، لا يحسُنَ به أن يزيد على ذلك . وقد حُثَّ الناسُ على النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف . والعبد الضعيف العاجز قد افترق إلى مثل ذلك . ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يُسأل ولا أن يُجيب ؛ لأن أعضائه متخاذلة ، وقد عجز عن القيام في الصلاة ، فإنما يصلي قاعداً ، والله المستعان . وكيف له أن يكون يصل إلا أن يدبُّ على عكاز .

(وثمَّ استشهد على عجزه بأشعار العرب .)

ولاني لأعجز إن اضطجعت عن القعود ، فرما استعنتُ بإنسان ، فإذا هم بإعانتى ،

وبسط يديه لهضتي ضربت عظامي ، لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن .

وأما استشهاديه بيت أوى الطيب ، فمن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز مثله مثل من طلب فى القتادة ثمر النخلة ، وإنما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذى هو دليل على كرم الطبع ، وشرف النفس ، وطهارة المولد وخالص الخيم .

وأما مذكوره من المكاتبه فى توسيع الرزق غلى ، فدل على إفعال ورثه عن أب فأب ، وجد فى إثر جد حتى يصل النسب إلى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة وتركها صار له طبعاً ثانياً ، وإنه مأكّل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يسارى فى ثرى راسبه

وقد علم أن السيد الأجل ، تاج الأمراء ، فخر الملك ، عمدة الإمامة وعادة الدولة ومجدها ، ذا الفخرين ، نصيف أولاد سام وحام وياث . وذ العبد الضعيف العاجز لو أن قلعة حلب ، وجميع جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الأمراء نصير الدولة النبوية ، على إمامها السلام ، وكذلك على الأئمة الطاهرين من آبائه من غير أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك قيراط .

وهو يستحى من حضرة تاج الأمراء أن ينظر اليه بعين من رغب فى العاجلة بعد مذهب وهو رضى أن يلقى الله ، جلّت قدرته ، وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد .

(ثم اعتذر عن السجع بأخبار أورها ، واحتجاجات ذكرها)

وسيدنا الرئيس الأجل ، المؤيد فى الدين ، لازالت حجه بأثرة : ودولته عالية كما قال ثعلبة بن صغير :

ولرب قوم ظالمين ذوى شدا ثغلى صدورهم بهتر هابتر
للظالمين على ماساءهم وخسأت باطنهم على بحق ظاهر

ولو ناظر أرسططاليس لجاز أن يفحمه ، أو أفلاطون لنبد حجه خلفه ، والله يجمّل بحياته الشريعة ، وينصر بحججه الملة ، وحسبى الله ونعم الوكيل .

وأجاب داعي الدعاة بقوله :

ما فاتحت الشيخ — أحسن الله توفيقه — بالقول إلا مفاتحة متناكر عليه فيه . مؤثر أن يخفى من أين جاء السؤال ، فيكون الجواب عنه باسترسال ، ورفض حشمة وحذف تكلف للخطاب « بسيدنا » و « الرئيس » ، ومايجرى هذا المجرى اذ كان حكم مايتجارى فيه موجبا أن لايتخلله شيء من زخارف الدنيا ، ولأننى أعتقد أن سيدى بالحقيقة من تستفيل دون يده يداى أخذاً منه للدنيا ، أو تمتاز نفسى من نفسه استفادة من معالم الأخرى . فما أدرى كيف انعكست الحال حتى صار الشيخ — أدام الله تأييده — يُخاطبنى بسيدنا والرئيس ولست مفضلاً عليه فى دنيا ولا دين ، بل شاذ راحلتى إليه ، لاستفادة إن وردت موردها أو صادفت نهلاً أو عبلاً منها ، قابلتها بالشكر لنعمته ، والإسجال على نفسى بأستاذيته .

وبعد فإنى أعلمه — أدام الله سلامته — أنى شققت جيب الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناس بين رجلين إما منتحلاً لشريعة صبا إليها ولهج بها إلى الحد الذى إن قيل له من أخبار شرعه إن فيلاً طار أو جملاً باضر ، لما قابله إلا بالقبول والتصديق ، ولكن يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه .

والعقل عند من هذه سبيله فى مهواة وفى مضیعة ، فليس يكاد ينبعث لأن يعلم أن هذه الشريعة التى هو منتحلها لم يُطَوَّق طوقها ولم يُسَوَّر سوارها إلا بعد لموع نور العقل منه ، فكيف يصح توليته أولاً وعزله آخرأ ؟ . أو منتحلاً للنقل يقول إنه حجة لله تعالى على عباده . مبطلاً لجميع مالناس فيه ، مستحقاً بأوضاع الشرائع ، معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها لكونها مَقَمَّةً للجاهلين ، ولجاماً على روعوس المجرمين المجذفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى ، أو منجاة فى الدار الأخرى .

فلما رمت لى المرامى إلى الشام ، سمعتُ أن الشيخ وفقه الله — بفضل فى الأدب والعلم — قد اتفقت عليه الأقاويل ، ووضح به البرهان والدليل . ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره مبطلين ، فكل يذهب فيه مذهبا .

وحضرتُ مجلساً جليلاً أجرى فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثاً وسميناً ، فحفظته فى الغيب ، وقلتُ إن المعلوم من صلاته فى زهده يحميه من الظنّة والريب . وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرأ ، قد أسبل عليه من التقية سِتْراً ، وأمرأ يُمَيِّز به عن قوم يكفّر

بعضهم بعضاً .

ولما سمعتُ البيت : « غَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ » تَوَثَّقْتُ مِنْ تَخَلُّدِي فِيهَا حُدُثَتْ عُقُودُهُ ،
وَتَأَكَّدَتْ عَهْدُهُ . وَقُلْتُ : إِنْ لِسَانًا يَسْتَطِيعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَى نَعْلَقًا . وَیَفْتَقُ مِنْ هَذَا
الْفَخْرِ الْعَظِيمِ رَتْقًا ، لِلْسَانِ صَامِتٍ عِنْدَهُ كُلِّ نَاطِقٍ ، مِنْ ذِرْوَةِ جَبَلٍ مِنَ الْعِلْمِ شَاهِقٍ .
فَقَصْدُهُ قَصْدُ مُوسَى لِلطُّورِ ، أَقْتَبِسَ مِنْهُ نَارًا ، وَأَحَاوَلَ أَنْ أَرْفَعَ بِالْفَخْرِ مَنَارًا لِمَعْرِفَةِ مَا يَتَخَلَّفُ
عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، فَادْلَيْتُ دَلْوِي بِالسَّأَلَةِ الْخَفِيفَةِ الَّتِي سَأَلْتُ عَنْهَا ، تَرْقِيًا مِنْ دُونِ إِلَى
فَوْقَ ، وَتَدْرُجًا مِنْ صَغِيرٍ إِلَى كَبِيرٍ ، فَكَانَ جَوَابُهُ أَنَّهُ يَصْغُرُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِلْإِسْتِرْشَادِ مَحَلًّا ،
فَقُلْتُ هَذِهِ زِيَادَةٌ فِي فَضْلِهِ ، وَمَا يَجُوزُ صُدُورُ مِثْلِهِ عَنْ مِثْلِهِ . ثُمَّ انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِحَالَةِ عَلَى كَوْنِ
النَّاسِ مِمَّنْ تَقْدُمُ أَوْ تَأْخَرُ فِي وَادِي الْحَيَاةِ تَائِهِينَ وَفِي أَذْيَالِهَا مَتَعَثِّينَ ، فَمَنْ قَائِلٌ يَقُولُ : إِنْ
الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَجَبَّ يَجِبُهُ : هَلْ كَانَ مَا كَانَ يَسْتَعِيزُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكُلِّ مُسْتَعَاذٍ مِنْهُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟ . فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَلَا اسْتِعَاذَةَ
مِنْهُ كَذَلِكَ فَضُولَ وَزِيَادَةَ فِي الْمَعْنَى .

وَسُؤَالَ مَنْ يَسْأَلُ : هَلْ كَانَ سَمُّ الْحَسَنِ وَقَتْلُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؟
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَالْلَعْنَةُ عَلَى الْقَاتِلِ مِنْ أَىْ جِهَةٍ وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَاللَّهُ مَرِيدُهُ زَالِ اللَّوْمِ عَنْ
الْقَاتِلِ . . وَقَائِلٌ يَقُولُ : إِنْ الْخَيْرُ مِنَ اللَّهِ وَالشَّرُّ مِنْ غَيْرِهِ ، وَجَبَّ يَجِبُ بِالْجَوَابِ الَّذِي يَقْطَعُ
بِهِ الْأَسْبَابَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَطَالَ بِهِ الْخُطَابُ مِنْ أَشْعَارِ الْمَلَا حِدَةٍ وَأَقْوَالِهِمْ .

فَكَانَ جَوَابِي — أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ — أَنَّنِي مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْتَهُمْ تَبَرُّيْتُ إِلَيْكَ
وَتَطَاوَحْتُ عَلَيْكَ ، وَإِنْ كَلَامُهُمْ عِنْدِي قَبْلُ أَنْ عَلَلْتَهُ عَلِيلٌ ، وَهُوَ عَلَى مَسَامِعِ الْقَبُولِ مَنِي
ثَقِيلٌ ، فَافْتَحْ لِي إِلَى مَا عِنْدَكَ بَابًا ، وَافْسَحْ لِي مِنْ لَدُنْكَ حَنَابًا ، فَلَمْ يَفْعَلْ .

ثُمَّ خَاطَبْتُهُ عَلَى امْتِنَاعِهِ مِنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ، فَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ مُتَحَرِّجٌ مِنْ قَصْدِهَا — أَعْنَى
الْبَهَائِمِ — بِالْمُضَرَّةِ وَالْإِيْلَامِ . ، مُتَخَفِّفًا عَنْهَا لِهَذِهِ الْجِهَةِ ، فَقَطَعْتُ لِسَانَ حُجَّتِهِ بَعْدَ تَنَاهِيهَا
وَقُلْتُ : إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى سَلَطَ بَعْضُهَا لِتَأْكُلَ بَعْضًا ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِوُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَأَرَأَفُ
بِالْخَلِيقَةِ ، فَلَا يَكُنْ أَنْ أَرَأَفُ بِهَا مِنْ رَبِّهَا ، وَلَا أَعْدَلُ فِيهَا مِنْ خَالِقِهَا . ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى قُصُورِ
يَدِ الْإِسْطَاعَةِ دُونَ ذَلِكَ ، إِذْ كَانَ الْقَدَرُ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي السَّنَةِ مُنْصَرَفًا إِلَى مَنْ يَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ
أَكْثَرُ ، وَخَالِصًا لَهُ أَقْلُهُ ، فَقَطَعْتُ الْحُجَّةَ فِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا وَعَيَّنْتُ لَهُ عَلَى جِهَةِ كَرَمِيَّةٍ مِنْ
الَّذِينَ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًا وَلَا أَذَى مَا يَقُومُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ مِنْ أَطْيَبِ مَا يَأْكُلُونَ ، وَأَزْكَى مَا يَـ

البيوت يذخرون . فتجافت نفسه — وقاها الله سوء — عن هذا الباب أيضا ، وكتب في الجواب الثاني بأنه لا يؤثر ذلك ولا يرغب فيه ، ولا يخرق عاداته المستمرة في الترك ، وابتدأ يقول : إن طلبت الرشد ممن لا رشد عنده ، وإن البيت الذى قاله مما تعلقْتُ به وجعلته محجة إلى استقراء طريقته ومذهبه إنما أراد الإعلام باجتهاده في الدين ، وما حيلته في الآفة المنزلة : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يُضللُ فلن تجد له وليا مرشدا » . فجمع بين المتضادين في كلمة واحدة . إنه إن كانت الآية حقاً كان الاجتهاد باطلا . وقال : إن الله سبحانه أسراراً لا يقف عليها إلا الأولياء ، فنحن على ذلك السرّ ندور ، وعلى باب من هو عنده نظوف . فإن قلنا إنه — حرسه الله — من أصحابه بدعوى صحته في دينه وعقله ، ومرض الناس على موجب قوله . قال : لا رشد عندى . فنظمه في هذا المعنى يناقض نثره ، ونثره يخالف نظمه ، فكيف الحيلة ؟ . ثم قال إن البيت المقول :

غدوت مريض العقل والدين فألقنى لتعلم أنباء الأسور الصالحات
يؤدى معناه البيت الثانى :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريض الدبالح

فكأن مرض الدين والعقل من جهة أكل اللحم وشرب الألبان وتناول العسل ، فمن ترك هذه المطاعم كان صحيحاً دينه وعقله . وهو يعلم أن مصححة الأديان والعقول لا تقوم بذلك . ولا يجوز أن يكون هذا البيت الثانى ناسخاً لحكم الأول ، فيكون محصول دعواه في فقر الناس إلى أن يصح دينهم وعقلهم هو أن يقول لهم : لاتأكلوا اللحم واللبن .

وأما قوله : إن الحيوان البحرى كاره أن يخرج إلى البر ، وأنه ليس يقيح في العقول ترك آكله وإن كان حلالاً ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما لهم طلق ، فما من حيوان بحرئ ولا برئ هو أجل من هذا الإنسان الحى العاقل ، وهو كاره للموت فيموت ، وكاره لأن يأكله شيء ، والدود يأكله في قبره . فإن كان ذلك صادراً عن موضع حكمة كان ما ذكره من الحيوان البرئ والبحرى جارياً في مضمار هذا مثلاً بمثل ، وإن كان معدولاً به عن وجه الحكمة كان محالاً أن يكون صانعها ، وأكون — وأنا صنيعه — حكيماً .

وأما قوله ان النبى — صلى الله عليه وسلم — صلى إلى أن تقرحت قدماه ، فقيل له فيه فقال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » فما هذا مما نحن عليه في شيء . والإنسان له أن يصلى ماشاء من الصلوات في الأوقات التى تجوز فيها الصلاة ، على ألا يزيد في

الفرائض ولا ينقص منها . وهذا الكلامُ شرعيٌّ . وكان القضيةُ للتكلم على العقليات .
وأما قوله : إنه عليه الصلاة والسلام حُرِّمَ صيد الحرم ، وإن لغيره أن يحرم صيد الخلِّ
تقرباً إلى الله سبحانه — فليس لأحد أن يخلل أو يحرم غيره .

وأما قوله : إن علياً عليه السلام لما قدم إليه الخبيص سأل : هل أكل النبي صلى الله
عليه وسلم منه ؟ فلما قالوا : لا ، رفعه ولم يأكله — فهذه الحجة عليه لا له . فإن الناس
مجمعون على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفارق أكل اللحم ، وهو يهجره دهره . وذلك
بالضد سواء . ولو أنه — حرسه الله — لم يستظهر على الشريعة ولم يتجاوز قضية
العقل ، لصنته عن هذا الجواب الذي عسى أن يشغل سرّه ويعزّز على ذلك .

وأما ماشكاه من ضعفه وقصور حركته وأنه لم يبق فيه بقية لأن يُسأل ولا أن يجيب ،
فما هو — حرسه الله — على علاته من الضعف والقوة إلا من محاسن الزمان ، ومن سارت
بذكر فضله الركبان ، إلا أنه على عدوان الدهر عليه عدا على نفسه ، بحرمانها ملاذ دنياها ،
فإن وثقت نفسه بملاذ تعاض عنها ، مما هو خير وأبقى منها ، فما خسرت صفقته ، وقام
مصدق قوله في البيت المقدم ذكره ، وإن كان يوسم بميسم الشح بمنع المنتجعين ، وردّ
السائلين ، وإن كان شقّ على نفسه من غير بصيرة كما يدّعيه الآن ، خوضاً مع الخائفين
وتحيراً مع أمثالنا من المتحيرين فقد أضاعها وجنى عليها ، وادعى في البيت المقدم ذكره
مالابرهان له . والغرض في السؤال والجواب الفائدة ، وإذا عُدمت فقد خفف الله عنه أن
يتكلف جواباً .

وأما الأسجاع ومسألتى التخلّي عنها ، فما كانت إلا شحاً بالمعاني أن تفضل بتبعتها
ولأننى إذا تتبعته فضله ، بصنعاته في الأدب والشعر ، وجدت في أرضه مراغماً كثيراً
وسعةً . ومن أين لي أن أظهر على مكنون جواهر علوم دينه ، كظهوره على مصنفات أدبه
وشعره ! .

وقبل وبعد فأنا اعتذر عن سرّ له — أدام الله حراسته — أذعته ، وزمانٍ منه بالقراءة
والإجابة شغلته ، لأننى من حيث ما نفعته ضررته .

والله تعالى يعلم أنى ما قصدت به غير الاستفادة من علمه ، والاعتراف من بحره .
- والسلام - .

وقد حرصنا على إبراز هذا الحوار الفكري بين عالَمين جليلين وأديبين عظيمين هما من أعلام العصر أوفرها قدراً وأجلها شموخاً ، لتبين من خلال الحوار أشياء كثيرة نتعلمها ، أولها هذا الأدب في الحوار بين رأيين مختلفين ، لا يمسُّ أحدهما مالاخر من مكانة رفيعة في موقعه وعلمه ويكون الموضوع هو القطب الذى يدور حوله الحوار .

ونلاحظ أشياء كثيرة في الحوار ينبغي أن نفطن إليها ، منها ما أورده مؤيد الدين من وجود مذاهب بين علماء العصر وعلماء مصر خاصة ، وأن هذه المذاهب في الدين تتجاذبها تيارات التصديق بالعقل وتحكيمه في كل أمر من أمور الدين أو الطرف الآخر الذى يأخذ بما قال السلف والتصديق به حتى لو كان خارجاً عن العقل أو العرف كما قال حتى لو قالوا إن الفيل يطير لصدقوه ...

وهذا التطرف في الاتجاهين من مظاهر الحياة الفكرية في العصر . وإن حاول الفاطميون ودعاتهم كما رأينا أن يمزجوا بين الدين ومقتضيات العقل والعلم بحيث لا يبدو التناقض بينهما .

وأما في الأمور المشبهة التى جاءت في الدين مثل قضية الخير والشر ومايتصل بهما من علم الخالق وإرادة المخلوق في فعل أيهما فقد أوكل الفاطميون أمرها إلى من أوتوا العلم من الأئمة الذين ألهموا أسراراً لا يطلع عليها عامة الناس وإن كانوا من العلم في الدرجة العالية .

وظهر لنا من الحوار هذا الميل من مذهب دعاة الفاطمية وأئمتها إلى الأخذ بأسباب الحياة وملاذها ومتعها التى أحلها الله دون إسراف ، وعدم الامتناع عما هيا الله للإنسان في هذه الحياة من أسباب النعمة .

ولعل قطب الرعى الذى دار حوله الحوار بين مؤيد الدين والمعري هو هذا المعنى بعينه ، لأن الآيات التى شغلتهما من قول أبى العلاء إنما تدور حول معنى الانصراف عن أكل مالذ من الطيبات مما أحل الله من لحم الحيوان والطيور والأسماك ، ولا أكل العسل ، ولا شرب الألبان وما إلى ذلك .

وعلى ذلك فهذا الحوار حيوى إلى حد كبير يلقي أضواء كثيرة على العصر وفكره وأدبه . والملاحظة أو الإشارة الأخيرة الجديرة بالاهتمام هنا حول صورة الحوار أو شكله الذى حرص المعري في أوله على أن يأتي على طريقته في السجع ولزوم مالايزم ، وطلب إليه المؤيد أن يتخلى عن هذا الثوب اللفظى حتى لا تضل المعاني وراء بريق اللفظ .

وقد حقق المعرى في رسالته الأخيرة رغبة مؤيد الدين فتخلّى عن السجع ولزوم مالايلزم وضروب الصنعة المشابهة فجاء قوله رصيناً عامراً بالفكر ، قاصداً إلى معانيه دون برهق اللفظ أو زخرفه .

وكذا كان قول المؤيد الذى لم يحفل بصنعة لفظية فجاءت عباراته سديدة المعنى مقومة اللفظ من كل عيب أو ضعف أو خروج عن القصد .

لقد كان داعى الدعاة المؤيد عالماً فذاً ، وأديباً مفكراً ، شاعراً فحلاً ، ترك تراثاً هائلاً في كل هذه المجالات .

ففى مجال العلم خلف عدداً من المؤلفات القيمة نذكر منها :

- (١) المجالس المؤيدية فى ثمانمائة مجلس من مجالس الحكمة التى كان يلقيها فى دار العلم . جمع هذه المجالس وبوبها حسب موضوعاتها الفكرية الداعى المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدى ، وسماها « جامع الحقائق » .
- (٢) كتاب شرح المعاد .
- (٣) كتاب شرح الإيضاح والتبصير .
- (٤) كتاب الابتداء والانتفاء .
- (٥) رسالة فى تحريم اللحم — ولعلها من تأثير هذا الحوار المتبادل مع المعرى .
- (٦) تأويل الأرواح .

وله ترجمة أو سيرة ذاتية تحدث فيها عن حياته ، السياسية والاجتماعية ، وبعض صور الحياة فى عصره فى الدول التى عاش فيها وتنقل بينها فى فارس والعراق والشام ومصر من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٥٠ هـ . وتعتبر سجلاً حياً لوقائع عصره ، غنمها بعض الوثائق المتبادلة بينه وأمراء العرب وملوكها الذين اتصل بهم ، وكذلك الرسائل والمحاويرات التى كانت بينه وبعض الوزراء المصريين إبان ثورة البساسيرى .

وله ديوان شعر جيد ، هو مجموعة من القصائد التى مدح بها أئمة الفاطميين ، وبعض رجال العصر ، وعرض فيها لحياته ، ووصف أحواله ، مشيراً إلى ما بذل فى سبيل الدعوة ، فضلاً عما به من موضوعات متصلة بالعقيدة الفاطمية ، وهو زاخرٌ بكثير من الرموز والمصطلحات المستخدمة عنهم .

المجالس المؤيدية :

ونعرض لبعض مايدور في المجالس وهي من أخطر مؤلفاته لاتصالها بالعقيدة الفاطمية وآرائهم المتصلة بقضايا الدين والحياة .

والمجالس المؤيدية كما قلنا تضم ثمانمائة مجلس ، قسمت إلى ثمانى مجلدات ، كل مجلد مائة مجلس .

ونعرض لبعض ما جاء في « المائة الأولى »^(١) :

« وخصص المؤيد هذه المجالس لطبقة من الدعاة والأجنحة والمأذونين ، وهي بما تضمنته فوق علوم الشريعة والظاهر . والمدخل التمهيدى إلى علم الباطن والحقائق وكانت تلقى كمحاضرات تعقبها بعد ذلك مناقشات واستفسارات .

وموضوعات المجالس المائة الأولى متصلة بمفهوم التوحيد عند الفاطميين ، والإبداع والوجود والموجودات ، وترتيب العوالم السفلية والعلوية ، والنطقاء ، والوحى ، وعالم الأمر ، والمعاد والبعث ، والقيامة واللجنة والنار . وإثبات الوصاية ، وماهية الإمامة ، والتأييد ، والإفادة والمفيد ، والأدوار والأكوار ، والمثل والمثول والقيام بالقوة والقيام بالفعل ، وكيفية أخذ العهد والميثاق .

بالإضافة إلى الردود القصيرة على القائلين بالرجعة والتناسخ والتقصص ، وعلى الحشوية والمعطلة والمعتزلة والصوفية ، والغلاة من الشيعة ، والفلاسفة والملحددين ، وغير ذلك من المواضيع الهامة^(٢) .

يقول في المجلس الأول من المائة الأولى :

« الحمد لله الذى نظم بين الإنسان والبهائم ، إذ خلقهما من طين ، وجعل نسلهما من ماء مهين ثم اقتضت العناية الإلهية أن رعى فى أخلاط الصورة الإنسانية من إكسیر العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ماعرج به فى أعلى المعارج من الفضل والعلية ، فصار ممن قال

(١) المجالس المؤيدية — المائة الأولى — تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب

طبع دار الأندلس بمرور سنة ١٩٧٤ م

(٢) مقدمة المجالس (المائة الأولى) ص ن

الله سبحانه عنه ومن أصدق من الله قولاً : (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) . فاستنزل الطير بتدبيره من الهواء واستخلص الحوت من لجج الدماء ، واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعاً ، فمنها ما انتفع بلحومها انتفاعاً ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعاً ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصوراً فى سرادق فكره ، والجسم فى عالم الكون والفساد مأسوراً فى سرادق فكره ونجار أسره . فهذا منفوعه الذى نفعه الله تعالى به فى الدار الأولى ، ثم جعله سلماً يرتقى به إلى دائم البقاء فى الدار الأخرى ، فلولاً نور استبصاره بالعقل لما كانت رسالة من مرسل تقبل ، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويعمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتستنير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور .

وصلى الله على محمد خير رسول استنار بنور سراجيه ، وسار على أوضح منهاجه ، وعلى وحيه الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلى معراجيه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله عمن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجاغت عن مضاجع الجهل جنوبهم .

إن قوماً من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات زعموا أن شرائع الأنبياء صلى الله عليهم هى أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة ، على غير العقل موضوعها ، وفى سوى موقعه وقوعها ، فلو أنهم أمعنوا النظر ، وجردوا من ثوب الهوى والعصبية الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شىء من خاصة أعماله وما يصدّر عنه من أقواله وأفعاله : إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه لاستشاط من ذلك غضباً ، ولقام له مكذباً ، وفى مثل هذه المواجهة مستذباً ، فكيف يرضون للأنبياء عليهم السلام الذين هم سادات دينهم والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلوهم بمثله مقابل لكرهه ؟ ، أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب فى كتاب الله سبحانه كله لأولى الألباب ؟ بقول الله تعالى « فاتقوا الله يأولى الألباب » . وقوله : « إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » وما يجرى مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية لإبرهان لها من العقل عند الرسول صلى الله عليه وسلم والآتى بها نفسه أو كونه عنده ، ولم يشعر به ، فإن كان لإبرهان لها عنده ، فهو فحش ، ولو أن سائلاً سأله عن

العلة التي اقتضت أن يجعل الصلاة خمساً ولا يجعلها ستاً ، فكان يقول : لا أدري ؟ لكفاه طعنا أن يأتي بالشئ ولا يدري العلة فيه إذا سئل عنها . وإن كان لها عند نفسه برهان عقلي . والبرهان مما يُجَمَّل الأقوال والأفعال . ثم لا يظهره ، فلم يقم إذا بحق البلاغ وهذا منتف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بُلِّغ وقال في النادى : اللهم اشهد أنى بُلِّغْتَ .

وسوى هذا فمعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكلف تكاليف الشريعة إلا إذا عقل ، فكيف يكلف ما كان موضوعه على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل . وما السبب في توليته العقل أولاً وعزله آخرأ ، ولم لا تكون التولية آخرأ لكونها أولاً .

ويقول : « فلو أن أحد الفلاسفة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الملائكة والعرش والكرسى ، والجنة والنار ، وأوضاع الشريعة من صلاتها وزكاتها وصومها وحجتها وزكاتها وصومها وحجتها وجهادها حيث يدل عليها البرهان العقلي آكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لا قبل لى في برهان ذلك ؟ حاشا لله تعالى » .

وقول آخر مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال : أدبر فأدبر ، ثم قال له : وعزنى وجلالى ما خلقت خلقاً أجَل منك ، بك أثيب ، وبك أعاقب . »

وإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها ، فلا ثواب عليها ولا عقاب على مقتضى الخير بك أثيب وبك أعاقب .

معشر المؤمنين : دعوا أهل الفرقة والخلاف فإنهم أشياع غي . يقول الله سبحانه وتعالى لنيه : (إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) . وتمسكوا فى دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت والأهلة وأصلحوا أحوالكم ، وطهروا سر بالكم وأحمدوا الله تعالى الذى فتح لكم إلى الحقائق أبصاراً ، والناس عنها عمون ، وكشف لكم عنها حجاباً ، فأنتم فى رياضها تعمون . وأجروا فى مضمار التائبين العابدين ، واستشعروا شعار الراكعين الساجدين . وكونوا دعاة إلى أئمتكم بحسن الفعال صامتين ، وقوموا آناء الليل والنهار لله قانتين .. » .

واضح من هذا المجلس الأول المنهج العقلى الذى دعا الناس إليه وعدم التسليم بكل

مأثور يقال أو خير يروى دون عرضه على ضوء العقل وإدراك العلة وراءه ، فلا يجوز تعطيل هذا العقل نعمة الله الكبرى للإنسان حتى في تقصى أمور الشريعة وحكمها ، وذلك كله مع القيام بكل ما أمر الله وعدم التقصير في حد من حدوده التي نزل بها الوحي على نبيه صلى الله عليه وسلم .

وواضح كذلك مخالفته لمذاهب أهل السنة التي نعتها بأهل الفرق والخلاف وإذا كان المذهب الفاطمي قد نهج هذا النهج العقلي في بحث أمور الدين وشرائعه ، وشجع على دراسة العلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك ... والعلوم الطبيعية من الطب والكيمياء وما إليها فإنه لم يهمل كذلك بحث الديانات والملل ، وما فيها وبينها من التقارب أو التباعد . وحدث من الحوار والجدل بين علماء المسلمين والنصارى في جو من حرية الرأي مثل ما حدث في بعض العصور السابقة في العراق والأندلس .

وينقل لنا التاريخ وتحفظ لنا المكتبات بصورة من هذا الحوار في مجالس إيليا مطران نصيبين ، وما دار فيها من أسئلة ألقاها عليه الوزير المغربي أبو القاسم حسين بن علي .

يقول الدكتور إحسان عباس^(١) : « وقد دخل الوزير المغربي إلى نصيبين لأول مرة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى سنة ٤١٧ هـ فزاره مطران نصيبين إيليا ... ثم جرت محاورات بينهما في سبعة مجالس ... سأل فيه الوزير عن عقيدة النصارى في الأقاليم الثلاثة ، وكيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد ، وكيف يمكن للنصارى أن يدفعوا قول الله فيهم : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) . وعن علة الناس في محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرء صحة دينه أو مذهبه من جهة العقل ، أو من جهة المعجزة ١٩ .. ويدور المجلسان السادس والسابع حول أسئلة عن المقارنة بين نحو السريان ونحو العرب وعلم اللغة عند الفريقين واستعمال المجاز عندهما ... »

وبما أن مطران نصيبين هو الذي كان يتولى الإجابة فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً في الشرح والتوضيح مما يجعل الوزير يسلم له معجباً ... وفي بعض الأحيان نجده أعلم من الوزير بشؤون الإسلام ، ويكاد في معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يلفها الوزير نفسه . وعلى الرغم من هذه الهزة التي أدى إليها الفكر الفاطمي في الفكر الإسلامي عامة ،

(١) الوزير المغربي ص ٧٥

والتحول الفكرى الخطير فى بعض جوانب العقيدة ، وماتركه من آثار باقية فى تطبيقات الدين ومأثوراته لازالت مأخوذا بها فى بعض شعائر الصلاة وغيرها من العبادات إلا أن مذاهب السنة ظلت تدافع عن مواقعها باستماتة وصلابة فى البلاد التى سادها الفاطميون فى شمال أفريقيا ومصر والشام والحجاز وبعض أطراف العراق .

وكأن وراء هذا الصمود السنّى يشجعه ويمده بالعون المادى والمعنوى الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم سلاطين السلاجقة الأتراك الذين بدأ نجمهم فى الظهور بعد زوال سلطان البويهيين على أيديهم فى عصر المستنصر الفاطمى ، وبدء الصراع المرير بين القوتين الفاطميين والسلاجقة طوال القرنين الخامس والسادس .

وكان الصدام بين الفاطميين وأهل السنة يخرج عن مجرد الجدل الدنى إلى المقاومة المادية ، فإن المقرئى يروى فى أحداث سنة ٤١٦ هـ أن الظاهر أخرج فقهاء المالكية وغيرهم من القسطنطينية . وأمر الدعاة بتحفيظ الناس كتاب « دعائم الإسلام » لداعى الدعاة ، ومختصر الوزيرى ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا ^(١)

كذلك كان للمالكية وفقهائهم فى أفريقيا والمغرب دور كبير فى مقاومة الدعوة الفاطمية والفكر الفاطمى ، ونجد بيانا لهذه المقاومة فى بعض المصادر مثل « رياض النفوس » و « معالم الايمان » للدباغ ، و « المدارك » للقاضى عياض ، و « الدياج المذهب » لابن فرحون .

وقد عاصر الدولة الفاطمية بالقيروان أحد مشاهير فقهاء المالكية ، وهو « سحنون » الذى تخرج عليه عدد كبير من العلماء والفقهاء بلغوا سبعمائة على حد قول بعض الروايات .

وذكر ابن اللباد مكانة سحنون فى الفقه المالكى فقال : « ولئن قلت لك إن سحنون ألقه من أصحاب مالك بن أنس — معلميه — كلهم إني لصادق » ^(٢) ومنهم نفرى القيروانى أبو محمد عبد الله بن أبى زهد ولقب « بمالك الصغير » . وكان يرحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به (تولى سنة ٣٨٦ هـ) .

(١) الخطط ٣٥٥/١

(٢) راجع رياض النفوس للمالكى ٢٥٤/١

ومن فقهاء المالكية بالقيروان كذلك القابسي على بن محمد (توفي سنة ٤٠٣ هـ) وكان واسع الدراية عالماً بالحديث ورجاله ، فقيها مالكياً أصولياً ، متكلماً مؤلفاً مجيداً ، له عدة كتب في الفقه .

واستطاع المالكية والشافعية أن يتعايشوا مع الفاطميين ، وربما كان بعض دعاة الفاطمية ملماً بالفقه المالكي ومتأثراً به كالقاضي النعمان الذي قيل إنه بدأ مالكياً قبل اعتناقه المذهب الفاطمي .

كذلك لشيوع هذين المذهبين في مصر والمغرب وكثرة أتباعهما على ما أشرنا من قبل .

العلوم العقلية والطبيعية :

وكان جو الفكر في القرن الرابع الهجري وما بعده من القرون مهياً للعلوم العقلية والفلسفية لما بثه كبار الفلاسفة المسلمين في المشرق والمغرب من افكار فلسفية ، وما نقلوه عن كبار فلاسفة اليونان ، وقد شهد هذا العصر الفارابي وابن سينا وابن رشد .

عاش الأول في ظل الدولة الحمدانية بحلب غير بعيد من عصر الفاطميين ، ولا أرضهم التي امتلكوها ، كما عاش الثاني ابن سينا في عصر هذه الدولة الفاطمية وتوفي سنة ٤٢٨ هـ بعد حياة حافلة في ظل السامانيين والبيهيين في بلاد فارس وترك تراثاً ضخماً أهم ما فيه جمعه بين الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية .

قال عنه ابن الأثير :^(١) « ففى سنة ٤٢٨ هـ مات أبو علي ابن سينا الحكيم الفيلسوف وهو صاحب التصانيف السائرة على مذهب الفلاسفة . وكان موته بأصبهان ، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه » . ثم يقول ابن الأثير « ولا شك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلده » .

ونلاحظ أن ابن الأثير وهو المؤرخ السني الذي عاش في ظل دولة سنية متشددة لمذهب أهل السنة قد اتهم الأمير والفيلسوف بفساد العقيدة والإلحاد لأن أهل السنة يكرهون الفلسفة والفلاسفة ، ويتعقبونهم ، ويحجرون عليهم ، بل ويقتلونهم أحياناً .

والأمر مختلف بالنسبة للفاطميين والبيهيين فقد شجعوا الفلاسفة ، ومع ذلك فإن ابن

(١) الكامل ص ٨ وفيات سنة ٤٢٨ هـ

سينا لم يكن فاسد العقيدة خارجاً على الإسلام كما صوره ابن الأثير ملحداً .

وقد اعترف ابن سينا بمنهجه في الحياة ، فأكد على التزامه بمحدود الدين « وكنت كلما أتخبر في مسألة أو لم أكن أظفر بالحّد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتليت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المنغلق ، ويسر لي المتعسر وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي ، وأشتغل بالقراءة والكتابة » .

وربما كان في حياته بعض التساهل أو التحرر الذي غلب على كثير من الناس ممن أقبلوا على الحياة ولم يرفضوها ، ورأوا أن الله زين للإنسان الدنيا ليتمتع بها مادام لا يهمل أداء فروض دينه .

وقد كان الفاطميون كذلك لا يرون بأساً من الاستمتاع بملاذ الحياة مخام الإنسان مؤمناً بالله موحداً مؤدياً لفروض دينه وواجباته ، مقبلاً على ما أحلّ له ممتنعاً عما حرم عليه .

والفلسفة والعلوم العقلية والطبيعية كلها متصل بعضها ببعض ، وقد بنى الفاطميون دار الحكمة واهتموا بتدريس الفلسفة والعلوم العقلية والطب والرياضيات وعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك .

وكان للطب في مصر الإسلامية والفاطمية خاصة مكانة مرموقة ، وكان الخلفاء يهتمون بالطب والأطباء ، كذلك جمع بعض العلماء بين العلوم المختلفة والطب .

وأشار أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية إلى اهتمام المصريين بعلمى الطب والفلك ، كما شغلوا بالتنجيم ، واستقراء أحوال النجوم ، وما توحى لهم بما يعتقدونه علماً أو رجماً بالغيب .

يقول أمية « إن الأطباء المصريين في عصره في آخريات القرن الخامس لم يتقنوا صناعة الطب لأنهم لم يبحثوا في علل المرض بقدر بحثهم عن الدواء لهذا المرض . قال : فلما لم يأخذوا أنفسهم بالإلتقان ، بل استعالموه ، واستعملوا الأمد إليه ، ورأوا أن غرضهم من صناعة الطب الذي هو عندهم ، وبحسب رأيهم — التكبُّب بما يتم لهم بأقرب مما شرطه الأوائل متناولاً ، وأسهل مرأماً ، لم يحفظوا غير أسماء أدوية قليلة العدد ، يصرفونها في مداواة كل مريض دون إعمال فكرهم في حقيقة نوعه وسببه ، ومقتضيه وموجبه »^(١)

(١) الرسالة المصرية ص ٢٣

وكلمات ابن أمية تصدر عن صدر مسجود ، ونفس غير صافية نحو المصريين لما لاقاه من المحنة على يد الوزير الأفضل فقضى زمناً في السجن خرج بعده ، وفي نفسه ما فيها نحو المصريين ، ولا ننسى كذلك إن هذه الرسالة موجهة إلى عدو للدولة الفاطمية في مصر هو أبو طاهر يحيى بن تميم بن المعز صاحب القيروان ، والذي كان موقفه المستنصر من أبيه مانعاً عنه .

ومع ذلك فإن مصر الفاطمية قد أخرجت جماعة من مشاهير الأطباء كابن رضوان كما نبغ في الفلك جماعة ، واشتهر في العلوم الرياضية والطبيعية ابن الهيثم (الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ)^(١) .

جاء مصر من البصرة في أيام الحاكم وأقام بها حتى آخر عمره ، وفيها أبدع معظم مؤلفاته ، ونظرياته ، وقد برع في الرياضيات والطبيعات . وكانت له مشاركة في الطب .

وكان مصدر حركة فلسفية وعقلية كبيرة في القاهرة في عصره ، وكان يقول : « إني لم أزل منذ عهد الصبا مروّعاً باعتقادات هذا الناس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقد من الرأي ، فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ، ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به تتكشف تمويهات الظنون ، وتنقشع غياهبات المتشكك المفتون » .

وقد ألف ابن الهيثم نحو مائتي كتاب في الرياضيات والطبيعة والفلسفة ظلت عماد الناس في الشرق والغرب — وبخاصة كتاب « المناظر » في علم الضوء .

وما زال يؤلف ويشرح ويلخص في حركة دائبة حتى توفى سنة ٤٣٠ هـ .

ولم يكن اهتمامنا بإيراد جهود الفاطميين في العلوم العقلية والطبيعية إلا للتأكيد على صبغة هذا العصر الفكرية ، ومناهجهم العلمية التي أثرت في كل المجالات .

علم التاريخ :

ظهر في عصر الفاطميين جماعة من المؤرخين المشهورين ، وإن لم يرتفع صيتهم ارتفاع

(١) أشهر ابن الهيثم في حضارة الغرب الأوربي كأحد كبار علماء المسلمين في علم الطبيعيات وكتب عنه الدكتور مصطفى مشرفه بحثاً جليلاً حول اكتشافاته في علم الضوء .

صيت غيرهم من المؤرخين للأسباب التي عرضنا لها في اختفاء ذكر كثير من اعلام هذا العصر وعلمائه . ومن كبار مؤرخي العصر القضاعي ، والمسيحي ، وابن ميسر ، وابن الرقيق ولما كان علم التاريخ قريب الأسباب ، متصل الوشائج بعلوم الأدب ، فلا بأس أن نقف وقفة مع هؤلاء نتعرف عليهم ، وعلى كتبهم ، وأساليبهم في كتابة التاريخ ، وقد تعددت مشاربهم ، واختلفت منازعهم ونياتهم ، وتنوعت ثقافتهم واهتماماتهم .

والمسيحي

هو الأمير عز الملك بن أبي القاسم عبيد الله أحمد المعروف بالمسيحي الحراني الأصل المصري المولد والحياة . ولد سنة ٣٦٦ هـ ، واتصل في صباه بخدمة الحاكم بأمر الله بين جنوده ، ومازال يرقى في الجندية حتى صار أميراً على اقليم البهنسا والقيس بصعيد مصر ، ثم ولى ديوان الترتيب .

وكان يجلس إلى الحاكم وإلى ابنه الظاهر ، وسجل هذا كله في تاريخه .

وميزة تاريخ المسيحي أنه يدون أحداثاً ومشاهدات يومية عاينها وعاصرها المؤرخ وشارك في بعضها .

وقد وصف المسيحي تاريخه بقوله : « التاريخ الجليل قدره ، الذي يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه ، وهو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء — وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم » .

ولم يكن المسيحي مؤرخاً ، يلتزم أسلوب كثير من المؤرخين في ذكر الاحداث سرداً بل كان أدبياً ذواقه — له أسلوبه الطلي ، الذي يكسب وصفه للأحداث جمالاً كما أنه لا يخلو وصفه أو تحريره للوقائع التي يدونها من انطباع خاص ، أو موقف ذاتي .

يقول في أحداث سنة ٤١٤ هـ^(١) « وفي يوم الأحد لإثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر جلس أمير المؤمنين للناس في المجلس الذي يجلس فيه أبوه بقصر الذهب ودخل

(١) أخبار مصر في سنتين للمسيحي تحقيق وليم ج. ميلورد وطبع هيئة الكتاب ص ٥٨

الناس إليه من باب العيد ، ودخلت فيمن دخل على رضى ، وجلسنا بحضرته عليه السلام — مع من جرى رضى بالجلوس . ودخل إليه حسين بن حسن بن حمدان المقلب بناصر الدولة المستخدم — كان — بطرابلس ، لأنه وصل فى هذا اليوم مصروفا عن عمله ، فلقى بالبند والطبول . وكان عدة البند أربعين بندا ملونة ، وخمسة بند مذهب . ودخل بدخوله الشريف ابن موسى المقيم — كان — بدمشق ، فلما وصلا إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام — قبالا التراب ، ثم قبالا يده ، ووقفا بين يديه ، فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وكان الأمر لهما القائد معضاد عنه — عليه السلام . وكان جلوسهما بين الصفيين . ثم انقضى السلام وانصرف الناس .

ولما كان وسط نهار هذا اليوم نزلت طائفة من جوارى القصر ، ومعها طائفة من الخدم ، إلى دار الجوهر ودار الصرف^(١) ، ودار الأنماط ، فابتاعوا من جميعها رجلا ، وعادوا إلى القاهرة المحروسة .

ومن المؤرخين المشهورين ابن زولاق الحسن بن ابراهيم اللبشى

وله عدة كتب مشهورة منها سيرة محمد بن طنجج الاخشيد ، وأخبار سيبويه المصرى وسيرة كافور ، وسيرة جوهر الصقلى ، وسيرة المعز لدين الله ، وسيرة العزيز بالله وكتاب « التاريخ الكبير » على السنين ، وكتاب « خطط مصر » .

وفقد أكثر هذه الكتب — كما حدث لأكثر التراث الفاطمى — ولكن كثيرا من المؤلفين والمؤرخين نقلوا عنه ، وبخاصة فى التاريخ للعصر ، ومن هؤلاء ابن عبد الظاهر وابن خلكان ، وابن فضل الله العمرى ، والنويرى ، وابن حجر ، والمقرئزى والسيوطى .

ومن المؤرخين الكبار القضاعى أبو عبد الله محمد بن سلامة (توفى سنة ٤٥٤ هـ) من مؤرخى عهد المستنصر . وقد تفقه على مذهب الشافعى ، ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء . وخدم الوزير الجرجائى ، إذ جعله كاتب علامته ، وعمل فى ديوان الإنشاء ، وأوفده سنة ٤٤٧ هـ الخليفة المستنصر إلى بيزنطة حيث التقى بتيودوره امبراطورة الروم فى القسطنطينية ليتحدث معها فى أمر الصلح وعقد مهادنة بين الجانبين . ولكن هذه السفارة لم تصل فيما يبدو إلى إقرار السلام بين الروم والفاطمين .

(١) دار الجوهر ، ودار الصرف ، ودار الأنماط أسواق مشهورة بالفسطاط كانت تقع شرق جامع عمرو وجوه .

ومن كتبه في التاريخ « تاريخ الخلفاء » . وخطط مصر واسمه « المختار في ذكر الخطوط والآثار » . وقد أفاد منه المقرئى فائدة كبيرة ، وكان عوناً له على تأليف كتابه الخطوط أو « المواعظ والاعتبار » . كما أخذ عنه كثير من معاصريه ومن جاءوا بعده .

ومن مشاهير المؤرخين الرقيق القيروانى : إبراهيم بن القاسم^(١) .

وعرف الرقيق بالكاتب والنديم ، فقد تولى الكتابة في ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل بالقيروان مدة نيف وعشرين سنة . ويمكن القول على وجه التقريب أنه ولد بالقيروان في منتصف القرن الرابع الهجرى . وياشر الكتابة في الديوان بحضرة الدولة الصنهاجية بعد خروج المعز إلى القاهرة ، وظل كذلك أيام المنصور بن يوسف بن زهرى ، وابنه باديس ، وابنه المعز .

وتوجه مرتين أو ثلاثة إلى القاهرة سفيراً عن الصنهاجية ، بقصد تأكيد الولاء للخليفة الفاطمى بمصر قبل حدوث الجفوة أيام المستنصر .

فقد سافر سنة ٣٨٦ هـ من قبل المنصور إلى العزيز بالله ، ثم فى سنة ٣٨٨ هـ لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وحمل فى هذه السفارة هدايا ثمينة من الأمير باديس بن المنصور ، مع سجل التهنئة ، وألقى بين يدي الحاكم قصيدة جيدة .

وبعد الرقيق أدبياً ، وشاعراً له كثير من الشعر الجيد وربما توفى على الأرجح سنة ٤٢٥ هـ^(٢) وأما كتابه فى التاريخ « تاريخ أفريقية والمغرب » فهو فى عشرة مجلدات — على ما تذكر — كتب التراجم والمصادر التى تحدثت عنه . وابتدأ فيه بأخبار الفتح العربى إلى نهاية سنة ٤١٧ هـ ومنه قسم مهم شهد المؤلف حوادثه بنفسه ، وكان ممن عايشها وشارك فيها بما كتب من الرسائل المتبادلة بين الأمراء .

ولم يبق من هذا التاريخ سوى قطعة صغيرة^(٣)

ويقول المنجى الكهمى : « لا نغلو إذا قلنا إن التاريخ الذى كتبه الرقيق القيروانى كان

(١) راجع فى تاريخ حياته مقدمة كتاب المختار من قطب السور بتحقيق عبد الحفيظ منصور وطبع مؤسسات عبد الكريم ابن عبد الله سنة ١٩٧٦ م بتونس وفى مقدمة تاريخ أفريقيا بتحقيق المنجى الكهمى نشر تونس ص ٥ ج

(٢) راجع المختار ص ١٤

(٣) قام بنشرها المنجى الكهمى وسبقت الإشارة إليه

يعد أوفى وأشمل ما كتب عن بلاد أفريقية والمغرب ، وما تعاقب فيها من الأحداث منذ مطلع تاريخها الإسلامى إلى القرن الخامس .

وقد نقل عنه واعتمد عليه جماعة من المؤرخين من بعده أمثال ابن عذارى فى « البيان المغرب » والنويرى فى « نهاية الأرب » ، وابن خلدون فى تاريخه الكبير ... وغيرهم وكذلك اعتمد عليه عز الدين بن الأثير كثيرا فى تاريخه فيما يتصل بأخبار المغرب وأفريقية حتى القرن الخامس .

ويقول المنجى الكعبى : « ولا نستطيع تكوين فكرة كاملة عن أسلوب الرقيق فى تاريخه ، ولا عن المنهج الذى اتبعه فى سرد الأخبار وتدوين الحوادث ، واستخدامه للمصادر القديمة ، ولا يمكن لنا كذلك أن نقف على خصائص شخصيته وعقليته كمؤرخ ، وذلك لأن هذه القطعة اليسيرة من تاريخه لا تسمح لنا بفكرة محدودة ، ولا قول فصل فى هذه الأمور . وإنما حسبنا أن نتلمس من خلال هذه القطعة (التى قام بنشرها) بعض مايلقى ضوءاً على طريقته فى التأريخ وأسلوبه الكتابى » .

ونورد قطعة من هذا التاريخ لنعرض لطريقته . قال وقد ذكر بعض حروب عقبة بن نافع بافريقية :

« .. ثم عزم عقبة على الغزو فى سبيل الله ، وترك بالقيروان جنداً من المسلمين ، واستخلف عليها زهير بن قيس ، ودعا أولاده فقال له : إني بعثت نفسى من أجل الله عز وجل ، « ونذرت » أن أجاهد من كفر حتى ألحق بالله ، ولست أدري أترونى بعد يومى هذا أو أراكم ، لأن أملى الموت فى سبيل الله . أو ردى إليكم كما أحب ، ثم قال : « اللهم تقبل منى نفسى فى رضاك » . ومضى فى عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية ، فكانت النصرارى تهرب من طريقه يميناً وشمالاً ، واحتصر صاحب قلعة مجانة فلجأ النصرارى إلى مدينة باغاية ، واجتمعوا بها ، فنزل عليها ، وخرجوا إليه ، فقاتلهم قتالاً شديداً فقتلهم قتلاً ذريعاً ، وأخذ لهم خيلاً كثيرة ، لم ير المسلمون فى مغازيم أصلب منها ، وكانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها . ودخل بقية الروم حصنهم ، وكره عقبة أن يقيم عليها ، فمضى إلى المسن ، وكانت فى ذلك الوقت من أعظم مدائن الروم ، فلجأ إليها من كان حولها منهم ، وخرجوا إليهم فى عدة وقوة ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزموا ، فقاتلهم إلى باب حصنهم فأصاب غنائم كثيرة ، وكره المقام عليها ،

فرحل إلى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة لهم قدراً فقالوا مدينة يقال لها « أذنة »
ومنها الملك ... وكان حولها ثلاثمائة قرية وكلها عامرة فلما بلغهم أمره لجأوا إلى حصنهم ،
وهرب أغلبهم إلى الجبال والوعر . ونزل واديا بينه وبينها ثلاثة أميال ، فلقوه عند الوادى وقت
المساء ، فكره قتالهم في الليل ، فوقف القوم ليلهم كله ساهرين ، فسماه الناس إلى اليوم
« وادى سهر » . فلما أصبح وصلى أمر بالقتال .

وكانت بينهم حربٌ مارأوا قط ممن حاربوه مثلها حتى يفس المسلمون من أنفسهم ،
فأعطاه الله عز وجل الظفر ، فانهزم القوم . وقتل فيها أكبر فرسان البربر ، فذهب عزهم
من الزاب وذلوا آخر الدهر .

علماء اللغة والأدب :

عرفت مصر في هذا العصر جماعة من علماء اللغة والنحو المرموقين والذين كانت لهم
جهود مذكورة في هذين العلمين ، وخلفوا في ذلك كتباً انتفع بها الناس وتداولوها كما أفادوا
كثيراً ممن أخذ عنهم فنبغ وكان له صيت ، وعلو كعب في اللغة والأدب أو مايتصل بهما .

ومن هؤلاء المرموقين المهلبى : على بن أحمد الذى عاش قدرا من حياته في عصر
الاخشيد ، وعاصر مجيء المتنبي إلى مصر أيام كافور ، وامتد به العمر إلى عصر
الفاطميين ، فالتقى بالمعز لدين الله والعزیز بالله وصار من جلسائهما .

وكان المهلبى إماما في النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار وله كتاب في الرد على
المقصود والمحدود لأبن ولاد المصرى وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ في عهد العزيز .

وممنهم : أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوى إمام عصره في هذا العلم . وعُهد
إليه تصحيح رسائل الكتاب في ديوان الإنشاء . وله عدة كتب ، منها شرح على الجمل
للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج .

وله موسوعة في النحو عرفت بين النحويين بعده باسم « تعليق الفرقة » في خمس عشرة
مجلداً . وكان يقرئ منها تلاميذه في حلقاته بجامع عمرو بالقسطاط ، وتوارثوها من بعده .

وفي آخر حياته استعفى من العمل بديوان الإنشاء وتزهد وانقطع للعلم والتدريس في
جامع عمرو وتوفى سنة ٤٦٩ هـ

ومن وفد إلى مصر وأقام العالم اللغوي القيرواني أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي (ت سنة ٤١٤ هـ) وكان في خدمة الخليفة العزيز بالله ووالده من قبله المعز لدين الله ، ويظن أنه وفد معه إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ^(١)

ولد أبو عبد الله محمد بن جعفر بالقيروان في حدود سنة ٣٢٢ هـ ، وتلقى علومه بها ، وكانت آنذاك قسبة دولة الفاطميين بالمغرب وإفريقية قبل انتقالهم إلى عاصمتهم الجديدة القاهرة .

وتنقل بين علماء القيروان في مساجدها الجامعة ، كما تردد على دور الكتب وخزائنها التي حرص على اقتنائها بنو الأغلب ثم الفاطميون من بعدهم .

وكانت خزانة « بيت الحكمة » التي أسسها الأغالبة تمور بنفائس الأسفار وكان الأغالبة قد بذلوا الأموال الطائلة في سبيل اقتناء الكتب من أقاصى البلاد وبأغلى الأثمان^(٢) .

ورحل أبو عبد الله إلى المشرق للترؤد بالعلم ، كغيره من علماء المغاربة فقصده بغداد ، والتقى هناك بشيخه الآمدي (ت ٣٧٠ هـ) الذي أخذ عنه علوم اللغة والأدب ، والشعر خاصة .

وكان أبو عبد الله استاذاً لكثير من علماء وأدباء عصره في القيروان ، مثل ابن رشيقي القيرواني صاحب العمدة الذي أكثر من النقل عنه ، وابن شرف القيرواني وابن الريب الحسين بن محمد التميمي^(٣) .

والتحق القزاز بخدمة المعز لدين الله الفاطمي منذ كان بالقيروان ، وصحبه إلى مصر وقد طلب إليه أن يؤلف له كتاباً في النحو على ما يقترحه عليه ، وظل بمصر على الأرجح حتى تولى العزيز بالله ، فقام بخدمته كذلك . كما عقد المجالس العلمية في الأزهر وغيره .

وربما عاد في عهد الحاكم إلى بلده القيروان ليستأنف جهوده العلمية ، ويأخذ عليه كثير من المشهورين من علماء القيروان وآدابها آنذاك .

(١) راجع ترجمته الوافية للنجي الكمي في كتابه عنه القزاز القيرواني — حياته وآثاره — طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧ وراجع ترجمته في النموذج لابن رشيقي والذخيرة قسم ١

· وظل بها حتى توفى سنة ٤١٢ هـ^(١)

وترك من المؤلفات في علوم اللغة والأدب ماعدته ثلاثة عشر كتاباً أو تزيد من أشهرها كتابه في النحو الذى كلفه به المعز لدين الله وهو كتاب في الحروف ، وإعراب الدريدية وشرحها ، وكتاب المعترض ، والمفترض ، وما يجوز للشاعر في الضرورة ، والجامع في اللغة ، والمثلث ، والعشرات ، والضاد والظاء ، والكلمات الشاكلة الصدر ، وفي الأدب : التعريف والتصريح ، شرح رسالة في البلاغة ، معانى الشعر ، وأدب السلطان .^(٢)

وابن القطاع الصقلى على بن جعفر السعدى ، وفد إلى مصر من بلده صقلية في حدود سنة ٥٠٠ هـ عندما أحس يقرب تملك الفرنج لها . واتخذ مصر وطناً له فلقبه المصريون بالحفاوة والتكريم ، وقربه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فصار من خاصته وجعله مؤدباً لولده في علوم العربية وفنون الأدب .

روى عن أبى بكر الصقلى كتاب الجوهري « الصحاح في اللغة » ، واشتهر بروايته بين العلماء وله حواشى على الصحاح اعتمد عليها ابن برى النحوى المصرى فيما تكلم عليه من حواشى الصحاح وله عدة تصانيف في اللغة والأدب منها في اللغة : كتاب الأسماء ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها . وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية ، وأفعال ابن طريف وغيرها في ثلاث مجلدات .

وله كتاب « الدرة الخطيرة » في شعراء الجزيرة أى جزيرة صقلية ، اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر . ونقل عنه العماد الأصبهاني في الخريدة .

وله كتاب في التاريخ عن « تاريخ صقلية »

وتوفى ابن القطاع بالقاهرة سنة ٥١٥ هـ ودفن قرب مقام الإمام الشافعى .

وعرف في مصر من علماء النحو أبو بكر الأدفوى (ت سنة ٣٨٨ هـ) وهو من تلاميذ أبى جعفر النحاس ، ومن أشهر نخبة مصر في زمنه ، وبرع كذلك في علوم القرآن وله كتاب في هذا يقع في مائة وعشرين مجلداً .

(١) ذكره د. محمد كامل حسين أنه توفى بالقاهرة في أدب مصر الفاطمية ص ١١٦

(٢) راجع المصدر السابق ص ٤٤ وما بعدها .

الفنون العمارة والزخارف المعمارية

عرف الفاطميون باهتمامهم بالعمارة ، وبناء القصور والمساجد والمدارس ، وحشدوا لها نابهى الصناع والمهندسين والفنانين ، فجاءت آية في إحكام البناء وجماله وحسن تناسبه ويديع زخارفه .

تشهد بذلك آثارهم الباقية منها في مدن القيروان والمهدية والمنصورية في تونس ومساجد الأزهر والحاكم ومسجد الأقمر وغيرها كمسجد الصالح بن رزيك بالقاهرة ويدير الجمال بالعطارين بالاسكندرية .

ومن قصورهم بالقيروان وأفريقية قصر المنصور الكبير بالمنصورية بناه المنصور والد المعز سنة ٣٣٧ هـ . ووصفه الشاعر علي بن الأيادي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ بقوله :

ولما استطال المجد واستولت العلا	على المجد وامتد الرواق المروءى
بنى قبة للملك في وسط جنة	لها منظر يزهى به الطرف موني
بمشوقة الساحات أما عراصها	فحضر ، وأما طيرها فهي تطوى
تحف بقصر ذى قصور كأنما	ترى البحر في أرجائه يتدفق
له بركة للماء ملء فضائه	تخب بقطرها الميؤن وتعتق
لها جدول ينصب فيها كأنه	حسام جللاه الفن بالأرض ملصق
لها مجلس قد قام في وسط مايتها	كما قام في فيض الفرات الخورق
كان صفاء الماء فيها لحسنه	زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق
إذا بث فيها الليل أشخاص نجمه	رأيت وجوه الزنج بالنار تحرق
وإن صافحتها الشمس لاحت كأنها	فرند على تاج المعز ورونق

وامتازت قصورهم بمصر بزخارفها وثرأ ما استخدم فيها من الألوان وماء الذهب والأحجار الكريمة أحيانا . وقد عرفت قاعة الذهب أو قصره الذى كان به عرش الخليفة بئر زخارفه ، وكانت حوائطه وسقفه كلها مموهة بالذهب . وكذا ستوره المزركشة بجميل الزخارف وألوان الصور للإنسان والحيوان والنبات .

وفي جامع المهديّة الذي يتركز مصلاه على أعمدة بينا تتكون بواتكه من عقود مدبية الرعوس قائمة على دعائم مبنية ، تلفت النظر منشأة أمامية فخمة على المدخل لم يكن مثالها معروفا قبل ذلك الحين .

وترتبط دور العبادة من المساجد وغيرها في القاهرة بأنماط من الطرز المعمارية المشرقية والمغربية جميعاً ، مزج بينها المعماري الفاطمي في جمال وإبداع ، وتحس بعناصر من جامع ابن طولون الى جانب عناصر أخرى مقتبسة عن جامع عقبة بالقيروان .

وتبدو في الزخارف التي تعلو مدخل الجامع الأزهر آثار فارسية وكذلك أروقة العقود المدبية في المصلى ومنها رواق القبلة . وأما ما يخف بالرواق من أعمدة مزدوجة فلعله متأثر بجامع القيروان .

وكذلك الحال في جامع الحاكم ، بنى على غرار جامع ابن طولون ، وتوجد بمآذن الجامع الأقمر زخارف شاعت أنماطها بعد ذلك في العمارات الفاطمية ، مثل جامع الجيوشي والصالح بن رزيك .

يقول الدكتور أحمد موسى :^(١) إن المادة الحجرية التي استعملت بمقادير كثيرة لتزيين واجهات جوامع القاهرة قد عني بزخرفتها في حالات كثيرة . والظاهر أن النماذج المغربية كانت الأصل الذي اتبع في بادئ الأمر ، ... وهو يشبه أكبر الشبه مثيله المعاصر له في مدينة الزهراء بالأندلس .

وتمتزج في الأشرطة الزخرفية ببعض مساجد القاهرة كمسجد طلائع بن رزيك عناصر زخرفية من الأرابيسك تتمتزج فيها الآثار العباسية الشرقية بالآثار المغربية وتوجد في بعضها شرائط ذات قاعدة من زخرفة الأرابيسك عليها خطوط كوفية مزخرفة مريشة ومورقة . لا يمكن إنكار أصلها القرطبي^(٢) .

وقد برع الفاطميون في صنع المحاريب والمنابر الخشبية المزخرفة ، والأبواب الخشبية للجوامع .

(١) الفن الإسلامي ص ٤٩ لأرنست كونل وترجمة الدكتور أحمد موسى — طبع دار صادر بيروت سنة ١٩٦٦

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠

وقد برع الفنان الفاطمي في الزخرفة المنحوتة سواء على الخشب أو على الجدران والتي تصور عناصر بشرية وحيوانية ونباتية .

وافتن الفاطميون في تشكيل وزخرفة أدواتهم التي يستخدمونها في حياتهم اليومية في منازلهم وفي أعمالهم ، كما اهتموا بتشكيل وزخرفة الحلّى واشتهرت الآلات والأدوات المصنوعة من العاج ، وقد حفظت لنا بعض المتاحف الاسلامية مجموعة من الأبراق العاجية وصناديق الحلّى تحمل ميزات النحت الفاطمي التي تتمثل في رسوم الحيوان داخل دوائر ، ومناظر صيد .

كما امتاز الفنان الفاطمي في صناعة وزخرفة أدوات المائدة كالدوايق والأكواب ، والكؤوس ، والصحاف ، وكلها مصنوعة من البللور النصخري وعلى برسوم من الحيوان والطير ، وبعض الكتابات .

وقد أشرنا إلى أن الخلفاء كانوا يهلون في بعض المناسبات الصواني عليها صور لمغنين ومغنيات .

ونقلوا التصوير ذا البريق الممدنى من الألوان الخزفية الى الزجاج وامتازوا في صناعة بعض الأدوات من البرونز كالشمعدانات ، والمجامر ، والدفوف التي زخرفت بزخارف محفورة على سطحها تشمل كذلك عناصر حيوانية ونباتية .

ومنها صورة على شكل عنقاء محفوظة بأحد المتاحف^(١)

وبرعوا في صناعة الخزف ، واشتهر في الفن الاسلامى « طراز الفسطاط » لما عثر عليه في بعض أماكنها وحفرياتها من نماذج لهذا الفن .

النسيج والملبوسات :

وقد أشرنا الى امتياز مصر منذ قديم الزمان بمنسوجاتها التي اشتهرت بها في العالم القديم والمصور الوسطى والتي عرف منها القباطى والديقى ، وهى منسوجات غاية في الدقة والزخرفة والمنطرزة بخيوط من الذهب والفضة ، ومنقوش عليها نقوش وصور لعناصر بشرية

(١) الفن الإسلامى ٥٤ - ٥٥

وحیوانية ونباتية .

واشتهرت بها بعض البلاد المصرية التى نسبت إليها ، كما أشرنا من قبل مثل تنيس ودمياط .

وبالغ الفاطميون فى العناية بالملبوسات ، ولهذا فقد أولوا مصانع النسيج جل اهتمامهم ، ویدت المنسوجات الفاطمية من التیل بالغة الجمال . وكان للحياة المترفة التى عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال الدولة أثرها فى الاهتمام بالملابس المزخرفة من الثياب والعمائم .

وكان لاهتمامهم بكسوة الكعبة أثر واضح فى المبالغة بزخرفتها بالزخارف والآيات القرآنية ، المذهبة ، والمرصعة على ما أشرنا .

قال المقرئى ذاكراً ما كان يقدم من هدايا فى عيد كسر الخليج . « وقدم بين یدى الخليفة الصوانى الذهبية التى وقع التناهى فيها من أشكال الصور الآدمية والوحشية ، من الفيلة ، والزرافات ونحوها المعمولة من الذهب والفضة .

وذكر المقرئى أن هذه الصوانى بالتمائيل والصور كانت لاتقدم إلى رجال الدين والقضاة توقيراً للشریعة ، بل تقدم الى الخليفة والأمراء^(١) .

وتدل هذه الآثار والأخبار جميعاً على ما بلغه الفنان الفاطمى من درجة فى اتقان فن النحت والتصوير وذكر المقرئى أنهم كانوا يصنعون التمايل من العنبر وغيره على شكل الفيلة والأنياب من الفضة والعينان من الجواهر كبيرتان وفى كل منهما مسمار ذهب .

يقول :

« ويجلس الخليفة على سرير من خشب نفيس بمتكآت فضة وذهب وعليه عدة رجال ركبان وعليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدُّرَق ، وجميع ذلك فضة ، ثم صور السباع منجورة من عود ، وعيناها من يواقيت حمراء .

كذلك اهتموا بالتصوير على السراذقات ، والخيام التى تنصب للخليفة وكانت تزین بصور لمناظر الصيد وعليها من الحيوان والانسان والنبات ما يخلب عين الناظر .

وسبق أن عرفنا خيمة لسيف الدولة من هذا النوع جاءت فى وصف أحد الشعراء .

(١) حطط المقرئى ٤٢٩/١

وكذلك كان الحال عند الفاطميين .

ويحتفظ المتحف الاسلامى بالقاهرة بمجموعة فريدة من ألواح الخشب عليها صور بارزة مختلفة يمثل بعضها مجالس للغناء والطرب ، وبعضها مناظر للمنادمة ومعاقرة الشراب . وفي مشاهد أخرى منها ترى أصحاب آلات الإيقاع ، وبين أيديهم العود والبربط ، والرباب ، والدف ، والمزمار ، والمزهر ، إلى غير ذلك من الآلات الموسيقية .

ويرجع تاريخ تلك الألواح إلى القرنين الرابع والخامس من الهجرة . يعنى إلى زمن ازدهار الحضارة الفاطمية في مصر .

ويقول الدكتور زكى محمد حسن عن تلك الألواح^(١) :

« إن تلك الألواح الخشبية كانت مستعملة في تغطية جدار بقصر الخليفة العزيز بن المعز لدين الله ، وهى مناظر منقوشة فيها رسوم مطربين ومطربات ، وعازفات على آلات موسيقية ، وراقصين وراقصات ، ورسم الأمير أو الخليفة جالساً على أريكة وفي يده اليمنى كأس ، وفى اليسرى زهرة ، وعلى رأسه عمامة ، وإلى يساره الساق يصب الخمر فى كأس ، وإلى يمينه تابع يقدم إليه صينية ذات غطاء ، المفروض أن تحته شيئاً من الطعام أو الحلوى » .

قال حسن حسنى عبد الوهاب (ورقات ٢ ص ٢٠٣) :

« وقد وصلت نماذج من فن التصوير عند الفاطميين ، منها لوح رخامى عثر عليه فى بعض انقاض مدينة المهديّة عليه صورة نصف بارزة تمثل شخصين جالسين ، الأول جهة اليمين لأمر عرى متربع وعليه حلة حرير على زنديها توشيح طراز جميل ، وعلى رأسه تاج مرصع بالأحجار الثمينة ، ويتفرع التاج من أعلاه إلى ثلاثة أفرع مثلثة الشكل على غمط التيجان الكروية عند الفرس وفى وسط الأمير نطاق محلى أيضاً بالجوهر ، ويده اليمنى كأس أوجام من البللور ، وبجانب الأمير بالجهة اليسرى صورة مغنية متربعة أيضاً ويدها مزمار طويل تنفخ فيه » .

والملاحظ فى فن التصوير الفاطمى عدم تخرج الفنان من رسم الأشخاص والحيوان فهل

(١) التصوير عند العرب للدكتور زكى محمد حسن - طبع مصر سنة ١٩٤٢ ص ٢٥٦

كان هذا ترخصاً من الفنان الفاطمي من الناحية الدينية ، أم أن الفاطميين كانوا لا يرون في ذلك حرجاً ، وربما كان الحرج الذي أشار إليه المقرئ في النص الذي أوردناه خاصاً برجال الدين وتوقيع الشريعة راجعاً لأمرين ، الأمر الأول : عزوف بعض شيوخ من مذهب أهل السنة عن مثل هذه الصور واستخدامها في أدوات منازلهم ولباسهم اعتقاداً منهم في تحريم الاسلام أو كراهته للصور معتمدين في ذلك على بعض النصوص والآثار التي قد لاتكون ثابتة أو ربما لم يحسنوا تأويلها .

علماً بأن خلفاء المسلمين منذ عصر الأمويين لم يتحرجوا من تصوير الحيوان والانسان وقد وجدت في بعض قصور الأمويين بالشام صور آدمية فيما كشف عنه من آثارها فضلاً عما تواتر من أخبار قصور العباسيين ببغداد وما كانت تعمر به من تماثيل للحيوان والطير ، وكذلك نوافير الماء والبرك التي عليها صور الحيوان ، ناهيك عن الأمويين في الاندلس ومن تبعهم من ملوك المسلمين وأمرائهم في قرطبة واشبيلية وغرناطة .

وقد يقال إن الشيعة ترخصوا في هذا التصوير ، ولم يروا فيه حرجاً ، ولا كراهة وربما كان ذلك من أسباب اقبال فناني ايران أو فارس من المسلمين ، وكذلك بعض فناني الهند في العصور الاسلامية المختلفة على التصوير للحيوان والبشر لشيوع مذهب الشيعة بين الفرس منذ قديم الزمان .

يقول حيدر بامات في حديث عن الفن الاسلامي^(١)

« نشأ الفن الاسلامي عن امتزاج طرز الشرق القديم الخاص بالبحر المتوسط . ولم يكد الفن الاسلامي يقوم حتى انتقلت صوره إلى مختلف شعوب دولة الاسلام المترامية الأطراف ، وتنتحلها هذه الشعوب ويكيفها كل واحد منها وفق عبقرية الخاصة ، وما يعانى من المؤثرات الأجنبية .

وينجادل النقاد في أهمية مالفن الجزري أو البيزنطي ، أو القبطي ، أو الفارسي الساساني ، أو الهندي أو المغولي ، أو الصيني من حصة في الفن الإسلامي ، ولكن مع بقاء الأمر القائل بوجود طراز إسلامي يسهل تمييزه بين جميع الطرز . فهذه الوحدة في الطراز تنشأ ،

(١) مجال الإسلام ترجمة عادل رعبتر — الفصل الثاني عشر ص ٤٠٧ ويدها .

قبل كل شيء عن الوحدة الروحية في المجتمع الاسلامى ، وعن الشعور الخاص الذى أوجبه تعاليم القرآن .

وبما ساعد هذه الوحدة ، وسهل أمرها ما بين شعوب الشرق من تجانس نفسى وما ساد بينها من الصلات الثقافية والتجارية الكثيرة التى دامت حتى فى أدوار الانقسام .

وقد أعان العامل الدينى على منح الفن الإسلامى صبغة روحانية مجردة إلى الغاية ، وما بين جميع شعوب الشرق من أذواق مشتركة حملها على الإمعان فى الزخرفة وحب الأشكال الهيف والكلف بالمواد الثمينة .

وبما وقع غالباً أن عوتب القرآن (كذا) على فرضه بتحريم محاكاة الوجوه الحية إلى صبغة كثيرة التجريد مما أضفى صبغة ومسحة على الفن الإسلامى . فعرف بتقييده ثم إضعافه حسَّ التصوير المائل لدى الأمم التى دخلت الإسلام . وهكذا يكون الفن الإسلامى قد حصر منذ البداية ضمن رسوم ضيقة ، فما كان فن التصوير وفن النحت ليزدهرا بهذا ازدهاراً طبيعياً . ومن ثم أتيح للمتفنين أن يمثلوا أزهى ما يكون من المركبات الزخرفية ما خلوا من قدرة على إحياء أشكال حكم عليها أن تبقى بلا حياة .

لأيؤيد القرآن هذه القضية الكثيرة الانتشار حتى بين المسلمين . أحل لقد حُدَّ فى إثر الوثنية بشدة . ولكن لا يوجد فى مكان منه — القرآن — حظر صريح لتصوير الموحودات الحية . ويستند نفى صور الإنسان والحيوان إلى أحاديث قليلة إلى الغاية ، يمكن أن تنكر صحتها لعدم مطابقتها لنص القرآن وروحه .

الموسيقى والغناء

لقد اهتم العرب والمسلمون بالموسيقى والغناء منذ عصور الإسلام الأولى واشتهر بينهم جماعة من الموسيقيين والمغنين على اختلاف العصور وضرب بهم المثل فى الصنعة ، وتداولت كتب الأدب والتاريخ أخبارهم ، وشاع هذا فى المشرق والمغرب والأندلس على السواء . وكما أن الفن الإسلامى المعمارى والتشكيلى قد ظهرت فيه سمات خاصة بالعرب والمسلمين ، واكتسب مع الزمان ملامح جديدة بما أضافه إليه تراث الأمم التى دخلت الإسلام من فرس وهنود ومصريين أقباط ومغاربة وغيرهم وقد أثرت تلك الملامح تيار الموسيقى وأضافت إلى الغناء إضافات عديدة لكنها لم تعدل به عن شخصيته وطابعه الموروث .

وكان الموقف من الموسيقى والغناء كالموقف من بقية الفنون التشكيلية من حيث التشدد أو التسامح والترخص في أنواع منها ، أو جميعها ، وأقام المتشددون والمتسامحون والترخصون حججهم على آثار منقولة لم تثبت بالقطع ، أو لم يفهموا مراميها أو أساءوا تأويلها وحرفوه عن جهته . لكنه لم يثبت في نص قرآني تحريم للغناء ولا الموسيقى ولا السماع .

وربما كان موقف التشدد من بعض المذاهب الإسلامية بخصوص موضوع السماع أو الموسيقى والغناء مجرد رد فعل لما شاع في بعض المجتمعات وتحت ظروف بعينها من تطرف في الأداء ومصاحبة الموسيقى والغناء بصور من الخلاعة والمجون أدى ببعض علماء المسلمين إلى سد هذا الباب من باب سد الذرائع مادام هذا سيكون مدخلاً للهو غير المستباح والمتعة المحرمة .^(١)

وقد أشرنا إلى أن الشيعة عامة وقفوا من الفنون جميعها والمتعة الحلال والزينة غير المحرمة بنص قرآني أو حديث صحيح ثابت يرتضونه موقف الإباحة . والأصل في هذه الأمور الإباحة ما لم يرد نص واضح وصريح في التحريم وليس العكس .

وهكذا كان الحال في الدولة الفاطمية ، لم يحرموا المتعة والزينة ، حتى بالغ الناس فيها ، كما بالغ بعض الخلفاء ، والناس على دين ملوكهم ، وأحدث الفاطميون مناسبات كثيرة جعلوها مواسم للفرحة والبهجة والموسيقى وسماع الغناء .

ومر بنا في الحديث عن الحياة الاجتماعية صور من تلك الاحتفالات . وعرفنا كيف كان الخلفاء يهتمون بالموسيقى وسماع الغناء في قصورهم . ويحرصون على اقتناء الجوارى المغنيات ، ويدفعون فيهن أثماناً غالية ، كما كانوا يجزلون العطاء للمغنين والموسيقيين . واشتهر الأمير تميم بن المعز بحبه للسماع ، حتى إنه كان يؤلف الشعر ليتغنى به بعض جواريه . ويحرص على اقتناء المغنيات من كل مكان ، وقد دفع مبلغاً كبيراً من المال لشراء قينة مغنية من بغداد ، ثم جاءت إلى مصر ولم يدم بقاءها في قصر الأمير حتى عاودها الحنين إلى بلدها فأعادها ، وانتابه بعدها الحزن لفراقها .

وعرف « برجوان » الذي كان من كبار أعوان العزيز بالله ثم صار وصياً على ابنه الحاكم

(١) راجع ما ذكره ابن عبد الوه في موضوع تحريم الغناء وتحليله بالعقد الثالث ١٧٨/٣ ونقله فاروق ص ٣٧ وما بعدها ترجمة حسين نصار

من بعده بحبه للموسيقى وشغفه بالغناء حتى إن ذلك شغله عن مهام الدولة كما يقول المؤرخون .

وكان القرن الرابع الذى ظهر فيه الفاطميون بأفريقية ومصر عصر ازدهار للموسيقى والغناء فقد كان البويهيون فى المشرق والمغرب ممن يعشقون هذه الفنون ، واشتهر بهذا العشق جماعة من سلاطين البويهيين — الشيعة — كعضد الدولة ، وبهاء الدولة .

كما اهتم الحمدانيون فى حلب بالموسيقى والغناء ، ونشأ فى بلاطهم الفارابى الذى وضع كتابا فى الموسيقى ، وكذلك فعل ابن سينا من بعده فى دولة البويهيين ، كما جمع أبو الفرج الأصبهاني كتاباً فى الأغاني والموسيقى يعد مرجعاً هاماً على مدى التاريخ لهذين الفنين .

وكذلك كان الحال فى مصر فى عهد الفاطميين ، وتعرف أن الوزير المخرمى الحسين بن على والذى وزر أبوه للحاكم قد جمع كثيراً من الأغاني فى كتاب (١) .

ويقول العلامة التونسى حسن حسنى عبد الوهاب (٢) :

« إن الموسيقى وفنون التلحين كانا من أجل اهتمامات الفاطميين فى مرحلة ملكهم بالمغرب وظلوا عليه حين ذهبوا إلى مصر » قال : « وقد اعتنى بشأنه الملوك الفواطم مدة اقامتهم بأفريقية عناية خاصة ، وساعد على ذلك — فيما نظن — انتسابهم الى النحلة الشيعية التى لم تكن تر بأساً فى السماع للإيقاع ، كما لم تقل بتحريم التصوير بل إنها كانت تجوز تمثيل الأحياء من آدميين وحيوان فى صورة بارزة منحوتة من الرخام والنحاس ، أو مرسومة بالأدهان على الجدران والمنسوجات والبسط تمثيلاً واقعياً أو خيالياً متقناً » .

ويقول : إن الصلات بين تونس ومصر الفاطمية كانت قوية لأن الفاطميين كانوا خلفاء أفريقيا ويدين لهم أمراء صنهاجة بالولاء (٣) .

وأشار النديم ابن الرقيق إلى اهتمام الناس فى القيروان بالموسيقى والغناء فيما رواه عن الحاجب عبد الوهاب أحد رجال أمراء صنهاجة المرموقين بالقيروان فقال : « كان

(١) راجع تاريخ الموسيقى العربية د. هـ.ج. فارمر ترجمة حسين نصار من سلسلة ألف كتاب رقم (٧) — طبع مكتبة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

(٢) وثائق عن الحضارة العربية بأفريقية ٢٠٣/٢

(٣) المصدر نفسه ٢٠٨/٢

حاجب الدولة في مدة المنصور بن زيري والى القيروان من قبل المعز لدين الله وابنه العزيز . قال : « وهو من ادركته وعاشرته ، وذكرته هاهنا لأنه يلحق بالأمرء المتقدمين غير خارج عنهم ... وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو واللعب والفكاهة والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون . كثيرا ما يقول الأبيات الحسنة في المعاني اللطيفة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة اختراعاً منه وحذقاً . وكانت له في ذلك قريحة وطبع .

فكان إذا لم يزوره أحد من إخوانه حضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته .. وبعض غلماناه . وكل هؤلاء يغنون ويحيدون ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغنى لنفسه ولهم . وكان بشارة الزايم يزمرُ عليه — وهو من حذاق زمرة المشرق ، وكان بعيد الهممة سمحاً . »

ويقول انه كان يرحب بكل من كانت له في صنعة الغناء حنكة ، أو كان له صوت مطرب أو حكاية نادرة . ودخل عليه أحد الطارقين ممن يحسن الغناء ، فرحب به ، ودار الغناء في المجلس كالعادة حتى انتهى الى هذا الطارق الغريب ، فسكتوا واندفع الرجل يغنى بصوت ندى وطبع حسن :

ألا ياديسار ما الهجرُ لكأنك من ثابى
ولو شئت لما استسقي ث غيثاً غير أجفانى
وما الدهر بأمورٍ على تشئت خلالي

فطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الحذق في إشارته ، والطيب في طبعه ، فقال : يا غلام خذ بيده إلى الحمام وعجل على به ، فأدخل الحمام ونظف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ، ودفعه فأجلسه عن يساره ، وأقبل عليه وبسطه فغنى له :

قومي اسرجي النير باللجين واحملي الرطل باليدين
واغمي غفلة الليالي فرما أيقظني لحيني
فقد لعمري أقسرُ منا هلال سؤال كل عين
ذات الخلائيل أبصرته كصفٍ خلخالها اللجين

فطرب ، وشرب ، واستزاده ، فغناه ، فمر يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله ، وأحسن

اليه ، ولم يزل عنده مقرباً مكرماً^(١)

ومن أشهر آلات الموسيقى في ذلك العصر والتي ورد ذكرها في الأخبار العود والمزمار ،
والطنبور ، والصنوج ، والدّف^(٢) .

(١) المختار من قطب السرور للرفيق .

(٢) راجع تاريخ الموسيقى العربية ص ١٨٢/١٨٤

الباب الرابع النشر الكتابة والكتاب

فنون النشر

الخطابة

الكتابة

الرسائل والسجلات

المؤلفات الأدبية — السير الذاتية — الرحلات

الدراسات والنقد

أشهر الكتاب الفاطميين

الأدب الفاطمي بشتي صورته النثرية والشعرية صورة لتلك الحيات السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية ، تتجلى فيه عناصرها جميعا ، والتي أفضنا في ذكر بعضها وأوجزنا في ذكر بعضها الآخر حسب مأمدتنا به مصادر العصر التي لمسنا فيها شحاً ملحوظاً لأسباب أشرنا إليها في حينه .

والظاهرة التي ينبغي أن لا تغرب عن بالنا في هذا الأدب بصفة عامة تتمثل في عدة عناصر ، كلها كانت آثاراً للبيئة ، وما ساد فيها من أحداث وأحوال سواء في دنيا السياسة والملك والحرب والصلح والصراع على السلطة بين الدول أو بين الأفراد ، والجماعات ، والقبائل والأصقاع على اختلاف انتماءاتها العرقية والإقليمية ، أو في دنيا الحياة ، والسلوك والتقاليد ، ورفاهة العيش ونعمته ويسره ، وسعادته وبلهنيته ، أو عبوسه ، ونكباته ، ووحشته ، وبؤسه ، أو في الفكر والثقافة والفن ، وما سادها جميعاً من تيارات نابغة مما استحدثت في هذه الدولة من قيم دينية وعقلية ، وجرأة في مناقشة بعض الثوابت الدينية في حرية ، على ضوء العقل والمقاييس العلمية ، وما صاحب هذا كله في دنيا الفن من تحرر في القيم الفنية أيضاً واعتماد المضمون دون الشكل وحده ، مع عدم إهمال هذا الشكل الذي يكسب الأعمال الفنية قبولاً لدى الجسّ ، يلذ له ، ويرتاح .

كان الأدب إذاً صورة لهذا كله ، وقد تنوعت أساليبه ، وأشكاله وإن ظل في صورته العامة على ماجرت به أقلام الأدباء والكتاب ، أو تحدثت به وانطلقت ألسنة الخطباء والمحدثين ، أو جادت به وتغنت قرائح الشعراء والمنشدين .

ونتناول في أول عرضنا لفنون الأدب في العصر « النثر » بكل أشكاله الخطابية ، والرسائل والسجلات ، والكتب الأدبية ، والسير والسير الذاتية والدراسات الأدبية والنقدية .

وتنوعت بيئات الأدب في بلاد الدولة من المغرب إلى المشرق ، وكانت أهم بيئاته وأكثرها عطاءً ونشاطاً مصر والقاهرة ، والقيروان وأفريقية والشام وبخاصة في عواصمها دمشق وحلب ، والجزيرة الموصل ، وميفارقين ، والحجاز ، واليمن .

وكانت حاضرة الدولة الأولى « القيروان » وما يتصل بها من المدن التي أنشأها الفاطميون كالمهدية والمنصورية مركز النشاط الأدبي والفكري في الدولة ، ثم انتقل هذا

المركز بعد انتقال سلطة الخلافة إلى القاهرة . وظلت مع ذلك القيروان مركز إشعاع وعطاء مستمر وتبادل بينها ومركز الخلافة الجديد في مصر والقاهرة .

الخطابة

كانت الخطابة الدينية هي السائدة في العصر ، ومعظمها في مناسبات يوم الجمعة ، والعيدين ، وقد يخطب الخلفاء الأئمة الفاطميون في مناسبات أخرى كما فعل المعز لدين الله الفاطمي عند وفاة أبيه المنصور . وكان قد كتم خبر وفاته . قال صاحب عيون الأخبار^(١) :

« وكتب أمير المؤمنين المعز لدين الله عليه السلام وفاة والده المنصور صلوات الله عليهما من آخر شهر شوال يوم وفاته إلى عاشر ذى الحجة يوم النحر ، وقد خرج لصلاة العيد ، وعليه شعار السكينة ، وهيبة الإمامة ، فصلى صلاة العيد ثم ارتقى المنبر وخطب خطبته التي أظهر فيها وفاة أمير المؤمنين المنصور بالله . عليه السلام فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الأعز الأقدر الخالق ، المدير ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحد ، الصمد ، الفرد المنفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر مبدع السماوات والأرض بالقدرة ، ومالكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذي كل شيء من موات وحى ناطق بالدعاء له ، والدلالة عليه والشهادة له بالتوحيد والتعظيم والتمجيد . فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله ، وانتهائها إلى الغايات دليل على ألا غاية له . واحاطته بخدودها منبىء بأن لا حد له . فالضعف والعجز ، والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده جل ثناؤه بالإلهية والفردانية ، والقدرة والربوبية ، والتمام والكمال ، والأزل ، والدوام . تبارك الله رب العالمين أحسن كل شيء خلقه ، وتكفل لكل حي رزقه ، ثم هدى بالعقل الذي قامت به حجته ، ووجبت طاعته ، والكتب والرسل الذي تمت بهم حكمته . فصلّى الله عليهم أجمعين ، وعلى محمد سيد المرسلين الذي رفع

(١) عيون الأخبار ص ٢٤ .

ذكره ، وأعلى قدره ، فكرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هادياً للعباد ، ونوراً في البلاد علّم به من الجهل وهدى به من الضلّ ، وكثر به القلّ ، وأعز به من الذلّ ، فألف به بعد الشتات ، ونور به دياجير الظلمات . صلوات الله عليه وعلى آله المهديين . الأخيار الطيبين .

يأيها الناس . إن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يهلككم سدى ، ولم يجعل عليكم في الدين حرجاً ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحاً ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاماً منصوبة ، وفروضا مكتوبة . ومن أفضل أعلامها ، وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق مَبُوءاً إبراهيم خليل الله عليه السلام ، وقبله محمد رسول الله ﷺ . فتقربوا إلى الله بما أمركم به ، ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام ، مقتدين لنبيه محمد نبي الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى . فإن الله عز وجل يقول : ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ فبالتقوى تقبل الأعمال ، ويدرك الأمل .

وكبروا الله على ما هداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدي الإبل وخير الإبل إنائها ، وكذلك من البقر ، ثم الفحول من الضأن . وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال .

نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتثانه ، وبلوغ الأمل من رضوانه ورحمته وإحسانه .

ثم جلس جلسة خفيفة وقام للخطبة الثانية فقال :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر شأننا وأعظم سلطاناً وأوضح آيات وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده خالق السماوات والأرض ، ومالكها ومُدبّرُها الفردُ الصمد ، الواحدُ الأحد الذي لا شريك له ولا ولد الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، النافذ قضاؤه ، الكائن ما يشاؤه ، المتقن كل شيء صنعا ، الواسع كل شيء رزقا ، والمحيط بكل شيء علماً .

أحمده وأستعينه ، واستغفره ، واستهديه . وأفوض إليه ، وأتوكّل في كل الأمور عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً خيرته من عباده ونجّيه من بريته ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعيته بالإمامة إلى الثقلين ليبلغ حجة الرب ، ويوضح محجة الحق . فأدّى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله ، وصبر على الكبار من مكر الكفار . إلى أن أدال الله للحق على الباطل ، والهدى على الأحفائل ، محمد ﷺ وآله أفضل الصلاة وأزكاها وأتمها وأكملها وأتمها ، وأخلدها وأبقاها .. وعلى الأئمة من عترته المهديين الكرام الأبرار الذين اختارهم الله للخلافة ، وارتضاهم للإمامة . وأكد بوصية الرسل حجّتهم ، وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين . وعلى أفضل الوحيين ، وعلى أمه سيدة النساء ، وخامسة أصحاب الكساء صلى الله عليهم أجمعين ، وعلى أمير المؤمنين المهدي بالله ، والقائم بأمر الله ، سيّدئ الورى ، وإمامي الهدى اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين ، وأقام بهما مغالم الدين ، وأزهر بحقهما باطل المدعين ، وأكاذيب المتخربين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين .

صلوات الله ورحمته ، وبركاته ورضوانه ونحياته عليهما . اللهم أخصص الإمام الفاضل والوصي العادل ، والبرّ الفاضل والغيث الوابل ، ذا الآيات الباهرات ، والمعجزات النافذات البازل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات ، الصابر في الباساء والضراء حتى طهر الأرض من جبايرة الأعداء ، عبّك وولّيك ونجّيك وشفّيك ، أبا طاهر المنصور بك ، والمتوكّل عليك والمفوّض إليك ، العامل بما يرضيك ، ويقرب إليك ، ويؤزّل لذكّك ، الذي فجعتنا بفقدك ، وأوحدتنا من بعده ، وأفردتنا منه ، وأوحشتنا ، فقلبت دُعائه ، وأجبت ندائه ، وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك وسعة رحمتك .

وإت القلق وشدة الحرق عليك يا أبتاه ، ياسيده ، ياسمعيلاه ، يا أبا الطاهراه يا بحر علوم الأئمة الطاهرين ، الهداة المهديين ، يابقية أبناء الرسول ، وأولاد الوصي الطاهرة البتول . يا إمام الأئمة ، ومفتاح باب الرحمة . ياسراج الهدى ، وشمس الورى ، يا مخصوصا من الله بتعجيل الكرامة ،

عظم والله علينا المصائب بك ، وحلّ البلاء ، وعدم الغزاء لفقدك ، وقصرت لألسن عن إدراك إحصاء فضائلك ، وتعداد مناقبك .

فو الذي اختصك بكرامته ، وحماك بمجزيل عطاياه ، وشرَّفَكَ بأبوه رسولهُ ، لولا ما أوعزت إليَّ به ، وأكَّدَ عليَّ من القيام بحَقِّ الله ، والدَّبَّ عن أمة جدِّكَ رسول الله ﷺ ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة ، وبحار الضلالة ، ومهاوى الفتن ، ومعاطب المحن . وما تقرر عندي ، ورسخ في صدرى من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ، ولأئمة الهدى لصُرْبَتِ على وجهى سائحاً في البلاد ، قالياً للمهاد ، راضياً ببلغة من الزاد إلى أن يلحقنى سريعاً بك فأفوز بقربك ورحمة ربك . لكنى فكرتُ ، ونظرْتُ وتدبَّرتُ ، فلم أرَ لى وجهاً استوجبُ به درجتك والحق بشرفك سوى الصبر والاحتساب ، فتجلَّدْتُ ، وصَبِرْتُ رَبِّى فصبرت ، وغلبَ على النبىِّ فأَمْسَكْتُ ، فأقولُ إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلىَّ العظيم الرحمن الرحيم ، له الحمد على ما أبلى والشكر على ما أولى .

معاشرَ أوليائنا ، والقائلين بطاعتنا ، والتمسكين بولايتنا هذه والله المحن الشداد والمنصجة للأكباد ، هذه الزلازل العظام التى لا تثبت لها الأقدام . هذه المشاهد التى لم يَأْكُمْ ائمتكم لها تثبيتاً ، ولم تنزل راغبة إلى الله فى تثبيت أقدامكم ، وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم ووقوع المحنة فيها عليكم . فتثبتوا تسلموا ، ولا تضلُّوا لتندموا ، فلن يخلى الله أرضه وعصره فى كل زمانٍ من قائمٍ لله بالحق ، شاهدٍ على الخلق ، يقرُّ به المؤمنون ، ويبيحده الكافرون الضالون الأخسرون ، إن الله بحمده خالق الخلق من غير حاجة كانت منه إليهم ، لكن لعبادته وإظهار فضله وجوده عليهم . وجعل الحياة فيهم قوة عاملة ، والموت كأساً دائرة . وما بعد الموت جزاء للعمل ، وبَيَّنْ لهم بين هذين نهج السبيل برسلة المنتجبين ، وبأئمة الهدى المختارين . وجعل ثوابهم وحظهم على مقدار بلاغهم وقيامهم ، واضطلاعهم بأمره وإرشاد خلقه . وجعل بينهم درجاتٍ فى الفضل فقال جل ثناؤه ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ . تبارك الله ربُّ العالمين الذى لم يرض بالدنيا ثواباً للمؤمنين ، ولا عقاباً للكافرين .

يأيتها الناس ! ما من حىٍّ إلا وهو رهينٌ بالموت ، ولا موتٌ إلا وبعده نُشُورٌ ، ولا نُشُورٌ إلا بحساب ، فتوابٌ أو عقاب ، فطوبى لمن يتقى الله متمسكاً بحجزة أوليائه ، معصماً بعصمتهم ، قائماً بلوازم الطاعة المفترضة عليهم بحججه وأصفيائه ، متفياً بظلال ألوية عترة رسوله محمد سيد المرسلين ، يوم لا ينجى إلا الدين ، ولا ينفع إلا

صحة اليقين . ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير مُحضراً ، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوفٌ بالعباد ﴾ .

يأتيها الناسُ إنما الأعمالُ بنواتمها ، والجزاءُ من الله بحسب الوفاءِ لله ولرسوله ، ولأئمة الهدى من ذرية الرسول . وقد شاهدتُم سيد الأئمة ، وراعى الأمة ، وسراج الدُّجَّة في مواطن ومشاهد قضى فيها فرض ربه عليه ، وأدَّى وديعة جده محمد لديه . وبينَ لكم من سنته ما أن اقتديتم به لن تضلُّ ، ولن تبتَّ أيديكم من رحمة الله . ولن تعشو أبصاركم عن قصد السبيل الأقوم ، والتمسك بالدليل الأعظم ، وما من ولي سالفٍ إلا وبعده وصيٌّ خالف ، قائمٌ لله بحقه ، منجز ثوابه ، عامل بما يرضيه حسب طاقته ، ومنتهى استطاعته . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يرضى للقيام بدينه وهداية خلقه ، ورعاية أمة نبيه إلا الأفاضل الأجماد . ذوى الضمير العالية ، والأخلاق الرضية ، والنفوس الأبية من خالص النيرة .

وقد جرت سنة الله في خلقه ، ونفذ في حكمه ما لا يستطيع له ححد . ولا للقول به رد . من مواصلة الرسل لتبين السبيل في الزمان بعد الزمان ، وإعلان دينه حسب الإمكان . وأوجب للعباد الثواب بطاعتهم ، وإجابة دعوتهم ، وقبول هدايتهم ، والعقاب بأسخاطهم وجحدهم وإنكارهم وليس المؤمن بأولهم جاحداً لآخرهم ، ولا ينفع جاحداً أولهم تصديق آخرهم للثواب والرحمة . من العذاب الأليم ، والحزى العظيم ، وقد قرن الله طاعته أئمة الهدى بطاعة الرسل ، طاعة الرسل بطاعته قال الله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ كذلك جرت عادته في الأنبياء والأوصياء ﴿ لن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ و ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ . وهل لمقر نبوة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام حاجة بتفضيل محمد سيد النبيين وخاتم المرسلين إذا أنكر نبوته ؟ . وهل له انتفاع بأعماله أو ثواب لعبادته ؟ .

النور أيها الناس فينا مصون ، وعطاء ربكم لنا غير ممنون ، فأين تذهبون ، وفي أى أرض تتيهون هيهات ، هيهات لما ترعدون . فأطيعونا تهتدوا ، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا ، واعملوا بما تفوزون في أخراكم تسعدوا ، ولا تجعلوا أكثر همكم دنباكم ، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبا الأئمة المهديين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين قال : « إن الله أحل حلالاً وأعان عليه ، وحرم حراماً وأغنى عنه » .

فدعوا ماقلّ لما كثر ، وما ضاق لما اتسع ، فقد أمركم بالعمل ، وتكفل لكم بالرزق ، فلا يكون طلب المضمون لكم أولى من طلب المفروض عليكم .

اللهم أوزعني شكر نعمتك ، ووفقني لما يرضيك ويقرب إليك ، ويوجب المزيد من فضلك والذخر عندك بإتمام نعمتك علىّ في الدنيا والآخرة .

إله الخلق ! ربّ العالمين ، اللهم أيدني بنصرك ، وافتح لي على أعدائك فتحا مبينا تخيي به الدين ، وتعز به ملة محمد سيد المرسلين . وارزقنا زيارة قبره ، والارتقاء على منبره ، وحلول داره عليه السلام . وقضاء الحج إلى بيتك الحرام ، والوقوف بتلك المشاهد العظام برأيتنا ، وقد جددت لنا العز ولأوليائنا ، وقد أيدتنا وإياهم بالنصر ، وأكرمتنا بالظفر وأظهرتنا على القوم الظالمين ، وأخضعت لنا رقاب العاصين ، وقد تقدم منك الميعاد للآباء والأجداد ، ولا خلف لوعدك ، ولا رادّ لأمرك ، والرضا والتسلي بما قضيت ، عجّلت أو أجلت .

اللهم اجعل ما قنعت به من إحسانك ، وما تجدد لي من فضلك ونعمتك علىّ وعلى العباد رحمة منك . اللهم وقرن بكل عزّ تجده لي ذلّا تسكنه قلبي لعظمتك وجلالك وهيبك فلا عزّ إلا في الخضوع والعبودية لك ، ولا غنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمن إلا في خوفك ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا برضاك ياربّ العالمين .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات واخصص أولياء دولتنا ، وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين الشاكرين من رحمتك بما استوجبه من طاعتك ، وقضاء فرضك ، وموالة أوليائك ، ومعاداة أعدائك ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين في الأولين والآخرين .

اذكروا الله العظيم يذكركم ، واستغفروا الله لي ولكم ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله . » .

وهذه الخطبة في صورتها العامة مثال لخطب الجمعة والأعياد ، بما انقسمت إليه من جزئين أو خطبتين ، الأولى والثانية ، وتعتبر الأولى افتتاحية وعظية يناقش فيها الخطيب قضايا دينية عامة ، ويسوق بعض الآيات والأحاديث في موضوع الايمان والتوحيد والتمسك بأسباب الدين عامة .

وأما الخطبة الثانية فهي الرئيسية الأطول نسبياً ، فيها يعرض الخطيب موضوعاً يسهب فيه ويؤيده بأسانيد القرآن والحديث وأقوال الأئمة المذكورين . وقد كان موضوع خطبة المعز هنا وفاة والده المنصور ، وقد بدأ برثائه والترحم عليه ، وطلب الرضا من الله ، وإلحاقه به في مكانه من ربه . ثم عرض لموضوع خلافته ، وتناول موضوع الوصية والولاية عامة ، ومكانة أولياء الله وأوصيائه ، وضرورة الطاعة للإمام المختار والوصي فقد فرض الله الطاعة على عباده لنفسه ورسوله ثم للإمام . وبدأ يعرض مبادئ دعوة الفاطميين وكيف أنهم أحق الناس بولاية أمر المؤمنين والدفاع عن دين الله ضد أعداء الله وأعداء دينه ، وأنه من يتمسك بالطاعة لهم فله الجزاء الأوفى ، وأن من يخذلهم ويعرض عنهم فله الخزي الدائم .

وتعرض الخطبة كالعادة هذه القضايا الدينية العامة التي لا يختلف حولها المسلمون ، ويورد آيات من القرآن الكريم ، والحديث ويبدأ الخطبة وينتهي بأدعية مأثورة محفوظة تتردد دائماً في خطب الجمعة ولا يزال أئمة المساجد يلقونها على أسماع المصلين كل يوم جمعة .

والملاحظ أن الخطبة من حيث البناء الفني مسجوعة ، لكنها لا تلتزم السجع بل يأتي السجع خلالها لتأكيد بعض المعاني والتركيز عليها لدى السامع حتى يردف تردد الصوت ، تكرار المعنى بصور مختلفة من اللفظ .

والفقرات متراوحة بين الطول والقصر ، فهي تقصر حين يريد التأثير في السامع بنبض سريع الايقاع متتابع السجعات ، وتطول الفقرات حين يريد الشرح والبطء والتراخي في عرض الموضوع أو المعنى الذي يتناوله .

وجدير بالذكر أنه يركز على أهمية العقل ، وأنه نعمة الله الكبرى . يقول في خطبته الأولى : « وتكفل لكل حي رزقه ، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته ووجبت طاعته ، والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته . » .

ولما كانت الخطبة بمناسبة عيد الأضحى فقد أشار كمادة كل خطيب في خطبة هذا العيد أن يبين للناس سنتهم في النحر والاقتداء بسنة نبيهم في الأضحية والهدى . ونراه يعلن أن أفضل الهدى الإبل . ثم البقر .

والملاحظ كذلك أن هذه السنة اقتداء بفداء إبراهيم لإسماعيل بكبش على أرجح القول وعلى ما درج عليه معظم الناس ، فلم يجعل الكباش إلا في المرتبة الثالثة من الهدى . وقد طبق الخلفاء هذا في حياتهم ، فكانوا يفدون بالإبل ، يذبحونها بعد صلاة العيد ، ثم يذبحون البقر والضأن بعد ذلك إذا شاءوا ثانی أيام العيد أو في اليوم نفسه بعد ذبح الإبل .

ربما لأن الله قد كرم الإبل في القرآن بذكرها في أكثر من موضع ، ولما كان لها في نفوس الرب من مكانة عظيمة ، وكانوا يقدمونها قرى لمن يكرمون ، ويريدون الزيادة في إكرامه .

ولما كانت الضحية قرباناً لله ، وزلفى ، فقد كانت أفضل ما يتقربون به إلى الخالق سبحانه .

وللخلفاء الآخرين خطب كذلك في المناسبات ، نكتفى بإيراد هذه الخطبة نموذجاً لخطبهم ، ونعرض بعد ذلك نموذجاً لسجلاتهم أو منشوراتهم للناس عامة أو لأشخاص بأعينهم .

الكتابة

(١) السجلات

وتعد السجلات الفاطمية نوعاً من الرسائل الديوانية التي يعالج فيها الخلفاء بعض الأمور الإدارية الخاصة بالدولة عامة أو رجالها كتقليد ولاية أو حسبة أو نقابة أشرف وما إلى ذلك أصدره وكان يتولى صياغة هذه السجلات كبير الكتاب في ديوان الإنشاء غالباً . فمن أمثلة تلك السجلات العامة ما أصدره الحاكم بمناسبة معه من سب السلف من الصحابة وبخاصة أوى بكر وعمر رضى الله عنهما بعد ماشاع ذلك من بعض العوام فى العاصمة .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من عبد الله ووليه أوى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إلى كل حاضر وباد .
أما بعد .

فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المين . « لا إكراه فى الدين » .

مضى أمس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه الصلاح ، والإصلاح بين الناس أصلح والفساد والإفساد بينهم مستقبح إلا من شهد الشهادتين أحق أن لاتنفلك له عروة ولا توهن له قوة بحى على خير العمل يؤذن المؤذنون أولاً يؤذنون ، ويخمس الخمسون ويربع المربعون فى الصلاة على الجنائز . ولا يعترض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ولا يشتم السلف ، ولا ينبغى المخالف على من قبله خلف . تلك أمة قد نلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون .

معشر المؤمنين

نحن الأئمة وأنتم الأمة .. عليكم أنفسكم ، لا يجيركم من غل إذا أهتديتم . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبشكم بما كنتم تعملون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله الأكرمين . « .

ومنه السجل الذى أصدره الظاهر بن الحاكم وقرأه على الناس أحد رجاله (١) :

« إن أمير المؤمنين بفضل العادل ، وأمره الفاضل ، وحسن نظره الشامل يحفظ نظام حدوده بعداً وقربا ، ويراعى أحوال رعيته شرقاً وغرباً ، ويعتمد مصالحهم بضروب من السياسة تقضى بالصلاح فى تدبيرهم ، وتفضى إلى الإصلاح فى إمالة كبيرهم وصغيرهم ، فتكشف بملودها الغم ، وتعتبر بموقعها الأثم ، وتتأكد بتوخى الحق فيها الأواصر والرحم ، كذلك عرفات الإمامة واقعة مواقع السداد ، جامعة لمصالح العباد ، قاضية بمراشد الأمور فى الإصدار والإيراد . وما توفيق أمير المؤمنين فيما ييسر ويقبض ، ويرم وينقض إلا بالله . عليه يتوكل ، وإليه ينيب .

وإنه انتهى إلى الحضرة حأل جماعة من أوغاد الأرياف ، وأوباش الأطراف ، يأتون العظام ، ويرتكبون الجرائم ، ويحتقون المآثم ، وينتسبون إلى خيرة القبائل ، وبررة الأمائل الذين ميزهم الله فى دولتنا بالسوابق الصالحات ، وحماهم بعصمة طاعتنا عن البوائق المحرمات ، للاحتواء بهم والالتجاء إليهم متى وقع من الولاة جد فى طلبهم . وأن هؤلاء الرعاة بجنيتهم الفارطة ، وأحكامهم القاسطة لا يزالون يدخلون على أنفسهم ضرراً بما يصدر من القبائح عنهم ، ويرزون بأفعالهم الذميمة فساداً ومنكراً يؤدى إلى قتل من يقتل منهم ، فيجد بمستفطع أحداثهم السفهاء فى الباطل وصلاً ، والجهلاء فى التوصل إلى إثارة الفتنة مجالاً ، ويزداد الغواة زيفاً وبعداً عن أمر الله تبارك وتعالى ، ويتمى بهم الداء إلى حطة توقع التنافر والتشاجر ، وتحدث التضامن والتناكر .

فأنكر أمير المؤمنين على ذلك إنكار مثله من الأمور التى تكسب سوء الافتراق ، وتولد الاختلاف بعد الائتلاف ، وتقذح فى نظام أولياء أمير المؤمنين المنتجبين ، وطوائف عساكره المنتخبين . »

وأمر الخليفة الظاهر بكتابة هذا السجل المنشور وقراءته فى قصور الخلافة على كافة الحاضرين بها من أنصار الدولة وجنودها ، وسائر المائلين فيها من خدم المملكة وعبيدها ، ينهى جميعهم عن قبول منتسب إليهم ، أو متطارح عليهم ، لا اسم له فى الجرائد المجلدة ، ولا رزق له فى العطايا المقررة ، وأسقاط من هذه سبيله ، ووضع اسمه

(١) راجع تاريخ النسخ طبع إنورد ص ٢٢ .

والسجل أو السجل المنشور وثيقة رسمية يصدرها الخليفة .

وحذف ذكره ، وإزالة رسمه والإضراب عن الخطاب بنسب أحد منهم في حد أو حق أو دم . إذ كان أمير المؤمنين — لمحله في الإمامة ومكانته من الخلافة — يأخذ في الحق من القوى للضعيف ، ومن الشريف للمشروف . ولا تأخذه لومة لائم في إقامة حد الله — عز وجل — على واجبه المحتوم .^(١)

ومن سجل آخر للظاهر في تقليد نقيب نقباء الطالبين محمد بن علي الحسنی الرّسّی^(٢) .

» بسم الله الرحمن الرحيم ،

أما بعد ، فالحمد لله شافع إحسانه بالمزيد ، ومتابع إنعامه على الشاكر المستريد ، ومجير المعتصم بحبله من كيد الكائد . ومعيد المستعيزين به من شر الحاسد ، الذي لا واضع لمن رفع ، ولا ضار لمن نفع ، ولا تفارّت فيما خلق وصنع ، لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم يحمده أمير المؤمنين على ما أسبغه عليه من جلائل نعمه ، وأراه لديه من جسامٍ قسمه ، ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي ختم به عدة الأنبياء ، وأيده بجنود من الأرض والسماء ، وأمه بالبرهان المشتمل على النور والضياء ، وعضده بأئينا أمير المؤمنين عليٍّ خير الأوصياء ، وأوضح بهديه الهدى والرشد ، ونهج بمنهاجه الطريق الجدد ، وأمره بالعود من شر الحاسد إذا حسد . صلى الله عليه وعلى عزته المنتخبين وسلالته المنتجبين آباء أمير المؤمنين ، ما نطق ناطق وذّر شارق .

وإن النعم إذا حدثت حدث لأربابها منافسون ، وسعى عليهم بغيا وظلماً سعاة مناصبون ، فلا يزالون موارد البغي والعدوان ، ويتآزرون في قول الزور والبهتان ، ويحملهم التقصير والعمى وسفه العقول والعمى على قدح في المتميزين بخصائصها من أولياء الدولة وخدمها بأشانيع لا يضرهم الله بها ، وأباطيل تعود بالمضرة على ناصبها ومريبها ، إقداما بجهلهم على كذب الإرجاف وجرياً على غلوائهم في ذميم الاقتراف . وحسداً لذوى التقدم والاختصاص ، وكيدا يظنّ معمله أنه يفضي بمن شرفته الحضرة بملايس نعمها إلى السلب والانتقاص . فلا نقع الله غلة الحاسد ، ولا سدّد عزيمة المكر الكائد ، ولا أمتع جماعة أهل الحسد والمكر ثبل محبوبهم ، وجعل جمرات التأسف

(١) تاريخ المسبحي — أخبار مصر في سيرة طبع هيئة الكتاب ص ٢٤

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦

بجميل رأى أمير المؤمنين فى صنائعه متضرمة على قلوبهم .

ولو عقل هؤلاء الجهال لانتبهوا عما يقولون ، لأنهم يرجفون فيكذبون ، ويحكون فلا يصدقون ، ويتقربون بالليل والمجال ، فيبعثون ويُسْتَرْدَلُونَ ، ويسلكون مسالك المكر والخداع . ﴿ وما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ولأنه انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين مأوقعه الخراصون من الإرجاف بصرفك عن نقابة الطالبين ، وقبض يدك بعد البسط والتمكين . وتعلقهم فى مواصلة التشنيع عليك بكذب الأقاويل وشبه الأباطيل ، تخلفاً بدنيء الأخلاق ، واستمراراً على قول الزور والاختلاق وما عراك لأجل ذاك من ضعف البينة بعد قوتها ، وكلال العزيمة بعد مضائها وبسطها ، ولا بدع فقد يُرجف الأشرار بالأخيار ، ويولع ذوو النقص بذوي الفضل والأقدار .

وما السبب الداعى إلى تغيير أمرك ، وإزالة نظرك ؟ . وأخبارك طيبة العرف ، وآثارك جميلة الوصف . ومرايبك فى الخدمة صائبة المقاصد ، ومساعدك فى السياسة زاكية المصادر والموارد . وأنت من أهل بيته أكسبتهم الطاعة مزية الفخر والنفاسة ، وحكمت لهم الدولة بالإقرار على مآلهم من النقابة والرياسة .

وقد رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — تجديد إحسانه إليك ، وتوكيد إنعامه عليك وتكذيب المرجفين بسلبك ما فى يدك بما أمر به من كتب هذا السجل إليك ، وقراءته على رعوس الأشهاد ، والملا من الخاص والعام ، بإيجاد خدمتك ، وإظهار مكرماتك ، واستداد طريقتك ، وإيقاع الدلالة على لطيف منزلتك ، وتوخي بسط يدك ، وإمضاء جدك ، وتمكينك من التصرف فى مصالح ما نيظ بك ، لتسبح عنك مادة إرجاف المرجفين ، وأباطيل المبطلين ، وتحرص المتحرصين . فاعلم بذلك ، واجر على رسمك فيما هو مردود إليك من نقابة الطالبين ، شملهم الله بالحضرة وسائر أعمال الدولة شرقاً وغرباً ، وبراً ونحراً ، مشتد الأزر ، منشرح الصدر عزيز الأمر ، ساكناً إلى حسن نظرا أمير المؤمنين الذى أوجب إطالة ساعدك ، وإرغام حسودك ، عاملاً بحكم وصاياه وأمثلته التى اشتمل عليها سجل تقليدك . والله يحسن معونتك على القيام بفروض طاعته ، ويمدك بتوفيقه وتسديده ، بمنه وقدرته . والسلام عليك ورحمة الله . » .

فهذا تقليد بسجل منشور قصد فيه الخليفة الظاهر إلى إقرار نقابة الطالبين لمحمد بن على الحسنى الرسى ، وهو من الأشراف الرستين فى مصر ومن كانت فهم النقابة منذ

جاء الفاطميون إلى مصر . ويبدو من السجل أن الأراجيف قد شاعت حول عزله . فأراد الظاهر أن يسكت هذه الأقاويل بإعادة التأكيد على توليته نقابة الطالبين الأشراف على ماكان عليه .

والسجل لا يكتفى بالتقليد الرسمي المعهود ، بل أطال كما رأينا القول في الحديث عن تلك الإشاعات ، وأراد الخليفة من كاتبة أن ينفيها ، وأن يظهر في السجل رضى الخليفة وثقته في النقيب بمختلف العبارات ، ويسوق لذلك الحجج والمبررات ، فالرجل لم يؤخذ عليه مأخذ يجعل الخليفة لا يرضى عنه ، بل يسير فيما يتولاه من أمور النقابة على الوجه السديد الذى لا تؤخذ عليه لائمة . فما الداعى لصرفه عنها ؟!

اللهم إلا الحسد لكل صاحب نعم ، على مأولاه الله إياها ، وماأكسبه من القرى لدى الظاهر .

والرسالة أو السجل كما نرى لا يسرف في صنعة اللفظ اللهم إلا هذا السجع غير المتكلف ، والمعتاد في مثل هذه الكتابات على طريقة العصر . مع الاستشهاد ببعض آيات القرآن .

وشكل السجل لا يختلف كثيراً عن شكل الرسالة .

(٢) الرسائل

وتختلف الرسائل عن السجلات المنشورة في طبيعتها ، فهي من مرسل إلى مرسل إليه ، وقد تقتضى الإجابة ، أو لعلها تكون إجابة عن رسالة أخرى ، وغالباً ما نرى مثل هذه الرسائل المتبادلة بين الأدباء والعلماء ، وتختلف في موضوعاتها ومناسباتها .

ومنها الرسائل الإخوانية التى تدعو صاحباً أو صديقاً لزيارته ، أو يكتب إليه متشوقاً وسائلاً عن أخباره . كما جاء في رسالة ذكرها المسيحي للكاتب الحسن بن أحمد المعروف بابن الخياط ^(١) كتب بها إلى صديق له من تنيس .

« بسم الله الرحمن الرحيم

ـ كتبتُ إليك عن سلامة ، وأمر أشيئ برقه ، وأتوكف وذقه ، وحال سار

(١) راجع المصدر السابق تاريخ النسخى ص ١١٦

يُبدِها ، ومرجّو متنها . والحمد لله ، وإياه أسأل حسن التوفيق والتسديد ووصلت إليها غداة يوم الأربعاء ، مترفها متودعاً ، ولله الشكر والطول ، وبه القوة والحول . وجرت خطوط في إحداري آلت إلى سلامتي ومساري ، أحبت وقوفك عليها ، وسكونك إليها .

كنت أقمتُ يومى وليلتى في دار الصناعة ، ثم استقررت في السفينة غداة السبت ، وحدّرتنا في المسير ، حتى إذا جاوزنا عبسوس ، وشارفنا شطنوف ، ومالت الشمس للغروب هاج البحر واندفع موجه . وتدافع تياره ، وبدا كالملازح ، وهو لنا جد مكافح . ثم نما وارتفع قطما ، واضطرب واربد ، وتدفع ، واختبط وتقطط ، وركب بعضه البعض وعلا إلى الجو ، وانحطّ إلى الأرض ، فصار خداناً ، وبطناناً ، وأطواداً ، وأوهادا . وعصفت الرياح واشتدّت ، وتناوحت واصطفقت ، وزّجلت ، وهاجت فتمردت . وتقاربت وتباعدت ، وجاءت ككثبان الرمال ، وشواحق الجبال . فعظم تياره وتججّر آذيه ، وتلاطمت أمواجه ، وثارَت قيعانه ، وشردت حيتانه ، ونذّت نينانه . وتقلّت ، وصاعد وصوب ، وزحر ، وزفر ، وزأر ، كأنه ليث ضارى ، أو مغيط يمارى . واضطرب فأزبد ، واحتدم فتوقّد . فأورى نارا ، واقتدح شراراً ومثّلت تماسيحه فاغرة أفواهما ، ميرزة برائنها ، حاسرة عن أنيابها ، شائلة بأذنانها ، مترقبة للاقتراس ، متأهبة للاختلاس ، كأنها أجذاع ملقاة ، أو سفن مرساة . ووقفت صفوفاً ، كأنها آكام مائلة ، أو هضاب متقابلة ، وزحفت زحف الأبطال ، وجالت في مراتبها الألوان ، وخفقت القلوب ، وعظمت الكروب ، وزاد الهلع ، واستولى الجزع ، وطارَت الأفدة من الفرع ، وغلب اليأس على الطمع . وخاننا الاضطراب ، وأشفينا على البوار . ولم يبق لنا حيلة غير التضرع إلى الملك الجبار ، فعججنا بالدعاء عَجْجاً ، وضججنا بالابتهال إليه ضجْجاً ، فكشف البلاء بامتنانه ، وأجرى على المعهود من طولهِ وإحسانه . ومنح السلامة وأتاحها ، وسيرها وسببها ، ووقفها وسهلها ، وجاد بها وخولها ؛ فسكنت الرياح ، وسجّ البحر ، وتقشعت السحب ، وانجلى الغمام ، وانحسر الظلام ، وأشرق الضياء ، وتلاّأ الضحى ، وابست الأرض عن نوارها واستضحكت عن أزهارها . وأبرزت جواهرها ، ونشرت برودها ووشيا ، ورقلت في حلها وحللها ، فناصر وفاقع ، وناصر وزاهر .

وأمرحتنا أبصارنا في رياضي مونقات ، ومناظر رائقات ، وأناهز متدفقات ،

وجداول مطردات ، كأنهن ظهور حيات ، تظللها أشجار متهدلات ، مخضلة بنداها ، راضية بثرها ، وتحف بها أطيار ، منهدات ومؤلفات ، من خائيم وعائم ، وجائم وقائم ، وطائر وواقع ، وسارح ورائع ، كأنما ألبست الوشي والقباطي والعصب ؛ فمن مدرج وموشح ، ومقنع . كأنها قيان مصبغات ، أو عرائس مجلوات ، مطوقة ومقرطة ، ومطلسة وموشاة . وملونة ومكحلة ، ومحجرة ومعجرة ، ومذهبة ومخضبة ، ومُدَفَّعة ومشتقة ، أنواعاً مختلفة ومصنفة . كأنما عبثت تعبئة العساكر ، ونضدت تنضيد الجواهر ، كل شكل إلف لشكله ، وكل مثل مؤاخ لمثله . يختال اختيال القيان ، ويتباهى تباهي الحور الحسان . كأنها ربائب تحذور ، أو آفات قصور .

وأبدلنا الله من الخوف أمنا ، ومن البؤس نعيما ، ومن القلق سكونا ، ومن الغرق طمأنينة ومن الانزعاج دعة ، ومن النصب راحة ، فله الحمد والمنّ ، والطول والفضل ، معطى النعم ومُسَدِّدُها ومُجْزِلُها ، وموليا ، وملبسها ومَسْبِغُها ، وداهيا ومهديها . وعرفتُك — أدام الله عزك — ذلك لتعلمه وتقف عليه ، وتستيقنه ، وتسكن إليه إن شاء الله . « (١) .

والرسالة كما ترى بديعة الأسلوب جميلة التصوير ، خرجت عن مجرد كونها اعتذارا لصديق عن موافاة صديقه إلى طرق من الوصف وضروب من التحجير ، أجرى فيها القلم بعذب اللفظ ، ممتزجا بالخيال الجامع في لطف ، يجمع بين الأضداد ، بين الخوف والرجاء ، واليأس والأمل ، والحزن والسرور .

وهو في وصفه لمشاهد النيل وقد ثارت أمواجه ، وأزبدت ، وتراقصت بهم في اليم السفن وأظلم الجو واربذت السماء ، ووصف تماسيحه العاكفة على شواطئه المشرقة في كسل فريسة يسوقها القدر إليها ... بين هذه المشاهد من الفزع ، ومشاهد السعادة بهلوه الجو وانقشاع الغيم ، وتجلي الشمس وتبرج الزهر ، واختيال الطير بين الرياض مبدع في هذا كله ، موفق في تصويره واختيار ما يناسبه من لفظ دالي وإيقاع موافق .

ويعتمد السجع في فقرات متفاوتة بين الطول والقصر ، تتناسب مع المعنى ، ونبضه ، ومايلزمه من الجرس الخافت أو الضجيج ، أو الهمس الناعم الرشيق . ويزواج

(١) أخبار مصر من تاريخ المسبح ص ١١٨ .

يكثر بين المعنى وأخيه وقريبه ، أو يقابل بين المتضادات فيلجأ لفن الطباق والمقابلات .
وقد يستخدم الجناس إذا لزم الحال . أو اقتضاه المقام .

وهو في هذا كله لا يحرم عبارته التشبيه والاستعارة ليكسب الصورة مسححة من الخيال
الموفق ، وينفق من زاد من اللفظ ، ومحفوظ من الشعر القديم والمحدث ما ترددت أصداء
معانيه وألفاظه في حنايا الرسالة .

وبعد ، فهذا المثال من الرسائل الإخوانية لأحد كتاب عصر الظاهر تدلنا دلالة لا
تحتاج إلى كثير شرح على ما بلغه الفن الثرى من براعة لا تقل في مصر عنها في بغداد
وغيرها من بلاد المشرق ، بل لعل بعض المشاركة في رأينا كالخوارزمي والهمداني ، قد
يتكلفون فيثقلون لا كما فعل ابن الخياط ، إذ رفق باللفظ في عبارته فانسابت المعاني لينة
هينة .

ولا كهذه الرسالة ما عرضناه من قبل للرسائل الديوانية من سجلات ومنشورات ،
فلغتها هناك لغة مباشرة ، لا يعنى فيها الكاتب بالخيال ، فلا تشبيه ولا استعارة ، وإنما
قول فصل ، وعبرة تقصد المعنى وتؤكد بآى من القرآن أو مثل أو ما إلى ذلك .

ولكن اللونين جميعاً الرسمى والفنى يتفقان في الشكل واستخدام العبارة الرصينة
واللفظ الدال في وضوح لا لبس فيه ولا غموض ، ولا لغز ولا تعمية ، كذلك لا لعب
بالتراكيب ، والتوفيق والتلفيق في أنواع الجناس والطباق .

ونعرض في مجال الرسائل الإخوانية ثلاث رسائل تدور بين ثلاثة رجال من الكتاب
يعرضون فيها لموضوع متقارب ، يبدأ أولهم فيعرض حديثاً عن واحد من الرجال يعرفه
الثلاثة معرضاً به ، ذاكراً في شيء من الهزل صور الطعام والشراب ، ويرد الاثنان
الآخران معرضين كذلك واصفين . وهو لون من الكتابة الإخوانية ساد في هذا العصر
والعصور التالية يدور حول الاستدعاء للطعام والمشاركة في لذته ولذة الشراب . ولم
يقتصر هذا اللون على الرسائل والنثر ، بل عداه إلى الشعر كما سيأتى القول فيه من بعد .

وأما الرسائل الأولى فأوردها المسيحي في كتابه ^(١) قائلاً : « ووقعت لى نسخة
رسالة كتبها ابن الكرخى إلى أنى نصر المغنى العرواد البغدادي ، يعرض فيها بحسن بن
القُمى .

(١) أخبار مصر للمسيحي ص ١٣٤ وتحقيق الدكتور حسين نصار - القسم الأدبى ص ٧٥ .

« عندى يامولائى — أطال الله بقاءك — مطجّن ومَصْوص ^(١) ، واسفيدباج ^(٢) بقسوس ومفركات كتفريك المغنيات بالحركات ، والليليات الخنثات ، والهلتيون ^(٣) كالزمرّد خضرّة والغصون نُضرة ، وباذنجان مقلو كالأكّر ، وشيراز ^(٤) فى شكل القمر ، وطردين ^(٥) كالكمأة فى المثال وسنبوسج ^(٦) يصلح تعاويذ للأطفال ، وزيرباج تخلّق بها الحارِب ، وتنتزع أعضاء الغارق منها بالكلايب . ومضيرة ^(٧) تُستدجّ بها الحيطان ، ويستغنى بها عن بقية الألوان . وجذّى كالأمير الملقب بالظهير ، فى تخلّقه وخلّقه ، وعقله ونطقه ، ونسبه وحسبه . سهل الجانب غير ممّتنع عن المجاذب، ممكّن من ضرب الحالب ، مطيع لا يعرف الخلاف ، مظلوم لا يؤثر الانتصاف ، قد تلّ للجبين ، وضرج بدم الوتين ، وأولجت فيه السفايد ، وعلّق بها تعليق العناقيد ، وأصلى نار الحميم ، وعذب العذاب الأليم ، ودفع إلى أمر عظيم . وشغله مانزل به من البلوى عن مواصلة الاستغاثّة والشكوى ، فهو المسكين من الحمالين والصابرين فى البأساء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والمؤثرين على أنفسهم ، لا لها — والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

فاذا قدّم الخوان بدّا فى حُلّيل من أرجوان . فحين تسلبه ثيابه ، وتمزق عنه إهابه يفتّر عن يقق ، ويسفر عن قلق . كما قال عبد بنى الحسحاس :

إن كنت عبداً ، لنفسي حرّة كرمأ
أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

يتهرأ من الإيماء كالملسوع ، مُلقى على جانبه كالمصروع . يقول : هيت لك . جود لا أمّ لك . : تلك المكارم لا قعبان من لبس .

-
- (١) المصوص طعام من لحم يطبخ وينقع فى الخل ، ويكون من لحم الطير خاصة .
(٢) والاسفيدباج طعام من اللحم والبصل والزبد والجبن أو من الخبز واللبن .
(٣) الهلتيون نبات .
(٤) الشيراز اللبن الرائب المستخرج ماءً ويسمى اللبنة أحياناً فى بعض البلاد .
(٥) كذا وصححها د . حسين إلى طيرزن وهو السكر .
(٦) السنبوسج يعرف الآن بالسنبوسك وهو عجينة باللحم يقطع قطعاً صغيرة .
(٧) المضيرة مرقة تطبخ باللبن الحامض .

انقضى باب الجدى

يتلوهُ بابُ الشاة

لكننى أخرت ذبحها إشفاقاً على ماشيتى أن استنفذ جميعها فى يوم واحد ، فجعلت ذلك باباً مفرداً ليوم مفرد أبنى أمرى فيه على الصبح ، وأنشط للتعبئة فى المسوح ، وأعلقها بعرقوبها ، وأتجرّد لتعذيبها ، وأتولى بنفسى سلخها ، وأكشّف عظمها وأومئها ، وأمتحن بذلك باب التشرّيع . وفى التلميح ما يغنى عن التصريح .

دع — ياسيدى — هذا الباب الذى لا فائدة لك فيه ، فإنما ذكره شجون ، وخذ فيما يعود عليك نفعه ، لأننى أعرفك تُحبُّ العاجلة ، وتذر الآجلة .

يتبع الجدى طباهجتان ^(١) كالعود الرطب لونا ، وكالرياض حسناً ، وكالمسك نشرأ ، وكالعافية طعماً . قال : صدقنا أبو الرقعمق رحمه الله :

ما هبَّت الريحُ لنا فى غلَس الأسحار
إلا تنفَّسن لنا عن جُؤنِ العطار ^(٢)

وهما منى الجائع ، وجوارش ^(٣) المتخم ، ودواء الخمور . وفى مثلهما قال الشاعر :

شرك النفوس وقينة ما مثلها للمطمئن ، وغفلة المستوفز
خير ولا شر . كل هذا ماعندنا ، نحن اليوم على باقلاً ، فبحرمة شريحنا ألى الخير الهراس
والبغدادى الرواس ، والأزرق الشواء ، وجميع إخواننا أصحاب الزفر والغذاء إلا قدّمت
الحضور لتؤمّ بنا الصلاة على هذا المظلوم الفقيد ، وتغنم ثواب الغريب الشهيد .
وتشاهد أيضاً من سرعة حركات مفاصلك ، وبعثرة مافى الصحن ما يحكى بعثرة القبور
فى يوم النشور ، وترى من خوضها فى عُدرانِ المرق ، وسلامتها من الفرق والشرق
وتعفيتها على اللقنن فى غطّ منقاره فى المياه ، وحرصه على موادّ المعيشة والحياة ،
وإطلاق عنانها فى ميادين لحوم الخيوان ، وثنى زمامها عن مواطن القرع والباذنجان ،

(١) الطاهجة اللحم نشرح .

(٢) حون جمع معرّه حوة . هى سعة معشى خلد ينفذ فيه العطار الطيب .

(٣) الجوارش دواء مساعد على الهضم .

أمراً عجيباً ، طريفاً ، غريباً .

وَقَفَّكَ اللَّهُ للحضور ، ولا حَرَمَكَ خير ما في هذه القُدور ، فإن المِسْرَةَ معك حيث حللت ، فإن غَبَتْ غابَتْ ، وإن حضرت حضرت . والله يجمعك وإياها علينا ، ويَأْتِي بكما سريعاً إلينا إن شاء . وهو حسبي ، ونعم الوكيل . » .

فأجابه أبو الحسن أحمد بن العباس الكاتب ، المعروف بابن الخياط برسالة عن حسن بن القُمي ، المقدم ذكره . وهى :

« ليس الدعوى فى الدعوة ، ياسيدى — أدام الله عزك — من شأنى ، ولا أرى المخرقة على إخوانى أسألهم الحضور على ما حضرنى ، ولا أدخر عنهم ما أمكننى . وأمشى مع دهرى وزمنى . فإن أوسع أكثرُ ، وإن قُتِر اختصرت . فالاختصار فى حين الإقتار من خلق الأحرار . وترك التصنع والادعاء من شروط المودة والصفاء . وعلى خير مذهبي هذا جماعة يرون الادعاء فضلاً ، والمخرقة جماًلاً ونبلاً . وإن سألت أحدهم ما أصلح لك اليوم ؟ حدثك بما رآه بارحته فى النوم ، وأوهمك أنه اختصر على مقلوبة ، وقد قلب الجزعُ أم رأسه . ومشوشة وقد شوش الطلوى صحيح رأيه وقياسه ، وقلية وهو من الشعب يتقلّى ، ومغمومة ، وليس غير حليته التكلّى . فإذا أراد أن يتطايب ويتكاتب ، وأحب أن يتكالب ويتلاعب قال : كانت لنا مضيرة يصلح أن تُسبذجَ بها الحيطان ، وهو يتقوُّ الكسر من أحجار الفيران ، ويستلبُ الرُّغفان من ولدان الجيران . وزيرباج كخلوق المحاريب تنتزع أعضاء الضائق منها بالكلايب ، ولا يعرفها من الجلبان ^(١) لو أحضرا لهُ مكان ، ولا يدرى أيهما هى بالمذاق لو أطعمهما وجُودابة ^(٢) رفاق . ويوهك أن له راتباً ، وقد أصبح ساغباً خائباً ، وأن له وكيلاً ، ولا يعرف لسد جوعته سبيلاً .

فإن نفق عليك قوله ، وأعجبك فضوله ، فسألته النزول غلبك الجواب ، وقلبه فى نصيب وعذاب ، ثم انتهز الفرصة ، وانكشفت هزولة القصة : فإذا حضرت المائدة ، فاستفد منه كل فائدة . تراه يزاحم بكاهله ومنكبه ويضغط إلى من بجانبه ، ويقتلع ما بين يدي الإخوان ويغير على الألوان كبطلان الفرسان ، ويحيل يده على الخوان جولان الشجعان يوم الطعان ويهوى بكفه ولا شاهين ، وينتزع القنر بأنامله ولا أبازين ،

(١) الجلبان : نبت .

(٢) الجودابة طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .

ويحسر عن ذراعه ، ويجوز بيعه ، ويكب بصدره ، ويغيب عنه رشيد أمره ، وتسمع له همهمة وتممة ، وطبطبة وحممة ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ .

كفاك الله وإيانا من هذا وصف طريقته ، وعفانا وإياك من مخالطته ومعاشرته ، فالشره شين يُعدى ، والبطنة منقصة تُردى ، والكذب داء عياء ، والحمقة عادة وبلاء ، والصحيح ماتحصل ، والباطل يلغى ويطل .

عندى — ياسيدى — قريض أشبه بنصيصة الفصوص ، يرتعد ارتعاد المضرور ، والمُحنق الغيور ، ويكفيك بمذاقه المنازعة والمرء . وتحسب حيتانه سبحا في الإناء ، شقيق الرحيق ، كأنه ذوب العقيق ، ينسبك طعمه لذيق الزيرباج ، وتصنع المضيرة له والكباج ويغذيك من لحوم الحيتان ما يُغنيك عن فائق الحيوان ، ويشغلك حسن مرآه عن التعرض لما سواه . مجمع طبيات ، ومحشر إدام ولذات . ومن ذا ياسيدى يوريك ما وصفه سيشهيك ، مقلوة كالعسجد السبيك ، يمنحك إهابة بالإيماء ، ويحيبك بلا ممانعة ولا إباء ، لو ظفرت منه بلطافة المقالى لأغنتك عن عتيق الغوالى . لو لم يكن غيره لكفاك ، ولو قنعت به لأغناك نعم الطعام ، وأفضل الإدام .

ومن بلطيك الطرى السمين ، ما تحكيه صفائح اللجين ، قد ألبسته النار ثوب نضار ، إن سلبته فطلعت نضيد ، أو لمسته فزبد عتيد ، متساوى المساحة يفضل عن الراحة ، فهو كما قال الصاحب : « إن نعتة فقد أعبته ، وإن وصفتة فما أنصفتة . » ومن الشبوط ما أشبه البللور المخروط ، عمل منه صليق ، أنت بسلب محاسنه خليق ، يُنسيك بنضرتة روض الجنان ، وأراضى الريحان ، ويغنيك بحسن منظره عن كشف مخبره ، وبطبيب نشره عن هتك سيره .

وإن أبعث لك ياسيدى الفرخ ، حذرا من وضع الكرخ ، فإنهما متساويان في النعت والاسم ، والمولد والجسم ، وله — لعنه الله — شأن من الشأن ، لم يصد مثله قبل إنسان ولا شوهه شبيهه في الحيتان . مهول مرآه ، ولا يعرف أباه ، كان يبعث منه على الحيتان الختوف ، ويقتلع بها منه المراسى والجروف . عريض طويل ، عظيم مهول ، إن وجد صخرة رضها واقتلعها ، أو بقرة التقمها وبلعها . سلاحه أضراسه ، وجنته قفاه ورأسه . فلما كثر فيه ضجيج أسماك البحر ، ودعاء التوائيه والسفر ، واستجاب الله سبحانه دعوتهم وكشف بفضله محتهم ، قضى هلاكه على يدى ، وأمرنى بقبض روحه

وتعذيبه بالنار ، كما يُفَعَّلُ بالمؤذنين والأشرار ، والمخالفين والكفار ، لقصدته مراكب
البحار ، وتعرضه لأذية المستورين والأحرار . وأحلَّ لى أكل لحمه بعد التناهى فى
عذابه ، جزاءً لفتكه حيناً بأضراسه وأنياه :

فَظَلَّ طُهَاءُ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مَبْضَجٍ صَفِيفٍ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعْجَلٍ

وما هو بعدما وصفت لك من عتوه وطغيانه ، وجبروته وسلطانه ، صريعاً يد
القضاء ، وأسير الحين والبلاء ، قد مكنت السَّافِيَهُ من أحشائه وفكه ، وجوزى
باعتدائه وفتكه . وشقَّ جوفه وحشى ، وأحكم وثاقه وشوى ، توجدك مضغته نعومة
الزبد ، ورطوبة الفائق ، ولين الرُّضْجِ ووطاء النقايق زهومة ، وحياتك ياعزيز إني
أشتوى لك بكفيك أو زندك عَوْضَ أيدك فى زفر عَوْضَ حبيب ، وقدر على حالك اليوم
مبيح أحق ناراً . وقدر الله تبقى زهومتَه فى سبائكٍ ولحياتك ، أو تدخل حفرتك ، لا
تطمع الأغيار بقتل نفسك بالجوع .

هذا مزاحُ البطالين ، ومداعبة المتفرغين ، ليس لك ها هنا إلا الباقلى القيسى
والجن الحيسى ، والخردل الشامى ، والزيت الفلسطينى ، وَخَلْكَ الثَّقُفُ ، وبقُلْكَ
القطف . وأنا صديقك ذاك الذى تعرف ، وجريرتك التى لاعدمتها . وتلميذك دعبل
يغنيك بالطنبور :

ما بلينا من ذا الأعيرج يا قسرو مُ بِأَمْرٍ يُدْعَى الفداة وليدة
يدعى الشعر والفرسل حيناً ويرى أنه — بجهل — يجيىدة
يشتهى أن يرى بعين ذوى الفضل بل ، ويأبى قفاه ذاك وجيدة

فإن استقصيته زادك :

لا تشغلن سرك بالفرخ فقد قرأنا آية النسخ
فى باقل القيسى . مستمتع يضرب بالفرخ قفا الكرخسى

هذا — ياسيدى — الحاصل العتيد ، ورأيك الموفق السديد .

فلئن أيت لتحمدن نصيحتى ولئن - أيت - لتدمنن وثبرما

والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله . وسلامه . » .

(٣) أجاب أيضا أبو تراب النونختي أبا الحسن على بن الحسن الكرخي الكاتب عن رسالته التي أجابه عنها أبو الحسن أحمد بن العباس بن الخياط بهذا الجواب . وهو : (١)

«وقفنا على رقعة الشيخ—وفقه الله للصواب،وحماه من كل عاب..من ذات الهذر الطويل ، والمعنى المستحيل ، المشبه للشيء بضده ، الدال على فساد تحيله في نقده . ونحن عند صديق أليف ، مليح ظريف ، مفتن في المكارم والآداب ، وننخرق بنا إلى المسرة من كل باب . وبين يدينا مائدة بالحديقة ، مرتبة كالروضة الأنيقة ، وعليها مُصوّص من فراخ سمان ومطجنات من فراريج خصيلان ، وباذنجان جنى المغرس ، رخص الملمس . قد قُلِيَ بشحم الدجاج ، فجاء غاية في الإنضاج . وهيلون مُمتلئ القضبان يشبه في خضرته نضارة الأغصان ، ومفتتات يَفْتُ قلبك — أيها الشيخ — عدمها ، وبهمّ تُبهِمُك بأدمها ونقائق وطبرزن ، اقترحه بعض الحاضرين ، ونرجسية أحكمها طاهيا ، وزينها باللوز المرتب فيها ، قد زينها زينة العروس ، تصلح أن يشرب عليها بالكؤوس . ومضيرة في طيفور (٢) كبير ، تقوم من دسمها في غدِير ، قد أُجيد عقدها ، ولم تتجاوز بها حدّها فهي في بياض الكافور ، وصفاء سرائر السادة الحضور . وزيرياج يروق للعين كأنها الوجنة عند البين ، قد عقدت عقد الخيص (٣) ، واشبهته في اللون والبصيص طيبة المساع والمذاق ، كأنها وجه المولدة في الإشراق . وطباهجة مزوّجة يذوب لحمها ويتهرى في شبه العود المطرى ، قد فتقت بالقرقة والأبازير ، وعامت في دهنها الغزير ، وأغنت بطيب الرائحة عن العبير ، بعد خزوف رضيع كما اقتطع من القطيع ، يترجرج من شحمه ، قريب العهد برضاع أمه . نضيح شواؤه . فائق خصبته وامتلاؤه . قد دفن الشحم في كلالته دفنا ، وندف منه على جنبه قُطْنَا . فتواكلنا مواكلة الألاف ، وانتقلنا إلى مجلس السُلاف . مجلس يروق الناظر ، ويعجب الحاضر ، قد فرش فرشاً نظيفاً ، وحوى منصفاً وأليفا . وقُدّمت الفواكه في

(١) أختار مصر بتحقيق د . حسين نصار ص ٨٢ .

(٢) الطيفور إناء ضخم .

(٣) الخيص طعام يعمل من التمر والسن .

الصدور ، وتشاجر العود مع الطنبور ، ودارت الكأس على الجلاس والخمرة تشرق في
الكؤوس ، وتغرب في الأفواه والنفوس . فلم تر إلا طرباً من فرحه ، صريعاً من جور
قدحه . ونحن في ميدان الإطراب ، نجول على خيل الآداب والزمان قد غمض عنا
طرفه ، وأوسعنا فنونه وظرفه .

حتى طرق الباب ، وأستاذنا علينا البواب ، ودخل علينا بهدية تزيد على الأمنية : جرة
نبذ كالحوت العظيم ، تصلح لصبح المستعين أو حكم أم حكيم . كأنها قلة الزيت
لا يوجد نظيرها في البيت ، تشبه أيها البليغ في دهره ، المتطايب على إخوانه في نظمه
ونثره . في الصورة والخلقة ، وتفضلها بالانخلاع والجلقة ، كعنقك القصير ، وبطنك
في الكبر والتكوير ، تسع من العقار والقهوة ما يسعه بطنك من الطعام عند الشهوة .
فذكرتنا لقبك الخطير ، الذي كشفت به لقب الأمير الظهير . وهو جرة الزيت الذي
أتت من اشتهاره في الدست .

فعبجنا من مُلقب كيف يهتف بالإخوان ، ويأتى بهذا الفضل والحسن والبيان .
ونشرنا فضل رسالتك من طي الإغفال ، وتأملنا فصولها القصار والطوال ، فوجدناها
فاسدة التشبيه ليس لها في القباحة من شبيه :

فأما قولك : « ومفركات كتفريك المغنيات الحركات » . فهذا من المعنى
الطريف ، الدال على قوة التخفيف ^(١) . تفريك المغنيات : تمايلهم على آلفهم ،
وحلاوة حركاتهم في أعطافهم ، وصَوَلٌ خفيٌ بسبق ، وانحلالٌ مفاصلهم على الصاحب
والعشيق . فأين هذا من يَبُضُّ قد شَوَّش في المَقْلَى ، وقَدَّم على المائدة في إنا . ولكن
التجنيس عدل بك عن التحصيل ، ومال إلى المعنى المستحيل .

وأما قولك : في سنْبوسك : « يصلح تعاويذ للأطفال » ، فالسنْبوسك شيء
يأكله الأطفال ، لا يتحلون بلباسه للجمال ، ولكن لو قلت : وسنْبوسك يصلح
مراسيل ^(٢) للأطفال « لكان أقرب للنسبة ، لأن في المراسيل ما يصلح على شكل فِضة
مُصَاغَة ، وليس ما أشبه الشيء صلح أن يقوم مقامه في الاستعمال والاتخاذ ، ولكن
أوقعك الادعاء في الزلل ، وعدل بك عن الصواب المستعمل .

(١) التخفيف الذهاب في الأرض . -

(٢) ما يقد حول ربة الطفل ويرسل من حل الفضة وغيرها .

وأما قولك : « وزير باج تخلق بها المحاريب ، وتُنزَعُ أعضاءُ الحيوان منها بالكلايب » . المحاريبُ لا تُخلَقُ بالزفر ، لأنها مساجدُ الملائكة والبشر . فلو قلت : تخلق بزعفرانها المحاريب » لجاز ، أو « تجانسُ صنعها خلوقَ المحاريب » ، أو تزيد سفرتها على خلوق المحاريب » . لكان أقرب للاستواء وأصوب .

والكلايبُ فإنما يُجْتَذَبُ بها الشيءُ الممتع ، والعَصَبُ الشديدُ الذي لا ينقطع . فأما الفائقُ فإنما يتفتت من شحمه ، ويتهتك من رخصته ، ونعمته . اللهم إلا أن تكون عنيت أنابق الذبول اليابسة الأعصاب . الصعبة الانجذاب ، المشبهة صدورُها بخصل اللَّيف ، فمثل هذا تجتذب أعصابها بالكلايب والخطاطيف . وما حواك على ادعاء معرفة التشبيه ، وإيراده على جنس المغالطة والتمويه .

وأما قولك : ومَضِيرَةٌ تُسَبِّدُج بها الحيطان ، ويُستغنى بها عن بقية الألوان » . فما سمعت قط لإنسانا سبِّدج بطعامه الحيطان ، وخلق المحاريب غيرك يارجل ! . لو قلت : ومضيرة تقصر عن طيبها الألوان ، كأنما تسبِّدج ببياضها الحيطان ، وتخلق المحاريب بالطعام — والله — باردٌ في اللفظ والمعنى .

وأما قولك : وجدى كمولائى الأمير الملقب بالظهير ، فى خُلُقِهِ وخُلُقِهِ ، وعقلِهِ ونُطْقِهِ ، ونسبه وحسبه . فهذا محالٌ بعيدٌ عن الحقيقة ، قد سلكت منه أقبح منهج وطريقة لأن الإنسان لا يشبه بالبهيمة إلا إذا قاسَ قِياسَكَ ، واتمس من هذه المعانى التماسك وأيضاً فإنَّ الجدى خلقه لطيف ، وخلق هذا الرجل الذى عيَّنته عظيم كثيف . والجدى خُلُقُهُ الصِّياحُ والبعثرة . وخلق هذا الرجل حلاوة اللسان ، وحسن الخلق . وعقل الجدى مسلوبُ التمييز والروية . وهذا الرجل يَمِيزُ بعقله ، ويصيبُ فى رؤيته . والجدى أحرسٌ لا ينطق ، وهذا الرجل ينطق ويتكلم . والجدى لا حسب له ولا نسب ، لأنَّ أباه تيسٌ لا يعرف . وهذا الرجل أبوه من ملوك البحار ، ذوى الأقدار ، الذين ملكوا الأموال وخدمهم الأقيال . ومات — رحمه الله — وهو معترفٌ به ، متحققٌ لوقتِ العلق به ، ورث ماله . واستنفذ بمكارمه ماله . وليس هذا حق وداده ، ولا يحسن بك أن تستعمله مع أنداده ! .

وأما قولك فى الجدى : « فإذا قَدَّمَ على الخوانِ بدا فى حُلَّةِ أرجوان » . يارجل ! لو لم يقدِّم على الخوان ، لم يندُ فى حُلَّةِ أرجوان ؟ ! . أما يحمرُّ جلده من نار

الشئ ؟ . هذا والله فسادٌ في التصوُّر والقياس ، وتمويه في العلم على أغمار الناس . لو قلت : « ووقد على الخوان في حلة من الأرجوان » . أما كان أسلم لأغراضك ، من تحديق بالرد واعتراضك .

وأما قولك : انقضى بابُ الجدى ويتلوه بابُ الشاه لكنك أخرت ذنبها إشفاقاً على ماشيتك أن تستنفذ جميعها في يوم واحد . فجعلت ذلك باباً مفرداً ليوم مفرد ، يُبنى أمرُك فيه على الصبح وتنشط المتعبئة في المسوح ، وتعلقها بعرقوبها ، وتتجرّد لتعذيبها ، وتتولى بنفسك سلخها إلى أن تكشف عظمها ومُخَّها ، وتمتحن بها كتاب التشريح ، وفي التلوخ ما يغني عن التصريح .

فالجواب عن ذلك :

إما أن تكون غيّت شاة على الحقيقة ، فهذا الصبوح لا يصلح إلا لمثلك ولا يصدر مثله إلا عن فضلك ، لاسيما إذا ذبحت شبيهُتُك ، بشهادة العيون ونظيرتك في امتداد العروق ، واتخذت منها طعاماً يَمِيرُ الجماعة ، ويبين لهم من كرمك الاستطاعة . وإذا اجتذبت بالكلايب أعضاء دجاجتك ، وقطعت بالقوادم مفاصل شاتك ، كانت صبيحة أغمات لا صُبوَح مُدام !!

أو تكون غيّت بهذا القول مباحضةً جارية سوداء ، واتبعت في السقاطة بذكره الأهواء لأن قولك « والتعبئة في المسوح » يدل على ذلك . لا سيما وقد قصدت به تنقّص بعض أصدقائك واشتهرت بغدرك وقلة وفائك ، فقد أخطأت خطأ عظيماً ، وسلكت معنى فاسداً سقيماً . لأن المباحضة ليس فيها قتل ولا سلخ ولا تعليق بعرقوب ، فإن كنت غيّت بالسلخ تجريد الثياب عنها ، فجائز لك على جنس الجاز من الاستعارة ، عن تعليقها بعرقوبها ، ما يشبه رفعك بساقها لأن المباحض — وإن ارتفعت ساقه يلتصق ظهره بالأرض ، والمعلق بعرقوبه لا يبلغ إلى الأرض شيء من جسمه .

وأيضاً كيف يمتحن بمباحضتها التشريح ؟ بأرسططاليس الجماع ، وبأبقراط الاستمتاع ؟ وابتداؤك في هذا الفصل بمضى باب الجدى ويتلوه باب الشاة غلط . لأن الأبواب لا تكون إلا في التأليفات والفصول في الرسائل والمكاتبات . ولو قلت : مضى باب الجدى ويتلوه فصل الشاة لكان أجود .

والتعبئة في المسوح غلط ، لأن التعبئة إنما تكون للفراكه والمتاع والآلات ،

وكلام يريد الإنسان أن يردده . ولو قلت : التعبير بالراء في المسوح لكان أدلّ على إرادتك .

وأما قولك : « وتتبع الجدى طباهجتان كالعود الرطب لوناً ، وكالرياض حسناً ، بقطع الطباهجة بالعود الطرى نسبة . والطباهجة أيضاً لا تشبه بالرياض ، لأن هذا فسادٌ في المعاني والأغراض لأن الرياض تحوى الأخضر والأصفر والأبيض والأحمر : أنواع الألوان من الزهر . والطباهجة حمراء إلى السواد ، فما تشبهها بالرياض إلا إذا أُحرقت ، وانتقلت عن صورة الاستحسان .

فإذا أردت طباهجة فقد فُقسَ عليها بيض ، شبهت صفرتها وبياضه بالروض ، وكنت تقول : « وتتبع الجدى طباهجتان ، بيض مفقوس ، تنوق إليهما كل النفوس ، قد رويتا مرقاً ودُهنا ، وأشبهتا الرياض ملاحه وحسنا . »

وكأنا بالشيخ — عضده الله بالتوفيق — وقد أصلحت له هذه القدور ، واجتمع له في مجلسه إخوان السرور ، ونظر في مقعده عن جانيبه ، وفتح دواته بين يديه ، وتخيل أنه — في قصفه مع إخوانه ، وما اقترحه من ألوانه ، وأظهره من فضله بهذه الرسالة وبيانه ، وانطق به فصاحة لسانه ، وأجرى سوابق بنانه — عبد الله بن المعتز في زمانه ، فجاش خاطره بهذه الرسالة الدالة منه على الضلالة ، الجامعة لأقسام الجهالة .

ولما رأينا وده للأمير الظهير على غاية الإفساد والتغير ، وإنما وصفه من طعامه في نفسه بالحل العظيم الكبير ، وأنه لا يكفي شدة نهمة ، ولا يقوم بمقدار الكفاية من مطعمه أنفذنا إليه شيخنا أبا نصر يُشرفه ، ويفصصه بريقه ، ويطلع على قلة طعامه وضيقه ، وما تحرق به من هذه الألوان الحسان وموّة على الإخوان ، لأن عاداته التطفيل على الدعوات ، وطروق الولائم المهولات ، حتى يُطرد طرد الذباب ، ويُلزم ملازمة المذبوب بالأبواب .

وربما عجزت الاستطاعة ، وتعذرت من النفس الطاعة ، لاسيما فيما خالف الإرادة ، ونقص عن الأمر العادة .

ولما علمنا أنه لم يُصلح مما ذكره شيئاً ، ولا قدّم مطبوخاً ولا مشروباً ، وإنما قصد الطعن على هذا الرجل وحده ، أنفنا له من تحدّ تنقصه وقصده . ونقضنا عليك — أيها الظالم — كلامك ، واعتمدنا الانتصار له إرغامك .

فتنصل من هذا التعريض ، وإلا وقعت من المناقضة في الطويل والعريض . والخليج بعض مدد البحر ، والروضة جزء من أثر القطر . وأنت أبصر بنفسك والسلام . « (١) .

وتخرج عن هذه الرسائل التي ساقها المسيحي لجماعة من أدباء المصريين في عصره عصر الظاهر لاعزاز دين الله وتدور حول الإخوانيات ، وإن جمعت الوصف لمظاهر الطبيعة والحياة ، وبعض أصناف الطعام والشراب المعروفة على موائد المتيسرين واصحاب الجاه في ذلك الوقت ، كما ضمت بعض صور المزح بين الاخوان الذي قد يتطور إلى التعريض والهجاء . وكل ذلك في اسلوب رائق فائق ، طليّ جليّ . يوقفنا على ماكان عليه طبقة الكتاب والأدباء آنذاك من ثقافة ومعرفة بضروب الكلام وأسرار البلاغة ، واقتدار على التعبير عما يدور في خلدهم من الأمور حتى مابدا منها قليل الشأن غير جدير بالاعتبار .

تخرج من هذا اللون من الرسائل في مصر إلى مكان آخر قريب ، وإن كان مشاركاً في الحياة الأدبية في مصر بسهم ونصيب ، أعنى إلى القيروان العاصمة الثانية والسابقة للفاطميين وقد كان بها في هذه المرحلة من تاريخهم كتابٌ تبادلوا الرسائل فيما بينهم كما تبادل كتاب مصر ، أو تبادلوها مع غيرهم من كتاب العالم العربى والاسلامى ، وبخاصة في المغرب والأندلس .

وتمثل لهذا النوع الأخير بالرسالة التي بعث بها الكاتب القيروانى « ابن الرّيب » (ت سنة ٤٣٠ هـ) (٢) .

كتب رسالة إلى ألى المغيرة عبد الوهاب بن حزم يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسيرة ملوكهم (٣) يقول فيها :

« كتبت ياسيدى وأجل عُددي — كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العز والسيادة — سائلاً مستزهداً ، وباحثاً مستنجرأ ، وذلك أنى فكرتُ فى بلادكم إذ كانت

(١). أخبار مصر للمسيحي تحقيق د . حسين نصار ص ٨٧ .

(٢) هو الحسن بن محمد بن أحمد التميمي المعروف بابن الرّيب . راجع ترجمته فى كتاب مجمل تاريخ الأدب التونسى

لحسين حسنى عبد الوهاب طبع مكتبة المنار بتونس ص ١٢٤ .

(٣) راجع الذخيرة ، ونفع الطيب والخريدة للعماد شعراء العرب والأندلس وكذلك المرحع السابق ص ١٢٥ .

قرارة كل فضل ، ومنهل كل خير ونبل ، ومصدر كل طرفة ، ومورد كل تحفة . وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، إن بارت تجارة فإليها تجلب ، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ، ووفرة أدبائها ، وجلالة ملوكها ، ومحبتهم في العلم وأهله ، يعظمون من عظمه علمه ، ويرفعون من رفعه أدبه . وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع الجبان ، وأقدم الهيبان . ونبه الخامل ، وعلم الجاهل ونطق العيى . وشعر البكى ، واستنسر البغاث ، وتنعين الحفاث . فتتنافس الناس في العلوم ، وكثر الخذاق بجميع الفنون . ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتائب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكراً في الغابرين ، يُجدد على مَرُّ الليالي والأيام ، ولسان صديق في الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام .

وعلمائكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يرح ، وراتب على كعبه لا يترحزح ، يخاف إن صنف أن يعتف ، وإن ألف أن يخالف ، ولا يوالف ، لم يتعجب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده . ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بلّ قلماً بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سؤد قرطاساً بمحاسن قضائه وعلمائه . على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه وبسط ما قبض الإهمال من بيانه لوجد للقول مساعاً ، ولم تضيق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد . ولكن هم أحدهم أن يطلب شأؤ من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق بقدر ابن مقبل ، وبكظم تغفل ، ويصير شجاً في حلق أى العميميل . فإذا أدرك بغيته واخترمته منيته دُفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره وانقطع خبره .

ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس ، فآلفوا دواوين بقي لهم بها ذكرٌ مجدّد طول الأبد ، فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائنا ، وآلفوا كتباً ، لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفت في بلدكم مصلود ، لأسمع من بلدنا من في القبور ، فضلاً عن في الدول والقصور . » .

ومات أبو المغيرة ابن حزم ، ولم يجب عن الرسالة السالفة . ثم بعد مدة طويلة وقف الوزير أبو محمد على بن حزم حفيد أبى المغيرة المخاطب بالرسالة المذكورة ، فأجاب

برسالة مطولة أثبت فيها ماللأندلس وعلمائها الأفاضل من فضل وتقدم في شتى العلوم والآداب وأثبتها ابن بسام في الذخيرة ، ونقلها عنه غير واحد ممن اهتموا بأدب الأندلس كعماد الدين الاصفهاني في الخريدة قسم شعراء الأندلس والمغرب ، والمقرئ في نفح الطيب . وليس المجال هنا لعرض هذه الرسالة .

وملاحظتنا على رسالة ابن الريب تتلخص في أنها تعتمد أساليب العصر من استخدام للسجع دون تكلف واضح ، والتزام بالوضوح دون ثقل الصنعة ، مع تفاوت الفقرات ، والمراوحة بينها واستخدام المزوجة في العبارة . واللجوء أحيانا إلى المجاز لتأكيد المعنى وإثباته في الذهن .

ومن كتاب صقلية الفقيه أبو موسى عيسى بن عبد المنعم . قال في رسالة في وصف الخط (١) :

« ورد كتاب فلان أطل الله بقاء فلان لفلك السعادة والكرم ، وعماداً تعلق به الهمم ليشيد من عرصات الفضل دارسها ، ويبين من أعلام المجد طامسها ، وينير من آفاق العلم حنادسها ويسيطر من أوجه الليالي عوابسها . فنظرت منه إلى خط موصوف ، معتدل الحروف ، أملس المتون مفتوح العيون ، لطيف الإشارات ، رقيق الحركات ، كين المعاطف والأرداف ، متناسب الأوائل والأطراف ، يروق العيون حسنه وشكله ، ويعجز المحاول بيد التناول صنعه وفعله ، متضمناً معاني كأنها رقب الزمان ، وضمة الأمان ، لو كانت مسارب كانت الحياة ، أو مشارب زادت النجاة . فأوجب تأمل لها تألبي ، واستنار بفكرى فيها تعجبي . قلت : سبحان ربي القيوم أفسح هذا ، أم أنتم لا تبصرون . أكل هذا الإحسان في طاقة الإنسان ؟ . وماأرى ذلك في الممكن والإمكان . ولئن كان ذلك فنحن الأنعام يشملنا اسم الحيوان . ثم رجعت إلى نفسي وثاب إلي حسى ، فقلت عند سكون جاشى ، وثبوت طيشى ، وإفراخ روعى ، وذهاب دهشى ، إن من دب في الفصاحة ودرج في وكرها ، ورضع بلبانها ، وجرع من درها . وصاحب السادات مقتبلا ، والأجماد مكتبلا ، لخليق أن يعمل من الفضل وسائطه ، وجمع قطريه ، بل يستولى على عذاريه ، ويملك شطريه . » .

(١) خريدة القصر للعماد — شعراء المغرب القسم الرابع تحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم طبع دار هبة مصر
بالفجالة سنة ١٩٦٤ .

ومن القيروان وصقلية بالمغرب إلى الشام وهي جناح الدولة الشرق حيث نلتقى
بجماعة من الكتاب المشاهير ، والبلغاء المرموقين ، كانت لهم الرسائل البليغة في مواضع
كثيرة ، في الاخوانيات والوصف ، والعلوم والفنون ، وتمثل منها برسائل للوزير
المغربي ، وأبي العلاء المعري ، وابن القارح .

قال أبو القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي من رسالة له في الرد على كتاب
وصلة^(١) :

« وقفت على كتابك ، ولم أزل أثنه كأني قد ظفرت باليد التي بعثته ، وأضمه
كأني أضمت الجوانح التي نفتته ، وكأني كلما أدنيت من الكبد المعذبة ببعديك ، وأمرته على
العين المطروفة بفقدك ، سحبت على النار ذيل السحاب . وسقيت عطش الحب كأس
الرؤض ، وأعرت أخا سبعين ظل الشباب ، فأرخت يوم قدومه لأجعله موسماً
للسرور ، وعيداً باقياً على الدهور أرتقب السعد عنده كل عام ، وأنتظر الفرج منه من
كل عام ، وأنتظر الفرج منه من كل غرام ، واتفق ورؤده في أشرف فصول الدهر
حسباً ، وأكرم مفاخر الأيام نسبا حين ابتداء الربيع يزخر فبروده ، والروض ينظم
عقوده . وكنت أعرف هذا الفصل باعتدال مناجه ، وصحة مزاجه ، وأنه لو كان
الزمن شخصاً لكان له مقبلاً ولو أن الأيام غوان لكان لها حلياً وحللاً ، لأن الشمس
تخلص فيه من ظلمات حوت السماء خلاص يونس من ظلمات حوت الماء ، فإذا
وردت الحمل وافت أحب أوطانها إليها ، وأعز مساكنها عليها .

وفي فصل منها : فياحسن تلك الصحيفة ، ومدادها ينتهب بالأفواه ، ويزيد
بالتقيل لئسا في الشفاه . وياعجبا كيف حفظ مع بعد العهد نشر عرفك ، وكيف علّق
مع تراخي الأيام طيب كفك ؟ . وكيف جاء كأنك كتبت من أم ، وأنقذته وبيننا
خطوة قدم . وكيف لم يغيره ما قطع من مهاول قفار ، وليل ونهار ، وعدو كاشح
ورقي لاح . فأنعم به من ريحانة ألفاظ دامت لدوتها ، وبأكورة وصال سلمت
غضوضتها ومسحة يد بقي أثرها أرجا ، وروضة كلّم دام على الصيف بهجتها .

وفي فصل منها : فأما سؤالك عني فما يشبه سيرتك الحسنی ، ولا يليق بطريقتك
المثلّي كيف تسألني والإجابة معك ؟ ، وكيف تستخبرني ، ومحل الخير والاستخبار

(١) الذخيرة ص ٤٩٦ بتحقيق د . إحسان عباس وكتاب الوزير المغربي له ص ١٨٢ طبع الأردن سنة ١٩٨٨ .

عندك ؟ . ومتى سمعت بجواب جسد رهينة ؟ . وأين رأيت طِمَاح عن لوحظها مقيدة
كليلة ؟ . ألم أفارقك وقلبي عندك أعشار . وأضلعي منه قفار ؟ . » .

وله من فصل يصف الموصل حين ورودها .

« ... وردت الموصل التي خالف اسمها معناها ، وكانت مقطعا بيننا لولا خدع
الأمانى وفصلاً لولا المرجو من عفو الليالى . فوجدت هواءها يعطل سوق بقراط
اعتدالاً وطيبة ، وماءها يُسلى عن مُجَاج النحل استمراء وعذوبة ، وصقعتها قد تبغدد
رقة ولطفاً ، وجوهاً قد تزندق تنعماً وظرفاً . تكاد تثقله عُقود الغايات ، ويخجله تتابع
اللحظات ، كُلُّ شَمَاله نسيم ، وكلُّ جنوبه حَيًّا عميم ، ورأيت أرضها أطيب الأرض
خيماً ، وأزينا أديماً ، تُنسجُ بالسندس الأخضر ، وتفتّر عن الأقحوان الأحمر ، ورأيت
بنيانها هو الذى حمده الله فى تنزيله ، وأحبه لنا أن نكون مثله جهاداً فى سبيله ،
مرصوفاً بوقاح الجلد ، ملاءماً بينه بالشيد الممرد . قد حُصِّنَ ظاهره على باطنه عن
تداخل الإبر ، ومساكن الذر ، يزلُّ عنه ظُفر الطائر ، وتتدحرج عليه أصداق الناظر .
وتغنى به العروس عن الماوى المنير ، وتستبين به الجفون منابت الشكير من أحداها
والغمير ، متلاقية أقطارها على رجال كأنهم أعلاء عاد ، وثاقه أجسام ، وصلابة
أحلام ، وبُعد مرام . لطُفوا عن بدوئية الشام وغلطته ، وجمدوا عن ذوب العراق
وخلابته ، وقد عقدت أَلستهم بالصدق ، فما ينتثر الباطل من عذباتها . وصحَّت
غرائسهم فى المودة ، فما يُجتنى النور من ثمراتها إن سلماً فسلماً ، وإن حرباً فحرباً ، لا
يعرفون تدليس الأخلاق ، ولا تمويه النفاق . وشعراؤهم ملء اليدين ، وكتابهم أثر بعد
عين . أديهم حسنٌ على قلة الملوكة فيه ، وعلمهم متقنٌ لمن تأمل أدق مسرف فى فتن
معانيه . قد مُحَصَّنَ تهذيبُ الحن شرارهم ، وأوَهَنَ خيارهم . بلدُهم أطلالٌ وأحوالهم
آل . قويُّهم يُثْنُّ ضعفاً ، وصفيقهم يماطل حتفاً . بقيت عليهم أسمال النعم ، وذهب
الدهر بأجسادها ، وانجلت عنهم ظلل الحن وهم يتأوهون من غير آلامها إلا أن فيهم بقية
نقية ، وفيهم موضع تدارك إن رُزقوا سيرة مرضية ، فلولا مأرجوه من مداواة
أسقامهم ، وإعادة صالح أيامهم ، لقضائى الانتاء بمعاشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم
قبل مقاساتهم ، لكننى أعلم أن من يحبى العظام وهى رميم ، ويبعث الروض وهو هشيم ،
وينشئ (الأرض) بعد ماكانت قفاراً ، ويجعل من الشجر الأخضر ناراً قادرٌ على أن
يجعل ثواب بيتى فيهم معونتى على مأنويه لهم ، وجزاء تأملى بهم بلوغ الغرض فى تدارك

ومن رسائله تلك الرسالة التي بعث بها إلى أبي العلاء المعري وأخيه .

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقى

هذه أطال الله لسيدى الشيخين فى سبوغ النعمة البقاء ، وأدام لهما فى ذورة المجد الارتقاء . وجعلنى لهما من كل سوء الفداء والوقاء . نفثه مصدور ، وضجرة مأسور بعثتهما صباة الهوى ، تذكىها نار الغرام ، فى صباة لقاء تُقِلُّها أيدى السلام :

بقية شلو كسر الين عظمه ومزق جلدأ كان يسر مابقى
أقام فلا تلك الخوافى تطيعه نهوضاً ، نهوضاً ولا تلك القوادم ترقى

ولابد للمصدور أن ينث ، ولا غرو للمأسور أن يتلهث . وجملتها أنى كتبت ، ومالى جارحة إلا وهى جريئة جهما ، ولا جانحة إلا وهى جانحة إلى قريهما ، ولا قلب إلا وهو كيفما تردد وتقلب فى مرضاتهما ، ولا نفس إلا وهو كيفما تصعد وتصوب فى موالاتهما ، فالله يحرس على موقدى جزل القضا بين جنبي ، وموقدى جيش الصباة كل يوم إلى ، اللذين إن واجهت بهما المروءة أسفر مربدأها ، وسر مكمأها . وإن قابلت بهما الفتوة طلع سعداها ، وأورى زنداها :

أردد فيهما فكبرى فترجع حسراً فكبرى
كذلك الشمس تنشى العبد من معشاة عن النظر
فاذا هاجت بلا بلى ذكراهما ، وإن كنت لا أنساها ، واشتقت أن أراها ، ولم أجد عوضاً عن
سواها

أروم بالذكر شفاء الذى يقلقنى من لوعة الذكر
ولست بالحاصل إلا على إطفاء جر بلقى جر
وعلة الكون إذا طوبت بالجر فى الإفاد لم تجر

مثلت نفسى لديهما ، وقررت مكانها بين أيديهما :

وخلوت أجتلب الرقاد لعنى ألقى خيالاً منهما فأراها
فاذا عدمت النوم لذت بفكرتى فانجاب لى من لى لى لجرهما
وإذا سلت بمن تيم صباة قلت اللدان هما اللدان هما

الموفيان بعهدى بالغيب ، والساتران لما فئ من عيب ، والمحسنان إلئى إذا أسأت والمصيبان
فى أمرى إذا أخطأت .

دليلى إن جاز بى مهتد وعونائى إن خذل الناصير
ولولا تردد فكريهما لما كان لى فى اللجى سامر

من أجتلى غرر محاسنهما من جبهات الدهر ، وأقرأ فضائلهما فى صحائف
العصر ، وأطالع طلعتيهما فى مرآة التخيل ، وأشاهد سميتيهما بعين التفكير والتأمل . ولا
غرور وإن بُعد العهد إذا قرب الود ، ولا ضير إن تناءت الأشباح ، فقد تدانت
الأرواح .

ولكن إذا حاسبت نفسى تأملت فلم تر إلا فكرة قل ماتجبدى
فلا العين ثرغى غير ماكان من نوى ولا القلب يلقى غير ماكان من وجد
وإلى لجائى البعد والبعد قاتلى وشاحد حد البين والبين لى مُردى
لوا أسفاً من ذا ألوم على النوى ومن قبلى كان الفراق ومن عندى
وكم قد أقلت الدهر من خطأ ثنى فهلاً أقال الدهر من خطأ فرد
ففس من كرب وفرج من أسى وجمع من شئ ، وقرب من بعد

وهيات ! . هو الدهر الذى يسر نادراً ، ويسوء مبادراً ، ويحسن مبتدئاً ويسوء
آخرأ :

ويجود ثم يجيد أجد صلاته مستدركا خطأ الجميل فمدركا
فإلى الزمان أذم مألقيه من غير الزمان واستتم إلى البكا
وإذا شكوت إلى سواه صنيعة لم يشكى لئليه منه المشتكى

فلعله أن يغلط باجتماع ، لا يكدره الصداق ، أو تلاق لا ينغصه اقتراف ، وهو
المرجو من طول الله تعالى ، ولولا مأرجوه من عوده إلى ماعود من جمع الفريقين ، ولم
ذات البين ، لمت كمدا ، ولم أجد على ماأقاسيه جلدا ، فأما حالى وماأنا عليه ، فجملتُها
أنى أصبح وأمسى فى غل التدبير ، وأروح وأغدو فى سجن المقادير ، هدفنا لسهام الليالى
والأيام ، وغرضاً لأسنة الأحوال والأعوام ، أجد مالا أريد ، وأريد مالا أجد :

وليتنى من زمانسى خرجت رأساً برأس

فلم ينبى بحير ولم يصنئ يأس
 وهما يريان ذلك فى اضطراب خطئ ، ورجوع ألفاظى شيئاً فشيئاً إلى خطئ ،
 فإذا هما صرفا التأمل إلى ، واقبلا بكلية فهمهما على وجدانى :

وقد استحال همى فى فتخالىنى من طول ما أجده الجوى مسرورا
 وقد انطوت منى الضلوع على أسى لو كان محسوساً لكان سهيرا
 وأخلق بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحة والسقم . وأخرى بمن
 كان هذا نعته أن يتأثر لديه الراحة والألم .

بأنى فؤاد أقاسى الهموم وفى أى جفن أحس السهاذا
 وما ترك الدمع لى مقلنة ولا خلف البين عندى فؤادا
 وأنا مع كمال هذه الأحوال أخاشن الحجر ، وأحاسن القمر ، وأفاضل الهجان
 باهجن ، وأفضل العثانة على السمن .

أنعاطى نزع الركى وقد قص	ر عن أن ينال ماء رشاء
ولعهدى بفكرق وهى تنجا	ب بها عن صاحبها الظلماء
غير ألى وإن تعاورنى الهم	وشاء الزمان مالا أشاء
ورمانى مستيقنا أن قلباً	بين جنى صخرة صماء
لا أبالى بالليل طال أم اليو	م ، كلا الزيتين عندى سواء
والمنادى هو المروح من هم	مى فهذا الصباح ذاك المساء
وإذا العين لم تعين سوى الش	وئ فئان ظلمة وضياء
وابنى افسر لا ابنه أنا إذ كل	ابن همم بليئة عياء

وبعد فهذا أدام الله عز سيدى الشيخين — قول أستغفر الله منه ، وأسأله التجاوز
 عنه ، واسلم للمحتوم فى أمره ، وأرضى بقدره فى خيرهِ وشرهِ ، وأسأله الجمع بينى
 وبينهما على حالئ تسر الولئ وتسوء العدو بخوله وطوله . إنه ولئ الإجابة ، والقادر عليها
 إن شاء الله تعالى . » .

والرسالة كما نرى تمت عن صدر محرور ، وقلب مونتور ، وتكشف عما لا تقاه كاتبها
 من أزمات ، ومعاناة فى حياته الغريبة بين مصر وأقطار الشام والعراق ، وقد لاقى فيها

مالأقى من الأحداث الكبار .

وهو يبعث بالرسالة إلى عالم أديب فيلسوف كانت له أيادٍ في العلم والفكر .
والرسالة غريبة في طراز الرسائل التي كتب ، لأنه مزج فيها بين البث والشعر وكلاهما
من صنعه ، وفاضل بين الترسّل والنظم ، فأجرى منها فرسّى رهان ودلّ على تمكنه من
التعبير وامتلاكه ناحية اللغة ، مع علم عزيز ، وعلوباع في الأدب ، وكثرة محفوظ
لترائه .

ولاشك أنه يراعى مكانة المرسل إليه في الأدب واللغة ، فهو يحافظ على كل كلمة
ينثرها ، وكل لفظة ينظمها ، لا يدع مجالاً لأن يختل ترسله ، أو يهن نظمه .

والرسالة بعد هذا كله تدلّ على علو كعب صاحبها في فنّي الكلام مما ستفصل فيه
القول عند وقفنا معه .

الرسائل الموضوعية

وندع هذا اللون من الرسائل إلى ضَرْبٍ آخر لم يقصد به التراسل ، بل الإفضاء بما
يدور في خلد الكاتب من فكر حول موضوع بعينه ، فهو من الرسائل التي تدور في
موضوعات العلم . وربما أطلق عليها اسم الرسالة لكونها في حجمها لا تبلغ شأوَ
الكتاب . وهي أشبه بالمقال .

ومنها كما عرفنا رسائل كثير من البلغاء والأدباء في عصر سابق على هذا العصر ولعل
أشهرها فيمن عرفنا رسائل الجاحظ ، وهي ليست أقل أهمية من كتبه بل لعلها تفوق
بعضها لتركيزه القول في الموضوع الذي يطرقه بما يجعل أثرها في القارئ أقوى ،

وهذا ماكانت عليه الحال كذلك في رسائل البلغاء في عصر الفاطميين من المصريين
والمشاركة أو المغاربة ، وكما عرفنا من الرسائل لهذا العصر بقيت بقاء الدهر واشتهرت في
الخافقين كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، والرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت ،
وبعض رسائل ابن الصيرفي على بن منجب .

ولما كانت بعض هذه الرسائل لجماعة من كبار كتاب العصر وأدائه ، وكانت
كذلك من أشهر أعمالهم الأدبية ، وقد تناولها أو تناول بعضها كرسالة الغفران جماعة
من الدارسين والباحثين في العالم العربي والإسلامي ، وفي العرب المسيحي

فليس لنا بعد قولهم فيها من مزيد ، اللهم إلا أن نعرض لموضوعها ، ومناسبتها لنضعها في مكانها من هذا العصر الحافل تراث الأدب والفكر .

رسالة الغفران :

ومعروف أن أبا العلاء المعرى ألف رسالة الغفران ردًا على رسالة ابن القارح التي عرض فيها لجملة من قضايا اللغة والأدب والفكر والدين في عصره ، وليست غرابة الرسالة ولا كان تفرداها واهتمام الناس بها من بين جميع رسائل أبي العلاء ، بل دون جميع رسائل العصر لأنها تناولت بعض القضايا الأدبية أو الدينية والفكرية الهامة ، فقد تناثرت معظم هذه القضايا في كتب مفكرى العصر وأدبائه ، بل إن منهم من عالجها بصورة أكثر شمولاً من أبي العلاء في رسائل ومؤلفات عدة . بل إن أهمية رسالة الغفران تتعلق بذلك النمط الخيالي الذى بناها عليه المعرى مما جعلها نموذجاً متفرداً ، بل شكلاً جديداً . في الرسائل العربية والاسلامية لم يسبق إليه حتى إن بعض أدباء عصره حاولوا تقليده والسير على مناهجه فيها مثل ابن شهيد الأندلسي في رسالته « التوابع والزوابع » . وقد قام كثير من الجدل حول إمكانية هذا التقليد . لتقارب زمنيهما .

ولم يكن أثرها مقصوراً على الأدب العربى وحده ، بل تعداه إلى آداب الغرب في العصور الوسطى ، وكم تحدث العلماء والباحثون عن العلاقة بين « جحيم » دانتي ، وغفران أبي العلاء .

ورسالة الغفران — كما نعلم — جواب على رسالة لابن القارح على بن منصور الحلبي وكان قد كتب بها من حلب إلى أبي العلاء ، وقد اتصلت الأسباب بين الثلاثة الأعلام أبي العلاء وابن القارح وابن المغيرة ، كما اتصلت أسباب الثلاثة بالفاطميين ودولتهم ورجالهم ، وكان لهم شأن في مجريات الأحداث وكان لهم شأن في بعض مدار من الحوار والتراسل على ما عرفنا من قبل من رسائل بين المعرى وداعى الدعاة ، وما قيل من دعوة الحاكم بأمر الله أو المستنصر لأبي العلاء إلى مصر ، والرسائل والعلاقة التي قامت بين الوزير المغرى وأبي العلاء ، وقد أوردنا رسالة المغرى ، وهذا ثالث وابن القارح كانت علاقته بالفاطميين بيّنة لأنه ذهب إلى مصر مُستدْعًى من الشام للانضمام إلى علي بن الحسين والد أبي القاسم الوزير المغرى .

وحدث بين ابن القارح وأبي القاسم ما حدث ، وكانت له آثاره في رسالته إلى أبي العلاء والتي يقول فيها : (١) .

« كنت أختلف إلى أبي الحسن المغربي — (ببغداد) ... ثم سافرت إلى مصر ولقيت أبا الحسن المغربي فألزماني حتى لزمته لزوم الظل ، وكنت منه مكان المثل في كثرة الإنصاف والحنو والتّحاف . فقال لي سرّاً : أنا أخافُ ثمة أبي القاسم أن تنزّو به إلى أن يوردنا ورداً لا صدر عنه . وإن كانت الأنفاس مما تحفظ وتكتب ، فاكتبها واحفظها وطالعتني بها .

فقال لي يوماً : ما نرضي بالخمبول الذي نحن فيه ، قلت : وأي خمبول هنا ؟ . تأخذون من مولانا — خلّد الله ملكه (٢) — في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرّم . فقال : أريد أن تُصارَ إلى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقائب (٣) . ولا أرضى بأن يجري علينا كالولدان والنسوان .

فأعدت ذلك على أبيه ، فقال : ما أخوفني أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه ، وقبض على لحيته وهامته .

وعلم أبو القاسم بذلك ، فصارت بيني وبينه وقفة » .

ويروى ابن القارح كيف أنه غادر مصر وغاب عنها إلى الحج زمناً ، وكان أن فتك في هذه الأثناء الحاكم بأمر الله بأبي الحسين وإخوته ، وقتل الحسين بن جوهر . وفر أبو القاسم الحسين إلى البرملة بالشام .

وكانت مناسبة ذكر الوزير المغربي في رسالة ابن القارح أن أبا العلاء ذكره بأنه الذي هجا ذلك الوزير . ويبدو أن العداء بين الوزير وابن القارح انتشر وذاع حتى بلغ أسماع أبي العلاء وعلق بذهنه ، وكانت مناسبة أن ذكره بذلك بين بعض أصحابه ، فنقلوه إلى ابن القارح في حلب . فكانت هذه الرسالة التي بعثت أبا العلاء على أن

(١) الوزير المغربي

(٢) المنصور بالله

(٣) المنصور بالله

يكتب رسالة الغفران ، وهي من أجمل ما حملت لنا أيام تلك الفترة من النصوص الأدبية .

ألا ترى معنى إذا كيف تشابكت ظروف السياسة والأدب والفكر ، والتعارف والتعاضد بين أعلام السياسة والفكر والأدب وتكاتفت لتبرز لنا كلها في هذا النص وغيره ؟

كانت رسالة ابن القارح عتاباً ، وذكرنا لأحواله ، وادلالاً بنفسه وعلمه وشيوخه وربما أراد من هذا كله أن يعرض بأنه لا يعرف بهجاء الوزير المغربي كما ذكر أبو العلاء وإنما يعرف بماله من مكانة في العلم والأدب واللغة ، وأنه حصل على مشاهير علماء العصر من أمثال ابن خالويه ، وأبي علي الفارسي ، وأبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرماني وأبي عبيد الله المرزباني ، وأبي حفص الكتاني . يقول : (١) .

« كنتُ أدرس على أبي عبد الله بن خالوية رحمه الله ، وأختلف إلى أبي الحسن المغربي ولما مات ابن خالوية سافرت إلى بغداد ، ونزلت على أبي علي الفارسي . وكنت أختلف إلى علماء بغداد : إلى أبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرماني ، وأبي عبيد الله المرزباني وأبي حفص الكتاني ، صاحب أبي بكر بن مجاهد . وكتبت حديث رسول الله ﷺ ، وبلغت نفسي أغراضها جهدي والجهد عاثر . ثم سافرت منها إلى مصر . » .

وذكر ابن القارح في هذه الرسالة بعض انحرافات العقيدة ، ومن ثار من الثائرين وخرج من الخارجين على جادة الدين من مدعي النبوة ، والمتنبئين والمتألهين ، والملحدن المارقين . وذكر منهم عدداً منذ فجر الإسلام كابن المعتدل ، وبشار بن برد ، والبازيار ، والأفشين وابن الراوندي ، والحلاج وغيرهم .

وذكر بعض ادعاءات هؤلاء ومفترياتهم ، وما عترضوا به على الإسلام وكتاب الله ، ونبوة نبيه محمد ﷺ وغيره من الأنبياء .

وجعل ابن القارح الرسالة معرضاً لمعارفة في الملل والنحل والتاريخ والأدب واللغة محاولاً أن يتبرأ من مثل هذه الدعاوى الباطلة ، وأن يصل إلى قلبه وعقله بالعقيدة الصحيحة دون أن ينافق أحداً ، أو يهيم في سبيل المال لمسألة إنسان .

(١) من رسالة ابن القارح ١٠ ، مقدمه : رسالة العفران بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن الضعة السابغة - ذخائر

العلم - ١٩٧٧ - ص ٥٠ - ٥١ .

ولعل التعريض في هذا واضح بما كان يدور في مجال الدعوة والفكر بين المعسكرين الاسلاميين في بغداد الخلافة العباسية السنية والقاهرة حيث الدولة الفاطمية الشيعية وما بينهما من البلاد الاسلامية وقد ننازعتها الملل والأهواء والحل . بين قمرطية وإمامية وإسماعيلية نزارية .

وربما أراد ابن القارح وقد بلغ من السنّ مبلغاً أن يعبر عن هذه الرغبة في أن ينجو بنفسه من معتك تلك العقائد والملل ، وأن يمسك بخبل كتاب الله ، والصحيح الثابت من سنة رسوله الكريم . ليفوز برضوان الله ، وقد آذنت أيامه بانقضاء .

وعرف المعري هذا كله في الرسالة ، فلم يبادر بالردّ على ماورد فيها مباشرة ، بل بدأ عرضاً فنياً جميلاً في رحلة خيالية في اليوم الآخر ، ليصحب صاحبه ابن القارح في رحاب الجنة التي أعدها للمتقين ، وأن يطوف به اليوم الآخر يوم البعث ليلقي جماعة من الشعراء والأدباء ، فيقف معهم وقفة للمحاوراة والمذاكرة . وإنشاء الشعر .

ويبدأ أبو العلاء رسالته بالاعتذار لابن القارح عما بدا منه من ذكره بهجاء ابن المغربي وابداء ما يضمنر له من المحبة والتقدير .

« ... يُضمّر من محبة مولاى الشيخ الجليل — ثبّت الله أركان العلم بخياته — مالا تضمّره للولد أم . » .

ثم يقول بعد فذلكة لغوية عرفت عند أبى العلاء في كثير من رسائله : (١) .

« ... وقد وصلت الرسالة التي يخرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها مأجور ، إذ كانت تأمرُ بتقبُّل الشرع ، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع . وقد غرقت في أمواج بدعيها الزاخرة ، وعجبتُ من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها شفع ونفع ، وقرب عند الله ورفع . وألفيتها مفتحةً بتمجيد صور عن بليغ مجيد . وفي قدرة ربّنا — جلّت عظمتها أن يجعل كلّ حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور . يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين ، ويذكره ذكر محبّ خدين . ولعله سبحانه ، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء ، وتكشف مسجوف الظلماء بدليل الآية : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل ﴾

(١) رسالة المفرد ص ٢٣٩ — ٤٠

الصالح يرفعه ﴿١﴾ . وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : ﴿٢﴾ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴿٣﴾ .

وفي تلك السطور كلم كثير ، كله عند الباري — تقدّس ، أثير . فقد غرس لمولاي الشيخ الجليل — إن شاء الله — بذلك الثناء ، شجر في الجنة لذيد اجتناء . كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظل غاط ^(١) ، ليست في الأعين كذات أنواط . ^(٢) » .

مشاهد الجنة — وجولة ابن القارح بها .

ويعرض مشاهد متخيلة من جنة الخلد بما فيها من أنهار لبن وعسل ، وما فيها من أواني الذهب وفراش الاستبرق وما شابهه من فاخر الشيء الذي لا يشبهه متاع الدنيا .

ويعرج به إلى مشهد آخر فيقول : « ثم إنه أدام الله تمكينه يخطر له حديث شيء كان يسمى الزهرة في الدار الفانية ، فركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سحسج بعد عن الحرّ والقر ، ومعه إناء فيج ، فيسير في الجنة على غير منهج ، ومعه شيء من طعام الخلود ، دُحِر لوالد سيعد أو مولود ، فإذا رأى نجية يملع ^(٣) بين كتيان العنبر ، وصنيمران وصيل بصعبر ^(٤) ، رفع صوته متمثلاً بقول البكري :

ليست شعري متى تحبُّ بنا النا قة نحو الغليب فالصيون
محمّلاً ذكراً ، ولجبر رُقاسي وجاقاً ، وقطعة من نون

يعنى بالحباقي جُرزة البقل . فيهتف هاتف : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ . فيقول الشيخ : نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، يتوارثون ذلك كاهراً عن كاهر ، حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء ، فيرويه له عن أشياخ العرب ، حرشة الضباب في البلاد الكلدات ^(٥) ، وجنّة الكمأة في مغانى البداة ، الذين لم يأكلوا شيراز ^(٦) الألبان ،

(١) حاط واسع مسجود

(٢) ودات أنواط شجرة ذات تعدد في الخاهنية .

(٣) يملع : سرح ويحف ، والذبح : الدقة أو الفرس السريع

(٤) صعر : صعر شجر تشنبر

(٥) الكلدات : البداة

(٦) شيراز : البداة

ولم يجعلوا الثمر في الثَّبان^(١) ، أن هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل أخى بنى ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل . « . فيقول الهاتف : أنا ذلك الرَّجل ، من الله عليّ بعدما صرْتُ في جهنم على شمير ، ويُسْتُ من المغفرة والتكفير . فيلتفت إليه الشيخ هَشَّاشاً ، مُرتاحاً ، فإذا هو بشابٍّ غرائق^(٢) . غبر في النعيم المفانيق^(٣) ، وقد صار عَشاؤه حوراً معروفاً ، وانخاء ظهره قواماً موصوفاً . فيقول : أخبرني كيف كان خلاصك من النار ، وسلامتك من قبيح الشَّنْء ؟ فيقول : سحبتني الزبانية إلى سقر ، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألاً وجهة يتلألاً القمر والناس يهتفون به من كل أوب : يا محمد . يا محمد ، الشفاعة ! الشفاعة !! . نمتُ بكذا ، ونمتُ بكذا . فصرختُ في أيدي الزبانية : يا محمد أغثنى فإن لي بك حرمة ! . فقال : يا عليّ بادره فانظر ما حُرْمته ؟ . فجاءني على بن أبي طالب — صلوات الله عليه — وأنا أعتل كي ألقى في الدُّرك الأسفل من النار ، فزجرهم عني وقال : ما حرمتك ؟ . فقلت : أنا القائل :

ألا أيُّ هذا السائلِ أين أُمْتُ	فإن لها في أهلي يثرب موعدا
فأليت ، لا أرثي لها من كلالية	ولا من خفي ، حتى تلاقي شمعدا
متى ما تناجى عند باب ابن هاشم	ثراحي ، وثلقني من فواضله ندى
أجدك لم تسمع وصاة محمد	نبي الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى	وأبصرت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله	وألك لم تُرصد لما كان أرضدا
فأيّاك والميتات لا تُقرَّبها	ولا تأخذن سهماً حديداً لتقصدا
ولا تقربن جارة إن سرها	عليك حرام فانكحن أو تابدا
نبي يرى ما لا يرون ، وذكره	أغار لعمري في البلاد وأنجدا

وهو — أكمل الله زينة المحافل بحضوره — يعرف الأقوال في هذا البيت ، وإنما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشئاً لم يبلغه .

الشاد . أدبال القصص

(٢) المرائق : الأبيض الحميل الصورة

(٣) المفانيق الساعم

حكى الفراء وحده أغار بمعنى غار . إذا أتى الغور - وإذا صحَّ هذا اليث للأعشى، فلم يُرد بالإغارة إلا ضد الإنجاد . وروى عن الأصمعي روايتان : إحداهما أن أغار في معنى عدا عدواً شديداً . وأنشد في كتاب « الأجناس » .

فعدَّ طلابها وتسلَّ عنها بناحية إذا زجرَتْ - فسر

.....

ويقول الأعشى : قلتُ لعلِّي ، وقد كنتُ أومن بالله ، وبالحساب ، وأصدقُّ بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء ، فمن ذلك قولي :

فما أتَيْسَى على هَيْكَلِ بَناه وصَلَّبَ فيه وصارا
يرأوخُ من صَلواتِ المَلِكِ طوراً سجوداً وطوراً جُوارا
بأعظمِ مِنكَ ثَقى في الحِسابِ إذا التَّسَمَّاتُ نَفَضْنَ الغبارا

نذهب علىَّ إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله هذا أعشى قيس قد روى مدحُك فيك ، وشهد أنك نبيُّ مُرسل ، فقال : هلاً جاءني في الدار السابقة ؟ . فقال على : قد جاء ولكن صدته قريشٌ وحبه للخمر . فشفع لي ، فأدخلتُ الجنة على أن أشربَ فيها خمرًا ، فقررتُ عيناى بذلك ، وإن لي منادِخَ في العسل وماءِ الحيوان ، وكذلك من لم يثب من الخمرِ في الدارِ الساخرة ، لم يُسقها في الآخرة .

★ ★ ★ ★

وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، فيقول في نفسه : لأبلغن هذين القصرين فأسال لمن هما ؟ . فإذا قُرب إليهما رأى على أحدهما مكتوباً : هذا القصرُ لزهر ابن أبي سُلَمى المزني وعلى الآخر : هذا القصرُ لعبيد بن الأبرص الأسدي ، فيعجب من ذلك ويقول : هذان ماتا في الجاهلية ولكن رحمة ربنا وسعت كلَّ شيء ، وسوف ألتقي لقاء هذين الرجلين فأسالهما بم غُفِرَ لهما . فيبتدىء بزهر فيجده شاباً كالزهرة الجنيَّة ، قد وهبَ له قصرٌ من ونية^(١) . كأنه ما ليس جلابِهرم ولا تأفف من البرم . وكأنه لم يقل في الميمية :

سَمِعْتُ تَكَالِيفَ الحِياةِ وَمَنْ يَبْشُرُ ثَمانين حِولاً ، لا أبالِسك ، يَسأِمُ

(١) النية التَّوْبَةُ أو النُّشْرَةُ

ولم يَقُلْ في الأخرى :

أَلَمْ تَرْنِي غُمِرْتُ بِسَعِينَ حُجَّةً وعشرًا تبعاً عَشْتُهَا وَثَمَانِيَا
تَوَلَّى : جَيْرٌ ، جَيْرٌ ! ، أَلَيْتَ أَبُو كَعْبٍ وَبُجَيْرٌ ؟ . فيقول : نعم . فيقول — أَدَامَ اللَّهُ
ه — : بِمِ غُفِرَ لَكَ ، وقد كنت في زمان الفترة ، والناسُ هُمْلٌ ، لا يَحْسُنُ مِنْهُمْ
الْعَمَلُ ؟ . فيقول : كانت نفسي من الباطل تُفُورًا ، فصَادَفْتُ مَلَكًا غَفُورًا ، وَكُنْتُ
مُؤْمِنًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، ورَأَيْتُ فِيهَا يَرَى النَّائِمُ حَبْلًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ
سُكَّانِ الْأَرْضِ سَلِمَ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، فَأَوْصَيْتُ بَنِيَّ وَقُلْتُ لَهُمْ عِنْدَ
الْمَوْتِ : إِنْ قَامَ قَائِمٌ : « يَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَأَطِيعُوهُ . وَلَوْ أَدْرَكْتُ مُحَمَّدًا لَكُنْتُ أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْتُ فِي الْمِيْمَةِ ، وَالْجَاهِلِيَّةِ عَلَى السَّكِينَةِ ، وَالسَّفْهِ ضَارِبٌ بِالْجِرَانِ :

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفْسِكُمْ ليخفى ، ومهما يُكَلِّمُ اللَّهُ يَغْلَمُ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُهُ ليومِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمُ

فيقول : أَلَسْتُ الْقَائِلُ :

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَّةٍ كَرَامٍ نَشَاوِي ، وَاجْدِيْن لِمَا نَشَاءُ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَثَّثَتْ حُمِيًّا الْكَأْسُ فِيهِمْ وَالْفَنَاءُ

أَفَأُطْلَقْتُ لَكَ الْخَمْرُ كَغَيْرِكَ مِنْ أَصْحَابِ الْخُلُودِ ؟ . أَمْ حَرَمْتَ عَلَيْكَ مِثْلَ مَا حَرَمْتَ
عَلَى أَعَشَى قَيْسٍ ؟ . فيقول زهير : إِنْ أَنَا بَكَرْتُ أَدْرَكَ مُحَمَّدًا ، فَوَجِبَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ،
لأنَّهُ بَعَثَ بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، وَحَظَرِ مَا قَبَّحَ مِنْ أَمْرِ . وَهَلَكْتُ أَنَا وَالْخَمْرُ كَغَيْرِهَا مِنْ
الْأَشْيَاءِ ، يَشْرَبُهَا أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَلَا حُجَّةَ عَلَيَّ .

فَيَدْعُوهُ الشَّيْخُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ ، فَيَجِدُهُ مِنْ ظُرَافِ التَّدْمَاءِ . فَيَسْأَلُهُ عَنْ أَخْبَارِ الْقَدَمَاءِ .
وَمَعَ الْيَنْصِفِ^(١) بَاطِلَةً مِنَ الزَّمَرْدُ فِيهَا مِنَ الرِّحِيقِ الْخَتُومِ شَيْءٌ يُمَزَّجُ بِزَنْخِيلٍ ، وَالْمَاءُ أَخَذَ
مِنْ سُلَيْبٍ . فيقول — زَادَ اللَّهُ فِي أَنْفَاسِهِ — أَيْنَ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ مِنَ الَّتِي ذَكَرَهَا السَّرَوِيُّ
فِي قَوْلِهِ :

وَلَنَا بَاطِلَةٌ مَلْسُوءَةٌ جَوْنَةٌ يَتَبَغَّهَا بَرُذْنُهَا
فَإِذَا مَا طَرَدَتْ أَوْ بَكَأَتْ لَفَتْ عَنْ خَاتَمِ أُخْرَى طِينُهَا

* * * *

(١) الْيَنْصِفُ : أَحَادِمُ .

ويعمر ابن القارح في الجنان بقصرتي النابتين نابغة ذبيان والنابغة الجعدي فيجلس إليهما ويدور الحديث في شعرهما ، ويتحدث التلاحى بينهما من مثل قول النابغة الذبياني للنابغة الجعدي :

« أتقول هذا وإن بيتاً مما بنيتُ ليعدلُ بمائة من بنائك ؟ . وإن أسهبت في منطقتك ، فإن المسهب كحاطب الليل ، وإنى لفي الجرثومة من « ربيعة الفرس » . وإنك لمن بنى جعدة ، وهل جعدة إلا رائدة ظليم تُعور . أثعيرني مدح الملوك ؟ . ولو قدرت يا جاهل على ذلك لهجرت إليه أهلِكَ وولدتك ، ولكنك خلقت جباناً هذاناً ^(١) . لا تدلج في الظلماء الداجية ، ولا تهجر في الوديقة الصاخدة ^(٢) ، وذكرت لي طلاق الهزانية ، ولعلها بانت عتي مسرة الكمد ، والطلاق ليس بمنكر للسوق ولا للملوك . فيقول « الجعدي » : اسكت يا ضلُّ بن ضلٍّ ، فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ! ولكن الأفضية جاءت كما شاء الله ، لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك . ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت : إنك غلط بك أأنت القائل ؟ .

فدخلتُ إذ نام الرقـ	جب ، فبك دون ثيابها
حتى إذا ما استرسلت	في النوم بعد لعابها
قسمتها قسمين كل	مؤود يرمى بها
ثنيث جيد غريرة	ولست بطن حقاها
كالقطة الصفراء صا	ك غيرها بلاها
وإذا لها تامسورة	مرفوعة لشراها

واستقلت بيني جعدة ، وليوم من أيامهم يرجع بمساعي قومك . وزعمتني جباناً وكذبت لآنا أشجع منك ، ومن أهلك . وأصبر على إدلاج المظلمة ذات الأريز ^(٣) . وأشدُّ إيغالاً في المهاجرة أم الصخذان ^(٤) .

(١) الهدان : الأحمق الخاق

(٢) الوديقة : شدة الحر صاحدة المدحرة . وصحد اليوم اشتدَّ حره

(٣) الأريز البرد الصبيح

(٤) والصخذان حر صحد النهار بضحد شتدَّ حره

وثبت نابغة بنى جعدة على « أوى البصر » فبضره بكوز من ذهب ، فيقول : أصلح الله به وعلى يديه — لا عريدة في الجنان ، إنما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاج . وإنك يا أبا ليلى لمتنزع — وقد روى في الحديث أن رجلاً صاح بالبصرة . يا آل قيس . فجاء النابغة الجعدي بعصبة له ، فأخذه شرجى أوى موسى الأشعرى فجلده ، لأن النبي ﷺ قال : من تعز بعزاء الجاهلية فليس منا . ولولا أن في الكتاب الكريم : ﴿ لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون ﴾ لظنناك أصابك نزف في عقلك . فأما أبو بصير ، فما شرب إلا اللبن والعسل . وإنه لوقور في المجلس ، لا يخف عند حل الحبة . » .

وهكذا يظل الحوار والتلاحي بين الشعارين يجريه المعرى في اقتدار ، ولماحية ، يشير حيناً إلى فكرة ، أو يرمز لها ، ويكسب العبارة أحياناً روح السخرية ، وأحياناً روح الفكاهة ، لكنها تخفى وراءها ماتخفى من المعنى الذى لا يريد التصريح به ، وإنما يفهمه الأملعى الذى يظن بك الظن .

ومن هنا جاءت رسالة الغفران بهذا الإمتاع ، إذ ليست تعبيراً صارماً أو مباشراً عن رأى المؤلف ، ولا جذلاً فارغاً من حلاوة الحديث ، يغلفه حفاء العلم ، وزهامة العقل . بل قول جميل يتنقل بك في رياض الجنان ورياض الأدب ورياض الفكر من روضة إلى روضة تستروح النفس فيها ما تستروحه من نسمات ، يلتقط الفكر ما يلتقط من ثمرات .

ويخرج أبو العلاء بصاحبه ابن القارح من تلك الجولة أو النزهة في جنات النعيم ليطل إطلالة على أهل الجحيم .

جولته في الجحيم :

يقول : ^(١) « ويدو له أن يطَّلِعَ إلى أهل النار فيظنَّ إلى ما هم فيه ، ليعظُمَ شكرُهُ على النعم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَأُنْكَ لِمَنِ الْمَصْدَقِينَ ، إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَأَنْتَا لِمَدِينُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ ، فاطلَعَ فَرَأَاهُ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ تَاللَّهِ إِنَّ كَذِبَ لَثَرَيْنِ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَبِينَ ﴾ » .

(١) رسالة الغفران ص ٢٩٨ .

فيركبُ بعض دواب الجنة ويسيرُ ، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النورُ الشعشعانيُّ ، وهي ذات أدحالٍ ^(١) وعماليلٍ ^(٢) . فيقول لبعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ . فيقول : هذه جنةُ العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وذكروا في الأحقاف ، وفي سورة الجن . وهم عددٌ كثيرٌ . فيقول لأعدلينَّ إلى هؤلاء ، فلن أدخلوهم من أعجوبة ، فيعوج عليهم فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارة ، فيسلمُ عليه ، فيحسنُ الردَّ فيقول : ما جاء بك يا إنسي ؟ . إنك بخيرٍ لعسى ، مالك من القوم سيِّئ . فيقول : سمعت أنكم جنُّ مؤمنون ، فجئتُ ألتبس عندكم أخبارَ الجنان ، وما لعلهُ لديكم من أشعار المردة . فيقول ذلك الشيخ : لقد أصبت العالمَ ببجدة الأمر ، ومن هو منه كالقمر من الحالة ، لا كالحاقين من الإهالة ^(٣) . فسل عما بدالك .

فيقول : ما اسمُك أيها الشيخ ؟ . فيقول : أنا الخيتعورُ أحد بني الشيصبان ، ولنا من ولد إبليس ، ولكننا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم صلى الله عليه .

فيقول : أخبرني عن أشعار الجن . فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعةً صالحة . فيقول ذلك الشيخ : إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه . وهل يعرف البشر من النظم إلا كما تعرف البقرُ من علم الهياة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل ما يعدوها القائلون ، وإن لنا لآلاف الأوزان ما سميع بها الإنس وإنما كانت تخطرُ بهم أطيافُ منا عارمون ، فتفتتُ إليهم مقدار الضوارة ^(٤) من أراك نعمان ^(٥) . ولقد نظمتُ الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم بكورٍ أو كورين . وقد بلغني أنكم معشرَ الإنس تلهجون بقصيدة امرئ القيس :

قَفَانِيكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ

(١) الأدحال : جمع دحل وهو القُب في الأرض الصيق الأعلى الواسع الأسفل . وتكثر مثل هذه الأدحال في جزيرة العرب ، وحاءت في أخبارهم . وهي من مخاوف الياذة .

(٢) غماليل . جمع غملول وهو نبي ذو الشجر

(٣) حافر المختص بونه والإلا . من سحم وريت

(٤) الضوارة بالضم شقطة من السواك

(٥) نعمان وادٍ بالحجاز

وتَحَفَظُونَهَا الْحَزَازُورَةَ فِي الْمَكَاتِبِ ، وَإِنْ شَتَّ أَمَلِيَّتْكَ أَلْفَ كَلِمَةٍ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ عَلَى مِثْلِ مَنْزِلٍ ، وَحَوَامِلٍ وَأَلْفًا عَلَى ذَلِكَ الْبَقَرَى . يَجِيءُ عَلَى مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ ، أَلْفًا عَلَى مَنْزِلٍ وَحَوْمَلًا ، وَأَلْفًا عَلَى مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ ، وَأَلْفًا عَلَى مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ لِشَاعِرٍ مَيَّا هَلَكٌ وَهُوَ كَافِرٌ . وَهُوَ الْآنَ يَشْتَغِلُ فِي أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ .
فَيَقُولُ — وَصَلَ اللَّهُ أَوْقَاتَهُ بِالسَّعَادَةِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، لَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ حِفْظُكَ . فَيَقُولُ :
لَسْنَا مِثْلَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ، يَغْلِبُ عَلَيْنَا النَّسِيَانُ وَالرُّطُوبَةُ ، لِأَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ،
وَخَلَقْنَا مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ،

فَتَحْمَلُهُ الرِّغْبَةُ فِي الْأَدَبِ أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : أَقْتَمِلُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ
الْأَشْعَارِ ؟ . فَيَقُولُ الشَّيْخُ : فَإِذَا شَتَّ أَمَلْتُكَ مَا لَا تَسِيْقُهُ الرِّكَابُ ، وَلَا تَسْعُهُ صَحْفُ
دُنْيَاكَ .

فِيهِمُ الشَّيْخُ — لَا زَالَتْ هِمَّتُهُ عَالِيَةً — بَأَنْ يَكْتُبَ مِنْهُ . ثُمَّ يَقُولُ : لَقَدْ شَقِيتُ فِي
الدَّارِ الْعَاجِلَةِ نَجْمَ الْأَدَبِ ، وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِعَاطِلٍ ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الرُّؤْسَاءِ ،
فَأَحْتَلِبُ مِنْهُمْ دُرُبَكِيَّةً وَأَجْهَدُ أَخْلَافَ مَعْشُورٍ^(١) . وَلَسْتُ بِمَوْفِقٍ إِنْ نَزَلْتُ لِذَاتِ
الْجَنَّةِ ، وَأَقْبَلْتُ أَنْتَسَخُ آدَابَ الْحَرَنِ وَمَعَى مِنَ الْأَدَبِ مَا هُوَ كَافٍ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ شَاعَ
النَّسِيَانُ فِي أَهْلِ أَدَبِ الْجَنَّةِ ، فَصُرْتُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ رَوَايَةً ، وَأَوْسَعَهُمْ حِفْظًا وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ . « (١) » .

وَيُظَلُّ فِي حَوَارٍ مَعَ شَيْخِ الْجَنِّ ، يُورِدُ أَبُو الْعَلَاءِ خِلَالَهُ شَعْرًا مِنْ صَنْعِهِ ، وَيَلْتَزِمُ فِيهِ
مَا يَلْتَزِمُ فِي الْقَافِيَةِ عَلَى صُورَةِ دِيْوَانِ لَزُومٍ مَا لَا يَلْزِمُ ، أَوْ اللَّزُومِيَّاتِ .

وَيَنْتَقِلُ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى أُخْرَى فِي هَذَا الْمَكَانِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، يَلْقَى فِيهِ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ
كَالْحَطِيطَةِ وَالْخَنَسَاءِ . وَفِي لِقَائِهِ مَعَ الْخَنَسَاءِ يَقُولُ^(٢) :

« .. فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ قَرِيبَةٍ مِنَ الْمَطَّلَعِ إِلَى النَّارِ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتِ ؟ .
فَتَقُولُ : أَنَا الْخَنَسَاءُ السُّكْمِيَّةُ ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى صَخْرٍ ، فَاطْلَعْتُ فَرَأَيْتُهُ كَأَنْبِيلٍ

(١) الْكِيَّةُ النَّاقَةُ الْحَيْلَةُ لَهَا ، وَنَحْصُورُ الدَّمْعِ الْمَسْ .

(٢) الْعَمْرَأُ ص ٢٨٩ وَمِنْهُمَا .

(٣) الْمَعْدَرُ ص ٣٠٨

الشامخ ، والنار تضطرم في رأسه . فقال لى : لقد صحَّ مزعمك فى ، يعنى قولى :

وإن صخرأ لتأتئم الهدأة به كأنه علم في رأسه نار

فيطلع فيرى إبليس — لعنه الله — وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ، ومقامع^(١) الحديد تأخذه من أيدي الزبانية . فيقول : الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو أوليائه ، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله . فيقول : من الرجل ؟ . فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل « حلب » كانت صناعتى الأدب ، أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بمس الصناعة ، إنها تهب غفّة^(٢) من العيش لا يتسّع بها العيال ، وإنما لمزلة بالقدم ، وكم أهلكت مثلك ، فهنيئاً لك إذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى ، وإن لى إليك الحاجة ، فإن قضيتها شكرتك يد المتون

فيقول : إني لا أقدر لك على نفع ، فإن الآية سبقت في أهل النار ، أعنى قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرمها على الكافرين ﴾ .

فيقول : إني لا أسألك في شيء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنيه : إن الخمر حرمت عليكم في الدنيا وأحلّت لكم في الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدن فعل أهل القرّيات ؟^(٣) .

فيقول : عليك البهلة^(٤) . أما شغلك ماأنت فيه ؟ . أما سمعت قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ .

فيقول : وإن في الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ؟ . فإن له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلني دون الشعراء . وهو القائل :

إبليس أفضل من أيكم آدم فتيئوا يا معشر الأشرار
النار عنصرة ، وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

(١) المقامع : جمع مقمعة على ورد مرسمة ، وهى حشبة أو حديدة يضرب بها الانسان ليندل أو يُفَسَّع .

(٢) الغفّة : اللغنة من العيش

(٣) يعنى قرى قوم نوط

(٤) البهلة النعنة . وبهلة لله نعمة

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الموقنين .

فلا يسكت من كلامه ، إلا ورحل في أصناف العذاب ، يعمض عبيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من التقم ، فيفتحها الزبابة بكلايب من نار ، وإذا هو بنار من برد ، قد أعطى عينين بعد الكمة ، لينظر إلى ما نزل له من النكال .

فيقول له — أعلى الله درجته — يا أبا معاذ ، لقد أحسنت في مقابلك ، وأسأت في معتقديك ولقد كنت في الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأنزحهم عليك ، ضنا أن التوبة ستلحقك ، مثل قولك :

إرجع إلى سكني تعيش به ذهب الزمان وأنت منفرد
نرجو غداً وغد كحاملة في الحى لا يدرون ما تلبس
وقولك :

واهاً لأسماء ابنة الأشد قامت تراءى إذ رأتى وخدي
كالشمس بين الزبرج المنقد ضئت بخد ، وجلت عن خد
ثم انتت كالنفس المرتد وصاحب كالدمل النمى
أرقب منه مثل حمى السوزد حملته في رقبة من جلد
الحر يلحى ، والعصى للبد وليس للملحف مثل الرد

الآن وقع منك اليأس ، وقلت في هذه القصيدة « السبد » في بعض قوافيها ، فإن كنت أردت جمع سبد ، وهو الطائر ، فإن فعلاً لا يجتمع على ذلك ، وإن كنت سكنت الباء فقد أسأت ، لأن تسكين الفتحة غير معروف . ولا حجة لك في قول الأخطل :

وما كل مفبور إذا سلف صفقة تراجع ما قد فاته برداد
ولا في قول الآخر :

وقالوا : ترابى ، فقلت : صدقتم أبى من تراب خلقه الله آدماء
لأن هذه شواذ . فأما قول جميل :

وصاح بين من بشية والنوى جميع بذات الرضم صرد محجل
فإن من أنشده بضم الصاد خطيء ، لأنه يذهب إلى أنه أراد انشرد . فسكن الراء وإنما صرد ، أى خالص . من قولهم : أحنت حباً صرداً .

ويلتقى في النار بعد ذلك بجماعة آخرين من الشعراء كأمريء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم يقف مع كل واحد منهم وقفة كالتى وقفها مع بشار ، وهو في النار يجمع الجاهلين مع بعض الاسلاميين كبشار والأخطل . وبعد أن يجول جولته في النار يعود أدراجه إلى الجنة .

ويختم حديثه في العود بحديث حَيَاتِ الجنة ، وما دار بينه وبينها من حوار وحديث ذى شجون يجولان فيه في كل واحد من أودية الشعر واللغة على عادة أبى العلاء دائما إذ يأتى بالشعر فيقف عند غريبه من لغة فيفصل ويحرر من معلومة إلى أخرى معتمداً على فيض ثرائر من علمه الجَمِّ ... وينتهى المطاف برؤية والعجاج من أهل الرجز .

ثم يقول : « ... ويذكر — أذكره الله بالصالحات — ما كان يلحق أخا الندام من فتور في الجسد من المدام ، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن يُنزَفَ له لب ولا يتغير عليه خب ، فإذا هو يخال في العظام الناعمة ديب ثمل ، أسرى في المقمرة على رمل ، فيترغم بقول : « إياس بن الأرت » .

أعاذل لو شربت الخمر حتى يظل لكل أملة ديب
إذا لعذرتى وعلمت أنسى لما ألفت من مالى مصيب

ويتكىء على مفرش من السندس ، ويأمر الخور العين أن يحملن ذلك المفرش ، فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة ، وإنما هو زبرجد أو عسجد ، ويكرن الباريء فيه حلقة من الذهب تُطيف به من كل الأشراء^(١) حتى يأخذ كل واحد من الغلمان ، وكل واحدة من الجواري المشبهة بالجمان واحدة من تلك الخلق ، فيحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود ، فكلما مر بشجرة نضخته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ، وبمسك ماجنى من دماء الفور . بل هو بتقدير الله الكريم . وتناديه الثمرات من كل أوب وهو مستلق على الظهر ، هل لك يا أبا الحسن ، هل لك ؟ . فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره . انقضب من الشجرة بمشيئة الله ، وجملته القدرة إلى فيه ، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ، ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لا يزال كذلك أبداً سرمداً ، ناعماً في الوقت المتناول منعماً ، لاخير الغير فيه مزعماً . «^(٢) وينقضى بذلك القسم الأول من الرسالة ، وهو القسم الخيالى ، وهو

(١) الأشراء جمع شرب مفتحي وهو السحبه يقال دخلوا أشراء الحرم ، أى بواحيه

(٢) رسالة العفراء ص ٣٧٩

الجديد فيها بما ابتدعه أبو العلاء من هذا الجوّ المخلّق في العالم الآخر ، وتصوّره على ما أوحى إليه القرآن وأثارته في ذهنه أحاديث الجنة وما قيل فيها من آثار السلف . وبلاحظ تركيزه على أشياء قال فيها المعترضون كثيراً ، وردّ المنافحون عن كتاب الله كالخمر بالجنة ، وشربها ، وأوصافها وسعم المؤمنين تمجالسها ، كتعمهم بغيرها من ملاذ الدنيا من متاع فاخر ورياش من سندس واستبرق وأرباق الذهب والفضة . ومايتخلقون به من أنواع الأطايب والخلوق من كافور ورنجيل ورياحين . ومايقوم على خدمتهم ومتعتهم من الجوارى الحسان والغلمان .. كل هذا يعرضه أبو العلاء في صور متقابلة بين الرأى والرأى الآخر ، ولا يعذّم التعريض والتلميح كما قلنا ، مما أطلق السنة بعض معارضيه من الشيوخ ورجال الدين بالقادح فيه .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما جاء بالرسالة من ذكر لعلّى بن أبى طالب ، وصحبته للنبي عندما استغاث به من أرادوا شفاعته ، فبعث إليهم بعل بن أبى طالب . وكيف أنه ذكره مع النبي ﷺ مسلماً مصلياً . والعصر كما قال قد غلبه التشيع ، بل أن أبا العلاء نفسه وقع في دائرة الفاطمية ، و ظل نعمودهم ، أحاط به رحا لهم من مفكرين وأدباء من أمثال الوزير المعرى وابن القارح ، وغيرهم من رجال الحمدانيين وبقاياهم في حلب وحولها .

وتندّ من أبى العلاء هنا وهناك بعض العبارات والمواقف ، تكشف عن تنوّره أحيانا بما يخالف العقل أو يدلّ على خلاف في العقيدة . وقد ترددت أصداء أفكاره التي بثها في شعر اللزوميات ، وبعض رسائله هنا وهناك .

وبعد فإن هذا القسم الأول ينتهى لبدأ القسم الثانى ، وهو الذى جعله ردّا منفصلاً على رسالة ابن القارح ، يتناول فيه كلّ حزئية مما ذكره . ويبدأ هذا القسم الثانى بقوله . « وقد أطلت في هذا الفصل — يعنى القسم الأول — ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة : (١) » .

ونخرج من حديثنا عن رسالة العمران لأبى انعلاء إلى رسالة أخرى أدبية من صنع ابن الصيرفى على منحنى كبير كتاب السنن والامر وصاحب وريهما الأفضل بن بن الحمالى وابنه . وقد احترما له رسالة « التلّنى على التلّنى » .

(١) راجع رسالته عمر - من ٣٨١ - ٣٨٢

وهذه الرسالة جاد بها قلم ابن الصيرفي بعد مقتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي غيلة بتدبير الأمر^(١). وقد كان الأفضل مخدومه ، وله صنف كتاب الأفضليات والرسالة في رثاء الوزير . ينهج فيها نهج كتاب العصر في شكلها العام من اختيار السجع أداة ، وصورة ييث من خلاله أقواله ، وإيراد ما يعنّ له ، ويرد على خاطره من أقوال الكتاب والشعراء من معاصريه أو سابقهم ، فيعقب عليها ، مستدركاً ومحللاً .

وقد يستغرب القارئ اسم الرسالة ، كما استغربه أحد معاصريه ، فيرد عليه صاحبها مبيناً ، وموضحاً سبب تلك التسمية .

يقول ابن الصيرفي^(٢) : « كنت أنفذت نسخة هذه الرسالة إلى بعض الرؤساء الكبراء ، ممن كان يؤثر الوقوف على مآعمله ، فبلغني أن كاتبه قال لما رأى ترجمة هذه الرسالة قبل الوقوف عليها : هلاً قال : الغلوة في السلوة ١٩ .. وأنكر التدلي ، فكتبت إليه : بلغ عبد الحضره ما انتقد عليه في ترجمة ماخدم به ، وماستبعد من التدلي العائد بدئو الثاني وتقرّبه ، وقد كان يجب أن يُتقى على من عمل عجلًا ، وترجم مرتجلاً ، ولم تكن له مهلة لتنقيح ألفاظه وتهذيبها ، وإبرازها في معارض تستحسنها النقدة ، وتهذى بها . وأن بعض من انتقد عليه قال : هلا كانت الترجمة : الغلوة في السلوة ؟

وعبدها يقول : أما الغلوة فهي المراماة ، والمغللة السهم ، فالغلوة غاية . وهذا ضد مراده ، وذلك أن التدلي إنما هو التوصل ، تدليث على الشيء إذا توصلت إليه . ومنه أدلى فلان بجحته إذا توصل بما أتى به إلى بُغيته . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ ، وهذه الآية من باب قوله سبحانه : ﴿ ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ . وهو من المقلوب : أى تنوء بها العصبة أولو القوة ، و : ثم تدلى فدنا .

لا تَقْلُواهَا ، وَاذْلُواهَا ذَلًّا إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ أَعْمَاءُ غَلَدُوا

وتقْلُواها : تُبعداها ، واذلواها : قُرّباها . والدَلَو من هذا ، لأنها تقرّب الماء بعد بُعده فقول عبدها : التدلي على التسلي إنما معناه : التوصل إلى السلوة بأسبابها من التأسى وطلب الثواب ، وغير ذلك .

وقول من قال : الغلوة في السلوة ، إنما هو الوصول إلى غايتها ، والفرق بين من قصد

(١) قتل الأفضل سنة ٥١٤ هـ

(٢) الأفضليات تحقيق د . زويد قصاب ود . عبد العزيز المانع ص ٣٢٣ . طبع دمشق سنة ١٩٨٧ م .

التوصل ، وبين من بلغ الغاية لا يخفى عن أحد ، فقد بان تضاد الترجمتين ، وتناقض
الفرضين وما ضر من انتقد لو صبر إلى أن يقف على الرسالة ، ثم يقول ما يختار ، ولا
يعجل بأن يضع مني ما صدر عني ، فالله المستعان ، وصبر جميل .

وبدا ابن الصيرفي الرسالة بقوله :

« من دلائل تفرّد الله بتدبير برّيته ، وشواهد جرّي الأمور على إرادته ومشيته ،
وحجج وحدانيته التي من جحدّها أبان جهلاً وعنتاً ، وبراهين مأخوذة به في قوله :
﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ أنه سبحانه يُحمد على ما يسلبه كما يُحمد على ما
يهبه ، ويُشكر على ما يُزعج ويُضرُّ كما يشكر على ما يهيج ويُسرُّ ، فجاء القلوب بما
يحدث فيها انصداعاً ، ودَهَمَ العقول بما يكاد يطيرها شغاعاً ، لم يلفتها ، الجزعُ عن
حمده — جلّ وعزّ وعلا — ولم يمنعها الولة من الرضا بقضائه ، وإن تحملت منه باهظاً
مثقلاً .

فالحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه ، ولا يفرجُ شيء من مصنوعاتِه عن
الشهادة له بأنه إله . وصلى الله على سيدنا محمد ، نبيّه الذي جاء الشرف الباهر ، وآتاه
الفضائل الجمّة والمفاخر ، وأحسن العزاء لأمتِه في قوله : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة لمن كان يرجو الله ، واليوم الآخر ﴾ .

وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب الذي تولّى من رسول الله ﷺ
مأبأه به عن حسن صبره ، واعتزل أمور الدنيا جاناً ، إلى أن واره عليه السلام في
قبره . مع ما تداخل النفوس يومئذ من الحسرات ، وفجعت به من الطوارق
المستكرات ، حتى غدا ذرو الجلد في قبضة الملع مؤثقين أسارى ، وظلّوا كما قال الله —
عزّ من قائل — : ﴿ وترى الناس سُكَّارَى وما هم بسُكَّارَى ﴾ . وعلى آلهما الأئمة
الأبرار ، الذين اختصوا حيث حلّوا من الأرض وكانوا ، وظلّوا ، فما وهنوا لما
أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، إلى أن استثمروا من الصبر استعادة
حقّهم ، وصيّقوا على أعدائهم مسالك طُرُقهم ، وسلّم عليهم أجمعين تسليماً ، وزادهم
تسريعاً وتكرماً وتعطيماً .

وإن من حكمة الله — تعالى — وقدرته ، وخفى علمه في تدبير خلقته أن جعل
أهل الدنيا فيها متفاضلين ، وعند فراقها متساوين متماثلين ، إذا نزل بهم حدث الموت لم

يتميز فيه قوى من ضعيف ، وإذا تجرّعوا كأسه لم يختصّ بمرّ مذاقها مشروّف دون شريف . وذلك يقين لا مجال للشك فيه ، وحق لا يطور الباطل بناحية من نواحيه . وقد أخلدت النفوس إلى صحته وركنت ، وأطمأنت القلوب إلى حقيقته وسكنت ، لأنه أمر حتم قد علّم بالفطرة ، وغامض من غوامض الحكمة ، وسر من أسرار القدرة ، وفي الصبر على ألمه الموجه وترك الجزع الذى هو غير نافع ولا منجع إيضاح للتدليل والخشوع ، وإظهار للتضرّع والخضوع ، وإبانة عن الإخبات لله — جل وعز — فيما شاءه ، ودلالة على رضى الخلق بحكم خالقه فيما سرّه وساءه ، وذلك موصل إلى السّلوة بأقوى الأسباب ، وداع إلى نيلها من إحراز الأجر الجزيل ، والثواب . ومن أبى الرزء إلا الأسى كان بكاءً منتهى جهده ومأحسن قول الحسن البصرى : الحمد لله الذى كلّفنا ما لو كلّفنا غيره لصرنا فيه إلى معصيته ، وآجرنا على ما لا بدّ لنا منه .

يقول : كلّفنا الصبر ، وأكلّفنا الجزع ، لم يُمكننا أن نُقيم عليه ، وآجرنا على الصبر ، ولا بدّ من الرجوع إليه . ثم إنّ التأسى يُسهّل المصاعب ، ويُهون المصائب ، فله ابن ذرّيد في قوله :

وفي خطوب الناس للناس أسى

وإن كانت الخنساء قد غلبت على هذا الباب في المشهور من قولها :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

وقد جعلت العذر في تركها قتل نفسها كثرة الباكين حولها . وأين هذا من قول الآخر :

ولقد شمتت بقتل نفسى بعده أسفاً عليه فخطت ألا تلتقى

فذكر أنّ علّة ما همّ به من قتل نفسه الأسف على من فقده ، على أن ذلك في قوة الخنساء . وإنّ علّة الامتناع ماجاء في الحديث من أن قاتل نفسه في النار وقد وثق بحصول من فقده في الجنة ، وطبيعها إذا لحقه غير قاتل نفسه . وهذا العذر أشرف من عذر الخنساء ، لأنه للمخافة من عدم اللقاء في المال ، وعذر النساء إنما هو للتأسى . فأما قول ابن الرومى مناقضاً لهذا الباب ، وذاكراً أن التأسى غير مخفف للمصائب :

وما راحة المزروع في رزء غيره أحمَلُ عنه بعض ما يتحمَّلُ
وضرب من الظلم الخفى مكانه تُعزِّيك بالمرزوء حين تأمَلُ
لأنك بأسوك الذى هو كلمه بلا سبٍ لو أن رأيك يعدلُ

وقوله :

ومعز عن الشاب مؤس بمشيب اللدات والأصحاب
قلت لما اتحنى يعد أساة من مصاب شبابُه فمصَاب
ليس تأسو كلوم غيرى كلومى ما به ما به ، وما بى ما بى

وقول الآخر :

رأيت الناسى مما يسج على المسرى ساكن أوصابه
وما نال ذو أسوة سلوة ولكن أتى الحزن من بابه
تذكر في مثله أو رآه فأذكره ما به ما به

فذاك من تمويه الفصيح وخدعه ، وتصرف البليغ وتنوعه ، وإلا فالأول هو الصحيح الذى جاء فى الكتاب والسنة . قال الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ﴾ وقال : ﴿ لقد كان لكم فىهم أسوة حسنة ﴾ .

ولولا أن الاجتماع يخفف كل ما ينوء ، والاشتراك يهون صعب ما يسوء ، لما قال الله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم أن ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ . لأنه نفى عنهم الانتفاع بالاشتراك فى العذاب تغليظاً عليهم ، لما قدموه من الظلم .

وقال رسول الله ﷺ : تأسوا فى مصائبكم .

وذلك فى كلام البلغاء ، ونظم الشعراء أكثر من أن يحاط به .

معلوم أن مالكننا الملك السيد الأحل الأفضل ، ونعوته ، والدعاء له ، وهو سيد ملوك الزمان ، ومن فاز بجزيل ثواب الله فى حالتى المسرة والحزن ، أما المسرة فلا أنه يشمل بها جميع عبيده ورعيته ، ويستخلص دعاء كل منهم بكريم فعله وجميل نيته ، وأما فى الحزن ، فإنه يستعمل حسن الضر فى الأمور التى لا حيلة له فى دفعها ، ويدل بذلك على استحقاقه ما خصه الله به من إعلاء المنزلة عنده ، ورفعها ، لا يرى فى العظائم إلا صابراً مسترجعاً ، ولا ينفك وجهه إلا مستقراً ، وإن كان متوجعاً متفجعاً ، إذا نازله

هم لقيه من الرضى والتسليم بالجيش اللّجب المنجر ، وإذا سما إليه خطبَ غرف شرف ما
يناله في الصبر عليه من جزيل الأجر ، على أن محله أعلى وأعظم من أن يكون من الأقدار
إلا مخدوما ، ومكانه من الله — جل وعز — يكاد يجعله من الأمور الحتمية موقى
معصوما .

ولما طُرق — خلّد الله ملكه — بالحادث الجلل ، ودُهم بالزرء الذى لولاه لرمى
عرش المملكة بالثّل من وفاة أخيه من جهة نسبته ، وولده لكفالاته إياه وترتيبه :

ومن كان يستعفى الإله إذا اشتكى من الأجر فى الشكوى ، وإن عظم الأجر

الأجل المظفر ، سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين ، خليل أمير
المؤمنين ، الذى حلّت وفاته من كلّ عَيْنٍ عقْدٌ وكائها ، وأجرى فقده سواد النواظر فى
نجيع بكائها ، وبغت القضاء فيه بأجور حُكمه ، وأنكر فعله . وشوهد من يومه الأنكى
الشنيع ما لم تتمخض المنون بمثله .

ما إن سمعنا بطويّد قلبه طَفَقَتْ أناملُ تهاداه وراحات
تافست أعيُن الباكين حين بَكَوا كأنما أعيُن الباكين ضرّاث

ولقد عَفَتْ منيته سبيل التماسك والجلد ، وأتت غيظته بمالم يجزى فى الخاطر ، ولا
جال فى الخلد ، لأنه — قدس الله روحه — صار إلى رحمة الله ورضوانه ، وانتقل إلى
جواره وسكنى جنانه ، وهو فى ريعان عمره وأوله ، وشرخ شبابه ومستقبله ، مع
حسن تركيه وبنيته ، والحكماء فى خدمته وتدير صحته :

بنفسى مؤلى أسلمته عيذه ومرمحل لم يتظر أن يؤدعا
لقد راضة الموت الكرية مذاقه ولولم يرض لم يرض بالأرض مضجعا
ولا اتخذ الغبراء دار إقامة وقد كان مثواه من النجم أرقعا

فلس ترى إلّا مختنقا بعبرته ، متنفسا عن نار حسرتة ، عادما لسكوته وصبره ، باكيا
على انقطاع أمله ، وانقصاص ظهره .

والناس ماتمهم عليه واحد فى كل دار رئة وزفير

فما يغتبط بدياه من تأمل هذا الحين ، ولا يأمن فيظ النفس إلا من طمع بالصبر ، وأين
أين ؟ .

وكلُّ أُنسَى لا تذهب النفس بعده فما هو إلا من قبيل التُّصنع

ولئن مضى إلى حوار الله الكريم ، وانتقل إلى مأعد له من النعيم المقيم فللكافة من مالِكها — ثبت الله دولته — من دوام ظلة فل عن كلُّ مُوَلٍّ ، وبقاؤه محسن الخلف عن كلِّ من مضى وسلف .

لم يستحقَّ الدهرُ كونكما معاً فيه ففرضَ قاطباً بمودع

والله يجعل كلَّ الأعصار زيادةً في مُدَّيه وعُمره ، ويوجبُ فيه ما يرفعهُ الحريصُ في سره وجهه ، يكرمهُ وطوله ، وقدرته وفضله .

ولما كانت خدمةُ مجلسه العالی — ثبت الله سلطانه فرضاً على عبيد مملكته ، وحقاً لا عُدَر في التخلف عن أدبيته ، وقد صنع شعراءُ المقام الأشرف — ضاعفَ الله سعوده ، ونصرَ أحزابه وجنوده — في هذا الباب ما أربوا فيه على من سبقهم ، وآيسوا غيرهم من أن يلحقهم ؛ بادر المملوكُ بهذه الخدمة ، وأنشأ ما يأتى ذكره في هذه الحادثة الملمبة على ماهو عليه من الحال التي ضلَّت معها العقول ، وحجزت الأحزان فيها بين القائل

والذى صنعه السلوك :

إن كان الدهرُ قد فجىء بفادحِ المنصية ، رمى سهامه المنصية ، وبالغ في الفجعة الفظيعة ، وسعى بين الأرواح والأجسام بالفراقِ والقضية ، وطرق من المصاب بالأجلِ المظفر — كرم الله مثواه — بما منع الطرف وسنه ، وفتح من الصبر مستحسنه ، فما حكمُ مُداه إلا في مفاصله ، ولا مكسُ ثبأه إلا من مقاتله ، ولا سطا إلا على قدره المنير فأخفاه ولا عذا إلا على رونقة المونق ، فطمسه وعفاه :

إن خان فيه الدهرُ عندى إنما في نقصه وعلى محاسنه سسقى

في كلِّ يومِ عشرة من صرفه لا تستقال بأن يقال لها : لها

فيالله ما أعجب فعله ، وأبين جهله ، وأقبح إسماعته إلى نفسه ، وأشنع سواذ يومه بعد بياض أمسه :

يومٌ أظُلُّ بغممة لا يشفى فيها الهلدى ، وبغممة لا تنجلي

وأعجب من ذلك انطلاق الأيدي بعده — شرف الله ضريحه — بتحقيق خبر فقده ،

والإقدام على التعزية عنه ، وقد عدمت العقول من بعده فواطفاه على مضيقه وذهابه ،
ووا أسفاه على ما فعله الدهر ، ودهى به ، وواحسرتاه مأمراً الغيش لما مر ،
وواحزبته ، لقد أساء القدر فيه بعد ماسر . » ^(١)

وتمضي رسالة الرثاء على هذا المنوال ، وتطول ، مكرراً المعاني نفسها أو أكثرها ،
مستشهداً بالشعر من قول غيره أو من صنعه ، وبالنثر من أقوال البلغاء من عصره وقبل
عصره . فيذكر لطيع بن اياس أبياتا ، وللشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، وأبي الفرج
البيضاء ، وابن مَعْلَى الأندلسي ، والوزير أبي القاسم المغربي . قال : ^(٢)

« ومن كلام الوزير أبي القاسم بن المغربي :

« ولقد سمعتُ نبأ من هذا الحادث الرائع ، وذروا من هذا الخير المكروه
الطلائع ، فكنث كالمظلي أفزعه القناص ، وكالهارب لاحت له الأشخاص ، فدافعتُ
بتصديقه ، وتصامحت عن تحقيقه ... إلخ . » .

والوزير المغربي سابق عليه وتوفي قبل مقتل الوزير المرتضى بزمان ، إنما استشهد بكلام
له في مثل المناسبة ، وكذلك فعل في اقتباسه لقول حسن بن عبد الصمد المعروف بابن
أبي الشخباء .

والعجيب في أمر الرسالة أن أبن الصيرفي يخرج عن سياق معانيه إلى تحليل وانتقاد
أقوال من استشهد بهم من الشعراء والكتاب ، فيقول ان معنى من معاني أبي القاسم
المغربي مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي ^(٣) . وتتابع به المعاني ويستطرد من معنى إلى
معنى حتى يشغل تعقب المعاني خيراً من الرسالة غير قليل . ويبدو أن هذا النمط من
الكتابة لم يكن مستكرها ولا متروكا ، بل ربما لقي من المتأديين والأدباء ترحيباً وتقبلاً ،
لأن الأمر فيه لم يتوقف عند ابن الصيرفي وحده ، بل رأينا شبيهاً له عند من عرضنا لهم
من الكتاب في نماذج رسائلهم التي أوردناها من قبل ، وأقربها إلينا رسالة المعري
« الغفران » . وكما رأيناه فيه مستطرداً ، إلى شرح معنى ، أو تعقب لفظة — ويطول به
الأمر قاطعاً بذلك سياق الكلام ، ثم ما يلبث أن يعود إلى ما خرج عليه ، ويستأنف

(١) الأفضليات ٢٩٧ .

(٢) الأفضليات ص ٣٠٩ .

(٣) راجع ص ٣١٠ من المصدر نفسه .

ما انتقطع عنه .

ويبدو أن الصيرفي كان مغرمًا إلى جانب السجع بالجناس ، لأنه حرص عليه فيما أورده من قول منشور ذاكرًا أنه مما صنعه في هذا المجال .

إلا أن الرسالة في جملتها سهلة اللفظ سلسلة السياق ، لا يتوعر صاحبها ولا يتحذلق ولا يُدَلُّ باقتداره اللغوي ، وإن أبدى معرفته تراث الشعر القديم والمعاصر له ، ووقفه على كتابات البلغاء من الكتاب والعلماء .

الرسالة المصرية لابن أبي الصلت :

هذه الرسالة تختلف موضوعاً ، وشكلاً عن رسالة ابن الصيرفي ومن سبقه وإن كانت لواحد ممن عاشوا في كنف الأفضل بن بدر الجمالي بمصر في الوقت نفسه الذي كان فيه ابن الصيرفي من رجاله ، فقد تعاصرا لاشك ، وتقابلا وذكره في الأفضليات .

وموضوع الرسالة يدور حول مصر والمصريين ، وما شاهده في أثناء وجوده بها وقضاء سنوات تحت سماءها ، وإن كان انقطاعه عن مصر وأهلها ليس انقطاعاً كَرَبِيّاً ، وربما كان للمحنة التي امتحن فيها عندما حسه الأفضل في سجن المعونة زمناً أثّر لها في شعور المرارة والسخط اللذين يظهران في الرسالة .

وأصل أُمِيّة من دانية ، في الأندلس قدم مصر سنة ٤٨٩ هـ في عصر المستنصر بالله أي تميم معد بن الظاهر ، في آخر أيام دولته ، ووريه آنذاك الأفضل بعد وفاة أبيه بدر الدين الجمالي وكان أُمِيّة يأمل من وراء رحلته هذه بسطة في العيش .. ويبدو أنه ظل دهرًا خاملاً يتحين الفرص إلى أن أتيج له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل وفي أيام الخليفة الأمر ، وذلك الرجل هو تاج المعالي « شهاب » ونحو حديث وحشة بين الأفضل وتاج المعالي أخذ بغيريرتها فيما يبدو أُمِيّة مما دفع بالأفضل إلى القاء أُمِيّة في سجن المعونة ثلاث سنين (١) .

وكتب هذه الرسالة مستجيباً لرغبة ولى نعمته بالقبروات والمهدية بافريقية أي الظاهر

(١) راجع مقدمة الرسالة تحقيق عبد السلام هارون ص ٧

ويقال إن حسه كان سنة ٥١٠ في حمله الأمر بالاسكندرية

يحيى ابن تميم بن المعز (ت ٥٠٩ هـ) .

يقول فيها : « كُنْتُ إِثْبَانَ عَصْرِ الشَّبَابِ مُوْنِقٌ ، وَغَصْنُ الصَّبَامِورِقِ

إِذَا لَمَسَ مَسْوَدَةً وَلَمَاءِ وَجْهِهِ زَوْلِقٌ

ممن ساعده الدهر بغفلة من غفلاته ، وتحافى له عن غفوة من غفواته ، فعاش آمن السُّرْب ، سائغ الشُّرْب ، لا يتفرغ من أدب يرود رياضة ، ويرد حياضه إلا إلى طرب يعمر ميدانه ، ويسحب ذبوله وأردائه . ثم تلون قلب لي ظهر مجنّه ، وسقاني دُرْدِي دته ، فتدارك مأغفله ، واسترد ما بذله ، واضطرت إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن . فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مسّ جلدى ثرائها ، وشدت على التائم بها . وجاءت أمور لا تطاق كيار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبق إلا الفرار ، قلت : ليس لي إلا أن أرمي بنفسى كل مرمى ، وأطرحها كل مطرح .

لأبلغ غُدرًا أو أنال رغبةً ومبلغ نفس غُدرها مثل مُنْجَح

وسكنت إلى البيت المشهور

تلقى بكل بلاد إن حلت بها أهلاً بأهل ، وأوطاناً بأوطان

وإن كان يقول العامة : ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك . فجعلت أستقرى البلاد لأتيمم أوفقها للمقام ، وأعوّثها على مقارعة الأيام ، فكانت مصر مما وقع عليه اختياري ، وصأقت حسن ظني قبل اختياري ، وسرت قاصداً إليها ، أعتسف المجاهل والتنائف ، وأخوض المهالك والمتالف ، فطوراً أمتطى كل حالكة الإهاب ^(١) ، مُسَوِّدَةُ الجلاب ، ثابتة كصبغة الشَّبَاب ، قد فسح ميدانها ، ووُضِعَ براحة الريح عنائها ، فجرت جرى الطرف الجموح ، وفاتت مدى الطرف الطموح ؛ وطوراً كل نقب الأياطل كالهياطل ^(٢) ، سبط المشافر ، جعد الأشعار ، احتذى العقيق ، أو الصنو الشقيق ، إن علا قلت ظليم خاضب ، وإن هوى قلت شهاب ثاقب . يصل الذميل بالوحد ^(٣) ، ويلتهم التهام والنجاد . فكم جزع وإذ جزعته ، وجلاب ليل أدرعته وكم برُ خرقَتُ شنارقه وفجاجة ، ونجر شفتت غراربه وأمواجه ، وليس لي غير مصر

(١) يعني النسيمة .

(٢) الأياطل جمع هيطل وهو اندب

(٣) الوحد والوحد هر نوع من النسر للابل .

مقصّد ، ولا وراءها مذهب ، ولا ذوبها للعين متطلّب

وكم في الأرض من بلد ولكن عليك لشقوتي وقع اختيارى

فلما تغمّدت ركابى من النيل ، واستندت بظلّ المقطم ، ألقيت عصا التسيار ،
واستقرت في النوى ، وخفت ظهورهم من الرّحال ، وأرحتهن من الجبل والترحال ،
وقلت : ضالتي المنشودة ، وبعيتي المقصودة . ها هنا ألبت وأقيم ، فلا أبرح ، ولا
أريم ، « بلدة طيبة ورب غفور » ، وحيث التفت فروضة وغدير ، وحيث رقت وسدير ،
وظل ظليل ، ونسيم عليل .

وكم تمنيّ أن ألقى بها أحداً يسئل من همّ أو يعدى من الثوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا كاذب مواعيدهم كالآل في الكذب
وكان لي سبب قد كنت أحسبني أحظى به ، فإذا دائس من السبب
لما مقلّم أظفاري يسوى قلبى لا كتاب أعدائي سوى كتيبى

ولم تطل مدة اللبّ حتى تبيّن بما شاهدته أنى فيها منجوس البضاعة ، موكوس
الصناعة . مخصوص بالإهانة والإضاعة . وأن عيشها الرّغد ، متصور على الوغد ،
وعقابها المرّ موقوف على الحرّ ، فلو تقدمت فهدمت ذلك لحف منها مركبي ، وصرفت
إلى سواها وجه مطلبى ، ولكان لي في الأرض مرمى شاسع ، ومنتاب واسع ، بل
تنبطت حتى تورطت ، حتى عوملت بما يعامل به ذوو الجرائر والدنوب . وجرعت من
الذلة بأوفى دنوب ، هذا مع ما حيرته من المذبح التي اشتهرت شهرة الصباح ، وهبت
هبوب الرياح ، ولهج بها الحادى والملاح .

فسار بها من لا يسير مشمراً وغنى بها من لا يغنى مسرّدا

إلا أن الله جلّت آلاؤه ، وقدست أسماؤه ، تدارك برحمته فأزال تلك الخنة بالمنحة ،
ونسخ تلك النعمة بالنعمة ، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجل أنى طاهر بن ذيب
بن تميم بن المعز بن باديس ، الذى لم تنزل حضرته مصانعة العتاة ، ومراد الثفاة ، ومجتمع
الفضائل ، ومجتمع الأفاضل ، ومشرع الجرد ومسند الوفود . فلما استشرت بخناحه ،
واستظهرت باستباحه ، أعذب لي بسماحة الدّبر جتاه ، واعتذر لي مما جناه ، فكف
دوى كفه ، وصرف عني صرفه .

كريم رفضت الناس لما بلغته كآتهم ما خف من زاد قسام

فيكنث فيما مضيت عليه ، وآلت حالى إليه من إشراقها بعد الأفول ، وإيراقها بعد
الذبول ، كنصل أهل أمره من جهل قدره ، ولما وقع إلى الخبير به صان صفحته
وحده ، وحلى حمائله وغمده ، ثم ادخره فيما يدخر وأعدّه ، فإن انتضاه يوماً ارتضاه ،
وإن جرّده أحمله ، وإن هزّه ، ستره في الضريبة حزه ولكن أبى الله أن يكون الفضل إلا
لمن نشأ في مغارسه ، ونجم في منابته ، ورى في حجره ، وغذى بدرّه .

فلم أستغ إلا نداه فلم يكن ليعدل عندي ذا الجنا ب جناب
لما كل إنعام يخف احتمالاً وإن هطلت منه على رباب
ولكن أجل الصنع ما جل ربه ولم يأت باب دونه وحجاب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيت في هواك صواب
وإعلم قوماً خالفونى فشرّقوا وغرّبت ألى قد ظفرك وخابوا

والأولى أن أضرب عما سلف ، وأترك ما فرط ، وأخذ فيما أجريت إليه وقصدته ،
ونحوته واعتمدته مما آثرت به الحضرة السامية — أدام الله سُمُوها — من وصف ما
عانيتها من أرض مصر ، وعائنته ، والاقتصار على الذى رأيت دون مارويته ، فليس من
يقول علمت هذا عن طريق العلم والسماع ، كمن يقول تحققت بالمشاهدة والاطلاع
فإن ذا اللب الأمين لا ينخدع بمحالي ، ولا يرضى بانتحال .

★ ★ ★ ★

وأنا ابتدئ بذكر هذه البلاد وموقعها في المعمورة ، ويجرى النيل منها ، وغنائها فيها ،
وأشفع ذلك بنبيذ من ذكر أحوال أهلها في أخلاقهم وسيرهم ، وعاداتهم ، وما يتصل
بذلك وينجر معه ، ويجيء بسببه ، ويدخل في تضاعيفه . وها أنذا آخذ في ذلك ، وبالله
أستعين ، وعليه أتوكل .

★ ★ ★ ★

أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمي الإقليم الثاني والإقليم الثالث ،
ومعظمها في الثالث .

وحكى المقنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التي في جنوب
البحر الرومى إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين .

ومسافة ذلك قريب من أربعين يوماً .

قالوا : وحدها في العرض من مدينة أسوان ، وماسامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذها من مساقط النيل في البحر الرومي ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى متنها جبلان ، أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه . والنيل منسرب فيما بينهما . وهما أجردان غير شائخين ، يتقاربان جداً في وضعيهما من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهي إلى الفسطاط ، فثم تتسع المسافة بينهما وتفرج قليلاً ، ويأخذ المقطم منهما مشرقاً ، والآخر مغرباً على وراب في أخذيهما وتفرج في مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتينس ودمياط ورشيد والاسكندرية . وهناك تنقطع في عرضها الذي هو مسافة مابين أوغليها في الجنوب أوغليها في الغرب والشمال ..

... وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملوك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها ، لكن أجل مدائنها وأفخرها ، أما في الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتينس ودمياط ، وأما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

★ ★ ★ ★

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يتبدى بالتزيد في شهر أبيب . الذي هو بالرومية يولية . والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان للماء ديب » . وعند ابتدائه في التزيد تنغير جميع كیفياته وتفسد . والسبب الموجب لذلك مروره بنقائع مياه آخرة يخاطها فبجلها ، وبسخرجها معه ويستصحبها ، إلى غير ذلك مما يحتمل . فتتمير مثل الجمال التي وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله :

أما ترى الرعد بكى فاشتكى	والبرق قد أومض فاستضاء
فاشرب على غيم كصبغ الدجسى	أضحك وجه الأرض لنا بكسى
وقد حكى العود أنين الهوى	لكنه جيود فيما حكسى
وانظر لماء النيل في مده	كأنما صندل أو مسكا

أو كما قال غيره من أهل العصر ، من قصيدة يصف فيها أرض مصر :

ولله مجرى النيل فيها إذا الصبا أرتنا به في مرها عسكراً مُججراً
فشطَّ عِزُّ السمهرية ذُهباً وموجَّ عِزُّ البيض هتدياً تبرأ
إذا مدَّ حاكى الورد غصاً وإن صفا حكى ماءه لوناً ولم يقدّه لشراً

* * * * *

وقال تميم بن المعز ، وأحسن التشبيه :

يومٌ لنا بالنيل مختصرُ وبكل يوم مسرةٌ قصُرُ
والسفنُ تصعد كالخيول بنا فيه وجيش الماء يحدُرُ
فكأنما أمواجه عُكُنْ وكأنما داراه سُرُرُ

.....

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير في تدرج زيادة الماء إصبعاً إصبعاً ، ومنفعة ذلك التدرج :

أرى أبداً كثيراً من قليل ويدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل قليل مالى بمصر مسبب خليج مالى
زيادة إصبع في كل يوم زيادة أذرع في حين حال

فإذا كان في الخامس عشر ذراعاً ، وزاد من السادس عشر إصبعاً واحدة كُسِرَ الخليج .

ولكسره يومٌ معدودٌ ، ومقامٌ مشهودٌ ، ومجتمعٌ غاصٌ ، يحضره العام والخاص . وإذا كُسِرَ فُتِحَتِ الترع — وهى فَوَحات الخلدجان — ففاض الماء وساح ، وعمَّ الغيطان والبطاح ، وانضمَّ الناسُ إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهى على آكام ورُبى لا يتهى إليها الماء ، ولا يتسلطُ السيلُ عليها ، فتعودُ عند ذلك ، أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبلها المكتنفين لها . وتثبتُ على هذه الحال ريثما يبلغ الحُدُّ المحدود ، في مشيئة الله المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ، ثم يأخذ عائداً في منصبه إلى مجرى النيل ومسر به ، فينضُبُ أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها مُتَطامِناً ، فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويضادِرُ كلُّ تلعة كالبرد المسهم .

وفي هذا الوقت من السنة تكثر أرض مصر أحسنَ شيءٍ منظرًا ، ولاسيما منتزهاتها المشهورة ، ودياراتها المعروفة ، كالجزيرة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من

المواطني التي يطرقها أهل الخلاعة ، ويتتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن
بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من رُجاجات الأقداح شمس
في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ،
ونُشبت نارُ الشفق بفحمة الظلماء . فقال في ذلك بعضنا :

والألق بين الضياء والغبش	لله يومى ببركة الحبش
كصارم في يمين مرتعش	والنيل تحت الرياح مضطرب
فنحن من نسجها على قرش	قد نسجتها يد الغمام لنا
دُبج بالثور عطفها ووشى	ونحن في روضة مفوكة
من سورة الهمة غير متعش	فعاطى الراح ، إن تاركها
فهن أروى لشدة الغطش	وسقنى بالكبار مترعة
دعاه داعى الصبا فلم يطش	فأثقل الناس كلهم روجل

وقال أيضا :

وباكر الراح بالثايات والتخب	غلل فؤادك بالذات والطرب
وشيا من الثور حاكه يد السحب	أما ترى البركة الغناء لابس
قد أبرز القطر منها كل محتجب	وأصبحت من جديد التبت في خلل
وأقحوان شهى الظلم والشنب	من سوسن شرق بالطل محجرة
من نرجس ظل يدي لحظ مرتقب	وانظر إلى الورد يحكى خد محتشم
والراح من ذرر تطفو على ذهب	والياسمين وقد أربى على درر
بجاح من لم الإبريق ملتهب	كم مرة قد شفينا فيه غلثنا
موف على غصن يمتز في كسب	شمر من الراح حيانا بها قمر
كصعدة الرُح في مسودة العذب	أرعى ذوائبه وانهر منطفأ
على التصابي دواعى اللهو والطرب	فأطرب وذونكها فاشرب فقد نضيث

ومما يتعلق بوصف النيل من أبيات له كتبها إلى الأفاضل ليلة المنهجان :

لا زلت تحيي السرور والطربا	أبدغت للناس منظرا عجبا
فمن رأى الماء خالط الهمسا	ألف بين الضئنين مقتصدرا

كأئما النيل والشموغ بسه أفق سماء تألق شهباً
قد كان من فضة فصار سماً وتحسب النار فوقه ذهباً

★ ★ ★ ★

وأما سكان مصر فأخلاقاً من الناس مختلفة الأصناف ، من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشاني وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم . وقالوا إن السبب في اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم اختلاط المالكين لها ، والمتغلين عليها من العمالقة واليونانيين والروم والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم ، فاقتصروا في التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعة من المؤرخين أنهم كانوا في الزمن السالف عبّاد أصنام ، ومُدبري هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتتصّروا ، وبَقُوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضهم ، وبقي بعضٌ على دين النصرانية . ومذهبهم مذهب اليعاقبة .

وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهماك في اللذات ، والاشتغال بالترّهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان في ذلك واقتصه . وأورده من الأمور الطبيعية وموجبه . وكفى به حكماً منصفاً ، وشاهداً عدلاً ؟ .

وحكى الوصفى في كتابه الذى ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هذا العالم الذى هو عالم الكون والفساد أقام بُرهةً من الدهر خالياً من نوع الإنسان عامراً بأنواع أخر غير الإنسان ، وأن تلك الأنواع مختلفة على خِلقِ فَاذَةٍ^(١) ، وهيئات شاذة . ثم حدث نوع الإنسان ، فنازع تلك الأنواع ، فغلبها واستولى عليها ، وأفنى أكثرها قتلاً ، وشرد ما بقى منها إلى القفار . وأن تلك المشرّدة هي الفيلان والسعالى وغير ذلك . مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة ، وتوهماتهم النافرة . إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً : من الهندسة والنجوم . ويدل على ذلك ماخلفوه من الأشغال

(١). فَاذَة : متبردة

البديعة المعجزة كالأهرام والبراني ، فإنها من الآثار التي حيرت الأذهان الثاقبة ، واستعجزت الأفكار الراجحة . وتركت لها شغلاً بالتعجب منها ، والتفكير فيها . وفي مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري في قصيدته التي يرى بها :

تضل العقول الهيرزيات زشدها ولا يسلم الرأي السليم من الأفق
وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وأى شيء أعجب وأغرب — بعد مقادورات الله ومصنوعاته — من القدرة على بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً ، يخطط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، ضوّل كل ضلع منها أربعمئة ذراع وستون ذراعاً . وهو مع هذا ينظم ، من اتقان الصنعة وإحكامها في غاية من حسن التقدير بحيث لم تنأثر إلى هلم جراً بعصف الرياح وهطل السحاب . وزعزعة الزلازل . وهذه صفة كل واحد الهرمين المشاهدين للفسطاط من الجانب الغربي على ما شاهدناه منهما .

وقال بعضهم وقد ذكر عجائب مصر : وما على وجه الأرض بيّة إلا وأنا أرتق لها من الليل والنهار ، إلا الهرمين ، فإنى أرتى الليل والنهار منهما .

وهذان الهرمان لهما إشراف على أرض مصر ، وإطلال على بطائحتها ، وإصعاد على ذراها . وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبي بقوله :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ، ما يومه ، ما المصرع
كما نظن دياره مملوءة ذهباً ، فمات ، وكل دار بلفع
تخلف الآثار عن أربابها جيناً ، ويدركها الخراب تتبع

واتفق أن خرجنا يوماً إليهما ، فلما أطفنا بهما ، واستدرنا حولهما كثر تعجبنا منهما ، فتعاطينا القول فيهما ، فقال بعضنا :

بعيشك هل أبصرت أروع منظرا على طول ما أبصرت من هرمي مصر
أنافا عناناً للسماء وأشرها على الجف إشراف السمالك أو النسر
وقد واليا نشراً من الأرض عالياً كأنهما تهادن قاسا على صلدر

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام نثروا أن يميزوا بها على سائر الملوك بعد

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقهما ، فنقب أحد الهرمين المخاذيسن
للفسقاط بعد جهد شديد ، وعناء طويل ، فوجدوا داخله مهاوي ومراقي تهوّل
أمرها ، ويعسر السلوك فيها ، ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً طول كل من أضلاعه نحو
من ثمانية أذرع ، وفي وسطه حوض رخام مطبق . فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير
رمة بالية ، قد أتت عليها العصور الخالية . فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب
ماسيواه . ويقال إن النفقة على نقبه كانت عظيمة ، والمثونة شديدة .

إذا ما وصفت امرأة لا مریء
فإنك إن تملُ تملُ الطُّـو
فیسفر من حیثُ عظمته

فلا تملُ فی وصفه واقصد
نُ فيه إلى الفرض الأبعد
لفضل المغيب على المشهد

وقال بعضُ أهلِ العناية بأخبار الأئمِّ وتواريخهم ! كان بمصر بعد الطوفان علماء

— y a : —

بضروب الحكمة من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية ، ومتحققون بعلم المرايا المحرقة ، وبالطلسمات والنيرنجيات ، وغير ذلك .

والملك بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ، وهى فى غربى النيل على مسافة اثنى عشر ميلاً من القسطنطينية . ولما بنى الاسكندر مدينة الإسكندرية منذ نحو ألف سنة وأربعمائة سنة ، وأربعين سنة ، رغب الناس فى عمارتها ، وكانت دار العلم ، ومقر الحكمة ، إلى أن تغلب عليها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، واختط عمرو ابن العاص مدينته المعروفة بالقسطنطينية ، فانسرب أهل مصر ، وغيرهم من العرب والعجم إلى سكنائها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا . » .

★ ★ ★ ★

ويذكر من كانوا مشهورين بالحكمة فى الزمن القديم أيام اردنار مدينة الإسكندرية بالحكمة والعلم . ويتبى إلى قوله :

« فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل علم ، وأمحي رسمه ، وجُهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاغ وشتاء ، وجهلة دهماء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رُعانة ، ولهم خيرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطّف فيه ، وهداية إليه ، لما فى أخلاقهم من الملتى والسياسة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً ، والمثل بهم مضروباً .

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي	ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحجة	أكلول لحيات البلاد شرب
ولا تبوا وثب السفاة فتركبوا	على حد حامى الظهر غير رشوب
فإن يك باقى إلك فرعون فيكم	فإن عصا موسى بكف خصصيب

وذكر أمة بعض من لاقاهم من علماء مصر وخاصة من سمل بانصب ، فعابهم وتنقص منهم ومن علمهم ، وعرض للمنجمين كذلك فسأواهم ناداً منبأ قائلأ :

« وأما المجموع الآن بمصر فهم وأطنة هم كما قد أشرأك من أئمة . »

حذيت النعل بالنعل ، لا يتعلق أمثلهم من علم النجوم بأكثر من زائجة يرسمها ، ومراكز يقيّمها فأما الإمعان والبحر في معرفة الأسباب والعلل ، والمبادئ الأول ، فليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المرتبة ، ويخلق في هذا الجو ، ويستضيء بهذا الضوء إلا أبو الحسن علي بن النضر المعروف بالأديب . « (١) .

ويعرض أمية بعد ذلك لبعض شعراء مصر ممن لقيهم في أثناء إقامته بها ويعجبه ابن مكنسة ، فيختار له مجموعة من شعره في مناسبات وأغراض مختلفة .

والغريب في موضوع اختياراته من شعراء المصريين أنه اهتم بمن كانوا مثله من المنحسوب عليهم من الأفضل بن بدر الدين الجمالي وكما يقول الشاعر :

إن المصائب يجمعن المصائبنا

والرسالة في مجملها تجمع موضوعات كثيرة كلها تدور حول مصر ، وانطباعه عنها ليس الانطباع السّار، ولا السعيد، ولكنه انطباع المرارة والألم كما قلنا. لذلك فإن الرسالة في معظمها تحمل طابع الحملة على البلد وأهله ، وإن لم يستطع أن ينكر بعض صور الجمال فيه كالنيل ومناظر النزه في الروضات والحقول والغيطان ، وبخاصة مأحاط منها بالفسطاط حيث كانت إقامته .

فقد أعجب ببركة الحبش ونظم فيها شعراً ، كما نظم في النيل وما كان يجري عليه من السفن ، وما يقيمه المصريون من احتفالات كيوم المهرجان الذي يوقدون فيه الشموع ويركبون المراكب تمخر بهم في مجراه أو في الخليج وتتلاها أنوار الشموع على صفحة الماء؛ فيكون لها في نفسه الأثر الجميل الذي يبعثه على وصفه شعرا .

أما موقفه من أهل مصر وكونهم أخلاطاً ، وما وصفهم به من الأوصاف غير الكريمة كميلهم للشهوات ، والمكر واللؤم وما إلى ذلك ، فإن الذين نعتهم بتلك النعوت هم الذين خالطهم من أهل مصر ، وهم ليسوا أهلها على الحقيقة بل هم أخلاط مختلطة من البربر والسودان والأرمن والعجم ومن إليهم ممن استوطنوا العاصمة وجذبهم أنوارها أو الطمع في نيل الخطوة من السلطان ورجاله .

.. وأمثال هؤلاء لا نعدم فيهم تلك الأخلاق ، وفي مقدمتها النفاق الذي أشار إليه .

(١) الرسالة المصرية ص ٣١١

ومن ممن يتقرب إلى السلطان يخلو من النفاق . ومن من طالبي الجدوى والرفد ليس في خلقه النفاق ؟ ، وإن تفاوت عندهم فضل عن البعض وراى عند غيرهم . وهو وإن عاب المعاصرين إلا أنه أكبر القدماء بناء الأهرام والبرابى .

ومن خلا من رجال العصر من حب الشهوات والتداعى إلى اللذات وهو نفسه قد مارسها وعانى من مارسها ، وشهد فى غير مصر لاشك وفى القىروان من تهالك عليها . والرسالة فى شكلها وصورتها الفنية لا تخرج عن الاتجاه العام الذى رأيناه عند غيره ممن عرضنا لهم من أصحاب الرسائل . وبخاصة أولئك الكتاب الذين مارسوا صنعة الشعر إلى جانب الكتابة فمزجوا فى كتابتهم بين المنظوم والمنثور . ويعلب استخدام التراث الأدبى فى صيغ التعبير ، بل إن استخدام تلك الصيغ قد يبدو غير موفق أحيانا كأن يعزو ظهور النبات والزهر فى رياض مصر إلى القطر ، وعطاء السحاب ، وهو فى الحقيقة من عطاء النيل . ولكنها الصيغة المتوارثة غلبت فيها قريحته على عقله .

السيرة

والفن الثالث من فنون النثر في هذا العصر كتابة السير سواء أكانت سير الملوك والأمراء ، أم سير العلماء . كذلك عرفنا فيه من كتب السيرة الذاتية لحياته أو بعض جوانب منها .

ومن أشهر مؤرخي السيرة أحمد بن عبد الله الفرغاني ، وله سيرة كافور الإخشيدي وسيرة العزيز بالله الفاطمي . (توفي سنة ٣٩٨ هـ) .

وابن زولاق الحسن بن إبراهيم الليثي المصري (٣٠٦ — ٣٨٧ هـ) ألف مافات من سيرة أحمد بن طولون ، وابنه أبي الجيش حمارويه ، تكملة على مآلفه ابن الداية . وألف سيرة سيويه أو « أخبار سيويه المصري » ، وسيرة الإخشيد محمد بن طغج ، وسيرة المادرائين^(١) . وسيرة كافور الإخشيدى ، وسيرة جوهر الصقلي ، وسيرة المعز لدين الله الفاطمي ، وسيرة العزيز بالله .

وأخذ كثير من كتاب السير والمؤرخين المصريين وغيرهم من اهتموا بأخبار مصر وحكامها من كتب ابن زولاق واعتمدوا عليه وعلى رأسهم ابن خلكان ، والنويرى ، وابن حجر العسقلاني والسيوطي ، وابن دقماق ، وأبو المحاسن ابن تغرى بردى والقلقشندي .

والقضاغي : أبو عبد الله محمد بن سلامة (— توفي سنة ٤٥٧ هـ) .

له في أخبار الامام الشافعي ومناقبه والقاضي النعمان له سيرة المعز لدين الله .

سيرة الأستاذ جوذر الصقلي .

ومن أهم ماوصلنا من كتب السيرة في هذه المرحلة « سيرة الأستاذ حوذر » الرجل

(١) طبعته سنة ١٩٠٠

الخطير في دولة الفاطميين ، وبخاصة في عهد الخلفاء الثلاثة : القائم والمنصور والمعز ومصنف هذه السيرة رجل غير معروف ، عمل في خدمة حودر اسمه منصور الحوذري واصبح منذ سنة ٣٥٠ موضع سره ، وظل ملازماً له حتى توفي جودر ببرقة سنة ٣٦٢ هـ وهو في طريقه إلى مصر صحبة إمامه المعز لدين الله .

ويبدو أن مؤلف هذه السيرة ، قد وضعها بعد وفاة جودر بزم غير قليل في عصر الخليفة العزيز بالله (تولى من ٣٦٥ — ٣٦٨ هـ) .

وتتناول هذه السيرة حياة جودر منذ جاء من بلده صقلية غلاماً ، ودخل في خدمة المهدي الذي أهده إلى ولده وولى عهده القائم بأمر الله ، وقد أعجب القائم به فقربه ، واشتدت الصلة بين السيد وتابعه جودر حتى إن القائم كان يثق فيه ثقة كاملة ، فيكل إليه بعض الأمور التي لا يأتمن عليها إلا خاصة خاصته . حتى إنه لما خرج للغزو ببلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ وكان لا يزال ولياً للعهد استخلف جودر على ما له وأهل بيته . وأصبح جودر موضع سر مولاه القائم ، ولما تولى الخلافة ، أوكل إليه بيت المال ، وكان المتكلم باسمه للناس .

وكان جودر معروفاً بحبه للخير والعطف على الرعية ، فارتفعت منزلته عندهم وقوى نفوذه في الدولة ، وصار مهاباً من الجميع .

وعند وفاة القائم ، أخفى المنصور ولذة خبر وفاته ، ولم يعلم به سوى جودر ، وخرج للحرب الخوارج ، فتم له النصر عليهم ، وعاد ليعلن وفاة أبيه القائم .

وكافأ المنصور جودر على خدماته لوأله وله وللدولة ، فاعتقه ، ولقبه بمولى أمير المؤمنين ، وأمر بأن لا يقدم اسم على اسمه في الرسائل سوى الخليفة وولى عهده . كما أمر أن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده .

وفي خلافة المعز ظلت مكانة جودر ، وزاد المعز به تعلقاً ، فاصبح سر مولاه والمتحدث باسمه . ولم يبلغ أحد في تاريخ خلفاء المسلمين وحكامهم على ما نعلم مبلغ جودر من المعز لدين الله الفاطمي حتى إنه لما عزم المعز على ترك عاصمة ملكة بالقيروان عازماً على الذهاب . إلى مصر ظن الناس في أفريقية أنه سيستخلف عليهم جودر .

سيرة المؤيد داعي الدعاة (١).

وهي سيرة ذاتية للداعية المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وتحدث في هذا الكتاب عن تاريخ حياته من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع فيه بعض رسائله ومناظراته العلمية والفلسفية .

ومما جاء في السيرة من ملاقاته للخليفة المستنصر . قال :

« ... فدخلتُ إلى مجلس الخلافة في آخر يوم من شعبان سنة تسع وثلاثين وأربعمائه وكنت في مسافة ما بين السقيفة الشريفة والمكان الذي المَح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية كما قال المتنبى عن رسول الروم عند دخوله إلى ابن حمدان — وإن كان بين الجهتين فرق ما بين التراب إلى السحاب :

وأقبل يمشي في البساط فما ذرى إلى البحر يمشي أم إلى البدر يرتقى
فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني الروعةُ وغلبتني العبْرَة ، وتمثل في نفسي أنني بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما مائل ، وبوجهي إلى وجهيهما مقابل . واجتهدتُ عن وقوعي إلى الأرض ساجداً لوليّ السجود ومستحقه أن يسعفه لساني بشفاعة حسنة ينطقه . فوجدته بججمة المهابة معقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . ولما رفعت رأسي من السجود ، وجمعت على أثواني للعود رأيت بنانا يشير إلى بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — خلد الله ملكه ، وجهه عليه زاحرا ، على أسي مارفعت به رأساً ولا جعلتُ له قدرا . ومكثتُ بخضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ، ولا يبتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون مني كلاماً ازددت إعجاما ، ولعقة العبي اقتحاما وهو — خلد الله ملكه — يقول : « دعوه حتى يهدأ ويستأنس » . ثم قمْتُ وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري ، وودعت وخرجت . » (٢).

الاعتبار (٣) : وهو في السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ

ألفه وهو ابن تسعين سنة ، وهو كتاب طريف : يقول عنه ابن منقذ (٤) :

(١) صبح الكتاب بدار الكتاب المسمى سنة ١٩٤٩ تحقيق د . محمد كامل حسني

(٢) ص ٥٥ د

(٣) صبح مرآت مؤرخي ... سنة ١٥٠٥ — ١٨٨٦ والتأليف في برستون الولايات المتحدة تحقيق د . فليب

حسني

١٥١ — — — — — ٢٢٦

« قد أوردتُ في كتابي المترجم بكتاب « الاعتبار » عجائب ما باشرته وحضرته ،
وشهدته من الحروب والمعصافات والوقائع منذ كنت ابن خمسة عشر سنة إلى أن تجاوزت
التسعين ، وما نالني فيها من الجراح والمكاره وأنا القائل :

أخوض الرُدى كم خضته متعرضاً	له ، وهو عني معرض متجنب
وكم أخذت مني السيوف مأخذ السـ	حمام . ولكن القضاء مغرب
إلى أن تجاوزت الثمانين وانقضت	بلهنية القيش الذي فيه يرغب
لمكروه ما تخشى النفوس من الرُدى	اللـ وأحل من حياى وأطيب

وذكرتُ ما شاهدته من إقدام الرجال ، وعجائب تصرف الآجال ، فعنيت بما أوردته
هناك . »

الاعتبار^(١) لأسامة بن منقذ

كتب أسامة بن منقذ هذه السيرة الفذة لحياته في أخريات عمره بدمشق ، وكان قد تجاوز التسعين . ويقول فيليب حتى ناشر الكتاب^(٢) .

« بعد أن توكل أسامة ذروة التسعين ، وهو في دمشق ... أخذ يطلُّ من ذلك العلو الشاهق على سابق اختباراتِه ، ويدوِّنُها ، أو يلقنها ، بانشاءٍ ساذجٍ عاديٍّ ، لا تصنُّع فيه ولا تعملٌ ، على صورة مذكرات ، تصوِّر لقطات من تلك الحياة الفذة الفريدة الغريبة المليئة بالمغامرات والمفاجآت ، والتناقضات ، بين مسرات الحياة ، واقبالها ومآسى العيش وادباره ، فهو بين تلك السطور ممتلئ نشاطاً وفتوةً ، يقبل على الدنيا ، وكأنَّها لا تسعه ، وأحياناً يتوجس ، وتطيق أقصر الجوّ عليه ، وكأنَّ السماء تكاد تطبق ، والليل يكاد يحناوسه ، وظلماته يهوّم على النهار فلا تبين أمامه الطريق ، وهو حيناً سعيد مشرق مرَّح متفائل ، وأحياناً قلق حائف يترصد ، ويتوقع العدو الكامن له في كل ثنية وطريق .

حياة حافلة لاشك ، ونموذج من كتابة السيرة لا يتكرر في أدبنا العربي ، ومن هنا كان اهتمام الباحثين بالاعتبار ، باعتباره ظاهرة فريدة تستحق الوقوف أمامها والتنويه بها وبصاحبها .

يقول ناشر الكتاب^(٣)

« رمى المؤلف من وراء كتابه إلى تعليم أمثلة أدبية ، لذلك سمّاه « كتاب الاعتبار » وأورد موادَّ يرجي منها أن يعتبر القارئ بما حلَّ بغيره ، وأن يستفيد لنفسه . أما العظة التي أراد أن ينقشها على ذهن القارئ بحيث لا تُمحي فهي : أن ركوب الأخطار في الحروب وغيرها لا ينقص الأجل المكتوب . يقول : فإنِّي رأيتُ معتبراً يوضّح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل أنَّ العمر مُوقَّتٌ مقدرٌ ، لا يتقدَّم أجله ولا يتأخَّر . »

(١) طبع بتحقيق فيليب حتى بمجلة 'جامعة برنستون بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ .

(٢) الاعتبار ص ٣ من المقدمة .

(٣) فيليب حتى ص ٥

ومن صور معاركه مع الصليبين تنقل هذه الفقرة على لسانه حين نزل عليهم بقلعة شيزر بلدوين صاحب أنطاكية . قال أسامة ^(١) .

« نزل علينا صاحب أنطاكية لعنه الله بفارسه ورجله وخيامه في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلوننا ، فجاءوا نزولا منزلاً كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم فرجعنا إلى آخر النهار . ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلوننا ، فما ركبوا من خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة غلة قد نجزت وهي بالقرب من الإفرنج ، فجمع دواباً يريد يمضى إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في عشرين فارساً معدّين . ووقفنا بينه وبين الإفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولدنا يقال له حسام الدولة مسافر فرأينا شخصاً وهم على شط النهر ، فلما وصلنا الشخص الذي رأيناها والشمس على مغيبها فإذا شيخ عليه معرفة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة — وكان رحمه الله رجلاً جيداً كثير المزاح — : يا شيخ أى شيء تعمل هاهنا ؟ .

قال : انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار .

قال : يا شيخ باسنانك تقطع من خيلهم ؟ .

قال : لا . بهذه السكين .

وجذب سكيناً من وسطه مشدودةً بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت بُكرةً ركبْتُ انتظر ما يكون من الإفرنج ، وإذا الشيخ جالسٌ في طريقى على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد .

قلت : يهتك السلامة . أى شيء عملت ؟

قال : أخذت منهم حصاناً وترساً ورماً ولحقنى راجلاً ، وأنا خارج من عسكريهم طعننى نَفَذَ القنطارُ في فخذى ، وسبقت بالحصان والترس والرمح .

وهو مستقل بالبطنة التى فيه كأنها في سواه .

وهذا الرجل يقال له الزمركل من شياطين اللصوص .

(١) الاعتبار ص ٤٣ .

الكتب الأدبية

تنوعت المؤلفات والكتب الأدبية في عصر الفاطميين ، وتعددت موضوعاتها ومنهجها فمنها كتب مجموعات تجمع عديداً من الموضوعات ، والأخبار الأدبية ، والطرف والنصوص الشعرية ، والنثرية ، وتراجم الشعراء والأدباء ، ونقد لأشعارهم وصنعتهم الكتابية ، أو تقرّظ لها ، وبيان محاسنها إلى غير ذلك .

وقد يدور بعض هذه الكتب حول موضوع بعينه ، أو حول مدينة ، أو عصر أو قرن من الزمان أو قرون ، كما قد يتناول مرحلة في عصر دولة من الدول أو خليفة من الخلفاء أو أمير ، أو وال ، وما قيل فيه من المدح ، أو عاش في ظله من الأدباء والكتاب .

كما نجد بعض ما ألفه كتاب الإنشاء عن الكتابة والإنشاء ، وما يتصل بأصول الكتابة الديوانية وما ينبغي أن يتوفر في كاتب الديوان أو كاتب الإنشاء من معرفة بكثير من العلوم والآداب والفنون . مما يعرض له المؤلف .

الأفضليات^(١): لعل بن منجب الصيرفي

والكتاب مجموعة من الرسائل التي أنشأها للملك الأفضل أحمد بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي الخطير من سنة ٤٨٧ هـ إلى ٥١٥ هـ .

وهذه الرسائل تبدأ برسائل في رجاء العفو ، والصفح عن الذنب ، ويبدو أنها قدمت للوزير الأفضل بعد أن غضب على ابن الصيرفي لأمر لم تتضح لنا ولعل من أسبابها بعض الوشايات التي بلغت أسماع الوزير ممن يحسدون ابن منجب على مكانته . وكانت هذه الوشايات أمراً كثير الوقوع بين أفراد حاشية أولئك الرؤساء والخلفاء ، وكم جرّت على الناس من ويلات ، بل ووقع في أحاييلها كثير من وجهاء الدولة وكبار علمائها .

(١) تحقيق الدكتور وليد قصاب والدكتور عبد العزيز المانع من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣ هـ .

وهكذا وقعت الجفوة بين الوزير وكاتبه ، فطرده من ديوان الاشياء ولكن الكاتب ، اعتذر ، وألح في الاعتذار ، وطلب الصفح حتى استطاع أن يكسب عطف الأمير مرة أخرى ، ويستميله إليه ، فيعيده إلى مكانه من ديوان الإنشاء ونجد هذا الاعتذار والاستعطاف في فصلين جاءا في أول الكتاب هما :

فصل مما جاء في العفو ، وفصل في الشفاعة والاستعطاف . يعرض فيهما طلب العفو ، ويبدل ما في ماء وجهه للصفح ، وتليها رسالة رد المظالم ، وهي متعلقة بالرسالة الأولى بفصلها ، ولم يكتب ابن الصيرفي بيدل ماء الوجه في عبارات اشائية منمقة ، والاستشهاد بما جاء في ذلك من آيات الكتاب ، وأحاديث النبي ، بل جال جولات شتى في مجالى الأدب شعراً ونثراً يقيس منهما لعرض آرائه ، وبسط معانيه .

ومما جاء في حديثه عن العفو كما بسطه في أول الكتاب :

« قال الشيخ أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب :

« هذه الرسائل التي صنفها منذ الأيام الأفضلية ، فأولها رسالة العفو ... التي ترجمتها استنزال (العفو) مما خدم به المجلس العالي المالكي الأفضلي مملوكه ..

الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم ، وكاشف ضرهم ، فيما يطرقهم وينوبهم والمتفضل عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقائل في محكم كتابه ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي شرفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخلق العظيم ، وفضله على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره في أصحابه بقوله — عز من قائل : ﴿ فاعفُ عنهم واستغفر لهم ﴾ .

وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي أجاب إلى الإيمان مسارعاً مبادراً ، وصفح عن عدوه ، وكان عليه قادراً ، وأعربت شيمه عن الشرف الصريح . ومنه كرمه أن يجهز على جريح .

وعلى آلهما الطاهرين الذين طهر بهم من الأدناس ، صلاة دائمة الاتصال مستمرة في الهدوء والآصال ، وسلم ، وكرم ، ومجد ، وعظم . أجمعت التربية على اختلاف ألسنتها وألوانها ، وتغاير عصورها وأزمانها ، وتباين عقولها ، وآرائها ، ونفاوت أغراضها وأهوائها

أن أفضل ما اكتسبه المرء في وجوده ، وأشرف ما منحه من كرم الله وجوده ، ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها ، وتبليغها غاية تجود الخواطر فيها ، وتهذيبها . وإن من أدرك ذلك فقد نال الرتبة العلية ، وحاز السعادة الحقيقية ، لأنه حصل على فضيلة الذات ، ووصل بها إلى أعظم اللذات . وهذه قضية لا تنتفض ، ومقدمة لا يخالف أحد فيها ولا يعترض ، فأما النتيجة عنها فهي فعل الحسن ، والمثابرة عليه ، والتنزه عن القبيح ، وإن دعت المكافأة إليه . وأفضل الحسن ما بقي ذكر المرء بعده ، وجعله بالوصف قريبا ، وإن أطالت الأيام عهده ، إذ كان بقاء ذكر الإنسان عمرا يستجده ، وكنزا يذخره لوارثه ، ويُعده . ومن أمثالهم : « البشرُ أحدُ الجودين ، والذكرُ أحدُ الخلودين ، والبيانُ أحدُ السحرين والثناءُ أحدُ العمرين » . وما أحسن قول أبي الطيب :

كفَلَّ الشَّاءُ لَهُ بَرْدَ حَيَاتِهِ لَمَّا انطَوَى فَكَاكُهُ مَنْشُورُ

وقد سبقه إلى هذا المعنى غيره . قال التيمي :

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيْهِ حَيَاتِهِ فَكَاكُهُ فِي طَيْهِ مَنْشُورُ

وقال آخر :

طَوَتْهُ الْمَتَايَا وَالشَّاءُ كَفَيْلُهُ بَرْدَ حَيَاةٍ لَيْسَ يُخْلِقُهَا الدَّهْرُ

وبعد أبي الطيب قال مهيار :

أَفْنَى الْفَرَاءِ عَلَى الشَّاءِ لَعَلِمِهِ أَنَّ الْفَنَاءَ عَلَى الشَّاءِ مُسْلُودُ

وإذا تَوَلَّمتُ المناقبُ التي تَحِلُّدُ حُسْنِ الذِّكْرِ ، وَتَمَثَّلَتْ صَوْرًا تُسْتَشْفَى فِي مِرَاةِ الْفِكْرِ ، وَجَدْتُ أَحْسَنَهَا مَنْظَرًا ، وَأَشَقَّهَا جَوْهَرًا مَا كَانَتْ النِّعْمَةُ فِيهِ تَعْدَى ، وَالْأَمَالُ تَعْرِضُ نَحْوَهُ وَتَتَصَدَّى ، فَلِذَلِكَ عَظُمَ رَبُّ الْمَنَاحِ وَالصَّلَاتِ ، وَفُضِّلَ الْمُنْقَلُ بِالصَّدَقَةِ عَلَى الْمُنْقَلِ بِالصَّلَاةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَصْلَى لَا تَتَجَاوَزُهُ مَثْوَبَةٌ مَا صَنَعَ ، وَالْمُنْصَدَّقُ فَقْدُ نَفْعٍ غَيْرِهِ وَهُوَ لَا مَحَالَةَ قَدْ انْتَفَعَ . وَهَذَا أَمْرٌ قَائِمُ الدَّلِيلِ ، وَاضِحٌ بُرْهَانِ التَّفْضِيلِ . ثُمَّ إِنْ هَذِهِ النِّعْمَةُ الْمَشْرُوكَةُ بَيْنَ مَنْعَمٍ عَلَيْهِ بِهَا ، وَمَنْعَمٍ يُثَابُ بِسَبَبِهَا ، تَنْقَسِمُ فِي قِسْمَيْنِ أَيْضًا : أَحَدُهُمَا الْبِرُّ الْمَعْهُودُ وَالصَّدَقَةُ الْمَعْرُوفَةُ ، وَالْآخَرُ الْعَفْوُ عَنِ الْجَرَائِمِ الَّتِي تَأْتِي إِحْتِمَالُهَا الطَّبَاعُ الْعَزُوفَةُ ، وَتَفْضِيلُ مَنْ يَمُشِرُ عَلَى مَنْ يَتَصَدَّقُ فَرَضًا وَاجِبًا ، وَتَرْجِيحُهُ عَلَيْهِ أَمْرٌ مَتَعَيْنٌ وَحَقٌّ لَازِبٌ ، لِأَنَّ الْمُنْصَدَّقَ لَا يَتَجَاوَزُ حَالًا مُخْتَلَةً يَسُدُّ خِصَاصَتَهَا وَفَاقَتَهَا . وَالْعَافِي عَنْ الذُّنُوبِ فَقْدُ يَخْفَى . مَا يَرْجِبُ الْعَدْلُ سَفْكَهَا وَإِرَاقَتَهَا . وَالْأَوَّلُ يُولَى جَمِيعًا . وَبِحَسَنِ

صنيعا ، والثاني يُحيى نفساً . ﴿١﴾ ومن أحيّاها فكأنما أحيى الناس جميعا ﴿٢﴾ . فبينهما هذا التفاوت الذى لا يخفى قدره ، والتباين الذى لا يستتر على ذى تصوّر أمره ، فقد استقر بهذه السياقة أن العفو أكرم الخصال ، وأعلى منازل الكمال ، وأحمد الأفعال عاقبة في العاجلة والمآل .

ومن لطائف الله بأهل هذا العصر ، ومواهبه التى تتعدى مدى الإحصاء والحصر ، أن جعل هذه الفضيلة التى قام بها البرهان على أنها الأولى في العدد ، وارتفع الخلاف في كونها الأولى بتعظيم كل أحد ، أغلب الخلال على خلايق مولانا الملك السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، عضد الله ملكه بالتخليد ، وشدّ ببقائه أزر الإيمان والتوحيد ، الذى ملأ جماله العيون ، وصدّق إحسانه الظنون ، ووضحت الدلائل على أن مثله لم يكن قط ولن يكون :

هياث قامت معجزات الغلا فيه ومائت آية الانفسراد
جلّ عن الناس فما عابسه شيء سيوى تشبيهه بالعباد

ثم إنه بسط الله اقتداره ، وأعزّ أوليائه وأنصاره ، لم يعرض من الصفح بما أُلّف ولم يقنع من العفو بما عُرف مما يجود منه على الجاني ببقاء روحه ، ويحول به بين المجرم ، وبين سكنى ضريحه ، حتى أبان من التذاذه بالغفران ، وإحسانه إلى من قابل نعمته بالكفران ، ما جعل المذنبين يتقربون إليه بالجرائر ، والمسيئين يتوسلون عنده بالكبائر ، فحمدوا خطأهم ، وما عهدنا الخطأ مع غير كرمه يُحمد . ويحذّوا براءتهم وما عرفنا البراءة ، لولا فيض فضله تنكر وتجدد . وصارت إساءتهم من موائبهم إليه وشوافعهم . وجناباتهم من حرمانهم لديه وذرائعهم ، فما أصدق ما قال أحد شعراء مجلسه العالى ، شيد الله مبانیه ، وبلغ كلا من ممالیکه آماله وأمانیه .

وسعت مراجعك الجنة بأسرهم وألّست كلاً منهم عثراته
وجزيت مركب الكبيرة منهم الـ تحسنى لأصبح شاكرًا زلايه (١)

ويعضى في هذه الزلفى ، والاستشهاد بالشعر أو عمل شعر في كل معنى متصل بما

(١) الأفضليات ص ٧ .

يعرض له من هذه المعاني في دائرة العفو ، والصصح ، وسماحة النفس .. ومالي ذلك حتى ينتهي إلى قوله : (١)

« وللمملوك مقرر هذه الرسالة خدمةً كان رفعها إلى المجلس العالي المالكى — حلد الله سلطانه وشيد أركانه — وهى . ﴿ وأيوب إد نادى ربّه أتى مسئنى الضرّ وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضرّ ﴾ لو كان للمراجع عن الشيم الشريفة الأفضلية معدل ، أو للعواطف عنها مرجع أو موئل ، لما منع ذلك ذوى العقول من قصد الجناب الكريم المالكى الأفضلى ، وقوفاً بآمالهم في رحيب ساحاته ، وتخيساً برجائهم في مصون عرصاتِه ؛ إذ كان كلُّ مملوك فألى ماله مكاله معاذه ومفرغه ، ولسلطان عصره ملاذه وإليه مرجعه ، فكيف وأنواع الرأفة إلى مولانا — خلّد الله ملكه — منسوبة وأقسام العواطف من سمائه مستنزلة مطلوبة ؛ والجرائم عنده وإن عظمت ممسوخ بها موهوبة . على أن سطوته بالإجماع مخوفة ، وهيبته مرهوبة . لا جرم أن الله تعالى خصه من الرحمة بما هو معدود من صفاته ، وأفرده من الخصائص بيدائع الفضل ومعجزاته . والله أحكم بتدبير خلقه ، وأعلم حيث يجعل رسالاته .

والمملوك يقبل الأرض بالمقام الكريم ، ويبى ما هو عليه من ضرّ قد قصر عنه جلده ، وضاق فيه بوجهه جسده ، وأصار راحته من كان يحسده . وقد نهكته العطلة والبطالة ، وأضال الزمان دفاعه عن الخط ومطالَه ، وله حرمة من نشأ في ظل دولته القاهرة ، وفاضت عليه سحائب مكارمه الغابرة ، ورُئى في دواوين مملكته السعيدة . »

وكذلك يجرى قلسه في الرسالة التى سماها « رد المظالم » . يشير فيها إلى قصد الشعراء وغيرهم للأفضل من أحل المديح وبيل الجائزة فيقول (٢)

« وقد ازدحمت بشمائه ضروب الأثم ، وتواصلت إليه ملوك العرب والعجم ، وهاجروا نحو بابه راحين مهتفين ، وأُمّوا ظله لاجئين إليه منقطعين . ولقد ورد منهم اثنان متشاهداً لأفقير . متشابهاً استغثير . وعمّا ملكاً غانة وفرغانة ، فأزال من قلب كل منهما أحقادَه على اندهر وأصفاه . واعتبروا يأولى الأبصار كيف أحسن حتى إلى الدهر

(١) المصدر نفسه ص ٢٨

(٢) الأفضلية ص ٣٧

فأصلح القلوب له ، وجعل ذلك من شكر الله على ما قسّسه إياه وسرّبه ...

.... وإذا تأملنا ما سفر فيه البيان وتبرّج ، وأسفر به صبح الإبداع وتبلّج ، وأخرجت منه الضمائر جواهر كانت مستترة . ونظمت به الخواطر عقودا مازالت منتثرة وجدنا ضرورياً من الأقوال منسعة ، وأصنافاً من المدح منشعبة متنوعة ، تدعو الناظر المحرّر ، والمتأمل المقصّر ، والعامل بفريضة العدل نعرضا لحزائه ، والمناضل عن الحق رغبة في انتسابه إليه واعتزائه إلى القول إنّ كلّ لسان انطلق في أيامه بخدمة ملوكية فما قصد غير مدحه ، وكلّ بيان انبعث في أوصاف حقيقية ، فما أراد سوى تفصيل ذلك وشرحه . فله در أبى نواس إذ يقول :

وإن جرت الألفاظ يوماً بمدح
لغيرك إنساناً فأنت الذى نعنى
وما أحسن قول ابن الرومى :

إن أسرق الشعراء شعرهم
سرقوك مجدك وهو مدّ خير
من قبل أن تلقى إلى المهيد
وكسوة قوما لا يليق بهم
من ماجد وسط ومن وعبد
فرددت حقك غير معتذر
منهم إلى خير ولا غبدر

فعمدنا إلى هذا الباب ذاكرين منه أئودجاً لنضائره ، واقتصرنا عليه ، إذ لا طمع لنا في ذكر سائره ، واعتمدنا على ما لم يتذله الاشتهار ، وقصدنا ما لم يكن للألسن به استهتار واجتهدنا في إيراد ما لم تُخلّق الأسماع جدته ، وخدمنا بما لم تسلب الرواية روائه وبهجته وقد يأتى في تضاعيفه ما ليس من شرطه حسب ما يوجب تفرع التصنيف ، ويقضى به تشعب التأليف ، وسمينا ذلك : « ردّ النظام » لأنه حقّ لمولانا .

وقد خلّيت على غير أكفائه عروسه ، وأديرث على غير شربه كؤوسه ، فافتضت أسماؤهم أبكاره ، وشربت أفهامهم عُقارَه . وهذا ظلم من ناظمه وقائله ، وتعدّد من سامعه وقابله .

ويقول : « قال عبد الله بن محمد بن سنان بن سعيد الخماجي الخلبى :

لا يدعى الفصحاء فيك غريفة
والبيض تشرُّ والأمنّة تنيطم
إن أحسنوا عنك الثناء فإنها
نطقت بمدحك قبل أن يتكلّموا

عجباً لوجهك كيف بارق بشيره تهمل سحائبه ولا يتفهم
ومن العجائب أن يبض سيوفه تبكى دماً وكأنها تبهم
فأما الأول فمن ملاح التورية . وقد أتى بهما في قوله :

وصفوا يياض يد الكليم بمعجز فيه ، وكم لك من يد يياض
واستطرفوا إحياء عيس ميتاً فرداً ، وجودك باعث الفقراء
وقال :

من القوم صال الدهر إلا عليهم وصالوا يياض الهند حتى على الدهر
أشدُّ احتقاراً بالردي من حسامه وأدنى إلى سرِّ الأعادي على الدهر
له خلق في الخلق غيث وفي الصبا نسيم ، وفي جح الدجى غرة البلر
وقد استعمل تركيب هذا البيت في موضع آخر فقال :

ماهره طرب العقار وإنما أعطته نشوة كأسها الأخلاق
هي في الهوى وعد الوصال وفي الـ كرى طيف الخيال وفي الوداع عناق
وهو مأخوذ من قول ابن نباته :

إنما في السحاب وبث في السر يح نسيم ونشوة في الشراب
فأما قوله :

أشدُّ احتقاراً بالردي من حسامه

فهذا الصدر يصلح أن يُعجزَ بقول أبي الطيب :

وأقدم بين الجحفلين من الثبل

على أن صدر بيت أبي الطيب مناسب للعجز المذكور ، لأنه قال :

أقلُّ بلاء بالرزايا من القنا

فيصير هذا العجز مع صدرين .

قال محمد بن عباد بن عمرو :

سميدع نهب الآلاف مبتدئاً ويستقل عطاياه ويعذر

له يد كل جبار يقبلها لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ولو أمكنه أن يقول الحجر الأسود لكشف المراد ، وبنيته ، وأظهر المعنى .

وقد اتفق ذلك لعمود بن القاضي الموفق أحد مماليك مولانا ، وكاتب إنشاء دولته .
قوله يصف كتابا ورده ، ويذكر أن الفاتك والناسك لفياء بالتبجيل ، وقابله بالتقيل
كأنما قد حل في اللمي ، أو ذاب فيه الحجر الأسود .

على أن ابن مكنسة ذكر الحجر غير موصوف ، فلم يُشكل المراد فيه ، وسبب ذلك
ماقرنه به ، وضمه إليه . فقال من قصيدة أولها :

لمل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كألك البيت قد طاف الحجيج به وفي ركائبك حل الركن والحجر

فأما قصيدة محمد المقدم ذكره فإن لعبد الله بن سنان قصيدة على وزننا وفي معناها ، على
تقارب العصرين ، وتباعد المستقرين ، منها ما هو من شرط هذا الكتاب . قال منها :
ملك له سرقة في العدل معجزة لولا الشريعة قلنا إنها سُور

.....

وهكذا يظل يورد آياتاً لبعض شعراء عصره في معاني المدخ مقارناً بينها ناقداً ، مبيناً
ما بين معانيها من النسب ، أو بين تلك المعاني ، وسابق ما قال الشعراء القدماء ، مما
يدل على سعة محصوله في الشعر ، ودقة فهمه ، وحسن تذوقه .

وبعرض لشعر ابن عمار الوزير والشاعر الأندلسي قرين ابن زيدون فيورد منه جملة ،
يعارضها بأبيات أخرى لبعض شعراء عصره ، ومن سبقهم على ما ذكرنا . وقد كان
كـبـعض معاصريه من المقرئين مهتماً بشعراء الأندلس وشعر الأندلسيين ، وله فيه كتاب
على ما جاءت به الأخبار ونقل عنه بعض المؤلفين .

ونعذ الرسالة على تلك الصورة من الموازنات الشعرية ، والمعارضة بين المعاني ،
وتعقب الألفاظ ، وما جاء من صور التعبير الفني من تورية وغيرها جهداً من المؤلف
في النقد الأدبي ونقد الشعر خاصة .

ويشير إلى ما يأتي في الشعر من طرائف بعض الناظرين المتكلفين كالحريرى في

مقاماته ^(١) كالقلوب والتجنيس المبالغ فيه .

ويختم كلامه بقوله :

« وهذا المقدار دالٌّ على استنباط أمثاله من هذا الأسلوب ، ومسهُلٌ استخراجُ
أنظاره من هذا الغرض المطلوب ، وهادٍ إلى ما يجب قصده في المدح واعتقاد ، وباعثٌ
على ما يلزم إضماره في الوصف واعتقاده ... » ^(٢) .

فالرسالة إذا وإن كانت في شعر المديح ، ومما قصد به الأفضل ، إلا أنه استطرد إلى
معاني المديح ، ومنها إلى معاني موضوعات الشعر الأخرى وأساليب الشعراء في تأدية تلك
المعاني .

« لُمع الملح » ^(٣)

ويبدو أنه لم يبلغ غايته في الرسالة السابقة ، فأراد أن يستأنف القول في رسالة أخرى
لاحقة اسمها لُمع الملح .

فموضوع هذه الرسالة يجمع ملح الشعر والأخبار حول من نظموا من المديح في
الأفضل من شعراء العصر وبعض أخبار أخرى لشعراء من أهل مصر والقيروان والشام .

ويقسمها فصولاً كلُّ فصل يتناول لمحاً عن مجموعة من الشعراء ، فالفصل الأول
ب عنوان « من المحاسن العصرية في المملكة المصرية » ذكر فيها بعض أقوال الشعراء في
الأفضل منهم محمود بن الموفق الكاتب ، ومجير بن محمد بن عبد العزيز ^(٤) ، الصقلي .
ثم المصري وابن حيوس ، وفي فصل آخر سماه : « في الإشارة إلى مدائح مولانا وفضائله
وما ازدادت به الأرض من قصوره ومنازله . » ذكر فيها شعراً للشاعرين السابقين أيضاً ،
ويبدو أنهما كانا من الشعراء الملازمين لبلاط الأفضل .

يقول عن مجير بن محمد : « ولجير أحد شعراء مجلس مولانا — خلد الله سلطانه في

(١) الأفضليات ص ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٧ .

(٣) الأفضليات ص ١٠١ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦ .

وصف فؤارة في المباني الشريفة على ما أوجه تخيله ، واقتضاه توهمه وتثقله لأنه ما أدركها بنظره ، ولا أجال فيها حاسة بصره :

وفؤارة يستمدُّ السُّحَا بُ من فضل أخلافها المُحتَلَبِ
رأَتْ جِرةَ القِيظِ مُحَمَّرَةً لها شَرَرٌ كرجومِ الثُّهْبِ
فَظَلَّتْ بِهَا الأَرْضُ تَرَوِي السُّمَّا عَ خوفاً على الجَوِّ أن يُلْتَهَبِ

وهذا من قول الآخر في وصفها :

أمطرت الأرضُ بها السماء

ومن المستحسن في ذلك ما أتى به علي بن الجهم في قوله :

وفؤارة ثارها في السماء فليست تُقَصِّرُ عن ثارها
تردُّ على المزن ما أسبلت على الأرض من صَوْبٍ ملذازها

والذي صنعه الشعراء في هذا الباب مما هو مستقرٌّ في الخزائن المقمورة مغني عن التوسّع فيه ؛ لاسيّما وهذه الخدمة لُحَّةٌ ، والذي أورد فيها على وجه الإشارة . « .

ويورد نادرة من كتاب الوزراء لابن عبدوس ، وكلمة لعمر بن مسعدة الكاتب ، أراد أن يعارضه ، ويمائنه فيها ، فجاء بمقال له منشور ، أعقبه شعر لبعض شعراء عباسيين ثم جاء بفصل عن ابن شرف القيرواني قال :^(١)

« من المحدثين المجيدين محمد بن شرف . وذكر في بعض تصانيفه أنه كتب يشرح حالَ حاجِّ أصابه في الطريق حرّاً شديد ، فنزل بئراً ليُشرب ، فسقطت فيه صاعقة ، فسلم منها ، ثم ركب وسارَ فنزل بردٌ أصابت رأسه منه واحدة فقتلته ، وكتابه في ذلك مشهور .. وقد كتب المملوك يعني نفسه — ابن الصيرفي — في هذا المعنى . » ثم يورد مقالاً آخر . يعقبه بالتعريف بابن شرف قائلاً : « وابن شرف من أعيان الشعراء ، وأمائل البلغاء ، وله أبياتٌ يجيد فيها ، ويحسنُ في معانيها . فمن بديع شعره قوله :

خلقَ كماءِ المزنِ طيبَ مذاقةٍ والرَّوضةُ القُناء طيبٌ نسيجِ
كالسيفِ لكن فيه حلمٌ واسعٌ عَمُنَ جنى والسيفُ غيرُ خليمِ
كالليثِ إلا أنه مُتبرِّقٌ سَعِ بوسامةٍ ، والليثُ غيرُ وسيمِ
كالغيثِ إلا أن وابلَ جوده أبداً ، وجوده الغيثُ غيرُ مُقيمِ

(١) نصير عنه ص ١٢٦

كالدهر إلا أنه ذو رحمة والدهر قاسي القلب غير رحيم
وبعض مقطوعات شعرية أخرى . كقوله في عود قينة :

سقى الله أرضاً أنبت عودك الذي زكث منه أغصان ، وطابت مغارس
تغنى عليها الطير وهي رطبة وغنى عليها الناس ، والعود يابس
وقوله في مثله :

ياعود من أية الأشجار أتت لـ لا جفا ثراها ولا أغصانها المساء
غنى القيان عليها وهي يابسة بعد الحمام زماناً وهي خضراء ^(١)

ويذكر ابياتا لابن رشيق في الخمر ، يقارن بينها وبين أبيات أخرى لعبد المحسن
الصوري من شعراء اليتيمة .

وينحول في الرسالة جولات نقدية تتناول جوانب المعاني المشتركة بين الشعراء
والمأخوذة مما يجري في كتب السرقات والمآخذ . كما يعرض للجوانب البيانية من تشبيه
واستعارة مقارناً معلقاً ، مستحسنناً ومقبحاً . فما استحسنته منها قول الشاعر في وصف
الخمر :

ومقتول سكر عاش لما دعوثه لبادز مسروراً يرى غيّه زُشداً
وقام تنبيه بقايا خمسه وقد قطفت عيناؤه من حده وزداً ^(٢)

لأنه جمع بين الاستعارة والتشبيه مع حسن اللفظ .

ويتحدث عن القوافي المتمكنة فيقول : ^(٣)

في الأبيات التي تقتضي قافية لا يكاد الخاطر يتخطاها ، فيأتي قائلها بأخرى لا يتعرض لها
الفكر ولا يتعداها . من ذلك قول غلّة بنت المهدي :

ومفترّب بالمرج ييكي لشجوه وقد بان عنه المسعدون على الحسب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنسم يستشفى برائحة القرب

قال السائق المعري : فأنزلت الركب عن هذه القافية ، وقد كان لها موضع ، ولكن

(١) الأفضليات ١٢٨ - ١٣٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥ .

القرب أحق به . وقول ابن بياته .

رمتُ بها أهل الجبال فما دروا أخيل رمتها بالعدا أم سلالم
والملوك — ابن الصيرى — يقول : إن الذى يترُّ إليه الخاطر تقيةً هذا البيت
بالقشاعم ، فلما ارتفع إلى السلام راد المعنى بهجة .

ويعقد باباً شبيهاً بما عقده ابن طباطبا فى كتابه عن القوافى المتمكنة (١) . يجعل عنوانه
« فى القوافى التى يتحدى بها ، فتعذر على منسسيها وضلائها » يقول :

« من ذلك قول ابن نيقيا البغدادي أحد شعراء الوقت :

لله أى مواقف رقت لنا فيها الرسائل والقلوب غلاظ
عهدي بظلك والشباب نزيلة أيام ربك للحسان عكاظ

فأغرب فيما اهتدى إليه من هذه القافية ، وحدد بها رسم سوق الجاهلية العافية ،
وأبان بذلك عن فكر دقيق ، ومناصير بعيد عميق .
وهكذا نجري هذا المجرى فى بقية الباب .

ويعرض للمعانى التى تحتل ضادين أو معنيين متعارضين أحدهما ممدوح والآخر
مذموم من مثل قول المتنبي متخلصاً ، فجعل الممدوح رسولاً إلى اخيوبة أو قواداً على
قول المعارضين على المتنبي فى قوله :

عل الأمير يرى ذلى فيشفع لى إلى التى تركتسى فى الهوى مثلاً

قال : قالوا إن الشفاعة سؤال ورغبة ، فإن أجيب إلى مساعدة أى الطيب
والإرحاء إلى القهر . ويحاول الدفاع عن المتنبي .

ويذكر من الشعر « مايدل على النظر فى العلوم الشرعية » وهو الذى يستعين
بمصطلح علوم الشريعة ومعانيها . كقول الشاعر :

وأمت ضياء تبث الحديث وتسئد عن بانة الأجسرع
وتقيم أنى أهواككم وليس اليين على الملعسى

ويذكر اياتاً جاءت بها الأنساب والتفاخر بها كقول ابن الرومي :
 وكم أب قد علا بابن ذرأ شرف كما علا برسول الله عدنان
 وبذكر الأيات « الإخباريات » التي تحوى شيئاً من الأخبار والتاريخ ،
 و« النحويات » التي تحوى مصطلح النحو أو كتبه أو كتب اللغة كقول الشاعر :^(١)
 لا تألف الأحكام حيفاً عنده فكأنها الأفعال والتوحيـن
 وكذلك الحال في الطبييات التي تحوى علوم الطب ومصطلحه^(٢) ، والهندسيات^(٣) ،
 والفلسفيات .

ونحذثنا في فصل من فصول هذه الرسالة حديثاً مطولاً عن التجنيس وأنواعه ،
 واقتنان الشعراء في ضروب صنعه . وقد كان التجنيس في عصره يستولى على اهتمام
 الكتاب والشعراء جميعاً .
 قال في ذيل الرسالة وعند عرض هذه الرسالة — على الأفضل — رضى عنه وأعاده
 إلى ديوان الانشاء^(٤) .

والرسالة الخامسة من هذا المجموع باسم « منائح القرائح »^(٥) ، وفيها يعرض لنماذج
 من القدرة على صوغ الكلام كالتغير في قوافي الشعر والتلاعب بها على حروف
 المعجم^(٦) ، وما تجود به القرائح ويبارى فيه الكاتب قرائح غيره ، كالتبارى في وصف
 خيمة أمر الملك الأفضل بنصيبها وجعل الكاتب لهذا عنوان فصله « خيمة الفرج » ومن
 أقوالهم فيها قول الشاعر ابن زيد الانصارى :

أخيمة ما نصبت اليوم أم فلـك ويقظة ما نراه منك أم حـلـم
 ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن تسمو علواً على أفق السما الحـم

(١) الأنفليات ص ١٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٨٧ .

(٦) الأنفليات ص ٢٢٦ .

حتى أتيت بها شماء شاهقة
إن الدليل على تكوينها فلکاً
والطير قد لزمت فيها مواضعها
تغدو القمارى والبازى يغفلها
كأنها جنة فالقاطنون بها
إن أنبت أرضها زهراً فلا عجب
في مارن الذعر من زيه بها منم
أن احتوتك وأنت الدساس كلهم
لما تحقق منها أنها حرم
كأنما بينهم في جورها رجم
لا يستصیل على أعمارهم هرم
وقد همت فوقها من كفك الذیم»

ومن طريف ماجاء في هذه الرسالة ما قاله عن تناوب الأعضاء ، وهو ما يسميه بعض النقاد المعاصرين تناوب الخوأس أو تراسل الخوأس . يقول ابن القيم في ' ١ .

« وهو — أى تنابُ الأعضاء — مما يدلُّ على تجويد الشاعر وقوة تصرفه ، ومضاء خاطره ، وقلة توقفه . ومن أحسن ما جاء فى ذلك قول أبنى العليبي :

وجحفل ستر الميون غباره فكأنما يصرن بالأذان
وقوله :

كَأَنَّهُمْ فِي الْهَيْجَا عِيُونَ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رِقَادٍ

وحكى ابن رشيقي قال : جالست يوماً إلى أبي حديد الشاعر وأنا سكران ، فسألني عن حال المكان الذي خرجت منه ، فوصفني ، وأقضى لي الحديث إلى ذكر غلام كان سابقاً ، فقلت في درج الكلام :

فشربتها من راحتیه کانهما من وجتیه

وقلت : أجز ، فقال :

وَشَمْتُ وَرْدَةَ خَسْدَهُ نَظَرًا . وَنَرَجَسِي مَقَاتِلِيهِ

فَقُلْتُ : أَحْسَنُ ، وَخَيْرُ شَيْءٍ بِالْخَيْرِ لِمَسْمُوحٍ أَلَى الْخَطِيئَةِ بِأَعْيُنِ حَسَنٍ يَقُولُ :

خَلَقْتَ صَفَاتِكَ فِي الْعِبْرَةِ كَمَا لَمْ يَكُنْ

وهذا — وإن لم يكن من هذا الباب من غير حجة. فليس من باب ما هو.

وكذلك قول مهينر :

خان بكاء العين أجفانه فجاج ، والنوح بكاء القسم

لأن النوح والبكاء ليسا عضوين :

ولاين رشيق في جواب كتاب :

أسمعت عيني ما اشتهت
بلسان هاتيك اليراعة
وقول الشريف الرضى :

عزلى أرى الديار بعينى فلعلنى أرى الديار بسفلى^(١)

والرسالة الخامسة « مناجاة شهر رمضان » ، والسادسة « عقائل الفضائل » وهى مجموعة من النوعات بين الأخبار ، والرسائل ، والمقالات ، والطرائف ، والوقفات النقدية شبيهة بما مضى فى رسائله . والرسالة الأخيرة رسالة : « التدلى على التسلى » والتي ذكرناها فى غير هذا المقام .

والكتاب بهذه الصورة مجموعة من الرسائل تحوى مجموعة من الأخبار والأشعار على طريقة كثير من كتب المجموعات والأمالى ، والمحاضرات ، يخرج فيها المؤلف من فن إلى فن وان تميزت هذه عن غيرها بتوجهها إلى الأفضل ، وقد أراد بعضها استعطافه ، واطرافه بعرض طرائف الأدب ونوادر الأدباء .

ومع ذلك فقد حوت فوائد جمة من شعر شعراء العصر وكلمات كتابه ، وحوت كثيرا من آراء ابن الصيرفى النقدية ، ونصوصاً كثيرة من كتابته وشعره . وهى من هذه الناحية . تلقى ضوءاً على عصر الأفضل ومن جمعهم مجلسه من الأدباء .

(١). الأفضليات ص ٢٢٦ - ٢٢٩

زهر الآداب

لأبي اسحاق إبراهيم الحصرى القيروانى (ت ٤١٣ هـ)

وهو كتاب جامع لطرائف الأدب كذلك لمؤلف قيروانى عاش فى ظل الفاطميين وتحت إمرة ولائهم من آل باديس الأمراء الصنهاجيين . وهذا الكتاب الذى سماه زهر الآداب كتاب جامع لأشياء كثيرة مختلطة دون ترتيب بعينه ، مثله فى هذا مثل كتاب الموشى للوشاء ، أو كتب الثعالبي وغيرهما من تلك الكتب التى عرفت فى القرنين الرابع والخامس .

ويكاد الكتاب لا يضم جديداً عن أهل عصره ، فغالبية ما ينقله عن أدباء وشعراء سابقين فى القرن الرابع ، وما قبله من المشاركة فى معظمهم ، ويكثر النقل عن شعراء القرنين الثانى والثالث من أمثال بشار بن برد ، وأبى العتاهية وأبى نواس ، وأبى نغم والبحترى وابن الرومى والعتابى ، كما ينقل عن الجاحظ وابن قتيبة ، ويكثر من نقل مقامات الهمداني ورسائل الخوارزمى ، والميكالى .

وقليلاً ما أتى باشعار من المغاربة والأندلسيين والمصريين المعاصرين . وأهم من نقل عنهم من هؤلاء ابن هانى ، وابن عمار ، والأمير تميم بن المعز ، وابن وكيع التيسى . وأما الكتاب المغاربة فلا يكادون يدكرون فى هذا المصنف . ويأتى ببعض الأقوال المنشورة مسبوقة بقوله : « ول بعض أهل العصر فى كذا » ولعله يقصد نفسه .

يقول : ^(١) « ومن ألفاظ أهل العصر فى إقامة رسم الهداية فى المهرجان والنيروز » — « فى مثل هذا اليوم الحديد ، والأبواب السعيدة . سنة على مثل أن يسحق ويلطف ، وعلى مثل سيدنا — ولا مثل له — أن يقبل ويشرف . لليوم رسم إن أنحل به الأولياء عُد هعوة ، وإن منع منه الرؤساء حُسيب جفوة ، ومولاي يوعزى الذالة على ما اقترن بالرُفعة ، ويكسنى بذلك الشرف والرُفعة . الهدايا تكون من الرؤساء مكانة بالفصل ، ومن النظراء مقارنة بالمثل ، ومن الأولياء ملاطفة بالقل . وقد سلك فى هذا اليوم مع

١١ هـ . كتاب من ٤ حفيد . حتى صدك ص ١٤

مولاي سبيل أهل طبقتة من الأرباب ، وقد حملت إلى مولاي هدية المتحفّل ، والنفس له ، والمأل منه . » .

ولهم في التهئة بالنوروز والمهرجان وفصل الربيع : هذا اليوم غرة في أيام الدهر ، وتاج على مفرق العصر — أسعد الله مولانا بنوروزه الوارد عليه ، وأعاده ماشاء وكيف شاء إليه . أسعد الله سيدنا بالنوروز الطالع عليه ببركاته وأيمن طائرته في جميع أيامه ومتصرفاته . » .

لبساب الآداب^(١)

لأسامة بن منقذ (سنة ٤٨٨ — ٥٨٤ هـ)

والكتاب كذلك من كتب الأدب الجامعة في هذا العصر ، ولكنه جاء في آخره ، فقد عاش صاحبه معظم سنوات القرن السادس ، وعاصر الخلفاء منذ عهد الأمر إلى آخر خلفاء الفاطميين ، ولقى صلاح الدين الأيوبي في أول دولته ، وكان قد بلغ من العمر مبلغاً .

والمؤلف شاعرٌ ، أديبٌ ، فارسٌ مغامرٌ ، من شخصيات القرن السادس البارزين في الحرب والسياسة والأدب .

جاء إلى مصر في أيام الفاطميين والتقى بالوزير الأديب الشاعر السياسي الصالح ابن رزيك ، وكانت له معه أمورٌ وأمور .

وأما الكتاب الذي نعرض له ، فيبدو أنه في آخر مألّف في حياته وقد بلغ من عمره التسعين أو نيفاً ، أو لعله قبل ذلك . لكنه أملاه فيما يبدو ولم يحرره لضعف الشيخوخة غالباً^(٢) .

قسم الكتابة سبعة أبواب هي : باب الوصايا ، باب السياسة ، باب الكرم ، باب الشجاعة ، باب الآداب ، باب البلاغة ، باب ألفاظ من الحكمة في معاني شتى .

ويتبدىء الباب بآيات من القرآن ، يتلوها أحاديث نبوية ، ثم أقوال حكمية يتمثل بها ، ونوادرٌ وأشعار ونحو ذلك مما أشرنا إلى مثله في كتب الأمالي والمحاضرات .

وفي هذا الكتاب أمورٌ كثيرةٌ مذكورة في كتب الأدب المعروفة ، وفيه أمورٌ أخرى وقعت للمؤلف أسامة بن منقذ ، أو حدثت في زمانه . ومنها كثير من الأحداث بين العرب المسلمين والصليبيين الأفرنج في الشام .

وفي الكتاب نتف متفرقة عن بعض وقائع حياة المؤلف ، كحديثه عن والده صاحب

(١) اعتمدنا على النسخة التي قام بتحقيقها الشيخ أحمد محمد شاكر وطبع مطبعة الخيام بمصر سنة ١٩٣٥ .

(٢) يذكر الشيخ أحمد شاكر أنه أنه وهو ابن إحدى وتسعين سنة . ص ٢٥ من المقدمة .

قلعة شيزر ، وواقع بينه وبين الفاطميين الإسماعيلية من صراع سنة ٥٢٧ هـ^(١) . ومن أن والده كان يستخدم شيخاً لتعليم ولده ومنهم أسامة ضروب العلم والأدب .

ونورد مثلاً من باب الآداب ، نعقبه ببعض رواياته مما شاهده وشارك فيه من أحداث عصره .

قال^(٢) : باب الآداب : يشتمل هذا الباب على خمسة عشر فصلاً هي : فصل في الأدب ، وفصل في كتمان السر ، وفصل في أداء الأمانة ، وفصل في التواضع وترك الكبر ، وفصل في حسن الجوار ، وفصل في حفظ اللسان ، وفصل في القناعة ، وفصل في الصبر ، وفصل في الحياء ، وفصل في ترك الرياء ، وفصل في الإصلاح بين الناس ، وفصل في التعفف عن السؤال ، وفصل في التحذير من الظلم وفصل في الإحسان وفعل الخير ، وفصل في مداراة الناس والصبر على الأذى .

فصل في الأدب

قال الله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فمن لا شريعة له لا إيمان له ، ولا توحيد . والشريعة موجبة للأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

وقال ابن عطاء رحمه الله : الأدب الوقوف مع المستحسنات ، فقليل : وما معناه ؟ قال : أن تعامل الله تعالى بالأدب سرّاً وإعلانياً ، فإذا كنت كذلك كنت أدبياً ، وإن كنت أعجمياً . وعن الحريري رحمه الله قال : منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسى للخلوة ، فإنّ حسن الأدب مع الله تعالى أولى .

وروى عن ابن سيرين رحمه الله أنه سئل : أيّ الآداب أقرب إلى الله ؟ . فقال : معرفة ربوبيته ، وعمل بضاعته ، والحمد لله على السراء ، والصبر على الضراء .

وقال رجل من قيس لرجلي من قريش : اطلب الأدب ، فإنه زيادة في العقل ، ودليل

(١) لباب الآداب ص ١٩٠ .

(٢) لباب الآداب ص ٢٢٧ .

على المروءة ، وصلة في المجلس ، ثم قال :

تعلّم فليس المرء يُخلَقُ عالمياً وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا صُنّت عليه الخافل
ولا ترض من عيش بدون ولا يكن نصيكَ إرث قدّمته الأوانل

وكان يقال : من حسن الأدب أن لا تنازع من فوقك . ولا تقول مالا تعلم ، ولا تتعاطى مالا تنال ، ولا يخالف لسانك ما في قلبك ، ولا قولك فعلك ، ولا تدع الأمر إذا أقبل ، وتطلبه إذا أدبر

.....

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناس في الأدب ، ونحن نقول : هو معرفة النفس . وقال الجنيد رحمه الله : إن صحت اخبة سقطت شروط الأدب .
وأنشدوا :

ففى انقباضٍ وحشمةٍ فإذا لقيت أهل الوفاء والكسرم
أرسلت نفسى على سجيها وقلت ما قلت غير محتشم

كتمان السر : (١)

قال الله عز وجل في سورة يوسف : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأُمِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ : يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى أَخَوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ . ﴾

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « استمعينوا على الاختصاصات بالاختيار ، فكل ذي نعمة محسود . »

(١) كتاب الآداب ص ٢٤٠

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه قال : « سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره . »

وقال بعض الأدباء : من كنتم سرُّه كان الخيار إليه ، ومن أفشى سرُّه كان الخيار عليه .

* * * *

وقال الشاعر :

كن من صديقك حاذراً فلربما خان الصديقُ فصارَ غيرَ صديق
واحذرْ صديقك - لا عدوك - إنما حركاتُ سرِّك عند كلِّ صديق

وقال آخر :

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرَّها فسرُّك عند الناسِ أفشى واضعُ

وقال آخر :

لا تفشِ سرَّك ما استطعت إلى امرئٍ يُفشي إليك سرائرَ يُستودعُ
فكما تراهُ بيسرٍ غيرك صانعاً فكذا بسرِّك لا محالة صانعُ

* * * *

فصل في أداء الأمانة : (١).

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٤

أوف بعهدكم ، وإياي فارهبون ﴿١﴾ .

.....

ومن سورة آل عمران : ﴿٢﴾ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمَّتْ عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل . ويقولونَ على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإنَّ الله يحبُّ المتقين . إنَّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكهم ولهم عذابٌ أليم . ﴿٣﴾ .

ومن حديث رسول الله عن أبي هريرة قال عليه السلام : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك . » .

وقال الحكيم : أربع يُسوِّذن العبد : الأدب ، والصدق ، وأداء الأمانة والمروءة .

وقال الآخر : من عرف بالوفاء حافظ عليه أهل المودة ، وتاقت أنفس الكرام إلى نصرته .

قال الشاعر :

وإذا امسرة أدى إليك أمانةً بعدُ عندك إليه أخفاها
فاحفظ أمانته ولا تعلم بها فكون أول واحد أنشأها

فصل في فضل التواضع : (١)

قال الله عز وجل : ﴿٤﴾ فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم واستغفرهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل

(١) باب الآداب من ٢٥١ .

على الله . إن الله يحب المتوكلين . ﴿١﴾ .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يغنى أحدٌ على أحد ، ولا يفخر أحدٌ على أحد ، وكونوا عباد الله إخواناً . »

وقالت الحكماء : التواضع أحد مصايد الشرف ، والشرف مع التواضع ، والكبر يضر ، وهو جَمِيٌّ من المبغضة ، وحرزٌ من المقت .

وقال الشاعر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قومٌ هم منك أرفع
فإن كنت لي حرزٌ وعزٌّ ومنعة فكم طاح من قومٍ هم منك أضع

وهكذا يمضى أسامة في الحديث عن بقية الأبواب

ومما رواه عن أحداث عصره ، وما جرى بين أمراء الصليبيين ومقدميهم ، وبعض أمراء العرب والمسلمين في أحداث الحملة الصليبية الأولى بعد احتلالهم لأنطاكية والرها وغيرهما من بلاد المسلمين سنة ٤٩١ هـ قال :

« إن الأفرنج — خذلهم الله — لما خرجوا في سنة تسعين وأربعمائة ، وفتحوا أنطاكية ، وقهروا أهل الشام ، تداخلهم الطمع ، وحدثهم نفوسهم بملك بغداد وبلاد الشرق ، فحشدوا وجمعوا ، وساروا يريدون البلاد ، وصاحب الموصل في ذلك الوقت « حكرمش » فجمع أمراء التركان الأرتقية ، ومن قدر عليه ، ولقيهم على الخابور فكسروهم ، وأسر من يقدمهم ، الملك بغدوين والبرنس جوسلين وسيرهم إلى قلعة جَعْبَر إلى عند الأمير شهاب الدين مالك بن سالم ، وأودعهم عنده وكان من بقى من الإفرنج إلى بلادهم ، ومقدمهم ميمون صاحب أنطاكية ، فركب في البحر وسار إلى بلاده يستنجد بالإفرنج وينشد ويرجع ، فمات قبل ذلك . ومات حكرمش صاحب الموصل ، وأقطع السلطان الموصل « جاولى سقاوى » ، فعزم على الغزاة وتوجه إلى الشام ، فوصل قنعة جعبر ، وطلب أسارى الإفرنج الذين عند صاحبها ، فقال : هم بخكم . قال : أقطع عليهم مالا يشترى به أنفسهم . فتحدث معهم شهاب الدين وقرر عليهم مائة ألف دينار ، وعرف الخاولى بذلك . فقال : انفذ لى جوسلين ، فلما حضر عنده قال : أقطعتم على أنفسكم مائة ألف دينار ؟ . قال : نعم . قال : تشئني

اهب لك عشرة آلاف دينار ؟ . قال : ما ينكر على مثلك أن يوهب عشرة آلاف دينار ، قال : أنتهى أن أوهب لك عشرين ألفاً دينار ؟ .
 قال : ما يصلح للملك مثلك أن يتلاهى بمثلى . قال : والله ماتلاهيت بك ، ولو أردت أن آخذ منك المال ما أبصرت ولا تحدثت معك . وأنا أطلقكم وأخلى لكم المال كله على أن لى حاجة تقضوها لى . قال : وماهى . قال : صاحب أنطاكية وصاحب حلب أعدائى . أريدكم تعيئونى على قتالهم . وكان صاحب أنطاكية دنكرى . وصاحب حلب : الملك رضوان . فقال جوسلين : تمضى ونجتمع — فارسنا وراجلنا ، ونصلك تقاتل معك كل من قاتلك . فأطلقهم ، فمضوا ، وحشدوا وجمعوا ، ووصلوا إلى خدمته وسار هو وهم إلى لقاء عسكر حلب وعسكر أنطاكية حتى التقوا . فحدثنى من حضر حربهم قال : كان وقع السيوف بينهم — يعنى الإفرنج ، كوقع الفؤوس فى الخطب . فكسرههم صاحب أنطاكية . فأما المسلمون فطار من سلم منهم ، وأما الإفرنج فأسر من فرسانهم جماعة كبيرة ، فجاءوا إلى عند دنكرى صاحب أنطاكية ثانى يوم أسرههم ، وقالوا له : أى شىء تريد تعمل بنا ؟ . قال : أحملكم إلى أنطاكية . أحبسكم . قالوا : والله ما فينا من يتبعك ولا ينجى معك . نحن غرأة ، ما معنا ثياب ولا نفقة ولا فرش ننام فيها ، ولا معنا غلمان يخدمونا . قال : وأى شىء تعملون ؟ . قالوا : نخلىنا نمضى إلى بيوتنا نعمل شغلنا ونجى إلى الحبس . قال : امضوا . فمضوا وأحضروا غلمانهم ونفقاتهم وفرشهم ووصلوا عنده إلى أنطاكية ، فحبسهم إلى حين تسهل خلاصهم .» (١) .

وذكر ما حدث بينهم بعض الاسماعيلية الذين حاصروا قلعة شيزر مقر آبائهم وأجدادهم للاستيلاء عليها . قال (٢) :

« كان بيننا وبين الاسماعيلية قتال فى قلعة شيزر فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة لعملة عملوها علينا ، ملكوا بها حصن شيزر وجماعتنا فى ظاهر البلد ركاب ، والشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن المنيرة رحمه الله فى دار والدى ، يعلم إخوتى رحمه الله ، فلما وقع الصباح فى الحصن تراكضنا وصعدنا فى الجبال ، والشيخ أبو عبد الله قد مضى إلى داره إلى الجامع ، وكانت داره فى الجامع فوصل عمى فخر الدين أبو

(١) كتاب الآداب ص ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

كامل شافع بن علي رحمه الله إلى تحت الجامع ، والشيخ أبو عبد الله مشرف عليه فقال له صاحب يعمى : يا شيخ أبا عبد الله دلى لنا حبلاً . قال : ماعندى حبل . قال : فدلّ عمامتك . فأبطأ عليه ، فتجاوزه وطلع من مكان آخر . فقيل للشيخ عبد الله : كنت عريان وعلى رأسك عمامة ؟! . قال : لا ، ماكان على عمامة ، ثم أفكر فقال : بلى والله ، قد قال لى وهب بن التنوخى وهو مع الأمير فخر الدين أبى كامل شافع : دلّ لنا حبلاً . قلت : ماعندى حبل . فقال : دلّ لنا عمامتك ولو لم يكن قد رأى على عمامة ماقال ذلك ! . فكان رحمه الله عريان وعليه عمامة : ولا يدرى بالحال التى هو عليها لربه وضعف قلبه . » .

وحكى عن رجل من عسقلان يقال له ابن الجلنار « كان مشغولاً بالصيد بالبواشق ، وكان مشهوراً بالقوة ، فركب وخرج من عسقلان وعلى يده باشق يتصيد به فى شجر الجميز ، فخرج عليه فارسان من العرب ، وقالا : انزل ، فنزل عن فرسه وقال لهما : لكما فى هذا الطير حاجة ؟ . قالا : لا فشذ الباشق على غصن شجرة ، ثم اختلفا على مهاميز حلى فى رجلية ، فقال لهما : أنتما اثنان يأخذ كل واحد منكما فردة مهاميز ومدّ رجلية لهما ، فجلسا يقلعان المهاميز من رجلية ، فمسك رقبة ذا ورقبة ذا ، وضرب رأسيهما بعضهما ببعض ، ولا يقدران على الخلاص من يده حتى قتلها ، وأخذ خيلهما وسلاحهما وباسقته ودخل المدينة .

وقد كان عندنا بشير رجل يقال له محمد بن البشيش كان يخدم جدى سديد الملك أبو الحسن على بن نصر بن منقذ الكنانى رحمه الله وكيلاً على صنيعة ببلد كغراطاب يقال لها « أرجة » أدركته أنا وهو شيخ كبير ، وكان أميراً شجاعاً . قال : جئت يوماً فى الحرّ إلى ركية أرجة لأشرب ، فرأيت رجلاً عليه معرقة امرأة ، وعلى كتفه كارة ثياب ، فتداخلى الطمع فيه ، فقلت : حطّ الكارة . فأظهر لى خوفاً وقال : هايد مولاي ، وحطها عن كتفه ، فتقدمت إليها لآخذها ، فمدّ يده فقبض على ركبتي ورفعنى من الأرض ، ثم ضرب لى الأرض ، وبرك على ، وأخرج من وسطه سكيناً كشعلة النار ليقتلنى ، فقلت : الصنيعة ! ، فنهض عنى وخلاى . وقال : لا تحقر الرجال . ثم فتح الكارة فأخرج منها قميصاً دفعه لى ، فقلت له : بالله من أين أقبلت ؟ . قال : من المعرة . فتحت البارحة دكان الصبغ ، فأخذت كلّ ماكان فيها . ثم

أخذ كارتته ومشى .^(١) .

وقال^(٢) : « كان عندنا بشيرٌ نَحْنُ نُحَضِّرُ الأعراسَ والجنازاتِ اسمه « سبيكة » إذا وقع القتال لبس درعاً ، وأخذ سيفه وترسه وقال : بطلّ التخنيث !! وخرج يضربُ بالسيف . » .

وقال^(٣) : « وشاهدت رجلاً من أجنادنا من الأكراد ينعت بزهر الدولة بختيار القبرصى سمي بذلك لصغر خلقته . وكان رحمه الله من خيار المسلمين في الشجاعة والدين . وقد ظهر عندنا أسدٌ فحمل عليه ، فاستقبله الأسد ، فحاص^(٤) به الحصان فرماه ، فجاءه الأسد ، فرفع رجله لقمها الأسد ، وبادرناه فقتلنا الأسد . فقلنا له : يازهر الدولة ، مامعنى رفع رجلك للأسد ؟ قال : رأيته أفسى مافى فيها الأبران والساق موزا والخف ، فقلت : إن أمسك أضلاعى كسرهما ، وإن أمسك رأسى فجشبه ، يشتغل برجلي إلى أن يفرج الله ا .
فعجبنا من حضور فكره في ذلك الوقت . » .

هذه جملة مما شاهده وسمعه من أحداث عصره رواها بلسانه ، وجاءت في طيات الكتاب . وبين أبوابه التى نقلها عن جملة من الكتب الأدبية والدواوين الشعرية وقسمها إلى تلك الأبواب السبعة .

وبعض هذه الأخبار ترد كذلك في كتابه الاعتبار .

والملاحظ في لباب الآداب كثرة ما يورده عن الحكماء من غير العرب ، وبخاصة حكماء اليونان كأرسططاليس وغيره ، وبعض شعرائهم القدامى كذلك أمثال أوميروس أو هوميروس ويغتم بها دائماً أبوابه بعد أن يبدأها بالقرآن والحديث .

(١) . نياب الآداب ص ١٩٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

(٤) حاص : جمع .

الديارات للشابشتى : (١)

ومن هذه الكتب الجامعة في الأدب إلى الكتب التي تدور حول موضوع بعينه ، وأول ما عرفنا ووصلنا من هذا العصر « الديارات » للشابشتى . وكان معاصراً للخليفة العزيز بالله ونديماً له . وألف كتابه هذا في الديارات وما جاء فيها من الشعر ، ومن أممها من الشعراء وعرف بديارات مصر والعراق وبعض البلاد الأخرى التي كثرت فيها ديارات النصارى ويبيعهم .

ومعروف أن الديارات كانت منتجعاً لبعض أصحاب الملاهي والخلعاء في الدولة الإسلامية يذهبون إليه للنزهة وشرب الخمر وقضاء وقت في القصف واللهو . وعرفت أديرة الحيرة بالعراق بكثرتها ، وكان خلعاء البصرة والكوفة يؤمنونها في أعياد النصارى كأعياد الشعانين وغيرها لتقدم إليهم الخمر ، ويعبثون مع من بها من الرهبان والشماسين .

وكانت جماعة المجان من شعراء البصرة والكوفة في أخريات القرن الثاني ، وأول القرن الثالث أمثال أبي العتاهية ، وابن منادر ، وأبي نواس ، ووالبة بن الحباب يؤمنون تلك الأديرة . وأبيات أبي نواس المشهورة في دير حنة تثبت ذلك ، يقول فيها :

يادير حنة من ذات الأكرحراح من يصح عنك فلإلى لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قسرون لها يلعبن منا بألبساب وأرواح

وكان بمصر ديارات على ما ذكرنا في منارة الفسطاط ، ومن أشهرها دير القصير ، وكان مقصداً للشعراء والخلعاء ، ويذهب إليه أحياناً بعض خلفاء الفاطميين للنزهة ، وجاء ذكره في كثير من أشعار العصر . وقد أغرم به من شعراء مصر آنذاك تميم بن المعز ، والشريف العقيلي وغيرهما .

والكتاب في جملة يجمع كثيراً من الشعر في وصف الأديرة ، وما يتصل بها من مجالس الشراب ، وما يحيط بها من منازة وحداثق ومناظر طبيعية جميلة .

وهو كتاب أدبي ممتع ، وموضوعه فريد ، يجمع كثيراً من النصوص والأخبار التي

(١) طبع الكتاب بمصر .

يعز وجودها في غيره من المصادر .

قطب السرور في أوصاف الأئبذة والظهور للريق القيرواني^(١) .

وصاحب الكتاب إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني المعروف بالنديم من أدباء العصر الفاطمي المشهورين بالقيروان ، وقد سفر إلى مصر مرتين أو ثلاثاً في عصر العزيز والحاكم . وكان كاتباً شاعراً مؤرخاً على مايفصله بعد .

وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه يدور حول موضوع الخمر وما يتصل بها . قال صاحبه في مقدمته : « وأودعته من أمثال الحكماء ، ومنتثر البلاء ، ومنظوم الشعراء ، وأخبار الأدباء والظرفاء مالا يستغنى عنه شريف ، ولا يجوز أن يخلو منه ظريف . وليس في الأمور التي وقع فيها الخطر والاطلاق شيء يختلف فيه الناس اختلافهم في الأشربة ، وما يخل منها وما يحرم على قدم الأيام ، ومع قرب العهد بالرسول عليه السلام ، وخيار الصحابة ، وكثرة العلماء الذين يؤخذ عنهم ، ويقتدى بهم .. وإن شيئاً وقع فيه الاختلاف في ذلك العصر بين أولئك الأئمة لجرى أن يشكل على من بعدهم ، وتختلف فيه آراؤهم ، ويكثر تنازعهم .

ثم يقول : « وجمعت لك فيها رأى العرب وشعرائها وشيئاً من علم الفلاسفة وحكمائها » وموضوع الخمر والأشربة عامة قد شغل جماعة المسلمين ، والفقهاء كثيراً ، وكتب الأديب الفقيه ابن قتيبة كتابه المعروف « الأشربة » في هذا الموضوع ومناقشة قضية الشراب من الناحية الفقهية من حيث الحلال والحرام .

ولم يشغل المجتمع الاسلامي أمر من الحلال والحرام كما شغله أمر الخمر وأنواعها . ورغم أن جماعة الفقهاء يحرمون الخمر بأنواعها إلا أن ذلك لم يعصم كثيراً من المسلمين عنها ، وأسرف بعض العلماء في تعاطيها ، وكثرت الأخبار حولها ، من أصحاب الأدب والشعراء ، وكثر القول في أشكالها وأنواعها ومجالسها وأدواتها وما يصحبها من لذات الطعام والخناء والموسيقى .

ولعل موضوع الخمر من أكثر موضوعات الشعر لدى كثير من شعراء العباسيين ،

(١) صبيح اختياره منه احتضره على نور الدين السعدي شقيق عبد الحفيظ منصور .
وضع مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله شمس سنة ١٩٧٦ هـ . والكتاب منه طبع قبل ذلك بدمشق

وغيرهم من الدول والامارات الاسلامية في المشرق والمغرب .

فليس غريباً إذن أن يعرض له فقيه جليل كابن قتيبة ، وأدباء وعلماء أمثال ابن الرقيق في هذا العصر ، ولعل هذا الكتاب نفسه متمم لكتاب الأديرة للشابشتي الذي كان معاصراً كذلك للرقيق النديم .

يقول المؤلف في « ذكر اسماء الخمر ونعوتها واشتقاقاتها : »

الرَّاحُ : اشتق لها اسم من الرُّوح فسموها راحاً ، وأصل الرِّاح والرُّوح والريِّح واحد ، إلا أنهم خالفوا بينها لتدل كل واحدة ، على معناها لتقارب أسمائها ، فالرُّوح روح الأجسام ، والرُّوح طيب النسيم ، لأنه ريح يخرج عن الروح ، والريِّح هي الريح الهابئة ، والرَّاح على فَعْل ، وأصله رَوْح ، فقلبت واوها ألفاً لما انفتحت وانفتح ما قبلها .

وقال أبو عمرو : سميت راحاً لأن صاحبها يرتاح إذا شربها ، وقد أخذته أريحية إذا خف إلى السَّماع وهشَّ له . وقيل لأن الشارب يستطيب ريحها . وقيل : للاستراحة من الهموم والأحزان .

راحٌ ثريحٌ من الأحزان والفكر

وقد جمع ابن الرومي صفات منها . قال :

والله لا أدري لأية علة يدعون هذي الرِّاح باسم الرُّاح
الريحها أم رَوْحها تحت الحشا أم لارتياح لدهمها المُتَاج
ثم اشتقوا الريحان من ذلك لرائحته ، وربما سموها الخمر روحاً .

قال الشاعر :

نفسى الفداء لطبي باث يُسعِدني ليلاً على قبض أرواح الأباريسي
وقال إبراهيم النطام :

مازلتُ آخذُ رُوح الزق في نطفي واستيخ دماً من غير مجروح
حتى آتنيث ولي روحان في جسد والزق مطرَح جسم بلا روح
وقالوا : الرَّاح أفضل أسمائها لمخالطتها الروح وامتزاجها بها ، وهو الذي أراد أبو نواس

يقوله :

اثن على الخمر بالآلهـا وسـمـها أحسن أسمائها

والخمر : وسميت الخمر لخالطتها العقل . وكل ما خالط شيئاً فقد خامرته .
وجاء في الحديث : « الخمر كل ما خمر العقل . » وقيل سُميت خمرأ لأنها خُسرت
في إنائها أى غُطيت . وكل غُطيت فقد خمرته . ومنه سُمي الخمار لأنه يغطى الرأس .
ومنه سُمي ذو الخمار فرس الزبير بن العوام لأنه طويل الناصية . والخمار مشتق منه لأنه
يغطى العقل . وهو — أى الخمر — اسم جامع لها ، وأدثر ماسواهُ صفات لها . وقيل
لنفضيتها الدماغ . ومن ذلك قول النبي ﷺ : « خـمـروا آتـى » . أى غطوها .

وسموها دماً لأنها تُولد الدم وتزيد فيه . وقال مسلم بن الوليد :

خَلَطْنَا دَمًا مِنْ كَرَمَةِ بَدَائِنَا فَأَظْهَرَ فِي الْأَلْوَانِ مَنَا الدَّمَ السُّدُمَ
وقال شبرمة بن الطفيل :

ويوم كظَل الرُّمَجُ قَصَرَ طَوْلُهُ دُمُ الزَّقِّ عَنَا واصطفأ الزاهر

والنفس تتصل بالدم ، فقالوا : نفست المرأة إذا حاضت ، وهى نفساء إذا ولدت
لسيلان الدم منها . وروى عن عبيد راوية الأعشى قال : قلت للأعشى أخبرني عن
قولك :

ومدامية مما تعشَى بابلَ كدم الدِّيحِ سَلْبُهَا جريالها

قال : شربتها حمراء وقلبها بيضاء ، يريد أن حمرتها صارت فيه دماً .

السُّمُولُ : وسميت السُّمُولُ ، لأنها تجمع الشمْل ، وقالوا لأنها تشمل على العقول .
وقالوا : لأنها تشملهم رُيحها أى تعمهم . وقيل : لأن لها عَصْفَةً كعصفة الشمال .
وسميت القهوة : لأن المدمن عليها تمعه الطعام ، فيقال أقهى الرجل إذا لم يشته
الطعام . وثَقِيهِ الفؤاد أى تستره .

وسميت : عَقَاراً ، لأنها تعقر مأل شاربها ، وقيل لأنها تعقر العقل . وقالوا عاقرت
الدين أى لزمته . وقالوا : عاقر فلان الشراب أى لزمه .

وسميت : القرقف : من القرقفة وهى الارتعاش . وهذا يصيب من أذنها .

وقال الشاعر :

أزْعَشْتِي الخمرُ من إدمانِها ولقد أزعِشْتُ من غيرِ كِبَرِه
وقال أبو عمرو : القرقف مأخوذٌ من القرقفة ، وهى جلسةُ المَقْرور . يريدُ أن
صاحبها يعتريه لشِدَّتْها اضطرابٌ . قال الشاعر :

قرقِفْ تترك العليلَ مريضاً وتعيِزُ الصحيحَ قسِرَ العليلِ
لأن صاحبها إذا شربها أخذتهُ قرقفةٌ ، وققفةٌ مثله ، وهى الرُعْدَةُ والبردُ .

والسلافُ : ماسألٌ منها قبل أن تعصر من غير عصرٍ باليد ، ولا دوسٍ بالرجل .
وسلافٌ كلُّ شيءٍ أوْلُهُ . ومنه قيل : سلفُ القومِ أى المتقدمُ منهم ، وسالفةُ العينِ
مقدمتها .

والخرطومُ : أول ما ينزلُ منها . وقيل سُمِّيَتْ الخرطومُ لأن صاحبها إذا شَمَّها قطَّبَ
وصرفَ وجهه ، كأنما أخذتُ بخرطومِهِ . وقال غيره : الخرطوم أول ما يسيلُ منها عند
العَصْرِ . وأُتِشِدَ محمد بن حبيب فى القول الأول :

ولقد شربت الخمرَ حَتَّى يَحِلَّها ألقى تكشُّرٌ عن طريقِ البنخسرِ
والمُدَامُ : لأنها أديمٌ فى دَنَّاها حتى سكنتُ حركتها ، وعَقَّتْ . وقيل لأن أصحابها
يديعونها .

قال البحتري :

وليسَتْ مُدَاماً إذا أنْتَ لَمْ توامِلْ مع الشيبِ إدمانها
وقال آخر :

دامتْ وَسُمِّيَتْ المَدَامُ تَكْرُماً فهى المدامةُ فى دوامِ القالمِ
الرَّحِيقُ : الصافى من كلِّ شيءٍ . وقال أبو عبيدة : الرَّحِيقُ صَفْوُ الخمرِ التى ليس فيها
غَشٌّ .

السلسيل : والسلسالُ والسلسلُ السهلُ النزولِ فى الحَلْقِ مشتقٌّ من السَّلَسِ .
وجاء فى الكتاب العزيز ﴿ كَأَسْأَ كان مزاجها سلسيلاً ﴾ . وقال الشاعر :

إن تدعها ترجُ أنحيسر ى من رحيقِ السلسيلِ

وقال البحرى :

سَقَانِي الْقَهْوَةَ السُّلَّسِلْ شَيْءَ الشَّادِنِ الْأَخْضَلِ

الكلفاء : لكلف شرايها ، ويقال كلفاء من صفة الذن . ويقال : كلفاء في لونها ،
وهى الحمرة تشتد حتى تضرب إلى السواد .

والكميت : وصفت بذلك لشدة حمرتها .

والصهباء : الحمراء إلى البياض ، وهى التى اتخذت من العنب الأبيض ، وهى التى
تُشبه الأصهب الشعر . وكذلك الكميت . وقال أبو عبيدة : كل ما كان منها يضرب
إلى البياض فهى صهباء .

والطلأ : الذى طبع حتى ذهب ثلثاه ، شية بطلاء الإبل .

والسيئة : الخمر بعينها ، يقال : سبأتها أى اتبعتها .

وسميت الجريال : لحرمتها . والجريال صبغ أحمر ، وهو مايسيل من راووق الصباغ
من العصف . قال الشاعر :

وجريال كأن اللون منها إذا أبصرته خد مُعَصَفَر

ولذلك قالوا : شراب متع ، وهذا من حروف الإتياع . يقال أحمر متع .

وسميت : ماذية : لسهولة مدخلها فى الخلق . ومنه غسل ماذى ، وهو الأبيض الحسن
اللون البراق . وذرغ ماذية أى سهلة ، لينة ، حسنة البريق . قال الشاعر :

ماذية فى الكأس ذات صقال حليفة دن أبرزث يُزال

وقال الأصمعى : الماذى الخالص من كل شئ .

وسميت المزة : ولم يريدوا الحموضة ، وقد قيل : مزة بفتح الميم من قولهم : هذا
أمر من هذا . أى أفضل وأرفع ، وله منزلة . وإنما يريدون لذعها اللسان . قال الشاعر :

فاسقيا مزة صافية لهى أشفى فى فؤادى وأسز

والعرب يسمونها الذريقة . والذريق : نافع من السم ، فجعلوها ذريقا الهوم
والفكر . كأنها عندهم شفاء . قال ابن مقبل :

سَقَتِي بِصَهَاءٍ دِرْيَاقِيَّةٍ مَتَى مَاتِلِسُنْ عِظَامِي ثَلِسُنْ

وقال ابن الرومي :

لَطُفْتُ فَكَادْتُ أَنْ تَكُونَ لَطَافَةً فِي الْجَوْ مِثْلَ شَعَائِهَا وَنَسِيمِهَا
رِيحَانَةً ، لِنَدِيمِهَا ، دِرْيَاقِيَّةً لِسَلِيمِهَا : تَشْفِي سَقَامَ سَقِيمِهَا^(١)

ونكتفي بما ذكر من أسماء الخمر بهذه الأسماء المشهورة منها ، ويعرض بعد انتهاء ذكره لاسمائها لبعض عاداتهم في شربها فيقول : « فَصِّلْ ... قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : صَفَّقَ الْخَمْرَ إِذَا حَوَّهَا مِنْ إِنَاءٍ إِلَى إِنَاءٍ . وَقَالَ غَيْرُهُ : صَفَّقَهَا مَزَجَهَا . قَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ : يَسْقُونَ مِنْ بَرْدِ الرِّبَصِ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يَحْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وَشَعَّشَعَهَا إِذَا أَرَقَّ مَزَجَهَا حَتَّى يَكُونَ لَهَا شَعَاعٌ . كَشَعَاعِ الشَّمْسِ حَتَّى يَنْخَضِبَ الْكَفُّ مِنْ تَشَعُّعِهَا . قَالَ الشَّاعِرُ :

يَطْرُقُ عَلَيْنَا بِهَا أَحْوَرُّ يَدَاهُ مِنَ الْكَأْسِ مَخْضُوبَتَانِ

وَرَجُلٌ شَعَشَاعٌ : خَفِيفٌ . وَالشَّعَشَاعُ : الْمَتَفَرِّقُ .

وَيُقَالُ مَزَجَ شَرَابَهُ وَقَطَّبَهُ . وَأَصْلُ الْقَطْبِ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالشَّرَابِ . وَمِنْهُ قِيلَ : جَاءَ النَّاسُ قَاطِبَةً ، أَيْ جَمِيعًا ، وَقَطَّبَ الرَّجُلُ أَيْ جَمَعَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ (أَوْ حَاجِبِيهِ)

قال الشاعر :

إِذَا قُطِّبَتْ بِالْمَاءِ خِلْتُ بِكَأْسِهَا أَكَارِعُ ثَمَلٍ أَوْ عُيُونِ جَرَادٍ

وإذا شربها بغير ماءٍ فقد صرفها ، وهي مصروفةٌ .

ويقال أمهى شرابه إذا أرقه ، وحميا الكأس سورئها .

وقال الفراء شذتها ، والقُمحان وهو مثل الذريرة يعلو الكأس . قال الشاعر :

عَلَا الرَّأْسَ مِنْهَا إِذَا أُبْرِزَتْ جُمَانٌ مِنَ الْقُمَحَانِ الْعِشْقِ

وَكَأْسٌ أَنْفٌ : إِذَا لَمْ يَشْرَبْ مِنْهَا أَحَدٌ . وَكَذَلِكَ رَوْضَةٌ أَنْفٌ إِذَا لَمْ يَرْعَهَا أَحَدٌ وَأَنْفٌ مُسْتَأْنَفٌ .

١ - المختار من مصب السرور ص ٢٨ - ٣٤ .

أما أوانيسا فيقال : كاس أنف إذا لم تُشرب قبل ذلك . ولا تُسمى كأسا حتى يكون فيها شراب ، وإلا فهي قدح ، وزجاجة . والرُّفْد القدح الكبير ، والعمُر القدح الصغير . والقَعْب أكبر منه قليلاً ، والكوب الكبير المقعّر . والعس الكبير الضخم والتبن أكبر منه . والصحن القصير الجدار العريض ، وهو الجام . والناطل المكيال الصغير الذي يرى فيه الحمار شربة ، وجمعه نياطل . قال أبو ذؤيب :

فلو أن ما عندى بمدة عندها من الخمر لم تُبسل لهاتى نياطل
وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هُبى بصحبيك فاصبحنا ولا تُبقى خموز الألدرينا

وأما ما قيل من أوقات الشراب : فمن ذلك الصبوح . وهو الشرب عند الصبح بعد طلوع الفجر . والليل : شرب نصف النهار . والغبوق : شرب العشي وشرب المغرب إلى العشاء يقال له التحيّة .

والجاشريّة : شرب آخر الليل وقبل الصبح . وقال رجل من الأزد :
إذا ما شربت الجاشريّة لم أخف أميراً ، وإن كان الأمير من الأزد
وقال رجل من قريش :

أشرب الراخ بالقشى وألّو نشوات الغشى بالجاشريّة
ما أبالي إذا اشتفيت من اليبس ض ، وشرب المدام ما قيل فيه

وإنما أكثرت الشعراء في الصبوح دون غيره من أوقات النهار وحثّ عليه ليسبقوا العواذيل قبل أن يغدوا عليهم ، لأن من شأن العاذل أن يغدو على من يريد عذله على ما فعل أوس ، ويعظه عن معاودة مثله . وقال القضيبي :

أفر إذا أصبحت من كل غساذل وأنبسى وقد هانت على العواذيل

يقول : أفر من العذول قبل الشرب ، فإذا شربت هانت على العواذيل .

ويقال : أعرق شرابه إذا قلل مائه .

وأنشد الأصمعي :

ونذمان يزيذ الكأس طياً سقيت وقد تغوزت النجوم
 رفعت برأسه وكشف عنه بمفرقة ملامة من يلوم
 وقيل : العرق : الكريمة القضب ، الطيبة التربة ، كالرجل الطيب الأعراق
 والحسب . والقتل : الإفراط في المزج . قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :
 إن التى ناولتني فردذتها قبلت ، قبلت ، لهاها لم تقتل
 وقالوا : أماتها إذا طبخها طبخاً كثيراً . وقال حماد بن أسحاق :
 علاني بشربة من طلاء نعمت النيم في شبا الزمهرير
 من كمين أجادها طابخوها لم تمت كل مؤيتها في القدير
 والنيم القرو ، والشبا الجدة

★ ★ ★ ★

ويقال : غمره إذا سقاه بالغمر الصغير قليلاً . والتفوق الشرب قليلاً قليلاً . ويقال :
 تمزّر ، وتمزّره إذا شربه جرعة بعد جرعة . وأنشد محمد بن حبيب :
 يكون في اللوق وفي التمزّر في فمه مثل عصير السكر
 وقيل لمشارب الرجل نديمة من الندامة ، لأن معاقرة الكأس إذا سكر تكلم بما يندم
 عليه . فقيل لمن شارب رجلاً ناداه ، لأنه فعل مثل فعله ، والمفاعلة لا تكون إلا من
 اثنين ، كما تقول ضاربه وشامه . ثم اشتق من ذلك نديم . كما يقال : جالسه فهو
 جليس . وقعيد . قال الشاعر :

ألم تعلموا أن النديمين ما صفوا وذاذ هما أو أنصفا أخوان
 وأن رضاع الكأس أوجب حزمة وحقاً علينا من رضاع لبان

وعقد بابا في « ذكر الأشربة ومنافعها ، وفضل الخمر عليها » قال :
 قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا
 ورزقًا حسنًا ﴾ وقال تبارك وتعالى وذكر أنهار الجنة فقال : ﴿ مثل الجنة التي وعد
 المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة
 للشاربين ، وأنهار من غسل مصفى ﴾ . فذكر الماء واللبن ، ولم يذكرهما بالسلامة من

التغير . ولم يذكر العسل إلا بأنه مُصْفًى وذكر الخمر فجعلها لذة للشاربين ، فكان هذا من التفضيل .

ويُروى أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة فسأله : أى الأشرية أفضل ؟ . فقال ما صفا في العين ، ولذ على الذوق ، وطاب في الأنفس ، شراب الخمر .

★ ★ ★ ★

قال اسحاق بن إبراهيم الموصلي : عيش الدنيا بعد الصحة والشباب في ثلاثة : في الطلاء والغناء والنساء قال بعض الحكماء : الخمر تمازج أخلاق النفوس على اختلاف أخلاق الناس لأنها تبسط دم القلب العزيزى في البدن ، فيكون من ذلك الفرح والنشاط . قال بشار بن برد :

أعاذل إن العسر سرف يفيق وإن يساراً في غد خليق
وما أنا إلا كالزمان إذا صحا صحوث ، وإن ماق الزمان أموق
فدري أريخ همى براج فائسى أرى الدهر فيه كربة ومضيقي

★ ★ ★ ★

وذكر بعض الفلاسفة الشراب فقال : لم أر غذاء أعم نفعاً من الاقتصاد فيه وقت الحاجة إليه ، ولا أدعى لمكارم الأخلاق ومحاسن الأحوال منه . وذلك أنه يؤلف شمل الأبعدين ، ويزرع المحبة بين المختلفين ، ويجلو الهموم عن القلوب ، ويستدر الجود من البخل ، والعطف من القاسي ، ويشجع قلب الجبان ، ويزيد الشجاع شجاعة ، ويحدث في الطبع إطراباً لا يثيرها سواه من الملاهي . وعمارة صحة البطون الذي عنه قوائمه ونظامه ، وبه كآله وقوائمه . « (١) .

١ — المختار من قطب السرور ص ٥٢ .

كتاب « المنازل والديار »^(١)

لأسامة بن منقذ (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ)

وهذا الكتاب في موضوعة جديد في هذا العصر ، وإن لم يكن جديداً في موضوعه عامة فقد سبقه إليه بعض المؤلفين من اللغويين ، لكن تناول أسامة يختلف فهو يعرض له من جوانب متعددة . والذي أثاره إلى تأليفه حادث قض مضجعه ، ونكأ جرحاً في نفسه ظلت تعاوده آلامه ، وهو فقد ذويه في زلزال دمر قلعة شيزر سكن أهله فبكاهم طويلاً ، وكان هذا الكتاب بمثابة رثاء الأهل وبكاء الديار ، كما اعتاد الشعراء الوقوف على الأطلال للبكاء وتذكر الماضين من الأحباب والأحلاء .

يقول في مقدمته :^(٢)

« الحمد لله وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدغ شملنا أيدي سباً وتشعبت بنا سبل المذاهب ، وأختت الحوادث على معشيري وآلى . وأفنى الموت أسودى وأشبالى .

كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج إلى الوجود من العدم ألقى ماسر من ذلك ومساءً بالتسليم والرضى ، وأفوض إليه — جل — وعلا — فيما قدر وقضى . وأقر بأن ابتلاءه بعذله ومعافاة بفضلته ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفارةً لذنوب سلفت ، وموعظةً دعوت عن المعاصي وصرفت ، وأن مانالنا من الدنيا وآفاتنا بذنوب اقترفناها ، فرحمنا بتعجيل مكافاتها . وصلى الله على رسوله الأمين محمد خاتم النبيين ، الذي وصفه في كتابه الكريم فقال : ﴿ وإنك لعلى خلقي عظيم ﴾ .

وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه البررة المتقين ، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين صلاة دائمة إلى يوم الدين .

١ — الكتاب نشر بالمكتب الاسلامي للطباعة والنشر ببيروت ودمشق سنة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ م .

٢ — المقدمة ص ١

وبعد ، جعلك الله بنجوة من النوائب ، وأصفى لك الحياة من كثر الشوائب ،
ولا راعك بخادئة تُنسى ما قبلها ، وتصغر ما بعدها ، وتفتح من النكبات أبواباً لا نستطيع
سدّها . فإني دعاني إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادي وأوطاني من الخراب ، فإن الزمان
جرّ عليها ذيله وصرف إلى تعفيتها حوله وحيله ، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس ،
موحشة العرصات بعد الأنس قد دثر غمرائها ، وهلك سكّانها ، فعادت مغانيها
رسوماً ، والمسرّات بها خسرّات وهموماً .

ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول أرض مسّ جلدي
ثراؤها فما عرفت داري ، ولا دور والدي وإخوتي ، ولا دور أعمامي وبني عمي ،
وأُسرتي ، فبهت متحيراً ، مستعيذاً بالله من عظيم بلائه ، وانتزاع ماحولة من نعمائه .

ثم انصرفت فلا أُنشك خيتي زِعش القيام أميس ميس الأصور^(١)

وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادر الدموع ، وتتابعت الزفارات حتى أقامت
حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكّان ،
بل كان هلاكهم أجمع كارتداد الطرف أو أسرع . ثم استمرت النكبات تترى من ذلك
الحين وهلمّ جرّاً . فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب ، وجعلته بكاءً للديار والأحباب .
وذلك لا يفيد ولا يجدي ، ولكنه مبلغ جهدي . وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت من
زمانني ، وانفرادي من أهلي وإخواني ، واغترابي عن بلادي وأوطاني :

لو كانت الأحلام فاجتبي بما ألقاه يقظان لأصمانيس الردي

وإليه عز وجل أرغب في أن يمنّ عليّ وعليهم بغفرانه ، ويعوّضنا برحمته في دا
رضوانه ، إنه لا يردّ دعاء من دعاه ، ولا يخيب رجاء من رجاه .

وقد جعلت هذا الكتاب فصلاً ، وافتتحت كلّ فصل بما يوافق حاله ، ثم أفضت
فيما يوافق القلب الخال ، لكي لا يأتى الكتاب وهو كلة عويل ونياحة ، ليس فيه لسوى
ذى البث راحة .

على أن رزايا الدنيا كالأجل تمهل ولا تُهمل ، وإن تولّت اليوم فغدا تقبل ، فما أحد
من ربهن سليم .

١ - الأصور : المنازل والصور النيل .

وتتبع هذا المعنى صعبٌ . وحصره لا يمكن . وقد أوردت فيه مايردُّ اللوعة ، ويسكنُ الرُّوعة ، والعذر إلى من وقف عليه مبذول ، وهو عند الكرام مقبول . » .

ثم يعدد فصول الكتاب وهي ستة عشر فصلاً :

في ذكر المنازل ، وذكر الديار ، وذكر المغاني ، وذكر الأطلال ، وذكر الربع ، وذكر الدمن ، وذكر الرسم ، وذكر الآثار ، وذكر المساكن والمحال والمعاهد والأعلام والمعالم والعرصات ، وفي ذكر الأرض ، وذكر الأوطان ، وذكر المدن ، وذكر البلاد ، وذكر الدار ، وذكر البيت وفي بكاء الأهل والخلان .

ويبدأ بعنوان الفصل ويسوق بعض الأمثلة من شعر القدماء والمحدثين إلى عصره أو قبل عصره . وأول فصوله « في ذكر المنازل » يقول :

« عن ابن مريم قال : مررت بسويقة عبد الوهاب ^(١) وقد خربت ، وعلى حائط منها مكتوب :

هذى منازل أقوام عهدتهم
في خفض عيش وعز ماله خطرُ
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا
إلى القبور فلا عين ولا خبرُ

وقال الأسود بن يعفر :

ماذا أرجى بعد آل مُخَرِّقٍ
درست منازلهم وبعد إبادٍ
أهل الخورنق والسدير وبارقٍ
والقصر ذى الشرفات من مبدادٍ
جرت الرياح على محل ديارهم
فكأنما كانوا على ميعادٍ
فاذا النعيم وكل مايلهي به
يوماً يصير إلى بلى ونفادٍ
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشةٍ
في ظل ملك ثابت الأوتادِ

ويذكر شعراً لبشر بن أبي خازم ، وابن أبي طاهر ، وعبد الله بن الزبيري ، والبحري وأبي تمام ، وأبي نواس ، وغيرهم .

ويفسر أحياناً ما يحتاج إلى تفسير من اسم مكان ، أو غريب لفظ ، وقد يعرف بالشاعر إذا لم يكن مشهوراً ، وقد يورد في السياق خيراً يتصل بالموضوع كأن يقول في هذا الفصل الأول :

١ — وهي محلة قديمة عرفت بمعداد .

« عن زنام الزامر قال : لما اشتد بالمعتصم المرض الذى مات فيه أفاق فى بعض الأيام فقال : هيتوا لى الزلال لأركب فيه فى دجلة غداً ، فعملوه ، فركبه ، وركبته معه ، فمرّ فى دجلة بازاء منزله ، فقال يازنام أزمُر لى :

يامنزلاً لم تبل أطلالـه حاشى لأطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكـنى بكىث عيشى فيك إذ ولـى
والعيش أولى ما بكاه الفتى لأبـد للمحزون أن ينـلى
قد كان لى فيك هوى مرة غيره الدهر وما ملأ
فما زال ينتحب حتى عاد إلى منزله .

مات المعتصم رحمه الله لثانى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين . وحدثنى من أثق به أنه لما وقع بمصر الغلاء العظيم فى أيام المستنصر بالله ، واستولت كثامة والجنـد على الدولة ، واستنفدوا ما فى الخزائن من الأموال ، وتضعضت الدولة أمر المستنصر باحضار ابن الجوهري الواعظ ، فحضر ونصب له كرسي ، فلما صعد على الكرسي تلفت يمينا وشمالاً إلى نواحي القصر ، ثم أنشد :

يامنزلاً لم تبل أطلالـه حاشا لأطلالك أن تبلى
الأيـاث .

فارتفع البكاء والضجيج فى القصر ، ومازاد على ذلك ، يُستعأذ منه ويكرره حتى انقضى المجلس .» (١) .

ويقول : « أنشدنى الخطيب العالم قدوة الشريعة أبو زكريا يحيى بن سلامة الحصكفى رحمه الله عند اجتماعى به بميفارقين فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة لبعض أهل المعرة ، وقد اجتاز بقرية من أعمال المعرة يقال لها سيث وفيها علوج من الإفرنج يهدمون من جدرانها الحجارة ويكسرونها بالمعاول ليخف عليهم حملها ، فوقف كالتأسف وقال :

مررت بربع من سيث فهاجني بها زجل الأحجار تحت المعاول
تصدى لها عبل الدراع كأنـيا جنى الدهر فيما بينهم حرب وإبل

١ - انوار الديار ص ٢٢ .

فقلت له شئت يمينك خيلها لمستخير أو واقف أو مسائل
منازل قوم حدثنا حديثهم ولم أر أخل من حديث المنازل (١)

ويقول : (٢)

« وقال الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى
ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
رضوان الله عليهم :

أعلى العهد منزل بالجناب كان فيه متى أردت طلابي
المغالي ، تلك المغالي فهل فيه من مآقد عهدت من إطرابي
ليست الدار بعد أن فوحش اندأ رُثرى غير جندل وثراب
وإذا لم يُعبد حننى على هذا ز حياء فليس يُعنى التحابى

وقال الشريف نظام الملك أبو الحسن علي الفاطمي أحد شعراء الدولة بمصر إذ أنا
بها ، ويعرف بالأخفش :

أحبائنا لم تَذُق عِنايَ مُذْ بَعْدَتْ عني منازلكم غمضاً ولا وسنا
ولا وَجَدَتْ لِقايَ من يُـرُ به ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنا

ويذكر جملة من الشعر في الموضوع يعقبه بقوله : « وقال آخر :

تطوى المنازل عن حبيك دأبها وتظلُّ تبكيه بدمع ساجم
ألا أقمت ولو على حجر القضا قُلبت أو حذ الحسام الصارم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

قلت : لى على من تقدم ذكره من الشعراء أفضل المزية ، إذ كنت دونهم صاحب
الريّة ، فكان شعري أولى أن يقدم على أشعارهم ، وإن قصرت لى البلاغة عن اقتفاء
آثارهم ، لكن للمتقدم السبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق . وإن كنت وهم كما قال ذر
لأبيه : يأبئة مالك اذا تكلمت أبكىت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم ييكيهم ؟ . قال :
يابنى ليس النائحة المستأجرة كالثكل .

١ — المنازل والديار ص ٢٥ — ٢٦ .

٢ — المصدر نفسه ص ٤٣

وأنا ذاكرٌ شيئاً من شعر أحي رحمه الله وشعري مما يدخلُ في هذا الفصل .

قال أخى عز الدولة أبو الحسن على بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه :

يامنزلاً لعبَ اليلَى برسومه شفعاً بيهجته فليس يَريـمُ
لا تبعدنَ وجاذ ربك وابـل يُروى ثراك أثيه ويُسيمُ^(١)
فاسقي الرُبوعَ من الدموع سجاها إن الرُسومَ لها عليك رُسومُ^(٢)

★ ★ ★ ★

وقلتُ : كان رحمه الله تأخر عنا ، وخرجتُ أنا وأخواتى إلى دمشق ثم إلى مصر ، فكان يتأسف لبعدنا عند خلو منازلنا منا .

وهذا شيءٌ من شعري في هذا المعنى بعد ما أصابنا من الزلازل ما أصابنا . قلت
إلى الله أشكو روعتى لمنازل خلت وجوى قلبى لأهل المنازل
سيوفى إذا ما لازلتنى ملئمة حصونى إذا خفت الردى ومعاقلى
مضوا سلفاً قبل فلم أحظ بعدهم من العيش والعمر الطويل بطائل^(٣)
ويذكر أياتاً أخرى له^(٤) .

ويمضى في ذكر فصول أخرى في بكاء المنازل حتى يقول^(٥) :

« وقال القاضى أبو الفتح محمد بن اسماعيل بن قادوس منشىء ديوان الرسائل
بصر من ابتداء قصيدة :

هذى منازل من هويث ليمم وارنغ وسخ بربعها ديم الدّم
عجنا فمن صبّ بصب دموعه درت ومن متعمل متعلم
ويعقد فصل الديار^(٦) يقول فيه :

١ - ليس يريم : ليس يرح والوايل المظر الشديد . والأثى : السيل .

٢ - الرسوم مالمق بالأرض من آثار الديار . ورسوم : أوامر .

٣ - ص ٥٤ .

٤ - انصدر نفسه من ص ٥٤ - ٥٨ .

٥ - انصدر ص ٩٦ .

٦ - ص ١٠٥ .

« قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ .

قال، الخليل : كل موضع حله قوم فهو دار ، وإن لم تكن فيه أبنية ، وسُميت داراً لدورها على سكانها ، كما سُمي الحائط حائطاً لاحتاطه على ما يحويه .

قال القاضي الماوردي رحمه الله : إن قيل هل يسفك أحد دمه ويخرج نفسه من دياره ؟ ، ففيه قولان أحدهما : معناه لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرج من دياره . والثاني أنه القصاص الذي يقتص منهم بمن قتلوه ، فصاروا قاتلين لأنفسهم بالقصاص . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل : أحدها لا يخرج بعضكم بعضاً . والثاني : لا تسيروا جوار من جاوركم فتلجؤوهم إلى الخروج عن دياركم والثالث لا تفعلون ما تخرجون به من الجنة التي هي داركم . » .

« وقال القاضي المذهب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير أحد شعراء مصر : ^(١)

لکم خیال فی الجفونِ مثلُ	أبدأ وذكّر بالفؤاد موکّل
وإلى دياركم نحن صابئة	ونقض أوعية العيون ونرسيل
تلك المنازل مآثر سحابة	تحمي بها إلا وعين تهيّل
ما ضرّها إذ ينزلون ربوعها	أن لا يرى فيها لعلوة منزل

وقال السبسي ^(٢) :

وإني كلما زاد التياحي	إليك وأضرّم القلب الخفوق
أمر على دياركم وإلى	لن أمتى بها صب مشرق
وأومى بالتحية من بعيد	كما يومى بإصبعه الغريق

وقال الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين :

أى دمع جرى ونحن بنجرا ن لنا والديار ثم رسوم

١ — المنازل والديار ص ١٣٠ .

٢ — والسبسي : محمد - بن خليفة بن حسين . أبو عبد الله الهيمى السبسي الأيمارى (ت ٥١٥ هـ) شاعر قائل ... أقام بالحلّة عند صدقة بن مزيد ، فكان شاعره ، وشاعر ابنه ديس بن صدقة .

دمن لو رنت هن عينا ك قيل الفراق قلت نجوم
ومعان من النحول كأروا ج ، ولكن ليست هن جسم
ما سررنا إلا بهن ، وفيه ن قصاراً سقت إلينا الهوم

وقال أيضا :

قد مررنا على الديار تبدل ن دثوراً بجدة ومحولاً
نكرتها العيون منا فما تمر ف إلا رسومها والطلولاً

وقال : « كتب إلى الملك الصالح ، ناضر الأبهة ، كاشف الثمة ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غياث الأيام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، أبو الغارات طلائع بن رزيك فتى أمير المؤمنين عزيز مصر رحمه الله قصيدة من نظمه يعزيني عن أهلي الذين هلكوا في الزلازل رحمه الله منها :

هف نفسي على ديار من السكا ن أقوٲ ، فليس فيها غريب
ولكنم خلها فأنسته أوطا ن صباه ، والأهل يوماً غريب
فاحسب ما أصاب قومك مجد الدين واصبر فالحادثاٲ ضرورٲ
هكذا الدهر حكمه الجور والع لدل فيه المكروة والمجبورٲ
إن تخصنكم نواب مازا لث لكم دون من سواكم تسورٲ
فكذلك القناة يكسر يوم الر وع منها صدر وتبقى كمورٲ

وقال أبو محمد القاسم بن علي الحريري العالم ^(١)

عرج لك الخير صدور الركاب على ربا كن مغاني الرباب
وقف بها وقفة مستعير يسح لها الدمع سح الرباب
فستة العشاق أن يقولوا في منزل الحب إذا الحب غاب
ياحبذا تلك الربي من ربي ظاؤها أهلك من ليث غاب

وقال الشيخ أبو العلاء بن سليمان المعري :

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال وفي الثوم مغنى من خيالك مجلال
مغانيك شتى والعبارة واحد فطرقك مغتال وزندك مغتال

متى سألت بغداد عني وأهلها فلاي عن أهل العواصم سال
إذا جن ليلى جن لي وزائدا حفروق فؤادى كلما تحقّق الآل
وماء بلادى كان أنجع مثرها ولو أن ماء الكرخ صباء جزال

وقال القاضي المهذب أبو محمد حسن بن علي بن الزبير رحمه الله (١):

ربح الفؤاد خلال تلك الأزع فكأنها أولى به من أضلبي
وأقام فيه فالجوانح بلقغ منه وما اليد القصار يلقع
وأرى الصبائمرى السحاب وإنما تمرى صبايته سحاب الأذمع

وقال أبو العلاء بن سليمان المصرى :

أمر بربع كنت فيه كالمسا أمر من الإجلال بالحجر والرأس
وإجلال مغانك اجتهد مقصّر إذا التصل أودى فالعفاء على الجفن

وذكر في باب ذكر الرسم شعراً لبعض معاصريه كذلك ، ومنهم ابن الخطاط
الدمشقى قال : وقال ابن الخطاط أبو عبد الله (٢):

هو الرسم لو أغنى الوقوف على الرسم هو الحزم لو لا بعد عهدك بالحزم
عشية جن القلب فيها جنولة ونازعنى شوق منازعة الخصم
فلما أبى إلا البكاء على الأسى بكيت لما أبقيت للرسم من رسم
لقد وجدت وجدى الديار بأهلها ولو لم تجد وجدى لما سقيت سقي

وفي « ذكر الآثار » (٣) قال :

قال تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ قيل نحييهم
بالإيمان بعد الكفر ، وقيل بالبعث . ونكتب ما قدموا ماعملوا من خير أو شر .
وآثارهم : مآثرهم من سنة حسنة وسيرة يعمل بها بعدهم . وقيل آثارهم : خطاهم إلى
المساجد .

وروى سفيان عن أبي سفيان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رحمه الله قال :

١ - المنازل ص ٢٦٣ .

٢ - المصدر نفسه ص ٣١٤ .

٣ - المنازل ١ ص ٣٣٢ .

كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت :
﴿ إنا نحن نحیی الموق ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ . فقال لهم النبي ﷺ : إن آثاركم
تكتب ، فلم ينتقلوا .

★ ★ ★ ★

وكتب أرسططاليس إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قال له فيه :
إعلم أن الأيام تأتي على كل شيء ، فتحلّق الأفعال وتحو الآثار ، وتميّث الذكر إلا
مارسح في القلوب بحجة تتوارثها الأعقاب ، فاجهد أن تغفر بالذكر الذي لا يموت ،
بأن تُودع الناس حبة يبقى بها ذكر مناقبك .

وقال أبو العلاء بن سليمان :

اتبع طريقا للهدى لاجباً وعمل آثاراً بملحوب
أف لدينای فإني بهما لم أخل من همّ وتعذيب
قلت لها امض غير مصحوبة فقالت اذهب غير مصحوب

وفي فصل « ذكر الأوطان » جاء بآيات للقاضي المذهب بن الزبير . قال (١) :

« كتب إلي القاضي المذهب أبو محمد حسن بن علي بن الزبير قصيدة أنفلها من
أسوان وأنا بمصر .

منها :

أحبابنا مالي إذا ما ذكرتكم وإن شام برق الشام وشرث
وما أنا ناس غال صبرى غول على البغد عنه للظلام ذيول
تدارك قلبي أن يطير صابئة بنان كأنبوب ليراع نحول
ولحيل لي أن السيوف لجوّه سبلن ، وأنى بينهن قيلول
لئن أقفرت منا الديار ومنكم وأمت مغانيهن وهي طللول
فإن لنا في آل منقذ أسوة يهون لديها الخطب وهو جليل
نبث بهم أوطالهم فخرخلوا وللمجد في ذاك الرحيل رحيل

وقال في ذكر المساكن ^(١) وما يتصل بدخولها واستئذان أهلها : ^(٢)

وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ... ﴾ الآية ^(٣) .

روى عن عدى بن ثابت قال : جاءت امرأة من الأنصار ، فقالت : يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل عليّ وإنه لا يزال يدخل رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ .
فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن . فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ الآية ^(٤)

وفي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ ثلاثة أوجه : قيل حتى تستأذنوا ، وقيل حتى تؤنسوا أهل البيت بالتحنن ، فيعلموا بالدخول عليهم . وقيل : حتى تستأنسوا أى تعلموا هل فيها أحد تستأذنوا فتسلموا عليه ؟ . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ أى علمتم .
والإذن يكون بالقول والإشارة . عن أبى هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : رسول الرجل إذنه ، فإن استأذن ثلاثاً ، فلم يؤذن له ولئى ولم يُراجع .

روى عن أبى سعيد الخدرى عن الأشعرى أنه استأذن على عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ثلاثاً فلم يؤذن له ، فرجع ، فأرسل إليه عمر فقال : ماردك ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : من استأذن ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع : فقال عمر رضوان الله عليه : لتجيئنني بينة وإلا جعلتك نكالا . فأتى أبو سعيد رحمه الله ، فشهد له .

قال الحسن رحمه الله الأولى إذن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزيمة إن شأوا أذنبوا وإن شأوا ردوا .

١ — المنازل ١٥/٢ .

٢ — المصنر ٢٠٤/٢ .

٣ — سورة النور ٢٧ .

٤ — سورة البور ٢٩ .

ولا يستأذن وهو مستقبل الباب إن كان الباب مفتوحاً . وإذا أذن لأول القوم فقد أذن لآخرهم ، ولا يقعد على الباب بعد الرد ، فإن للناس حاجات .

ثم قال تعالى : ﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ والسلام ندب ، والاستئذان تحتم .

وفي السلام قولان : أحدهما مسنون بعد الإذن على ماتضمنته الآية من تقديم الإذن عليه ولأن السلام من تحيات اللقاء ، واللقاء يكون بعد الإذن . والثاني أنه مسنون قبل الإذن وأنه إن تأخر في التلاوة فهو مقدم في الحكم . وتقدير الكلام : حتى تسلموا وتستأذنوا ، لما روى ربیع بن حراشي رحمه الله أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ : أَدْخُلْ ؟ فقال النبي ﷺ لرجل عنده : قم فعلمه كيف يستأذن ، إنه لم يُحْسِن . فسمعه الرجل فسلم واستأذن . وقد قيل : إن وقعت العين على العين قبل الاستئذان فالأولى تقديم السلام على الاستئذان ، وإن لم تقع العين على العين قبل الإذن فالأولى تقديم الاستئذان على السلام .

فأما الاستئذان على منازل الأهل ، فإن كانوا غير ذوى محرم لزم الاستئذان عليهم كالأجانب وإن كانوا ذوى محارم وكان المنزل مشتركاً هو فيه وهم ساكنون لزمه قبل دخوله إنذارهم إما بوطء أو بنحنة مفهومة ، إلا الزوجة ، فلا يلزم ذلك في حقها لارتفاع العورة بينهما . وإن لم يكن المنزل مشتركاً ، ففي الاستئذان عليهم وجهان ، أحدهما النحنة أو الحركة والثاني بالقول كالأجانب .

وقد روى عطاء بن يسار رحمه الله أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أستاذن على أمي ؟ قال : نعم . قال : فإن أخذتها . قال : استأذن عليها . فعلاوده ثلاثاً . فقال ﷺ : أئخب أن تراها غريانة ؟ . قال : لا . قال : فاستأذن عليها .

* * * *

ولا يجوز أن يتطلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذنه إذا كان الباب مغلقاً ، يقول النبي ﷺ : إنما جعل الاستئذان لأجل البصر . إلا أن يكون الباب مفتوحاً ، فيجوز أن ينظر إذا كان خارجاً منه ، لأن صاحبه بالفتح قد أباح النظر . « .

وبعد فهذا الكتاب الجامع في موضوع المنازل والديار ، وإن بدأ بالحديث عن الديار المهجورة والأطلال الخربة تأسيساً بما حدث لأهله ، وتذكيراً لمعاهده وأيام شبابه وعيشه

بين أهله وأحبابه إلا أنه تطرق لجوانب كثيرة من الحديث عن المنازل وأورد نصوصاً من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الأدباء والشعراء والحكماء . وقد حظى الشعر منه بالقدر الوافر حتى ليكاد أن يكون الكتاب مختاراً لأقوال الشعراء في المنازل والديار ، وما يتصل بها .

ويدل ما جمعه من الشعر القديم والمحدث والمعاصر له أو السابق عليه بقليل أن زاده في هذا زادٌ عظيم وافرٌ ، ولا شك أنه مدّ ملكته الشعرية والكتابية بمدد جَمَّ تجلّى في عبارته ، ومعانيه الشعرية .

والكتاب مادة غنية للشعر ، ومورد يرتاده الباحثون في الأدب والراغبون في ارتياد رياضه ، وهو مورد لكثير من آداب عصره ، وشعرائه ، ونصوص قد لا تيسر بسهولة في غيره . وبه معارف عن العصر تلقى أضواء على رجاله وأحداثه . وعلى حياته وعلاقاته .

وقد عرف بعض رجال عصره الفاطمي الذي ولد فيه ونشأ وشارك في أحداثه يافعاً وكهلاً ، وقرأ لمفكرية وأدبائه ، ونقل عنهم . قرأ للمعري وابن سنان ، والوزير المغربي والرشيد بن الزبير والمهذب بن الزبير ، ونقل عن التهامي وغيرهم كثيرين من شعراء مصر والشام كابن حيوس وابن الخياط وشعراء افريقيا ، والأندلس وعلمائها ..

فهو كاشف عن ثقافة الرجل واهتماماته الأدبية ، مبيّن لمدى اتصال الثقافة العربية الإسلامية وتواصلها ، لا تمتنع بعد الأقاليم ، ولا موانع الحياة من حروب وانقساعات من هذا التواصل ، والتكامل حتى وكأنها جميعاً نهر واحد تصب فيه روافده شرقاً وغرباً .

مؤلفات الكتابة والإنشاء

مواد البيان لعل بن خلف

وهذا النوع من المؤلفات وإن لم يكن أديباً صرفاً ، إلا أنه يمت إلى الأدب بنسب ، وبخاصة إلى الكتابة الإنشائية وديوان الرسائل ، ذلك أنها مؤلفات وضعت لجماعات الكتاب في الدولة الإسلامية ، وقد ظهرت هذه المؤلفات منذ القرن الثالث الهجري كما عرفناها في كتب ابن قتيبة ، وبعده عند قدامة ، وأبى هلال العسكري في القرن الرابع كما سبق إليها من أسدى النصيح للكتاب في صورة رسائل مختصرة كعبد الحميد الكاتب ، وبشر ابن المعتمر .

ومن أشهر كتاب هذا اللون في مصر في هذا العصر على بن خلف صاحب مواد البيان . وهو كاتب من كتاب الدولة الفاطمية ووزير في عصر المستنصر ، وفد إليها من بغداد ، وكان مع والده من كتاب البويهيين .

ويبدو أن على بن خلف وكان يلقب بفخر الملك أبى غالب كان يتولى الوزارة والكتابة لبهاء الدولة بن بويه ، فلما مات وتولى ابنه سلطان الدولة عزل فخر الملك وغضب عليه ، واعتزم قتله فهرب هو وابنه أبو شجاع إلى مصر حيث كانت الخلافة للظاهر بن الحاكم ، أو للحاكم قبل وفاته ، وبقي الأب وابنه ولقيا من الترحيب بمصر كغيرهما ممن يفد إليها حتى بلغا مكانة في الدولة ، وتولى الابن في خلافة المستنصر سنة ٤٥٧ الوزارة وظل بها حتى غضب عليه المستنصر أو بعض رجاله في وقت الفوضى والشدة وحدث الانقلاب الذي دعا المستنصر إلى استدعاء بدر الجمالي من الشام لوضع حد لتلك الفوضى في القاهرة . وكان أبو شجاع محمد بن على بن خلف قد هرب سنة ٤٦٦ إلى الشام بطريق البحر فلقية أمير الجيوش بدر الجمالي وهو في طريقه إلى مصر فقبض عليه وقتله .

ويُلف الغموضُ حياة الرجلين الأب والابن كما تضطرب المصادر في تحديد اسميهما بل وتخلط أحياناً بين اسميهما ولقبيهما ووظيفة كل منهما في مصر بعد مغادرتهما بغداد سنة ٤٠٦ . ولعل احتمالاً آخر يرد على الذهن يقول بان الذي تولى الوزارة أبو شجاع حفيد لعل بن خلف والغموض يشمل مؤلف الكتاب كذلك أهو على بن خلف وزير البويهيين

أم ابنه وقد نص صاحب مواد البيان على وجوده بمصر سنة ٤٣٧ هـ وهو يؤلف كتابه هذا ، فهل كان على بن خلف من العمر والقدرة بحيث يمكنه من تأليف الكتاب ونفترض أن عمره آنذاك لا يقل عن ثمانين عاماً . لأنه خرج من بغداد سنة ٤٠٦ و كان وزيراً خطيراً لبهاء الدولة الذي تولى سنة ٤٠٣ ، ولا يعقل أن تقل سنه آنذاك عن أربعين عاماً أو ما حولها .

وليس بعيداً مع ذلك أن يؤلف الكتاب وهو ابن الثمانين أو ما بعد السبعين . وكان قد بلغ في دولة الفاطميين مكانة مرموقة جعلت القلقشندى يعتبره من كبار رجال دولتهم^(١) .

والكتاب يتقسم إلى مقدمة وعشرة أبواب

ويبدأ الحديث في المقدمة عن سبق القدماء إلى المعاني ، فاحتازوها : « ولولا سبق الأولين إلى ما اخترعوه ، ووجودهم بتقدم الزمان إلى افتراع ما اخترعوه حتى لا يُلقَى مهملًا ، ولا ملقى مرسلًا لأمكن أن يقع المحدثون على ما وقعوا عليه ، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه ، إذ المعاني قائمة في نفوس المميزين . وليس المتقدم أحق بالولاء عليها من المتأخر ، ولذلك تواردت فيها الخواطر ، وتعاورت عليها توافي الخواطر .

ولما كان كثيرٌ من مستنبطي الصناعات يعجزون لاستفراغهم قُوى قوائهم في إقامة صور ما استنبطوه ، وإخراجه من القوة إلى الفعل ، من الباسه برود التتميم ، وتحليته بعقود التنظيم . خصنا الله بالفضيلة في استدراك ما أغفلوه ، وتحلية ما أغمضوه وأقدرنا بما حملوه عنا من معونة الابتداء وألقوه على قرائحنا من فضل الاتباع على تفصيل ما أجملوه ، وتلخيص مأسهوبه ، فلهم حق التشكيل والترتيب ، ولنا حق التكميل والترتيب . »

ثم يقول :

« .. لما كانت الصناعة الكتابية ، والفضيلة البراعية من أنبل الصنائع خطراً ، وأحسنها على أهلها أثراً ، لاشتراك الخاصة والعامة في استعمالها ، وأخذ كل منهم بما تقتضيه حاجته ومنزلته منها أكثر الناس من وضع الكتب فيها ، وصار المعنى بالتصنيف فيها إنما يقتدى على مثل السالف ، مُغيّراً على معانيه ، مفسراً لألفاظه ومبانيه ، إلا أننا لما طالعنا الكتب الموضوعة فيها وجدنا أكثرها معدولاً به عن الطريق القاصد إليها ، لأن من الواضعين من اختصر وقصر ، ومنهم من أسهب ونثر . ومنهم من شغل كتابه بأجزاء من العلوم القائمة

(١) صح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٢

بأنفسها الموجودة في مظائنها ، لما للصناعة من الشركة فيها ، واصل بما هو من نفسها ، وهو أحق بها .

ومنهم من اقتصر على إبداع كتابه رسوماً لا تستعمل إلا في دولة بذاتها وبلاد بعينها ، فلا ينتفع بكتابه في غيرها . ومنهم من نصّ على طريقة قد صار عرفها دائراً ، وأثرها عافياً ، لوقوع الاصطلاح على هجرها والغائها ، والاستبدال منها ما هو أليق بالزمان والمكان وأهلها . ومنهم من استوفى الفن الذي جدّ فيه وتدرّب به ، وقصّر في غيره من الفنون الأخرى وهي أجزاء الصناعة وأقسامها ،

فأرأينا لذلك وبالله التوفيق أن نُصنّف كتابنا جامعاً لأصولها وفروعها ، ورسومها المستعملة ، وأوضاعها ، وأقسام البلاغة وأنواعها ، ليكون علماً يهتدى بناره ، ودليلاً يُسعى على آثاره . وحاكماً يتحاكم إليه ، ومحكماً يعرض من اعتزى إلى هذه الصناعة عليه .

وأشرنا إلى مالا بد للكاتب الكامل من معرفته من العلوم الأخرى التي هي وإن كانت من أجزائها ، فإنها تؤخذ من معادنها ، وتوجد في أماكنها ، لأن المتفردين لها قد فرغوا منها ، واستوفوا القول عليها ، فإن مرّ في الكلام شيء من نصوصها ، فإنما أتينا به تنبيهاً على القدر الكافي منها ، وإشارة إلى موقع الحاجة في الصناعة إليه .

ونعتنا هذا الكتاب بـ « مواد البيان » لوقوع هذا النعت منه موقع الحقيقة .

والله نسأل عوناً يفرّغه ، وتوفيقاً يُسبّغه ، وهو مانٌّ بهما بفضله . وهو عشرة أبواب .

الباب الأول : في حدّ صناعة الكتابة وفضلها ومنفعتيها ، وقسمتها ، ورسم الكتاب وعلة وضعه .

الباب الثاني : في البلاغة وأقسامها الأصلية

الباب الثالث : في أقسام البلاغة الفرعية .

الباب الرابع : في صناعة البديع وأبوابها .

الباب الخامس : فيما يخرجُ الكلام عن أحكام البلاغة .

الباب السادس : في أن الطبع هو قوام الصناعة ونظامها .

واحتذاء مذاهب السابقين بكما لها وتمايها .

الباب السابع : في أوضاع الخط وقوانينه ، وترتيب الصدور والأدعية ، والعنوانات والتاريخ والختم .

- الباب الثامن : في رسوم المكاتبات .
 الباب التاسع : في آداب الصناعة .
 الباب العاشر : في آداب السياسة .

ونحن قائلون في كل باب من هذه الأبواب ما يبلغ إلى قاصية الاقناع والإحسان . والله
 الموفق للسداد والصواب بمتنه ويؤمّنه .
 ويحدّد صناعة الكتابة أو يعرفها بقوله :

« أما حدّد صناعة الكتابة ، فإنها صناعة ترسم صوراً دالة على الألفاظ دلالة الألفاظ
 على الأوهام . وهذا الحدّد وإن كان ظاهراً لفظه يدلّ على أن جملة الصناعة إنما هو رسم
 الصور الخطيّة ، فإنه إذا تُدبّر وجد مشتملاً على حواشها ، محيطاً بكل ما يقع فيها لأن
 الخط نوبّ اللفظ وقسيمه ، بل هو في الحقيقة ، لأنه لا سبيل إلى رسم صورته الموضوعه
 للدلالة على الألفاظ إلا بعد توسّط اللفظ بينها وبين الأوهام القائمة في النفس ، حتى إن من
 يكتب وهو صامت لا بد وأن يكون مشكّلاً للفظ في نفسه قبل أن تنقله يده خطأ إلى
 نظريه ، وكذلك الناظر في الكتاب من غير جهر لا بدّ له من حكاية اللفظ بضميره ليكون
 ذلك سبيلاً إلى تمييز معناه وتحصيله ، ولو اقتنع بالنظر دون تشكيل اللفظ لتعذّر عليه إدراك
 غرضه ، وكان كالحائر في طريق ، ولذلك قال المنطقيّ : إن التّطّلق نطقان ، نطق داخّل ،
 وهو صور المعاني القائمة في النفس ، ونطق خارج وهو الألفاظ المعبرة عن تلك الصور .

فأطلق على صور المعاني اسم التّطّلق ، ولا نطق فيها يقرع السّمع .

وإذا انتظم الخط ما ينتظمه اللفظ ، وانتظم اللفظ ما تنتظمه الأوهام ، فقد اشتمل
 الرسم على كل ما تحيط به دائرة الصناعة ، ولم يخرج عنه شيء مما هو لها .

القول على الفضيلة :

أما الكلام على فضيلة هذه الصناعة الظاهرة الشرف والجلالة ، الحائزة للسيادة والنبالة ،
 وذلك لاختصاصها بالقوة الإنسانية ، وعودها بتأثير الفضيلة التمييزية من قسمها العلمي
 والعمل ، لأننا إنما نتميّز فاضل الصنائع من مفضلها بتأمل أقوالها مما كان مختصاً بهذه القوة
 كصناعة الطب والنجوم ، فهو الفاضل . وما كان مختصاً بالحس كالبناء والتجارة وما
 شابههما فهو المفضول .

وصناعة الكتابة مخصصة بالقوة المميزة من قسميها العلمى والعملى .

أما العلمى فهو البيان عما يخرج من الكاتب من الصور القائمة فى ضميره بالقوة إلى الفعل بالألفاظ البليغة والحساب الذى يبرزه من وهمه إلى الخط . والبيان والحساب مختصان بالقوة المميزة التى بها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان ، لأنه إنما اغاز عنها وانفصل منها بالنطق . وكما أن بالتمييز وقع الفصل بين الإنسان وأنواع جنسه ، فكذلك يجب أن تفصل به فى النضيلة والنقيصة بين أشخاص نوعه ، فمن علت طبقة فى البلاغة والإبانة حكم له بالفضيلة ومن انخفضت درجته فيها حكم عليه بالنقيصة ، لأن أثر القوة المميزة فى البليغ اللسين ، أظهر منها فى المقنم اللكن . والطريق إلى اعتبار ذلك أن نتأمل ألفاظ الإنسان التى يخرج بها المعانى القائسة فى نفسه بالقوة إلى الفعل ، فإن كانت ألفاظا تطابقها ونقربها من الأفهام وتُسَرِّعُ عنها سَجُوفَ الإيهام ، وتجلوها فى حلال الإبانة ووشى البلاغة دلةً ذلك على تمكّن القوة المميزة وجودة تحصيلها ، وصحة تمييزها . وإن كانت ألفاظاً مُعَقَّدة دالةً عليها دلالة لا تحصل حقيقتها من أول وهلة ، ولا توضحها إلا فى زمانٍ طويل ومهلة دُلَّ ذلك على ضعف القوة المميزة ، ورداءة تحصيلها ، وفساد تمييزها واختلاط الصور التى فيها ، وعجزها عن تفصيلها . والحكم عليها من العادة بما يوضحها .

فهذه الصناعة أخصّ الصناعات بالقوة الناطقة ، لأنها المفردة باستعمال الأشياء الخاصة بها التى هى تأليف الكلام المنثور وتقييده بالخط الحافظ له على تعاقب الدهور ، وعقد الحساب ، وحصر المعدادات به .

وقد كان حكماء اليونان يسمون علم البلاغة العلم المحيط ، وذلك لحاجة جميع الناس إليه . وإنما فضّل الإنسان على سائر الحيوان بالمنطق ، فأحق الناس بالرئاسة أبلغهم فى منطقهم وأوصلهم للعبارة بذات نفسه ، وأوضعهم لقوله فى مرضعه ، وأحسنهم اختياراً لأوجزه وأغربه .

وكما أنّ الحكمة أشرف الأشياء ، فكذلك ينبغي أن تكون العبارة عنها بأحكم المنطق ، وأوحد اللفظ ، وأبعده من التلأل . وإن سباحة المصطفى والمكئة والعنى تُذهِبُ نور الحكمة ، وتفسد المعانى ، وتورث الشبهة ، فتعسر عند الحاجة ، وتلبس على المستمع .

وأما العلمى فهو الخط ، وهو لا حق نالمنطق فى إيضاح المعانى وإبانة الأغراض ، والدلالة على المقاصد . وهو معبر صامت ، ومخاطب مُسِيرٌ ، وهو مع ذلك يفعل فعل الماطق

المفصح ، والمُعرب الموضح ، لأنه يدل على المعنى برسمه ، كما يدل عليه المتكلم بلفظه .
وكما أن أوهام الإنسان تدلّه على الصور القائمة في نفسه ، وألفاظه تدلّ من يخاطبه على
أوهامه ، فكذلك الخط يدل من بعد عن سماع لفظه دلالة الألفاظ .

واللفظ يفضل الخط بأنه دليلٌ طبيعيٌّ ، وآلته طبيعية ، وهى اللسان . والخط دليلٌ
صناعيٌّ ، وآلته صناعية وهى القلم . ولما كان اللفظ في السيلان لا يلبث إلا ريث ما
يقرعُ الأسماع ثم ينحلّ عن المكان ، وكان حفظ المسموعات كالشيء العرضي إنما يحتاج إليه
في حراسة صور المحفوظات من مداومة الدرس . ومطالعة الحفوظ وتعهده بالذكر والقراءة .
فكأنّ النسيان كالأمر الطبيعي ، لما نخذه من رجوع الإنسان إليه عند إهماله ما حفظه . ألهم
الله تعالى الإنسان اقتضاء الخط ، وأقدره على استكمال معنى النطق الذى خصه بفضله
واستتمام قوته ، وأوجده بما هداه إليه من ذلك السبيل إلى انتهم والإفهام على تغاير الأحوال
عن قرب وبعد ، وغية وحضور ، ولولا ذلك لما تمت منفعة النطق ، لأنه لو عدم الخط لم
يتوصل بالنطق إلا إلى إفهام المخاطب القريب من الصوت المنفصل عن الإنسان القائل إلى
أذن السامع دون غيره ممن بُعد عن سماع اللفظ ، ولتعدّر على الأذنين الاطلاع على أنباء
السائلين ، وآثار عقولهم في الفضائل والآداب ، ولم يصل إليهم منها إلا نذر يسير مما
تحمّله الصدور ، ويؤدّيه الحفظ . ولم يكن وصوله أيضاً على نصوصه لما يدخل عليه من
التغير والتبديل باضمحلال الشيء فالشيء منه عن الأوهام التى تحضره ، والقوى الحافظة له .
فلما أنعم الله تعالى على الإنسان بالحاجة إلى تقييد ألفاظه بالرسوم التخطيطية شمل نفع
هذه النعمة ، وعمّ جميع ممزى الأزمنة ، وذلك أن العبارة التى يتوصل بها إلى الفهم والإفهام
حروف يركبها اللفظ في حال المقاربة ، ويركبها الرسم في حال المباعدة . وبهذا يرتبط جميع
ما يدخل تحتها من المعانى للإنسان ومعاصريه ، واللاحقين به .

وإذا انقرض أهل عصر ثابت هذه الصور في إيصال الفضائل التى استنبطوها ، والمعانى
التي استخرجوها ، والمعانى التى سهّلوا سبيلها إذا قيّد بها ، وأودعت فيها مناب التشافه
والملائقة ، وأغنت مغناها . وهذه فضيلة عامة شاملة تامة كاملة لا مزيد لفضيلة عليها .
ولهذا قال بعض المنطقيين في تحديد الإنسان : إنه الخى الناطق المائز الكاتب . وإن الكتابة
متى لم تدخل في حده لم يقص له بالنطق التام لعجزه عن إفهام من بُعد عن سماع صوته .
ولولا أن من لا يحسن الكتابة يخدم محسنها لنقص عن معنى الإنسانية نقصاً بيناً .

فإن اعترض معترض بأن هذه الصناعة ، وإن كانت في المنزلة اللطيفة ، والرتبة الشريفة ، وكانت نعمة الله بها جائلة الخطر ، عظيمة القدر ، فإنها موهبة مشتركة لكل من عبّر عن ضميره بلسانه ، وخط يده ، وعقد أصابعه ، فقد تنكّب عن سنن الصواب في أغراضه ، وذلك أنه وإن كان لكل من وصف حاله نصيب من تأليف الكلام ورسم الخط ، وعقد الحساب فإن شرف الصناعة وفضيلتها إنما تحصل للكتاب الذين يحوزون هذه الأوصاف على التمام ، وإنما تقع في الحقيقة على الكاتب الجامع لآلات الصناعة وأدواتها المستقل بعمل التفصيل والترسيل دون غيره ممن يشارك الكتاب في استعمال بعض أجزاء الصناعة .

وليس هؤلاء فقط يجب أن يُسموا كتّاباً بل وغيرهم ممن هو أقرب منهم إلى الكتابة من الشعراء والخطباء والورّاقين ، وممن يجاريهم ، لأن لكل طبقة من هذه الطبقات صناعة قد تفرّد بها ووقع أسمها عليه .

فصل في فضائلها المستنبطة من كتاب الله عز وجل

فأما فضائلها المستنبطة من كتاب الله عز وجل ، فإن الله تعالى شرفها بإضافتها إلى نفسه وإن كان في حكم إضافتها إليه سبحانه على غير الحكم في إضافتها إلى خلقه ، فقال جلّ وعزّ ﴿ وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . وقال ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسٍ بِالنَّفْسِ ﴾ . وقال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ .

ونسب تعليمها إلى نفسه فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وجاء في التفسير أن هذه السورة مفتتح الوحي ، وأول آية أنزلها الله تعالى من كتابه على رسوله ﷺ .

وفي ابتداء الله تعالى فيما عدّده من نعمه على الإنسان يذكر القلم وتعليمه إياه به ما لم يعلم من قبل أظهر دليل على عظم رتبة الخط .

وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ وَنَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . وأقسم تعالى بالقلم

فقال : ﴿ ن . والقلم ، وما يسطرون ﴾ ، وبالكتاب فقال : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور في رق منشور ﴾ . والأقسام لا تقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع كالشمس والقمر ، والنجوم ، وما أشبهها بما لها من نظام الخلق واتساق التدبير .

والحاقة القلم والخط بها في إقسامه بهما . واجرائه إياه مجراها في ذلك منبىء عن شرف رتبة الخط وأنه أصل عظيم من أصول منافع الخلق . وسمى — عز اسمه ما يكتب كتاباً فقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ وقال ﴿ أم تحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ .

وعظم تعالى شأن الصحف والكتب ، فقال سبحانه : ﴿ كلا أنها تذكرة ، فمن شاء ذكره في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام برره ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ ، وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ . وقال : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ . ونظائر هذا كثير .

وسمى سبحانه ما أوحاه إلى رسله الكرام كتباً ، فقال في موسى وهارون : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ﴾ . وقال : ﴿ ونقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ . وقال : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ . وقال فيما أنزله على نبينا محمد ﷺ : ﴿ ألم ذلك الكتاب .. ﴾ و ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ . والوحي لم ينزل كتاباً . ولكنه لما نزل أشار سبحانه إلى تمامه وغايته ، لأن الأشياء إنما تؤخذ بتمامها وغاياتها .

فصل : من فضائلها المأخوذة من أهلها

ومنازل أربابها

فأما مراتب أهلها ومنازل أربابها ، فقد عُرف أن الذين وضعوها ، ورسخوا رسومها هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وفيما نفقه نقلة الآثار أن أول من كتب ما نقلهم واقتضب الخط آدم عليه السلام . وأنه وضع حسب ما علمه الله تعالى لأهل كل ملة قلماً . وقيل

إن أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام ، وأنه إنما سمى إدريس لدراسته الكتب المنزلة فكان يسمى الكاتب . وقيل إن إسماعيل عليه السلام اخترع القلم العربى وكتب به ، ولم يسبق إليه .

فأما من تعلّى بها فى الأيام الخالية ، والأعصر الماضية من ذوى الأخطار العاليه فى الدين والدنيا فكثير لا نحصيهم ، إلا أن أصحاب التاريخ ذكروا أن منهم يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وكان عزيز مصر استوزره ، وهو أول من اتخذ القراطيس (الورق) وهارون بن عمران ، ويوشع بن نون ، وكانا يكتبان لموسى عليه السلام . وسليمان بن داود وكان يكتب لأبيه .

وقد ذكر الله تعالى صناعته فى كتابه : ﴿ إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وأتوني مسلمين ﴾ .

★ ★ ★ ★

فأما من وقع عليه اسم الكتابة فى الملة الإسلامية ، وبلغ إلى المنزلة العالية من الخلافة والرتبة السنية من الإمارة فكثير أيضاً ، ومنهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ذو القربة والصهر ، وله الشرف والسابقة . ومنهم عمر بن الخطاب ، ومعاوية بن أبى سفيان وكانا يكتبان للنبي ﷺ ، ومنهم عثمان بن عفان ، وكان يكتب لأبى بكر ، وانتقل الأمر إليه ، ومروان بن الحكم ، وكان يكتب لعثمان بن عفان ، وانتقل الأمر إليه .

وفى كون واضعى هذه الصناعة من الأنبياء ، والمعتزين إليها من العظماء والخلفاء والسادات والرؤساء مايدل على علو خطرها وارتفاع قدرها . وأما من قرع الذروة العالية من السيادة والسنام الباذخ من الرئاسة من أصل هذه الصناعة على تغاير الدول وتنقلها بين العرب والعجم واشتهار آثارهم وانتشار أخبارهم يغنى عن النص على أسمائهم ، وذكر ما تبيأ لهم من المنازل التى نالوها بالاستيجاب والاستحقاق ، لا بالحظ والاتفاق ، والسعادات التى قضت لهم ملوكاً فاضلين فدلّوهم فى دولهم على ما تقتضيه الكتابات ، لا على ما تقتضيه الأحاطى .

قيل : تسقط الحظوظ فى زمن المليك الفاضل ، فلا يتسنم الرتبة العالية إلا موصوف بالفضيلة ، فسموا بالعلوم التى خلقت خواطرهم إلى أعنانها ، وجالت أفهامهم فى ميدانها ، وأثاروا غوامضها وفائقها . وغيروا مذاهبها وطرائقها ، وما اقتضوه من بليغ

المكاتبات ، وارتجلوه من بدائع السجلات في العقود والتقاليد والعهود المشتملة على تمثيل الرسوم والأعمال ، والأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والحمد والذم — إلى الرتب الجليلة الشريفة ، والمنازل النبيلة اللطيفة ، وحلولهم في أعلا طبقات الإكرام ، وأبعد غايات الإناعام ، وفوزهم بموفور المنح الجسام التي أقدرتهم على تطويق الأعناق بالمنن ، وادخار الفعل الحسن .

ولعلم الملوك الحرمة بخاطر هذه الصناعة وأهلها ، وعائديها في أمور السلطان ، صرفوا العناية إلى الكتب ، وخصّوهم بالحظوة ، وعرفوا لهم فضل ما جمعه من الرأي والصناعة . وكانت ملوك الفرس ، وهم أسوس ملوك الأمم ، وأعرفهم بالرتب تقول : الكتاب نظام الأمور ، وجمال الملك ، وبهاء السلطان ، والألسنة الناطقة عنه . وتخزان أمواله ، والأمناء على رعيته وبلاده . وهم أغنى الناس عن الملوك والرعية ، وأولاهم بالحياء والكرامة ، وأحقهم بمحبة السلامة . وأعظم الناس حقاً على جميع الطبقات من ولي أسرار الملوك وأمورهم الخاصة . وقالوا : للكتاب على صاحب ثلاث خصال : رفع الحجاب عنه ، وإتمام الوشاة عليه ، وإفشاء السر إليه .

وكانوا يجمعون أحداث الكتاب ، وناشئتهم ، المتعرضين لأعمال الملك ويتقدمون لرؤساء الكتاب بامتحانهم ، والفحص عن عقولهم ، فمن رضى عنه أقر بالباب يستعان به . ثم يأمر الملك بضمتهم إلى العمال ، وتنقلهم في الخدم . من حال إلى حال حتى ينتهي كل واحد منهم إلى ما يستحقه من المنزلة .

ويقول : إعلم أن جميع الصنائع وسائل إلى إدراك المطالب ، ونيل الرغائب ، وأن عوائدها تتفاضل في الكثرة والقلة بحسب تفاضلها في الرفعة والضعة ؛ إذ كان منها ما لا يقى بالبلغة من قوام العيش نحو الصنائع المهينة السوقية الداخلة في المرافق العامة . ومنها ما يوصل إلى الثروة ويتجاوز حد الكفاية ، ويعطى بالمال الوافر والنعم الخطيرة ، وهي الصنائع الخاصة .

وإذا تؤمل ما هذه صفته منها عليم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ، ولا يساويها في هذا النوع ، ولا يكسب ما تكسبه من الفوائد والعوائد ، مع حصول الرفاهية ومجانبة التبذل ، والتنزه عن دنايا المكاسب ، ولا يوصل إلى ما توصيل إليه من الحظوة ورفاهية

العيش ، ومشاركة الملوك المستعبدين للكافة في المساكن الفسيحة والملابس الرقيقة ،
والمراكب الجميلة ، والدواب الفارهة ، والخدم والحشم . وغير ذلك من الآلات والأدوات
الملوكية .

ومن العجب أن صاحب هذه الصناعة ينتهى إلى الحال التى ذكرنا ، وتحصيل الفوائد
التي عدّدتنا على أكثر الأحوال في أقرب المدد ، وأقل الأزمنة . فإن كان ما يصل إليه من
ذلك أمراً يتحمّله رئيسه له لعلمه بخطر صناعته ، وعنايته في خدمته ، واستحقاقه لنيل
ما نوّله بكفاءته . فناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها .

وإن كان ما نخلص إليه من الاكتساب والمرافق أمراً يوصله إليه استقلاله بصناعته ويُقدِّره
عليه تميزه في معرفته حتى ينتهى إلى الحال التي وصفناها من غير خيانة للسلطان ولا
أشطاط للرعية ، ولا تطريق لبيعة في دين ولا دُنيا ، فإن اعترض بمن يتعرّض به الجُدُّ
وينخلف عنه الحظ من أهلها .

ولسنا نقول إن ما وصفنا به هؤلاء القوم مطّرد في حقّهم ، ولا لازم في كافّتهم ، وكيف
ذلك والأقدار تعترض دون الأوطار ، وتجري بحرمان الكافي المشمّر ، وتويل العاجز المقصّر .
ولكن الذي جرت العادة به أن يؤخذ بالاعتبار ما يكثر وقوعه على المبرز في هذه الصناعة إن
قعدت به الأيام في مرة ، فلا بد أن تنهض به في أخرى ، لأن دولة الفاضل من الواجبات ،
ودولة الجاهل من الممكنات ، ولا نسبة بين الواجب والممكن .

وما يتصل بالقول على هذا الفضل أنه ما من أحد يتوسّل إلى السلاطين والملوك
بالأدب ، ويمتّ إليهم من العلم بسبب ، إلا وهو بأقله ، لا يُنوّل ما يُنوّله إلا على وجه
الإرفاق ، خلا الكاتب فإنه ينوّل الرغائب العظيمة من طريق الاستحقاق لموضع الافتقار
إليه ، والحاجة الحادثة عليه .

وهذا كافٍ للدلالة على منفعة هذه الصناعة ، وجلالة عائدها .

★ ★ ★ ★

ويقول : والصنائع كلها إن كانت مفتقرة في كمالها إلى وجود المادة ، والآلة ، والغرض
والغاية ، فليست هذه الأربعة فيها بمتكافئة في الشرف والفضيلة ، لأن من الصنائع ما يشرف
بمادته . وآلته ، وغرضه ، وغايته كصناعة الطب فإن مادّتها أجسام البشر الذين هم أفضل

الجنس الحيوانى ، وآلتها الأغذية والأدوية الحافظة للصحة الحاسمة للمرض ، وغرضها الصحة للبدن ، وغايتها حفظه على حال الصحة .

ومن الصنائع ما يشرف ببعضها دون بعض ، وصناعة الكتابة تشرف من كل وجه .
أما مادتها فقد قلنا إن لها مادتين : وهما اللفظ والخط ، وهاتان المادتان من الشرف والفضيلة كما تقدم لتقاسمهما البيان ، وتشاطرهما الدلالة على المعانى ، وخدمة النطق الذى هو خاصية الإنسان .

وأما آلتها التى هى القلم ، فقد أنبأ الله تعالى عن جلالته ، وشرفها بإقسامه بها وإضافته تعلم ما نخطه إلى نفسه . ومالقائل أن يقول إن القلم يراعى لا تستحق هذا التفعيم ، لأن اللسان مُضَعَّة من اللحم ، وقد جعله الله تعالى أداة لتقديسه وتمجيده . وتوحيده ، وإبراز مافى الأفهام بالقوة إلى الفعل ، وتكميل فضيلة المنطق . والأشياء إنما تقدر بغاياتها لا بجواهرها .

وأما غرضها الذى هو تقييد مآثره الخواطر من أوهامها حتى يتساوى فى عملها من حضر وغاب ، وبعد وقرب ، فغرض شريف جليل الفائدة ، نبيل العائدة .

وأما غايتها المجتابة منها فهى تعدُّ أشرف موقعاً وألطف موضعاً لانتظامها متعاطم المعادن والمرافق التى لا تستقيم أمور الملك والسوقة إلا بها ، فغرض يُبرز الصناعة من أنفس الأغراض ، وغايتها من أجل الغايات .

القسول فى القسمة

هذه الصناعة تنقسم أقساماً كثيرة ، وترجع إلى أصليْن : أولهما أولاً هُما بالتقديم والتفضيل وهو الإنشاء والترسيل ، والثانى الحساب والتفصيل .

وإنما يميّز الأصل الأول على الثانى لما تفيده الزيادة من قوة التميز وجودة الروية وثبوت الفطنة ، واشتماله على التبيان الدال على المعانى .

* * * *

وكاتب الترسيل يحتاج إلى التصرف فى المعانى المتداولة ، والمبارة عنها بألفاظ غير

الألفاظ التي عبر بها من سبق إلى استعمالها ، ويحفظ صورها ويؤديها على حقائقها . وفي هذا من المشقة مالا يخفأ به على من مارس الصناعة ، ولا سيما إذا طلب الزيادة والإبراز على من تقدمه في استعمال تلك المعاني ، أو حذاً حذو رسوم بعض المبرزين الذين يتنحلون الكلام ، ويوقعونه في مواقعه في غاية من الرشاقة والحلاوة ، ومناسبة المعنى ، ويحتاج أيضاً إلى اختراع معاني أبتكاراً في الأمور الحادثة التي لم يقع لغيره مثلها ولا سبقه سابق إلى المكتابة فيها ، لأن الحوادث السلطانية لا تنتهي ولا تقف عند حد ولا اختصاص متولى هذا العمل بالسلطان ، وقرب منزلته منه ، واعظام قدره له ، واعتماده في المهمات ونيل الأمل وبلوغ الأوطار عليه . ولأنه متى صان نفسه ولزم الطريقة المشاكلة لمنزلته كان أجدر بالسلامة من سائر أرباب الأقلام الذين يتصرفون في الأموال والأموال .

* * * *

واعلم أن صناعة تأليف الكلام تنقسم على ثلاثة أنواع هي :
الكتابة ، والخطابة ، والشعر

ومن ها هنا وقع التناسب بينها ، ولكل منها رتبة من الشرف والفضل . إلا أن صناعة الكتابة ترؤس صناعة الخطابة ، وصناعة الخطابة ترؤس صناعة الشعر . وإن عددنا جميع الأشياء التي تتميز بها الكتابة على هاتين الصناعتين لطال الكتاب ، وأفضينا إلى الإسهاب ، غير أننا نأتي من ذلك بما تقع عليه إبانته من تقدمها عليه بالقول الموجز .

فتقول إن صناعتى الخطابة والشعر ، وإن كانتا متوفرئى الحظ من الفضل والشرف ، غير بالفتى مدى صناعة الكتابة ، ولا محاديتين لها في دوام الحاجة إليها ، وقدر الانتفاع بها ، وكثرة غنائها في أسباب الملك والسلطان . وذلك أن الخطيب إنما يحتاج إليه في الأحيان المتباعدة مرة يُقوم على رءوس الأشهاد في المجالس الحافلة [متحدثاً] بما يقضى به حق المشهد ، ولا يتجاوز ما يودعه خطبته فتاً واحداً من فنون الكلام ، ومن الدعاء والثناء والوعظ والحض على لزوم الصناعة ، والتحذير من المعصية .

والشاعر إنما يحتاج إليه أيضاً لتزيين مثل هذه المجالس بما يورده من كلام موزون مقصور على المديح والإضرار ، ونحوهما . وبجانه أضيئ من مجال الخطيب لحاجته إلى إقامة الوزن .

وأين يقع هذان النوعان من الرسائل التي ينشئها الكاتب في أنواع المعاني الصادرة عن الملوك والسلاطين ؟ في سياسة الملك ، وبنائية الخاصة والعامة ، كدكتبة البيعة التي بها تعقد إمامة الأئمة ، وتستقر خلافة الخلفاء . وهم عماد الدين والدنيا ، وسياسة العباد والبلاد ، وبوقوع الإجماع عليهم يُنصب الأحكام في النقض والإبرام ، وكتب العهود المشتملة على الشروط القاضية بحقي الدماء وسكون الدهماء ؛ وصلاح ذات البين ، واتصال العجارة ، واستمرار المرافق والمعاون التي يستعان بها على مصالح الدولة والملة ، من الأسلحة والعُد ، وآلات الحرب ، وغيرها مما يهدف الشعور .

وكتب التقاليد للوزراء والقضاة والعمال ، وجباة الأموال الذين هم أركان الدول وقواعدها ، وبهم تنتظم عقودها ، ثم إننا نجد الخراج والكاتب في كل وقت من ساعات النهار وآناء الليل واقفا في الحركة والاستنفار ، في السلم والحرب ، وهي رتبة ضرورية وليست داخلية في باب الرتبة التي يقع الغناء عنها كالخطيب والشاعر اللذين إنما يُعدان لزيئنا وقتا بعينه . وإن اعتبر فضل ما بين هذه الصناعة والصناعتين الآخرين من طريق المرافق والجدوى ظهر أنه لا نسبة بين ما يحصل عليه الكاتب من الخطب ، وبين ما يحصل عليه الخطيب والشاعر ، لأن الذي يتولاه الكاتب من طريق الاستحقاق ، والذي ينوله الخطيب والشاعر من طريق البر والصلة ، والرغبة إلى خير سمعه . هذا على استمرار مايجنى به الكاتب وانقطاع مايجنى به الخطيب والشاعر . وإن اعتبر أيضا فضل ما بين صناعة الكتابة وصناعتى الشعر والخطابة برتب أهلها علم أن الكتاب هم أهل التقديم أو ذور الخطوة والرتبة ، والمنزلة العالية ، وأن مفالقي الشعراء تُحَادِثُهُمْ ، ومنعروضون لصلاتهم . وبين من يعطى ومن يأخذ ومن يصل ومن يوصل بون بعد وفرق واضح ، وإن اعتبر غناء الترسيل والشعر في الأمر ، وتكثلهما كتالام مؤلف ، علم أن الشعر لا يُغنى فيما يُغنى فيه الترسيل لأنه لا يُغنى في حوادث من الحوادث السلفانية إلى مسبق من أصناف الرعاية التي يتضمنها الغرض الذي يقضيه تلك الحادثة قصيدة تستعمل على مايناسب ذلك المعنى ، ولا يحسن في رسوم السلطان — ولو شاء — أن يودع ما يودعه قصيدة من قصائد الشعر . ولو شاء أن يودع في رسالة من جمع وسائر أنواع الشعر ما قبح ذلك ، فالترسيل يشارك الشعر وجوهه من مدح وهجاء ، وسنوى واحتذاء ، وشكر وثناء ، وهناء ، ورثاء ، فنه الخطب الأوفى .

وفيما أوردناه كفاية في الدلالة على استحقاق صناعة الكتابة على الصناعتين الآخرين

اللتين يقاسمناها استعمال الكلام المؤلف .

وأما فضل صناعة الخطابة على صناعة الشعر فإن الخطابة من الصنائع الخطيرة في باب الدين والسلطان إذ الخطبة شطر الصلاة المشتملة على المواعظ [الهامة] والذكرى النافعة ، المنبهة للساهى الغافل ، الموقظة للآهى الداهل ، الفاتحة للقلوب وكشف ماغشيتها من رَيْنِ الاغترار ، والإخلاص إلى هذه الدار ، والاستعداد لمنزل القرار ، وغير هذا مما كانت الخلفاء تتخوّل به لِسْتِنِ رسول الله ﷺ ؛ فإن خطبه كانت تنوب مناب^(١)

وإذا اعتبر فضل ما بين الخطابة والشعر بفضل ما بين الخطباء والشعراء علم أن التقدم للخطباء على الشعراء . قال لأن رسول الله ﷺ أول من يُعزى إلى الخطابة ، وخطبه أفضل الخطب . وقد حاز رتبة الخطابة على أكمل حدودها ، وأتم رسومها ؛ فأما الشعر فإن الله تعالى نزهه عن نظمه بل عن إنشاده ، فقال : ﴿ وما علّمناه الشعر ، وما ينبغي له ﴾ ، وقال : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ ، ثم إن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب وهو بعد الرسول الخطيب المصنّع ، وخطبه أجزل الخطب وأجمعها للفوائد والمواعظ ، ثم الخلفاء الذين خلّفوا في الإسلام ، فإنهم كانوا يوصفون بالخطابة ، ولا يوصفون بالشعر لترفعهم عن الاتسام بسمته .

ومما تفضل به الخطبُ الشعر أيضاً أن الخطبَ كلامٌ مبنى على الصدق ، والإرشاد إلى الخير ، وأما الخطب الجاهلية التي كان خطباء العرب يقومون بها في الأندية والمحافل فمقصورة على الأمر بالإصلاح والصلاح ، والتحضيض على التّبارّ أو التعاطف ، ورفض التباغض والتفاسد . وصلة الرحم ، ورعاية الذم ، ونحو هذا .

أما الخطبُ الإسلامية فلا حاجة بنا إلى ذكر ما تشتمل عليه من وجوه الخيرات ، وما تتضمنه من تمجيد الله تعالى وتوحيده والثناء عليه ، والصلاة على رسوله ﷺ والترغيب في الآخرة ، والتزهيد في الدنيا ، وقدح الهمم في طلب الثواب ، والورع عن اجتناب ما يوجب العتاب .

والشعر إذاً سى على معاني ألتبها مستحيل ، وأقوال جلّها كذب ، لاسيما الشعر الجاهلي الذي هو أفعّل الأَشعار ، فإنه يشتمل على قول البهتان ، وشهادة الزور ، وسبّ الأعراض وقذف الخصمات ، والقدح في الأنساب الصريحة ، وقبيح الهجاء ، وما يجارى

(١) مضموم في الأصل - خذ - . . . كانت الخدعة " شعر "

هذا مما يجب التنزه عن الخوض فيه ، والتصون عن إطلاق اللسان به .

وهذا كاف فيما رمنا لإيادته من فضل الخطب على الأشعار .

وأما ما يشرف به الشعر عن غيره من الكلام فبوزن الأجزاء وتساوي الحروف ، وطول بقائه على أفواه الرواة . فإنه لا شيء أبقى على الدهر من الشعر ، تمكن القوة الحافظة بارتباط أجزائه ، وتعلق بعضها ببعض من تقييده ، لأنهم يجمعون على أن أبقى سيرهم وأخبارهم ما اشتملت عليه الأشعار . وهذه فضيلة جليلة الخطر ، لأن بقاء الشيء وطول مدته من أشرف فضائله .

ومنها اشتهاره ، واستفاضته ، لأنه لا أشهر من المعنى الجيد وهو جار مجرى المثل . وقد قيل : لا شيء أسبق إلى الأسماع من بيت نادر ، ومثل سائر .

ومنها تزيينه لمجالس الملوك الحافلة بالتناء عليهم ، وتعديد محاسنهم . ومنها ما يخلص عليه الشاعر المحيّد من الجداء الجسم الذي يستحقه بحسن موقع ألفاظه ومعانيه من النفوس ، وما يحدّثه فيها من الأريية .

ومنها عمارته لمجالس الأنس التي لا تئمر إلا بإنساد الأشعار ، ورواية لأخبار ، ومنها قبوله لما يركّب عليه من الألحان المتدربة ، المؤثرة في الأنفس اللطيفة ، والطباع الرقيقة .

ومنها أن الألفاظ العربية ، وشواهد القرآن ، وغيره من الكلام العالي ككلام النبي ﷺ إنما يستبطن منه .

ومنها معرفة أمثال العرب ، وحكمها ، وسلم تواريخ أيامها ووقائعها .

فقد وضح بذلك غاية رتبها من الفضل ، وأن الخبلى السابق صناعة الرسائل ، والمصلّى اللاحق صناعة الخطب . والتالى التابع صناعة الشعر .

وذهب قوم لما عددنا من محاسن فضائل الشعر إلى تفضيله على الرسائل ، وتابعهم على ذلك من أصغى هواه إلى أهويتهم ، وضعف نقده عن إعطاء الأشياء حقيها من التأمل واستعمال النظر الشافي في المبينة والتمييز ، واستعملوا المغالطة في تقديم المذم . فنقول — وبالله التوفيق :

إن الشعر وإن كان في المنزلة التي أشرنا إليها ، فإنه هابط عن درجة الرسائل هبوطاً

بيناً لا يخفى عن ذوى المعارف المميزين . ويدل على ذلك خير امرئ القيس مع أبيه
حُجْر حين هم بقتله لما سمعته بعد أن ناه عن قول الشعر ترثم في مجلس شرا به بقوله :

اسقيا حجراً على علاته من كُميت لولها لون القلق

وما رواه الرواة من حديث النابغة الجعدي ، وأنه كان سيداً في قومه لا يقطعون أمراً
دونه وأن قول الشعر حط من قدره ورتبه .

ولانتضاع الشعر في نفوس سادات العرب وملوكهم نزه الله رسوله عنه ، ومنعه
منه . وليس إعدامه الشعر كإعدامه الخط ، لأن الذى جاء به ليس بشعر يقع الارتياب
فيه إذا كان يقول الشعر ، لأنه لا يجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً يريد أن يتقاد الناس إليه
بما يُنقص من قدره في أنفسهم . ولو كان الشعر أعلى رتبة من النثر لم يُجز أن يتحدث
الله تعالى العباد إلا به ، لئلا يكون قد تحداهم بما يوجد أبلغ منه ، ولكنه سبحانه لعلمه
بفضل الكلام المنشور أنزل كتابه العزيز منشوراً ذا مقاطع وفواصل ، ولم ينزل قصائد
ذوات قوافٍ وأوزان ، وعراه من حلية النظام الذى يصقل صفحة الكلام ليظهر المعجز
من غير طريق القوم الذين أنزل بلسانهم .

ولو كان النظم أيضاً أفضل من النثر لوجب أن يحىء مانقله الشعراء من معانى الكلام
المنثور إلى النظم في صورة من البلاغة . وهذا مستحيل ، لأننا إذا أعرنا ما نُقل من معانى
النثر إلى النظم وجدناه قد انحط عن درجته في النثر . ومن ذلك قول الله تعالى :
﴿ يَحْسُبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعُدُو ﴾ ، فإن جريراً نقله إلى قوله :

حملت عليك حمأة قيس خيلها شعاً عوايس تحمل الأبطال
مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تكر عليك ورجالا

والفرق بين الكلامين ظاهر لمن كان ذوقه مستقيماً ، وطبعه سليماً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ نقله الشاعر إلى قوله :

زوامل للأشعار لأعلم عندهم يحيدها إلا كعلم الأتباع
لعمرك ما يدرى الجير إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الفرائر

-وبيان هذين الكلامين بين واضح أيضاً . فإن قيل إنه يجب أن نوقع المقايسة بين
النظم والنثر من كلام المخلوقين دون كلام الخالق عز سلطانه لتفرده بالمعجز ، وحلوله في

الدرجة العالية من البلاغة التي لا يصل إليها البشر ، سلمنا ذلك ، وأوقعنا المقايضة بين كلام البشر ، وأتينا في التمثيل بأبلغ النوعين ، أعنى المنظوم والمنثور .

فمن ذلك قول النبي ﷺ للأَنْصار رضى الله عنهم : « إنكم لتكثرُونَ عند الفزع ، وتقلُونَ عند الطمع . » ، وقال عنترة بن شداد :

يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَقِيعَةِ أَنَّنِي أَغَشَى الْوُغَى وَأَعْفَى عِنْدَ الْمَغْنَمِ

يشتمل هذا البيت على معنى كلام رسول الله ﷺ ، ويوازنه في عذوبة اللفظ فقد ساواه كلام النبي ﷺ بنفسه لا بسبب آخر هو معرض له . وهذا موجب الفضيلة للنثر ، لأنها حَصُلَتْ له بنفسه لا لسبب من خارجه . والنظم إنما يتم حسنه بالمعرض الذي هو لابسُه من الوزن والقافية . وذلك أن الشعر حال من الأوزان والقوافي وقيام كل بيت بنفسه ، وانفصاله عن غيره بما النثر عاطِلٌ منه . وهذه الأسباب تزيد في رونقه وجوهه ، وتقضى بتقبل الأنفس له ، ولذلك يعجبُ به كثيرٌ ممن لا يفهم معنى الشعر ويحفظه ، وإن كان ملحوناً مستحيل المعنى . والنثر فإما يحليه بلاغته ، فإذا ساوى وهو عاطِلٌ بنفسه ما هو حال ، فقد زاد عليه لا مجادلة ، لأنه لو كانت له حلية لفضل بها على سواه بنفسه لا غير . ومثال ذلك أننا لو استعرضنا شخصين أحدهما حال كاسي ، والآخر عاطِلٌ عارٍ ، فتوازننا في الوضاعة والصباحة لحكمنا للعاطل العاري بالإرباء والإبراز على الكاسي الحال ، لأن الحال الكاسي لو نزع سُلاة وكُساءه ، وقايسَ العاطل العاري لما ساواه .

وأما وجازة البيت فلأنه معبر عن حالٍ يَحْضُرُ قائله ولا يعُدُّه ، وفي كلام النبي ﷺ زيادة في المعنى أوجبست زيادة في اللفظ ، وهى العموم في الحال المعبرة عنها ، وخطاب الجماعة بقوله : تَكْثُرُونَ وتَقْلُونَ ، وقوله : عند الفزع يجمع الجنس الذي من أنواعه الوغى وغيرها . وكذلك الطمع ، فقد يكون مغنماً ، وغير مغنم ، ففي الكلام فوائد ليست في البيت ومطابقة لفظه ، وهى ذكر القلة والكثرة .

ومع هذا فإن صاحب النثر مطالب بيطبق معانيه على ألفاظه ، وغير مسامح بضرورة ولا مجاز فيها باستعمال كلمة مرفوضة ، وليس كذلك الشعر ، لأنه يتبع الوزن ، وينقاد إلى ماتقتضيه القافية . وصاحبه متساهل فيما خالف القياس ، مُسامِحٌ بما لا يُسمَحُ به نثرسياً ولا خطيباً . فإن قيل : إذا كان النثر في أعلى طبقة من البلاغة خُدَّه من سبب

يحسنه ، واكتفائه ببلاغته وتأليفه المخصوص ، فما يمنع أن يكون الشعرُ أفضل من أجل أنه لو قدر أن كلاماً منشوراً بلغ الغاية من البلاغة بنفسه وتأليفه ، ونقل على صورته إلى الموزون لصار أفضل من حالته الأولى ، لجمعه بين بلاغته ، وهو نثر ، وما اكتسبه من تحسين الوزن ، لاسيما ، ولا منزلة من البلاغة في غير الشعر إلا ونقلها إلى الشعر يمكن .

قلنا : هذا صحيح لا يصح ؛ لأن الكلام البليغ نمط من التأليف ، وضرب من الترتيب ونقل الشاعر قول على بن أبي طالب رضى الله عنه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » ، فقال :

فيا لائمى دغسى أغالى بقيمتى فقيمة كل الناس ما يحسنونه

والنقل فإنه وإن كان قد أورد المعنى في نصف بيت على سبيل التضمين والاهتمام ، لم يأت بما ينسب إليه إلا لفظاً بدله وزاده لإقامة الوزن ، والذي طبعه سليم ، وحسنه مستقيم لا يقتصر إلى تعريفه فرق ما بين الكلامين ، إلا أن هذا الشاعر زاد فاءً في قوله : « قيمة » وهى مستكرهة ثقيلة في هذا الموضع ، وأبدل بلفظة امرئ لفظاً « الناس » ، وامرؤ أعذب وألطف ، ونقله قوله : « ما يحسن » إلى قوله : « ما يحسنونه » . والجمع بين هذين التونين وليس بينهما إلا حرف ساكن ، والساكن لا يعتد به مستوخم .

وفي هذا دلالة على بطلان نقل المنشور إذا علت طبقة في البلاغة إلى المنظوم ، وهو على الصورة التى كان عليها في المنشور . وهذا في الوجيز اليسير ، فكيف بالمسهب الكبير الذى يحتاج فيه إلى التبديل والتغيير . ولولا خوف التطويل لأتينا بأمثلة من النثر والنظم . والذى أوردناه كفاية في مناقضة من ذهب إلى تفضيل النظم على النثر .

وأما المراتب التى تنقسم إليها صناعة الكتابة فخمسة عشرة مرتبة وهى : الوزارة ، والتوقيع ، والرسائل ، والخراج ، والضياغ ، وبيت المال ، والخزائن ، والنفقات ، والجيش ، والزمام ، والبريد ، والمظالم ، وكتابة القضاء ، والقص ، وكتابة القواد والأمراء ، وكتابة المعادن .

وقلنا فيما سلف إن اسم الكاتب إنما يقع في الحقيقة على الكاتب المستقل بجميع آلاته المحيط بكلية أدائها ، لا من تعلق منها بالسبب المنصرم ، واستند إلى الركن التهلم .

وينبغي لمن تملك بجلها وأحب أن يكون من صرحاء أهلها ان يتحلى بخلية فصلها ،
وصبر على المشقة في اجتياز مداها ، ولم يقتصر على اسمها دون معناها لتحصل له حقيقة
ما انتسب إليه ، ولا يكون دعياً ملصقاً ، ويفوز بمعنى ما يُسمى به ، ولا يكون صفرأ
منه مُملقاً . فإن عجز عن استتمامها ، وقصر عن استيفاء أقسامها ، فلا يقف في الفن
الذي يعتزى إليه من فنونها دون غايتها ، ولا يرضى بالخروج من خاصته إلى عامتها .
وقد مثلت الحكماء الملك وأعوانه بالنفس والأعضاء ، فقالوا : مثال الملك مثال
النفس التي تسوس جميع الجسد ، ومثال الخدم مثل الأعضاء التي تخدم النفس .

وقسموا الخدم بحسب انقسام الأعضاء . فقالوا : إن منهم من يخدم الملك خدمة
القلب للنفس التي هي التفكير ، وإجالة الرأي ، وهذا عمل وزير السلطان الذي يستعين
بآرائه في مصالح الملك ومنهم من يخدم الملك خدمة اللسان للنفس التي هي عبارة عن
الضمائر ، وإخراج الصور الذهنية إلى مخاطبين . وهذا عمل كاتب الملك ، الذي يأمر
عنه ، وينهى ، ويخاطب . ومنهم من يخدم الملك خدمة اليد للنفس التي هي تناول
الحاجات ، وتقرب ما يحتاج إلى تقريره ، وتدفع الأذى عن الجسم ، والمغالبة ، والمباطشة
إذا احتيج إليهما ، وهذا عمل أجناد الملك وأنصاره ، وخدامه الذين يقومون بمرافق
الملك . ومنهم من يخدم الملك خدمة الرجل للنفس التي هي السعى والحركة إلى المواضع
التي تستدعي حاجاته ومهماته . وهذا كرسل الملك . ومنهم من يخدم الملك خدمة البصر
للنفس التي تلحظ له الأشياء وتحفظها ، وتشاهدها كأمناء الملك وعماله . ومنهم من
يخدم الملك خدمة السمع للنفس التي هي آتية بالأصوات والأخبار على حقائقها ، وهذا
عمل أصحاب البريد الذين يفحصون ما غاب عن الملك ويطالعونه به .

وهذا دالٌّ على أن أهل هذه الصناعة هم المتحملون لمعظم شئون الملك ، والقائمون
بجمهور أموره ، ولا ينبغي لأحد منهم أن يتعرض لنوع من أنواع خدمته إلا بعد مهارته
في هذا النوع ، وارتياضه به ، وثقته بنفاذه فيه . « (١) .
ويعرض لرتبة الوزارة فيقول :

« هي الرئاسة ، وصاحبها يجب أنه يكون قيماً بجميع أنواع الكتابة ، وأقسامها ،
علماً بشروطها وأحكامها ، لأن كل ناظر في فن من فنونها إليه يرفع ما ينتظر فيه ، فلا

(١) ص ٢٢ من المخطوط .

يجوز أن يكون جاهلاً بشيء منه . وأن يكون نافذاً في علوم الدين ، لأن الدين أساسُ الملك ، والذي يُبنى عليه أمره . وأن يكون فاضلاً العقل ، أصيل الرأي جيد الرؤية ، ثاقب البديهة ، جميل الصفح ، مترفعاً عن المباهاة برئاسته ، والمطاولة بمنزلته ، عفيف [القلب] ، شريف النفس وقورا ، نصوحاً ، صموتاً عن الخوض فيما لايعنيه ، كثير الأناة ، منتهزاً للفرصة متصرفاً لبلاغة المنطق واليد ، وفاضل الطبع ، مجبولاً على العدل ، عالي المهمة ، صادق اللهجة متأنياً في وعيده ، يُلاينُ أهل الطاعة والانقياد ، ويغلظُ على ذوى المعصية والعناد ، لا يُسرِعُ إلى العقاب متهوراً ، ولا يطمعُ في إغفاله مُضْجِعاً ، آخذاً بالتقوى عادلاً عن الهوى ، لا يشقى به الحق ولو كان عدواً ، ولا يسعد به المبطل وإن كان ولياً . سهل الحجاب ، مفتوح الباب ، لطيفاً باللهيف المظلوم ، عسوفاً على العشوم الظلوم ، ومحباً للخير ، مستكملاً شروط المروءة وأقسامها في سعة المنزل والطعام ، وجودة الفرش والثياب ، وعطر الرائحة ، وفراة الدواب ، وكثرة الأصحاب ، من غير مبالغة تطفئ وتزد هي ، ولا تقصير يُغضُّ ويُغمض ، متجنباً الغضب ، قليل اللهو والطرب ، مدارساً للتجارب ، مُلابساً للنوائب ، عارفاً بتصرف الأحوال ، عارفاً بوجوه الأقوال ، ومصالح الأعمال ، مستوفياً لحقوق السلطان من غير حيف على معامليه ، ورعيته ، معتمداً الإنصاف لهم ، والانتصاف منهم مقدماً أهل الفضيلة والدين والغناء ، مستكفياً للكفاة ، عارفاً لذوى البيوتات والرتب أقدارهم ومنازلهم ، مُنزِلاً لهم بحيث يستحقون منها ، بصيراً بمكايد الحروب ومهاجمة الخطوب ، وتدير الدولة ، وسياسة الرعية ، عارفاً بما يعتمد كل طبقة منها من عُسْفٍ ولطف ، وخشونة ولين ، وما يصلح عليه من السير المتضادة ، لا يشغله كبير أمر عن صغيره ، مقدماً للحزم ، عاملاً بالعزم ، ناظراً في العواقب ، مخلص النية ، صحيح الطوية حارساً .

وسنذكر في الباب العاشر ما يحتاج إليه كافة الكتاب من الاعتقاد والتخلف والعمل إن شاء الله تعالى .

التوقيع : صاحب التوقيع هو يد الوزير ونائبه ، ومتولى العرض على الخليفة إذا غاب ، أو إذا لم يكن للسلطان وزير منصوب ؛ فالواقع يدخل مدخله ، وينبغي أن يكون مستقلاً بكل ما يستقل به الوزراء ، ماضياً في جميع علوم الدواوين على اختلافها ، - عارفاً بأوضاعها وبوجوه الأموال وتتميرها ، وصالح الرجال وسياستها .

★ ★ ★ ★

فأما صاحب التوقيع فلا يحتمل تقصيره في شيء بالجملة لأنه يد السلطان ولسانه ، إذا علم منه أصحاب الدواوين غبارة ، وتخلفاً وجهلاً بما يُخرجونه أو غسلاً في المؤامرات ووروا عما يؤديهم إلى الارتفاق .

وينبغي أن يكون مع تحصيل هذه الأدوات كلها حسن الخط ، سريع البديهة ، ديناً أميناً ، نزه النفس ، لا يخرج عما يؤمّر به ، ولا يتعداه لغرض من الأغراض كلها .

الرسائل : صاحب هذه الرتبة هو لسان الملك الناطق بحجته ، المترجم عن عقله ومقالته . وهو حلية المملكة وزينتها ، يرفع ذكرها ، ويعلى قدرها ، ويعظم خطرها ويدل على فضل ملكها ورئيسها . وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ، والاعتماد والإدغام ، واقتضاء المعاني التي تُقر الولي على ولائه وطاعته وتبعده العدو العاصي عن عداوته ومعصيته .

وينبغي أن يكون قيماً بكل ما يشتمل عليه كتابنا هذا من الآداب الأخرى التي تؤخذ من مواضعها .

ومتولى الرسائل [ينوب مناب الوزير] إذا لم يكن للسلطان صاحب توقيع ينوب منابه ، ويكفي فيما يتولاه .

ويجب أن يكون موجزاً في موضع الإيجاز ، مطنبا في موضع الإطناب ، حتى إذا وقع جمع المعاني وأجملها ، وإذا كتب بسطها وفصلها .

وهو يدرس طبقات الكتاب ، ويتقدمهم بالفضائل التي ذكرنا في الباب الأول من هذا الكتاب . وبما خص به من وقار العلم ، وفصل الحكم ، ورجاحة الفهم ، وصواب المنطق ، والتمييز عما في الطبقات الأخر من الطيش ، وخفة الأحلام ، وزلل اللسان .

وقالت الحكماء : « الكتاب كالجوارح ، كل جراحة منها ترفد الأخرى في عملها . وكاتب الرسائل بمنزلة الروح المشاركة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسه . » وهذا تمثيل صحيح ، لأن هذا الكاتب هو الذي يمثل لكل عامل في تقليده ما يعمل عليه ، ويتصفح ما يرد منه ، ويصرفه بالأمر والنهي على ما يؤدي إلى استقامة ماعلق به . وهو يحتاج إلى أن يكون بين يديه كتاب يعينونه في الإنشاء ، وآدابهم كآدابه .

وأما آداب الصناعة والسياسة (التى يفتقر إليها كاتب الرسائل) ، فقد استوفينا القول عليها فى البابين التاسع والعاشر من هذا الكتاب . والله الموفق للصواب . بحقه وكرمه .

★ ★ ★ ★

الباب الثانى فى البلاغة وأقسامها

البلاغة : هى عبارة عن الصور القائمة فى النفس بمعان جامعة لتلك الصور ، تُحدِّد بها وألفاظ مطابقة لتلك المعانى مساوية لها .

ولصعوبة المدام فى تركيب الكلام من ألفاظ ومعان مشتملة على الصنعة التى وصفناها قلُّ البلغاء ، وصارت البلاغة صناعة تخصُّ قوماً دون قوم . ولو كانت البلاغة ، إنما هى العبارة عن هذه الصور بحصر كل مُعبِّر تساوى الناس فى حيازة فضيلتها ، ولم يكن لأحدهم مزية على الآخر فيها ، ولكن أكثرهم يعدلُّ عن طريقها من وجهين . أحدهما أن يأتى بألفاظ عامية مبتذلة ، سخيفة النسيج ، لا تدل على المعانى فى أول وهلة ، والأخرى أن تكون الألفاظ مكررة بأعيانها ، أو مترادفة ينوب بعضها عن بعض فى الدلالة عن المعنى المراد . ويؤخذ الطريق إلى الإبانة عنه بجزء منها . على أن استعمال الألفاظ المترادفة أيسر قبلاً من استعمال الألفاظ المكررة لما تفيد المترادفة من توكيد المعنى . وفى التنزيل العزيز : ﴿ ومن الجبال جددٌ بيضٌ ، وحمراً مختلف ألوانها ، وغرايبٌ سود ﴾ والغريب هو الأسود . وقال ذو الرمة :

لياءٌ فى شفها حوَّةٌ لَعَسَ وفى اللَّئائِ وفى أنيابها شَنَبُ

ولعسٌ وحوَّةٌ مترادفة ، لكن اختلف اللفظان . ويجوز أن يكون لما ذكر الحوَّة خشي أن يتوهم السامع مُراداً قبيحاً ، فبيِّن أنه لعسٌ . واللَّعَسُ حسنٌ فى الشِّفَاءِ . وأمثال هذا كثير . وإنما يجبُ تجنُّبُ الألفاظ المترادفة فى المواضع التى تقتضى الإيجاز والاختصار ، ولا يحسنُ فيها الإطالة والإكثار كمخاطبة الأعيان من الرؤساء الذين لا يجوز أن تشغل

أسماعُهم بما يقطعُهم عن أمورهم المهمة ، ولا أن ينفقَ زمانهم فيما همهم مصروفةٌ إلى مطالعةٍ غيره .

وهذه الطبقة من الناس لا يجوز الإقدام عليهم بمخاطبة ولا مكاتبة إلا بعد المعرفة برتب الألفاظ والمعاني ، ليخصها منها بما تقتضيه منزلتها . ومخاطبة أهل الذكاء والفطنة الذين يستدلون بصدور الأمور على أعجازها ، ويتطرق فكرهم من أوائلها إلى أواخرها ، ويكون الإيجاز عندهم أوقع من الإطناب ، والاختصار أنجع من الإسهاب .

فأما مواقف الخطباء بين العامة وفي الأندية الحافلة ، والعهود السلطانية والمكاتبات في [الأمور] والمخاطبات المبنية على إيصال المعاني إلى من لا يتصورها بأدنى إشارة ، وما جرى هذا المجرى ، فإن الإطالة فيها وترديد الألفاظ المترادفة داخلٌ في عقد البلاغة ، وغير خارج عنه .

فأما البلاغة عند العرب فهي الإشارة إلى المعنى بلمحة تدلُّ عليه ، لأنهم يستحيون أن تكون الألفاظ أقلَّ من المعاني في المقدار والكثرة . قال بعضهم يصف كلاماً : كأن ألفاظه قوالبٌ لمعانيه . يريد أنها مطابقة لها غير زائدة عليها ، ولا ناقصة عنها . وهذا هو الطريق القاصد إلى البلاغة ، وعليه يجب أن يعتمد ، إلا في الأماكن التي يحسن بها الإطناب .

وحكى عن جعفر بن يحيى البرمكي ، وكان من بلغاء عصره أنه قال : إذا كان الإيجاز كافياً كان الإطناب عيباً ، وإذا كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً .

وعلى هذا الترتيب تنقسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام :

إشارة دالة ، ومساواة لفظ بمعنى ، واسهاب تقتضيه الحال .

وبين البلاغة والإبانة فرق ذكره أفلاطون وهو أن الإبانة وصف الشيء بأخص الألفاظ وأوجزها ، وترتيبها في القول على مراتبها فيه ، واعتماد المتكلم أن يكون كلامه كالقالب لمعناه .

وبالبلاغة وصف الشيء بالغاية مما يليق به ، وتوخي حسن مافي اللغة من اللفظ وأقربه إلى إلهام المستمعين .

ولفضيلة البلاغة إنما يعوزها ويفوز بها من بُعد خاطره في تأليف الكلام مخاطباً ،

ومكاتباً . لأن في المخاطبة والمكاتبة موضعاً تكون الحاجة فيه إلى البلاغة بوزن الحاجة إليها في الآخر ؛ فأما من استقل بإحدى الحالين وعجز عن الأخرى فهابطٌ عن الدرجة العالية التي توجب حيازة الفضيلة .

وقد حُدِّدت البلاغة بمحدود ، ورسمت برسوم رأينا أن نورد بعضها على سبيل التحلية والترصيع :

فمنها قولهم : البلاغة إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة من اللفظ . والبلاغة حسن اللفظ مع صحة المعنى . والبلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة . والبلاغة أن يبلغ السامع أقصى نهاية المعنى بالإبانة له والإفصاح عنه . والبلاغة الإيجاز مع الإفهام ، والتصرف من غير إضجار . والبلاغة القوة على البيان مع حسن النظام . والبلاغة إدراك المطالب ، وإقناع السامع .

وقال اليوناني : البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .
وقال الرومي : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة .
وقال الهندي : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة .
وقال الفارسي : البلاغة أن تعرف الفصل من الوصل .
وقال العربي : البلاغة أن يكون اللفظ محيطاً بمعناك ، مجلياً عن مقورك .
وقال معاوية لصُحَّارِ العبدى : ماهذه البلاغة التي فيكم ؟ . قال : شيء نجيش به صدورنا ثم تقذفه على ألسنتنا .
وقال الأصمعي : البليغ من طَبَّقَ المِفْصَلَ وأَغْنَاكَ عن المفسر .
وقال الجرجاني : البلاغة الإيجاز والاطناب .
وقال ارسططاليس : الزيادة في المنطق بعض منها .
وقال خالد بن صفوان : أحسن الكلام ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه .
وقيل : أحسن الكلام ماشوقٌ أوَّلُ استماعٍ آخره .
وكلمَ رجلٌ سُقراط بكلامٍ طويل ، فقال : أنساني أول كلامه بعد العهد به ، وفارق و همى .

وقيل : قليلٌ يُشْتَهَى خَيْرٌ من كثيرٍ يُحْتَوَى .
وروى عن النبي ﷺ : « رحم الله عبداً أوجز في كلامه واقتصر على حاجته .

وقيل : لا يستحقُّ كلامُ اسمِ البلاغة حتى يسبقَ لفظه معناه ، ومعناه لفظه ، فلا يكونَ لفظه أسبقَ إلى سمعك من معناه إلى قلبك .

ولما كانت البلاغةُ كما قلنا فيما سلف إنما هي : العبارةُ المركبةُ من الألفاظِ والمعاني وجبَ أن تتكلم على الألفاظ البسيطة الجارية مجرى الموضوع لها بمفردها . وما يلزم من تصحيحها على شرائط اللغة . وما ينبغي من تخيير ما يقع منها في الصناعة ، وعلى المعاني الدالة ، والحالة منها محلّها ، بمجردها . ومنزلتها من الألفاظ ، وما يتعين من تهذيبها وتحريرها . وعلى الألفاظ المركبة منها التي هي ذات البلاغة . وتعرّف الطريق الأقصد إلى تركيب المعنى التركيب الذي ينظم في سبيلك البلاغة . ونحن قائلون في ذلك نحسب الاختصار إن شاء الله .

قول في الألفاظ البسيطة :

الكلام في الألفاظ البسيطة ينقسم إلى قسمين :
أحدهما — أحكامها واستعمالها على أحكام اللغة .
والثاني — تغير ما يقع منها في صناعة الكتابة .

فأما أحكامها واستعمالها على أقسام اللغة ، فإنه ينقسم إلى قسمين :
أحدهما يحلُّ من الصناعة محلُّ المادة ، والآخر يحلُّ منها محلُّ الأداة . فأما الذي يحلُّ منها محلُّ المادة فهو بسائط اللغة من الأسماء والأفعال والحروف . والكاتب يحتاج إلى التوسع فيها ، والمعرفة بسهلها ووعرها ، ومن تناولها من العلماء بها ، والكتب الموضوعية فيها الصحيحة النقل حتى يسلم من الدُّلّ والتصحيف وتقليد العامة فيما وضعته على غير موضعه ، والمهارة في معرفة مشترك الألفاظ ومتواطئها ومشتقها ، ومتباينها .

فأما المشتركة فهي التي تدلُّ على أسماء متباينة الذوات كلفظة « العين » التي تدلُّ على العين المبصرة ، وعين الماء ، وعين الذهب وغير ذلك .

وأما المتواطئة فهي التي تدلُّ على أشياء متفقة الذوات كلفظة الحيوان الدالة على الإنسان والفرس ، وكلِّ حيٍّ .

وأما المشتقة فهي التي اشتقت من معانيها كفصيح من الفحاحة ، وعالم من العلم .
وحكيم من الحكمة .. ونحوه .

وأما المتباعدة فهي التي يدلُّ كلُّ منها على خلاف مايدلُّ عليه الآخر .
وأما المترادفة : فهي التي يدلُّ لك واحدٌ منها على مثل مايدلُّ الآخر نحو|قطر، وغيث ،
ومطر«^(١) .

وبعد حديثه|عن الألفاظ يتحدث عن آلات الكاتب ، وأدائه من معرفة علم النحو
وغیره من العلوم كعلم البيان والبلاغة ، ويعرض لأقسام البلاغة فيعقد الباب الثالث في
أقسامها الفرعية ، يتحدث فيه عن المجاز ، والاستعارة والتشبيه ، وأبواب البديع
كالسجع ، والجناس ، والتألف ، والتسميم ، والبيان .

ويبدو أنه يحتذى أو يتأثر كثيراً بما كتبه الرماني في « النكت » عن أبواب البلاغة
العشرة ، بالإضافة إلى حديث الخاتمي في حلية المحاضرة والحال والعامل .

هذا وقد عقد الرماني باباً في حسن البيان ، وجاء ابن خلف بمجمل كلام الرماني
وأضاف إليه تعريفات ، في تحديد المصطلح^(٢) .

والإشارة ، إلى غير ذلك من الأبواب التي تناقلها علماء البديع منذ القرن الرابع
وحتى عصره .

ولاشك أنه متأثر بالجو العام للدراسات البلاغية في القرن الرابع ، فهو يسلك في
حديثه عن البلاغة مسلك كثير منهم ، ولا يدخل في تقسيمات وتفرعات من جاءوا بعد
ذلك في أخريات القرن الخامس وفي القرن السادس من المشاركة خاصة .

ويعقد باباً في النظم ، يتحدث فيه حديثاً مخالفاً لحديث عبد القاهر . يقول :
« قولٌ في النظم »^(٣)

« نظم الكلام هو تأليفه على وضع الاتساق وتساوى الأقسام واعتدال الفصول
والأجزاء ، لأن الكلام قد يُؤلَّف مخلطاً غير متناسب ولا مقسَّم ، فلا يستحق أنسم
النظم ، وإنما يستحق هذا الاسم إذا كان مرصوفاً مرتباً ، ذاهباً في مذهب الانتظام
وموازنة الأقسام والنظم على خمسة أضرب : نقل ، وفصل ، ووزن ، وقلب ومثل .

(١) المخطوط ص ٣٢ ب .

(٢) المخطوط ص ٧٢ أ — ب .

(٣) المخطوط ص ٧٥ .

فالنقل في الكلام بالتقديم والتأخير . وهو يحس من ستة وجوه :
الأول أن تكون الحاجة إلى ذكره أشد ، والعلم به أهم كقولك : قطع اللص الأمير .
والثاني أن يكون التأخير أليق بما اتصل به من الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وتغشى
وجوههم النار ﴾ فهذا أليق بما أخذه وهو قوله : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ . وهو
أيضا أشكل بما قبله لأن قبله مقرنين في الأصفاد .
والثالث أن يكون الأول أعرف من الثاني وذلك في الإخبار والصفات .

وأما الإخبار فكقولك : زيد قائم معي . إذ بدأ بذكر زيد ليطلع النفس بذكر
ما يعرف إلى الأخبار عنه بما لا يُعرف ... إلخ » .

وبذكر أشياء أخرى تعطى اقناعاً بأن الرجل ينطلق من تصور شيء - لتصور عبد
القاهر في نظرية النظم وإن كانا يشتركان في بعض الظواهر الأسلوبية .

وأورد ابن خلف في آخر أبواب الكتاب نماذج من المراسلات المختلفة ، والكتب
والعهود الصادرة عن الخلفاء الفاطميين ، مكتوبة بقلمه ، وصادرة بأسلوبه وقد بدأها
بالافتتاحية من البسملة والحمد ، والصلاة والسلام على رسول الله وعترته واختصاصي
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والإفاضة في الثناء عليه ، وأظهار مآثره في الدين ثم الدعاء
للخليفة الفاطمي والنص على أن جده علي بن أبي طالب إلى غير ذلك مما اختصت به
المكاتبات الفاطمية لتثبيت دعواهم ، وإقامة نسبهم إلى علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة
الزهراء ابنة النبي ﷺ والنص كذلك على الوصية والولاية وانتقالها في الأصلاب حتى
خلفاء الفاطميين :

والكتاب عظيم الفائدة جليل القدر بما حوى من نماذج لكتابة العصر ، ورسوم
الكتاب وطرائقهم في الكتابة ، مع بعض نماذج ووثائق تلقى أضواء كثيرة على النظم
الادارية في الدولة الفاطمية . فضلاً عما جاء به من أبواب متعلقة بالبيان والبلاغة .

وقد أفاد من الكتاب جماعة ممن تناولوا الموضوع من بعده ، ونقلوا عنه ولم يشيروا أو
نقلوا كثيراً وأشاروا كثيراً ، وأهملوا الإشارة أيضاً كثيراً مثل القلقشندي في صبح
الأعشى الذي حفظ لنا كثيراً من فصول « مواد البيان » وأبوابه ، ينقل عنه فيقول قال
علي بن خلف ، أو قال علي بن خلف في مواد البيان ، أو قال في مواد البيان ... إلخ ،
وينقل أحياناً دون إشارة ، ومقارنة الكلام بما جاء في مخطوط كتاب مواد البيان فجده

كلام ابن خلف نفسه يكاد لا يتغير إلا في بعض اللفظ ، وقد يأتي بمضمون أقواله دون لفظه .

وهكذا تستطيع أن تقول إن مواد البيان كان دعامة هامة لصبح الأعشى وكان منهجه سيلاً هادياً سار عليه القلقشندى في كتابه الكبير .

لعلى بن منجب القصير في

يقول في مقدمته بعد الديباجة :

فأما صناعة الشعر وذكر بديعه ، وسائر أنواعه ونقاسه حددت أثر على من هم فيه المقال ، وتوسع في تصنيفه وأطال .

ورأيهم أهلوا الكلام في الكتابة أجيلة قدرا ، السببة ذكرا ، الرفيعة شأنًا ، العلية مكانا ، التي هي كتابة حضرة الملك المشتعلة على الإنشاء إلى ملوك النور ، والمنكاتبه عنه إلى من قل من الأمم وجل . وكيف يجب أن يكون متوليها وما يحصه من الأحلاق والأدوات وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يحتب من القبايح والثرذائل ، وكيف ينبغي أن تكون أمور أتباعه ومُعِينيه ، وأتى الحالات ينبغي أن يكون عليها ديوان الرسائل الذي يتولاه وينظر فيه . فلم يذكروا من ذلك دقيقاً ولا حسيلاً ، ولا شرحوا منه كثيراً ولا قليلاً . ومن ألم منهم بصناعة الكتبة فأنما نكته على قوانين بعد

(۷) پتھر کی دھند نکالیں : اہل بصر اُن پتھروں کو اُٹھائیے۔

و یکنیم و بر سر من فریب ۱۱۱

أمورها ، ولم يلم بشيء مما تركوا . وأكثرهم حشاشكتبه الموضوعه لذلك باللغة والنحو والتصريف فخرجت عن الغرض المقصود ، لأن لكل نوع من هذه الأنواع كتباً مفردة تستغرق ما يؤتى به في هذه المؤلفات ، وتشتمل على أضعافه فالتماسها من هناك أولى ، وطلبها من معدنها أجدر وأحرى .

ولما وجدت المتقدمين قد تركوا ذلك وأهملوه ، وأضاعوه على مر السنين وأغفلوه ، علمت أن الله تعالى قد ذكر فضيلة تصنيفه وإظهاره ، ومغبة بروزه إلى الوجود واشتباره لهذه الأيام الزاهرة ، العادلة المضيئة السعيدة الأجلية الأفضلية ، التي رفعت الجور عن الأمم ، وملكّت فضيلتي السيف والقلم . واستولت على غايات المفاخر ، واستبدت بغرر المناقب والمآثر . ووجب أن تنتج فيها الأفكار العقيمة ، وتظهر لها أسرار الفضل المكتومة ، فاستخرت الله تعالى وتوكلت عليه ، وعوّلت على تصنيف هذا الكتاب وإيداعه ما تصل القدرة إليه من أنواع الترتيبات وفنون الفضائل وسميته بـ « قانون الرسائل » وجعلته أبواباً وفصولاً ، وبينت الأمر فيه على ما يقتضيه حكم البلاد المصرية ، والأمر المتعارف فيها الآن وغيره من الأوقات . والله المستعان ، وهو حسبي ونعم الوكيل . « (١)

فصل في الغرض المقصود بهذا الكتاب

الغرض بهذا الكتاب أن يكون قانوننا يعرف به من يجب أن يولى رئاسة ديوان الرسائل وتقدمته ، ومن يجب أن يكون تلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من الخدام الذين لا غنى عنهم ، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم ، والطرق التي إذا سلكت في هذا الديوان أدّت إلى ضبط أموره وأمن معها اختلال شيء منها ، وفساد يدخل عليها ، وسهل وجوده ما يلقي من علم أمور تقادم عهدها وبعدت أزمته . ويجب أن يكون هذا الكتاب مخلداً في ديوان الرسائل يقتدى به كل من يخدم فيه ، ويستضيء بهدايته ، ويتخذى أمثاله ، وأن يؤخذ المستخدمين في الديوان بفهمه ويحفظه .

★ ★ ★ ★

(١) قانون الرسائل ص ٢٠

فصل « في الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس هذا الديوان
وما ينبغي أن يكون حاصلًا عنده من العلوم والمعارف والأخلاق
وما يرجى من الانتفاع بالمصالح ونفي الضرر عنه »^(١)

أول ما يجب أن يكون رئيس ديوان الرسائل ومتولى الكتابة عن حصرة الملك ذا رين
وورع وأمانة ، فإنه بمنزلة كبيرة ، ورتبة عظيمة يتحكم بها في أرواح الناس وأموالهم لأنه
لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف ، أو كتبت شيئاً قد علمه ، أو تأول لفظاً بغير
معناه أو حرفه عن جهته أذى إلى ضرر من لا يستوجب الضرر ، ونفع من لا يستوجب
النفع ، بل ربما ضرر من يجب نفعه ، ونفع من يجب الإضرار به ، وموه على الملك حتى
يشكر المذموم ويذم المشكور ، فمتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ، وورع
يزعجه عن احتساب الخاتم . وأمانة لا تمتد يده بها إلى رشوة تحسن له الدخول في
المسالك المذمومة ، ونزاهة نفس تصدقه عن الشهوات المؤرقة له إلى النوارد المنكروهة .
وقعت الدولة منه في ورطة شنعاء ، وداهية دهياء . وكان الضرر بمكانة أكثر من
الانتفاع ، ولم يكن إلا وبالأعلى على الملك ، لأنه يحسن له غير الحسن ، ويقبح له غير
القبیح ، ويزكي من لا خير فيه ، ويذم من لا ثمر مساعيه . ويضع الأشياء في غير
مواضعها ، فيهد بقلعه مالا تبنيه السيوف والرماح في أنسنة المتطاولة .

ويجب أن يكون دينه الإسلام لأنه من الملك بمنزلة الوزير ، والوزير مشتق من
المؤازرة والمؤازرة هي المساعدة والمعونة والمظاهرة ، ولا يجب أن يتخذ هذا الأمر من
يخرج عن دين الإسلام لقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاِنَّهُ مِنْكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ » . فأول ما يتجنب الملك من نهى الله جل جلاله ، وتقديست أسمائه عن اتعاده
وليا ، بل الواجب على الإطلاق ، وخاصة بعكم الوقت الحاضر أن لا يُقبل على أسرار
من يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العدو ، خذله الله وأباده .

وإن من الفطرة التي جبل كل أحد عليها حين تنزل شخص من الناس إلى من يرى
رأيه ويدين بدينه . وهذا أمر يجده كل أحد في نفسه .

(١) المصدر نفسه ص ٩٤ .

ومع ذلك فإن كاتب الرسائل أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيه وأوامره ، والذكر لقوارعه وزواجره . وهو حلية الرسائل وزينة الانشاءات ، والذي يشدُّ قوى الكلام ، ويثبت صحته في الأفهام ، فمتى خلث منه كانت عاطلةً من الخاسن ، عاريةً من الفضائل ، لأنه الحجة التي لا تدحض ، والحقيقة التي لا ترفض . فإذا كان الكاتب من الذمة لم يكن لديه من ذلك شيء ، وأنت كتبه مغسولةً من أفضل الكلام ، وخاليةً مما يترك به أصل الإيمان والاسلام ، ومقصرة عن رتبة الكمال ، ومنسوبة إلى العجز والإحذال . فإن ثعاطى الكاتب الذمى حفظ شيء منه وكتبه ، فقد أبيحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ، وأمكن منه من يتخذه هزواً ولعباً . والله سبحانه يقول : ﴿ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ . فقد وضع أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلمٌ . ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أنقى جيباً وأفصح غيباً . فإن المسلمين ، وإن جمعتهم كلمة الإسلام فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر . قريبٌ مما بين المسلمين والمشركون . فكما وجب أن يكون المؤهل لهذه الرتبة مسلماً كذلك يجب أن يكون على مذهب الملك الذي اختص به من بين مذاهب المسلمين ليكون مجتهداً في خدمته ، مبالغاً في نصيحته ، يمحضه الرأي عن صفو نية ، لا يخالطه كدر ، وخلص محبة لا يشوبه مذق . ويكون الملك قد أحسن لنفسه الاختيار ، وأجادَ لدولته النظر ، وأراح نفسه من كلفة التحفظ منه والحذر له .

ويجب أن يكون من يختار لهذه الرتبة ممكناً من عقله ، فإن العقل أسُّ الفضائل وأصل المناقب ، ومن لا عقل له فلا انتفاع به . وكيف لا يكون كذلك وهو المستشار في كبار الأمور ، والمشارك في النظر في سداد الثغور . وإنما كلام المرء ورأيه على قدر عقله . فإذا كان تام العقل كامل الرأي وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهته ، وخاطب كلَّ أحدٍ عن السلطان بما تقتضيه الحال التي يكون عليها ، فيستدُّ ما كانت الشدة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ويوبخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويدم من تعدى إلى ما يستوجب الذم ويأق بأصناف المكاتبات التي يقتضيها اختلاف الحالات واقعة مواقعها ، صائبة مراميها .

ويجب أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد

أحد في عصره يفوقه في هذا الفن ، فإنه لسان السلطان الذى ينطق به ، ويده التى بها يكتب . وربُّ كاتب بليغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى صاحبه عن الكتاب ، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيضي القواضب . فإذا كان جيّد الفطرة صائب الرأى ، حسن الألفاظ تتأتى له المعانى الجزلة ، فيجملوها في الألفاظ السهلة ، ويختصر بحيث يكون الاختصار كافياً ، ويطيل حين لا يجد من الإطالة بُدّاً ، ويَهْدُدُ فيملاً القلوب روعة ، ويشكر فيلقى على النفوس جَذَلاً ومِسْرة . ثم إن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عظم مملكة صاحبه ، وفَحَّمَهَا في معاريض كلامه من غير أن يوحى أن ذلك قصده ، واستصفى نية المكاتب ، واستجاب مودته في أثناء الخطاب ، وإن لم يَظْهَرْ أن ذلك مطلبه ، بل يريد أن الحظ والنصيب الأوفى إذا تم ذلك معه .

وينبغى أن يكون مضطلعاً بفنون الكتابة ، عالماً بأصولها ، وفصولها ، مستقلاً بأعبائها يفوق في النهضة جميع المستخدمين معه والمعنيين له ، لأنه الأصل الذى هم فروعهم والمقدم الذى تعرض عليه كتبهم وتأليفاتهم .

وهذا المقدم يجب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى أو قيماً بقراءته إذا قرأه فإنه شديد الحاجة إليه كما تقدم بيانه ، ويكون حافظاً لأخبار الرسول ، والأئمة من ذريته صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين ، قيماً بها أو بأكثرها ، راوياً لأخبار الملوك ، وأيام العرب ، ووقائعهم ، وأخبار العجم وسائر الأمم ، وما جرى في أيام الملوك الماضين ، وما حدث من وزراءهم وكتابتهم ، وقوادهم وأخبارهم ، فإنه أحوج الناس إلى ذلك ، وربما دفعته مضايق الكتاب إلى الاستشهاد بشيء منه ، فمتى لم يكن لديه ملكة له ومحفوظاً عنده وقف وقوف المحم ، ولجلنج لجلجة المجمع .

ويجب أن يكون لديه شيء من معرفة الحلال والحرام ، ليكون واجداً له متى دُفِعَ إلى أن يسأل عنه .

ويجب أن يكون حافظاً للأشعار ، راوياً للكثير منها ، يستشهد بما غناه يحسن الاستشهاد به في بعض المواضع ، فإن للمنظوم من البهجة في النفس ، والواقع في القلب ما ليس للمثور ، وربما حلّ منه ما يحتاج إليه ، فأقْبَى به مشوراً في أثناء رسائله وطقى إنشاءاته ، فكمن معنى بديع ، رائع قد حفظى به المنظوم دون المنثور .

وإن كمل لأن يكون محسناً لتنظيم الشعر مجيداً فيه كان أجمل لصفاته ، وأكمل

دواته . ويجب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف واللغة أكثرها ، فإنه أحوج
لناس إلى هذه العلوم . »

ونكتفى بهذا الجزء من كتاب ابن الصيرفي ، وهو كما قلنا تلخيص شديد لما جاء في
كتب السابقين عن الكتابة والكتاب ، وأحسب أنه اطلع على كتاب ابن خلف ولكنه
كتم ذلك ، لأنه سار على نهجه وإن جاء مخلصاً ، ويعيب عليه الاطالة والافاضة فيما
يتصل بأدوات الكاتب ، وما ينبغي أن يحصله من المعارف والعلوم حتى يكون جديراً
بالكتابة للملوك والسلاطين .

ومهما يكن أمر هذه الكتب التي ألفت في الكتابة والكتاب ، وصنعة الكتابة فإن
الحديث عنها يؤدي إلى التعرف على أشياء كثيرة ، كما ألحنا في كلامنا عن « مواد
البيان » .

والمهم أن هذه الكتب ورسوم ديوان الانشاء ، وقوانينه أثرت بعد ذلك فيما ألف من
مؤلفات تتناول الموضوع نفسه في العصور التالية ، وعلى سبيل المثال في القرن السادس ؛
والسابع ، والثامن أمثال كتب ضياء الدين بن الأثير ، وشهاب الدين محمود ، وعماد
الدين بن الأثير .

والجدير بالذكر تلك المنافسة الشديدة بين الكتاب والشعراء ، والمناظرات العديدة
التي استهدفت بيان صنعة كل من الفئتين ، وميزة كل من الفئتين ، ولعل أكثر تلك
المناظرات ، وأعمقها ، وأكثرها بسطاً : وإيراداً للعديد من الجوانب للاحتجاج للكتابة
على غيرها من سائر صناعات الكلام وفنونه كالخطابة والشعر مأوردناه من قول علي بن
خلف .

ولعل دفاع ابن رشيقي في كتاب العمدة عن الشعر كان كذلك ضرباً من الرد على
أمثال ابن خلف ممن يفضلون الكتابة والكتاب على الشعر والشعراء .

سسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى

قد يكون هذا الكتاب خارجاً عن موضوع الكتابين السابقين ، وهو الحديث عن الكتابة والكتاب ، لكنه لاشك قريب الصلة ، لأنه يعرض لصميم صناعة البيان وفصاحة التعبير التى يحرص كتاب الإنشاء عليها ، ويفردون لها الفصول فى كتب صنعة الكتابة .

وربما كان الأجدر بالحديث عن هذا الكتاب تناوله من ناحية البلاغة ، أو عند الحديث عن البلاغة والنقد ، إذ الفصاحة شقٌّ من البلاغة ، أو تبدل وإياها وتتنازعان مضموناً واحداً ، ومعنى مقاربا .

وعلى أية حال فإن ابن سنان حين أنف كتابه أطلق اسم الفصاحة على كل جوانب علم البلاغة أو معظمها .

يقول مقدماً للكتاب : « أما بعد فإنى لما رأيت الناس مختلفين فى ماهية الفصاحة وحقيقتها » أودعت كتابى هذا طرفاً من شأنها . وجملة من بيانها ، وقربت ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل . ولم أقل بالاختصار إلى الإخلال ، ولا مع الإسهاب إلى الإحلال . ومن الله أستمد المعونة والتوفيق .

إعلم أن الغرض من هذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة ، والعلم بسرّها ، فمن الواجب أن نبين ثمره ذلك وفائدته ، لتقع الرغبة فيه . فنقول :

أما العلوم الأدبية فالأمر فى تأثير هذا العلم فيها واضح ، لأن الزبدة منها والمكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه . ونقده ومعرفة ما يختار منه مما يكره . وكلا الأمرين متعلقان بالفصاحة ، بل هو مقصورٌ على المعرفة بها ، فلا غنى للمتبحر الأدب عما نوضحه ونشرحه فى هذا الباب . » .

ويجعل المدخل إلى معرفة أسرار الفصاحة ضرورة شرعية هى التعرف على حقيقة اعجاز كتاب الله « القرآن » . ويرى ضرورة أن يعرف الباحث فى شأن الفصاحة شيئاً عن الأصوات ، وكنها ، وجوهرها ، وضيعتها ، باعتبارها ناتجة عن حركة عضوية فى

جسم الانسان كما تصدر الأصوات عن تحرك واصطدام في غيره من الأجسام . والصوت هو جوهر الكلمة التي تعبر ، أو يعبر بها الانسان عن مراده . فيعقد فصلاً في الأصوات وفلسفتها^(١) ، والفرق بينها وبين الألوان ، أو التضاد في طبيعة كل منهما حيث أن الصوت عرض غير ثابت بينما اللون عرض ثابت .. ويتنبه إلى أن سرعة انتقال الضوء الذي به يدرك اللون أسرع من انتقال الصوت « ثم يسمع الصوت بعد مهلة ، فيسبق النظر السمع » . والصوت لا يدرك على استمرار عكس اللون الذي يتوفر فيه الاستمرار وعليه ، فاحتاج الصوت إلى التقييد بالرسم وهو الكتابة .

ويعرض بعد هذه الفلسفة العامة في حديث الصوت والضوء ، والعلاقة بين الكلمة المنطوقة ، والرسم في الكتابة . إلى حديث عن الحروف والكلمات في اللغة ، وأقوال العلماء في ذلك ، فيحدثنا عن معنى « الحرف » العام الذي تتكون منه الكلمات ، والحرف بالمعنى الاصطلاحي في علم النحو ، أى حرف الأداة . فيقول :

« أما تسمية أهل العربية أدوات المعاني نحو من ، وقد حروفاً فإنهم زعموا أنهم سموها بذلك لأنها تأتي في أول الكلام وآخره ، فصارت كالحروف أى الحدود له . وقد قال بعضهم إنما سميت حروفاً لانحرافها عن الأسماء والأفعال . وهى عندنا نحن كلام ، لأنها منتظمة من حرفين فصاعداً . » .

ويقول : « والحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت ، حتى شبه بعضهم الخلق والفم بالتأني ، لأن الصوت يخرج منه مستطيلاً ساذجاً ، فإذا وضعت الأنامل على خروقه ووقعت المزوجة بينها سُمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه ، فكَذلك إذا وقع الصوت في الخلق والفم بالاعتماد على جهات مختلفة ، سمعت الأصوات المختلفة التي هي حروف . وهذا لا يوجد في صوت الحجر وغيره ، لأنه لا مقاطع فيه للصوت . وليس يحتاج إلى حصر الحروف التي يتعلق بها . وإنما الغرض ذكر ما في اللغة العربية التي كلامنا عليها ، لأن في غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها ، كلغة الأرمن وما جرى مجراها .

فحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً وهي :

المهزة ، والألف والماء والعين والحاء ، والغين والخاء ، والقاف ، والكاف

(١) سر الفصاحة ص ١٥ طبع دار الكتب العلمية بيروت .

والضاد والجيم والشين واللام والراء ، والنون والطاء والدال والفاء والصاد والزاي
والسين والظاء والذال والطاء ، والفاء والباء والميم والواو .

وهذا ترتيبها في المخارج .

وكان أبو العباس بن المبرد لا يعتد بالهمزة ، ويجعل الحروف ثمانية وعشرين حرفاً . وقوله
هذا عند النحويين مرفوضٌ . ^(١) »

★ ★ ★ ★

« ويلحق بهذه الحروف التي ذكرناها حروف بعضها يحسن استعماله في الفصح من
الكلام وبعضها لا يحسن . فالتى تحسن ستة حروف وهي : النون الخفيفة التي تخرج من
الخيشوم والهمزة الخفيفة ، وألف الإمالة ، وألف لتفخيم ، وهي التي بها يُنحى نحو
الواو وذلك كقولهم في الزكاة — الزكاوة — والصاد التي كالزاي ، نحو قولهم في
مصدر — مَزَدَر والشين التي كالجيم نحو قولهم في أشدق : أَجْدَق .

والحروف التي لا تستحسن ثمانية وهي : التي بين الجيم والكاف نحو قولهم في
جلهم — كلهم — والجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل : رُكِل ، والجيم التي كالشين
نحو قولهم في خرجت : خَرَشْتُ ، والطاء التي كالتاء كقولهم في طلب : تَلَبَّ والضاد
الضعيفة كقولهم أَشْرَد في أَضْرَد ، والصاد التي كالسين كقولهم سَدَق في صدق ، والطاء
التي كالتاء كقولهم تَلَم في ظَلَم ، والفاء التي كالباء كقولهم بَرَد في فَرَد .

ومخارج هذه الحروف ستة عشر مخرجاً : ثلاثة في الحلق . فأولها من أقصاه مخرج
الهمزة ، والألف والهاء ، وهذا على ترتيب سيبويه .

وزعم أبو الحسن الأَخْفَش أن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها . ثم يليه من وسط
الحلق مخرج العين والحاء . ثم من فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والحاء . ثم من
أقصى اللسان مخرج القاف . ومن أسفل ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف ومن
وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والباء .

ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد . ومن حافة اللسان من
أدناها إلى متبته طرفه بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام . ومن طرف اللسان

(١) سر الفصاحة ص ٢٦ — ٢٧ .

بينه وبين مافوق الثنايا مخرج النون . » (١).

وهكذا يفصل الحديث في مخارج الحروف وأصواتها ، ويخرج منه إلى القول في الكلام عامة ، وهو المركب من تلك الحروف فيعقد فصلاً يتحدث فيه عن المصطلح ، ومعناه ، واستخدام اللفظ فيقول : (٢) .

« والكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها على ما بيناه من أننا لا نذكر إلا حروف اللغة العربية دون غيرها من اللغات وحدها ، ما انتظم من حرفين فصاعداً من الحروف المعقولة إذا وقع جملة تصح عنه أو من قبيله الإفادة .

وإنما شرطنا الانتظام لأنه لو أتى بخرف ومضى زمان وأتى بخرف آخر لم يصح وصف فعله بأنه كلام ، وذكرنا الحروف المعقولة لأن أصوات بعض الجمادات ربما تقطعت على وجه يلتبس بالحروف ، ولكنها لا تتميز وتتفصل كتفصيل الحروف التي ذكرناها ، واشترطنا وقوع ذلك ممن يصح منه أو من قبيله الإفادة لئلا يلزم عليه أن يكون ما يسمع من بعض الطيور كالبيغاء وغيرها كلاماً . ولنا القليل دون الشخص ، لأن ما يسمع من المجنون يوصف بأنه كلام ، وإن لم يصح منه الفائدة وهو بخاله ، لكنها تصح من قبيله . وليس كذلك الطائر . »

وفصل القول في حد الكلام وحقيقته على ما ذكر العلماء ، كما يعرض للمتكلم بمثل ما عرض له في الكلام فيقول : (٣)

« وإذا كنا قد بينا حد الكلام وحقيقته ، فينبغي أن نذكر حقيقة المتكلم فنقول : إن المتكلم من وقع الكلام الذي بينا حقيقته بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده ، وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرأ .

والذي يدل على ذلك أن أهل اللغة متى علموا أو اعتقلوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا وصفوه بأنه متكلم ، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه لم يصفوه . فمجرى هذا الوصف في معناه مجرى وصفهم لأحدنا بأنه ضارب ومحرّك ومسكن ، وما أشبه ذلك من الأفعال ... » .

(١) سر الفصاحة ص ٢٩ — ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(٣) سر الفصاحة ص ٤٤ .

ويعمى فى الحديث عن هذا المتكلم حتى ىتهى إلى القول فى الحكاية والمحكى^(١)
ويعقد بعد هذا فصلاً فى اللغة . فىقول :

« اللغة عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام ، أو يكون توقيفاً ...
والصحيح أن أصل اللغات مواضعة ، وليس بتوقيف ، وإنما أوجب ذلك لأن توقيفه
تعالى يفتقر إلى الاضطرار إلى قصره . والتكليف يمنع من ذلك . وإنما اقتصر إلى
الاضطرار إلى قصده لأنه إن أحدث كلاماً لم يعلم أنه قد أراد بعض المسميات دون
بعض ، ولو اقترن بهذا الكلام إشارة إلى مسمى دون غيره ، لأننا لا نعلم توجه الكلام
إلى ما توجهت الإشارة إليه ، وإنما يعلم ذلك بعضنا من بعض بالاضطرار إلى قصده
وتخصص الإشارة بجهة المشار إليه لا يعلم بها هل الاسم للجسم أو للونه ، أو لغير ذلك
من أحواله .

وأما إذا تقدمت المواصفة بيننا ، وخاطبنا القديم تعالى بها ، علمنا مراده ، لمطابقة تلك
اللغة .

وأخذ ابن سنان بالرأى القائل بأن اللغة توقيف نتيجة اقتناعه العقلى باستحالة كونها
توقيفاً للحجج التى أشار إليها . وهذا القول إذا ما أضفناه إلى أخذه فى القول بالمعرفة فى
اعجاز القرآن يتضح الموقف العقلى لابن سنان ، ونحن نعلم أن بعض المعتزلة ممن أخذوا
بمناهج العقل كالنظام إبراهيم بن سيار أول من نادى بهذا الرأى فى القرن الثانى للهجرة
وأوائل القرن الثالث .

ويعرض بعد ذلك لبعض ميزات اللغة العربية على غيرها من اللغات ، ويقارنها ببعض
ما ترمى إلى سمعه أو علمه من اللغات بحكم المكان والملاصقة ، وربما التعامل كذلك ،
وأعنى اللغة الأرمنية وهى قرية من بلدة حلب ، واللغة الرومية وهى كذلك أيضا .
ونعلم ماكان لتأثيرها على مناطق الشام منذ قديم الزمان ، وقد ظلت تحت سيطرة بيزنطة
دهراً قبل الاسلام كما لم تنقطع علاقات الروم الوثيقة بالشام زمن الحرب والسلم طوال
القرون الاسلامية فى عصور الأمويين والعباسيين والحروب الصليبية فى القرنين الخامس
والسادس .

(١) سر المعصاحة ص ٤٦ — ٤٨ .

ويرى أن اللغة العربية تفضل كثيراً من اللغات بميزتين :
الأولى : سعة المسميات للمسمى الواحد .
والثانية : القدرة على الإيجاز .

يقول : ^(١) « فأما ما نحن بصدده عن ذكر اللغة العربية فلا خفاء بميزاتها على سائر اللغات ، وفضلها . أما السعة فالأمر فيها واضح . ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها — على ما سمعته — لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الأسماء للمسمى الواحد .

على أن اللغة الرومية بالضد ، فإن الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً . وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف والأسد في لغة العرب ، فكانت أوراقاً عدة .

وهي مع السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني . وفي النقل إليها يبين ذلك فليس كلاماً ينقل إلى لغة العرب إلا ويحيى الثاني أخصر من الأول مع سلامة المعاني وبقائها على حالها . وهذه بلا شك فضيلة مشهورة ، وميزة كبيرة . »

قال : « وقد حكى أن بعض ملوك الروم — وأظنه نقفور ^(٢) — سأل عن شعر المتنبي فأنشد له :

كَأَنَّ الْبَيْسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي مُتَاخَاتٍ ، فَلَمَّا ثَرَنَ سَالَا

وُفِّرَ لَهُ مَعْنَاهُ بِالرُّومِيَّةِ ، فَلَمْ يَعْجِبْهُ ، وَقَالَ كَلَاماً مَعْنَاهُ : مَا أَكْذَبَ هَذَا الرَّجُلَ ! . كيف يمكن أن يُنَاخَ جَمَلٌ عَلَى عَيْنِ إِنْسَانٍ ! . » ^(٣) .

كذلك أشار إلى فضيلتين أُخْرَتَيْنِ إحداهما تتصل بحسن الأصوات في كلمات اللغة ، وعدم تكلفها الوعر المتعب ، وإنها تلفظ دائماً وتعمل كل ما خشن وقبح . وهذه قاعدة عامة في كل اللغات .

والعلة الأخرى ليست مضافة إلى اللغة بل إلى أصحابها والمتكلمين بها وهذه الأخرى ليست في بناء اللغة ولا هي خاصة من خواصها بل علة مضافة .

(١) سر الفصاحة ص ٤٩ .

(٢) هذا الملك كان معاصراً لسيف الدولة وامتدَّتْ وكادت له وقائع كثيرة بالشام احتل فيها عدة مدن من بينها حلب وبعض مدن الشمال والساحل في منتصف القرن الرابع .

(٣) سر الفصاحة ص ٥٠ .

يقول : (١) « وما يدلُّ على فضل هذه اللغة العربية أيضاً وتقدمها على جميع اللغات أن أربابها وأصحابها هم العربُ الذين لا أمة من الأمم تنازعهم فضائلهم ، ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم . »

ثم يفصل بعد هذا فصلاً في مناقب العرب التي اكتسبت بسببها لغتهم فضلاً على غيرها من اللغات .

الكلام في الفصاحة

ويشير إلى الفصاحة وأصل استخدام اللفظ فيرى أنها الدلالة الواضحة على المعنى ، « وسُمِّيَ الكلام فصيحاً ، كما أنهم سَمَوْهُ بَيَاناً لإعراجه عما عَبرَ عنه ، وإظهاره له إظهاراً جلياً . »

روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش . »

والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لا تدلُّ على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغاً ، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه . »

ويستطرد استطرادات في الحديث عن البلاغة وأقوال العلماء فيها ، وفضل الانسان على الجماد والحيوان بالكلام ، لكنه يراه الكلام المفيد الدال على العقل وليس مجرد الكلام .

ويعود إلى حديث الفصاحة فيقول : « ونبتدىء الآن بالكلام فيما أجرينا القول إليه ونقول : إن الفصاحة — على ما قدمنا — نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة . ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ ، ونعسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود أعضادها تستحق الاطراح والذم . وتلك الشروط تنقسم قسمين :

(١) انظر معه ص ٥٢ .

فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ ، وتؤلف معه . والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .

وفي حديثه عن هذين القسمين يلمح إلى الانسجام والتعادل والتناسق ، في نظام بعينه بين درجات الصوت ومخارجه ، ويقرن بين الصوت والسمع أدياته ، واللون أو الشكل والعين أدياته ، فكل ما تستريح له الأذن على النظم المخصوص من الحروف واصواتها مستعذب مستحب ، وكل ما لا تستريح له من ذلك النظم مستقبح منبوذ .

ويعلل جمال التأليف المتباعد المخارج أحياناً بقوله :

« وعلة هذا واضحة ، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك في أن الألوان المتباعدة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة . لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود . وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة ، لا يحسن النزاع فيه ، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة . وقد قال الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبصرٌ والفرغ مثل الليل مُسودٌ
ضدان لما استجمعا حسناً والضد يظهر حسنة الضد

* * * *

والثاني — أن نجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزيةً على غيرها وإن تساوى في التأليف من الحروف المتباعدة . كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه .

ولا مرأى في أن ابن سنان توصل إلى هذا التذوق لجمال الصوت في اللفظ ومقارنته بجمال اللون في الصنعة الممثلة في الثوب والآلة ، والصورة ، أو في الفن المرئي عادة ما لم يمارس الاستماع للموسيقى والغناء ، والاستمتاع بمفاتيح الجمال كل مشاهد جميل الصنعة من عناصر الفن في الحياة ، وقد أشرنا إلى اهتمام الناس بالفن سماعاً في الموسيقى والغناء ؛ ومشاهدة وممارسة مما أبدعه الفنان العربي المسلم من أدوات فنية جميلة وصفت لنا أو أدركتنا بعض نماذجها فدللتنا على جمال في النوق ، وبراعة في الفن .

ولو كان الفن غير مباح أو متطور في المسموح والممنوع ، بل في بابيع الحديث في تيل مقروء ومنظوم أو منشور ، ولجفت مياه الحياة نفسها ، واصبحت بلقعا كأن لم تغن بالأمس . ولكن الشواهد تؤكد تجدد الحياة ، وتطور الفن الاسلامي وإصرار اجتماع الإسلامى فى كل مرحلة من مراحل حياته على أن يمارس فنون السسع والبصر .

واستعان ابن سنان بكلام سابقه ومعاصره من البلغاء فى تأكيد أقواله ، كاستعانه بشعر المتنبي ونثر أبى القاسم والحسين المغربى (الوزير المغربى) فى بعض رسائله :
« وَرَعَوْا هَشِيمًا تَأْنَفَتْ رَوْضَةٌ »

فإن تأنفت كلمة لاختفاء نجسها لوقوعها الموقع الذى ذكرته . وكذلك قول أبى الطيب المتنبي :

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاح مسك الغانيات وزلزلته
فإن كلمة تفاح فى غاية من الحسن .

ويعدد بعد هذا شروط الفصاحة فى اللفظة المفردة فيجعلها ثمانية ، تتصل بالبناء الصوتى والتركيب للحروف من حيث الطول والقصر . والبناء الدلالى أو الاشتقاق كالتصغير .

وكذلك الحال فى الألفاظ المركبة أو الكلام المؤلف (١) وعنده الكلام المؤلف صناعة كغيره من الصناعات ، وفناً كغيره من الفنون ، وتكمل كل صناعة بخمسة أشياء : الموضوع ، والصانع ، والصورة ، والآلة ، والغرض .

« فأما الموضوع فهو الكلام المؤلف من الأصوات على ما قدمته » ..
وأما الصانع المؤلف فهو الذى ينظم الكلام بعضه مع بعض ، كالشاعر والكاتب وغيرهما
وأما الصورة فهى كالفصل للكاتب والبيت للشاعر وما جرى مجراها .
وأما الآلة فأقرب ما قيل فيها أنها الطبع ، والعلوم التى اكتسبها بعد ذلك .
وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف . فإن كان مدحاً كان الغرض به قولاً يبنى عن عظم حال الممدوح ، وإن كان هجواً فبالضد .

(١) ص ٩٢ .

ويقول (١)

« ... ومع هذا البيان كله ، فالفصاحة عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار فإذا كنت قد ذكرت الموضوع والوجه في اختياره ، وعلى أى صفة يكون المرضى منه والمكروه بما فيه منقح أو كفاية ، ثم شرعته الآن في الكلام على التأليف بحسب ذلك ، وبنيت منه الوجوه التى بها يحسن أو يقبح كان الكلام في معرفة الفصاحة وحقيقتها واضحا جليا ... وكانت منزلة هذا الكتاب لمن لا يعرف البلاغة وطلاوة الكلام منزلة العروض لمن لا ذوق له يميز به بين صحيح النظم وفاسده ، والنحو لمن لا يعرف طبعا وعادة . وإنما يتكلف وتصنع . وليس يمكن إيضاح الفصاحة لمن يجهلها إلا بهذا السبب وعلى هذا النحو ، لأن من له بها معرفة وسابق علم إنما حصل له ذلك بالمخالطة والمناشدة وتأمل الأشعار الكثيرة ، والكلام المؤلف على طول الوقت وتراخى الأزمنة .

وليس يمكنه أن يحصر لمن أراد تعليمه كل بيت سمعه ، وفصل تأمله ، ولفظة كرهها أو معنى حكم بفساده أو بصحته ، لأن هذا يحسج إلى الزمان الطويل والأيام الكثيرة ، بل ولا يمكن حصوله التة . »

وبعدد شروط حسن التأليف وفصاحة النظم في الكلام ، ومنها مايتفق مع شروط فصاحة اللفظة المنردة ، ومنها ماختلف .

فما يتفق عدم تكرار الحروف المتقاربة الخارج ، أو المتباعدة الخارج جداً ، ويدخل هذا في باب التلاؤم الذى أشار إليه الرماني في « النكت » بين وجوه البلاغة العشرة .

كذلك استخدام الكلمة فيما يكره ذكره ، وهو ماسمى بالالتباس في الدلالة يقبح التأليف إذا أضيف إلى غيرها .

ومن هذه الشروط مالا علاقة له بالتأليف كالتصغير .

هناك أقسام خاصة بالتأليف ، مثل وضع الألفاظ في مواضعها التى يقتضيتها تسلسل المعنى دون تقديم أو تأخير بخلاف سياق المعنى وهو ماسمى في بعض كتب البلاغة بالمعاطلة من مثل قول الفرزدق :

(١) سر الفصاحة ص ٩٦ .

وما مثله في الناس إلا مملوكا أبو أمة حتى أبوه يُقارِبُه
وأن يجري على عادة التراكيب في اللغة دون إدخال بمواضع التوابع أو الضمائر ، فلا
يفصل بين الصفة والموصوف ، أو بين المضاف والمضاف إليه ، والمقلوب من
الكلام ^(١) .

وأدخل بعض عناصر علم البيان كالاستعارة في التأليف الفصيح ، وجعل من وضع
الألفاظ مواضعها حسن الاستعارة .

ومن وضع الألفاظ مواضعها أن لاتقع الكلمة حشواً . « وأصل الحشو أن يكون
القصد به إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي إن كان الكلام منظوماً ،
وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منشوراً ، من غير معنى تفيده أكثر من
ذلك . » ^(٢) .

ومن وضع الألفاظ مواضعها تجنب ما استماه المعازلة ، وهي غير التركيب الخل ، بل
هي أن يركب اللفظ بعضه بعضاً ، وجعل منه الدلالة بلفظ غير مناسب للمدلول أو
تتابع الأفعال على صيغة واحدة مثل قول أبي تمام .

خان الصفاء ألح خان الزمان أخاً عنه فلم يتخسون جسمه الكمد
وكقوله :

يايوم شرذ يوم هوى هـوه بصابتى وأذل عز تجلدى
فقوله : يايوم شرذ يوم هوى هـوه
شديد التعاضل حتى كأنه سلسلة
ومنه أيضاً قول أبي تمام :

يوم أفاض جوى أغاض تعزياً خاض الهوى بحزى حجاج المزيذ

ومن تأمل هذا النظم ، وما جاء فيه من تتابع الأفعال يجذ أن هذا التتابع أفسد العايل ،
أو داخل بين العوايل في الجملة ، فهو شبيه بالقول السابق الخاص باضطراب التركيب .

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) سر المصاحبة ص ١٤٦ .

وضد هذا التعاقل وتداخل العوامل مما يُبهم الكلام ، ويغشى على المعنى فيه البناء السهل المتتابع الذى يدل فيه صدر اللفظ أو العبارة على عجزها وهو البناء الفصيح من مثل قول زهير بن أبى سلمى :

سَمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَمُشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَهَالِكُ بِسَامٍ
لأنه لما قال فى أول البيت — سَمْتُ — وقال ومن يمش ثمانين حولاً — اقتضى الكلام أن يكون فى آخره بِسَامٍ .

ورغم أن ابن سنان جعل هذا اللون من فصاحة بناء العبارة أو من شروط فصاحتها فى تصور اجمالى للفصاحة فى الجملة أو العبارة إلا أن علماء البديع من بعد الفراهيم بالتجزئة والتصنيف والتكاثر بالأبواب والأنواع جعلوا من هذا الضرب ، أو الشرط باباً من أنواع البديع وأسموه أسماء شتى كما فعلوا فى غيره مما جاء به ابن سنان فى شروط التأليف الفصيح ومواضع ما يستحسن من الحشو ، فقد فرعوا منه التميم والإيقال ، وما إلى ذلك .

ويجعل من الفصاحة موافقة السجع ، وإقامة البناء الصرفى ومراعاة التناسب بين الالفاظ ، ووقوع القوافى مواقعها ، ويفصل حتى فى شروط القوافى ومتى تحسن ومتى تصبح .

ومن فصاحة التأليف حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب ، ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً وما يرجع إلى المؤخر مؤخراً . ومثال ذلك قول الشريف الرضى :

قلبي وطرفى منك ، هذا فى حمى قَيْظٍ ، وهذا فى رياض ربيع

وجعل من التناسب فى التأليف المؤدى إلى فصاحته التجانس ، وهو ما كان بعض اللفظ مشتقاً من بعض أو كان معناهما واحداً أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً أو تتوافر صيغتا اللفظين مع اختلاف المعنى .

وكذلك المطابق ، المطابقة ، والإيجاز وأنساقه والتذييل .

ويذكر بعد ذلك ضروباً من الافتنان فى التعبير .

ويعقد باباً فى المعانى المفردة ، فيجعل من فصاحة القول وضوح المعنى وعدم استحالة ، أو امتناعه ، أو تناقضه مع غيره مما يجاوره .

ومنه صحة التشبيه ، وصحة الأوصاف والأغراض ، وصحة النسق والنظم « وهو أن يستمر في المعنى الواحد ، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متملقاً بالأول ، وغير منقطع عنه . ومن هذا خروج الشعراء من/النسيب إلى المدح ، فإن المحدثين أجادوا التخلص .. »

ومنها حسن الابتداء ، بأن يكون الابتداء دالاً على المعنى المقصود في الكلام . ومنها — الفصاحة — صحة التفسير ، ومنها كمال المعنى دون غلو أو تفریط .

يعقد في آخر الكتاب فصلاً في « ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام » وهو باب هام يتعقب فيه بعض الآراء التي وقف عليها في كتب النقاد السابقين من أصحاب الطبقات ، وأصحاب كتب نقد الشعر والشعراء ، أو أصحاب البديع ، والبلاغة ، من أمثال الخاتمي في حلية المحاضرة والحالي والعاقل وإن لم يذكره في كل كتابه كما ذكره غيره وكرر ذكره كقدامة بن جعفر ، والآمدي ، وأبي علي الرماني ، والقاضي الجرجاني .

ويناقش قضية القدماء والمحدثين وتفضيل بعضهم للقدماء، مفنداً تلك الآراء مبيناً أن الشعر لا تتعلق جودته ولا جماله بشخص أو زمان أو مكان ، كما أن القول بأن المعاني قد سبق إليها القدماء قول غير صحيح^(١) ، وكذلك الألفاظ والتول بصحة لفظ القدماء وفصاحته دون ألفاظ المحدثين أيضاً قول فيه نظر ... إلى غير ذلك مما يراه الأقوال الصادرة عن الهوى .

ويتبع ذلك الفصل بالقول في التفضيل بين المنظوم والمنثور ، وما يقال في تفضيل أحدهما على الآخر .

وهي القضية التي أثرتها عند الحديث عن ابن خلف وكتاب « مواد البيان » وقد أوردنا هنا إفاضته في الاحتجاج لفضل النثر والكتابة على الشعر . وهاهو ابن سنان معاصره يخوض في الموضوع نفسه كما خاض معهما أيضاً ابن رشيق .

ويذهب ابن سنان إلى تفضيل النثر على الشعر مع أنه شاعر مجيد ، وهو مع ذلك لا ينكر فضل الشعر فيورد أقوال من فضّلوه أولاً لكنه يتبعها بقوله^(٢) :

(١) راجع ص ٢٨٢ .

(٢) سر الفصاحة ص ٨٨ .

« وأما الذى نقوله من تفضيل النثر على النظم فهو أن النثر يعلم فيه أمور لا تعلم فى النظم . كالمعرفة بالمخاطبات ، وبينه الكتب والعهود ، والتقليدات ، وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم ، ويطلع على خفي أسرارهم . وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة ، والانتفاع بها فى الأغراض ظاهرة . والشعر فضل يستغنى عنه ، ولا تقوّد ضرورة إليه ، وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل منها قدرأً عالياً ، ولا ذكراً جميلاً . والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فمادونها من رتب الرياسة ، وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك . وإن أكثر النظم إذا وجد لا يعبر عن جد ، ولا يترجم عن حق ، وإنما الخلق فيه الإفراط فى الكذب ، والغلو فى المبالغة . وأكثر النثر شرح أمور متيقنة ، وأحوال مشاهدة . وما أكثر فيه الجذ والتحقق أفضل مما كثر فيه الطال والتغريب .

وقد يتسع الكلام فيما يخرج عن هذا المعنى ، وهذه الجملة كافية فى مثل هذا الموضوع .»

وينتقل إلى الحديث عما ينبغى أن يزود به مؤلف الكلام نفسه من أدوات مما أشرنا إليه من قبل عند ابن خلف وابن الصيرفى من علم اللغة ورواية الشعر ومعرفة العروض بالنسبة للشاعر ، والمعرفة بأخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها وصفة الحروب التى كانت لها .

ويحتاج الكاتب إلى معرفة المخاطبات وفنون المكاتبات والتوقيعات ، ورسوم التقليدات من الاطلاع على كتاب الله تعالى وشريعته وحديث رسول الله ﷺ وسنته . فإنه مدفوع إلى تقليد الولاة وعهود القضاة ، والتوقيعات فى المظالم ، والمكاتبة فى ضروب الحوادث .

« وبالجملة إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم . واطلع على كل صناعة لأثر ذلك فى تأليفه ومعانيه وألفاظه ، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها ، فإذا خبر كل شيء وتحققه ، كان وصفه له أسهل ، ونعته أمكن . إلا أن المقصود فى هذا الموضوع بيان ما لا يسعه جهله دون ما إذا علمه أثر عنده علمه . فإن ذلك لا يقف على غاية .

والوصية لهما ترك التكلف ، والاسترسال مع الطبع ، وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل المعرفة ، وبغض الإكثار والإطالة ، وتجنب الإسهاب فى فن واحد .

من فنون الصناعة ، فإن كلام الإنسان ترجمان عقله ، ومعيار فهمه ، وعنوان حسّه ، والدليل على كل أمر لولاه لطفى منه ، وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف واجتماع اللب عند النظم والتأليف . » ^(١)

وبعد فابن سنان في هذا الكتاب يكشف عن عالم أديب شاعر ، لا يتكلف في أسلوبه السجع ككثير من أدباء عصره ، ومنهم أستاذه أبو العلاء المعرى نفسه الذى رأيناه في رسائله إلى داعى الدعاة يتكلف السجع ولزوم مايلزم مما اضطر داعى الدعاة إلى أن يطلب إليه مخاطبته والكتابة إليه نازعا من كلامه تكلف هذين الحليتين .

وهو جرىء الرأى ، يأخذ بأسباب العقل مع الحفاظ على أصول الاسلام الحنيف وسنة النبى الصحيحة ، مع اعتداد باللغة والعروبة ، والأدب العربى شعره ونثره واعتبارهما مع كل ما يتصل بالثقافة العربية أساساً من اسس الثقافة الضرورية للأديب . وهو على علم بالفلسفة والعلوم العقلية لا ينكر فائدتها في تنمية العقل ، وإذكاء ناره ، وقدح زناده ..

وله مواقف تتسم باعتزازه بشخصيته لا يتبع ما قيل من رأى ، ولا يخضعه للرأى جلال صاحبه ولا سبق زمانه ، بل يعرض للحقيقة ، فيسطرها أمام فكره ويناقش جوانبها حتى يصل إلى اقتناع فيتبع ما توصل إليه ويدعو له .

وتراه من هذا المنطلق يعارض كبار العلماء والأدباء أحيانا ويوافقهم أحيانا ، بل إنه كثيرا ما وقف من أشيخه أبى العلاء نفسه موقف المعارضة والنقض لآرائه وشعره أو كتابته ولم يعترف برسائل أبى العلاء ، وقال إنه ليس كاتباً ولا يجيد صنعة الكتابة . مع كثرة ما لأبى العلاء من الرسائل التى قد تقول ما قال من الشعر .

(١) سر الفصاحة ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

الباب الخامس
مشاهير الكتاب والأدباء

١ - الوزير المغربي^(١)

أبو القاسم الحسين بن علي (٣٧٠ - ٤١٨ هـ)

وهو الحسين بن علي بن محمد المغربي ، لقب بالمغربي واشتهر بذلك في كتب الأدب التي نقلت شعره وأخباره ، وكذلك في كتب التاريخ . ولم يكن الرجل مغربيا ، بل كان مشرقيا ينتمي بنسبه إلى الملك الفارسي بهرام جور ، ولعل نسبته إلى المغرب بسبب عمل أحد أجداده في ديوان المغرب ببغداد . قال : « وكان جد أبي وهو أبو الحسن علي بن محمد يخلف على ديوان المغرب ، فنسب به إلى المغربي » .

وانتقلت أسرة المغربي إلى بغداد من البصرة بعد ثورة البريديين ، وأقام جده الأعلى بأحد أحياء بغداد ، وبها رزق بالحسين الجد الأدنى للمترجم له .

وانتقل هذا الجد الحسين من بغداد إلى حلب ، والتحق ببلاط سيف الدولة كاتباً له .

وفي بلاط سيف الدولة التقى الجدُّ الكاتب بكثير من الأدباء والشعراء وكانت بينه وبين بعضهم صداقات ، كابن نباته الشاعر الذي مدحه . وترقى في بلاط حلب حتى بلغ منزلة الوزارة وظل الجدُّ في خدمة سيف الدولة حتى سنة ٣٥٤ هـ . (وكان هذا الجد قد ترك أبناءه ببغداد ، ولم يلحقهم به في حلب ، وظلوا هناك في عاصمة الخلافة) .

حتى نشأ ابنه : عليُّ والد الوزير أبي القاسم ، وعمه . ويبدو أنهما بلغا من المنزلة في الكتابة والأدب مبلغا جعل الإخشيد في مصر يدعوهما .

(١) جمع الدكتور احسان عباس ، أخباره ونحوه وشعره وترجم له ترجمة وافية في كتاب أصدره باسمه « الوزير المغربي » طبع دار الشروق - ١٩٨٠ - عمان الأردن .

ويقول الدكتور إحسان^(١): « أما لماذا يفعل الإخشيد ذلك ، فأمر يشبه اللغز . نعم كان أبوها قد تعرف إلى الإخشيد أثناء وجوده في الشام أول انتقاله إليها من بغداد . ولكن ماهي المكانة التي بلغها الأخوان في بغداد حتى تحمل الإخشيد على إرسال فاتك بالجنون — ممدوح المتنبى — من بعد ليجيء بهما إلى مصر عن طريق الرحبة ؟ » .
ويبدو أن إقامتهما بمصر لم تظل فقد رأينا الابن علياً والد أبي القاسم يخلف أباه في خدمة سيف الدولة (ت ٣٥٦ هـ) بحلب ، وتزوج هنا من ولدت له ابنة ابا القاسم وكانت أم هذه الزوجة شيعية عراقية الموطن ، وكانت من أهل اليسار بالنعمانية — بلدة بين واسط وبغداد .

وظل علي بن الحسين والد أبي القاسم بحلب بعد وفاة سيف الدولة في خدمة ابنة سعد الدولة أبي المعالي . وكانت الدولة الفاطمية قد بدأت تستقر في مصر ، وكان بينها وبين بنى حمدان علاقات متقلبة ، بين حرب وسلام ، ومنافسة على حكم الشام والسيطرة على بعض أجزائه .

وبلغ والد أبي القاسم في دولة سعد الدولة منزلة رفيعة ، وصار ممدحاً من شعراء البلاط . ومنهم الشاعر عبد المحسن الصوري (٣٣٩ — ٤١٩ هـ) الذي قال فيه:

أكرى بشأراً أم بديين علقتم محاسنها بعينى

ويقول

كانت كذلك قبل أن يأتى على بن الحسين
فاليوم حال الشعر ثا لثة حال الشمسين
أغنى وأغنى مدحهم الـ عاهل عن كذب ومين

وظل الأب مع أبنائه في حلب ينعمون في دولة سعد الدولة حتى تقلبت الاحوال بالأمير وتغير قلبه على الوزير ، وحدثت بين الرجلين جفوة انتقل بعدها علي بن الحسين الأب عن حلب ، ولم يرحب أهله .

(١) المصدر نفسه ص ١١ .

وذهب بعيداً عن سعد الدولة هرباً بنفسه ، واستقر بالكوفة لاجئاً إلى مشهد الامام علي رضى الله عنه . و كاتب من هناك الخليفة العزيز بالله في مصر في الحضور إلى القاهرة فرحب بمقدمه .

وحلّ بالقاهرة ، فبعث باستقدام أهله وأبنائه من حلب .
وكان دخوله مصر في النصف من جمادى الأولى سنة ٣٨١ ، وحل في قصر العزيز كاتباً واستقر وأسرته بالقاهرة أو بالفسطاط (مصر) حيث كان بعض رجال الدولة يحلون .

وحدثت بالشام أمورٌ استدعت العزيز أن يبعث بعلي بن المغربي الكاتب إلى الشام لينصر غلاماً لسعد الدولة يكجور على سيده ، فلم يفلح ، وقتل يكجور وفرّ على بن المغربي إلى الرقة .

وتوفى سعد الدولة ، وكان علي بن المغربي بالرقة فكاتب العزيز بالله يسهل له أمر حلب فبعث العزيز بقائده منجوكتين على أن يلحق به ابن المغربي . وزحف جيش الفاطميين وعلى رأسه منجوكتين ومعه ابن المغربي « على » ، فتحرك ابن سعد الدولة للاستنجاد بالروم وملكهم باسيل ، والتقى جيش الروم وجيش الفاطميين ، وانتصر منجوكتين الفاطمي وكسر باسيل وجنوده . وسهل الطريق بعدها إلى حلب ، إلا أن الصلح تم بين الحلبيين والفاطميين فلم يدخل الجيش الفاطمي حلب .

وغضب العزيز لهذا الصلح وبعث يؤنب قائده والكاتب علياً ابن المغربي .

وتوفى العزيز وتولى الحاكم بأمر الله ، وكان الوزير على قد عاد إلى مصر ، وحلّ في مكانه بقصر الخلافة . وكان من المقررين من الحاكم « الذين يصحبون الخليفة حين يبرز للناس أو يجلس في المشايخ في قصره . وكان يجلس خمسة عن يمينه وخمسة عن يساره وابن المغربي وأخوه بين الخمسة الذين على يساره .

وظلت الأحوال على ذلك حتى أمر الحاكم بقتل الوزير ابن المغربي على وأخيه ، وابناء علي ولم يكن أبو القاسم بين من أدركه سيف الحاكم .

وهكذا نجد حياة أبي القاسم متقلبة ، غير مستقرة ، ولد في عزّ سعد الدولة ودولته ، ثم لم يلبث العشي أن وجد نفسه أسيراً في حلب مع أمه وإخوته ، ووجد أباه مغضوباً

عليه من أمير حلب فارا من غضبه إلى العراق ، وملتجئاً إلى الكوفة ثم إلى القاهرة .
ويخرج أبو القاسم مع أسرته للحاق بأبيه في مصر وهو آنذاك لم يتعد مرحلة الصبا إلى
الشباب . جاء الصبي إذا إلى مصر وأقام بها وتلقى علومه في القاهرة والفسطاط
العامرتين آنذاك بالعلم والعلماء .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره كان « يستظهر القرآن وعدة من الكتب المحررة في
اللغة والنحو ، ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم » كذلك كان قادراً في
تلك السن المبكرة على نظم اشعر ، والتصرف في النثر ، وينتج في الخط ما يقصّر عنه
زملاؤه ونظراؤه ، وكذلك في الحساب والجبر والمقابلة ما يزيد عما يحتاج إليه الكاتب .

ويبدو أن والده كان يعدّه ليخلفه في الكتابة والوزارة ، ويرقى رتبة جده وأبيه
ومكانتهما في هذه الصناعة . وقد كان للكتابة منزلتها الرفيعة لأنها كانت تمهد لمنزلة
الوزارة على ما بيناه فيما عرضنا له من أحاديث الكتاب من قبل .

ووجد الشاب الحسين في مجالات العلم ومجالسه بالقاهرة والفسطاط نُفَيْته ، فقد
كانت دار العلم أو دار الحكمة التي بناها الخاتم مؤثلاً للعلماء من كل جنس ومذهب ،
عامرة بالكتب والنجالس والمناظرات ، كذلك كانت مكتبة القصر العاضى ، متاحة
لناشدى القراءة والتزود بالمعرفة من مصنفاتها العديدة ، وكانت العناية بها وترتادها على
ما بينا من الخلفاء والقائمين عليها . وقرأ الحسين ، وتزود من الصحف براد عميم ، كما
جلس إلى العلماء في دار الحكمة أو صاحب مجلس والده ، ومن كان يجتمع إليه .

وملأ السمع والبصر بكل هذا ، وتعرف على عثماء العصر بمصر ، ممن علت كعبه
وقل نظيره ، وهم كثر في كل علم وفن من أمثال حُجُود بن محمد الهروي اللغوى ،
والحافظ عبد الغنى بن سعيد المنصرى حافظ مصر في عصره ، والمنقرى الأنطاكى أئى
على الحسن بن سليمان أحفظ أهل زمانه لقراءات . ومحمد بن الحسين أئى النحوى .

وكان هؤلاء الشيوخ اللغويين والنحويين أثرهم في ثقافة أئى القاسم ، واهتمامه بعلوم
اللغة والنحو في مطلع حياته .

وكان يجلس إلى غير هؤلاء الشيوخ ، من شيوخ الحديث وأئمه .
وتعرف في مصر كذلك إلى الوزير أئى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف

بابن حنزابه وحدث عنه وروى كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت .

وذكر أنه كان يجلس إلى ابن حنزابه ويخاوره في شعر المتنبي ، وعرف أن هذا العلامة الوزير حرّض ابن وكيع التنيسي على تأليف كتابه في سرقات المتنبي ، والذي سماه «المنصف» .

وصحبه كذلك في مصر بعيد رحيله من الشام ، وعمل استاذاً له على بن منصور الحلبي المعروف ^(١) بابن القارح صاحب الرسالة المشهورة إلى أبي العلاء ، والذي عمل عليها رسالة الغفران .

ولكن صحبته لابن القارح لم تلبث أن انقلبت إلى عداًء ومنأوة . وقد ألمح إلى ذلك ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء على مامرّ بنا .

وبدأ أبو القاسم عطاه العلمي باختصار كتاب «إصلاح المنطق» ، ووصف العلاء هذا المختصر بقوله : «تناهى باختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يفته شيء من لفظه ، وغير من أبوابه ما أوجب التدبير تغييره للحاجة إلى الاختصار وجمع كل نوع إلى ما يليق به .» ، وسمى هذا الاختصار بـ «المنخل» .

وكان عمل ابن المغزى في اختصار اصلاح المنطق مدعاةً لعجاب بعض علماء عصره كأبي العلاء المعري ^(٢) ، ودليلاً على ذكاء أبي القاسم ، ومقدرته ، وتعمقه في علوم اللغة في تلك السن المبكرة . وأكد هذا قول ابن بسلام بعد أن اطلع على الكتاب : «فإنه غاية لا يتعاطاها إلا من بهر عبثه ، واشتهر سبقه» ^(٣) .

وظل أبو القاسم مقيماً تنصر طوال أربعة عشر عاماً أو تزيد قليلاً حتى بلغ مبلغ الرجولة ، ولعله شارك أباه وعمه في ديوان الإنشاء للحاكم بأمر الله . ولم ينقطع طوال هذه السنين عن تحصيل العلم ، ومجالسة العلماء ، إذ يقول عن نفسه :

«فإني نشأت وغديتُ بكتب الحديث وحفظ القرآن ، ومشافهة الفقهاء ، ومجالسة العلماء ، ووالله ما رأيت في تلك البلاد — يعني مصر — مأدبة ولا وليمة إلا

(١) يستبعد احسان عباس تذهب ابن القارح للحسين ص ٢٣ .

(٢) أشاد بهذا الكتاب في رسالته «الإعرافية» ، وراجع ابن المغزى لإحسان ص ٢٦ .

(٣) الدخيرة ٤/١٧٦

لمقرئين ، ولا كنتُ متشاعلاً إلا بعلم أو دين » .

وربما ألف كتابه « أدب الخواص »^(١) في تلك المرحلة من حياته ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين وفي حدود سنة ٣٩٥ هـ . كما ألف في هذه المرحلة كذلك معظم كتبه كالإيناس في الأنساب ، وكتاب النساء .

وتمر الأيام تباعاً ، ويعيش ابن المغربي مع والده وعمه وأخوته في ظل دولة الحاكم بأمر الله منعين بالغين من الجاه مبلغاً ، ومن الثراء مبلغاً ، حتى إن الحاكم كان يجري عليهم كل سنة ستة آلاف دينار ، وهو مبلغ ليس بالهين في ذلك الزمان إذا عرف أن ديناراً واحداً كان يمكن أن يعيش عليه إنسان طوال الشهر .

وكان على بن الحسين والد أبي القاسم من شيوخ الدول ، معظماً مكرماً .

ولكن الأيام جرت على غير هوى آل المغربي ، فتغيرت الريح ، ودارت في الخفاء المؤامرات ، لعب فيها خصوم آل المغربي ومنافسوه في قصر الخلافة دوراً ليوغروا صدر الحاكم عليهم . ووجدت هذه المؤامرات صدًى لها فيما كان يجري على لسان الحسين الشاب الطموح من عبارات تؤخذ على أنها رغبة في السلطان ، وعدم رضى بما هو عليه من مكانة في خدمة الخليفة .

فقد روى ابن القارح أن الحسين قال له ذات يوم : ما نرضى بالحمول الذي نحن فيه فقال ابن القارح : وأى حمول هنا ؟ تأخذون من مولانا — خلد الله ملكه في كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم . فقال الحسين : أريد أن تُصار إلى أبوابنا الكتاب والمواكب والمقائب ، ولا أرضى بأن يُجرى علينا كالولدان والنسوان .

ولعل هذا الموقف يعطى صورة لشخصية أبي القاسم ، الدكاء والاندفاع ، وعدم الرضا بالأقل ، بل طموح دائماً إلى الأعلى والأكثر . وهو في هذا القلق الطامع يذكرنا بشخصية أبي الطيب المتنبي على ما تبدت لنا في شعره . وربما ساعد أباً القاسم على هذا الطموح ما شاهده في عصره من انتفاضات بعض الولايات ، وصعود بعض الأمراء إلى الامارة بعد مقامرات ، وانهكبات . لعله حدث نفسه يوماً بأن يقلب على الحاكم ،

(١) أدب الخواص للوزير المغربي تحقيق الشيخ محمد الخامس ، طبع الرباط سنة ١٩٨٠ ص ٨٦ .

ويدبر له من الأعوان ما يُمكنه من هذا الغرض . وقد اشار إحصان عباس إلى شواهد تشير إلى تلك الرغبة ، والتي لم تظل حبيسه صدره ، بل لعله سعى ومهد ، واتصل بمن يرى فيه معيناً .. فتناقلت الرواة أخبار ما يفعله الحسين إلى والده الشيخ على بن الحسين فأوجس من ذلك خيفة .

أبلغ ابن القارح ما أحسّه من تصرفات الحسين إلى والده فقال له : « ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه — وقبض على لحيته وهامته . » . وقال أبوه مرة أخرى : « أنا أخاف همة أبى القاسم أن تنزو به إلى أن يوردنا ورذاً لا صدر عنه . » . وبلغت أسماع الحاكم ما يدور فى الخفاء ، ولعله صبر حتى تأكد مما يدبره القاسم ويسعى إليه ، وانتظر الفرصة للبطش فى تكتم كعاداته ، يبطش والعدو فى غرة ، غير آخذ حذره ، بل لعله يبطش وقد أوهم من يبطش به بالأمان والاطمئنان .

وهكذا لم يصبر الحاكم طويلاً على ما يدور فى الخفاء ، ويدبره أبو القاسم ويفرى به بعض رعوس الدولة ، ليوغر صدورهم على الحاكم ، فأنزل بآل المغربى النازلة ، وأوقع بهم الواقعة ، فأمر سيفه بأن يقتلهم : الوالد على بن الحسين وأخاه محمداً ، وابناءهما . فنفذ القتل وقطعت الرعوس .

وكانت وقعةً برمكيةً أخرى . بسيف الحاكم ، ولكن هذا السيف لم ينل رأس أبى القاسم ، اذ استطاع بدهائه أن يفلت منه ، وليس ذلك بالأمر السهل . واختفى أياماً ، ولعله غادر الفسطاط مشرقاً ، متكرراً على لهيأة جمالي أو حمالي كما تروى بعض الروايات ليلحق بقافلة تغادر مصر عبر صحراء الشرقية وسيناء إلى فلسطين فالرملة حيث آل الجراح .

وكانت مذبة آل المغربى يوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، وظل أبو القاسم مختفياً منذ اليوم حتى يوم الثانى عشر من الشهر الذى خرج فيه إلى الرملة .

وفى الرملة استجار بحسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائى — وكانوا من أعداء الفاطميين التقليديين ، فأجاره من الحاكم فأنشده قصيدة يثنى فيها عليه وعلى قبيلته يقول فيها :

يا طيئة الخيرات بين جلالكم أمن الشريد وهمة الطلاب

فهش حسان له ، وطمأنه وسكن من روعه .

وفي صحبة حسان بن المفرج أعد أبو القاسم للانتقام من الحاكم معتمداً على قبيلة طيء ومن والاه من الأعراب ، ونفوذ آل الجراح على فلسطين وجنوب الشام . واتخذ من العداوة القديمة بين الفاطميين وبنى الجراح منطلقاً لتنفيذ مؤامراته للانتقام .

وحدث أن بعث الحاكم أحد قاداته الأتراك يارختكين على رأس قوة إلى الشام لإعادة الأمن إليها ، فانتهر أبو القاسم الفرصة لتحريض حسان بن المفرج على قائد الفاطميين ، فانقض عليه وهو في الطريق إلى الشام وتم أسره وتعذيبه ثم قتله .

ونهب حامية الرملة العسكرية من قبل الفاطميين ، كل ذلك بتدبير من الوزير أبي القاسم وتحريضه . ولم يكتف بذلك ، بل أطمع حساناً في الاستقلال عن الفاطميين وحرضه على أن يبحث عن خليفة جديد ليكتسب الشرعية يدين له بالولاء ظاهراً وأغراه بأن يستميل أحد أشرف مكة من العلويين ، وهو أبو الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة . وقال : إنه لا مطعن ولا مغمز في نسبه . أى إلى الإمام على وكانت هناك مطاعن وشكوك قد أثيرت حول نسب الفاطميين .

وذهب أبو القاسم سفيراً من حسان بن المفرج إلى أبي الفتوح في مكة ليستميله إلى مايدبره من خطة تولى الخلافة معارضاً للفاطميين . وأحجم أبو الفتوح أول الأمر متعللاً بقله المال في الظاهر ، وهية للفاطميين وخشية من انتقام الحاكم في الحقيقة ولكن الداهية أبا القاسم استطاع أن يذل عقباته ، وأن يفرغ من روعه ، وأن يهون له الأمر بما ييسره ، ويقتله من قول حتى لانت عريكة أبي الفتوح ، وشرع في تنفيذ ما اتفق عليه . أن يكون خليفة ، وإن ارتكب في سبيل ذلك المحرمات التي سهّل له أبو القاسم اقترافها في سبيل غايته — الخلافة — ، وهي غاية عزيزة تهون في سبيلها وترخص كل المحرمات حتى لو كانت استار الكعبة وحليتها التي تؤخذ وتسكّ دنائراً تسمى الكعبة ١١ . حتى ولو سلب الناس أموالهم واتخذها مدداً لشراء الأعوان والسلاح .

وهكذا تمكن أبو القاسم من تنصيب أبي الفتوح العلوي خليفة ، ولقب بالراشد بالله على عادة ما يتخذه الخلفاء من ألقاب .

وعاد أبو القاسم بعد اطمئنانه إلى نجاح خطته في مقابلة خلافة الحاكم بخلافة أخرى

تتاجزه ، وتتخذ من مكة العاصمة الدينية للمسلمين مقراً له . ولهذا ما له من أثر في الدعوة للخليفة الجديد . عاد أبو القاسم إذا إلى الرملة ، وكله أمل في أن يبلغ غايته التي صورها له حقه ورغبته في الانتقام .

عاد إلى الرملة وقد حقق ما سافر من أجله ، وجاء الخليفة الجديد لزيارة الرملة مقر مؤيديه من آل الجراح ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، ودُشِّن للمنصب الجديد وخطب الخطباء بين يديه بالتأييد والدعاء .

وكان أبو الحسن التهامي الشاعر قد اتخذ من الرملة دار إقامة ، ومدح آل المفرج بن الجراح ، وتقلد بالرملة الخطابة ، وجمعت بينه وبين أبي القاسم الحسين بن علي صلة وثيقة ، واتصل شعره به ، وظهرت تلك الصلة في أربع من قصائده .

ومعلوم أن الشاعر التهامي ، جاء إلى مصر في مهمة سرية ، هي على ما يذكر المؤرخون لدعوة عرب بني قرة شرق البلاد للخروج والثورة على الحاكم ، لصالح أصحاب الرملة من آل المفرج بن الجراح والاحتمال كبير أن للوزير المغربي يداً في هذه البعثة السرية للشاعر .

ولم يتح لخطبة أبي القاسم وتديره النجاح ، فقد علم الحاكم بما يدبر بالرملة والحجاز وكان داهية كذلك ، فأمهل للأمر ، وأمل للمدبرين حتى يتتيز فرصة ، ولم يبادر بالمجابهة بالقوة . وحاول الإغراء بالمال ، ولوح بالعفو إذا رجع الخارجون عن غيهم ، خاصة وأن الخطبة لم يكتمل لها النجاح .

وبدأ الخوف يذُبُّ في صدور الخلفاء المتآمرين ، وفشلت مهمة التهامي في مصر ، فاعتقل وتردد آل المفرج في المضي قدماً ، ورأى أبو الفتوح الأمر ، وقد أخذ يتفلسف من بين يديه وأن هذه الخلافة المزعومة لم تكن إلا سرايا ، فنكص على عقبيه

واستجاب حسناً بن المفرج لما لُوح به الحاكم من المال والعفو :

« وأرسل أمة إلى مصر ومعها تذكرة بما يريد من حوائج ، وفي جملتها أن تُهدى إليه جارية من إماء القصر ، وأن ينال إقطاعاً وتقريراً . فتكفل له الحاكم بكل ما طلب ، وكتب له أماناً بخطه ، وجهز له بخارية تحمل كمية طائلة من المال ، ولأبيه كذلك » (١) .

(١) الوزير المغربي لأحسن عباس ص ٤٩ .

ورأى أبو الفتوح ما يجرى ، وأيقن أن الأمر خرج من يده ، وأن ابن المغرني قد خدعه فقال لأبي القاسم : « أغويتني وأخرجتني من بلدي ، ونعمتي وإمارتي ، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سؤقهم بي عند الحاكم ، ويبيعوني بيعاً بالذراهم ، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني ، وتسهل سبيلي بالعودة إلى الحجاز ، فإنني راضٍ من الغنيمة بالأياب ، ومتى لم تفعل اضطررت أن أركب فرسي ، وأركب التفرير في طلب النجاة . » .

وهكذا انتهت هذه المسرحية نهاية لا ترضى مؤلفها أبا القاسم ، بل جرت عليه وبالأُضيق أمامه السبل ، وأوقعت في حبال ما كاد ودبر . وذهب إلى الشيخ المفرج والد حسن ، وكبير القوم في الرملة يستنجده . وقال له ضارعاً :

« إنني فارقت نعمتي ، وكاشفت الحاكم ، وذلك لركوني إلى ذمامكم ، وسكوني إلى مقامكم ، ولي في عنقك موثيق ، وأنت أحق من وفئ لمكانك من قومك ورياستهم ، وإن خير ماورثه الإنسان ولده ما يكون له به الحمد والشكر وحسن الذكر . وأرى حسناً ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم ، واتبعه أكثر أصحابه ، وأنا خائف من غدره بي ، وما أريد إلا العود إلى الوطن . » .

وهكذا عاد بنو الجراح إلى طاعة الفاطميين والخضوع للحاكم ، وعاد أبو الفتوح إلى مقره بمكة وطلب الصفح من الحاكم فعفا عنه ، وعاد الخليفة المخدوع إلى طاعة الحاكم ، « وكما بدأنا أول خلق نعيده . » .

وفتر أبو القاسم الحسين إلى العراق خوفاً ، وهرباً بنفسه أن يغدر به حسن ويسلمه للحاكم بعد أن عادت الأحوال بينهما إلى مستقرها .

ذهب الحسين إذاً إلى بغداد والخليفة العباسي هو القادر بالله ، والبيهيون يسيطرون على الدولة ، ويتقاسم العراق في شماله وجنوبه أمراء من العرب ذوى النفوذ . ففي الموصل كان الحاكم قرواش بن المقلد العقيلي (ت ٤٤٣ هـ) وفي ديار بكر نصر الدولة أحمد بن مروان الذي حكم إحدى وخمسين سنة (ت ٤٥٣ هـ) .

وهكذا وصل ابن المغرني إلى العراق ، وهذا حاله ، وعاش متنقلاً من مكان إلى مكان بقية عمره من عام ٤٠٢ إلى ٤١٨ ، يتصل ببلاط خليفة ليغادره إلى أمير من

هؤلاء الأمراء ، فيرضى فيستقر به الحال حيناً ، ثم لا يلبث أن تقلق رواحله ، فيغادر هذا ليلحق بذاك .

اتصلت أسبابه ببغداد بالوزير فخر الملك أبي غالب محمد بن علي بن خلف وزير بهاء الدول وسلطان الدولة ، إلا أن الخليفة القادر لم يرض عنه ، لأنه توجس منه وهو المصري أو الذي ينتهي إلى الفاطميين بمصر وإن غادرهم ، وكانت الحرب السرية والاعلامية قائمة بين الفاطميين والعباسيين . فاعتقد القادر أنه مبعوث سرى ، ولم يرض عن بقائه ببغداد ، فاضطر الوزير فخر الملك إلى اخراجه مكرماً من بغداد .

وبعدها زار قرواش واتصل به ، وصحبه زمناً بالموصل ، ثم غادره إلى الأمير نصر الله أمير ديار بكر ، ووزر له زمناً ، وخرج في مهمة إلى بدليس ، ومرض بها مرضاً شديداً ، وهنت فيه قوته ، واستشفى بأحد أديرة النصارى .

وفي هذه المرحلة التقى بالمطران إيليا مطران نصيبين ، وحدثت بينهما محادثة حول حقيقة العقيدة النصرانية .

وظل الحسين متقلبا في الوزارة بين قرواش ونصر حتى حطت رحاله ببغداد ، وكان يطمع في وزارة بغداد لمشرف الدولة البويهى ، وظل مترقبا حتى خلت له فأمكنه مشرف الدولة منها .

« فلما تربّع على دست الوزارة البغدادية ، وكان ذلك حلماً طاملاً هجست به نفسه أصبح مقصداً للشعراء ، فمدحه عددٌ منهم من أشهرهم مهيار الديلمى . ومن مدائحه فيه قصيدة له مطلعها :

عسى مُعرض وجهه يُقبِلُ فيوهبَ للآخر الأول
يقول فيها :

فذلك وتفعل ما لا تفعل ممن يقول ولا يفعل
سألت على المال سيف العطاء فلا حيك في الج زد مُنتعِلُ^(١)

ولمهيار مدائح أخرى فيه نال عليها عطاء جزلاً من الوزير .

(١) الوزير المغربي ص ٧٠ .

وكانت ولايته للوزارة في بغداد سنة ٤١٤ ولمدة عشرة أشهر وخمسة أيام ، وعاد
بغداد هرباً من ثورة جند الأتراك ، لأمر شجر ييهم وبين البويهي مشرف الدولة ووريره
الحسيني.

عاد اذا أبو القاسم الحسين إلى أمير العرب قرواش بالموصل مرة أخرى ، وحدث أن
قامت فتنة بالكوفة بين صهر أبي القاسم وبعض العباسيين تدخل فيها أبو القاسم ،
فحدثت بينه وبين الخليفة القادر بنوّة ، وأراد أبو القاسم أن يعتدي على بعض أرحاء
للخليفة في سرّ من رأى ، وهو في جوار قرواش ، فلما علم القادر بالله بما جناه أبو
القاسم بعث إلى قرواش يطلب إليه إبعاد الحسين فأبعده .

فلجأ إلى نصر الدولة بديار بكر الذي كان قد فارقه متخفياً ، فتلقيه نصر الدولة
مرحباً ، على الرغم مما فعله معه من قبل . يقول إحسان :

« فبأى وجه يلقاه الوزير — المغربي — ، وبأى وجه يلقاه الأمير ؟ . إن عودته
إلى ديار بكر — إن كان قد عاد لتسلم الوزارة — لتؤكد شيئاً واحداً ، وهو أنه على
الرغم مما كان يؤخذ عليه من تحيل وكيد ، وشرّ ، كان يتمتع بكفاية تؤهله لمنصب
الوزارة وكان من يعمل معهم يتجاوزون عن سيئاته بشفاعه فضائله . ولكن يبدو أنه في
باديء الأمر طرح نفسه على نصر الدولة لاجئاً أو ضيفاً . وقد تلقاه هذا بالإكرام .
وأقطعته ضياعاً جليلاً تكفيه وتكفي من وصل معه من الحاشية والأتباع . ولكن لم يلبث
إلا قليلاً حتى تأكدت الحاجة إليه . ففي سنة ٤١٦ هـ تولى وزير نصر الدولة ...
فاستوزر أبا القاسم المغربي وردّ الأموال إليه . » (١).

وأقام الحسين ثلاث سنوات ، تردد خلالها على نصيبين ، ولقيه بها مطراًها إيليا ،
وجلس إليه جلسات دار بينهما فيها حوار سأل فيها الوزير مرة أخرى عن عقيدة
النصارى في الأقانيم الثلاثة ، وكيف يمكن وصف ذلك بالتحديد . وكيف يمكن
للنصارى دفع قول الله فيهم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ . وعن علة
الناس في محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرء صحة دينه أو مذهبه من جهة المعجزة ...
ويدور الحوار بينهما كذلك عن نحو السريان ونحو العرب ، وعلم اللغة عند

(١) الوتر العربي ص ٧٥ .

الفريقين ، واستعمال المجاز عندهما ، والمفاضلة بين الخط السرياني والخط العربي ، وبين علم الكلام هنا وهناك وعن اعتقاد النصارى في أحكام النجوم وعن اعتقادهم في المسلمين ، وعن اعتقاد النصارى في النفس .

« .. وبما أن مطران نصيبين هو الذى كان يتولى الإجابة ، فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً في الشرح والتوضيح ، مما يجعل الوزير يسلم معجباً . وفي بعض الأحيان نجده أعلم من الوزير بشئون الإسلام . ويكاد في معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يبلغها الوزير نفسه . فأما ما يتعلق بالأقانيم الثلاثة وما يتصل بها ، فمن الواضح أنه يشرح عقيدة النساطرة . وهى قرية الشبه بما عند المسلمين . » .

وفي زيارة أخرى لنصيبين أقام خمسة وعشرين يوماً ، ولقى صاحبه المطران إيليا ، وباحثه في مسائل عدة تتناول اعتقاد اليهود ، وتاريخ آدم وغيره من التواريخ وتغيير اليهود لها . وعن الآثار العلوية .^(١) .

وظل الوزير يتردد بين ميفارقين ونصيبين حتى اعتل ، واشتد به المرض ، ويبدو أن القولنج عاوده وحاول التداوى منه على يد الراهب النسطورى أخى المطران كما حدث منذ سنين ، إلا أن المرض اشتد عليه هذه المرة فلم يقو جسده على احتماله فوافته منيته في الحادى من رمضان عام ٤١٨ هـ عن عمر بلغ ستة وأربعين سنة^(٢) .

واختلف بعض المؤرخين في سبب وفاته ، ف قيل إن أبا نصر سقاه السم خوفاً منه عندما عرف قبيل وفاته أنه في طريقه إلى بغداد .

يقول إحسان : « ومهما يكن سبب وفاته فقد سكن هذا القلب الطويل ، وهدئت تلك الحيوية المتفجرة : شقشقة هدرت ثم قرئت . وذهب الوزير الكامل ذو الجلالتين بعد أن شغل الناس ، وأصبحوا في النظر إليه شيئا » .

تلك كانت حياة هذا الرجل الغريب المغامر في هذا العصر الغريب الحافل بالمتناقضات والعجائب .

ونحن وإن عرضنا لحياة الرجل عرضاً قد تبدو فيه الإطالة إلا أننا أردنا من خلال هذا

(١) الوزير المنرى ٧٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨ .

العرض أن نلقى ضوءاً على شخصيته ، وجرأته ، وذكائه ودهائه ، ومقدرته على الإفلات من المآزق ، والتماس الأعذار والحيل ، ومقدرته على اقناع محاوره والتسلل في دهاء إلى نفس من يريد اقناعه بما يريد ، والمهرب حينما يريد إذا أحس بأن الرياح بدأت تعدل من مسارها ، أو أن الأمور أخذت طريقاً غير ما كان يجب ، أو بدت له من الأفق البعيد أطماع تلمع ، قد تكون ضوء مجد جديد أو برقاً خلباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فالرجل ذكي ، والرجل طموح ، وهو لا يعبأ بعد هذا أن يلقى ما يجده في سبيل تحقيق مأربه من شقاء الجسد الذي تحمله النفس الطموح ، أو شقاء الناس من حوله والرجل بعد هذا كله عالمٌ في اللغة أديب شاعر ، مفكر ، يستخدم علمه في تسخير من حوله لنفعه ، أو التقرب إلى من يبغي من ذوى الجاه والسلطان ويعقد صداقات مع أدباء عصره ، ومفكره ، وقد تنقلب تلك الصداقات إلى عداوة كما حدث بينه وابن القارح .

لقد كان أدبه صورة لنفسه وحياته ، وإن لم تكن صورة كاملة ، لأنه لم يصلنا كاملاً ، إنما وصلتنا منه أجزاء ونتف استطعنا من خلالها أن نطابق بينها وبين أخباره في مصادرها ، وأن نستفتى من سبقنا إلى التعرف عليه لنلقى ضوءاً على هذه الشخصية الغريبة النادرة في التاريخ العربي والأدبي جميعاً .

حاول إحسان أن يرسم صورة للرجل من خلال سيرته وما بقي من أدبه فقال : (١)

« .. وتصفه المصادر بالجرأة والدهاء معاً ، وكلتا الخصلتين تشيران إلى دوره في الحياة السياسية العملية ، والجرأة تؤدي إلى التهور ، وذلك يعني حساب النتائج . وإذا حكمنا على المغربي بنتائج أعماله قلنا أنه كان متهوراً ، لا جريئاً وحسب إذ منى كل ما خططه بالإخفاق ، فأما الدهاء فهو موصول لدى من يستعملون هذه الصفة بالحيلة القائمة على الذكاء ، وإخفاق النتائج لدى المتهور بنقض خطة من الحيلة البارعة ، وذلك في الأعمال الكبيرة ، أما في الأمور اليومية الصغيرة فلعل الوزير المغربي كان سيد من دهر « المقالب » وضحك على زملائه ، وضحك منهم . ومن حق من تصدوا لترجمته أن يقولوا إنه كان داهية ، لأنه كان دائماً يدبر الخطط ، حتى لم ينس كيف يدبر أن ينتقل

(١) الوزير المغربي ص ٨٨ .

إلى مشهد على متخذاً في ذلك احتياطات أكثر مما يتطلبه الموقف .

ورغم العقل المسيطر في توجيه خطته نجده امرأ « عاطفياً » ، بل يمكن أن يقال فيه أنه يُوقد الشمعة من طرفيها ؛ كان كثير الانقياد لشهوته ، حتى إذا أمعن فيها تذكر ثقل الآثام والذنوب ، وما يترتب عليها من حساب ، ولذلك فإن شعره يتراوح بين هاتين المنطقتين على نحو متكافئ . أعطى ريعان الصبا من المجنون ما أحب كما قال : ^(١).

الليل ميدان الهوى	والكأس مجموع الأرب
يارب ليل قد قصر	نا طولاً فيما لجب
لما هززنياه تـلـا	ففي طرفناه بالطرب
يلعب في الحُسران والطا	عة ساعات اللعب
تحكى ثرياًه لمن	يرنو إليه من كتب
خريطة من أبيض الد	ياج ما فيها عذب
والدبران خلفها	كفتح - بركار ذقنب

ويمضي في وصف السماء بنجومها طويلاً حتى ينتهي إلى قوله :

أعطيت ريعان الصبا	من المجنون ما أحب
ثم رجعت سائلاً	لذي المعالي والحجب
لمن يجيب من دعا	فضلاً ويعطي من طلب
إذا استيل لم يهب	من الكثير ما يب
سألته مغفرة ...	لما اجنيت في الحقب
وكنث جهدي شرعب	يد فليكن لي خير أب

ولكنه في قرارة نفسه يفيض الإثم . كما قال : ^(٢)

الله يعلم ما إثم هممت به	إلا وتفضت خوفاً من النار
وأن نفسي ما هامت بمعصية	إلا وقلبي عليها عائب زار

وهو مع هذا كله ألوف يذوب شوقاً على إلف يغادره ، وبموت الإلف الذي يهجره

(١) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٢) الوزير المغربي ص ١٣٥ .

وهما متهاجران فيحس بالندم ويكي في حرقه ! (١)

تركك بشط النيل لي سكناً فرداً حبست الدمع عليه أن يطأ الخددا
غزال طواه الموث من بعد هجرة أطعنا فلا كتابها الأسد الزردا
لسقياً لمهجور الغناء كأنني أعد له ذنباً ، وأطوى له حقدا
أسميه من فرط الصباية مضجعاً ولوطا وعك نفسي لسميته لخددا

* * * *

وزودني يوم الفراق صحبة وئني شمار لا جديداً ولا جزدا
أذاري به تخفافي قلبي كأنني أضم إليه صاحب البرد لا البردا
وقد كنت بالتقيل أمحو رقاعة فصرت بماء الدمع أغسله وجدا

* * * *

بكيت دفيناً ليته كان باكياً على فقاقي ذروني الكحل والفدا
منحت الثرى تلك الحاسن أم ترى غضيت عليها ، أم سمحت بها عمدا
أبخت الرضاب العذب بعد تمسح وأبرزت ذاك الحيد والفاجم الجفدا
طوت بعدك الدنيا رداءً جالها فلا روضها يجلي ، ولا لزيها يندي
وكان الوزير مسلماً ديناً ، متمسكاً بمذهبه الشيعي ، مؤمناً بأن علياً خير الصحابة
لأنه الوصي وزوج بنت النبي . يقول :

عرفت علياً بطيب النجار وفصل الخطاب وحسن الخيلة
تطلع كالشمس راد الضحى بفضل عيم وأيد جزيلة
فكان المقدم بعد النبى على كل نفس بكمل قبيلة
ويرثي من هواه معهم من آل النبي كالشريف الرضي . يقول من قصيدة مطلعها :

رزة أغار به الثمى وأنجدا
أذكرتنا يا ابن التبي محمد يوماً طوى عنا أبالك مخمدا
ولقد عرفك الدهر قبلك سالياً إلا عليك لما أطاق تجلدا

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

ويذكر الأنصار لأنهم كانوا شيعة على فيفضلهم على المهاجرين .

قال ابن أبي الحديد : (١)

يقول إنه لولا الأنصار لم تستقم لدعوته — ﷺ — دعامة ، ولا أرسيت له قاعدة

ويهجو بنى أمية لكرهه الشيعة لهم فيقول ذاكرة الخلافة : (٢)

ثم امتطاهما عبد شمس فاغتذت هزواً ، وبُذِّلَ ربحها ببخار
وتنقلت في عصبة أموية ليسوا بإظهار ، ولا أبرار
ما بين مافون إلى مترلديق ومدهني ، ومضاعف ، وحجار

وشعر ابن المغربي يجري في موضوعات كثيرة كغيره من الشعراء ، ويكشف ما جمع
منه من مختلف المصادر قوله في عدة اغراض ، أكثرها مما اعتاد الشعراء القول فيه
كالمدح ، والغزل ، والفخر ، والوصف ، والرثاء ، والشكوى .

ومديحة عادي يجري على عادة المدح العربي ، وفي المجموع من شعره قصيدة يمدح بها
الأمير حسّان بن المفرج حين لجأ إليه بعد هروبه من مصر يقول :

أما وقد خيمت وسط القاب فليفسون علي الزمان عيابي
يتراحم الفولاذ دون مخيممي وتغزغ الخرصان دون قبابي
وإذا بيتك على الشية خيمة شئت إلى كسر القنا أطباي
وتقوم دولي فية من طيء لم تلبس ألوابهم بالقاب
يتاثرون على الصريخ كأنهم يدعون نحو غنائم وهاب
من كل أهرت يزلمي جملاقه بالجمر يوم تساييف وضراب
يهديم حسّان يحمل برّة جرداء عليه جناح عقاب

مقدمة ليست تقليدية في غزلها ونسبها لكنها حديث العزة والاعتزاز والمنعة في قوم
ذوي أئيد ومهابة .

وبناء جزل ، لفظ غريب ، يميل فيه إلى الإغراب قصداً ، مستعينا بمعرفته اللغوية
الواسعة ، وبناء صلد ، يتمشى مع طبيعة الموضوع ، وبنوية المقام ، فهو بين جماعة من

(١) شرح نهج البلاغة ١٧/٦ .

(٢) الوئد المغربي ص ١٣٧ .

العرب ، يطربهم سماع مثل هذا القول ، الغريب القريب إلى نفوسهم . وهو يدل به ، فهو شعر مصنوع لا مرأى ، لكنه يث فيه لوعته وينفث فيه كبرته ، ويتقرب إلى ذوى منعة ليمهد الجو لإيوائه ، وأن يخل بينهم في حماهم . فيقول :

يا طيئة الخيرات بين جلالكم آمن الشريد ، وهمة الطلاب
سمكت خيامكم بأمنية الرئى مرفوعة للطارق المتساب
وتدل ضيفكم عليكم أنور شبت بأجذال فهزن صيف

* * * *

جأوزتكم فملأتم غنى الكرى وجوايحى لفرائب الإطراب
من بغد ذعير كاد أخفز أضلعي حى لضاق بها علسى إهابى
وهكذا يمضى فى المدح المصنوع ، إلا أن هذا التكلف يقل ، وترق عاطفته ، ويسهل لفظه فى غير المدح من موضوعات تتصل ببلداته ، وهواه ، كالغزل ، والوصف وفى هواه لآل على وشيعته .

كأن يقول وقد كتب بها إلى ألف له :

يا من لقلب هائم لم يستطع ذكر اسم من يهواه من إشفاقه
ولعاشي غلبت عليه خجلة فكانه المعشوق فى إطراقه
ينهى عن البث المريح لبيانه فيموث مطروفا على أشواقه
ويقول متغزلاً فى ديباجة بدوية :

وما ظيئة أذمساء تحنو على طلا ترى الإلتر وخشاً ، وهى تأنس بالوحش
غدث فارعت ثم انتت لرضاعه فلم تلى شيئاً من قوائمه الحمش
لطافت بذاك القاع ولهى لصاذفث سباع الفلا ينهشنه أيما نهش
بأوجع متى يوم ظلت أنامل تودعنى بالدر من شبك النفش
وأجالهم لحدى وقد تحيل الهوى كأن مطاياهم على ناظرى تمشى
وأعجب ما فى الأمر أن عشت بعدهم على أنهم ما علقوا فى من بطنش

ويقول متغزلاً غزلاً حضرياً على نهج الظرفاء :

مرض بقلبك ما يصاد وفيل حب ما يقاد

يا آخر الغشاق ما أبصرت أروها يصاد
يقضى الميثم منهم نجاً ولو زدوا لقادوا
ملكوا النفوس فهل لها من بعدها ما يستعاد
ما خلعت غزلان اللوى كظباء مكة لا تصاد
بالعدل ثوقد لوعسى يقدح به يوزى الزناد
لا أشكون جرحى فلك غداً السنة حداد

وفى الوصف والحنين إلى حلب ونهر قويق بها يقول :

أما قويقى فلا عدئة مزنة من جذرها برز الكمّ الصيب
نهر لابناء الصباية مغشوق فيه وللصايد الملوّج مشرب

★ ★ ★ ★

فرد الرباب يقول شالم برقه من أين رقع ذا القريبى المهذب
والبدر فى كليل السحاب كأنه ملك بقاصية الرواق محجب
والأرض حاسرة تود لو ألهما بما يحبره الریغ لجلب

ويقول متشوقاً إلى حلب :

يا صاحبي إذا أعيكما مسمى فلقيانى نسيم الريح من حلب
من الديار التى كان الصبا وطرى فيها وكان الهوى العذرى من أربى

وقال فى ظرف البغداديين :

يوم الكسوف جلا على بصرى قمرأ أصار الجن والإلقا
قامت وأرغشت من ذوائها وتجلت عن شعرها والإلسا
فسألتها لم قد لبست دجى قالت أساعده أختي الشمس

وقال فى بابل من حلب :

حن قلبى إلى معالمها بلا حين المولى المشغوف
مطلب اللهو والهوى وكناس الخد ريد العين والقطب الميسف
حيث شطأ قويقى مسرح طرف والأسامى مؤبى وآيسف
ليس من ينسل حنياً إلى الأو طان إن فئت الثوى بطريف

ذاك من شيمه الكرام ومن عهد الوفاء الحبيب الموصوف
وقال في قلب الأيام به بعد هجرته من مصر :

قطعت الأرض في شهرى ربيع إلى مصر وعدت إلى العراق
فقال لي الحبيب وقد رآنى سيقاً للمضمره الباق
ركبت على البراق ؟ فقلت : كلاً ولكنى ركبت على اشتياقى
وقال :

طيف ألم ثنى عزيم الشك وجلا صواب الحب بعد تشكك
أكرم به يحفو وحشو وسائدى وزد ويطف إذ وسادى موركي
عجبت أنيسة يتا إذ أبصرث طمان جود للشاء ممسك
قالت : فهبك بمصر كنت مغالاً وجهاً من الدنيا أنيق المضحك
فالآن قد أصبخت جاز أباعسيد خلدت شوائبها خفاف المبرك
قلت اربعى فضمن رزقى واحد في يوم اقتار ويوم تمسك
فلهافتى بالأريحية سكرة تهزنى في لروية وتثك

وفي تشيعه لعل وآله يقول في على بن أبى طالب :

صلى عليك الله يامن دننا من قاب قوسين مقام النبوة
أخوك قد خولفت فيه كما خولف في هارون موسى أخيه
هل برسول الله من أسوة لم يقبده الله بما سن فيه
ويشكو الزمن والشيب ، وما يلقاه في دهره من غنى وعناد وتقلب أحوال . يقول :

أرى الناس في الدنيا كراع تنكرث مراعية حتى ليس فيها مرثع
لمساء بلا مرعى ، ومرعى بغير ما وحيث ترى ماء ومرعى فمتبع
ويقول :

ما لى أرى قلبى تنازعاً وطنائى من حلب ومن مصر
لا عيش إلا كوز ناجية لا ظل غير ذوالب السفر
ويقول :

إذا ما الفتى ضاقت عليه بلاده وأيقن أن الأرض واسعة القطر

ودام على ضيق المعيشة صابراً
ولم يحترم للنفس عِزاً يَصُونُهَا
على الذل والحال الدنية والفقر
فلا فرق بين القيد والرجل الحر
وقال في المشيب :

خاف المشيبُ تعبِّي فاجارهُ
فمضى الشبابُ مظلماً مُتَعَسِّفاً
طلُ الهموم وعزُ ذلك مُجِيراً
وأق المشيب مجاملاً مُتَعَلِّفاً
وقال :

عجبتُ ههنا من تسرع شبي
عوضتني يدُ الثلاثين من مِــــ
كان لي في انتظار شبي حسابُ
خالطتني فيه صروف الدهور
قلتُ هذا غُفبي إطام السُرور
لِ عِداري رثا من الكالِـور

وتعوده فترات من الزهادة والنسك ، لا يلبث بعدها أن ينفضها عن قلبه ليعود إلى روح الحياة ، ولهوها .. فيعبر عن هذا كله في أبيات ، ومقطعات ، وترى فيما تبقى من شعره آثار نفسه الجموح ، وكبرياءه وتعاليه ، وعدم رضوخه للآحداث ، بل معاندتها ، ومكابرتها ، ومحاولة التغلب عليها ، كما تراه أحيانا وقد عاودته لحظات الندم ، فينظر إلى ما تقضى من حياته في اللهو ومغالبة الأيام وكأنها صورة من صور الاعتزاز بالدنيا ، ويمد يديه متضرعاً إلى الخالق في كلمات من التوبة ، فيقول :

كنتُ في سَفرة البطالة والغِيى
ثبْتُ عن كلِّ مأثمٍ لَعَسَى يمحى
زماناً ، فحانَ مِنِّي قُـدومُ
بهذا الحديثِ ذاكَ القديـمُ
بعد خمسين وأربعين لَقْدِماً
طلْتُ ، إلّا أن الغريمَ كريـمُ

ويقول وقد استشعر نهاية الحياة في القبر :

إلى أُنْـسِكَ من حديثــــ
فارقْتُ موضعَ مرقدي
سى والحديث له شجون
ليلاً لفارقني السكون
قل لي فسأولُ ليلــــة
في القبر كيف تُرى تكونُ

وشعر الوزير المغربي كما أشرنا يجمع بين جانبيين ، جزالة ، وغرابة ، أو ميل إلى الإغراب في عبارة تعسر أحياناً ، ولفظ يشق على السامع والقارئ معاً .
وجانب آخر يلطف فيه ويسهل ، ويتصرف أحياناً ، ويمجن أحياناً أخرى ورغم أنه

في مجونه يتحدث عن المرأة ومحاسنها الجسدية ، وعن الغلمان أحياناً إلا أنه لا يصرح بعلاقة آثمة ، ولا يذكر الخمر على ماحاءنا من شعره وليس علينا مع هذا أن نطلق الحكم على كل شعره . فلعل من احتار له تحب ذكر كثير من شعر الملهو أو الخمريات .

وشعره من حيث التعبير ، والالفاظ ، واستخدام البديع ، لا يميل فيه كثيراً إلى الصنعة ، وإذا ما اعتبرنا شعر العصر ، وتمثل أماننا كبار شعرائه أمثال المتنبي وأبي العلاء المعري ، وابن وكيع التنيسي ، وابن حيوس ، وابن الخياط وجدنا معظم هؤلاء يميلون إلى البديع ، واستخدام صورته المختلفة ، من جناس وطباق ، ومقابلة ، ولزوم ما لا يلزم ، لكن الوزير المغربي يخرج على تقليد العصر وطراز شعره إلى هذا الشعر الذي رأيناه ، وإن كان يجيد في التشبيه والاستعارة وبعض الصور الشعرية ، لكن دون إسراف . كقوله في وصف سوداء :

يارب سوداء تيمتي بحسن في مثلها الفسرام
كالليل تستنهل المعاصي فيه ويستعذب الحرام

وكقوله في وصف المرأة :

أينا ثلثت نجد ظل طونسي ونجد كثرراً أغرم صقلا
لربها طيب الثياب لما يصعد ب السروز فيها خيللا
فصرى اللهو إن أردت طليقاً والتقى إن أردته فقلولاً

وفي قوله :

ولقد يميل بناظري عن مسجد غصن من الرمان أكمل نفعه
متسرج نهداه ، يكتنم حننه خفراً ، فطبعهما يخالف طبعه
أهلاً ينشئ صيداً بهوده ولو انسى صيرت درعى درعه

وبعد فإن شعره بعد هذا لا يأتي في الصدارة من شعر العصر ، إلا أنه مع ذلك لا ينزل عن قدر مقبول ، فهو جيد في معظمه ، وقد أغرم به بعض معاصريه ، ومن جاءوا بعده من الأدباء ، ومن ألفوا في المجموعات والبلاغة ، لغرابه معانيه ، وصوره أحياناً ، فأكثروا من النقل عنه . كما أن بعضهم لم يجرم بشعره غرام هؤلاء فلم ينه إليه ، ولم يكثر التمثيل به .

كتابات ابن المغربي ومؤلفاته :

وكما سبق أن عرضنا في سيرة الوزير المغربي فقد كانت له كتب ومؤلفات ألفها على مدى مراحل حياته ، ومنها بل لعل أولها كتابه « مختصر إصلاح المنطق » لابن السكيت الذي أسماه « المسجل » .

وكان كتاب « إصلاح المنطق » قد اختصر أكثر من مرة ، وكان ابن السكيت نفسه قد اختصره كذلك فاسقط منه أبواباً ، لعله وجدها غير ضرورية لمن يرجعون إلى كتابه ، واختصره آخرون ، وأخل بعضهم بنهج الكتاب ومادته . وكان مختصر أبي القاسم الحسين بن علي حديداً في بابيه لأنه رد النقائص إلى بعضها فجعله ثلاثة أقسام : أمثلة الأسماء ، وأمثلة الأفعال والنقيض .

« واضطره هذا التفريع إلى ما يجاوز حد الاختصار ، وذلك بإضافة أبواب جديدة إلى الكتاب » . ووضع أسماء لأبوابه الأصلية مثل باب ليس ، وباب المذكر والمؤنث ، وباب العدد .. وجعل الأبواب الطويلة منه مرتبة على حروف المعجم ، فجاءت أبواب الكتاب الأصلي ٢١٨ باباً ، والأبواب المزیدة ١٠٧ باباً .

وبهذا يكون عمل أبي القاسم أقرب إلى التأليف الجديد منه إلى الاختصار . ولم يمكن له هذا العمل إلا قدر كبير من العلم باللغة وأسرارها .

وعرض أبو القاسم كتابه على صديقه العلامة المعري ، وكان لا يزال في عنقوان رجولته ، وعلمه قل أن تتقدم به السن . ومعروف أن أبا العلاء كان حجة في اللغة ، والعلم الواسع بها ، الأمر الذي مكّنه من استغلال تلك المعرفة في نظمه ونثره ، وما كانت اللزوميات تبدو في صورتها الباردة إلا باقتدار ناظمها وإمامه الواسع باللغة وألفاظها .

وقد أعجب أبو العلاء بالكتاب وصاحبه مما حفزه على كتابة رسالته الإغريضية للاشادة بهذا الكتاب وبما بلغه من شعر صاحبه ، فخص القسم الأول من الرسالة بشعر أبي القاسم ، وخص القسم الثاني بكتاب إصلاح المنطق .

يقول أبو العلاء (١) : « وقفت على مختصر إصلاح المنطق الذي كاذ بسمات الأبواب

(١) رسائل أبي العلاء ص ١٤ ضع كمورد

يفنى عن سائر الكتاب .. ودلّ على حوامع النعمة بالإيماء كما دلّ المضمّن على ما عاب من الأسماء .. وقد تأملت شواهد إصلاح المنطق فوجدتها عشرة أنواع في عدة أخوة الصديق^(١) لما تظاهروا على غير حقيق ، وتزيد على عشرة بواحد ، كأخ يوسف لم يكن بالشاهد .

ويقول عن كتاب ابن السكيت : كان الكتاب تبرأ في تراب معدن ... فاستخرجه سيدنا واستوشأه ، وصقله فكره ووشأه ... قد ناب في كلام العرب العصم مناب مرآة المنجم في علم التنجيم ، شخصها ضئيل ملموم ، وفيها القمران والنجوم . « .

وهذا فإن هذا الكتاب كان بداية طيبة لشاب طموح في العلم والأدب كما كان طموحاً في السياسة والتدبير .

وقد لقي الكتاب بعد ذلك من العلماء تقديراً ، ولم يقتصر الإعجاب على أهل عصره ولا على معارفه وأصدقائه ، بل تعداهم إلى ما بعد ذلك من العصور ، ومن تلا من لهم بالأدب علاقة ، وباللغة ودقائقها اهتمام ودراية .

فقد أثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله : « فإنه غاية لا يتعاطاها إلا من بهر غيبه واشتهر سبقه ، وطريقة لا يتوخاها إلا من رسخت في العلم قدمه ، وترامت به إلى معالي الأمور همه . » .

وصنف في الأدب والأخبار كتاب « أدب الخواص » . يقول أنه وضعه وسنه خمس وعشرون سنة ، أي في حدود سنة ٣٩٥ هـ في أثناء إقامته بمصر .

ويدل هذا الكتاب على تمكنه من رواية الشعر القديم ، ومعرفة الأخبار والأنساب وعلو الكعب في اللغة . وكان باعته على تأليفه الدلالة على معجز القرآن . « إذ كان يتبحر ألفاظ هؤلاء القوم (العرب) والمعرفة بمعادن ألفاظهم ، وبمنازع أغراضهم يعلم معجز القرآن علماً جسيماً ذاتياً . وأنا أرى أن علم العالم أن القرآن معجز من طريق القياس والاستدلال ، ومن طريق الحس والإدراك أشرف وأعلى من علم العام بإعجازه عن طريق القياس بالتقليد لغيره ، والاعتبار بالفصحاء الذين تقدموه ، وكانوا حجة عليه . » .

(١) يسمي يوسف عليه السلام .

والكتاب في صورته العامة جمعٌ للمختار من أشعار العرب ، وأنساب الشعراء ، وقبائلهم وأخبارهم ، وما يتصل بهذا مما يناسب المقام . وقد اهتم بصفة خاصة بأربعة من شعراء الجاهلية الكبار أصحاب المطولات أو المعلقات ، وهم امرؤ القيس والنايعة وزهير والأعشى ، واستطرد من هؤلاء إلى ما يتصل بكل منهم ، فتحدث عن المداقسة عند ذكر امرئ القيس ، وعن النوايغ مع النايعة الذبياني ، وعن كل من اسمه زهير مع زهير بن أبي سلمى ، وعن الأعشى مع الأعشى ميمون بن قيس . مع الاهتمام بقبيلة كل شاعر واشهر ما جاء من أشعارها ، ذلك كله إلى حديث هنا وهناك عن غريب اللغة ، يعود عليه بالشرح ، ويعقب أحياناً على بعض معاني الشعراء متتبعا لها عند غيره ، ويشير إلى ما بين المعاني من تقارب أو تفاوت .

ومن أمثلة ما جاء في الكتاب عن امرئ القيس الشاعر :

قال : « أول ما سمع حجر من شعر ابنه امرئ القيس قوله :

اسقيا حجرا على علاته من كمينٍ لوئها لونُ القلق

وإني لا ستقبح أن يقول قائل لأبيه : « على علاته » ، وأظن ذلك هو الذي غاظ حجراً ، فلما سمعه أمر الساق بلطم وجهه ، وإخراجه . ونهاه عن قول الشعر . ثم سمعه يوماً وهو يشرب من فضلة أبيه وهو يقول :

وهز تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

يعنى هر بنت سلامة بن عبد الله بن عليم من بني كلب ، وابنها الحارث ، وهي الملقبة بالخرساء . وقيل إن هراً جارية كانت لأبيه . والأول أصح ، فوثب إليه أبوه فضربه ، وأمر مولى له أن يقتله فلم يقتله ، وأظهر قتله ، ثم ندم على ذلك .

وقيل إنه لما قتل حجر تنازع امرؤ القيس ابنه وثعلبة بن مالك أحد بني عمرو بن معاوية ابن الحارث بن معاوية بن كندة في الملك بعده ، فأجمعا للحرب ، فأكمن امرؤ القيس أصحابه وبرز إلى ثعلبة وحده ، وطعن فيهم فحملوا عليه ، فوُلَّى هارباً وهم في طلبه ، فخرج عليهم أصحاب امرئ القيس فكسروهم ، وأسیر ثعلبة وقتله صبراً . وقال :

لا وأبيك ابنة الغامري لا يدعى القوم ألى ألسر

وبعض الناس يظن أن وفادة امرئ القيس إلى الروم كانت للاستعانة على بني أسد . وليس كذلك . وإنما سببها أن المنذر بن ماء السماء اللخمي لما عاد إلى الملك أيام أنو شروان أنفذ في طلب بني آكل المزار جيشاً من بكره وتغلب ، فأسر منهم ستة عشر رجلاً ، وقيل اثني عشر فضرب أعناقهم بالحيرة في دور بني مرينا ، وهي تسمى لذلك تل الأملاك . ولذلك قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالتهاب وبالسَّيَا وأئسا بالملوك مُصْتَفَيْنَا

ونجا امرؤ القيس بالهرب ، ولجأ إلى هانيء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيان فاستجاره ، فلم يخره ، فأق سعد الضباب الإباضي ، وكان سيد قومه في وقته فأجازه زمناً ، فمدحه وهجا هانيء . وقيل إن أم سعد كانت تحت حجر فطلقها وهي حامل فتزوجها الضباب ، فولدت عنده سعداً ، فنسب إليه ، ثم تنقل في الأحياء في طيء .

وله كتاب في الأخبار أسماه : « المأثور في ملح الخدور »^(١) . جاء فيه :

« كان أبو العلاء سعيد بن حمدان ملازماً بغداد وخاصاً بحضرة المقتدر . قالوا : فكانت أكثر مواقفه على بابه ، وكان أمر الرجال قد عظم ، وكانوا في بعض الأوقات ساروا إلى قصر المقتدر مشغبين عليه فهزموا محمد بن ياقوت والحجرية والساجية ، وكان أبو العلاء في دار المقتدر على غير أهية ، فأمره بالخروج إليهم ، ودفع إليه جوشن المعتضد بالله ، ودرع وصيف الخادم ، فظاهر بينهما وخرج مع من حضر من غلماناه ، فضرب فيهم بالسيف ، وغشوه من كل باب ، وأئخنوه بالجراح ، فثبت لهم حتى هزمهم فقال هوبر الكنانى من ولد هوبر صاحب تغلب في حرب قيس وتغلب قسيده بمدحه بها ، منها :

يرزون الوجوه تحت ظلال المر ب والموت منهم يستظل
كرماء إذا الظبا واجهتهم منعتهم أحسابهم أن يذكروا

وكان أبو العلاء شاعراً يعد من شعراء بن حمدان ، وكان أوقع بينى عقيل بموضع يقال له شرج من أرض العالية ، وراء نجد ، فظفر بهم بعد قتال شديد ، وقال :

(١) المأثور المذموم . ص ٢٣١ .

نبتها تسأل عن موقفى بأرض شرچ والقنا شرع
وعن عقيل إذ صحنهم وقد تلاقى الخسر والذرع
وقد أتانا منهم فليق حام جماء ماله مذفع
شدذت فيهم شد ذى صولة قد جربته الحرب لا يخذع
إذا قلقت هام أسود الوغى وقطت الأمنوق والأذرع

ووجدت في هذه الآيات زيادة قرأتها بخط الوزير أبى غالب عبد الواحد بن مسعود
ابن الحصين . وهى بعد البيت الثالث :

حتى إذا ما كثرث نابتها وعيف كأس الموت لا يكرع
تجنى نفوساً بين سمر القنا فهى ككر الطرف أو أسرع
وبعد بقية الآيات ختمها بقوله :

لا تزجرينى عن غلاب الغلا ما إن يبال العز من يضرع
أنا سعيد وأبى أحمـد بالسيف ضرى وبه ألقع
أراد بقوله : وأبى أحمد (حمدان) لأن اشتقاقهما واحد .

وغزا أبو العلاء سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، فأوغل في بلاد الروم ، وقتل ، وسبي
وغنم ، وكان معه خمسة آلاف فارس من العرب ، كل ألف بلون من الرايات والعذب
على أرماحهم . وهذا منظر عجب إذا تصورته ؛ وأبو العلاء فيما قالوا ضمن عن
البريدى ستائة ألف دينار ثم أمرهم بالهرب ، ودارى السلطان عنهم حتى أصلح أمرهم
وأقرهم على أعمالهم ، فما دخلوا مدينة السلام إلا مالكيها . وأهلوا إلى أبى العلاء هدية
بألف ألف درهم .

ومن كتاب الإيناس بعلم الأنساب ^(١) . قال في المقدمة :

« قال الوزير الإمام الأوحـد أبو القاسم الحسين بن على بن الحسين بن على
ابن محمد ، المعروف بابن المغربى رحمه الله تعالى :

« نكتب إن شاء الله في هذا الكتاب ما يحضرنا ذكره من الأسماء التى تشاكلت بعض

(١) بتحقيق إبراهيم الأيبارى وطبع ونشر دار الكتب الإسلامية ، ودار الكتاب المصرى بالقاهرة سنة ١٩٨٠ م .

التشاكل ، وبقى بينهما من الفرق ما يرتفع الالتباس بإيضاحنا إثباته مثل فهمهم وفهم .
ومن الأسماء التي ألفاظها لدات لا تختلف ، وأشكال لا تفرق ، فنعتمد بإيرادها
الدلالة على اتفاقها ، وإيمان القارىء من دُعر الشك فيها مع ما نطقه من حسن موقع
اجتماعها ، مثل بكر بن وائل من عدنان ، وبكر بن وائل من قحطان .
ومن الأسماء الأفراد التي وضعت وضعاً مشكلاً ، فيخاف على القارىء تصحيفها ،
ما لم يكن في علم النسب مبرراً ، مثل : شمس ، ومثل بنى خلد ، ومثل شهل بن
شيبان .

ونورد ذلك على حروف المعجم ، ليقرب متناوله ، ويذل مجتنأه . ونحن نرى أن
الأديب المتوسط الرتبة في الأدب إذا صرف إلى هذا التعليق جانباً من عنايته أمن
التصحيف في جميع الأنساب العربية بتوفيق الله .
ولم يخل مع ذلك من لمعة ثاقية ، وأبيات شعر حسنة ، نصيّد له ذكرها بالأسماء
المتصلة بها ..

وحملنا على إثبات هذا التعليق استحساننا صنيع أبى جعفر محمد بن حبيب في كتابه
المؤتلف والمختلف^(١) ، فإنه لحب لنا هذه السبيل التي كان عليه استفتاحها وعلينا
إكمالها وإيضاحها . وحسب المبتدئ أن يستقصى مجهود رأيه في استشارة ذلك الشيء
المعدوم من مدافنه ، وفتي أحكام الفكر عنه ، وإبرازه لعيان طالبيه . ثم على المتعقب تميم
ما صنعه ، والاقتفاء به فيما ابتدعه .

والله الموفق والمعين ، وله الحمد رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
الطاهرين . » .

ويظهر من المقدمة أن الكتاب في دقيق الأنساب ، وما يأتلف منها وما يختلف في
الاسم ويكثر فيه التصحيف ، فتختلط المعارف ، ويحدث الاضطراب حول أخبار
القبائل وبعض رجالها بمن تشابه أسمائهم ، أو تشابه أسماء قبائلهم على بعد الانتفاء
واختلاف الزمان والمكان .

(١) طبع في أوروبا مصر : المختلف والمؤتلف في أسماء القبائل .

والكتاب — كما يقول — ذو فائدة كبيرة للأديب والكاتب الذى عليه أن يعرف قدرا من أخبار العرب وأنسابهم .

وهو يدل على سعة اطلاعه فى علم الانساب ، ذلك العلم الذى علا قدره فيه كعلم اللغة وأفاد منه كثيرا فيما كتب ، كما أفاده فى قلبه بين إمارات العرب ورجالاتها فى الشام والعراق . وظهرت آثار معرفته بالأنساب واللغة فى كتبه ورسائله وشعره ، وظهرت أمثلة لتلك المعرفة فيما عرضنا من كتبه .

وجدير بالذكر أن معظم هذه الكتب أو جلها قد ألفها وهو بمصر قبل هروبه إلى الشام والعراق .

رسائله :

وللوزير المغربى عدة رسائل فى موضوعات وأغراض شتى ، بين علم وإخوانيات ، ووصف ، وحوار حول جوانب من العقيدة والدين ... إلى غير ذلك .

قال فى الرد على كتاب وصله (١) :

« وقفتُ على كتابك ، ولم أزل أثنى ، كأنتى قد ظفرتُ باليد التى بعثته ، وأضمه كأنتى أضمتُ الجوانح التى نفثته . وكأنتى كلما أدنيتُهُ إلى الكبد المعذبة ببعيدك وأمررتُهُ على العين المطروقة بفقدك سحبتُ على النار ذيل السحاب ، وسقيت عطش الحب كأس الرضاب ، وأعرتُ أخا سبعين ظل الشباب ، فأرختُ يوم قدومه لأجعله موسماً للسرور ، وعيدا باقيا على الدهور ، أرتقب السعد عنده كل عام ، وانتظر الفرج منه من كل غرام . واتفق وروده فى أشرف فصول الدهر حسبا ، وأكرم مفاخر الأيام نسباً ، حين ابتدأ الربيع يزخر فى بؤوده والروض ينظم عقوده . وكنتُ أعرف هذا الفضل باعتدال منهاجه ، وصيحة مزاجه ، وأنه لو كان الزمن شخصاً لكان له مقبلاً ، ولو أن الأيام غوانٍ لكان لها حلياً وحللاً ، لأن الشمس تخلص فيه من ظلمات صوت السماء ، خلاص يونس من ظلمات حوت الماء ، فإذا وردت الحمل وافتُ أحب أوطانها إليها ، وأعز مساكنها عليها .

(١) الذخيرة لابن بسام ص ٤٩٦ طبع إحسان عباس .

« فإِذَا حُسِّنَ تِلْكَ الصَّحِيفَةُ ، وَفَدَادَهَا يَتَهَبُّ بِالْأَفْوَاهِ ، وَيَزِيدُ بِالتَّقْيِيلِ لِعَسَا فِي الشُّفَاهِ . وَيَاعَجِباً كَيْفَ حَفِظَ مَعَ بَعْدِ الْعَهْدِ نَشْرَ عَرْفِكَ ، وَكَيْفَ عِلَقَ مَعَ تَرَاحِي الْأَيَّامِ طِيبَ كَفِّكَ . وَكَيْفَ جَاءَ كَأَنَّكَ كَتَبْتَهُ مِنْ أُمِّ ، وَأَنْفَذْتَهُ وَبَيْنَا نُحْطُوهُ قَدَمَ . وَكَيْفَ لَمْ يُغَيِّرْهُ مَا قَطَعَ مِنْ مِهَاجِلِ قِفَارٍ ، وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ ، وَعَدُوٍّ كَاشِحٍ ، وَرَقِيبٍ لَامِخٍ . فَأَنْعَمَ بِهِ مِنْ رِيحَانَةِ الْأَفَاطِ دَامَتْ لُتُونُهَا ، وَبَاكُورَةُ وَصَالٍ سَلِمَتْ غَضُوضُهَا ، وَمَسْحَةُ يَدِ يَتَى أَثَرَهَا أَرْجَا ، وَرَوْضَةُ كَلِمٍ دَامَ عَلَى الصَّيْفِ بَهْجَتُهَا فَأَمَّا شَوَالُكَ عَنِّي فَمَا يَشْبُهُ سِرِّتُكَ الْحُسْنَى ، وَلَا يَلِيقُ بِطَرِيقَتِكَ لُتَى . كَيْفَ تَسْأَلُنِي وَالْإِحَابَةَ مَعَكَ ؟ . وَكَيْفَ تَسْتَخْبِرُنِي وَمَحَلَّ الْخَبَرِ وَالِاسْتِخْبَارِ عِنْدَكَ ؟ ، وَمَتَى سَمِعْتَ بِجَوَابِ جَسَدِ رَهِينَةٍ ؟ . وَأَيْنَ رَأَيْتَ طِمَاحَ عَيْنٍ لَوَاحِظُهَا مَقِيدَةَ كَلِيلَةٍ ؟ . أَلَمْ أَفَارُقْكَ ، وَقَلْبِي عِنْدَكَ أَعْشَارٌ ، وَأَضْلَعِي مِنْهُ قِفَارٌ . ؟ »

ومن فصل له يصف الموصيل حين ورودها :

« وَرَدْتُ الْمَوْصِيلَ الَّتِي خَالَفَ اسْمُهَا مَعْنَاهَا ، وَكَانَتْ مَقْطَعاً بَيْنَنَا لَوْلَا خُدْعُ الْأُمَانِي ، وَفَصْلًا لَوْلَا الْمَرْجُوُّ مِنْ عَفْوِ اللَّيَالِي ، فَوَحْدَتْ هِدَاةًهَا يَعْطَلُ سَوْقُ بُقْرَاطٍ اعْتَدَالاً وَطِيئَةً ، وَمَاءَهَا يُسْلِي عَنِ مُجَاجِ النَّحْلِ اسْتِمْرَاءً وَغُدُوبَةً ، وَصَقْعُهَا قَدْ تَبَغَّدَ رَقَّةً وَلَطْفًا ، وَجَوْهَا قَدْ تَزْدَقُ تَنْعُمًا وَظَرْفًا ، تَكَادُ تَنْقُلُهُ عَقُودُ الْغَانِيَاتِ وَيُغْجَلُهُ تَنَائِعُ اللَّحِظَاتِ ، كُلُّ شِمَائِلِهِ نَسِيمٌ ، وَكُلُّ جَنُوبِهِ حَيَا عَمِيمٌ ، وَرَأَيْتُ أَرْضَهَا أَطِيبَ الْأَرْضِ خِيَمًا ، وَأَزَيْنَهَا أَدِيمًا ، تُنْسَجُ بِالسُّنْدُسِ الْأَخْضَرِ ، وَتَفْتَرُّ عَنِ الْأَقْحَوَانِ الْأَحْمَرِ ، وَرَأَيْتُ بُنْيَانَهَا هُوَ الَّذِي حَمَدَهُ اللَّهُ فِي تَنْزِيلِهِ ، وَأَحْبَبَهُ لَنَا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ ، مَرْصُوضًا بِوَقَاجِ الْجَلَمَدِ ، مُلَاءَمًا بَيْنَهُ بِالشَّيْثِ الْمَعْرُودِ . قَدْ حَصَّنَ ظَاهِرُهُ عَلَى بَاطِنِهِ عَنِ تَدَاخُلِ الْإِتْرِ ، وَمَسَاكِنِ الذَّرِّ ، يَزُلُّ عَنْهُ ظَفَرُ الطَّائِرِ وَتَتَدَحْرَجُ عَلَيْهِ أَحْدَاقُ النَّاطِرِ ، وَتَغْتَنِي بِهِ الْعُرُوسُ عَنِ الْمَاوِيِّ الْمُنِيرِ ^(١) ، وَتَتَبَيَّنُ بِهِ الْعَيُونُ مَنَابِثَ الشُّكْرِ مِنْ أَهْدَابِهَا وَالْغَمَرِ ، مُتَلَاقِيَةً أَقْطَارُهَا عَلَى رِجَالِهِمْ كَأَنَّهُمْ أُنْسَاءُ عَادَ ، وَثَاقَةُ أَجْسَامِ وَصَلَابَةُ أَحْلَامِ ، وَبَعْدَ مَرَامٍ ، لَطْفُوا عَنْ بَدْوِيَّةِ الشَّامِ وَغُلْظَتِهِ ، وَخَمَدُوا عَنْ ذَوْبِ الْعَرَابِ ، وَصَلَابَتِهِ قَدْ عَقِدْتُ أَلْسِنَتَهُمْ بِالصَّدْقِ ، فَمَا يَنْتَثِرُ الْبَاطِلُ مِنْ عَذَابَاتِهَا . وَصَحَّتْ غَرَائِصُهُمْ فِي الْمَوَدَّةِ ، فَمَا يُجْتَنِّي الْغَلَرُ مِنْ غَرَائِيقِهَا ، إِنْ سَلِمًا فَسَلَمًا ، وَإِنْ حَرْبًا فَحَرْبًا . لَا يَعْرِفُونَ تَدْلِيسَ

(١) الماوي : حمر البلور أو المرأة .

الأخلاق ، ولا تمويه النفاق وشعراؤهم ملء اليدين ، وكُتِّبَ لهم أثر بعد عين . أدبهم
حسنً على قلة الملوكي فيه . وعلمهم متقن لمن تأمل أدق مسرب في فتن معانيه . قد
محصّ تهذيب المحن شيرازهم ، وأوهن خيارهم . بلذهم أطلال ، وأحوالهم آل . قويهم
يغنّ ضعفاً ، وضعيفهم يماطل حتفاً ، بقيت عليهم أسماأل النعم ، وذهب الدهر
بأجسامها . وانجلت عنهم ظلل المحن ، وهم يتأوهون من غير آلامها ؛ إلا أن فيهم بقية
نثية ، وفيهم موضع تدارك إن رزقوا سيرة مرضية . فلولا ما أرجوه من مداواة
أسقامهم ، وإعادة صالح أيامهم ، لقضائي الانتفاء بمعايشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم
قلل مقاساتهم ، لكنني أعلم أن من يحيى العظام وهى رميم ، ويبعث الروض وهو هشيم ،
وينشئ اللو بعد أن كانت قفارا ، ويجعل من الشجر الأخضر نارا قادر على أن يجعل
ثواب نيته فيهم معونتي على ماأنويه لهم ، وجزاء تأملي بهم بلوغ الغرض في تدارك
رفيقهم .

فصل من رسالة بعث بها إلى ذى السعادتين الوزير الحسن بن منصور
وزير بهاء الدولة البويهى

« للرياسة كُلف لا يستقل بها إلا المهذب الكامل ، ولا يخطو تحت أثقالها إلا الأوحذ
الفاضل ، ولا يلغ ذوائب أعاليها إلا من شرب الأجاج من ماء واديها ولا يلد بملكها إلا من
أعلى المهر من كريم مساعيه ، ولا يفض ختامها إلا من جعل مازلة الخطوب سلكا لعقود
إيامه ولياليه . ولذلك قيل ما نشدته استبصاراً ، وأنا إلى إيراده أبين إصراراً :

لا تحسب الحمد قمرأ أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وإن سياسة الأقوام فاعلم لها ضغفاء مطلمها طويل

ويظلموا فترى الألوان مسفرة لا عوف ذل ولكن فضل أحلام

ويحتاج الرئيس إلى أعوان يظهر بهم كمية مكارمه ، ويمضى فيهم ويهم ماضى عزائمهم ،
فلولا الطالب لعاش الكريم مطوياً على حسرات أوطاره ، ولولا الخاطيء لما وجد الخليم اللذة
جليه ووقاره . وكلما كان التابع أبعد مذهباً في معناه كان المتبوع أشد حذلاً بظهور مناقبه
وغلاه .

وله في باز طار كان يتصيد به أحد الأشراف :

« بلغنى خبر الغادر المادق ، و الباشق الآبق ، فشاركته في الاستيحاش من فراقه لما كان
يبدع من مصايده ، ويقرب من مطارده ، ورأيت قد شاب فضائله بهذا الغدر الذى يسلي
عن تذكاره ، والإباق الذى ينسى محاسن آثاره ، والنكب الذى ختم به عواقب عهده ،
وبعض إلينا ، بل إلى سيدنا استخدام أمثاله من بعده ، لأن أحق الناس بكراهة الغدر من
كان الوفاء رضيع لبائنه ، والحفاظ منبت أصوله ، ومنشأ أغصانه ، وكأنى بفقده ، وهو
عند الدراج^(١) ، من أنعم الأعراس ، ومن الوحشة منه وهو بين سرايب الطير من ألد

(١) نوع من الصيد ، وهو دجاج البر

الإيناس ، لأنها أريحت بعده من حتفها العاجل ، وسُمها القتال ، واجدها انقصر .
 ووجله الحاضر ، وعقله قوادمها وخوافها ، وهشة نواظرها ومآقها ، والكوكب
 المنقضى على مسارحها ، والسهم القاصد الى مذايحها ، والآفة التي كانت بها حُرمت
 حُسن الرياضي المونقة ، وثكلت برد الغدران المغدقة ، وتَنَقَّصَتْ مشاهدة هذا الجو
 الرقيق الشماثل ، اللازوردى الغلائل ، حتى صارت لا تكثر بوكري تبنيه ولا بفرخ
 تغذيه ، علماً بأن لها منه مفرق العدد ، وفاجع الوالد بالولد . ولو علمت هذه الأطياف
 الشامة بنفاده السالكة سبيل الأسر ، بافتقاده ، بما يعده سيدنا لها من ذى ظفر مظفر ،
 ومنسر للطير ميسر ، وخليف صالح ، وجارح جارح ، أسد لها منه اصطلاماً ، وأسد
 الى مقاتلها سهاماً ، لعلمت أن كثرتها استجماع له ، وأن وفورها توفير عليه .

وفي فصل منها :

« وما ألوم هذا المارق على ملله وانحياضه ، لأنه كان قد تعود أن يصيد بمقدار قوته
 ومعاشه فصار سيدنا يستخدمه بهمة تطلب الغاية البعيدة ، وتستهل المشقة الشديدة ، التي
 هزلها جد ، وجورها قصد ، ولعبها ارتياض ، يتصير من لم ينقد إليها سريعاً ، ذا ضراوة على
 اقتناص من لم ينته الى أوامرها مطيعاً ، فلم يُطَقْ على ذلك جلدأ ، ولم يجد بهذا الأمر
 الفادح يداً ، فما أشد بسذى لعذره ، ومعرفتي بسبب عذره ، وآمل أن يتذكر ماكان له
 لغناؤه من نعيم ، خياله بين عينيه وطيب عيشي تذكره أجدى له من حماقيه ، فتدعوه
 عواطف التربية والإيثار ، وتزول عنه عوارض السهو والاعتزاز ، فيعود الى رسمه ،
 ويعود من جرمه ، ويرجع وقد أدبته النكبة ، وهذبته القرية . »

وكتب الى رئيس نصراني اعتنق الإسلام^(١)

وكان في ذلك الأوان بمدينة تكريت .

« .. ويعلم الله ماورد على وعلى كافة من حضر من المسلمين من السرور بما أبان الله
 من آية قطعت عذر الجاحدين ، وحجة استهلك شبه العاندين الجاهلين ، لا أن هذا
 الدين — بحمد الله — مفتقر من بعض حواشيه الى بينة تزيد فيه ، ولا أن الاستدلال

(١) وهو المطران الكبير رئيس ايعاقبة أبو مسلم مشرف بن عبيد الله . وكان اسلامه سنة ٤٠٧ هـ وأرسل هذه الرسالة إليه من ميلافاقين .

الصادق كَانَ تَرَكَ شُبْهَةً إِلَّا فَضَحَهَا وَلَا مَعْجَزَةً إِلَّا أَوْضَحَهَا ، وَزَائِغًا إِلَّا قَوَّمَهُ ، وَجَاهِلًا إِلَّا عَلَّمَهُ ، وَرَكْنَا لِلْبَاطِلِ إِلَّا خَفَضَهُ وَعَقْدًا لِلشَّرِكِ إِلَّا نَقَضَهُ . إِلَّا أَنَّ الْخَالَفِينَ قَدْ شَغَلَتْ الدُّنْيَا أَكْثَرَهُمْ عَنِ التَّأَمُّلِ ، وَحَجَبَتْ الْعَادَاتُ خَوَاطِرَهُمْ عَنِ التَّأَوُّلِ ، فَبَعْدَ بِالْحُجَجِ السَّالِفَةِ ذِكْرَهُمْ ، وَاشْتَدَّ إِلَى الْبِرَاهِينِ الْمُسْتَحْدِثَةِ فَقَرَهُمْ ، فَكَانَ أَبْلَغُ بَرَهَانٍ إِقْبَالُ مِثْلِهِ إِلَى الْحُجَّةِ عَنْ غَيْرِ رَغْبَةٍ اسْتَفْزَتْهُ ، وَلَا رَهْبَةٍ هَزَّتْهُ ، وَلَا مُحَاسِدَةٍ أَغْرَتْهُ ، وَلَا مُنَاطِرَةٍ عَزَّتْهُ ، بَلْ أَطْلَقَ عَنَانَ عَقْلِهِ ، وَمَدَّ بِهِ رَاشِدًا حَتَّى وَقَفَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَاسْتَتْلَاهُ قَاصِدًا حَتَّى أَوْرَدَهُ إِلَى الْمَنْهَجِ السَّلِيمِ ، فَوَرَدَتِ النِّعْمَةُ بِتَخْيِيرِهِ صَافِيَةً غَيْرَ مَكْدُورَةٍ ، وَالْمُنْحَةُ فِي اسْتِعْمَانِهِ وَافِيَةً غَيْرَ مَقْصُورَةٍ ، فَهَذَا اللَّهُ الْإِسْلَامَ مَا لَا يَزَالُ يَتَوَلَّاهُ بِهِ مِنْ إِيْضَاحِ مَنَارِهِ ، وَتَبْلِغِ أَنْوَارِهِ ، وَإِدَامَةِ صَبِيحِهِ ، ضَاحِكًا ، تَتَصَدَّعُ عَنْهُ دِيَاجِيرُ الشُّبُهَاتِ ، وَتَنْجَلِي مِنْهُ مَلَاسِ الْفُتُلَاتِ . وَهَذَا اللَّهُ الشَّيْخَ مَارَاةً لَهُ أَهْلًا مِنْ هَذَا السَّنَاءِ ، الَّذِي تَقِفُ دُونَهُ هَمُّ الْمَعَالَى ، وَتُنْضِيءُ بِهِ ظُلُمُ اللَّيَالِي . وَغَرَسَ عِنْدَهُ التَّوْفِيقَ الَّذِي يَسْتَرْهَنُ لَوَاءَ النِّعْمَةِ ، وَيَضْمَنُ بَقَاءَ الْعَصْمَةِ .

وقال من رقعة في فتح^(١)

« ولما تقاربت الفتنان إذا يعلونا في عُدَّةٍ قد اشتملت منهم على كل سهم في كنانتهم ، قد استكثروا من علوج لا يخشون حومة اللقائ ، ولا يثبتون على مقارعة الأكفاء . فلما اجتمع أعداء الله ، وقلوبهم بالذعر متفرقة ، وأقدموا وأقدامهم القهقراء راجعة ، وكانت لنا عيون تجثم على مدارج أنفاسهم ، وطلائع تقبض على مسارج الحماظهم . »

ويقول :

« وبادرتهم فرسان من بني عامر على الجرد الصلادم ، قد برزوا الجُبْنَ تعجلاً للطراد ، وتخففوا من الرماح تقصيراً للبعاد ، فوكزهم بالرماح وكزاً ترك الدروع منهم غلائل ، وأمانى الحياة فيهم قلائل فلم يترك القتل فيهم إلا أنفساً عافتها كرام السيوف ، أو آخرين عزيزين تكفكف عنهم الرحم العطوف يتمسكون بأنفسهم حوزاً ، ويعتدون ذل الضراير عزاً . وافترقوا إلى أوطانهم يرقبون الليل كما يرتقب الصباح ، ويدلجون بكل ماشي من الخيل بجناح . وكان أميرهم في بلهنية الاستهامة بهم ، وقلة الفكر فيهم ، قد بات يعمل كاسه ، ويلهى

(١) الذخيرة ٥٠٦ / ٤ .

جلّاسه . وغدا سكران على فرس جموح يبادرُ النهاب وهي أنفسهم ، ويحاولُ الغنائم وهي مهجهم ، فرقصت به الفرس ، فصادف ذلك الأجل المكتوب له . فجزى الله هذا الحى من آل عامر أنها الجزاء عاجلاً ، وأدومته آجلاً ، وثنى بنى عمنا الأقرين وعشيرتنا المستخلصين ، خفاجة ، وكذلك الجيران ، وأهل البلد والأعيان ، وألفاف كانت سماؤهم نكرة ، فعرفتُها المواقف الحميدة ، وطوائف عاطلة حلتها الخطى البعيدة وخاملة نُبّه عليها شكر السيوف لأيدٍ منهم وصلت قصارها ، وأوصلت في زحام الورد حوارها .

رسالته إلى أبى العلاء المعرى وأخيه^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذه — أطال الله لسيدى الشيخين في سبوغ النعمة البقاء ، وأدامَ لهما في ذروة المجد الارتقاء ، وجعلنى لهما من كل سوء الفداء والوقاء — نفثة مصدور ، وضجرة مأسود بعثتها صباة الهوى ، تذكيها نارُ الغرام ، في صباية لقاءٍ تقلّها أيدي السلام :

بقية شيلو كسرَ البين عظمه ومزقَ جلدأ كان يستر ما يقى
أقام فلا تلك الخواى تطيقه نهوضاً ، ولا تلك القوادم ترتقى

ولابد للمصدور أن ينفث ، ولا غرو للمأسور أن يتلهث ، وجعلتها أنى كتب وما لى جارحة إلا وهي جريحة حبهما ، ولا جانحة إلا وهي جانحة الى قريهما ، ولا قلب الا وهو كيفما تردّد وتقلب فقى مرضا لهما ، ولا نفس إلا وهو كيفما تصعدّ وتصوب فقى موالاتهما ، فالله يحرسُ على موقدنى جزل الغضا بين جنبي ، وموقدنى جيش الصباة كل يوم إلى ، اللذين ان واجهتُ بهما المروءة أسفرَ مربدّها ، وسرّ مكملّها ، وإن قابلت بهما الفتوة طلع سعدّها وأوبرى زندها :

أرددُ فيهما فكـرى فترجعُ حُـراً فكـرى
كذلك الشمسُ ثنى العـدَّيْن معشاةً عن الثظـر

فاذا هاجت بلابلى ذكراهما ، وإن كنت لا أنساها ، واشتقت أن أراها ، ولم أجذ عوضاً
عمن سواها :

(١) مجموع رسائل أبى العلاء .

أروم بالذكر شفاء الـذى يقلقنى من روعة الذكر
ولست بالحامل إلا على إطفاء جمر بلظى جنـر
وعلة الكون إذا طـلـبـت بالجرى فى الإفـسـاد لم تجـر

ثُلث نفسى لـديـها ، وقـرـرـت مـكـانـهـما بـين أيـديـهـما :

وخلوت أجلب الرقاد لعلنى ألقى خيالاً منهما فأراهـما
فإذا عدمت النوم لذت بفكرتى فانجـاب لى من لىـتى فجـراهما
وإذا سئلت بمن تيم صباة قلت اللذان هما اللذان هما

وفيان بعهدى بالغيب ، والساتران لما فى من العيب ، والمحسنان إلى إن أسأت ، والمصيبان
، أمرى إذا أخطأت .

دليلى ان جاز بى مهتد وغوناي ان خذل الناصر
ولولا تردد فكرتهما لما كان لى فى الدجى سامر

من اجتلى غرر محاسنها من جبهات الدهر ، وأقرأ فضائلهما من صحائف العصر
طالع طلعتيهما فى مرآة التخيل ، وأشاهد سمتيهما بعين التفكير والتأمل ، ولاغرو وإن بعد
مهد ، إذا قرب الود ، ولاضير إن تناءت الأشباح فقد تدانت الأرواح :

ولكن إذا حاسبت نفسى تأملت فلم تر إلا فكرة قل مائجدى
فلا العين ترعى غير ما كان من نوى ولا القلب يلقي غير ما كان من وجـد
وانى لجاني البعد والبعد قاتل وشاحـد حد البين والبين لى مـزـدى
فوا أسفاً من ذا النوم على النوى ومن قبلى كان الفراق ومن عنـدى
وكم قد أقلت الدهر من خطاى فهلاً أقال الدهر من خطا فرد
ففس من كسر ، وفرج من أسى وجمع من شت وقرب من بقـد

ميات ، هو الدهر الذى يسر نادراً ، ويسوء مبادراً ، ويحسن مبتدئاً ، ويسر آخرأ :

ويجود ثم يجيد أخذ صلاية مستدركاً خطأ الجميل فمذكراً

فإلى الزَّمانِ أذمَّ ما ألقاهُ من غير الزَّمانِ واستيُمَ إلى البُكا
وإذا شكوتُ إلى سواه صنيعةً لم يُشكِنِي ، فالله منه المُشكِي

فلعله أن يغلط باجتماع ، لا يكدره انقطاع ، أو تلاقٍ لا ينقصه افتراق ، وهو المرجو من
طَوَّلَ الله تعالى . ولولا ما أرجوه من عَوْدِهِ الى ما عَوَّدَ من جمع الفريقين ، ولم ذاتِ البين
لَمْتُ كمدا ، ولم أجذ على ما أفاويه جلدا . فأما حالى وما أنا عليه فجملتها أنى أصبح
وأمسى فى غِلِّ التدبير ، وأروخ وأغدو فى سجنِ المقادير ، هدفاً لسهام اللبالي والأيام ،
غرضاً لأستة الأحوال والأعوام ، أجذ مالا أريد ، وأريد مالا أجد :

وليتنى من زمانى خرجتُ رأساً برأسٍ
فلم يتلنى بحير . ولم يصينى يأسٍ
وكنْتُ أصبحُ حُرّاً بين ارتجاءٍ ويأسٍ

وهما يريانِ ذلك فى اضطرابِ حطًى ، ورُجوعِ ألفاظي شيئاً فشيئاً إلى حطًى ، فإذا هما
صرفاً التأملِ إلى ، وأقبلا بكليّة فهمهما على ، وجدانى :

وقد استحالَ همُّ بى فتخالنى من طول ما أجذ الجوى مسرورا
وقد انطوتْ متى الضلوعُ على أسمى لو كان محسوساً لكان مهيّوا

وأخلق بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحة والسقم . وأحر بمن كان هذا نعتُهُ
أن يتأمل لديه الراحة والألم .

بأى فؤادٍ أفاوى الهموم وفى أى جفنٍ أحسُّ الشهاداً
وما ترك الدَّمْعُ لى مُقلّةً ولا خَلَفَ البينُ عندى فؤادا

وأنا مع كمالِ هذه الأحوال ، أخاشينُ الحجر ، وأحاسينُ القمر ، وأفاضلُ الهجانِ
بالمجن ، وأفضلُ الغثائَةِ على السمن .

أعاطى نزع الرُكى وقد قصُ — رَ عن أن يتأل ماء رشاء
ولعهدى بفكرتى وهى تنجا بَ بها ، عن صباحها الظلُماء
غير أنسى وإن تعاورنى الهمُ وشاء الزمانُ مالا أشاء
ورمانى مستيقناً أن قلباً بين جنبى صخرة صماء

لا أبالي بالليل طال أم اليو م ، كلا الرّبتين عندي سواء
والغادي هو المراح من همّ — سي فهذا الصّباح ذاك المساء
وإذا العين لم تعانِ سيوى الشّو ء فسيان ظلمة وضياء
وابنى الهم لا ابنه أنا إذ كل ابن همّ بليّة عمياء

وبعد — فهذا أدام الله عزّ سيّدتي الشّيعين — قول استغفر الله مه ، وأسأله التجاوز عنه ،
وأسلم للمحتوم في أمره ، وأرضى بقدره حيره وشبهه ، وأسأله الجمع بيني وبينهما على حال
تسرّ الولي وتسوء العدو بخوله وطلوله ، إنه وليّ الإجابة والقادر عليها إن شاء الله تعالى . » .

ونال ابن المغربي التقدير من معاصريه ومن تبعه من الأدباء والعلماء في العصور التالية .
ومن أعجب به ابن بسام ، فقد ترجم له في الذخيرة وأثنى عليه وعلى أدبه قائلا : (١)

« كان أبو القاسم نجماً مطالعه النّول ، ونحراً غيابه القول والعمل ، وروضة تقوّت القلوب
نفحاتها ، وتفيد الأبصار صفاتها وموصفاتها ، أما العلماء فعيال عليه ، وأما العظماء
فلعب بين يديه ، وأما الأقلام فبعض شيعه وأنصاره ، وأما الأقاليم فبين إيراده وإصداره ،
وأما مكانه من العلم الحديث والقديم ، وسبقه إلى غايته المنشور والمنظوم ، وإقدامه على
المهالك ، وتلاعبه بالأملك والممالك فأشهر من الصّباح ، وأسير من الرياح . »

ويقول :

« ومن أوابد أخباره ، وخالد آثاره كتابه المترجم به « المنخل » في اختصار « إصلاح
المنطق » لابن السّكيت . فإنه غاية لا يتعاطها إلا من بهز عتقه ، واشتهر سبقه ، وطريقة
لا يتواخاها الا من رسخت في العلم قدمه . وترامت به إلى مغالي الأمور همه . ومما
يعجب من أمره ويرفع الصوت بجلالة قدره أنه استظهر القرآن وعذّة من الكتب المجردة
في اللغة ونحو خمسة عشر ألف بيت من ثنثار الشعر القديم ، ونظم الشعر وتصرف في
النثر ، وبلغ من الخط إلى ما يقصر عنه نظراؤه ، ومن علم الحساب وجميع الأدوات إلى
ما يستقل بدونه الكاتب وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة ، واختصر ذلك
الكتاب فتناهى في اختصاره ، وأوفى على جميع فوائده حتى لم يفته شيء من ألفاظه ،
وغير من أبوابه ما أوجب التدبير تغييره للحاجة إلى الاختصار ، وجمع كلّ نوع إلى
ما يليق به . »

(١) الذخيرة — تحقيق إحسان عباس — ج ٨ ص ٤٧٥ — طبع دار الثقافة بيروت

وقد وقفنا على نماذج من نثره وشعره ، وعرفنا مكانة الرجل في الشعر وهو في رأينا في النثر أمكنُ وأقدر ، وهو صائغ ماهرٌ ، وإن لم يعتمد البديع صبغاً يزيّن به لفظه وإن كان يميل أحيانا الى السجع ، والمزاوجة ، ويحرص على مراعاة النظير ، والتوازن بين العبارات في الإيقاع ، مع ميل أحيانا الى الإغراب في اللفظ . وهو أكثر ميلاً الى الاستعارة والاكتثار من المجاز ، وذلك يكسب عبارته قدراً من الحسن ، ووشياً من الجمال .

وقد يضمن قوله الشعر من محفوظه أو منظومه ، وفي رسالته الى أبي العلاء صورة لتلك المزاوجة بين منظومه ومنتوره ، يعادل بينهما .

وابن المغربي بعد هذا كله علّم بارز من أعلام العصر ، ترك أثره في الحياة ، وأحداث التاريخ في تلك الفترة الغريبة من الدولة الاسلامية ، وترك أثراً كبيراً وواضحاً في الفكر والادب .

ابن خسران
أبو محمد أحمد بن علي — ولي الدولة^(١)
(توفي ٤٣٢ هـ)

وهو من كتاب الإنشاء المعروفين في دولة الظاهر ابن الحاكم بأمر الله ، وكان أبوه قد تولى ديوان الإنشاء للحاكم ، وترى ابنه أحمد في ظل والده ، حتى شب عن الطوق ، ورأى أباه في تلك المنزلة الرفيعة من القصر ، ولا نستبعد أنه شاركه في مجالسه بديوان الإنشاء بل ربما ولي بعض الوظائف فيه حتى إن من ترجموا لحياته ذكروا إنه تولى الإنشاء بعد وفاة والده ، ولو لم يكن مدرباً على ذلك معروفاً للمخليفة ما جعله مكان أبيه . وذكرت بعض الأخبار أنه تولى الكتابة في عصر الحاكم .

وتروى أخباره أنه كان حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، جيد العارضة وكان أعظم قدراً من أبيه ، وأكثر علماً^(٢)

وحفظ ابن خسران كثيراً من الشعر ، ودرب نفسه على الكتابة على طريقة كتاب العصر ولعل والده كان قدوته الأول في ذلك ، ثم استقل بعد ذلك بنفسه ، وإن كانت لم تصلنا رسائل لوالده .

والمؤكد من أخباره كما تواترت في مصادر ترجمته أنه تولى ديوان الإنشاء للظاهر بن الحاكم بعد سنة ٤١٢ هـ ، وكان سنة ٤١٤ هـ من رجال الدولة الكبار المذكورين مع قاضي القضاة وداعي الدعاة . وكان فيما يبدو وثيق الصلة بالأمير معضاد شمس الدولة الخادم الأسود الذي استولى على الظاهر ، وكان المتصرف في دولته . وظل حتى عصر المستنصر بعد سنة ٤١٦ هـ .

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء لياقوت ٤ / ١٣٥-١٣٦ ، وابن العسيري في الإشارة إلى من مال الوزارة ٣٤ — ٣٥ ، وتاريخ مصر للمسبحي عن عامي ٤١٤ / ١٥ طبع النويد ، وخواص أخبار قصبات لابس سعيد ص ١٠ ، والحموم الزاهرة في حل حصرة القاهرة لابس سعيد و دهل تاريخ دمشق ص ٨٠ ، وفيات ابن حنكلا ٣٨٢/٣ ، والحموم الزاهرة لابس نمرى بردى ٢٤٤/٨ وأعيان الشيعة ٧٦/٥٤ والوفاء للصدى ٢٣٤/٧ ، ومجموعة الوثائق العاضية للدكتور الشيبان ١٦/١ — ١٣٨ ، وفي أدب محتر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ٣٣١ — ٣٣٤ .

(٢) ذكرت بعض المصادر أن أمه كان أكثر منه علماً .

وكان ابن خيران جريئاً ، ذكياً ، معتدأ بنفسه ، وتروى عنه حادثان إحداهما يرويها
ياقوت . يقول :

« كان ابن خيران قد خرج الى الجزيرة متنزهاً ، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب
والشعر والكتابة قد احتفوا به يميناً وشمالاً ، فأدى بهم السير الى مخاضة مخوفة ، فلما رأى
إحجام الجماعة من الفرسان عنها وظهور جزعهم منها قنع بغلته فولجها حتى قطعها ،
وانثنى قائلاً مرتجلاً :

ومخاضة يلقى الردى من خاضها كنت الفداة إلى العدا خواضها
وبدلت نفسى لى مهاول خوضها حتى تنال من العدا أغراضها »

وربما كان المسيحي من جملة أصحابه ، فقد أورد كثيراً من شعره في كتابه . وروى له
ابن ظافر في « البدائع والبدائنة » حكاية تدل على ستهتاره ، وتبذله ، قال ابن ظافر^(١) :

« ذكر الفرّج بن ابراهيم الكاتب في « سريرة الألباب وذخيرة الكتاب قال : دخلتُ
يوماً ديوان الانشاء بمصر ومتوليهِ وليُّ الدولة ابن خيران ، فلم أجده في الديوان الا أنى
وجدتُ الكتابَ على رسمهم ، والناسُ على جارى عاداتهم ، وإذا سراويلُهُ ملقاة على طراحة ،
فجلستُ أنتظره ، فلم أشعر الا وقد فتح خزانة وخرج وقدامه غلامٌ صقليٌّ كأنَّ الشمس
على صفحته والغصن في قامته ، منكسر الأجفان ، مطرقها مورّد الوجنة عرقها ، وحين
وصل الى الطراحة لبس ابن خيران السراويل وارتجل :

أنا ممن لا يرى للنفس إلا بالصلاح
لا تملو ، حكمة الإنعاظ إلا بالنكاخ

فعلم الحاضرون أنه كان يفسق به (بالغلام) ، فاطبقوا عند الخروج على لعنه . »

ويروى ابن خلكان له حادثة ثالثة تدل على مروءة وعطف على فقراء الأدباء والشعراء
يقول إن الشاعر أبا الحسن علي بن أحمد بن نوخت توفى بمصر في شعبان سنة ست عشرة
وأربع مائة وهو على حالة من الضرورة ، وشدة الفاقة ، وكفله وليُّ الدولة أبو محمد أحمد بن
علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر .^(٢)

(١) بدائع البدائنة بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٣٦٠

(٢) وفيات الأعيان ٣٥٨/١ ، وترجم له ترجمة مختصرة في عرض ترجمة الظاهر ٤٦٣/١

ولابن خيران شعر ، ونثر ، وإن لم يصلنا منهما غير نتف مشورة . مع انه فيما يبدو كان غزير الشعر والنثر ، فقد جاء أنه أرسل شعره ورسائله الى الشريف المرتضى يعرضه عليه في جزئين . وقد ورد بعض شعره ورسائله في تاريخ المسبحي ، وياقوت ، والنجوم الزاهرة لابن سعيد .

وانتقد ابن سعيد كتابته وشعره قائلا : « ووقفت على رسائله في مجلدين واكثرها من طبقة المغسول المسبوع ، لاتقف منها على غريبة ، ولا تغفر بنادرة ويكفى منها عنواناً عن طبقته قوله في كتاب يحض فيه على الجهاد :

« من عبد الله وولّيه أنى الحسن الإمام الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين إلى كافة أولياء الدولة وطوائف رجالها ، وقبائل عربها ، والمطوعة من رعاياها بالحضرة وسائر أعمالها .

سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على محمد جده خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً .

أما بعد فالحمد لله جبار الجبابرة ، وقهار الملوك القاهرة ، ومناح النعم السابغة المتظاهرة وفتاح أبواب الخير على المخصوصين به في الدنيا والآخرة ، كافي عظام الأمور ، وشافي وحاج الصدر ، وقاهر الباطل اذا تسلطت منه الخطوب وناسر الحق اذا ضعف الطالب والمطلوب ، الذي أعز الملة بالسيف ، وحاطها من عواذي الضيم والحيف . وأثنى على من له في الجهاد فضل مخصوص فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرصُوصًا ﴾ .

وأحسن ما وجدته من نثره مانقلته من خط صاحب كمال الدين بن أبي جرادة في فصل يخاطب فيه الدّزبري صاحب دمشق عن الحضرة :

« وكان قلمك يوجف ولا يجف ، وسيفك من ذوى العناد يكف ولا يكف ووزنك في سدّ ثلم الفساد يرجع ولا يخف . »

وقال عنه القرطبي^(١) : « إمام أئمة كتاب الديوان الإمامي بالديار المصرية . الذي نسج

(١) النجوم الزاهرة في حلي حمزة القاهرة ص ٢٤٤

كلُّ على منواله ، وسَلَّم له في المرتبة العلية . كتب عن الإمام الحاكِّم والإمام الظاهر ، وعن الإمام المستنصر . ونظمه ونثره قد دُوِّنا إذ هما أعلى ما يدوَّن . .

وأما شعره فقد أورد له المسيحي جملة منه ، كما أورد ابن سعيد كذلك بعض مقطوعات منه . ويقول الدكتور محمد كامل حسين^(١) : « وعلى الرغم من أن شعره فقد ولم يبق منه الا عدة مقطوعات قصيرة ، فإننا نستطيع أن نقول ان ابن خيران كان معجباً بنفسه يكثر الإشادة بشعره ، وينثره . انظر اليه يقول :

ولقد صموت على الأناس بخاطر الله أجري منه بحراً زاحراً
فإذا نظمتُ نظمتُ روضاً حاليّاً وإذا نثرثُ نثرثُ درّاً فأنجراً
ويقول مرة أخرى :

تخلّقت يدي للمكرّمات ومنطقي للمعجزات ، ومفرقي للتاج
وصموت للعلياء أطلب غايّة يشقي بها الغادي ويخطي الرّاجي
وهو القائل أيضاً :

قد علم السيف وحّد القنا أن لساني منهما أقطع
والقلم الأشرف لي شاهد بأنسي فارسته المنقّع
من هذه المقطوعات نستدل على ان ابن خيران قد فتن بشعره وينثره الى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات »

ومن جملة ما ذكره المسيحي من أشعاره قوله متغزلاً :

أمرُ بالقمر الفريّ مطلقه فيعتري إذا أبصرته صرغ
وكم هممت بترك الافتتان به فلم يدعني جنون العشق والطمع
أشكو إلى الله قلباً عتّز مطلبه ما إن له عن سوى الغابات مريدغ

(١) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٢

وقوله أيضا :

يا من إذا أبصرني أعرضنا قد كان ما كان، بجهل الصبا
لي حرمة الإخلاص لا غيره إذ ليس فعلى عنده مرئضى
فلا تؤاخذنى بما قد مضى وهى التى تطمعنى فى الرضا

وقال :

من حرّض النوم على هجرى غيرك يا مستحسن البحر
ومن حاني برّ أهل الوقا سواك إذ قصّرت عن برى
أسأل من أعدمى الصبر أن يذلّنى فى الحب بالصبر

وقال :

واحرى من ظالم مهجتي فى يده ، هو بأوصايها
رام مداواتى على رقبه بقبله منه فأودى بها

وقال :

يا بديعاً تكاد أنواره تحجب القمر
وغريراً ما زلت منى به معنى على غرزه
إنّ قلبى إذا خطّر ث على غايه الخطر
أوما آن أن تلي ن وأن تقضى الوطر
كيف استجلب الرقا د ، واستدفع السهر
والذى أرحمه منى لك بعيد من الظفر

وقال :

يا قمرَ الروشن باطلعة أنوارها تحجب ضوء القمر
وفقاً بمن غادرتك فى الهوى مشتهراً كاسمك بين البشر
أما اتقيت الله فى عابر وقفته للحيف لما غبر
قل لى لم عرضت - لما بدا له ، ولم أغرضك لما نظر
أوطراً قضيت فى قصدي اعطف عليه ، قد قضيت الوطر

وقال في مثله :

فكاد يُزرى بالبدر والشمس	بدر بدا طارقاً ومبكراً
فلا ترى عاصياً من الإسر	يدعو إلى حكمه وطاعته
لي ذلة الحب عزة الفيس	وكم دعائي إلى الهوى فأبث
قضى على العاشقين بالوكس	لا خير في العيشي للأريب إذا

وقال :

أترى قل من هفتاً و	يا قضيباً مهفهفاً :
يد والصد ما كفي	قد مضى من مشقة البع
ذاب في طاعة الولي	فيا زئ للمدني الذي
ب لمن عفا أو عفا	إنما يُجرزل الثوا

وقال :

بين واشر بني مولاج	أنا منهاض الجناح
في الحشى وخز الزجاج	وهوى أسهل منه
فساداً بصلاح	أنا لولا الجبن ما اتبعك
الحفاظ المصلاج	هكذا تصنع بالعشاق

وقال :

شوق إليكم كهز الرج للفن	إذا خطرتم بيالي هزلى أسفاً
ولا ربعك على ريع ولا سكن	وما التفتك بميشى بعد لرفقتكم

وقال في الفخر :

في المعالي ضاقت بك الأبناب	أيها المبتلى مسنامة مثل
أو يباهى شمس النهار شهاب	هل يباهى بدر الظلام سراج

وقال مفتخراً :

وأساءة كلهم نوابي الدهر	قومي رعاة الخلق كلهم
ووجوههم كالأنجم الزهر	أحسابهم غر عجولة

لَطَّقَ بِيَذِلْ نَدَى وَكَفَّ أَدَى تُحْزِنُ عَنْ الْقَحْشَاءِ وَالْهُجْرِ
وقال أيضاً مفتخراً :

قُضِّتْ لِي بِبِلِ الْعَلَاهِيَّةِ شَمْسٌ مَفَاخِرُهَا بَارِغِيَّةٌ
إِذَا جُدَّتْ أَلْرى جَمِيعُ الْعَفَاةِ وَجَادُوا مِنَ النِّعَمِ السَّابِغِيَّةِ
وَإِنْ صُنْتُ صَالَتْ صُرُوفُ الزَّمَانِ وَأَجَلْتُ عَنْ النِّقَمِ الدَّامِغِيَّةِ
فَإِنْ قُلْتُ بَرَزْتُ لِمَا أَقُولُ عَلَى قَالَةِ الْحُكْمِ الْبَالِغَةِ
وقال في الأدب :

أَمْرَانِ مُسْتَطْعِمَانِ عَسْدِي فَقَرُّ جَوَادٍ إِلَى بَحْرِ
وَبَارِغٍ فِي جِبَالِهِ لَا يَعْرِفُ شَيْئاً مِنَ الْجَمِيلِ
وقال في الأدب :

أَسْنَى الْعَطَايَا الْعَقْلُ مَقْتَرِنًا بَغْنَى يَكْفُ وَصَحَةُ الْبَدَنِ
وَأَشَدُّ مَا فَجَعَ الزَّمَانُ بِهِ فَقَدْ الصَّبَا وَالْإِلْفُ وَالْوَطَنِ
وقال :

إِذَا لِسَانُ الْمَعَالَى كَانَ يَمْدُحُنِي فَمَا أَبَالِي بِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَهْجُونِي
وقال :

وَالْحَنِ الدُّنْيَا تَجْرُ ذِيُولُهَا فَرَفَضْتُهَا وَعَصِيْتُ طَاعَتَهَا لِي
وَحَلَمْتُ عَنْ جَهْلِ الْجَهْلُولِ تَنَزَّهَا وَالْحِلْمُ يَحْزِنُ أَلْسِنَ الْجُتْهِالِ
وَأَمَدَنِي صَنَعَ الْإِلَهِ بِخَاطِرِ كَالسَّيْفِ مَصْقُولٍ بِغَيْرِ صَقَالِ
أَهْدَى إِلَى الْآفَاقِ كُلِّ بَدِيعَةٍ وَأَفَادَ عَنِي الْمَلِكُ كُلَّ جِوَالِ
وَصَنَعْتُ مِنْ غَرَرِ الْكَلَامِ قَلَالِدًا مَنْظُومَةً بِمَفَاخِرِ وَمَعَالِي
وَنَشَرْتُ فِي الدُّنْيَا مَحَاسِنَ حُجَّةٍ تَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ أَقْصَالِي
وَطَلَعْتُ فِي سَنِّ الصُّبُورِ لِلرُّوزَى بِالْفَضْلِ وَالْحَسَنِ طُلُوعَ حِلَالِ
وقال :

خَلَقْتَ يَدِي لِلْمَكْرَمَاتِ وَمَنْطَقِي لِلْمَعْجَزَاتِ وَمَفْرَقِي لِلشَّجَاعِ

وسموث للعلياء أطلب غايَةً
يشقى بها العادى ومحظى الراجى
وقال :

ولقد بلوث الناس مختبراً
فوجدت سادتهم ذرى الكرم
لو أن روح الجود فى صنم
عكفت عليه بمائز الأسم
وقال :

إلى لاعدى حاسدى كرمأ
منى وأرخمته على كميدة
من شرف الدنيا بمنطقه
ايلاهم حاسده على حسيدة
وقال :

دعنى أذذ بالشر عنى أهله
وإن كان طبعى لايميل إلى الشر
فاللى أرى الشرير تقضى حقوقه
ويهمل حق الماجد الخير الحُر

وعرف بكثرة مدائحه ومراثيه لخلفاء الفاطميين ، والعلويين ، وراسل الشريف المرتضى
وبعث بديوان شعره ورسائله صعبة أحد العراقيين لابتداء رأيه فيه . وكان شيعياً يتعصب
لشيعيته ، وقال فى مخاطبة العباسيين على السنة العلويين :

بنى عمنا والقول شتى فنوته
ولله فيما قد حبانا به الشكر
غصبت ذوى غضب قضياً وبردة
بنا شرفاً قديماً ، وقلم : لنا الفخر
ولحن ورثنا عن أيما مقامه السـ
لذى نصه خير الورى جئنا الطهر
وكان ظلام الظلم قد طال ليله
فلما . أتانا حقنا طلع الفجر
وينطقنا فضل البدار عليكم
ومن طولنا أنا اصطنعنا أباكم
وقد كانت الشورى علينا غضاضة
ولو كنتم فيها استطاركم الكبر

ونطق بشيعيته فقال .:

أنا شيعي لآل المصطفى غير ألى لا أرى سب السلف

وشعره كما ترى فى معظم مذكرناه هنا من طبقة شعر الكتاب الذين عرفوا فى عصر
العباسيين فى القرنين الثالث والرابع ، ومعظمه من الطبقة الوسطى لايرقى الى شعر الفحول ،

ويغلب عليه سهولة اللفظ ، وهو هنا لا يكثر من الصنعة اللفظية ، وبخاصة صنعة البديع ومعانيه حضرية ، لابتداء فيها ، وكذلك لفظه وصوره .

العميدى^(١)

أبو سعد محمد بن أحمد. (توفي سنة ٤٤٣ هـ)

وهو أديب نحوى ، مصنف ، سكن مصر ، زعمل فى ديوان الترتيب فى أخريات عصر الحاكم ثم عزل عنه فى عصر ابنه المظاهر سنة ٤١٣ هـ ، وولى بعده ابن معشر ، ثم تولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران الكاتب سنة ٤٣٢ هـ .

ولا نجد له أخباراً كثيرة رغم ما ذكر له ياقوت من مؤلفات هامة فى الأدب والبلاغة منها :

- ١ - الإبانة عن سرقات المتنبي^(٢) .
- ٢ - تنقيح البلاغة فى عشرة مجلدات .
- ٣ - كتاب الارشاد الى حل المنظوم ، والهداية الى نظم المنثور
- ٤ - وكتاب انتزاعات القرآن .
- ٥ - وكتاب العروض .
- ٦ - وكتاب القوافى .

وأورد له ياقوت بيتين من الشعر على شكل المجانس فى القافية اذ يقول :

إذا مامتاَق صدرى لم أجِدْ لى مَقَرَّ عِبَادَةٍ إِلَّا الْقِرَافَةَ
لئن لم يرحم المولى اجتهدى وقلة ناصرى لم ألق رافة

(١) معجم الأدباء ٢١٢/١٧

(٢) حققه وقدم له وشرحه ابراهيم الدسوقي البساطى ونشر ضمن مجموعة الذخائر (٣١) بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

نموذج من كتابة العميدى من مقدمة كتابه «الإبانة»^(١)

« الحمد لله الذى أجرانا على عادة تفضله ، وهدانا فى جميع أحوالنا الى طرق الخير وسبله وخصنا باحسانه المتقادم ، ورزقنا من العقل ما ميزنا به من البهائم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير بريته ، وعلى الطاهرين من أهل بيته وذريته . إعجاب المرء بنفسه يشرع اليه ألسنة الطاعنين ، وتطاوله على ابناء جنسه يجمع عليه ألسنة الشائنين ، فلا نقيصة عندى أقبح سمة من اغترار الإنسان بجهله ، ولا رذيلة أبلغ وصمة من إنكار فضيلة من يقع الإجماع على فضله ، ولا منقبة أجلب للشرف من الاعتراف بالحق إذا وضحت دلائله ، ومن الانحراف عن الباطل اذا استقبحت مجاهله ، ولادلالة على الحلم أين من التوقف عن الشبهات حتى ينبجلى ظلامها . والتصرف على أحكام النصفة حتى تهديك أعلامها . وما أحسن أثر القاضى إذا عدل فى الحكم وأنصف ، وأقبح ذكره إذا مال عن الحق وجنف . والظلم قبيح ، وهو من الحكم أقبح وأشنع ، وجحود الفضل سخف وهو من الفضلاء أسخف وأفظع .

ومن لم يتميز من العوام بمزية تقلّم وتخصّص سلّى المحسنين بلسان ذم أو تنقص . ومن عديم محاسن التمييز والتحصيل نظر الى المعيزين بعين التقصير والتجهيل .

وأكثر آفات كتاب زماننا وشعرائه أنهم لا يهتدون لتقليل الكلام وتشقيقه ، ويتبعون الهوى فيضلهم عن منهج الحق وفريقه . فإذا سمعوا فصلاً من كتاب أو بيتاً من شعر ، ممن لا يكاد يجيئ فى الأدب قدحاً ، ولا يعرف هجاء ولا مدحاً ، فهو يحكم على قائله بالسبق والتفخيم والإجلال والتعظيم ، وليس يدرى إن سأله : هل مارواه سليم اللفظ أو مختلة ؟ صحيح المعنى أو معتلة ؟ وهل تربيته مستحسن أو مستهجن ، وتقسيمه مطبوع أو مصنوع ونظامه مستعمل أو مسترذل ، وكلامه مستعذب أو مستصعب ؟ . وهل سبقه الى ذلك المعنى أحد قبله ، أو هو مبتدع ، أو أورد نظيره سواء ، أو هو مخترع استبدعوا كلامه ، واتبعوا أحكامه ، واعتمدوا على الاعتقاد دون الانتقاد ، وقبلوه بالتقليد لا بالاختيار ، وقبلوه بالامثال دون الاعتبار والاختبار .

(١) الإبانة عن سرقات المتنبي بتحقيق ابراهيم الدسوقي البساطى وطبع دار المعارف من سلسلة الذخائر

ثم إن بيئت لهم عوار ما رَوَّهَ ورَّله ، وخطأ م حَكَوْهُ وخطَّله التزموا نُصْرَةَ خطيئه واقفين
مواقف الاعتذار ، ومائلين عن طريقة الانتصاف إلى الانتصار . وليست هذه الخصلة من
خصال الأدباء الذين هذبهم الآداب فصاروا قدوةً وأعلاماً ، ودرَّبَتْهُم العلوم ، فأصبحوا بين
الناس قضاةً وحكاماً . إنما يذهب في مدح الكتاب والشعراء مذهب التقليد من يكون في
علومه خفيف البضاعة ، قليل الصناعة ، صفر وطاب الأدب . ضيق مجال الفضل : قصير
باع الفهم ، جديب رباغ العقل . فأما من رزق من المعرفة ما يستطيع أن يُعَيَّرَ به بين غث
الكلام وسمينه ، ويفرق بين سخيفه ومتينه . وأوقى من الفضيل ما يُحسن أن يعدل به في
القضية ، غير عادلٍ عن الإنصاف . وبحكم بالسوية ، غير مائل إلى الإسراف والإجحاف .
فالأولى به ألا ينظر إلى أحد إلا بعين الاستحقاق والاستحباب . ولا يجلُّ أحداً من رُتب
الجلالة إلا بقدر محله من الآداب ، ولا يعظَّم الجاهلية لتقدمهم إذا أخرتهم معايير
أشعارهم ، ولا يستحققر المحدثين لتأخرهم إذا قدَّمتهم محاسن آثارهم ، وي طرح الاحتجاج
بالحال طرْحاً ، ويضرب عن استشعار الباطل صفحاً ، ويجلُّ من يشهد بفضائله شهوذةً
عُلولاً ، ويُنزِّل من كلامه عند التأمل منحولاً ، معلول .

ولقد جرى يوماً حديث المتنبي في بعض مجالس أحد الرؤساء ، فقال أحد جاملي
عرشه : سبحان من ختم بهذا الفاضل الفحول من الشعراء ، وأكرمه ، وجمع له من المحاسن
ما بعثه في كل من تقدمه . ولو أنصف لعلَّق شعره كالسبع المعلقات من الكعبة ، ولقدَّم
على جميع شعراء الجاهلية في الرتبة ، ولكن حرفة الأدب لحقته ، وقلة الانصاف محت اسمه
من جرائد المتقدمين ومحقته ، وإلا فهاتوا لأى شاعر شتم جاهلي أو اسلامي مثل قوله في
صفة الفرس :

رَجُلًا لَهْ فِي الرِّكْضِ رَجُلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ وَفَعَلَهُ مَا تَرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ

أليس هذا أبلغ من قول القائل :

دِيرَ كُحْدَرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ ثَنَائُكَ كَفِيهِ بِخَيْطِ مَوْصُلِ

لقد أبدع المتنبي ما شاء وأغرب ، وأفصح عن الغرض وأعرب . فقلت : للأقشر
ما يقارب هذا المعنى في نعت فرسه ، وهو قوله :

يَجْرِي كَمَا اخْتَارَهُ لِكَاكِهِ بِمَجْمِيعِ مَا أَهْنَاهُ مِنْهُ عَالِمُ

رجلاه رجل واليدان يذ إذا أحضرته والمتن منه سأل

فصاح وقال : يا قوم أهذا شعر إنسان له مسكة من عقل أو بُلغة من فضل ؟ والله إن للمتنبي غلماناً وأتباعاً أجَلُّ من هذا البليد المجتهول — من أى قبيلة هذا العاجز الذى تكلم بمثل هذا الفضول ؟ فقلت : عافاك الله . حديثنا فى الإبداع لا فى الاتباع ، و الآداب ، لا فى الانساب .

ليس يغنى المتنبي جلالة نسبه مع ضعف أدبه ، ولا يضُرُّه خلاف دهره مع اشتهار ذكره ، ولقد تأملتُ أشعاره كلها فوجدتُ الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم المخترعة منسوخة . وإنى لأعجبُ والله من جماعة يُغَلِّون فى ذكر المتنبي وأمره ، ويدعون الإعجاز فى شعره ، ويزعمون أن الأبيات المعروفة هو مبتدعها ومخترعها ، ومحدثها ومضترعها لم يسبقَ إلى معناها شاعرٌ ولم ينطق بأمثالها بادٍ ولا حاضر . وهؤلاء المتعصبون له المفتخرون باللمع التى يزعمون أنه استنبطها وأثارها . والمعتدون بالفقر التى يدعون أنه افتضى أبكارها . والمترنمون بأبياتٍ سائرة يذكرون أنه انفرد بالفاظها ومعانيها ، وأغرب فى أمثلتها ومبانيها . والمتمثلون لها فى نواديبهم ومجالسهم ، والمستعملون لها فى خلواتهم وأغانيهم ، كيف بنفوسهم ، ويستحسنون فى عقولهم أن يشهدوا شهادة قاطعة ، ويتكلموا حكماً جزماً بأنها له غير مأخوذة ولا مسروقة ، وأن طرائقها هو الذى ابتدأ بتوطئتها غير مسلوكة لغيره ولا مطروقة ؟ فليت شعري هل أحاطوا علماً بنصف دواوين الشعراء للجاهلية واخضرمين حتى يطلقوا القول غير محتشمين بأن المتنبي من بين أولئك الشعراء أبدع معاني لم يقطن لها سواه ، ولم يعثر بها أحدٌ غيره ممن يجرى مجراه .

وقد قال المرزبانى فيما حكى عنه أنه صنف كتاباً على حروف المعجم بأسمى الشعراء جمع دواوين قريب من ألف شاعر حتى اختار من عيونها ما أراد ، واختار من متونها ما ارتاد .

وذكر القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني أن السحترى على ما بلغه أحرق خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم فلما تشتت أشعارهم ، ولا تنشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم ، فمن أين هؤلاء المتعصبين لمتنبي أنه سبق جماعتهم فى مصماه ، ولم يقتبس من بعضها محاسن أشعاره ؟

وهل الذين يتدينون بنصرته بصائر بحسن المأخذ ولطف المتناول ، وجودة السرقة ، ووجوه النقل ، واخفاء طرق السلب ، وتغميض مواضع القلب ، وتغيير الصيغة والترتيب ، وإبدال البعيد بالقريب ، وإتعايب الخاطر في التثقيف والتهذيب حتى يدَّعوا علم الغيب في تنزيهه عن السرقات التي لا تخفى صورتها على ناقد ، وتبرئته من المعاييب التي شهد عليه بها ألف شاهد ؟

ولست — يعلمُ الله — أجحد فضل المنتبى وجودة شعره ، وصفاء طبعه ، وحلاوة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، ورشاقة نظمه ، ولا أنكر اهتدائه لاستكمال شروط الأخذ إذا لحظ المعنى البديع لحظاً ، واستيفاءه حدود الخلق إذا سلخ المعنى فكساه من عنده لفظاً . ولا أشك في حسن معرفته بحفظ^(١) التقسيم الذي يعلق بالقلب موقعه ، وإيراد التجنيس الذي يملك النفس مسمعه ، ولحاقه في إحكام الصنعة ببعض من سبقه ، وغوصه ما يستصفى ماءه ، ورونقه ، وسلامة كثير من أشعاره من الخطل والزلل والدَّخْل ، والنظام الفاحش الفاسد والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستشنع ، واللحن الظاهر المستبشع ، وأشهد أنه عن درجة أمثاله غير نازل ولا واقع . وأعرف أنه مليح الشعر غير مدافع . غير أني مع هذه الأوصاف الجميلة لا أبرئه من نهب وسرقة . ولا أرى أن أجعله وأبا تمام الذي كان رب المعاني ، ومسلم بن الوليد وأشباههما في طبقة ، ولا ألحقه في عذوبة الألفاظ وسهولتها . ورشاقة المعرض ، ومجانبة التصنع والتكلف بالبحتری ، ولا أقيسه في امتداد النفس ، وعلم اللغة والاعتدال على ضروب الكلام ، وتصور المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارة ، والآداب الواسعة بابن الرومي ، ولا أتهالك في مدحه تهالك من يتعصب له تقليداً ، ويغلو فلا يجعل بينه وبين هؤلاء الفضلاء أمداً بعيداً . ولا أطعن أيضاً في دينه ونسبه ، ولا أذمه لاعتقاده ومذهبه ، وكيف يسوغ لي أن ثلّبه لالحاده ، أو عيبه لسقوط آبائه وأجداده ، وأنا أتحقق أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجار ، ومنهم اللكنُ والفصحاء ، والهجناء والصرحاء .

والأدب يجعل الوضع في نسبه رفيعاً ، كما أن الجهل يصير الرفيع في منصبه وضيعاً ، والمنتبى كان يفخر بأبيه لا بنسبه ، ويعتد بفضله لا بأهله ، ويتطاول على أهل زمانه بفصاحة لسانه ، وبضربه وطعانه ، لا بتوحيده وإيمانه . ولو أنه كان يجحد فضل من تقدمه

(١) لعله حسن التقسيم .

من الشعراء ، وينكر حتى أسماءهم في محافل الرؤساء ، ويزعم أنه لا يعرف الطائيين ، وهو على ديوانتهما يغير ، ولم يسمع بأبن الرومي وهو من بعض أشعاره نير ، ويسبهم أو نظراءهم إذا قيل في أشعارهم إبداع ، ويعيبهم ففى ما أنشد لهم مصراع ، لكان الناس يُضنون عن معانيه ، ويغفلون على مساويه ومثالبه ، ويعتونه كسائر الشعراء الذين لا ينش عظامهم لإنسان ، ولا يجرى بدمهم وذامهم لسان .

وقد حدثنى من أئق به أنه لما قتل المتنبي فى طريق الأهواز وجد فى خرج كان معه ديوانا الطائيين بخطه ، وعلى حواشى الأوراق علامة على كل بيت أخذ معناه وسلخه . فهل يجمل به أن ينكر أسماء الشعراء وكناهم ويعجد فضل أولاهم وأخراهم .

عَلِيُّ بْنُ خَلْفٍ ، أَبُو سَعْدٍ

من رجال عصر الظاهر والمستنصر في القرن الخامس الهجري ، عراقى النشأة ، ومن رجالات البهيين في بغداد . عرف بين كتاب بهاء الدولة العظام ورجالها المقرين حتى غضب عليه ، لأمر لا تكشفه وثائق التاريخ فارتحل الى مصر ، واستقر به المقام في القاهرة فلقى من خلفائها الفاطميين قبولا حتى عده القلقشندي من كبار رجال دولتهم .

قال الصيرفي في معرض الحديث عن نظم النثر ونثر النظم :^(١)

« ومن أعلى رتب البلاغة نثر المنظوم ، ونظم المنشور ، وقل من يجيد فيهما إلا من أعانته درسته ، وساعده طبعه وفطرته ، وقد كان أبو سعد علي بن خلف صنف لبهاء الدولة ابني نصر بن عضد الدولة كتابا في حل المنظوم ، ولقيه بالمشور البهائي ، واعتمد فيه على الحماسة » للآلف لها ، والآنس بها ، كما فعل أبو علي الفارسي في كتاب الايضاح الذي عمل لأبيه عضد الدولة فناخسرو »

ونقل الصيرفي من كلام ابن خلف في كتابه المذكور فقال :^(٢)

« فمن فصول المنشور البهائي المتقدم ذكره :

ومتى استهضتتا لخطب ، أو استجلتتا في حرب أنجلك منّا رجال بأيديهم آجال ، إذا أبدى البأس ناجذيه طاروا جماعات ووحاداتا إليه ، وإن صرح الشر لهم وهو عريان غداوا اليه عدوة الليث وهو غضبان ، يرون بالقتل حياة ، وفي الشر نجاة ، لا يصلون عن الحرب الزبون فرارا ، ولا يزدادون عليها إلا اصرارا ولا تبلى بسالتهم وإن صلّوا بها أطوارا ، إذا أجليت عليه العلو الباسل اقتسمته الأسنة والسلاسل ، وإن سماهم الجاهل المتطاول . فما العمر منه بياق ولا المدى متطاول . »

قال ابن الصيرفي : وهذا الفصل جل أوائل الحماسة .

(١) الأفضليات ص ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥

ابن أبي الشخباء^(١)

الحسن بن عبد الصمد (ت سنة ٤٨٦ هـ)

أصله من عسقلان . وكان يلقب بالمجيد ذى الفضيلتين . .

جاء الى مصر والتحق بديوان الإنشاء ، وصار من كبار كتابه

ولم يتيسر لنا قدر من أخباره ، مع أن ابن الصيرفى أشاد به ، ونقل عنه فى كتاب
الأفضليات كثيرا من شعره . ويبدو أنه عمل كاتباً لناصر الدولة الحمدانى ثم لبدر الجمالى
وولده الأفضل وذكره العماد الأصبهانى بين شعراء عسقلان وأوجز فى الحديث عنه كعاداته
فى ترجماته فقال : « مجيد كتبتّه ، قادرٌ على ابتداع الكلام ونحتّه له الخطبُ البديعة ، والملح
الصنيفة » .

وأورد له ابن بسام مجموعة من رسائله ، ولكن ترجمته له سقطت من مخطوطة
الأصل .^(٢)

ويقال إن القاضى الفاضل استمد من رسائله .

أورد له ابن بسام قوله من رسالة :

« المودّاتُ إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ،
وأساس وثيق ، لم تُجزعها الشبهة المرمضة ، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة وإن تناقلتها ألسنٌ
مختلفة ، وعلتها برودٌ من اللفظ مفوّقة .

ولما رأيت زيارة مولاى قد صارت مُرقعة ، وجنوب مودته قد عادت مرّوعة ،
وصرتُ أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا من بعد ماعهده :

لَبِى طَلَأَةٌ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ فَكَادَ تَلْقَى النَجْحَ قَبْلَ لِقَائِهِ
وَضِيَاءُ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ امْرُؤٌ صَادَى الْجَوَانِحِ لَا رَسَوَى مِنْ مَائِهِ

(١) راجع فى ترجمته : معجم البلدان لياقوت ١٥٢/٩ وابن خلكان فى الوفیات ٨٩/٢ ، وذكر أنه توفى قتيلا فى حبسه
نحرمة السود سنة ٤٨٢ هـ .

(٢) راجع الذخيرة بتحقيق إحسان عباس ج ٨ ص ٦٢٧ .

لم أُنْجَسَ عَلَى سُؤَالِهِ عَنِ الْعِلَّةِ خَوْفًا أَنْ يَعْيبَ عَلَيَّ الْإِثْيَابَ بِوَدِّهِ ، وَتَطَرَّقَ سُوءُ الظَّنِّ عَلَى عَهْدِهِ ، فَسَأَلْتُ مَنْ يَعْلَمُ دَفَائِنَهُ ، وَيُخْبِرُ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ — وَلَمْ يَسْمَهُ — نَقَلَ إِلَيْهِ عَنِّي ، فَشَنُّ الْغَارَةِ عَلَى وَفَائِهِ . وَزَلْزَلَ أَوَاحِي وَدِهِ وَإِخَائِهِ ، فَقُلْتُ : عَتَبَ وَاللَّهِ وَلَا ذَنْبَ ، وَشُكَايَةً بِالْإِنْكَايَةِ ، وَأَنَا أَحَاكِمُ مُوَلَايَ إِلَى إِنْصَافِهِ لَا إِسْعَافِهِ ، وَعَدْلِهِ لَا فَضْلِهِ ، وَمَا كَانَ أَجْدَرَهُ بِرَفْضِ قَوْلِ الْمَاحِلِ ، وَتَغْلِيْبِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَلَا يَرَى نَفْسَهُ بِصُورَةٍ مِنْ تَسْتَخْفُفِ حَصَاتِهِ الرِّيحِ الْخَافِقَةِ وَتَشَعُّثِ مِنْ مَوَدَّتِهِ الْأَقْوَالِ الْمَادِقَةِ ، وَلَوْ انْتَقَضَتْ عِنْدِي الْمَعَاقِدُ ، وَقَامَتْ عَلَيَّ — وَأَعُوذُ بِاللَّهِ — الشُّوَاهِدُ . لَكَانَ مُوَلَايَ حَرِيًّا أَنْ يَجْرِيَ فِي كَرَمِ اللَّقَاءِ عَلَى الْعَادَةِ ، وَيَتَأَدَّبَ تَدَلُّ أُنَى عِبَادَةِ :

أَيْنْتُ عَلَى الْخِلَافِ إِلَّا نَشِيًّا يَلِينُ لِيهِمْ قَلْبِي وَيَصْفُو لَهُمْ شِرِّي
وَأَنَا لِأَسْتَبْقَى الصَّدِيقَ إِذَا نَبَا عَلَيَّ وَأَهْنَا مِنْ خِلَافِهِ الْجَرْبِ
وَالْآنَ فَقَدْ أَوْضَعْتُ وَأَوْجَعْتُ ، وَتَأَلَّفْتُ مُوَلَايَ وَاسْتَعَطَفْتُ ، فَإِنْ عَادَتْ ظِلَالُ وَدِّهِ
مَدِيدَةٍ ، وَحِبَالُ كَرَمِهِ مَحْصُوفَةٌ^(١) جَدِيدَةٍ . فَحَسَنَ بِتِلْكَ الشَّمَائِلِ أَنْ تَجْمَعَ شَمْلَ
الْفَضَائِلِ ، وَإِنْ تَمَادَى عَلَى هَذِهِ الْمَهْجَةِ ، وَلَمْ يَسْحُ مِنْ نَشَوَاتِ تِلْكَ السَّكْرَةِ .

فَمَا زَالَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَيَّ اجْتَرَمْتُهُ إِلَيْهِ فَيَجْزِيَنِي بِهِ حَيْثُ أَهْلُمُ
وَلَكِنْ إِنْسَانًا إِذَا مَلَّ صَاحِبًا وَحَاوَلَ صَرْمًا لَمْ يَزَلْ يَتَجَرَّمُ
وَاللَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَجْعَلُ حِفْظَ الْمَوَدَّةِ عِنْدَهُ أَوْجِبَ الْحَقِيقِ ، وَأَنْفَعُ الْعِلَاقِينِ وَيَرْفَعُهُ عَنِ
السَّيِّئَةِ بِنَقْضِ الْمَرَاتِرِ ، وَحَلِيَةِ الْجَائِرِ الْغَائِرِ .

★ ★ ★ ★

وَسَافِرُ بَعْضِ إِخْوَانِهِ فَشُقِيلَ عَنْ وَدَاعِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

« مَا أَخْرَنِي عَنْ خِدْمَةِ مُوَلَايَ بِالْوَدَاعِ أَنْيَ مُتَأَخَّرٌ فِي حَلْبَةِ وِلَائِهِ ، وَلَا عَادٍ مِنْ مَلَاسِي
إِخَائِهِ وَآلَائِهِ ، وَلَوْ دِدْتُ لَوَصَّيْتُ رُكَابَهُ السَّعِيدِ إِلَى الصَّعِيدِ ، وَقَطَعْتُ مَعَهُ عُرْضَ الْمَهْمِ
الْبَعِيدِ ، وَزُوِّدْتُ مِنْ مُجَاوِرَتِهِ قَلْبًا مَغْمُورًا بِوَدِّهِ ، وَمِنْ مَشَاهِدَتِهِ طَرَفًا لَا صَبْرَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ،

(١) الْحَبْلُ الْمَحْصُوفُ الْمَكْمُومُ الْفَتْلُ

ولما حجزنى أمران ، كلُّ منهما يمهّد العُدْرَ ويُسْطِطُه ، ويمحو الذنْبَ ويحْبِطُه . وهو شُغْلِي
 فى إنشاءِ التقليدِ العلّى وتحريره ، وفعلُ ما أمرت به الحضرةُ الساميةُ وتقريره ، ثم خوفي أن أرى
 مولائى وقد حلَّ انطلاقه ، وأسمعُ أن قد حان فراقه ، ونعقُ غرابٍ بينه ، فقضُ أضلَعاً ،
 وأفاضُ نفوساً وأدْمَعاً ، فضعفتُ عن مشاهدةِ ذلك المقامِ وقصرتُ من تحمُّلِ ذلك الداءِ
 العَمامِ . وظللتُ أنشدُ ، والدموعُ همُّعُ ، والفؤادُ مصدُّعُ :

وأخبرنى يوم انطلاقك أن أرى على جبراتِ البينِ قلبى يُلدِّعُ
 فؤادُ إذا قيلَ الفراقُ تساقطُ خفوقاً أواخى صبره تتقطعُ
 وإلى صليبِ العودِ فى كلِّ حادثٍ ولكنْ أعوادى نأيك خروجُ [خُتْعُ]

وإذا استنقذُ البينُ هذه النوبةَ . وخففتُ بمشيئةِ الله رياحُ الأوبةِ ، وهبت وجهى
 للشحوبِ ، وجسِى للنعْصِ واللُّغوبِ ، وهتمتُ ثنايا الأرضِ إيضاعاً وإرقالاً ، وجعلتُ
 مافةَ اللقاءِ لمسافةِ الوداعِ أميالاً ، وأطلتُ شكرَ الزمانِ على ما يجتدُّه لى من مسره قد خلعتُ
 بُردَها ، واستطلتُ عهدَها ، وأنشدتُ :

طربتُ وقد جاءَ البشيرُ بقربكم وذو الشوقِ عند اسمِ الحبيبِ طرُوبُ
 وقمتُ إليه راشقاً من ثرابه نرى لك يحلو رشقهُ ، ويطيبُ

وما يبعُدُ ذلك فى قُدرةِ الله الذى يخرج من الشجرِ الأخضرِ جذوةَ نار ، ويبهُبُ القمرَ كالأُ
 بعد نقصِ وسرار . »

★ ★ ★ ★

وله من أخرى يعاتبُ بعضُ القواد :

« رأيتُ فلاناً عند نظرتِهِ لى بالأمس قد قطَّبَ حاجبه ، وزعزعَ مناكبِهِ ... فقلتُ :
 ماله ؟ . أأنزلَ إليه وحى ، أم عُصِبَ به أمرٌ ونهى ، أم حصُلَ من الخلافةِ على وغد ، أم
 أُلْسِيءَ له الأجلُ مدَّةَ العهدِ . أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمَها ، وجهلَ مقاديرَ الأشياءِ
 وقيمَها ، واعتقدَ أنَّ الدنيا طوعُ حُكمِهِ ، والقطرُ صائبُ فهمِهِ . أم رأى الملائكةَ المقرَّبينَ
 تتشَفَّعُ به ، والحوَرِ العيزَ تشكو لاعج حُبِّهِ . وثمارَ الجنةِ تدلَّتْ إلى يده . ونارَ جهنَّمِ
 تقتبسُ من زُنْدِهِ ، والكواثرُ يمدُّ من معينِهِ ، والسمَواتِ مطوياتٌ يمينِهِ ، والبراقُ قد امتطى

لخضرته ... فأجبت بأن شيطان ظننى مارداً ، وتصورى فيه — أعزّه الله — فأسد . ولا حقيقة لشيء مما توهمته ، وسدّدته من الأمر وأقمته ، فقلتُ إذا لم يكن ذاك فما ذلك ؟ . قيل : سفة في الرأي وأفن ، وتغيّر في الطينة وعفن . ظنُّ أن الأحرار ملكٌ عهدته والعالم مجموعٌ في بُردته ، فحين سمعتُ ذلك أخذتني لمولاي الحمية ، وهزّت رأسي الأوجحة ، وقلتُ : معاذ الله . إن دونه في الحصاة والكيس بطليموس ، وفي الحكمة أرسططاليس . وإن الحكمة تستنجح من ظنه ، والغيث يرشح من شنه . (من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه) . وإنه بحمد الله كما قيل :

خرق إذا أفضى السّماط به كثر العثار وطبق الزّل
وإذا السّريّر سماً بقعدته غرث بظاهر كفه القبل

فهنالك سكنت الألسن الهادئة ، ووقفت المرادة^(١) الغادرة ، وعاد من حضر يُثني على مولاي ويقرّظه ، ويحمل من شكره ما يؤوده ويُبْهْطُه . فإن كانت هذه الوكالة واقعةً منه بالوفاق ، فيجعل ثوابي عليها انحلال العقدة من جبينه ، وزوال التمارض من جفونه وخفض الإصبع من سلامه ، وترك الثروة على غلامه .

وقال في العتاب كذلك :

« أرى روض سیدی قد تقاصر طویلہ ، وروض جوه قد زاد ذبولہ ، وماء بشو قد غاضت بحوره ، ونشاط لقائه قد استمر فتوره . وما عهده أعزّه الله تزدهيه الشبهة وتستخفه ، وتصده عن كرم العهد وتلقه ، وينزل المين من سمعه بالمكان المهيب ، ومن قلبه بالقابل المستجيب ، بل هو يرحب إذا حرج المضيق ، ويرطب وقد عصب الریق وتمرّ به المحفظات وهو راض ، وتوقظه المغايظ وهو متغاضي

إذا أمرته مرة من جفاظه بسوء نهاء خلّقه البارء العذب

فما الذي أعاد فلقه غاسيقا ، وصرخه ماذيقا ، فإن يك عن ملل فؤاده وتشعب وداده :

فكم أخ غيره يومى المق بل عن أمسى الذاهب
مل فلم يعطف لب الصبا ال خاني ، ولا حقّ العلاء الواجب

(١) المرادة : من مرّد عنا وعبر

واستقرت الوزارة لبعض أصحابه ثم توقف الأمر بعد فيها ، فكتب إليه :

« الخيرة — أطال الله بقاء سيدنا — تحيىء من غير الأمر المختار ، وهى مخبوءة تحت أستار الأقدار ، فكم سبب اجتمعت فيه شوارذ الامال ، ولبس ظاهرة مسحة من الجمال ، كان المكروه منظوماً فى تاجه ، منظوياً فى أثناؤه وأدراجيه . وآخر ظهر للناس بلونٍ شاحب ، ووجه قاطب ، كان ضامناً لايتسام الزمن ، وكافلاً بالأجل الأحسن . وبهذا أدب تعالى عباده ، وقال فى الكتاب المكنون : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . فلمح أبو عبادة هذا الأسلوب فقال فى معناه :

والشيء ثمثفه يكون بفؤته أحظى من الشيء الذى ثعطاه

وإذا تصفحت الأمور بعين البصيرة ، وتظنرت بالخواطر المستتيرة ، وثقثت بالألباب الصيرفية^(١) لا الزائفة . علم أن هذه الرتبة زليقة الصراط ، سريعة الانحطاط . يعلو الإنسان صهوتها ، ثم هو بعد راجل ، ويتحلى بها وقتاً ثم هو مسلوب عاطل . ومالم يوسم بها فالخطط تعتقه ، والمنازل ترتقه : أجل ، وهذه الدرجة كلما خبرت الأقوام ، وتمادت الأيام غاض معينها ، وزاد حنينها ، فمنها الكمد ، ومن سيدنا الصيّد ، ومنها الكلف ومنه التيه والصلف ، حتى إذا تعل الأديم ، ورعى الهشيم ، وتشاقت الخطط ، وجار الحكم وقسط رعى سيدنا ليشعب المتصدع ، ووصل المنقطع ، وإيجاد الممتنع ، فهناك يقوم بالأمر ، ويسهل الحزن والوعر :

مبارك تطرد الأواء رؤيته	طرد الظلام ليرلد البلجة الواري
وزهر ملك خلث فى عدل سيرته	صحيفة الملك من إسم وأوزار
يدب عنه وقد ريعت جوابه	برأيه المكتسى أو سيفه العارى ^(١)

وكتب الى صديق له :

لما هجر مولاى مجالسنا فى الجامع وأوحشها ، وأطال إليه طمأ النفوس وعطشها ، وأخلّى مكانه من طلعت التى تطلع علينا من السرور ما عزب ، وتؤنسنا بغرائب الأنس

(١) اشارته هذه قد ترحى بأن صاحبه هذا قد يكون على من سحب الصبر ، ومعلوم أنه كان من رجال الأفضل المقربين ، وأنه ربما وعده بأن يخله منه محل ابن أبى أسامة صاحب ديوان الاشياء ، والذى كان بمثابة الوزير للملك الأفضل .

الطرب ، وتصرف فكرى فى ما اقتضى ذلك ، فتم أعر على أمر عادر ، ولا ظفرت بسبب صر . ذهب وهى الى أنه استحدث ودودا ، واستطرف خلاّ جديدا ، فترك هذا الأنام حتى ينقع أوامه ، ويبرّد عرامه ، وحين ثوث هذه الظنة فى نفسى أنفذت فلاناً لاستيضاح الخبر ، فحكى أنه ألقى مولائى فى الطبقة الدهيشية ، فدهش لما رآه فى مجلسي حسن ، مقام صبوة وفتن ، وأمور بديعة ، وأهوال وسيعة ، وفاكهة لامقطوعة ولا ممنوعة ، وظبي قد كحل بالسحر لحاظه ، وأطلق العقارب على وجناته ، ونظم الدرر فى ثغره ، وأنبث ثمر الصبا فى صدره . يدير على مولائى كأساً :

إذا أخذت أطرافه من بحورها رأيت اللجين بالمدام يذهب
كأن مجديه الذى جاء حاملاً بكفيه من ناجودها بات يقطب

فطفقت متعجباً لما وصفه المخبر ، وحمدت الله على صدق الحس والتقدير ، وعذرت مولائى فى التخلف عن الجامع ، واستيفاء النهاية من هذه المشارع ، وأوسعته ملاماً على لتفرد بهذه الحسنة والفاحشة المبيّنة دون الشيخ أبى الحسن الذى ينحاز فى فعله الحسن ، ويضل فى ذلك السنن . اللهم الا أن يكون خاف أن يجرى هذا الصديق على طاعة شيطانه ، والبذاء على إخوانه ، والتدحرج عن موضعه ومكانه ، ليتأبط فى الليل شراً ، ويسير الى حيث تسكن الغزلان سرّاً ، وقد قرت أعضاؤهم نوماً وسكراً ، ومع هذا فأؤثر من مولائى أن يقبل على شأنه ويخفض قليلاً من عنانه ، فإن الجاه صدعه لايجبر ، والملقى بيده الى التهلكة لايعذر . وقد شبننا عن هذه الحال ، فيحسن المتأب ، ويسمح برّد الجواب . » .

وكتب عن الوزير الناصرى — ولعله ناصر الدولة بن حمدان الذى كانت له مكانة فى دولة الخليفة المستنصر ، وحدثت بسببه أحداث شارك فيها حتى قتل وبعده جاء بدر الجمالى باستدعاء من القصر فأقر النظام بعد الفوضى بين جند الخلافة والاعراب .

كتب ابن أبى الشخباء عنه الى بعض القبائل :

« معلوم أن الله تعالى قد يأذن للنعم إذا خُصّص بالشكر أن تستدنى البعيد القصي ،

وتستأنسَ النافرَ الوحشِيَّ ، وإذا قرنت بالكفران يرحلُ منها القاطنُ ، وتستوحشُ المعاصِرُ
ووصلَ إلى ما كان منكم من الانحراف عن الحضرة السامية ، والتظاهر بالخلاف عليها ،
فتحققَ أن الشيطان قد أعمل فيكم كيدَهُ ، واستنفد في إخلالكم قُوَّتَهُ وأَيْدَهُ ، وأُوصعَ
بكم في مراعى وبَيْهٍ ، ودبَّ اليكم من طريق خفية ، فزَيَّرَ لكم غيرَ الحسَن ، وأوطأكم اجانبَ
الأخشن . ووممكم من أحياء العرب بإخفار الذم ، وكفران النعم . وأقوَر مايجب أن
يُفهم : ألم تضلوا إلى هذه البلاد فتعرفوا بها العيش الوحشِيَّ ، وتعلَّوا فيها محلَّ الغريب
الأجنبيَّ ، وتعيشوا عيش الغرثانِ الخميصر ، وتخطفكم العربُ تخطفَ الأجلد للقليص ،
فجمعتُ الحضرة شتيتكم ووصلت مبتوتكم ، فليت شعري ماالذى سولته لكم أوهامكم ،
وحدثكم به أحلامكم . وأيم الله لئن انقلبتُم على الجنبِ الناصري ، وانخرقتُم عن اللوائِ
الحمداني لتصبحنَّ أَكَلَةَ العرب ، يخطون أعلامكم ، ويزلزلون أقدامكم ، ويحمونكم ورود
الماءِ المباح ، ويمنعونكم حلاوةِ النعم المراح . فراجعوا حلومكم العازية ، وتجاؤا عن ذنوبكم
اللازية . وارجعوا إلى من امتد عليكم ظلُّه والزمن هجير . وَصَفَا لَكُمْ ورْدُهُ والعيشُ كدير ،
فلو فارقتُم جنباه الفسيح لتفرقتُم في الأرض شيعا ، ونبت بكم مقرا ومضجعا ، وعثرتم عثرةً
لايقال لها لعا . وقد قلتُ ونصحت ، ونبئتُ وأوضحت . وسلكت سلكَ الحديب الشفيق
وبقي أن يمنحَ الله حسنَ التوفيق .

وقال في الأفضل بن أمير الجيوش^(١) [يهنيه بالإبلالة من مرضه]

« .. خلَّد الله أيام الحضرة الأفضلية ، مافضلت الأسماء حروفا ، وتقدمت واو العطف
معطوفا ، ولزمت الأفعال اشتقاقاً وتصريفا :

يُلْقَى عليها الحمدُ موقوفاً وفي عرصاتها شَمُ الملوك وقوقسا
وتعيد سطوتها سماءَ عِداتها كِسْفاً ، وبدر سعودهم مكسوفاً

ولج سمع العبد في هذه الساعة نبأ جمع في أقماعه ، وتصام عن استماعه ، تعاشياً عن
صبحه النبيل ، وتغليبا للشك على اليقين ، وخوفاً على العز الشامخ أن يصحب شُموسه ،
واخجداً للذخ أن تكوِّر شُموسه ، واخغامداً أن تنثر كواكبها ، والمناقب أن تنزلزل مناكبها ، ولما

(١) وهذا يعني أنه حتى زمانه وقد بنى ميخايل ابنه سنة ٤٨٧ وقل ٥١٥ هـ وقد ذكر أن من إلى اسحقاء ، إلى سنة ٤٨٦ هـ
هو في زمان بدر خمس أيام الأفضل

تلاهُ الخير بما أصمت ناعقه ، وكذَّب بآرقه ، ونطق بأن الجسم الشريف قد النقع شملة
الإبلال ، وعاد مزاجه الى الاعتدال أطال العبدُ في الترب تعفير خدّه . وبالغ في شكر الله
وحمده ، فيالها نعمةً عدلت بها أحكام الزمانِ الجائرة ، واهتدت ركاب الآمال الحائرة ،
وأصبح المُلْك المستنصرُ سائلُ العُرّة ، ضاحك الأسرة ، والحضرة قد تمكنت في
خطابها ، وما تزعّت بُردَ شبابها ، وامتدت بعد القلوص أفيائها وأضاءت في ظلمات
الخطوب آناؤها .

والله أكرم أن يعذب مهجة	غُذيت بأخلاق العُلا أعضاؤها
فإذا طمئت خشم الخطوب عرامة	أرفى على فيض الحياء حياؤها
لو كان ينكر ملكها رتب العُلا	أحد لكان شهودها أعداؤها
ثابت بك الأيام عن جهالاتها	وتوَلَّرت من أهلها سفهاؤها
وبعدل حكمك زال عنا ظلمها	وينور منجيدك أشرق ظلماتها
نار اعتزامك ما يُسوخ ذكاؤها	وسماء عزك ماتميب ذكاؤها
وعراض فضلك لم تضيق أرجاؤها	وعفاة جودك ما يخيب رجاءها

فالحمد لله الذي منح الأمة من نعمة أصبحت النوائب بها قد درجت أيامها ، وهَوَتْ من
الخاوف أعلامها ، والبخل قد هدم بنيانه المرصوص ، والكبرُ قد ريش جناحه
المقصوص ، ولم يبق سحاب إلا وهو يغدق ويهمع ، ولا منادى إلا وهو يلبى ويسمع :

يا ماجداً نصر الشريعة حيث لا	يضر تشام ولا ذوابل تُشرع
والنصب منصوب اللواء وشائع	في أهله بغض الذي يتشجع
عمت عوارفه فما من موضع	إلا ونائله إليه موضح
سائل به ودم الفوارس سائل	يسقاء ظمآن التراب لينقع
واليوم قد كتبت سنابل خيله	نقعا جين الألق منه مقتنع
فهناك تلقى العنذر لا متطابق	والزوع لا تحب الضلوع مروغ
والشمس تهوى أن تقبل كفه	فماذا بالسُمر اللدان وتمنع
فاقنع بما ملكك يبداك من العُلا	إن كنت بالشهب النواقيب تقنع

فأما حال العبد فعلى الحالة التي يؤمل من الحضرة العلية كشف ضبابها ، وانتكات

أسبابها ، وكأنه من العبودية يقتضى ألا يُغَبَّه حزنُ مكارمها ، ولا تتجاوزُ عنه جفونُ
مراحمها ، فيصيحُ وقد حفت به الشدائد وضائق عنه المصادر والموارد .

أتركني يادهرُ في البؤس مفرداً	ومالك رقى مفردٌ فيك واجدٌ
إذا هممُ الأقوامِ شابت وأظلمت	فهَمَّاته ييضُ الوجوه خرائدُ
فياقاضي الدين الذي قام حافظاً	جماه ، وكلُّ واهن العزم قاعدُ
ومن سادَ أهل العصر طراً وألقيث	له في عراض الفرقدين وسائدُ
أناديك في نادٍ يحفُّ بى الرذى	وتنزلُ فيه النازلات الشدائدُ
تخاطبني فيه الخطوبُ فصيحةً	ويُسهرُ عيني ضيقُ العين باردُ
يطارحنى صوتاً ، سرورى ناقصٌ	إذا هو غنائى وهمنى زائدُ

وللحضرة العلية الأفضلية الرأى العالى في انتياش العبد عن هذه العَمَاء ، وكأنَّ ما تهبُّ
له من العناية زكاةً عمّا ملأها الله من رزق الزمان ، ومكنه لها من قواعد العزّ والسلطان ،
وتقرباً إليه جلَّ اسمه إذا انشقت السماء فكانت وردةً كالدهان .

وهذه الرسالة التى وجهها الى الأفضل غريبة في أسلوبها ، فالضراعة فيها واضحة المعالم
والرجل فيها متبالك ، متعلق بمراحم الأفضل ليشكو إليه محنةً ، لا تبدو من كلماته ، ولا
يكشف عنها ضراحةً ، ولكننا نستشعر من قوله في هذه الرسالة أنها ربما كانت رسالة بعث
إليها في محنة حبسه في آخر حياته والذي لاندري ماجرمه فيه . ويبدو كذلك أن هذه
الضراعة لم تثمر ، فالأخبار تقول إنه قتل في السجن .

وكتب من رسالة في شهر رمضان^(١)

« .. شهرُ الصيام ذو فضل مشهور ، ورُبِّيَّةٌ علَّتْ جميع الأيام والشهور ، فما تنتهكُ
للشرع فيه حُرُمات ، ولا تسمَعُ للأوتارِ نغمات ، ولا تنطقُ باللغو أفواه ، ولا ترشِفُ
رُضَابَ الكؤوس شفاه . وإذا اعتبرت أوقات الحضرة المنصورة ، وجَدَ أكثرها على هذه
الصفة المذكورة ، الا أن الشهر اختصه الله بشرف القضية ، وفرض صيامه على جميع
البرية ، فلا زال على الحضرة العالية عائداً ، ولها للأعمال الصالحة شاهداً ، تطلع في لياليه
الحسنات شمساً ، وتجمع بين الشفيع والقلبي تسيحاً وتقديساً ، خاطرة في جلايب عزِّ

(١) الدخيرة لابن بسام ٨ ص ٦٤٦ .

يعتلق الدهرُ بأسبابه ، وكرم يفرق البحرُ في عبابه ، ومجدٍ تعشو النيراثُ إلى أنواره .
وتعتصم الملوك الخائفة بنجواره ، وتترب بمكارمها الأيدي التربة ، وتثبت بسعدها بروجهم
المنقلبة ، ويجدون ثرابها في أفواههم عسلاً ، وفي أجفانهم كحللاً ، ويسرون وظائف الثوب
عنهم ترفع ، وأنف الحوادث تُجذع :

قد ودَّ هذا الشهرُ أن هلاله أضحى على غرر الشهور يُرفعُ

وقال في ولجة دُعى إليها :

« ... فرجلتُ منزلاً قد استعاد من قلب العاشق حرّاً ورهباً ، ومن أخلاق مالكة
ضيقاً وحرّاً ، كأنما زفرت فيه النارُ ، ونقطَ على جدرانها الفاء . فجلستُ طويلاً إلى أن
حضر الإخوان ، وقُدِّم الخِوانُ ، فرأيتُ أرغفةً قد أحكمت في الصغرِ والإطاف ، ولم تتعوذْ
قط من الأضياف . فقد مرَّت عليها أيام ، وعنيت بقول ابن بسّام :

أنا بخبز له يابس كمثل الدراهم في خلقته
إذا ثلّست عند الخوان تطاير في البيت من خفته

وثلاثة صحاف ، واسعة الأكناف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جعل في قرارة
كل منها مالا يدفع السَّغب ، ولا تجده اليد إلا بالتَّعب ، فجلنا جولةً وعينه تطرف علينا
شمالاً ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكوناً . وقمناً ولم نقارب الكفاف ، وقد ظنَّ بنا الإسراف .
فحضرنا مجلس المعاقرة ، فأديرت علينا قهوةً قد خصت باللون الكبر ، وكثرت بالماء
الحضير .

كالنهمل تغلي في البطون لوائها يوماً تُعدُّ لكافر لم تُحرم

فحسوتُ أولاً وآخرأ ، وكرعنا منها حميماً آنيا ، وقلنا لعل ما يحضر عن الملهيات يُصلح
فاسدها وينفق كاسيدها ، ولم يكن بأسرع من أن افتتحت قينة يحرم لها السماع ، وتستلذ
الصَّمَمُ الأسماع :

تكدر صفو الراح في شدوها وتنفر الأنفاز من ضربها
لم تكن العليجة مطبوعة بل كان مطبوعاً على قلبها

فسمعنا ولأمر الله سأمنا ، فحين جرَّ الظلام علينا الذيل ، وعشى النهار الليل ، زفت

إلينا خريدةً رأسُها مقطوع ، ووسطها مشعوبٌ مرقوع ، قد حفظت من عادٍ عهده ،
واستعارت من يأجوج قَده ، تبصُّ كعيون الجنادب ، وتضيء في الظلماء كنارِ الحبايب ،
فقوَّضنا خيامًا ، وسكرنا همًّا لأمدأماً ، فالحمد لله الذي صدَّ مولاي عن هذا المقام
ومنعهُ ، وحمى عمَّا حضرناه مستمعهُ . « (١)

(١) الذخيرة ٦٥٤/٨ .

ومن شعر ابن أبي الشخباء^(١)

لا زلت مخفوض العدا ما عشت مرفوع البنا
تفدى بنا إذا كان يُزضى الجدة أن تفدى بنا

قال ابن الصيرفي : ومن أجود ما في هذه القصيدة :

ما أحسن المال إذا صاحب ذكراً حسناً
ومنها :

لنا الشاء خالصاً منه وما يحوى لنا
شاء الذى بنى له أباًؤه ومكناً
عممت بالإحسان منى كك مضراً واليماً
يتقأد. صعب اللفظ لى سهل القياد مُدعنا
كأن فى خراطىرى لكل معنى رسنا

ومنه قوله .^(٢)

تمر سفهات الرياح بأرضه
وتشاق عيناه الكرى وتخالفه
فترمن إجلالاً له وتوقر
فيأتى إلى الأجنان وهو مُفرز

ومنه قوله :

عُفرت فى سهل التراب حدودهم
وتركت فى صحر التراب رءوسهم
حتى ظننا أنها تشيخ
فى الأرض تسجد عن سيوف تركع

وقوله أيضاً :

جعلت رءوس القوم غرساً سيوفنا
إذا وعدتها البيض عساق وعدها
نعضف من أوداجهم وتطيّب
بعث لها البيض الرقاق تكذب

(١) راجع معجم الأدباء. ١٥٢٩ - ١٨٤ و الأعلام ٢١٠/٢

(٢) الأفضليات ٦٣

ومن قوله :

إذا سلبته عزمة منك غمده كسسته نجيعاً ، فهو يكسى ويُسلب

وقال :^(١)

فلم أر ماء قبله مخرقاً يخالطه ذاك اللظى الملهب
وعلق عليه ابن الصيرفي بقوله : إنه حسناً استعمله في الغزل (أى المعنى) وهو يصلح
صفةً للسيف .

وقال :^(٢)

يجود بالماء غيث الأفق منقطعاً وغيث كفك بالأموال متصل
جأزى نذاك فلم يظفر ببغيته فذلك البرق في حافية تحجل
ثم أتى بزيادة على ذلك ، فقال من أخرى :

منعت مكارمه رويته فداه طول الدهر مرجل
جارت نداءه السحب الرجعت عنه ووابل وذيقها وشل
فالرعد في أنثائها ضجر والبرق في أرجائها تحجل

وقال :

قد قلت إن قالوا : يداه سحابة قد قلبت ذيل مجلجل هطال
لا تضرروا مثلاً له في جوده فحقيقة الأمثال للأمثال

وقال :

إذا هو ذاذ الظلم عنا بعدله غدا ماله في كفه متظلم
يرى الذنب أن تسطو يداه بمذنب ويعتد جبرماً أن يعاقب مجرم
وقوله أيضاً :

تظلم ما تحويه فيك فلم يغث وقد جعلت في راحتك المظالم

(١) الأنصيات ٦٦

(٢) الأنصيات ٦٧

ومن عجب أن تظلم المال وحده ولم يبق في أيامك الغر ظالم
وقوله أيضا :

يا عادلاً في كل ما هو فاعل ما بال كفاك في اللهى لا تعبد
تبقى أحاديث القتل بسيفه فكأنما يحيى به من يقتل
وقال :

كأن النور نافست فيهم الثرى فقد حصت أجسامهم في الحواصيل
وقال :

وتطيرت في الجو زرق أجاديل طلبت مطاعمها وزرق نصال
وقال :

عنادهم خطية قد تكلفت برزق نور حرم وخواص
وقال أيضا :

فإن تك أسرى عفت اليضر عنهم فمن بعد أن عافت ضباغ والسر
وقال ابن الصيرفي^(١) : « ومن المدح الذى قلت أمثاله ، وعزت أشباهه ، وعُدت له
النظائر ، وعقيمت عنه الخواطر قول حسن بن عبد الصمد :

سبقت مكارمه مواعده فلم يوسم بالبحار ولا بمطال
وقوله :

ضئت أكفهم غلاً وسخت مالا ، فما كرموا ولا بخلوا
وقال ابن أبى الشخباء :

يفرق الأمر في الآفاق خاتمه ويصبح الدهر طوعاً وهو خادمه
قال ابن الصيرفي^(٢) : فقله صوعاً مما تطوع به فأغرب ، وأق منه بما أعجب به وأطرب .

(١) الأنضليات ١٦٧

(٢) الأنضليات ٢١٦

وله :

تُعْطَى وَسَمْعُكَ بِالْمَلَامِ مَشْفُوعٌ فَكَأَنَّ رَاحَتَكَ الْكَرِيمَةَ تَسْمَعُ

ابن الصَّيرفي^(١)

أبو القاسم علي بن سليمان بن مُنْجَب

(ولد بمصر سنة ٤٦٣ هـ — وتوفي سنة ٥٤٢ هـ)

علم الرؤساء — كاتب إمامهم الأمر وغيره من خلفاء المصريين .

قال ابن سعيد : وقعت على ترسله في مجلدات عدة ، فوجدتُ الفاضل اليسانى ينسج على منواله وينزع منزعه ، ولكنه زاد رشاقة ولطافة وغوصاً ، وإن في الخمر معنى ليس في العنب .

وقد تقدم من مختار ترسله في صدر كتاب المغرب ما يدل على علو طبقة . وله تصانيف مشهورة صغار ظراف منها :

١ - منائح القرائح صنفه للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش وأورد في هذا الكتاب أمداحاً في خلفائهم .

٢ - وله كتاب الاشارة الى من نال الوزارة ، ذكر منها وزراء مصر الى عصره .

٣ - ومنها كتاب « ملح الملح » أورد فيه من نثره قوله : جرت العادة في الغطاس بإعمال الكاس والطاس . وهذه الآلة اذا فقدت الراح بمنزلة أجسام عدمت الأرواح فداو باحيائها قلباً لي قرينها ، وإذا كانت عازر فكُن لها مسيحا »

وذكر السيوطي أن ابن الصيرفي — وكان يعمل في خدمة الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش والوزير الخطير للخليفة المستعلي — هو الذي كتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الأمر وقرىء على رءوس كافة الأجناد .

وبدأ علي بن منجب يعرف في أوساط كتاب الدولة منذ سنة ٤٧٨ هـ ، وقد تولى ديوان الانشاء على عهد الأمر باحكام الله سنة ٤٩٥ هـ وكتب أول سجل بتوليته واشتهر على عمله به حتى سنة ٥٣٦ هـ ، وكان أول سجل كتبه سنة ٤٩٧ هـ بسبب تحويل السنة

(١) ترجمته في ابن ميسر ٨٧ — معجم الأدباء ٧٩/١٥

ومقدمة كتاب الإشارة — ص ٩١/١ الأعتى

ومقدمة قانون دواك الرسائل لصيرفي التي كتبها على بك هجت الأثرى ونشر ١٩٠٥ م

الخراجية القبطية الى السنة الهلالية العربية^(١)

وقد عاش تسعين عاماً أو مايناهزها .

وجاء في ترجمة ياقوت له : « على بن منجب بن سليمان الصيرفي أبو القاسم ، أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم له ذلك غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا ، واشتهر هو بالكتابة فمهر فيها . مات في أيام الصالح بن رزيك بعد سنة ٥٥٠ هـ ، وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه في البلاغة والشعر والخط ، فإنه كتب خطاً مليحاً ، وسلك فيه طريقة غريبة . واشتغل بكتابة الجيش والخراج مدة ، ثم استخدمه الأفضل ابن امير الجيوش وزير المصريين في ديوان المكاتبات ورفع من قدره ، وشهره . ثم اراد أن يعزل الشيخ ابن أسامة عن ديوان الإنشاء ويفرد ابن الصيرفي به ، واستشار في ذلك بعض خواصه ، ومن يأنس به فقال له : ان قدرت أن تفدى ابن أوى أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ، ولا تخل الدولة منه ، فإنه جماها فاضرب عن ابن الصيرفي .

ومات الأفضل ، وخدم ابن الصيرفي المحافظ المسمى بالخلافة بمصر .

ولابن الصيرفي من التصانيف : كتاب الاشارة فيمن نال الوزارة ، وكتاب عمدة المحادثة ، وكتاب عقال الفضائل ، وكتاب استنزال الرحمة ، وكتاب منائح القرائح ، وكتاب رد المظالم ، وكتاب لمح الملح ، وكتاب في السكر .

وله غير ذلك من التصانيف .

وله اختيارات كثيرة من دواوين الشعراء كديوان ابن السراج ، وأبى العلاء المعري وغيرهما .

ومن شعره قوله :

لما غدوت ملك الأرض أفضل من	جلت مفاخره عن كل إطرء
تفايرت أدوات النطق ليسك على	ما يصنع الناس من نظم والنشاء

وله :

لا يبلغ الغاية القصوى بهمة	إلا نحو الحرب والجرد السلاهيْبُ
----------------------------	---------------------------------

(١) روى عبد مخلص ناشر الإشارة خلاف ذلك ص ١٠٧

يطوى حشاه إذا ما الليل عافقه على وشيخ من الخطى مخضوب
وله :

هذى مناقب قد أغناه أسرها عن الذى شرعت أباه الأزل
قد جاوزت مطلع الجوزاء وارتفعت بحيث ينحط عنها الحوت والحمل
ولابن الصيرفى رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات .

ويقول ابن ميسر فى ترجمته : (فى حوادث سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٧ م)

« وفى يوم الأحد لعشر بقين من صفر توفى الشيخ الفاضل أبو القاسم على ابن منجب
ابن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفى المنعوت بتاج الرياسة صاحب الرسائل .

أخذ صناعة الرسائل عن ثقة الملك ألى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان
الجيش . ثم انتقل منه الى ديوان الانشاء ، وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسين
الزيدى . ثم تفرد بالديوان ، فصار فيه بمفرده .

وكان أبوه صيرفيا وجده كاتبا . ومولده بمصر يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة
٤٦٣ هـ . وله تصانيف فى الأدب والتاريخ والترسل .

وجرد منه للمصالح مرهفأ تساوى فى المضاء حذاء ، وأطلع منه كوكب سعد علا
واشرف سناؤه . الأجل المأمون . عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير
المؤمنين أبا عبد الله محمداً الآمرى ، أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه فى خدمة أمير
المؤمنين ، وأدام له العلو والبسطة والتمكين .

اللهم اجعل كوكب سعده أبداً عاليا مشرقاً ، وافتح للدولة على يديه مغرباً ومشرقاً وأقرن
بالتوفيق آراءه وعزائمه ، وأمضي فى نُحُورِ الأعداء أستته وصوارمه ، وثبت اسمه ونعته
على طراز ما يعمل فى أعمال المملكة من الملابس والفرش والأنية .

فلما تبوأ الأمور منازلها ، وأخذت الشؤون مأخذها لم يقدم هذا السيد شيئاً على
الالتفات الى بيوت العبادات ، فما أدخل جامعاً ولا مسجداً من فعل حسن وأثر جميل إعلاء
لمنار الملة ، وابتغاء لمرساة الله حتى إنه أقام منبراً فى المسجد الذى كان السيد الأجل

الأفضل أنشأه مطلقاً على بركة الحبش ، وكان هذا المسجد مغلقاً لا يُفتح ، ومهجوراً لا يُقصد ، فلما أمر بعمل المنبر . وتقدم بالصدقة على من يُحضر كل من يتأخر صار الناس يجتمعون به ويسعون إلى ذكر الله فيه . فنال بذلك في العاجلة كبير الثناء وسينال عليه في الآجلة جزيل الجزاء . ثم استمر على عادته في الصدقات التي اغنى تبرعه بعطاياها عن الوسائل ، ومنع التذاذه بها أن يتبرم بالحاج سائل . واتبع ذلك بالصلوات السنية ، والهبات الهنية . وانتصب لقضاء الحوائج والنظر في المصالح انتصاباً حازه الأجر وحواه . واجتهد في ذلك اجتهاداً ما رأى أحد مثله ، ولا رماه . فما أحد يشكو تريث حاجه ، ولا توقف طلائه ، ولا إهمال ظلامه . وكشف حقوق الدواوين فوجد بقايا عظيمة قديمة قد بعد عهدها ، وطال وروردها في الأعمال وترددها والذين تلزمهم عاجزون عن أقلها فضلاً عن كلها ، وهم في دركها وتحت خطرهما . ولا سبيل الى استخدامهم لأجلها . ومنهم من مات وورثته خائفون من المطالبة بها ، واعتسافهم بسببها ، فنظر لهم فيها نظر راحم رءوف ، وجدد سؤال أمير المؤمنين في المساعدة بها على أنها ألوف ألوف . وكتب السجل بذلك مشتملاً على تفصيلها بأسماء أربابها وتعيين سنيها وثبت فيه .

مناذج من كتابات ابن الصيرفي

أولاً : في التاريخ : قال من كتاب الإشارة في ترجمة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (١) :

« .. وتولى هذا السيد الأجل أحد البيعة الأمرية في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، واستمر على عادته في النظر والتدبير . ومازال يجتهد في جهاد الأفرنج نيحاً وعشرين سنة الى أن اغتيل سلخ رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة (٥١٥ هـ) . فمضى شهيداً الى رحمة الله ورضوانه ، واستقر بجوار ربه في دار عفوه وغفرانه . وخرج من الدنيا والعدو باق بالشام مستول على معظم ثغوره . وعمله منصرف في سهله وجبله . والله عز وجل يجعل عزمات المقام الأعظم المأموني — خلد الله سلطانه ماضية بنجواره ، ومعقبة على آثاره ، ومطهرة لبلاد الاسلام من رجسه وعاره أخذاً للدين بطوائله منه ، وثاره ، محكمة فيه مواضي الذوايل والمناصل ، مرسله عليه حبيب نكال مبيد له مستأصل ، فيكون ذلك ماعده الله لهذا المقام الأشرف ، وذخره ، وحسن الجزاء عليه — مما ضاعفه الله تعالى عنده ، ووفره .

وقد كان السيد الأجل الأفضل لتوفيق الله إياه ، ورأفته برعاياه قد ألقى مقاليدته وسياسته الخاصة والعامة الى الأجل المأمون — خلد الله أيامه — فقوم كل معوج مائد ، وأصلح كل مختل فاسد ، وحرص على الخيرات حرصاً شهد له بقوة الدين وصحة اليقين ، ونال به الرضى من الخالق تبارك وتعالى ، ومن المخلوقين .

فلما توفى السيد الأجل الأفضل ، وانتقل الى دار الخلد ومحل القدس غدا الناس هاجمين كأنهم لم يفقدوه ، وجرى أمرهم على ما لم يظنوه ولم يتعقدوه ، ولم يكن عندهم لعدمه الا الحزن على مصابه والجزع على فراقه ، والعجب من عدوى النقد^(٢) على الأسد ، والغلق الذي فتح معه مستحسن الصبر ، والجلد ؛ لأن أحوالهم ما فسدت ، ولا سوق صلاحهم كسدت ولا ريح المضرة عليهم هبت ، ولا عقارب الأذى بينهم دبّت ، ولا مضاجع سكونهم أفضت بهم ونبث ، ولا أطراف أعمالهم تشعثت ولا اضطربت ، لأن سيدهم الذي عمهم بكرمه وغمرتهم السعادة بحسن نظره السيد الأجل المأمون — سد الله ظله — باق لم يزل .

(١) على كتاب الإشارة ٥٣١

(٢) النقد ولد الشبهة ، أو نوع من انعم قصير الأرجل .

وحالفهم بتدبيره وسياسته لم تتغير ، ولم تُحل . والله عز وجل يثبت وطاته ، وينجي من كل مسلم فيه دعوته بفضله وطوله ، وقوته وحوله .

وقال في ترجمة المأمون البطائحي وزير الأمر :^(١)

« .. هذا السيد أكمل من نصيح خليفة ، وأفضل من نصر شريعة ، وأرحم من حاط رعية ، وأنصف من أمضى قضية . وأسمح من أجزل عطاء إذا تجلت الملوك وشحت . وأحكم الحاكمين على المحجة البيضاء إذا ثبتت عنده القصص وصحت . لا يهتك سترأ ، ولا يخذل حقاً ، ولا يتخذ ظلماً ، ولا يقطع رزقا .

ولا يزال إنعامه مقصياً للهمم مبعداً ، ولا ينفك اصطناعه معيناً على الدهر مُسعداً . اذا عددت مناقبه أبانت عجز الواصف المثني ، واذا وُحِد في الفضائل أمن استظهار المستدرك المستثنى . فلا تقع الا منه على كثرة طلابه ، ولا ضرر يستكشف ويستدفع إلا به . فأبقاه الله ركناً للدين القيم الخفيف ، وأدام سلطانه ظلاً ممتداً على القوى والضعيف . وأجرى الكافة من ذلك على عادتهم الجميلة من فضله الجزيل ، وصنعه اللطيف .

وهذا السيد الأجل ريب الدولة العلوية — خلد الله ملكها — ولأسلافه الكرام فيها أفضل المقامات ، وأجل الكرامات . وقد أوصلتهم الثقة بهم رتبة القرب والدنو ، وبلغتهم الطمأنينة اليهم أعلى درجات الرفعة والسمو .

ولما تعلّق هو — أدام الله أيامه — بصحبته السيد الأجل الأفضل — كرم الله مثواه — رأى منه ما لا يوجد في ولد ، ولا يطمع به من أحد ، شرف أخلاق ، وكرم طباع ، وحسن طوية ، ونقاء سريرة ، ومبالغة في النصيحة ، ومثابرة على المولاة الصريحة ، ومتاجرة لله تعالى فيما بذل له من ماله وجاهه ، ومخالصة في الطاعة لخالفه وإلهه . استكفاه أمر المملكة ، وعمله أوقها^(٢) ، وعذق به أحكام السياسة وطوقه طوقها فدبر الأمور تدبيراً ، لاعهد للناس بمثله ، وعاملهم معاملة تشهد بعناية الله به في قوله وفعله .

فلما توفى السيد الأجل الأفضل — شرف الله ضريحه ظهر ماله تعالى فيه من السر ، وخرج ما كان له في الغيب من الخباء ، ورفع استحقاقه الى أعلى المنزلة التي كانت

(١) الإشارة ص ٥١ .

(٢) الأوق : انقل .

تنتظره ، ورقاه استحثائه الى المرتبة التى كانت ترتقبه فغدا سفير الخلافة وسلطان الكافة ، وكفيل الأمة وحامل أعباء الدولة ، والمرجو لاجتثاث أعداء المملكة ، والمؤجل لافتتاح البلاد المستغلقة ، وخلع عليه فى اليوم الثانى من ذى الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة من الملابس الخاصة ، وطوق بطوق ذهب مرصع — وقلد سيفاً كذلك ، وتفرد بالنظر ، ودعى له على كل منبر بما خرجت تستحقه من حضرة امير المؤمنين . اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته ، وارفضاه ، وانتخبه لتدبير أحوال مملكته ، واجتباها ، وولج اليه الأمور ، فساسها أحسن سياسة يقظة وجداً وحزماً ، واستكفاه فى المهمات ، فكفى فيها مضاء واستقلالاً ، وعزماً .

نسخة من السجل الذى كتبه ابن الصيرفى لما توفى المستعلى

« من عبد الله ووليه أى على الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين ابن الامام المستعلى بالله الى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها ، شريفهم ومشروفهم ، وأمرهم ومأمورهم ، مغربهم ومشرقهم ، أحمرهم وأسودهم ، كبيرهم وصغيرهم ، بارك الله فيهم . سلام الله عليكم .

فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله الا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين . وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله المنفرد بالثبات والدوام ، والباقي على تصرف الليالى والأيام ، القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام ، الجاعل نقض الأمور معقودا بكلام الاتمام ، جاعل الموت حكماً يستوفى فيه جميع الأنام ، ومنهلا لا يعتصم من ورده كرامة نبي ، ولا إمام والقائل معزياً لنبيه ، ولكافة أئمة : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) الذى استرعى الأئمة لهذه الأمة ، ولم تخل الأرض من أنوارهم ، لطفا بعباده ونعمة ، وجعلهم مصاييح الشبه إذا غدت داجية مدلهمة لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ، ولا يكون أمرهم عليهم نعمة يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة ، ونقله إليه من ميراث الخلافة ، صابر على الرزية التى أطار هجومها الأبواب ، والفجعة التى أثار طروقها الأسف والاكتئاب . ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ، ويحلى غياهب الكفر ومكشفت غمائه الذى قام بما استودعه الله من أمانته ، وحمله من أعباء رسالته ، ولم يزل هاديا إلى الإيمان ، داعيا الى الرحمن حتى أذعن المعاندون ، وأقر الجاحدون . وجاء استحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فحينئذ أنزل

الله عليه إتماماً لحكمته التي لا يعترضها المعترضون ، ثم إنكم بعد ذلك لमितون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أيينا أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذي أكرمه الله بالمنزلة العالية ، وانتخبه للإمامة رافعة بالبرية ، وخصه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مَبَرَّة التعظيم ، ومزية التفضيل ، وقطع بسيفه دابر من زلَّ عن القصد ، وضل سواء السبيل . وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الأبرار المصطفين الأخيار ، ماتصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار .

وإلى الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان من أكرمه الله بالاصطفاء ، وخصه بشرف الاجتباء ، ومكن له في بلاده ، فامتدت أفياء عدله ، واستخلفه في أرضه كما استخلف أباه من قبله ، وأيده بما استرعاه إياه بهدائته وإرشاده ، وأمده بما استحفظه عليه بمواد توفيقه وإسعاده ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده . فلم يزل لأعلام الدين رافعاً ، ولشبه المضلّين دافعاً ، ولراية العدل ناشراً ، وبالندى غامراً ، وللعُدوّ قاهراً إلى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة ، نلو كانت الفضائل تزيد في الأعمار ، أو تحمي من ضروب الأقدار ، وتؤخر ماسبق تقديمه في علم الواحد القهار لحمي نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف سمتها ، وكفأها خطير منصبها وعظيم هيبتها ، ووقتها أفعالها التي تستقى من منبع الرسالة ، وصاتتها خلاها التي ترتقى إلى مطلع الجلالة . لكن الأعمار محررة مقسومة ، والآجال مقدرة معلومة ، والله تعالى يقول ، وبقوله يهدي المهتدون ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

فأمير المؤمنين يختسب عند الله هذه الرزية التي عظم أمرها وفدح ، وجرح خطبها وقدح ، وغدت لها القلوب واجفة ، والآمال كاسفة ، ومضاجع السكون منقضة ، ومدامع العيون مرفضة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . صبراً على بلائه وتسليماً لأمره وقضائه ، واقتداءً بمن أثنى عليه في الكتاب (إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أواب) .

وقد كان الإمام المستعلي بالله قدس الله روحه عند نقلته جعل لي عقد الخلافة من بعده ، وأودعني ماحازه من أبيه عن جدّه ، وعهد إلى أن أخلفه في العالم ، وأجرى الكافة في العدل والإحسان ، على منهجه انتعالم ، وأطلعني من العلوم على السرّ المكنون ، وأفضى إليّ من الحكمة بالغامض المعصون ، وأوصاني بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرتهم المرضية ، على علمي بما حبلىني الله عليه من الفضل ، وخصني به من إيثار العدل ، وإنني

فيما استرعيته مالك منهاجه ، عاملٌ بموجب الشرف الذي عصب الله في تاجه . وكان مما ألقاه إليّ ، وأوجهه عليّ ان أعلّى محلّ السيّد الأجلّ الأفضّل من قلبه الكريم ، وما يجب له من التبجيل والتكريم . وان الامام المستنصر بالله كان عند ما عهد اليه ، ونصّ بالخلافة عليه أوصاه أن هذا السيد الأجلّ خليفة وخليلاً ، ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلاً ، ويعذق به أمر النظر والتقرير ويفوض اليه تدبير ما وراء السرير . وأنه عمل بهذه الوصية ، وحذا على تلك الأمثلة النبوية ، وأسند إليه أحوال العساكر والرعيّة ، وناظر أمر الكافة بعزمته الماضية ، وهمته العليّة ، فكان قلمه بالسداد يرجف ، ولا يحف ، وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ، ورأيه في جسم مواد الفساد يرجح ولا يخف ، فأوصاني أن أجعله لي كما كان له صفياً وظهيراً ، وأن لا أستر عنه في الأمور صغيراً ولا كبيراً ، وأن أقتدى به في ردّ الأحوال الى تكلف ، وإسناد الأسباب الى تدبيره الناهض مايط^(١) الخطب ، ومنتقله الى غير ذلك مما استودعني إياه ، وألقاه إليّ من النص الذي يتضوّع نشره ورّياه ، نعمة من الله ، قضت لي بالسعد العميم ، ومنة شهدت بالفضل المتين والحظّ الجسيم . والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم .

فتعزوا معاشر الأولياء والأمراء والقواد والأجناد ، والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ، ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقول الى جنات الخلود ، واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر الموجود ، وابتهجوا بتكريم نظره ، المطلع لكم كواكب السعود . ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفنا عن مصالحكم ، وأن يتوخى ما عاد بيمانكم ومناجحكم ، وأن يحسن السيرة فيكم ، ويرفع أذى من يعاديكم ، ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا مولاته بخالص الطوية ، وتجمعوا له في الطاعة بين العمل والنية ، وتدخلوا في البيعة بصدر منشرح ، وآمال منفسحة ، وضمان يقينية ، وبصائر في الولاء قوية . وأن تقوموا بشروط بيعته ، وتنهضوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد في حقوق خدمته ، وتتقربوا الى الله سبحانه بالمناصحة لدولته ، وأمير المؤمنين يسأل الله أن تكون خلافته كافلة بالإقبال ، ضامنة ببلوغ الأمان والآمال . وأن يجعل ديمها دائمة بالخيرات ، وقسمتها نامية على الأوقات . إن شاء الله تعالى . »

(١) مايط جائر ، والناهض : الطاعن .

رسالة العفو

قال : (١)

« الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم ، وكاشف ضررهم فيما يطرقهم وينوبهم ، والمتفضل عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقائل في محكم كتابه (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) . وصلى الله على سيدنا محمد ، نبيه الذي شرفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخلق العظيم ، وفضله على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره في أصحابه بقوله — عز من قائل : (فاعف عنهم واستغفر لهم) . وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، الذي أجاب الى الإيمان مسارعاً ، مبادراً ، وصفح عن عدوه ، وكان عليه قادراً ، وأعرضت شيمه عن الشرف الصريح ، ومنعه كرمه أن يجhez على جريح ، وعلى آلهما الطاهرين الذين طهر بهم من الأدناس ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال ، وسلم ومجد وكرم وعظم .

أجمعت البرية على اختلاف الستها وألوانها ، وتغاير عصورها وأزمانها ، وتباين عقولها وآرائها ، وتفاوت أغراضها وأهوائها ، أن أفضل ما اكتسبه المرء في وجوده ، وأشرف ما منحه من كرم الله تعالى وجوده ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها ، وتبليغها غاية تجود الخواطر فيها وتهذيب بها . وإن من أدرك ذلك فقد نال الرتبة العلية ، وحاز السعادة الحقيقية ، لأنه حصل على فضيلة الذات ، ووصل بها الى أعظم اللذات . وهذه قضية لا تنتقض ، ومقدمة لا يخالف أحد فيها ولا يعترض . فأما النتيجة عنها فهي فعل الحسن والمثابرة عليه . والتنزه عن القبيح وإن دعت المكافأة إليه . وأفضل الحسن ما بقي ذكر المرء بعده . وجعله بالوصف قريباً ، وإن أطالت الأيام عهده ، إذا كان بقاء ذكر الإنسان عمراً يستجدّه ، وكنزا يدخره لوارثه ويعلمه . ومن أمثالهم : « البشر أحد الجودين ، والذكر أحد الخلودين ، والبيان أحد السحرين ، والثناء أحد العمرين ، وما أحسن قول أبي الطيب :

كفل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشور

(١) الأفضليات ص ٤/٣ طبع دمشق ١٩٨٢

وله من رسالة « لمح الملح »^(١)

فصل

من المحدثين المجيدين محمد بن شرف . وذكر في بعض تصانيفه أنه كتب بشرح حال حاج أصابه في الطريق حرٌّ شديد ، فنزل برا ليشرب ، فسقطت فيه صاعقة ، فسلم منها ، ثم ركب وسار ، فنزل برّد أصابت رأسه منه واحدة فقتلته . وكتابه في ذلك مشهور .

وقد كتب المملوك في هذا المعنى :

« إن من نوادر العبر ، وبنادر الفير ، ما اتفق لفلان عند توجهه من الطائف ، وتركه اصطحاب الماء توكلًا على اللطائف ، فإنه لقي يوماً متلهّب الأوار ، مُتضرمّ النار ، قد فقد نعيمه ، وعُدِمَ نسيمه ، واستعير من لفتح جهنم حرّه وسُمُومُه ، فاستند إلى صبره ، وأوى إلى جلده . ظاناً سرعة ذلك على ما وقع في خلده ، فلما اشتد القيظ ، ونجف على النفوس الغيظ^(٢) . وتزايد به الأوام ، وتشخص له الموت الزؤام جعل يتأسك ويسير ، وقد تيقن أن باقى عمره قليل يسير . فبينما هو على تلك الحال ، يغور تارة وينجد ، وقد أعوزه من يعين وأعجزه من ينجد ، إذا هو بيمر ساقته إليها مهلة الأجل وهدته ، وقادته نحوها فسحة المدّة وأدته ، فلعلّم الرشاء وتعذّر ، وإعجال الأمر له عن تشبه وتصبره نزهاً كارعاً في مائها ، وناعشاً به نفساً لم يبق غيراً ذمائها . وإنه لكذلك إذ وقعت عليه صاعقة حُببها يُصعق ، ومسّها يهلك ويريق ، فلقيت البر جدتها دونه ، وحالت للمشيمة بين مضرتها وبينه . ثم صعد منها بعد أن نفع غلته ، وبلغ أمنيته . فسما بطرفه ، واستولى على طرفه ، وأعجب بحظه ، وتوهم أن القدر لا يغفل عن حفظه ، وتحقق أن قصود المنايا له مُحيطه ، وضروب الرزايا عن الوصول إليه مبطله . فما مضت ساعة حتى نشأت غمامة جرّ اليوم منها ستارته ، وتسخّ بها ذلك التوهج ومحا آيته . وحبل جامد السماء يذوب ، وماء المزن يهطل ويصوب .

الأفضليات ص ١٢٦

الغيظ : الموت

وأخذت الأفضية تحلل من الدّيم العُقد ، وتُفوق إلى مقاتل المقتول سيّهم البرد ، فلم يزل يأتيه أرسالاً ، ويتناثر عليه يميناً وشمالاً إلى أن أصابت إحداهنّ منه الهامة ، فأذهبت نفسه ، وعجّلت له القيامة . فسبحان من قُرب له المسافة بين منهل الاعتزار ومصرع الاعتبار ، ومن نجاه مما اهلكه بمثلة معتاده ، وأهلكه بما يحيى به أرضه ويرحم عباده ، وهو المسؤل إن يُسبغ علينا فضله ، ولا يجعلنا بين عبادِهِ مثله ، إنه جوادٌ نجيبٌ داعيةً ، ولا يُخيّب راجيةً .

وقال في وفاء النيل

رسالة من إنشاء تاج الرياسة أبي القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفي ^(١) .
« أما بعد . فإن أحق ما وجبت به التهنئة بالبشرى ، وغدت المسارُ منتشرةً تتوالى وتترى ، وكان من اللطائف التي غمرت بالمنة العظمى ، والنعمة الجسيمة الكبرى ما استدعى الشكر لموحد العالم وخالقه . وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه .
تلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذي يسره الله تعالى وله الحمدُ يوم كذا ، فإن هذه العطية تؤدي الى خصب البلاد ، وعمارتها ، وشمول المصالح وغزارتها ، وتقضي بتضاعف المنافع والخيرات ، وتكاثر الأرزاق والأقوات . ويتساهم الفائدة فيها جميع العباد ، وتنتهي البركة بها الى كل دابٍ وناء ، وكل حاضر وباد . فأذع هذه النعمة قبلك ، وانشرها في كل من يتدبر عملك . وحثهم على مواصلة الشكر لهذه الألفاف الشاملة لهم ولك ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله » .

وقال :

« إن أول ما تضاعف به الابتهاج والجدل ، وانفتح فيه الرجاء واتسع الأمل ما عمّ نفعه صامت الحيوان وناطقه ، وأحدث لكل أحد اغتباطاً لزمه وآلى أن لا يفارقه ، وذلك ما من الله به من وفاء النيل المبارك الذي يحيى به كل أرض موات ، وتكتسى بعد اقشيرهارها حُلّة النبات ، ويكون سبباً لتوافر الأقوات فإنه وفقى المقدار الذي يحتاج إليه . فلندع هذه المنّة في القاصي والداني لتستعمل الكافة بينهم ضروبُ البشائرِ والتهاني إن شاء الله تعالى . »

(١) المخطوط المقرئ ٤٧٩/١

وكتب أيضا :

« من لطف الله الواجب حمده ، اللازم شكره ، وفضله الذي لا يمل بشره ولا يُستأنم ذكره ، ومنه الذي استبشر به الأنام ، وتضاعف فيه الإناّم ومثل الله الحياة به في قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما تأكل الناس والأنعام) أمر النيل المبارك الذي يعمّ النجود والتهائم ، وتنتفع به الخلائق ، وترتع فيما يظهره البهائم . وقد توجه اليك بهذا الكتاب بهذه البشرى فلان فأجره على رسمه في إظهاره جملاً ، وإيصاله الى رسمه مكملأ ، وإذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها ، ويبالغوا في الشكر لله سبحانه وتعالى بمقتضاها ، وعلى حسبها ، فاعلم ذلك واعمل به » .

وأشاد ابن سعيد به وبكتابه ، وقد نعته بعلم الرؤساء ، وقال^(١) :

« كاتب إمامهم الأمر وغيره من خلفاء المصريين ، وقعت على ترسله في مجلدات عدة ، فوجدت الفاضل البيهاني ينسج على منواله وينزع منزعه ولكنه زاد رشاقة ولطافة وغوصاً » .

(١) النجوم الزاهرة في حلل حصرة القاهرة ص ٢٥٢

الأنصارى^(١)

أبو علي حسن بن زيد بن إسماعيل (توفي في حدود ٤٢٦ هـ)

قال عنه العماد : « كان من المقدمين في ديوان المكاتبات بمصر . وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » .

وقال ابن سعيد : « أبو علي حسن بن زيد بن إسماعيل المعروف بابن الأنصارى . وبيت بنى الأنصارى معروف الى الآن — زمن ابن سعيد في القرن السابع — بالديار المصرية . وأبو علي هذا كنيته . ذكره صاحب الجنتان (ابن الزبير) . وقال : هو عريق النسب في صناعة الأدب يمت إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعمال ، جده لأبيه المعتمد الأنصارى^(٢) ، ولأمه المجيد بن أبي الشخباء^(٣) العسقلاني . » .

وكان طموح النظر الى الرتب العلية ، والمنازل السنية ، تُريه همته أنه بعبء الرئاسة مستقل ، فهو لكل ما ناله مستقل ، ولو فسح العمر له بامتداحه ، وسمح له الدهر بمراحه ، بلغ بما ظهر من أدبه الى غاية مطالبه ، إلا أن الزمان دفع في صدر أمله ، وقصر خطا أجله فترامت به الأحوال الى أن قتل في الاعتقال السلطاني لأمر ثما عنه إليه وهجاء زور عليه . وكأنما عبّر عن حاله بمقاله :

من لى يعود زمان كنت أكرهه وكيف للميت بالرجعى الى الألم

وكان الأنصارى من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى ، وقد مدحه واختص بعد مقتله بابنه أحمد ، وبعد مقتله ، سعى بعض رجال الدولة بينه وبين الحسن بن الحافظ الذى استولى على أمور الحكم دون أبيه ، فقتله الحسن بن الحافظ ، وكان متهوراً مستبدّاً حتى أن أباه ضاق به فدرس له السم فمات .

يقول العماد : « طرقة حادث الزمان الغائظ ، فأحفظ عليه حسناً ولد النبوذ بالحافظ

(١) الخريدة للعماد قسم شعراء مصر ٦٧/٢ والنجوم الزاهرة من المغرب ص ٢٣٧ .

(٢) معتمد الدولة الأنصارى ، ولى قضاء الأردن ، وله شعر فائق وقتله بدر الجمالى .

(٣) سبقت ترجمته .

وتقلد حوته ، وضرب رقبته ، وذلك بسبب ابن قادوس ، عمل بيتين هجا بهما حسن بن الحافظ ودسهما في رقاع هذا الأنصارى ، ثم سعى به إلى المذكور فأخذ فوجدا معه وقتل « (١) »

يقول العنباد^(٢) : « ومن نثره مما يدل حسنه على رونق فرنده وأثره ما التقطته من ترسل صنفه أبواباً ، وألفه اقتضاباً . »

وله من تهئة بولاية :

« من هُتِيَ بمنزلة يرتقيها ، أو مرتبة يعتليها ، فالخدم تُهَيَّء بالحضرة لما يكسوها من جميل السيرة ، والإنصاف الذى يتعادل فيه الجهر والسريرة ، فخلد الله ملك المجلس العالى المالكى ، وثبت أيامه ، ونصر أعلامه — فإنه منظور فيها بناظر البصرة التى تمده القوة الملكية — وسلك بتقديهما نهج السعادة التى توضحه المادة الالهية ، فأصاب الضريبة ، ووقع العقد فى الترية ، وأرهدف الحسام القاطع ، وأضرم الشهاب الساطع . »

ومن تهئة بالعافية إلى السلطان

« الحمد لله الذى أقر القلوب بعد وجيها ، وأضحك الأيام بعد قطوبها ، وقوى المتن بعد انخزالها ، وشد غرى الإسلام بعد انحلالها ، بما أتاحه من البر الذى أقر عيون الأولياء وأكمد قلوب الأعداء ، وأصبحت الدنيا متعلية بعقودها ، مائسة فى برودها باسمه عن المضحك الأنيق ، لاجئة إلى الركن الوثيق . وغدا الدين عزيز الجانب ، رفيع المناكب ، محمى الكواكب ، فملوك الدولة أحق الأولياء أن يستفز الجدل ويستطيره ، وتتضاعف مسدئهم بهذه المنحة الخطيرة ؛ إذ هو ييمينها مشمول ، وعلى موالاتها مجبول . وقد جذبت بياعه من الحضيض الأوهد ، وسمقت به إلى الخلل الأجد ، فهو يتأزر بإنعامها ويرتدى ، ويروح إلى إحسانها ويفتدى . »

الحمد لله الذى أبقى المجلس السامى شهاباً لا يخبو فى اللأزاء ثاقبه ، وحسام لا تنبو عن الأعداء مضاربة ، وركناً تلوذ به الأمم ، وسحاباً يهطل بأنواء الكرم .

(١) الحريدة ص ٦٨

(٢) الحريدة ص ٧٣

ومن قوله في تهنية بظفر^(١) :

« الحمد لله الذى فضّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول ، كما فضّل ملة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الملل ، وجعل أيامه واضحة الحُجُول والغُر ، مخصوصة بالفتوح والظفر ، يخفق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده ، ويقابل الأقدار فى جحافلها وتصبح الملائكة الأبرار من قبائلها ، فما يتوجه من جيوشه جيش إلا والتأييد يقدمه ، والقدرة تخدمه ، والدهر يؤازره والنصرة تضافه ، نهىء بهذا الفتح الذى ضحكت به الدنيا عن مباسمها ، وتجلت به شموس النصر عن غمائمها . ونسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده وكل يوم من أيامه موفياً على أمسه ، مقصراً عن غده ، الفتح الذى نكسب به رُغُوس ذوى الشقاق وقطع به دواير أهل الخلاف والنفاق ، ورجفت به أكباد الأعداء رهبا وجزعاً ، وتضعضت به أركان الباطل خوفاً وهلماً . وأصبح الإسلام به عزيز الجناب ، فسيح الرحاب ، منصور الأعوان والأحزاب ، والدولة فاخرة على الدول ، بالندة أقصى الأمل ، يخفق النصر فى أعلامها ويخفق الظفر من ورائها وأمامها »
ومن تهنية بفتح^(٢) :

« أعزّ الله سلطان الحضرة ، وهناها ما منحها من الشرف الأثير ، والذكر النابه الخطير ، من الظفر بالفلانين على اشتداد أسرهم ، واستفحال أمرهم ، وانبساط يدهم ، وتكاثر عددهم وتناقص المُقدمين عنهم ، وجزع الناس منهم . لا جرم أن المجلس العالى لما رأى شأنهم يتفاقم ، وخطبهم يتعاضم نقد رؤساء دولته نقد الصيرف الخبير ، وقلب مقدّمى مملكته بطرف العارف البصير ولم يُر كفلان ألم ولا أدفع للخطب ، ولا أسد للخرق ، ولا أرتق للفتق ، ولا أخبر بتدبير الجحافل ، ولا أهجم على شفاء المناصل ، ولا أثبت فى صدور الأعداء ، ولا آثر ، فى نفوس الأولياء ولا أعرف بمجارى أمور الحرب ، ولا أثبت جأشاً عند اختلاف الطعن والضرب ، ولا أكثر اجتهداً وتشميراً ، ولا أمضى رأياً وتديراً ، ولا أيسر على الأبطال ، ولا أحقّ بالتقدم على سائر الرجال ، ولا أثبت فى مواقف النزال ، ولا أسرع لإجابة حين تدعى نزالي ، رأوا فى عجاجها سحابة موت تهطل بالنكال ،

(١) الحريدة ٧٦/٢

(٢) الحريدة ص ٧٧

وَتَطَّرَ نَوَافِذَ النِّصَالِ ، وَتَوَمَّضَ عَنْ يَوَارِقَ تَشَعُّشُ بِالصَّقَالِ ، وَتَقَطَّعُ غُرَى الْآجَالِ . وَنَارَ
بِأَسَى تَلْفُحِ الْقُلُوبِ ، وَتُضْرِمُ الْخُطُوبِ ، وَتُدْنِي الْأَجَلَ الْمَكْتُوبِ ، فَأَصْبَحُوا بَيْنَ نَاكِصٍ عَلَى
الْعَقَبِ ، وَبِجَدَلٍ فِي الْأَرْضِ تَرِبَ ، وَمَزْمِلٍ بِدِمَائِهِ ، وَبِجَرِّعِ غُصَصِ ذِمَائِهِ ، وَهَارِبِ وَالْأَرْضِ
تَحْصِيهِ ، وَالْآفَاتِ تَطْلُبُهُ ، يَخَافُ مِنْ ظِلِّ طَرْفِهِ^(١) ، وَيَرَى الْمَنِيَّةَ تُصَبُّ طَرْفَهُ ، وَأَقْشَعَتْ
الْحَوْمَةُ وَالْدَهْرُ إِلَيْهَا بِاسْمِ ، وَالنَّصْرُ عَلَيْهَا قَادِمٌ ، وَالظَّفَرُ مَسْطُورٌ بِجَنْبِهَا ، وَالسَّعَادَةُ مَخِيمةٌ
عَنْ يَمِينِهَا ، وَالْإِسْلَامُ لِسَعِيهَا شَاكِرٌ .

وَلِلْأَنْصَارِيِّ شَعْرٌ أَقْوَى أَسْرَأَ مِنْ نَثْوِهِ ، مُتَفَوِّقٌ فِيهِ عَلَى كِتَابَتِهِ ، وَرَبَّمَا سَلَكَهُ فِي عِدَادِ
شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْمَقْدَمِينَ ، وَقَدْ قَصَرَ ابْنُ سَعِيدٍ مَخْتَارَهُ عَلَى شَعْرِهِ^(٢) ، وَلَمْ يَعْضُ شَيْئاً مِنْ
نَثْوِهِ ، فَلَعَلَّهُ رَأَى فِيهِ مَا رَأَيْنَا ، وَأَمَّا الْعِمَادُ فَقَدْ أَكْثَرَ مِنْ مَخْتَارِ نَثْوِهِ وَشَعْرِهِ جَمِيعاً ، وَأَعْجَبَ
كُلُّ مَنْ ابْنُ الصَّيْرِفِيِّ ، وَالْعِمَادُ ، وَابْنُ سَعِيدٍ بِوصْفِهِ خِيمةَ الْفَرَجِ لِلْأَفْضَلِ بْنِ بَدْرِ
الْجَمَالِيِّ .

قَالَ ابْنُ الصَّيْرِفِيِّ : وَمَنْ مَلِيحٌ مَا قَالَ فِي الْخِيمةِ الْمَنْصُورَةِ قَوْلُ ابْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ^(٣) :

أَخِيمةٌ مَا نَصَبْتُ الْيَوْمَ أَمْ فَلَكُ وَيَقْظَةُ مَا نَرَاهُ مِنْكَ أَمْ حَلْمُ

وَيُزِيدُ ثَمَانِيَةَ آيَاتٍ .

وَيَقُولُ الْعِمَادُ : « وَلَهُ قَصِيدَةٌ فِي مَدْحِ أَفْضَلِهِمْ يَصِفُ خِيمةَ الْفَرَجِ يَدُلُّ إِحْسَانُهُ فِيهَا
عَلَى أَنَّ بَحْرَهُ طَامَى اللَّجَجِ ، وَدُرُّهُ نَامَى الْبَهْجِ^(٤) » وَيُورِدُ وَاحِداً وَعِشْرِينَ بَيْتاً مِنْ
الْقَصِيدَةِ .

أَمَّا ابْنُ سَعِيدٍ الْمَغْرَبِيُّ فَيَقُولُ : وَقَوْلُهُ يَمْدُحُ الْأَفْضَلَ وَيَصِفُ خِيمةً لَهُ تَسْمَى بِخِيمةِ
الْفَرَجِ ، وَهُوَ مِنْ بَدَائِعِهِ^(٥) وَيُورِدُ خَمْسَةَ عَشَرَ بَيْتاً .

وَلِي هَذِهِ الْقَصِيدَةُ يَقُولُ الْأَنْصَارِيُّ :

(١) الطَّرْفُ : الْكَرِيمُ مِنَ الْحَيْلِ .

(٢) النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ ٢٣٨ - ٢٤١

(٣) الْأَفْضَالِيَّاتُ ٢١٦

(٤) الْخُرَيْدَةُ ٦٨/٢

(٥) (النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ فِي حُلِيِّ حَضْرَةِ الْقَاهِرَةِ) ص ٢٣٩

مجدداً فقد قصرت عن مجدك^(١) الأمل
 أحيمة ما نصبت الآن أم فلك
 ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن
 حتى أتيت بها شماء شاهقة
 إن الدليل على تكوينها فلكاً
 يمد من في بلاد الصين ناظرة
 ترى الكناس وآرام الأطباء بها
 والطير قد لزمت فيها مواضعها
 لديك جيش وجيش في جواربها
 إذا الصبا حركتها ماج موكبها
 أحييها خيلك اللاتى تغير بها
 علمت أبطالها أن يقدموا أبداً
 أمتهم أن يخافوا سطوة لردى
 كأنها جنة فالقاطنون بها
 تغدو القمارى والبازي يحفظها
 علت فخلنا لها سراً تحذته
 إن أنبت أرضها زهراً فلا عجب
 يا خيمة الفرج الميمون طائرها

ومنها :

ما قال لا قط مذ شئت قائمة
 لو كنت شاهد شعري حين أظمت
 أزرئك اليوم من فكري محبرة
 ترى النجوم لفظي فيك حاسدة
 وكم له يوم في طيها نعم
 إذن رأيت المعالي فيك تخلصم
 في ناظر الشمس من لأليها سقم
 تود لو ألتها في المدح تنظم

ومن شعره قصيدة تعكس حال العصر ورجاله ، وما كان يحدث به كل نفسه من بلوغ
 مكانة في غفلة من غيرة أو غصباً ، أو دساً وتآمراً .

(١) في النجوم « من أنشأوك »

يقول^(١) :

منالُ الثريا دون ما أنا طالبُ	فلا لوم إن عاصت على المطالبُ
وإني إذا لم يسمع الدهرُ بالنسي	فلي في كفالات الرماح مآربُ
تقربُ لي مُستبعدات مآربي	جيادي وعزمي والقنأ والقواضبُ
فما أنا ممن يقبضُ الفخرُ خطوهُ	وتعمي عليه في البلاد المذاهبُ
لقيتُ من الأيام كلَّ عجيبةٍ	فلم أر شيئاً أبدعتهُ التجاربُ
وكلُّ خليل أرتجيه مما ذُقُ	وكلُّ صديقٍ أصطفيه مواربُ
إذا ما كساك الدهرُ ثوباً من الغنى	فعجّلْ بلاهُ فالليالي سؤالبُ
وإياك سمَّ الأصدقاء إذا سرى	فأكثرِ حِلَّانِ الزمانِ عقاربُ
ولا تغررْ ممن صفا لك عهدُهُ	فكم غصُّ بالماء المصفى شاربُ
فلومُ على القدرِ الزمان ضلالةُ	وقد سنَّه أصحابنا والحبايبُ ^(٢)

وذكر له العماد قصيدة تنهج منهج الشعر القديم رصينة اللفظ بدوية الصور في استهلاكها . يقول في مطلعها :

مغاني اللوى حيّاك غادٍ من الويل	وطلّت دموعُ الطلّ فيك دم المخل
فلازل هطال الغمام إذا بكى	تبسّم عن ألمي من الروض مخضّل
فكم لي في أطلال دوحك ليلةُ	غدث سمة في جبهة الزمن القفل

ويقول وقد ذكر الطيف :

أطارق طيف أم خيال مُرجمُ	أراك به مرأى اليقين التوهّمُ
سرى وكأنّ الأفق صفحة لجية	كواكبُ فيها سفائنُ عِوَمُ
وكم للكرى من مية قبل هذه	أضاء بها وجه الدجى وهو أسحمُ
وما شيم الأيام أن تمنح المنى	ويسم منها الكالخ المتجهّمُ
ولكن رأت نعمى شهنشاة في السرى	فقد أصبحت من جوده تتعلّمُ ^(٣)

(١) المجموع الزاهرة ص ٢٣٨

(٢) البيت ريادة في الخريدة ٦٩/٢

(٣) وشاهنشاه لقب الأفضل بن بدر الجمالي وهو لقب فارسي معناه ملوك الملوك

وله من قصيدة يصف الطيف في مطلعها : (١)

سرى واصلاً طيف الكرى بعد ما صدّا فهل خطأ أهدى الزهارة أم عنفاً
ولمّا أتى عطلاً من الدرّ جيده نظمْتُ دموعي فوق لَبَّائِهِ عِقْلَهُ

ومن نسيجه البدوي أبيات نظمها في مدح أبي محمد بن أبي أسامة من كبار كتاب
الانشاء ووجهاء الدولة في عصره . وكان يكتب للأفضل قبل ابن الصيرفي . يقول
الأنصاري :

لعلّ سنا البارقي المتجيد	يُخْبِرُ عن ساكني نَهْمَسِيد
ويا حُبداً خطرةً للنسيم	تُجَدِّدُ من لوعةِ المَكَمِيد
وفي ذلك الحى خصانة	ها عنقُ الشاوينِ الأَغْيَدِ
تتبعه بُغْرَةٌ بدرِ القمام	وسالفةِ الرُّشَا الأَغْيَدِ
وتلحفُ عطفَ قضيبِ الأَرَاكِ	رداءً من الأَنْحَمِ الأَجْعَدِ
أعازِلُ أنْجِيَتِ لوماً على	يسروحُ بعدلكِ أو يفتدى
تلومُ زمانى على صمته	وصوتى من ضربه المقميد
ففضلى يكى على نفسه	بُكَاءَ لِيَدِ على أَرْبَدِ (٢)
ولو كان حظى لونَ الشباب	لما حالَ عن صبغهِ الأَسْوَدِ
فلا تأيسنَّ لمطلِ الزمانِ	فإئى منه على موعِدِ
ولا تشكُ دهرَكَ إلا إليك	فما فى البريةِ من مُسْعِدِ
ولا تغتررُ بعطايا اللثام	فقد ينضحُ الماءُ من جَلْمَدِ (٣)

وقال في الشراب والغزل :

وندمانى بدورُ التَّمِ تبدو	بأغصانِ قميصُ على رَوَابِي
والثاني الثالث والثانى	رفاقاً فى اصطحابِ واصطحابِ
فحيث والدجى يحكى المحساراً	بصولِ الشَّيْبِ من تحتِ الحَصَابِ
براح خِلْتُ كَفَّ المزج جادث	لمفرقها بتاج من حبابِ
صفت وصفت زجاجتها وأضحت	كأخلاقِ الأَجَلِ أبى ثرابِ

(١) الخريدة ٧٢/٢

(٢) أربد أخ للبيد شاعر بكاه و شعره كثيرا

(٣) القصيدة فى الخريدة ٧٣/٢

ابن الخلال

موفق الدين أبو الحجاج يوسف الكاتب (توفي ٥٦٦ هـ)

كاتب الخليفة الحافظ لدين الله وصاحب ديوان الانشاء في عصره

قال عنه العماد الأصهباني : « هو صاحب ديوان الانشاء في مصر ، وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره وله قوة على الترسل ، يكتب كما شاء ، عاش كثيراً ، وعطل في آخر عمره ، وأضر ، ولزم بيته الى أن تعوض منه القبر . وتوفي بعد ملك الناصر (صلاح الدين) مصر بثلاث أو أربع سنين في ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسائة (١) .

وروى عنه على بن ظافر في بدائع البدائه خبراً قال (٢) :

هجاه ابن هانيء المحدث هجاء اتصل به فأضمر له الحقد بسببه مع فرط جلالة الرجل ، وفرط رياسته وحسن مباشرته للناس ، وسياسته . واتفق بعض المواسم التي جرت عادة ملوك مصر بالجلوس فيها لاستماع المدائح وبذل المنائح ، وزف بنات القرائح ، فجلس الحافظ الخليفة ، وحضر خواصه في ظاهر الرواق على مراتبهم ، فانتبهت التوبة في الانشاد الى القاسم بن هانيء ، فانشد ما اهتزت له المعاضف ، وفض ختام روضه ليس لها الا القلب والسمع جانٍ وقاطف ، فمال الحافظ الى القاضي موفق متعجباً ، وقال له متعجباً : كيف تسمع ! فاستحسن واستجاد حتى نسبته الى الاعجاز أو كاد ، وهو في خلال ذلك يصنع صنع الخامل ، ويحاول قرطسة المقاتل . فسأله الحافظ عن الرجل ، فأثنى على أدبه ، وثنى بحسبه حتى أوهمه الاعتناء به . ثم قال : ولو لم يكن له مما يمت به الا انتسابه الى أبي القاسم ابن هانيء شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لكفى ، فكيف وفيه هذا الأدب الغضض النضير ، والشعر الذي لا ند له ولا نظير ، لولا بيت أظهر منه الضجج عند دخوله هذه البلاد . فقال له الحافظ : ما هو ؟ فتخرج من إنشاده ، وامتنع من إيراده ، فأبى الحافظ إلا أن يورده ، ففى أثناء ذلك صبح هذا البيت وأنشده :

(١) كُتِبَ أصبـهـانـيـ ٣١٦

(٢) بدائع البدائه ٣٩٠

تباً لمصر فقد صارت خلاتها عطناء تُنْقَلُ من كلبٍ إلى كلبٍ

ثُمَّ عَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الْحَافِظِ ، وَأَمَرَ بِقَطْعِ صِلَتِهِ ، وَكَادَ أَنْ يَفْرُطَ فِي عَقُوبَتِهِ ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ انْتِعَاشٌ مِنْ جِهَتِهِ طَوَالَ مَدَّتِهِ .

وَقَدْ أَخَذَ عَنْهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ فَنَ الْكِتَابَةِ . وَكَانَ الْفَاضِلُ قَدْ سَيَّرَهُ أَبُوهُ ، وَهُوَ قَاضِي عَسْقلَانٍ إِلَى ابْنِ الْخَلَّالِ لِيُتَخَرَّجَ عَلَيْهِ فِي فَنِ الْكِتَابَةِ ، وَيَتَدَرَّبَ بِهِ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ لَهُ : مَا الَّذِي أَعْدَدْتَ لِفَنِّ الْكِتَابَةِ مِنْ آلَاتٍ . فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ سِوَى حِفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَكِتَابِ الْحِمَاسَةِ . فَقَالَ : فِي هَذَا بِلَاغٌ . ثُمَّ أَمَرَهُ بِمِلَازِمَتِهِ ، فَلَازَمَهُ وَتَدَرَّبَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَحْلُلَ شَعْرَ الْحِمَاسَةِ ، فَحَلَّهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِهِ فَحَلَّهُ ثَانِيَةً ، وَيُقَالُ إِنَّ الْمَوْفِقَ ابْنَ الْخَلَّالِ كَانَ يَكْتُبُ إِلَى الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَهُوَ عَاطِلٌ فِي بَيْتِهِ : « خَادِمُهُ يُوسُفُ » . وَكَانَ الْفَاضِلُ يَقُولُ : إِلَى مَتَى يُخْبَأُ الْأَلْفُ وَالْأَلَامُ يَعْنِي يَقُولُ الْخَادِمُ .

وَلَمْ يَزَلْ ابْنُ الْخَلَّالِ بِالْذِيَّانِ إِلَى أَنْ طَعَنَ فِي السِّنِّ ، وَعَجَزَ عَنِ الْحَرَكَةِ ، فَانْقَطَعَ فِي بَيْتِهِ . وَكَانَ الْفَاضِلُ يَرَعَى لَهُ حَقَّ الصَّحْبَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِلَى أَنْ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَالَ الصَّفْدِيُّ^(١) : وَكَانَ الْمَوْفِقُ بْنُ الْخَلَّالِ خَالَ الْقَاضِي الْجَلِيسِ بْنِ الْحَبَّابِ فَحَصَلَ لِابْنِ الْخَلَّالِ نَكَبَةٌ ، وَحَصَلَ لِابْنِ الْحَبَّابِ بِسَبَبِ خَالِهِ ابْنِ الْخَلَّالِ صَدَاعٌ فَكُتِبَ ابْنُ الْحَبَّابِ إِلَى الْقَاضِي الرَّشِيدِ بْنِ الزَّيْبِرِ :

تَسْمَعُ مَقَالِي يَا ابْنَ الزَّيْبِرِ فَأَنْتَ خَلِيقٌ بِأَنْ تَسْمَعَهُ

بُلَيْتًا بِذِي نَسَبٍ شَابِكٍ قَلِيلِ الْجِدَى فِي زَمَانِ الدُّعَاةِ

إِذَا نَالَهُ الْخَيْرُ كَمْ نَزَجَهُ وَإِنْ صَفَعُوهُ صَفَعْنَا مَعَهُ

وَجَاءَ عَنْ ابْنِ حُجَّةِ الْحَمَوِيِّ فِي ثَمَرَاتِ الْأُورَاقِ^(٢) .

« قُلْتُ : الَّذِي ثُبِتَ وَتَقَرَّرَ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِينَ وَعِلْمَاءِ هَذَا الْفَنِّ أَنَّ الْقَاضِي الْفَاضِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَخَذَ عِلْمَ الْإِنشَاءِ وَحُكْمَهُ عَنْ مَوْفِقِ الدِّينِ ابْنِ الْخَلَّالِ مِنْ شَيْءِ الْخَلِيفَةِ الْحَافِظِ

(١) بحث الميمان ٣١٦

(٢) ثمرات الأوراق بتحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم ص ١٣٨

العلوى . ورتبته فى الإنشاء معلومة ، ولكن جنحتُ الى الوقوف على شىء من نظمه لأنظر
فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثره ، فوجدت قاضى القضاة شمس
الدين ابن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظما ونثراً دلى على أن نظمه ونثره رضيعا
إلْبَانٍ ، وفرسا رهان » .

ابن قَادُوس^(١)

أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الدمياطي (ت ٥٥٣ هـ)

وقيل توفي سنة ٥٥١ هـ

من كتاب الدولة الفاطمية في عصر الحافظ ، وعاصر القاضي الجليس ابن الحباب ، ولقب بالمفضل كافي الكفاة . وكان القاضي الفاضل يسميه ذا البلاغتين : الشعر والنثر .

ونقل العماد في الخريدة^(٢) عن ابن الزبير في نعتة : كان يأخذ ثغور مصر رجلاً يعرف باسماعيل بن حميد المنبوذ بابن قادوس ، وكان يهتم بالجمع والادخار ويدين بعبادة الدرهم والدينار ، ولا تندى حصاته ، ولا يظفر بغير الحنية عُفاته ، ولا يرشح له كف ، ولا يعرف له عرف ، إلا أن له رواءً وجدةً وبنين وحفدة ، يطمع الغر في نواله ، ومنال النجم دون مناله » .

ولعل محموداً الكاتب هو ابن هذا الذي أشار إليه ابن الزبير . وعائش ابن قادوس كثيراً من شعراء بلاط الصالح بن رزيك وكتابه .

ولقبه ابن شاعر بالكاتب المصري صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية^(٣) وأصله من دمياط . قيل ان القاضي الفاضل كان ممن اشتغل عليه ، وكان يعظمه ويسميه ذا البلاغتين .

قال ابن شاعر : « وكان لا يتمكن من اقتباس فرائده غالباً الا في ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايه ويجاريه في فنون الانشاء والأدب .

وكانت بينه وبين القاضي الرشيد بن الزبير مهاجاة ذكر ابن ظافر في البدائع^(٤) أنه نبذه بسواده فقال فيه :

(١) ترجمته في ابن ميسر ٩٧ والروصتين: ١٠٣/١ ، الدواداري ٥٩٦ ومجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٢

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ٢١٤/١

(٣) ١٠١/٤ فوات الوفيات -

(٤) بدائع البدائه ص ٥٤

إن قلت من نار خلقت وفُقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذى أطفأك حتى صرت لهما

وكان الرشيد كثيرا ما يدعى الذكاء وأن خاطره من نار .

وكان ابن قادوس كثيرا ما يجالس ابن رزيك ومعه في المجلس جماعة من كتاب مصر
وشعرائها^(١)

القاضى الجليل بن الجبّاب (توفى سنة ٥٦١ هـ)^(٢)

هو عبد العزيز بن الحسين بن الجبّاب . قال ابن شاکر : بالجيم والباء الواحدة المشددة
وبعد الألف باء .

الأغلبى السعدى الصقلی المعروف بالقاضى الجليل أبو المعالى قال ابن نقطة : سُمى
بالجليل لأنه كان يعلم الظاهر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم ، والأدب ، وكانت عاداتهم
يسمون مؤدبهم الجليل .

تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق ابن الخلال . وكان من جلساء الوزير الصالح ابن
رزيك . قال عمارة اليمنى^(٣) : « ووجدت بحضرته — ابن رزيك — من أعيان أهل الأدب
الشيخ الجليل أبا المعالى ابن الجبّاب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا
الفتح محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلقة أحد الا
ويضربُ في الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الأشكال
فيصيب » .

قال ابن ظافر^(٤) : « كان الصالح طلائع بن رزيك الوزير لا يزال يحضر مجلسه في ليالى
الجمع جلساؤه وبعض أمرائه لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث ،

(١) النكت العصرية ص ٣٥

(٢) ترجمته في فوات الوفيات ٣٣٢/٢ ، الخريدة قسم شعراء مصر ١٨٩/١ والنكت لعماره ص ٣٥ والتحريم الزاهرة
٢٩٢/٥

(٣) النكت ص ٣٤

(٤) قد أنق هذا بصورة تركاخشى في بعض المصادر والخبر سائق المحدثه ص ٢٢٩

وكان الذى يقرأ رجلاً أبخر ، فعلَّله . به وقد حضر المجلس مع الأمير أبو على بن الزبير والقاضى الجليس أبي محمد عبد العزيز بن الجباب ، وقد أمال وجهه الى القاضى المذهب بن الزبير وقال له :

وأبخرَ قلتُ : لا تجلسُ بجنى

فقال الأمير :

إذا قابلت بالليل البخارى

فقال الجليس : ولم ؟ ، فبدره المذهب فقال:

فقلتُ وقد سئتُ بلا احتشامٍ لأنك دائماً من فيك خارى

وروى ابن ظافر قال : وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التى يسميها المصريون « الزركالش » ، ويسميها العراقيون كان وكان :

النار بين ضلوعى ونا غريق فى دُوعى
كنى فيلة قنديل أموت غريق وحريق

وكان عنده القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الجباب ، والقاضى المذهب ابن الزبير ، فتقدم إليهما بنظم معناه . فصنعا بديها ، فكان مما صنعه الجليس :

هل عاذر إن رمت خلج عذارى فى شَم سالفة ولغم عذارٍ
متألف الأضداد فيه ولم تزل فى سالف الأيام ذات نثار
وله من الزفرات نفخ صواعقٍ وله من العبرات لجج بحار
كذبالة القنديل قدر هلكها ما بين ماء فى الزجاج ولار

تولى ديوان الانشاء للفائز مع الموفق ابن الخلال .

قال العماد إن القاضى الجليس مات سنة إحدى وستين وخمسمائة وقد نيف على سبعين قال ابن شاکر . وكان القاضى الجليس ابن الجباب كبير الأنف ، وكان الخطيب بو القاسم هبة الله بن البدر العريف بابن الصياد مولعاً بأنفه وهجائه . وذكر أنفه فى أكثر من ألف مقطوع . فانتص له — للجليس — أبو الفتح ابن قادوس الشاعر فقال :

يامن يعيب أنوفنا الشُّمّ. التي ليست تعاب
الأنف خلقاً ربنا وقرونك الشُّمّ الحسب

ويروى العماد وابن شاعر له مقطعات من الشعر ومنها قوله :

حياً بتفاحية غَضْبَةٍ من شَفْنِي حُبِّهِ وتيمنى
لقلك ما ان رأيت مشبهها فاحرّ من خجلة فكذبني

ومنه (١)

وأصل بليتي من قد غزالي من السُّقْم الملح بعسكريين

وشعره عامة كشعر غيره من الكتاب من طبقة ومن معاصريه .

وإن لم يصلنا شيء من كتابته حتى نقارن بين نظمه ونثره لتعرف كيف كانا فرسَى
رهان . وجدير بالتنويه أن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يهتمون بالكتابة والنظم ، وكانت
كتاباتهم تحفل بكثير من منظومهم على ما شاهدنا في الفصول السابقة . ولعل ذلك النمط
الذى تفشى في كتابات العصر كان ظاهرة واضحة عمّت وغلبت .

(١) من أبيات في دم ضبب — ح ٢٢٣، ٢

الرقيق القيروانى (توفى فى حدود ٤٣٥ هـ)^(١)

والرقيق لقب اشتهر به كما عرف بالنديم ، وهو أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم . ترجم له ابن رشيق فى كتاب الأتمودج بين شعراء القيروان وقال عنه : « شاعر سهل الكلام ، لطيف الطبع . غلب عليه اسم الكتابة ، وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس » .

وتثقف كغيره من أبناء عصره من علماء المسلمين والعرب فحفظ القرآن ، وكثيرا من الشعر ، واطلع على الآداب العربية ، وما صنف من الكتب فيها ، وتعلم الأنساب والأيام وعلوم الدين والفقه وعلوم اللغة والعلوم العقلية .

وربما ألم كذلك ببعض الثقافات غير العربية ، وعرف لغات غير العربية كاللغة اليونانية لغة الروم البيزنطيين ، والتي كان يتقنها بعض العلماء والأدباء وكتاب الدولة ورؤسائها بحكم صلاتهم وعلاقاتهم بالروم .

واستهل عمله بالاشتغال فى ديوان الرسائل بالقيروان فى بلاط أمراء الصنهاجيين أيام تبعيتهم للدولة الفاطمية بالقاهرة ، فعاصر من بنى زهير المصور بن باديس ، والمعز بن باديس ، ولعله أمضى فى ديوانهم ما يقرب من عشرين عاماً .

وجاء فى مقدمة « تاريخ الفريقية »

« ولا شك أن اشتغاله بديوان الرسائل مدة نيف وعشرين سنة كان له تأثير فيما وصلنا عنه من التصانيف الكثيرة فى فنون مختلفة »

وكان لاشتغاله بالكتابة فى قصر الصنهاجيين بالقيروان أثره فى إلمامه بكثير من وثائق الدولة ، كما أنه كان قريباً من مصادر الأحداث ، مما جعل ما دونه فى تاريخه موضع الثقة ، بل إن كثيراً مما أورده لا نجده فى غيره من مصادر أخرى مما دفع المؤرخين الذين جاءوا من بعده إلى الاعتماد عليه والنقل عنه .

وقد أوفده باديس فى سفارة إلى القاهرة سنة ٣٨٨ هـ لتهنئة الخليفة الحاكم بأمر الله متولى الخلافة ، وقد اصطحب معه هدية جلييلة وانشد قصيدة بين يديه يذكر ولاء ابن باديس وهى

(١) راجع ترجمته فى فوات العلماء نشر شامير ٤١/١

قصيدة جيدة يقول فيها :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه بدا آخر من جانب الأفق يطلُع
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً كما قرَّ عيناً ظاعن حين يرجع

ويقول :

هدية مأمون السريرة ناصح أمين إذا خان الأمين المضيئُ
وما مثل باديسر ظهير خلافة إذا اختير يوماً للظهير موضعُ
فصير لها من دولة حمية إذا ناب خطب أو تفاقم منقطع
حسام أمير المؤمنين وسهمه وسم زعاف في أعاديه منقح

ومعروف أن الصنهاجيين كانوا نواب الفاطميين على أفريقيا يحكمون بتفويض منهم ، ويخطبون لهم ويدعون لهم بالولاء حتى عهد المعز بن باديس الذي مال إلى قطع خطبتهم في عهد الخليفة المستنصر والوزير اليازوري .

وظل الرقيق في رحلته إلى مصر والقاهرة ردحاً من الزمن يرتاد بعض أماكنها ومنازلها ، وكان طبعاً أن يتنزه الرقيق فرصة وجوده بعاصمة الفاطميين ، بما تزخر به آنذاك من صور الحضارة والرعاية ، لينهل من ملاحيقها ومنازلها ، ويشبع نهمه إلى اللذات ، فيقضي مع شلة ممن أنس إليهم من رفاق وقته في مجالس أنس وشراب ، ومتعة سماع وطعام ، ليلاً حاسة السمع والبصر والبطن . وأرتاد بمصر ما ارتاد من منازلنا إلى بعضها كدير القصير بالقرب من القسطنطينية ، وكان مشهوراً يقصده عليه القوم للفرجة .

وسجل الرقيق تلك الأيام بما عمله من ذكر جميلة في أبيات له مطبوعة بعاطفة الشوق فقال :

هل الريح إن سارت مُشْرِقة تُسرى تسوذي تحياني إلى ساكني مصر
فما خطرت إلا بكيتُ صبايةً وخمئتُها ما ضاق عن حمله صدى
تراثي إذا هُبْتُ قبلاً بتشرهم شممتُ نسيم البسنتك من ذلك التشر
وما أنس من شيء خلا العهد دونه فليس بخال من ضميري ولا فكري
ليالي أنساها على غرة الصبا فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر
لعمري لئن كانت قبضاراً أعدها فلسْتُ بمعتمد سراها من العفر

أخادعُ دهرى أن يعودَ بفرصةٍ فينقدُ روحَ الوصلِ من راحةِ الهجرِ
وترجعُ أيامُ خلثٍ بمغاهِدٍ من اللهو لا تنفكُ منى على ذكرِ
فكم لى بالأهرام أو دير نيةٍ مصائدُ غزلانِ المكابدِ والقفرِ
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت جزيرئُها ذاتُ المواخيرِ والجسرِ
وبالمقصر والبستانِ للعينِ منظرٌ أنيقٌ إلى شاطئِ الخليجِ إلى القصرِ
وفى مسرىقوسٍ مسترادٌ وملعبٌ إلى ديرٍ مرحئاً إلى ساحلِ البحرِ
وكم بين بستانِ الأميرِ وقصرِهِ إلى البركةِ الزهراءِ من زهرِ نضْرِ
تراها كمرآةٍ بدتْ فى رُفارفِ من السُّنْدُسِ الموشى يُنثرُ للتَجَرِ
وكم بثٌ فى ديرِ القصيرِ مواصلاً نهارى بليلى لا أفيقُ من السُّكرِ
ثبأدْرِى بالراجِ بكُرْ غيرةً إذ هتفِ الناقوسُ فى غُرَّةِ الفَجْرِ
مسيحةً خوطبةً كلما انتثت تشكَّتْ أذى الزَّئارِ من دَقَّةِ الحَصْرِ
وكم ليلةً لى بالقرافةِ خلَّتها لما نلتُ من لَدَائِها ليلةَ القدرِ
سقى الله صوبَ القصرِ تلكَ مغنياً وإن غنيثَ بالتَّيلِ عن سبَلِ القطرِ

وتشهد هذه القصيدة على ما نعته ابن رشيق بقوله : « شاعرٌ سهلُ الكلام ، محكمه لطيف الطبع قويّه » ، ونوه عن أسلوبه الشعرى بقوله : « تلوُّحُ الكتابة على ألفاظه » . وللرقيق من كتب الأدب التى وصلنا ذكرها ، وعرفنا مختاره كتاب « قطب السرور فى أوصاف الأنبذة والخمور » . قال عنه ابن شاعر : الذى فضح العالمين فيه . وعندى منه نسخة .

ولعله يقصد بفضح العالمين ذكره أخبار من كانوا يشربون الأنبذة والخمور من الخلفاء ، وقادة المسلمين ، وما عرضه من ملاميتهم ، وصور متعتهم^(١) .

وترك ابن الرقيق عدة مؤلفات منها :

١ — كتاب تاريخ أفريقية والمغرب ويقع فى عدة مجلدات لا يُعلم حصرها يتناول فيه تاريخ أفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامى وحتى القرن الخامس . وينقل عنه جماعة منهم ابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون^(٢) . وابن فضل الله العمرى ... وغيرهم .

(١) سبق أن عرضنا نموذجاً من ... الكتاب . والكتاب تمامه نشره الجمع العلمى بدمشق .

(٢) لم يصلنا من هذا الكتاب سوى قطعة صغيرة قام بنشرها نوبس المجبى التمسى .

- ٢ — كتاب النساء . وقيل إنه كبير الحجم .
- ٣ — كتاب الراح والارتياح .
- ٤ — كتاب قطب السرور في الانبذة والخمور^(١) .
- ٥ — كتاب نظم السلوك في مسامرة الملوك في أربع مجلدات .

(١) نشر مختار له بنوس ، وتحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بسبعة مخطوطات منه وتم نشر مجموع دمشق .

التجيبى
اسماعيل بن أحمد بن زبادة البرقى
(من رجال القرن الخامس)

من أهل القيروان وسكن بالمهدية ، ويكنى أبا طاهر ، أخذ عن أبى إسحاق ابراهيم الحصرى نألفه .

ذكر ابن الأبار أنه سمع من أبى القاسم سعيد بن أبى مخلد الأزدى العثماني وأبى القاسم عمار بن محمد الاسكندراني ، وأبى الحسن على بن حبيش الشيباني الأديب . وروى عن أبى يعقوب النجيمى أدب الكاتب لابن قتيبة .

وكان عالماً بالآداب مستبحراً شاعراً ، مجوداً من أهل التأليف والتصنيف مع جودة الضبط ، وبراعة الخط . دخل الأندلس بعد الأربعمائة ، ثم صار إلى مصر ، وكان بها في سنة خمس عشرة وأربعمائة زمن الظاهر ابن الحاكم وكان قد وفد إليها من الأندلس . وذكر ابن الأبار أنه جاء في كتابه « الرائق بأزهار الخدائق » أنه كان بمالقة من الأندلس سنة ست وأربعمائة .

وجاء من الأندلس إلى مصر فنزل بالاسكندرية ، ومكث بها زمناً حدث عن بعض علمائها وأدبائها . وكان قد قصد لها في طريق رحلته للحج كغيره من الأندلسيين والمغاربة . ربما تردد على مصر أكثر من مرة ، ولعله بقى بها زمناً . فقد ذكر ابن الأبار أنه قد حدث عنه أبو مروان الطنبى وقد لقيه بالاسكندرية في رحلته لأداء الفريضة « وكان وقوفه في موسم سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة (٤٣٨ هـ) زمن المستنصر الفاطمى .

ورافقه في رحلته إلى الاسكندرية أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى ثم الغوثى وعاد معه إلى المهدية سنة ٤١٥ هـ . ويبدو أنه غادر مصر في زورته الأولى سنة ٤١٥ ، لأنه ذكر ممن أنشده بمصر سنة ٤١٥ أبا الحسن البصرى الشريف العباسى .

ولما عاد إلى مصر مرة ثانية في موسم ٤٣٨ هـ أو قبلها غادرها إلى صقلية حيث التقى هناك ببعض شعرائها كأبى الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية حينئذ . وأنشده كثيراً من شعره .

وحياة التجيبى حافلة ، ورحلاته كثيرة ، وعلاقاته بأدباء العصر من رجال القيروان أمثال عبد الكريم النهشلى وابن رشيق وابن شرف ، وبعض أدباء القيروان محتملة ، فقد ذكر هو عبد الكريم ، كما أن ابن رشيق ذكره في أنموذجه بين شعراء القيروان في عصره .
وللتجيبى عدة مؤلفات . منها :

١ — كتاب الرائق بازهار الخدائق ذكره ابن الأبار

٢ — وشرح المختار من شعر بشار^(١) .

ونذكر نموذجاً من شرحه لشعر بشار في تعليق له على أبيات للمتنبى .

قال المتنبى في وصف جيش :

وربّ جواب عن كتاب بعثته وعنوانه للناظرين قُتَامُ
تضيّق به اليباء من قبل نشره وما فضّ باليباء عنه خُتَامُ
حروف هجاء الناس فيه ثلاثة جِوَادُ ورمح ذابل وخُسَامُ

قال التجيبى^(٢) :

« ولما جعل المتنبى الجيش جواباً عن الكتاب استعار له ، ما يكون للكتاب من العنوان والحروف والختام والنشر ، فجعل عنوانه القتام ، لأن القتام يدل على الجيش كما يدل العنوان على الكتاب ممن هو ، وإلى من هو ، وجعل اليباء تضيّق به ، وهو مجتمع ملموم كاجتماع الكتاب في حال طيه لكبره وعظمه وقوله قبل نشره ، فنشره تفرقه وإغارته ، وانبثاث فرسانه . وجعل حروفه الخيل والرماح والسيوف . فأعطى الاستعارة قسطها ، ووفى الصنعة حقها » .

وقال تعليقا على قول الشاعر^(٣) :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلّت القصد أم ليث على فلك
عادت سواريه وقفاً لا جراك بها كأنسها جُثث صرعى بمعترك

وعلى ذكر هذا الشعر الكافي فقد كنتُ بمدينة مائقة من بلاد الأندلس سنة ست

(١) ضيع الكتاب منية السيد محمد بدر الدين المنبى تصمة نحو اثنتي عشرة مائة ١٩٣٤

(٢) شرح المختار ص ٥ .

(٣) شرح المختار ص ١٤ .

أربعمائة ، فاعتللتُ بها مديدةً انقطعتُ منها عن التصرف ، ولزمت المنزل . وكان يَرْضُنِي حينئذٍ رفيقان كانا معي يَلْمَانِ من شعبي ، ويرفقان بي ، وكنتُ إذا جئني الليلُ اشتد سهرى ، وخفقت حولي أوتار العידان والطناير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصواتُ بالغناء ، فكان ذلك شديداً عليّ وزائداً في قلقي وتألّمي ، فكانت نفسي تعاف تلك الضروب طبعاً ، وتكره تلك الأصوات حيلةً ، وأودّ لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك . ويتعذّر عليّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية ، وكثرته عندهم وإنني لساهرٌ ليلةً بعد إغفاءة في أول ليلتي وقد سكنت تلك الألفاظ المكروهة وهدأت تلك الضروب المضطربة ، وإذا ضربتُ خفيّ معتدلاً حسنً . لا أسمع غيره ، فكانت نفسي أُنِسْتُ به ، وسكنت إليه ، ولم تنفر منه نفارها من غيره . ولم أسمع معه صوتاً . وجعل الضربُ يرتفع شيئاً فشيئاً ، ونفسي تتبعه ، وسمعي يُصغِي إليه إلى أن بلغ في الارتفاع إلى مالا غاية وراءه ، فارتحنتُ له ، ونسيْتُ الألم ، وتداخلى سرورٌ وطرب ، خيلَ إليّ أن أرض المنزل ارتفعت بي ، وأن حيطانه تمور حولي . وأنا في كل ذلك لا أسمع صوتاً . فقلتُ في نفسي : أما هذا الضربُ فلا زيادة عليه ، فليت شعري كيف صوتُ الضارب ، وأين يقع من ضربه . ولم ألبث أن اندفعت جاريةٌ تَغْتِي في هذا الشعر بصوتٍ أُنْدَى من النور غِبُّ القطار . وأحلى من البارِدِ العذبِ على كبدِ الهائمِ الصبِّ فلم أملك نفسي أن قمْتُ ورفيقتي نائمان ، ففتحتُ البابَ وتبعْتُ الصوتَ ، وكان قريباً مني فاطلعتُ من وسط منزلي على دارٍ فسيحةٍ ، وفي وسط الدار بستانٌ كبير ، وفي وسط البستانِ نحو من عشرين رجلاً قد اصطَفَوْا وبين أيديهم شرابٌ وفاكهةٌ وجوارٍ قيام « بعيْدان وطناير وآلات لهُ ، ومزامير لا يحرّكُها ، والجاريةُ جالسةٌ ناحيةً ، وعمودها في حجرها ، وكلُّ يرمقها بعصره ويوعها سمعه ، وهي تغني وتضربُ ، وأنا قائمٌ بحيث أراهم ولا يروني . وكلّما غنت بيتاً حفظتهُ ، إلى أن غنت عدة أبيات وقطعتُ . فعدتُ إلى موضعي يشهد الله وكأنما أُثْثِطْتُ من عقال ، وكأنّ لم يكن بي ألم . وقد وعيتُ الأبيات وهي :

ما بال أنجم هذا الليل حائرةً	أضلّْتُ القصد أم ليست على فلّك
عادت سَوَارِيهِ وقفاً لا خَرَاك بها	كأنما جُثْتُ صرعى بمُعْتَرِك
ما تنقضي ساعةٌ منه فطِيعني	به ، ولا هو في وجهي يُمنّسلك
هل من بشرٍ بنور الصبح تُثَقِّلني	بُشْرَاهُ من طول وجهه غير مُتْرِك
فقد أجدّ التواءَ اللين لي شسجنا	وأضجعتني تبارخي على الخسك

وللتجيب شعراً منه قوله : في ثقل مر به (١) :

قالوا تفاضيت عنا إذ مرزث بنا أم أنت ذو مقلة إغضاضها خلث
قلت اكتمالي بكم في مقلي رمذ إن الثقل قذى تشقى به الخلق
لا أمتح الطرف إلا من أسر به ولا أرى بسوى ذى الفضل أعظم

وله في صديق تخلف عن وعده . وكتب بها إليه :

أبا حسن عيش وابق واسم ولا يزل محلث مرقوعاً إلى السبعة الشهب
علام ، ولیم الخلف للوعد بعدما وفيت لمص في مودتكم صب
تناقلت عنه بعد علمك أنه إليك فقير في مقابلة الكتب
وقد جدت بالإحسان بدءاً ولم تعد فرخت وقد عرضت عرخت للعقب
فلو لم تجد يمينك بالفرس سالفاً لأرضى لم أطلب سحابك بالرب

وكان قد ذهب وهو بمصر إلى جهة أوسيم قرب الجزيرة — بينها وبين الفيوم ، فرأى هناك من نور الأقحوان ما لم ير مثله قط في النضارة . وإشراق أصفه وفقوعه في صفاء أبيضه ونصوعه فقال :

كان الأقحوان وقد تبدت محاسنه فراقث كل عين
عماد زرجد وقباب تبر تحف بها شرافات اللجين

ومن شعره قوله (٢) :

وغيداء كالبدري المنير تطلعت أو الشمس بل أبهى من الشمس البدر
تراءت وأومت بالسلام وقبلت بناناً وألقت بالبنان على الصدر
لكادت لها نفس تراجع غيها وعبك أسرار الصيانة والسحر
فتنهتها قسراً وقلت لها اذكرى غمودك بالبيداء في حالة القر
وقد شارفت حمانى في شرف الردى وظئت ظنوني أنها آخر العمر
وقال رفيقي لا تخف ودموعه على الخد من جرأ مخالفة تجري
فحين كفأك الله ما تحدرينه ونجأك منه مهنين إلى العدر

(١) شرح مختار ص ٨٣

(٢) المختار ص ١٧٨

عَدِمْتُ إِذْنُ لُبِّي ، وَبَانَتْ مَرُوءَتِي وَأَسْخَطْتُ أَضْيَافِي وَبَسْتُ عَلَى غَمْرِي
لَيْسَ التَّظَنُّي مَا تَظَنَّنْتَ فَأَيَّاسِي وَبَوْنُ بَكْفٍ مِنْ مَسَاعِدَتِي صِفَرِي
قال : وَأَعَدُّهُ أَيْضاً عِنْدَ عَذْلٍ نَالَتْنِي مِمَّنْ جَهْلُ حَقِيقَةِ أَمْرِي ، وَخَفَى عَنْهُ مَكْنُونُ سِرِّي .
لَوْ تَكَسَّبْتُ بِالْأَدَبِ ، وَلَقِيتُ الْمُلُوكَ لَنَلْتُ كُلَّ أَرَبٍ ، وَبَلَغْتَ مِنَ الدُّنْيَا أَعْلَى الرَّتَبِ .
فَقُلْتُ :

إِلَى كَمْ أَقْرَبُ النَّفْسَ فِي الْمَرْتَجِ الْمَخِيلِ وَأَقْنَعُ مِنْ حَدِّ الْمَكَاسِبِ بِالْمُزِيلِ
أَكْلَفُ أَقْلَامِي مَدًى مَتَاجِلًا وَلَمْ أَعْتَمِلْ مُهَرِّي وَرَمَجِي وَلَا نَصْلِي
وَمِنْ كَلَفِ الْأَقْلَامِ لَا الْيَضَ هَمَّهُ أَقْنَنَ بِهِ بَيْنَ الْمَذَلَّةِ وَالْقَبْلِ
وَقَائِلَةٍ فَارِقُ سَكُونِكَ وَاضْطَرَبَ فَمَا الرِّزْقُ إِلَّا بِالْتَرَحُّلِ وَالْخَلِّ
عَلَامٌ تَجَشَّمْتُ الْمَشَقَّةَ طَالِبًا عَلَوْهُ ذَوَى الْآدَابِ فِي الْحَزَنِ السَّهْلِ
وَلَمْ تَلَقْ مُلْكًا يَغْمُرُ النَّاسَ فَضْلُهُ وَلَا سَوْقَةً يَشْرِي الْحَامِدُ بِالْبَذْلِ
إِذَا لَمْ تَقُلْ بِالْعِلْمِ مَالًا وَلَا غُلًّا وَلَا جَانِبًا مِ الْأَنْجَرِ فَالْعِلْمُ كَالْجَهْلِ
فَقُلْتُ هَا مَنِيَّتْ نَفْسُكَ ضَلَّةً وَعِلَّةً مَا ضَيَّعَهَا قَلْبُ الْعَقْلِ
إِلَيْكَ فَمَا سَمِعِي بِمَصِغٍ إِلَى الَّذِي تَقُولِيهِ فَأَقْنَنِي مِنْ حَيَايِكَ يَا تَمَلِّ^(١)
أَمِطْلِي يَغِي الرِّزْقُ مِنْ غَيْرِ رَبِّهِ وَذُو الْعَرْشِ رَزَاقُ الرِّزْقِ وَاسِعُ الْفَضْلِ
إِذْنُ لَا سَعَتَ لِي فِي الْهِجَاجِ طَمَرَةٌ وَأَسْخَطْتُ أَضْيَافِي وَغَثَّ عَلَى التَّيْلِ
جَرِيثٌ عَلَى آثَارِ أَسْرَقِ الْأَوَّلَى شَاؤُوا فِي مَدَى الْعِلْيَاءِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ
وَلَا غَيْرَ لِي فَرَجٍ إِذَا طَابَ أَصْلُهُ وَلَمْ يَكْ ذَا طَيْبٍ يَذُلُّ عَلَى الْأَصْلِ

* * * *

(١) تَمَلِّ مَرْجَعُ «تَمَلَّتْ» نِسْبَةُ امْرَأَةٍ

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١ — اتعاض الحنفا بأخبار الخلفاء/ للمقرئى
- ٢ — الإبانة عن سرقات المتنبي/ حققه وقدم له وشرحه إبراهيم الدسوقي البساطى ، ونشر ضمن مجموعة الذخائر (٣١) بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ م .
- ٣ — أخبار مصر/ للمسبحى تحقيق وليم ج ميلورد — طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .
- ٤ — أخبار مصر فى سنتين/ للمحاسبى — طبع المجمع العلمى .
- ٥ — أدب الخواص للوزير المغربى/ تحقيق الشيخ محمد الجاسر — طبع الرياض سنة ١٩٨٠ م .
- ٦ — الإشارة إلى من نال الوزارة — للصيرفى .
- ٧ — الاعتبار/ تحقيق فيليب حتى طبع ليدن سنة ١٨٨٤ م ، برنستون سنة ١٨٨٦ ، ١٩٣٠ بالولايات المتحدة الأمريكية .
- ٨ — أعيان الشيعة .
- ٩ — الأفضليات تحقيق الدكتور/ وليد قصاب ، الدكتور/ عبد العزيز المانع — طبع دمشق (مطبوعات مجمع اللغة العربية سنة ١٩٨٧ م ، سنة ١٩٨٢ م) .
- ١٠ — الإيناس بعلم الأنساب تحقيق إبراهيم الإييارى وطبع ونشر دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى بالقاهرة ١٩٨٠ م .
- ١١ — بدائع البدائة لعلى بن ظافر الأزدى — تحقيق/ أبى الفضل إبراهيم .
- ١٢ — البيان والإعراب للمقرئى دراسة د. عبد المجيد عابدين — طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ١٣ — تاريخ أفريقيا والمغرب للريقى القيروانى تحقيق المنجى الكعبى نشر تونس .
- ١٤ — تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن — طبع مكتبة النهضة سنة ١٩٧٢ م .

- ١٥- تاريخ الفاروق (أحمد بن يوسف بن على) تحقيق الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض - طبع دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٤ م .
- ١٦- تاريخ المسيحي طبعة الورد تحقيق د. حسين نصار .
- ١٧- تاريخ الموسيقى العربية د. ج. فارمر ترجمة د. حسين نصار من سلسلة ألف كتاب رقم (٧) - طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٥٦ م .
- ١٨- التصوير عند العرب زكى محمد حسن ١٩٤٢ ك .
- ١٩- تعريف القدماء بأبى العلاء - جمع وتحقيق د. مصطفى السقا وبعض الأساتذة - طبع الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٤٤ .
- ٢٠- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى تحقيق/أبى الفضل إبراهيم ط. المطبعة الوهاية ١٣٠٠ هـ .
- ٢١- حسن المحاضرة للسيوطى (جلال الدين) مطبعة الكتبي القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ٢٢- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع - آدم ميتز ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريذة .
- ٢٣- حياة القيروان د. ياغى - طبع المكتبة الإسلامية بدمشق .
- ٢٤- خريدة القصر وجريدة أهل العصر للعماد الأصفهاني - طبع مصر (القسم الرابع - شعراء المغرب) .
- ٢٥- تحقيق عمر الدسوقي ب. على عبد العظيم - طبع دار نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٤ م .
- ٢٦- خزانة الأدب لابن حجة الحموى طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .
- ٢٧- الخطط المقرئية (المواعظ والاعبار بذكر الخطط والآثار) لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقرئى - مكتبة المثنى - بغداد .
- ٢٨- دعائم الإسلام للقاضى النعمان تحقيق آصفى فيضى نشر دار المعارف بمصر .
- ٣٠- الديارات للشابشتى - طبع دار الكتاب بمصر .
- ٣١- ديوان تميم بن المعز - طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .
- ٣٢- ديوان طلائع بن رزيك جمع/محمد هادى الأمينى - طبع المكتبة الأهلية بالنجف ١٩٦٤ م .
- ٣٣- ديوان ظافر الحداد تحقيق/د. حسين نصار - طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٦٩ م .

- ٣٤ — الذخيرة لابن بسام تحقيق د. إحسان عباس — طبع دار الثقافة — بيروت .
- ٣٥ — الرسالة المصرية — أمية بن أبى الصلت — تحقيق عبد السلام هارون ج ١ (من نواذر المخطوطات) .
- ٣٦ — رسائل أبى العلاء — طبع اكسفورد .
- ٣٧ — رسالة الغفران تحقيق د. عائشة عبد الرحمن — ذخائر العرب رقم (٤) دار المعارف ١٩٧٧ م .
- ٣٨ — الروضتين لأبى شامة المقدسى — مطبعة وادى النيل القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٣٩ — رياض النفوس للمالكي .
- ٤٠ — زهر الآداب تحقيق زكى مبارك لأبى إسحق إبراهيم الحصرى القيروانى .
- ٤١ — سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى — طبع دار الكتب العلمية — بيروت .
- ٤٢ — سقرنامة لناصر خسرو .
- ٤٣ — سيرة المؤيد داعى الدعاة تحقيق محمد كامل حسين دار الكتاب المصرى ١٩٤٩
- ٤٤ — شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد — طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ .
- ٤٥ — شرح المختار من شعر بشار للتجيبى — طبع لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٢٤ م .
- ٤٦ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الهيئة العامة .
- ٤٧ — الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد لكمال الدين الأدفوى — تحقيق ومراجعة سعد محمد حسن ، د. طه الحاجرى طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
- ٤٨ — ظهر الإسلام أحمد أمين — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٥٠ — العقد الفريد لابن عبد ربه — طبع درار الكتب المصرية بالقاهرة .
- ٥١ — عنوان المطربات المرقصات لنور الدين على .
- ٥٢ — عيون الأخبار تأليف الداعى المطلق إدريس عماد الدين تحقيق د. مصطفى غالب — طبع دار الأندلس — بيروت .
- ٥٣ — الفن الإسلامى لأرنست كونل — ترجمة د. أحمد موسى — طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .

- ٥٤ — فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی جزءان تحقیق محی الدین عبد الحمید .
- ٥٥ — فی أدب مصر الفاطمية للدكتور/محمد کامل حسین من سلسلة ألف کتاب — طبع وزارة الثقافة المصرية .
- ٥٦ — قانون دیوان الرسائل لعلی بن منجب الصیرفی تحقیق علی بهجت بمصر ١٩٠٥ م .
- ٥٧ — القاهرة مدينة ألف ليلة طبع هیئة الکتاب بالقاهرة .
- ٥٨ — قطب السرور فی أوصاف الأنبذة والخمور للرقیق القيروانی — طبع المجمع اللغوی بدمشق .
- ٥٩ — کتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ نشر المكتب الإسلامی للطباعة والنشر بیروت — دمشق ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م .
- ٦٠ — المؤلف والمختلف لأبی جعفر محمد بن حبيب — طبع أوروبا بعنوان (المختلف والمؤتلف فی أسماء القبائل) .
- ٦١ — المؤنس فی أخبار تونس .
- ٦٢ — المجالس المؤيدية (المائة الأولى) تحقیق وتقديم د. مصطفى غالب — طبع دار الأندلس بیروت ١٩٧٤ م .
- ٦٣ — المجالس والمسایرات للقاضي النعمان .
- ٦٤ — مجالس الإسلام — ترجمة عادل زعیر .
- ٦٥ — مجمل تاریخ الأدب التونسي لحسن حسنی عبد الوهاب — طبع مكتبة المنار بتونس .
- ٦٦ — مجموعة الوثائق الفاطمية للدكتور الشیال .
- ٦٧ — المختار من قطب السرور للرقیق تحقیق عبد الحفیظ منصور طبع مؤسسات عبد الکریم بن عبد الله — تونس ١٩٧٦ م .
- ٦٨ — المختصر فی أخبار البشر لأبی الفداء — طبع القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٦٩ — مصادر الموسيقى العربية ترجمة د. حسین نصار .
- ٧٠ — معجم الأدباء لیاقوت الحموی — طبع هندية ١٩٠٧ ، ١٩٢٧ م .
- ٧١ — المغرب لابن سعید المغربي تحقیق د. زکی محمد حسن ود. شوقي ضیف ود. سید الکاشف جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م .

- ٧٢ — مقدمة قانون الرسائل للصير في كتبها على بك جهجت الأثرى ونشر ١٩٠٥ م .
- ٧٣ — مناهج الفكر ومناهج العبر للوطواط تحقيق/عبد العال عبد المنعم الشامي — طبع الكويت ١٩٨١ م .
- ٧٤ — مواد البيان لعلی بن خلف — طبع الجامعة الليبية بطرابلس .
- ٧٥ — النجوم الزاهرة في حلی حضرة القاهرة لابن تغری بردی تحقيق د. حسين نصار — طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ م .
- ٧٦ — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .
- ٧٧ — نفخ الطيب للمقرى تحقيق إحسان عباس — طبعة صادر بيروت ١٩٦٨ م .
- ٧٨ — النكت العصرية في الوزارة المصرية لعمارة الجنى .
- ٧٩ — نكت الهميان ونكت العميان لصلاح الدين الصفدى — طبع أحمد زكى باشا بالقاهرة .
- ٨٠ — نهج البلاغة لعلی بن أبی طالب شرح محمد عبده تحقيق وتعليق محمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا — مطبوعات دار الشعب .
- ٨١ — الوافى بالوفيات للصفدى — طبع المعهد الألماني .
- ٨٢ — ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا لحسن حسنى عبد الوهاب طبع تونس .
- ٨٣ — الوزير المغربي تأليف إحسان عباس طبع دار الشروق بعمان — الأردن ١٩٨٨ م .
- ٨٤ — وفيان الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس طبع بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد	٧
الباب الأول	
الحالة السياسية	١٧
— المعز وفتح مصر	٢٦
— العزيز بالله نزار	٢٨
— الحاكم بأمر الله المنصور بن نزار	٣١
— المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر	٣٨
— المستعلى	٤٠
— الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد	٤٤
— الظاهر بأمر الله	٤٧
— العاضد لدين الله	٤٨
رسوم الخلافة	٤٩
وزراء الفاطميين :	٥٤
١ — يعقوب بن كلس	٥٤
٢ — اليازورى (أبو محمد الحسن بن على)	٥٦
٣ — بدر الجمالى	٥٨
٤ — الأفضل بن بدر الجمالى	٦٠
٥ — طلائع بن رزيك	٦٣
جند الخلافة :	٦٦
— حال الأسطول	٦٨
— أحوال الدولة فى شمال أفريقيا	٧٠
— أحوال الشام والمشرق العربى	٧٤
— بين الفاطميين والحملانيين	٨٠

٨٢	— بين الفاطميين والسلاجقة
٨٤	— بين الروم والبيزنطيين
٨٦	— الفاطميون والصليبيون

الباب الثاني

٨٩	الحياة الاجتماعية
	الاسكندرية ١٠٥ دمياط ١٠٨ تنيس ١١٥٩
١١٣	• الصعيد وأهم بلاده :
	مدينة أسيوط ١١٤ مدينة قوص ١١٥
	أسوان ١١٨ القسوط ١٢٠
	القاهرة ١٣٠
١٣٦	• مظاهر الترف في الأعياد والاحتفالات
١٤٩	• حياة عامة الناس في معاشهم
١٥١	• الحياة الدينية والسلوك الدينى
١٥٦	• موقف الفاطميين من أهل الذمة « اليهود والنصارى »

الباب الثالث

١٥٩	الحياة العقلية والفنية
	الآثار العلمية :
١٦٣	١ — الجامع الأزهر
١٦٣	٢ — المكتبة الكبرى بالقصر
١٦٥	الدعوة الفاطمية والتحول الفكرى :
١٧٤	— الوزير بن كلس وجهوده فى مختلف مجالات العلم
١٧٧	— داعى الدعاة شمس الدين الشيرازى
١٩٥	— المجالس المؤيدية
٢٠٠	العلوم العقلية والطبيعية :
٢٠٢	— علم التاريخ
٢٠٧	— علماء اللغة والأدب
	الفنون :
٢١٠	— العمارة والزخارف المعمارية

- ٢١٢ — النسيج والملبوسات .
٢١٦ — الموسيقى والغناء .

الباب الرابع

النشر الكتابة والكتاب

- (١) فنون النشر :
أ — الخطابة ٢٢٤
ب — الكتابة : ٢٢٢
١ — السجلات ٢٣٢
٢ — الرسائل ٢٣٦
(٢) الرسائل الموضوعية : ٢٥٨
أ — رسالة الغفران ٢٥٩
مشاهد الجنة وجولة ابن القارح (٢٦٣) جولته في الجحيم ٢٦٨
ب — الرسالة المصرية لابن أبي الصلت ٢٨٢
(٣) السِّير : ٢٩٥
أ — سيرة جوذر الصقل ٢٩٥
ب — سيرة المؤيد داعي الدعاة ٢٩٧
ج — الاعتبار ٢٩٩
(٤) الكتب الأدبية : ٣٠١
أ — الأفضليات لعل بن منجب الصيرفي ٣٠١
ب — لُمنح المُلح ٣٠٩
ج — زهر الآداب لأبي إسحاق الحصري القيرواني ت (٤١٣ هـ) ٣١٦
د — لباب الآداب لأسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) ٣١٨
هـ — الديارات للشابشتي ٣٢٧
و — قطب السرور في أوصاف الأنبياء والغمور ٣٢٨
ز — كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ٣٣٧
(٥) مؤلفات الكتابة والإنشاء : ٣٥١
١ — مواد البيان لعل بن خلف ٣٥١
أقسام الكتاب ٣٤٨ تعريف صناعة الكتابة ٣٥٠ ٣٥٢

٣٥٧	فصل من فضائلها من كتاب الله
٣٥٨	فصل من فضائلها من أهلها وأربابها
٣٦٢	القول في القسمة ٣٥٨ الباب الثاني في البلاغة وأقسامها
٣٨٠	٢ — قانون ديوان الرسائل لعلى بن منجب الصيرى
٣٨١	فصل في غرض الكتاب ٣٧٧ فصل في أحوال رئيس الديوان
٣٨٦	٣ — سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .
٣٩٢	الكلام في الفصاحة ٣٨٨

الباب الخامس

مشاهير الكتاب والأدباء

٤٠٣	١ — الوزير المغربي (أبو القاسم الحسين بن على ٤١٨ هـ)
٤٢٥	كتابات ابن المغربي ومؤلفاته
٤٣١	رسائله
٤٤٢	٢ — ابن خيران (أبو محمد أحمد بن على ولي الدولة)
٤٥١	٣ — العميدى (أبو سعد محمد بن أحمد ت ٤٤٣ هـ)
٤٥٢	نموذج من كتابته
٤٥٧	٤ — على بن خلف (أبو سعد)
٤٥٨	٥ — ابن ألى الشخباء (الحسن بن عبد الصمد ت ٤٨٦)
٤٧٣	٦ — ابن الصيرى (أبو القاسم على بن سليمان بن منجب ت ٥٤٢ هـ)
٤٧٧	نماذج من كتاباته ٤٧٣ نسخة من السجل في وفاة المستمل ٤٠٨
٤٨٣	رسالة العفو ٤٧٧ ملح الملح ٤٧٨ مقاله في وفاء النيل ٤٨٥
٤٨٧	٧ — الأنصارى (أبو على حسن بن زيد بن اسماعيل ت ٤٢٦ هـ)
٤٩٤	٨ — ابن الخلال (موفى الدين بن العجاج يوسف الكاتب ت ٥٦٦) ..
٤٩٧	٩ — ابن قادوس (أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الدمياطى)
٤٩٨	١٠ — القاضى الجليس بن الجباب (ت ٥٦١ هـ)
٥٠١	١١ — الرقيق القيروانى (ت ٤٣٥ هـ)
٥٠٥	١٢ — التنجيسى (اسماعيل بن أحمد بن زيادة البرقى)

• فهرس المصادر والمراجع

• فهرس الموضوعات